



جامعة دمشق  
كلية الآداب



تحت رعاية

السيد رئيس الجمهورية العربية السورية

المؤثر الأدبي الثاني في تاريخ بلاد الشام

٩٢٢ هـ - ١٣٥٨ هـ

١٥١٦ م - ١٩٣٩ م

مكتبة الجامعة السورية  
١٣٥٨ هـ

الجزء الثاني



وجه الدينار :

صورة الخليفة عبد الملك بن مروان ( ٦٨٥ / ٨٦٥ م - ٧٠٥ / ٨٦٦ م )  
منتصب القامة ملتجياً مرتدياً لباساً عربياً ويده اليمنى على مقبض سيفه .  
الاطار - باتجاه عقارب الساعة من اليمين :  
بسم الله لا إله إلا الله وحده محمد رسول الله .

ظهر الدينار :

سارية فوق مصطبة من أربع درجات هي تحوير للشعار البيزنطي .  
الاطار - بسم الله ، ضرب هذا الدينار سنة ست وسبعين .

\* \* \*

الوزن : ٤,٤٨ غ

القياس : ١,٥٠ سم

مركز الوثائق والمخطوطات  
ودراسات بلاد الشام  
١٥ نيسان ٢٠١٧  
رقم التسلسل :  
رقم التصنيف :  
٠١٥٥٦٨

٩٥٦  
مؤد

الْبَيْتُ الْبَيْتُ  
التَّيْمُ الْبَيْتُ الْبَيْتُ

## الاتجاهات الحديثة في دراسة تاريخ الشرق الأوسط الحديث

الدكتور كليمنت هنري دود

( جامعة هال )

مال بعض العلماء في السنوات الاخيرة لانتقاد المستشرقين عامة وباحثي الشرق الاوسط خاصة ، مركزين على المواقف الاساسية التي يستندون عليها . وظهر هذا الانتقاد في « مجلة دراسات الشرق الاوسط » التي صدرت خلال ١٩٧٢ - ١٩٧٥ .

وقد أوحى بهذه الظاهرة على ما يبدو ، الاعتقاد بأن دراسة الشرق الاوسط قد تأثرت باعتبارات أخرى غير الاعتبار العلمية والفكرية . واني أهدف في هذه المقالة أن أنتقي بعضا من أكثر الناقدین أهمية لادحض الافتراضات التي يقوم عليها نقدهم ، وأشير على الأقل الى أصولها . واذا كانت هذه المجموعة من النقاد تبحث عن الحقيقة وراء الحقيقة ، فان مهمتي هي تشييط عزائمهم في البحث عن الحقيقة وراء الحقيقة .

وأبدأ ببضع نقاط من مقالة ل كوري<sup>(١)</sup> بعنوان : « لماذا لا يستطيعون أن يكونوا مثلنا ؟ » في هذه المقالة يتصدى كوري لما يرى من « الاعتقاد بان المجتمع الاسلامي مجتمع مغلق بالضرورة وان القوة والعنف فيه تبررهما التقاليد الدينية والسياسية ، التي يقبلها الناس خانعون ، بشكل سلبي ودون تردد . » ويتفق في هذا مع رأي أنور عبد الملك اذ يقول : « اذا أراد الاستعمار ان يطعن شعبا في الصميم ليستبد به ، فهو لا يكتفي بالاحتلال العسكري أو السيطرة الاقتصادية ، أو التأثير السياسي ، انما يهدف غالبا الى نفس وتشويه وتحطيم روحه الوطنية ، من الناحيتين العقلية والعاطفية ، حتى يصبح الشعب المستعمر عديم الشخصية . »<sup>(٢)</sup> لذا يشير كوري الى أنه من غير المدهش أن يرى ف . كانتل سميث<sup>(٣)</sup> أن الاسلام هو « بشكل خاص دين النصر والخلاص عن طريق الظفر والانجاز والقوة »<sup>(٤)</sup> بينما تهتم المسيحية على العكس بالاخلاق الشخصية والتضحية وتمتلك « قدرا من النقد الذاتي الذي انكره الاسلام » . ان احدى نتائج وجهات

قام بترجمة هذا البحث الى العربية السيدة عفاف سكر:

النظر هذه ، هي زيادة التأكيد ليس على اعتياد استعمال القوة فقط ، ولكن أيضا على الطبيعة الساكنة والتقليدية للمجتمع الاسلامي . فاذا ما تدخل العسكريون في السياسة في الشرق الاوسط ، اتجه الباحثون الغربيون لتبرير هذه التدخلات بالتأكيد على الاتوقراطية . اذ يبدو مهما بالنسبة للغرب التأكيد على « أن جميع الامم مختلف بعضها عن بعضها الاخر(٥) » وهذه كما يقال هي مهمة « علم الاجتماع الاستعماري »(٦) .

هذا النوع من الانتقاد جاهر به الدكتور ط . أسد أحد محرري « مجلة دراسات الشرق الاوسط » في مقال نشره في غير تلك المجلة قال فيه : « على الرغم من أن المستشرقين الحديثين قل ان يشتبكوا في دعاية صريحة ، واتخذوا لهجة أكثر علمانية ، فانهم مازالوا يهتمون بأن يقابلوا المجتمع والحضارة الاسلامية بمجتمعهم وحضارتهم ، ليظهروا ما ينقص هذه الحضارة . وقد اهتموا خاصة بأن يؤكدوا غياب « الليبرالية » و « الانسانية » في المجتمعات الاسلامية التقليدية ، وان يربطوا بشكل عام أسباب هذا الغياب المفترض ، بالجواهر الديني للاسلام(٧) . الا ان الباعث على ذلك لم يكن دينيا فقط ، وانما تكمن جذوره « بشكل أهم في برجوازية التقييم الاوروبي للاسلام المتخلف والمتعصب الذي يتطلب ان يحكم مباشرة من أجل خلق الامبراطورية »(٨) .

وبالتالي يصبح بإمكان هؤلاء « الحكام المستعمرين أن يحاولوا تبرير شرعية حكمهم بحجج زودهم بها المستشرقون : ومنها ان الحكم الاسلامي كان حكما جائرا على مدى التاريخ ( ومن ثم يكون الحكم الاستعماري اذا ما قورن به حكما انسانيا ) ، وان النظرية السياسية الاسلامية تسلم بشرعية حكم الامر الواقع . . وان السيطرة السياسية في الاراضي الاسلامية خارجة عن مدار الحياة الاجتماعية والدينية في الاسلام ، وذلك ( كما يحاج المستشرقون الذين يكتبون تحت تأثير دوافعهم اللاشعورية ) فان الاسلام لم يصب بضر جذري عندما تم غزوه ، مادام ان تقليده السياسي الاساسي لم يتحطم(٩) » .

ويعتقد ان الكثير من المستشرقين قد اعتنق آراء كهذه ، والامثلة عليها موجودة في كتابات ه . ر . غب ، و سنوك هوغرونج ، و ج . ي فون غرونوبوم وغيرهم . ولكن هؤلاء الباحثين البارزين اغفلوا عنصرا هاما وهو مثلا التقليد الشعبي في المجتمعات الاسلامية الذي كان يعبر عنه

بالثورات الشعبية المتكررة ، وقد فسر المستشرقون هذا الامر الجلي على أنه « اضطراب وانحلال » بدلا من تفسيره بأنه « اعادة لاثبات وجود تأثير الشعب في السياسة الاسلامية(١٠) » وفي تفسيراتهم الجزئية أيضا ، تضلل المستشرقون ، كما يبدو ، بمصادرهم الدراسية التي كانت تمثل « الموقف الاخلاقي الخاص لفئة المثقفين مع التجار الدينية التي كانت بحاجة الى استقرار سياسي(١١) » .

وفي الحقيقة فان مقابلة المستشرقين النموذجية بين مجتمع اسلامي متكامل وفكر دولة مجزأة ، تعكس قضية اهتم بها المنظرون المسلمون العظام الذين اهتموا بالتاريخ(١٢) كابن خلدون والماوردي وابن تيمية . وهكذا نرى ان المستشرقين قد تأثروا في تفسيرهم باستغراقهم في :

- ١ - اتجاهات التفكير المسيحية .
- ٢ - العقلية الاستعمارية .
- ٣ - وجهات نظر العرب وغيرهم التي تعكس مصالح جماعات خاصة في مجتمعاتهم .
- ٤ - النقص في تقدير قيمة العوامل الاقتصادية والاجتماعية في صناعة التاريخ .

انني لم استهدف الاستخفاف بتلك الافكار الانتقادية التي أرى انها محاولة قيمة لكشف شبهات كثيرا مابقيت مكبوتة ، وانما هدفي ببساطة أن أسأل ماذا كان هذا النوع من الانتقاد لم تحركه وجهات نظر ، اما خالية من المنطق أو متحيزة ضمنا ، تماما كلافكار التي هي موضوع الانتقاد . انني لأرغب في اثارة الجدل ، فلو فرضنا أن هناك حقيقة نستطيع أن نجد لها جميعا وان نستمتع بها أو نبغضها ، فان هدفي هو ان نصل الى هذه الحقيقة .

ولاينفرد مؤلف المقال الذي ذكرت بكشف الدوافع الخفية ، فالاستاذ خدوري قام بعمل مماثل(١٣) ، ولكنه يرى ان اتجاه تفكيردارسي الشرق الاوسط البريطانيين ( من جيل أحدث ) مستهجن ، ومتأثر بكتابات توينبي ، وهو من نوع « الاخلاقية المغلفة بالشعور بالذنب » وهذا الاتجاه بالتفكير نابع من استعداد الفكر الليبرالي للاقرار بان الغرب كان معتديا في الشرق الاوسط وفي مناطق أخرى ، وان يحصد الان - أو

يجب أن يحصد - نتيجة أخطائه . وعليه فإن أجيال مابعد الحرب العالمية الأولى من الباحثين والمسؤولين السياسيين الليبراليين ماكان يسعهم الا ان يفترضوا ان الامور في الشرق الاوسط في تحسن ، وان العلاقات مع العرب تتجه لان تصبح أكثر تساويا ، وان ضرورة استعمال القوة في تضاؤل ، وان المؤسسات الديمقراطية السياسية الجديدة تبشر بمستقبل حسن وهكذا . . . . . ، وكان هذا ايمانا بصحة ماسماه برنار لويس « الاستعمار المتخفي » لعهدالانتداب ، حتى ان مفكرا مثل ه.أ.ر. غب افترض « انه يتوجب فهم الحكومة والمجتمع في الشرق الاوسط بنفس الاطر التي تستعمل لفهم الانظمة السياسية والاجتماعية الغربية . » وان ه.ر. غب قد عنف بشدة من قبل كاتبنا السابق لكونه واحدا من الذين ركزوا على عنصر القوة القسرية في تسويات الشرق الاوسط ، وليس لانه ادخل الليبرالية في تفسير السياسة في الشرق الاوسط . ومهما تكن حقيقة اراء البروفسور غب فان البروفسور خدوري يدعي ان **مجلة السياسة الدولية** صاحبة النفوذ عكست حين كان يحررها ا.ج توينبي « عقائد راديكالية ومناهضة للاستعمار » (١٤) .

وعلى الرغم من ان بين الدكتور ط. أسد والاستاذ خدوري بعض الشبه الا انهما اليوم قطبان متباعدان ، فمن حيث كتاب مدرسة **مجلة دراسات الشرق الاوسط** فان وجهات نظر الباحثين الذين ينتقدونهم ملتصقة بشدة كما رأينا ، بالحالة الاستعمارية التي يعيشونها ويعملون فيها ، بينما بالنسبة لخدوري فان موقف مدرسة توينبي هو رد فعل ايجابي وواع ، ولو انه مبالغ به وخاطيء ، لتورط بلادهم في الاستعمار وفي الحقيقة ان الغربيين المؤيدين لمدرسة **مجلة دراسات الشرق الاوسط** يمكن اعتبارهم توينبيين محدثين .

وفي الحقيقة كلما فكر المرء في هذه القرابة الفكرية ، كلما بدا له ان هذا هو الواقع . فلقد رأينا ان وجهات نظر « استعمارية » كان لها اثر في توجيه البحث الغربي . فالمناهضة الواعية للاستعمار كانت هامة بالنسبة لتوينبي ، وبحسب رأي خدوري يبدو ان توينبي كان في البداية قد اتفق مع « مناهضي الاستعمار » الهوسونيين المنتشرين بين الراديكاليين الانكليز قبل الحرب العالمية الأولى واثناءها ، وآمن بان الدول الاوروبية قد حصلت على الامبراطوريات وحافظت عليها ، مدفوعة بمصالحها الاقتصادية » (١٥) .



وبينما لم يكن هذا الرأي مسيطرا بوضوح بين التابعين المباشرين لتوينبي الذي عني أساسا بأمور أكثر أهمية ، فإن هذه الاعتبارات الاقتصادية قد خُطت إلى المقدمة عند بعض الكتاب الأكثر حداثة وقد يقول الدهاء والمتهكمون أنه مع زوال الامبراطوريات التوسعية ، يجب خلق فكرة « الاستعمار الجديد » ومهما كان الأمر فإن هذا التفكير اليوم يشكل تيارا قويا .

### الاقتصاديون :

ويحسن بنا قبل ان نبحث موضوع الاستعمار الاقتصادي بمسحته الماركسية الجديدة ، ان ننظر بشكل واسع جدا الى المشاكل التي نجمت عن تفهمنا الشرق الاوسط من خلال التأكيد الجديد على التاريخ الاقتصادي الذي التزمه مؤرخون اقتصاديون تقليديون . ويمكننا ان نرى من معلوماتنا الاوسع الان عن التاريخ الاقتصادي للمنطقة - بالرغم من انه لا يزال غير مترابط تماما بعد - ان تفسيراتنا السابقة لحوادث الماضي قد اتجهت للأسف ، اتجاها خاطئا . ويركز الدكتور روجيه اوين على هذه النقطة في مقال ينتقد فيه كتاب غب وبوين **المجتمع الاسلامي والغرب** اذ قال انه « بتأثير نموذج مفهوم الحكم المطلق في الشرق ، فان غب وبوين قد أظهرنا مفهوما جامدا جدا عن الفصل بين الحاكم والمحكوم . فهما لا يقدران ان البيروقراطيين والمسؤولين يجب ان ينظر لهم كأصحاب بعض المصالح الخاصة ، وان المصالح المحلية يمكن ان تكون قوية » وان يعتمد عليها الجهاز الاداري لجمع الضرائب والرقابة » . ويرى اوين أيضا ان غب وبوين يعتبران القرى وحدات مكثفية ومنظمة ذاتيا ، ويهملان التأثير الواقع عليها كي تنمو وتنتج للسوق . ولا يجوز لنا في ضوء المعلومات العامة عن الاوضاع الاقتصادية في العالم غير الاوروبي ، ان نقبل الادعاء بوجود ركود زراعي أو صناعي . ويبدو ان مانحتاجه هو معلومات أكثر عن التاريخ الاقتصادي للقرن الثامن عشر وأظن ان هذا يوافق عليه غب وبوين ، اللذين اهتموا بهذه المواضيع ، واني واثق بانهما يرحبان ببدء الدكتور اوين من أجل « تحليل دور الشرق الاوسط في الاقتصاد العالمي ، وبخاصة نموذج العلاقات التي وجدت مع أوروبا الغربية » . وأظن أنهما يرحبان أيضا بمزيد من المعرفة عن جمود التجارة العثمانية الذي سببه التطويق الاوروبي.

وهذه الاخيرة نقطة انتبه لها « بروديل » وغيره ولكن لم ينتبه لها الدكتور اوين . وان الحديث عن الانحطاط العثماني كما فعل « غب ربوين » ، هو مجرد حديث عقائدي ناتج عن « المشروع الاول لدراسة الشرق الاوسط ككيان يدعى المجتمع الاسلامي ، أي كشيء يمكن فقط ان يقارن بكيان آخر هو المجتمع الاوروبي . وحالما تحددت طبيعة هذا المشروع ( من قبل اوين ) فان استعمال مثل تلك المفاهيم عن «الانحطاط» يظهرها على حقيقتها ؛ جزء من أداة عقائدية للنظر الى مجتمع الشرق الاوسط من خلال نظرة عالمية خاصة ، ولتمنع تحليله من خلال القوى الاقتصادية الحقيقية والعلاقات الناشطة ضمنه ، « وسأعود لهذه الفكرة فيما بعد ، ولكن اكتفي بالقول الان ، انه مع بعض الاستثناءات الممكنة في بعض المناطق فان المجتمع العثماني قد انحلّ فعلا ولكن ليس بسبب « القوى الحقيقية والعلاقات » التي أشار اليها الدكتور اوين فقط ، ولكن بسبب أمور أخرى أيضا .

ان الاتجاه الى القاء ثقل متزايد على العوامل الاقتصادية نجده في مقالة لباحثة تركية تدعى هورى اسلاموغلو(١٦) ، حيث تصدت لبعض وجهات نظر م.ا.كوك في كتابه « **الضغط السكاني في الاناضول الريفي ١٤٥٠ - ١٦٠٠** » فقد قال كوك انه على الرغم من نمو السكان في الاناضول في النصف الثاني من القرن السادس عشر ، فان ذلك لا يفسر التغيير في مستوى تصدير الحبوب ولا في تموين استانبول . اذ ان تموين استانبول كان يجري من خلال « الخدمة الالزامية للجهاز الاداري » والعلاقات السياسية القائمة وليست الاقتصادية . وبينما كان من الطبيعي ، ان يرغب المركاتيليون بتصدير مؤن الحبوب الى الاسواق المربحة حيث يتزايد السكان ، سواء اكان ذلك في الاناضول ، أو في بلاد أخرى ، فقد كانت الحكومة دائما في صراع مستمر لتواجه هذا الاتجاه ، ولتضمن وصول فائض الحبوب الى استانبول ، وقد تحدى كوك فيما بعد فكرة الصلة التي قال بعضهم بوجودها بين نمو السكان وبين انتفاضة ( الجلالية ) بان بيّن انه لم يكن هناك أي دليل على النمو السكاني في التسعينات من أعوام الالف وخمسمائة ، لان معظم المسح المالي كان قد توقف في السبعينات ، وانه كان هناك عوامل اقتصادية أخرى مؤثرة ، وهي لاتوحي بوجود أية علاقة بين ازدياد السكان وبين الانتفاضة الاجتماعية . ولو ان نظرية كوك تبدو لي قوية وعلمية الا انه نظر

اليها على أنها عجلة ومثيرة للخلاف ، ومنبثقة حسب الظاهر من التزامه « بأسلوب المؤسسات في تفسير التاريخ » وبالتالي فان « طريقته في التحليل » لاتتعدى كونها مجرد وصف للمؤسسات المعنية ، وليس لعملية التغيير نفسها . ومشكلة كوك على ما يبدو انه لازال يستعمل أطر تحليل سبقها الزمن تقوده لان يقترح عوامل تفسيرية ذات طبيعة شخصية ، أو طبيعة متعلقة بالمؤسسات ، كغياب الجيش في الحروب النمساوية والفارسية ، وانهيار سطوة السلاطين العثمانيين ومقدرتهم .

ان اختيار مثل هذه العوامل الشخصية والمتعلقة بالمؤسسات ، للتفسير ، يعود في الحقيقة الى القيود التي يفرضها ، دون شعور ، هذا النموذج من التحليل . وهذا النموذج الذي سبقه الزمن يرى ان المجتمع العثماني « مقسم الى فئتين منفصلتين وظيفيا هما الحكام والمحكومون فالاولى تقيم العدل وتؤمن الحماية ، والثانية تنتج فائض الغلال » وكل ذلك يتم بانسجام تام ، والدولة التي تحمل الصفة الابوية تملك الارض ، كل الارض ، وتعيد توزيع فائض الغلال وتؤكد ان كل شخص باق ضمن طبقته . والدولة نفسها لاتكاد تستحق هذا اللقب فهي مركز لطاقم غير متجانس من المؤسسات ، لكل منها حياتها الخاصة ، وأسباب وجودها الخاصة ، وتاريخها الخاص ، ورأيها التقليدي الخاص ، وتنهار كل منها عندما تتأثر بالعوامل الخارجية كنمو السكان ، والتضخم ، والتصادم مع الغرب ، بحيث تفقد مثلها وأسباب وجودها . وقد حاول المحللون العثمانيون والمصلحون ان يصلحوا مجتمعا منهارا باعادة تأسيس فكرة المؤسسات التي انهارت - ليعيدوا بذلك « العصر الذهبي » وقد اتبع المستشرقون هذا الاتجاه نفسه فظهرت عندهم على هذا الاساس صورتان بارزتان : اولاهما ، ان المؤسسات المركزية للحكومة هي التي شددت على أهميتها وليست الدولة ( وسنعرف سبب ذلك فيما بعد ) . والثانية ، لم يتح للعوامل الاقتصادية وجود منفصل ومستقل ، بل فسرت بطرق خاصة كاعتبارها أسبابا خلفية للانحطاط العثماني ، الذي ماهو في الاساس الانحطاط في المؤسسات والعقائد والاشخاص .

وعلى العكس من ذلك فان نموذج التفكير الجديد والاكثر تلاؤما - وهو النموذج الذي يزداد قبولا - يستخدم الفرضيات الملتزمة للمدرسة الماركسية الجديدة في نظرية التنمية ، ويؤكد دور الدولة التي تقوم

بمهمة استخلاص الفائض الاقتصادي ، وتحديد التركيب الطبقي ولايختلف هذا كثيرا عن نموذج التفكير الآخذ بالافول ، ولكنه ( أي نموذج التفكير الجديد ) لاينسب التغيير الى انهيار المؤسسات الحكومية والافكار التي تحركها ، وانما الى القوى المحركة الداخلية للنظام الذي كانت الدولة جزءا منه ، ويقصد بهذه القوى المحركة النظام الاقتصادي الذي كان للتجارة الداخلية والخارجية فيه أهمية كبرى . ولايعني هذا ان السوق كانت حرة ، بل على العكس ، فقد راقبت الدولة كل مايجري ، وأقامت احتكارا على التجارة الداخلية وذلك بتعيين تجار مكلفين يعملون لحسابها ، وأقطعت دخل السوق لبعض الموظفين ، وراقبت التجارة الخارجية من خلال الامتيازات التي أعطتها للتجار الكبار . وبهذا المفهوم كانت التجارة الداخلية والخارجية ، شيئا حيويا بالنسبة للمجتمع العثماني لانها تشكل رأس مال ثابتا وكبيرا في ايدي التجار . وقد أدى رأس المال هذا من خلال تكامله مع الاسواق الرأسمالية العالمية الى تفكك في النظام العثماني . فالنظام الاقتصادي لم يكن نظام السوق الحر ولكنه كان اقتصادا مزدهرا تدخلت فيه الدولة لتحقيق احتياجات اقتصادية . وفي الحقيقة فقد عكست الدولة القوى الاقتصادية في المجتمع لانها كانت دولة مادية « وظيفتها القانونية العقائدية المنتقلة اليها عبر المؤسسات القانونية والدينية » ان « تحدد وتحافظ على رقابتها على الاقتصاد والتكوين الاجتماعي » وان « فكرة مجتمع الشرق الأدنى هي في الحقيقة فكرة تتضمن أن جميع الموارد والاعمال قد وجدت لتعزيز قوة الدولة » . وعند هذه النقطة يجب ان نقف ونتساءل مالذي يوحى بهذا النقد ، بهذا الرفض لكل شيء فيما عدا الوجهة الاقتصادية للدولة ؟ .

يجب أن نعلم أولا ان كثيرا من البحث اعتمد على الاستنباط البسيط ، وعلى الافتراض ان الوقائع موجودة في مكان ما في العالم ، فاذا راقبناها طويلا بشكل كاف ودقيق فانها تكشف نفسها وتكشف العلاقات الداخلية بينها ، وتظهر نفسها على شكل نماذج معينة . وقد سار كثير من باحثي شؤون الشرق الاوسط على هذه الطريقة ، ولكن ، ولنكن منصفين ، ان هذا النوع من الاستنباط لم يعد ينظر اليه أحد في هذه الايام بكثير من الاهتمام . وأصبح من المؤكد الان اننا عندما نختار

دراسة موضوع ما ، فاننا نختارها بالرجوع الى معايير تهمنا ، وبكلمة أخرى ، من خلال تفتيشنا المخلص عن الحقيقة ، فاننا كثيرا ما نختار حقائق وحوادث معينة لها علاقة بمفهومنا العام ، لما هو مهم . فمثلا قد ندرس ثورة ما ، بسبب عنفها ، أو بسبب التغيير الذي أحدثته في الافكار ، ويأتي آخرون ليقولوا ان ما يجب ان ندرس ، هو مثلا التغيير في تركيب البناء الاجتماعي الاقتصادي ، والنموذج الجديد للتربية الذي أدخلته الثورة ومدى ازدياد قوة الدولة تجاه الفرد ، بالإضافة الى اننا نقوم عادة بتفسير ما نستنتج تحت تأثير ما نتوقع ان نستنتج ، وهذا التوقع ناتج عن تجربتنا الخاصة وتحيزنا وميولنا وأحيانا جهلنا . وهذا ما حدث في الحقيقة لدارسي الشرق الاوسط فقد فتشوا عن سند لما كانوا يعتقدون .

**وثانيا :** وبشكل أكثر دقة فان هؤلاء النقاد الذين هم مدار بحثنا يدينون في كثير من تكوينهم الفكري الى استيعاب تأويلات ماركسية وماركسية جديدة للاستعمار أصبحت شائعة مؤخرا . وهذا موضوع أكبر بكثير من أن ندرسه هنا ، ونكتفي بالقول انه بالنسبة للماركسيين القدماء فان القوة المحركة لكل الفعالية والتطور التاريخي تجد جذورها في انتاج واعادة انتاج وسائل البقاء ، وكل ماعدا ذلك من أفكار وعقائد وحضارة ومؤسسات ودين هو مجرد أبنية فوقية ، لم تكن مهمة بذاتها وانما أفكار خيالية يجب أن تلعب دورا دون دور القوى الاقتصادية . والمهم ان نتذكر هذا عندما ندرس العلاقات بين الشرق والغرب ، لان هذه العلاقات هي في الاساس بين أقاليم أكثر تطورا وأقاليم أقل تطورا من الناحية الاقتصادية ، وان الاستعمار يجب أن يرتبط أساسا بعوامل اقتصادية . يمكن تعريفها بانها علاقة بين بلدان صناعية وغير صناعية تكون فيها البلدان غير الصناعية في وضع اتكالي . وقد استلزم تطوير رأس المال في الغرب ، استعمال المواد الخام من العالم غير الغربي ، وأدى الى تصدير رأس المال لتطوير انتاج هذه المواد لمصلحة الصناعة الغربية ، وكانت النتيجة في الحقيقة افقار الغرب لبقية العالم وإبقائه متخلفا بما في ذلك الشرق الاوسط .

ويبدو كل هذا صحيحا في بعض الحالات ومن بعض النواحي فقط ، وغير حقيقي في بعضها الآخر . أما بالنسبة للشرق الاوسط فمن الصعب ان نحدد ذلك ، ولازال يتوجب الكثير من البحث من قبل المؤرخين

الاقتصاديين . ولكن ، ولعله أكثر أهمية من الحقائق نفسها ، أو من النظرية الاقتصادية ، الافتراض ان العلاقات الاقتصادية لها المقام الاعلى ، وان كل الافعال الاخرى سواء أكانت سياسية أو دينية ، أو أيا كانت فهي اقتصادية بالاصل ، وان أية عقلانية قد تظهرها نفحات التفكير فانها تهمل قصدا على أساس انها غير جوهرية . وهذا ما يبدو أكثر اقناعا في عالم ما بعد فرويد ، حيث اننا نعي أو لانعي اننا لسنا في الحقيقة عقلانيين مثلما نظن والخطر في كل هذا هو اننا بمبالغتنا باللاعقلانية يصبح الانتقاد نفسه غير عقلاني .

ولنترك جانبا كل الاحتجاجات التي يمكن ان ترتفع ضد الاتجاه التاريخي للماركسية الجديدة ، الذي يرى بأن التاريخ يضع قوانينه بنفسه ، ونتساءل ماذا نستنتج من هذا النقد النيوماركسي للعلاقات الفكرية المعاصرة بين الشرق الاوسط والغرب ؟ والجواب انها أولا تعتبر تجريدا للعلاقات من الانسانية . فاذا ما تابع الغرب أو الشرق الاوسط غاياته الاقتصادية الخاصة الى آخر مداها ، فما من تدخل انساني يمكن أن يكون له أي جدوى ، لذلك فلن يوجد مجال لاي شيء ماعدا التجرد العلمي والتفاعل المتعاطف الذي يقود الى خلق عالم اشتراكي يحل جميع هذه التناقضات .

ولكن ثانيا ، هل تقبل نظريات الاعتماد النيوماركسية في الواقع هكذا ؟ العكس هو الصحيح عادة ، فمن المؤلف ان يرى المثقفون الشباب ان الغرب كان مسؤولا عن تخلفهم ، وعن ضعف مجتمعاتهم التقليدية ، ولذا فهم يعادون الغرب الذي استغلهم ، وهم لم يعودوا يلومون أنفسهم لعدم كفايتهم مثلما فعلوا قبل جيل مضى أو أكثر فهل يمكن لاتاتورك اليوم أن يقول للاتراك كما فعل مرة ، أنهم هم المسؤولون عن تخلفهم ؟ وهل يمكن أن يقوم اليوم هجوم على أسس المجتمعات الاسلامية العثمانية التقليدية من النوع الذي قام به الاتاتوركيون وكذلك العناصر القوية الميالة للغرب من الاتراك الشباب ؟

ان احدى نتائج القبول الجزئي لهذه النظريات الماركسية الجديدة هو انها بإمكانها ان تساعد على تخليص مجتمعات الشرق الاوسط التقليدية من غزو القيم الغربية التي كان عليها ان تواجهها . ومن الغريب ان تساعد هذه النظريات في انعاش تقاليد محافظة . مع ذلك فهذا لا يكفي للماركسي

الجديد فهو لابد له من ان يعيد كتابة التاريخ وفق قوانينه الخاصة . وهناك جدل أساسي فيما اذا كان هذا يعتبر تاريخا بحق . وعودا الى الماضي التركي فبالطبع كانت هناك عوامل اقتصادية ، ولكن القيادات السياسية في ذلك الوقت لم تفهم طبيعتها ، فالعثمانيون مثلا كانوا يرون بوضوح ان عملتهم النقدية تتناقص قيمتها ولكنهم لم يستطيعوا ان يفعلوا شيئا فعلا من أجلها أو من أجل نتائج تغييرات اقتصادية أخرى كانت واضحة لآعينهم لانهم لم يستطيعوا فهم أسبابها . وبدون أن يدركوا ماهية القوى « الحقيقية » التي كانت تعمل ، فانهم عملوا كأحسن ما يمكن ان يعملوا ، ولكن ما فعلوه كان في الحقيقة تاريخا . فاذا كانت أفعالهم متأثرة بنموذج التفكير الموجود ، فان لذلك النموذج أهمية تاريخية ، على الرغم من أن من المهم ان لاننازع « الاقتصاديين الحتميين » بأن نقبل بالضرورة مفهومهم الحتمي في تفسير العمل السياسي .

ونخلص من هذا كله الى أننا في الحقيقة بحاجة الى كثير من الجهد في دراسة التاريخ الاجتماعي والاقتصادي العثماني والشرق أوسطي من قبل مؤرخين اقتصاديين ضليعين في الاتجاهات التحليلية الحديثة . ولكنهم بنفس الوقت متشككين بكل محاولات الانسان من أجل فهم الكون وخاصة بالنسبة للعلاقات الاجتماعية .

## الحواشي

- (١) كوري R. Coury لماذا لا يستطيعون ان يكونوا مثلنا ؟ مجلة دراسات الشرق الاوسط  
Review of the middle east studies.
- (٢) المرجع السابق ص ١١٢ . الكلمات الموجودة بين المعترضين أخذها كوري من : دراسات  
في الثقافة الوطنية .
- (٣) W. Cautell Smith المرجع السابق ص ١١٦ .
- (٤) المرجع السابق ١١٧ .
- (٥) Coury ١٣ .
- (٦) المرجع السابق .
- (٧) طلال أسد ، « صورتان أوربيتان لنظام غير أوربي » في كتاب ط . أسد محرر « علم  
الاجناس والمواجهة الاستعمارية » لندن ١٩٧٣ - ص ١١٥ .
- (٨) المرجع السابق .
- (٩) المرجع السابق ص ١١٧ .
- (١٠) المرجع السابق ص ١١٠ .
- (١١) المرجع السابق ص ١١١ .
- (١٢) المرجع السابق ص ١١٤ .
- (١٣) Kedouri, E. Chatham House version, and other Middle Eastern Studies. (١٣)  
London, 1970.
- (١٤) و (١٥) لم يذكر الباحث هنا أي مصدر .
- (١٦) قدم الى مؤتمر في جامعة هال في كانون الاول ١٩٧٦ .
- انظر كذلك « هوري اسلامفلو » و « وجفلار قيدير » : « مذكرة للتاريخ العثماني » في  
مجلة دراسات الشرق الاوسط العدد الاول ١٩٧٧ ، ص ٣١ - ٥٥ .



## رواق الشام بالأزهر أبان العصر العثماني

الدكتور مصطفى رمضان

( جامعة الملك عبد العزيز - مكة المكرمة )

دخلت الجيوش الفاطمية مدينة الفسطاط في ١٧ من شعبان سنة ٣٥٨ هـ ( الموافق ٧ من يوليو ٩٦٩ م ) وفي نفس الليلة التي دخلت فيها الجيوش الفسطاط أسس الفاطميون بمصر حاضرة جديدة للمكهم سموها القاهرة تفاقولا بالنصر ، ثم بنى الفاطميون بعاصمتهم الجديدة مسجدا جامعاً سموه بالأزهر نسبة الى فاطمة الزهراء التي يرجع الفاطميون نسبتهم اليها(١) . ذلك المسجد الذي بدأوا في انشائه في ٢٤ من جمادى الاولى سنة ٣٥٩ هـ ( ابريل سنة ٩٧٠ م ) وتم بناؤه وافتتح للصلاة والدراسة في ٧ رمضان سنة ٣٦١ هـ ( ٩٧٢ م ) (٢) .

ولقد عنيت الدولة الفاطمية منذ انشاء الأزهر باستقدام الطلاب اليه من البلاد التي تحت سيطرتها لدراسة المذهب الفاطمي ، ومن هؤلاء الطلاب تكون نظام الروقة بالأزهر .

والرواق عبارة عن ناحية أو جناح من الجامع الأزهر يخصص لطائفة من الاساتذة والطلاب تنتمي الى اقليم معين داخل مصر أو الى قطر معين من الاقطار الاسلامية أو البلاد التي بها مسلمون ، ونظام الروقة بالأزهر يرجع الى عصور متقدمة حسبما يبدو ذلك مما ذكره المقرئزي في خطه عند الكلام على ما قام به الامير سودوب الحاجب عندما تولى النظارة على الأزهر ، فقد أمر في سنة ٨١٨ هـ ( ١٤١٥ م ) باخراج المجاورين من الجامع الأزهر ومنعهم من الإقامة به يقول المقرئزي :

« وانه لم يزل في هذا الجامع منذ بني عدة من الفقراء يلزمون الإقامة فيه ، وبلغت عدتهم في هذه الايام سبعمائة وخمسين رجلاً ما بين عجم وزبالعة ومن أهل ريف مصر ومغاربة ، ولكل طائفة منهم رواق يعرف بهم(٢) » .

ورواق الشوام بالأزهر هو أحد الروقة العلمية التي كان يضمها الأزهر أبان العصر العثماني والتي قاربت نحو الاربعين رواقاً وحارة ، وكان يضم في رحابه طلبة أقاليم : سوريا والاردن وفلسطين ولبنان . وتتكون هذه الدراسة من قسمين :

## القسم الاول :

ويحتوي على عرض موجز لتاريخ رواق الشوام بالازهر ابان العصر العثماني والتنويه بدوره في المجالين العلمي والنضالي .

## القسم الثاني :

ويتعلق بالدراسة الارشيفية لمجموعة الوثائق الخاصة برواق الشوام في العصر العثماني والمحفوظة بالارشيف المصري ضمن الوديعة الارشيفية للازهر بدار الوثائق القومية بالقاهرة وغيرها من دور الحفظ متحدثين عن طبيعة تلك الوثائق وكيفية الاطلاع عليها والاستفادة منها في مجال العلاقات الثقافية بين مصر وبلاد الشام ابان العصر العثماني .

## القسم الاول

### رواق الشوام ابان العصر العثماني :

ظل الازهر يؤدي رسالته كجامعة لدراسة شتى العلوم الاسلامية . ونجا من انقلابات الدول والمحن المتعاقبة على مدى تاريخه الطويل ، حتى اذا جاء العصر العثماني ألفت ظروف الغزو العثماني للعالم العربي على الازهر بتبعات جسام في مجال الحفاظ على الطابع العربي لمصر وغيرها من البلدان العربية ، فغدا حصنا للغة العربية في وجه عوامل التتريك العثمانية ، وغدت أروقتة مظهرا من مظاهر الترابط العربي ابان العصر العثماني .

وعرف العثمانيون مكانة الازهر فخصه السلطان سليم الاول الفاتح بالزيارة (٤) ، ولم يتدخل العثمانيون في شئونه ، فتركوا له مخصصاته المالية من الاوقاف المحبوسة عليه ، وتركوا له حرية تقرير الدراسات التي تلقى في حلقاته العلمية ، وكان الازهر قد اكتسب على مدى تاريخه الطويل صبغة علمية عالية ، وأضحى في العصر العثماني جامعة تعنى بجانب دراسة آداب اللغة العربية بدراسة شتى العلوم الاسلامية على مذاهب أهل السنة والجماعة ( الشافعي والمالكي والحنفي والحنبلي ) ، ولم يكن يتيسر لعالم من علماء العرب والمسلمين أن يتألق في وطنه الا اذا درس في الازهر وحصل على الاجازات العلمية من شيوخه وعلمائه .

والذي يتصفح كتب تراجم رجال الفكر الاسلامي ابان العصر العثماني يدرك هذه الحقيقة ، فكتاب المحبي ( ت ١١١١ هـ ) : « خلاصة الاثر في أعيان القرن الحادي عشر » ذاخرا بتراجم الاعلام الذين درسوا في الازهر وتألقوا في بلاد الشام في المناصب العلمية والقضائية (٥) ، وكتاب محمد خليل المرادي ( ت ١٢٠٦ هـ ) ، « سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر » وكتاب عبد الرحمن بن حسن الجبرتي : « عجائب الاثار في التراجم والابخار » فهذه الكتب تؤرخ للحياة العلمية في العصر العثماني من خلال تأريخها لحياة كثيرين من اعلام هذا العصر من شاميين ومصريين وحجازيين ومغاربة وغيرهم ، فالذي يتصفح هذه الكتب وغيرها من كتب التراجم يدرك قيمة الازهر في هذا العصر ودوره في الحياة الاسلامية ، فقد غدا ملتقى العلماء يشدون اليه الرحال من كل فج عميق وغدا بعد الحج أكبر مكان لوحة العالم الاسلامي وترابطه تلك الوحدة التي تتمثل في

صحته بين شتى جنسيات العالم الاسلامي ، فكان بحق مركز الاشعاع الفكري وجامعة المسلمين الكبرى .

ولقد نجم عن هذا المركز الانفرادي الممتاز الذي كان للازهر اiban الحكم العثماني في مجالات الثقافة الدينية العلمية الاسلامية أن أصبحت له القيادة العلمية والفكرية في مصر ، وفي سائر أنحاء العالم العربي والاسلامي وكان علماء الازهر هم العلماء المبرزين في علوم اللغة العربية وآدابها ، وفي العلوم الاسلامية(١) .

ولعل هذا المركز الانفرادي الممتاز للازهر هو منشأ العبارة المأثورة التي ترددت على الالسنة قائلة ان للمسلمين قبلتين : قبله دينية هي الكعبة الشريفة في مكة المكرمة وقبله علمية هي الازهر في القاهرة(٧) ، وكانت طلائع المثقفين في العالم الاسلامي يتوجهون الى قبلته العلمية ويتشرفون بالتخرج من أروقتة ونيل الاجازات العلمية على شيوخه يوم ان كانت ثقافتنا اسلامية ، وقبل ان ندفع بهذه الطلائع الى أوروبا في مطلع العصر الحديث .

### رواق الشوام والتفوق في الفقه الحنفي :

كان النظام القضائي في مصر قبل الغزو العثماني يسير على المذاهب الاربعة ، فكان قضاة المذاهب الاربعة يجلسون في محاكم الشرع ويختلف اليهم المتقاضون كل حسب مذهبه .

ولما كانت الدولة العثمانية دولة سنية فقد احترمت الحرية المذهبية التي سادت في حلقات الازهر العلمية ، بيد أنها لم تزل ان أجرت تغييراً جوهرياً في مجال النظام القضائي بمصر وغيرها من البلدان العربية ، وفرضت مذهب الامام الاعظم ابي حنيفة وهو المذهب الرسمي في الدولة العثمانية ، وجعلت له السيادة في الشؤون القانونية والقضائية .

وكان رواق الشوام في الازهر يتفوق في مجال الفقه الحنفي ، وللشوام تقدم في هذا المجال وتعلم كثيرون قواعد المذهب الحنفي في حلقات العلم التي كان يعقدها علماء الشوام في رواقهم ، ومن خلال دراستنا لمجموعة وثائق رواق الشوام في العصر العثماني فقد تبين لنا ان عدد الاحناف بالرواق يفوق عدد الشافعية فيه بنسبة ٢ - ١ وأحياناً

بنسبة ٣ - ٢ ، وهذا بخلاف طلبة المذهبين الآخرين فنجد ان نجد من بين مجاوري رواق الشوام من يدرس المذهب الحنبلي والمالكي .

وكان المذهب الحنفي يأتي في مصر في المركز الثالث من حيث الشعبية ، بعد مذهب الامام الشافعي الذي يكاد يكون المذهب الوطني في مصر ، وكانت غالبية سكان القاهرة والوجه البحري يعتنقون المذهب الشافعي ، وكانت عليه غالبية العلماء ويصرحون بان مصر بلد الامام الشافعي(٨) وذلك منذ وفد اليها سنة ١٩٩ هـ ( ٨١٤ م ) وعكف حتى جامع عمرو بن العاص على القاء دروسه في الفقه وأصوله ، ويليه المذهب المالكي وعليه غالبية الصعايدة في الوجه القبلي ، وكان اقبال المجاورين من المصريين على هذه المذاهب بنفس تلك النسب السالفة .

ويذكر العلامة علي مبارك عن حركة التمدد بالازهر ما يلي :

« والعادة في الازهر أن يتبع الطالب مذهب أبيه أو أهل بلده ولا يخالفه الا بسبب ولا ينتقل أحد عما اختاره من المذاهب اذا كان كل يفتي على مذهبه من غير معارضة أحد له ، ولما انحصرت الفتوى في مذهب أبي حنيفة أثره كثير منهم القصد التعيش بالفتوى لكن كانوا لا ينتقدون اليه بعد التمدد بغيره بل يختارونه ابتداء ثم لما انتقلت المشيخة الى أهله وكثرت مرتباتهم وانحصرت الوظائف فيهم ازدادت رغبة الطلبة فيه خصوصا بعد ١٢٠٨ هـ حيث دخل الناس فيه أفواجا وانتقل اليه كثير بعد الانتهاء في المذاهب الاخرى بل انتقل اليه بعض المدرسين طلبا للمعاش وبعضهم يشتغل به مع عدم هجر مذهبه فصار أشهر المذاهب بعد ان لم يكن كذلك ، وكان الشافعية والمالكية يستقبحون الانتقال اليه ولا ينسبون لاهله علما ، فصار اليوم مستحسنا أكيدا وجد طالبوه فيه(٩) .

وثمة احصائية عامة للجامع الازهر عام ١٣٠٤ هـ - ١٣٠٥ هـ الدراسي ، تبين عدد طلاب كل رواق وحارة على حده ، كما تبين التوزيع المذهبي في شتى أروقة وحارات الجامع الازهر ومن بينها رواق الشوام :

مسلسل	اسم الرواق والحارة	حنابلة	مالكية	حنفية	شافعية	الجملة
١	رواق الصعايدة	—	١١٤٩	٣٤٦	٥٣	١٥٤٨
٢	رواق الاتراك	—	—	٦١	٧	٦٨
٣	رواق الشوام	—	—	٨٢	٤٩	١٣١
٤	رواق معمر	—	٥٨	٥١	٩٢٩	١٠٣٨
٥	رواق المغاربة	—	٩٧	—	—	٩٧
٦	رواق الفيمة	—	١٥٠	٦	٤٥	٢٠١
٧	رواق الابتغاوية	—	١٠٢	٤٣	١٩	١٦٤
٨	رواق الفشنية	—	٢٦٨	٣٢	١٨٥	٤٨٥
٩	رواق الشراقيه	—	٣	٨	٣٥٦	٣٦٧
١٠	رواق البحاوره	—	١٤٥	٦٦	٢٩	٢٤٠
١١	رواق الحنفية	—	—	٢٩٨	—	٢٩٨
١٢	رواق الحنابلة	٢٠	—	—	—	٢٠
١٣	رواق الطبرسية	—	٤	٦	٤٦	٥٦
١٤	رواق البرابرة	—	٣٥	—	—	٣٥
١٥	رواق السليمانية	—	—	٤	—	٤
١٦	رواق السنارية	—	١٣	١	—	١٤
١٧	رواق الاكراد	—	—	—	٨	٨
١٨	رواق الجبرت	—	١	٧	—	٨
١٩	رواق البرناوية	—	١١	—	—	١١
٢٠	رواق الحرمين	—	—	—	٤	٤
٢١	رواق صليح	—	٤	—	—	٤
٢٢	رواق الجاوية	—	—	—	١	١
٢٣	رواق البغادة	—	—	—	٢	٢
٢٤	رواق الهنود	—	—	٣	١	٤
٢٥	رواق اليمن	—	—	—	١١	١١
٢٦	رواق دارفور	—	٥	—	—	٥
٢٧	حارة الزراقنة	—	١٠١	١٠٧	٧٩	٢٨٧
٢٨	حارة البشابشة	—	١٠١	٤٨	٣٢٥	٤٧٤

مسلسل	اسم الرواق والحارة	حنابلة	مالكية	حنفية	شافعية	الجملة
٢٩	حارة الجيزاوية	—	٦٣	١٢	٤٨	١٢٣
٣٠	حارة البجرمية	—	٢٦	١٤	١٢٨	١٦٨
٣١	حارة المناصرة	—	—	٤	٣٦	٤٠
٣٢	حارة العفيفي	—	٣٣	٣٩	٧٤	١٤٦
٣٣	حارة النفاروه	—	٦	٣	٣٧	٤٦
٣٤	حارة الزهار	—	٤٧	٨	١	٥٦
٣٥	حارة السليمانية	—	—	٣	١٧	٢٠
٣٦	حارة الممشا	—	٣١	٦	٢٨	٦٥
٣٧	حارة الاجاهرة	—	—	—	٣٢	٣٢
٣٨	حارة السنوانية	—	٨	٣	١٩	٣٠
٣٩	حارة الواطية	—	٧	١	—	٨
٤٠	زاوية الجوهريه	—	١٤	٢	١٩	٣٥
٤١	زاوية العميان	—	١٨	١٠	١٩٧	٢٢٥

جملة تعداد الجامع الازهر ٢٠ ٢٥٠٠ ١٢٧٤ ٢٧٨٥ ٦٧٤٣ (١٠) سنة ١٣٠٤ شوالية

وازاء الانقلاب العثماني في الشؤون القضائية فقد استعانت الدولة العثمانية برجال القضاء العثمانيين وعلى رأسهم قاضي عسكر أفندي ( قاضي القضاة بمصر ) وسدت النقص من علماء رواق الشوام الاحناف الذين برزوا في الفقه الحنفي ، ونظرا لسوء حالة القضاء في مصر ابان العصر العثماني ، فكانت مناصب القضاء تباع وتشتري ، تورع كبار العلماء المصريين بالازهر عن تقلد مناصب القضاء وهذا نلاحظه في تراجم علماء الازهر المعدودين الذين ذكرهم الجبرتي في تراجمه فاننا لانرى من بينهم عالما معدودا تولى منصب القضاء في عهد الحكم العثماني ، ولعل ذلك يظهر من خلال الدراسة الاحصائية الدقيقة لتراجم علماء الشوام ابان العصر العثماني في الكتب الثلاثة المتقدمة وهي كتب : المحبى والمرادي والجبرتي .

فالمحبى صاحب خلاصة الاثر في أعيان القرن الحادي عشر يذكر عن

والده فضل الله بن محب ( ت ١٠٨٢ هـ ) وهو من المبرزين في الفقه الحنفي انه كان قاضيا في محكمة الصالحية النجمية بالقاهرة ابان اقامته بمصر (١١) .

والجبرتي يذكر عن حسن بن نور الدين المقدسي أن أصله من بيت المقدس بالشام أتى الى مصر وتلقى دروسه بالازهر وتفقه على الشيخ سليمان المنصوري مفتي الحنفية في عصره ، ولما توفي الشيخ سليمان المنصوري سنة ١١٦٩ هـ تولى الشيخ حسن المقدسي منصب مفتي الحنفية وكان هذا المنصب عالي القدر في هذا العصر فالذي يتقلده يطلق عليه مفتي الديار المصرية وكانت له عدة وظائف يتقلدها المفتي تدر عليه كثيرا من الرزق كالتدريس بمدرسة الصرغتمشية المشروطة لشيخ الحنفية والمدرسة المحمودية ومدرسة الشيخ مطهر (١٢) .

وذكر الجبرتي أيضا انه تلقى دروسه في الفقه على مذهب الامام الاعظم أبي حنيفة في رواق الشوام بالازهر وتخرج فيه على الشيخ عبد الرحمن العريشي مفتي الحنفية بمصر يومئذ وشيخ رواق الشوام ، ويتحدث عن هذه التلمذة وهو بصدد الترجمة لشيخه العريشي فيقول :

« وتولى مشيخة رواق الشوام وبه تخرج الحقيير (١٣) في الفقه فأول ما حضرت عليه متن نور الايضاح للعلامة الشرنبلالي ثم متن الكنز وشرحه للماسكين والدر المختار شرح تنوير الابصار ومقدار النصف من الدرر وشرح السيد علي السراجية في الفرائض (١٤) .

وكان الشيخ عبد الرحمن العريشي سالف الذكر من كبار علماء الحنفية في مصر ، ولد ونشأ بقلعة العريش التي كانت من أعمال غزة ابان العصر العثماني ، وحضر الى مصر والتحق بالازهر وتعلم على شيوخ عصره منهم الشيخ علي الصعيدي والشيخ محمد بن سالم الحفناوي والشيخ حسن الجبرتي والد عبد الرحمن الجبرتي المؤرخ وغيرهم من علماء الازهر ، وعلا شأنه فتولى مشيخة رواق الشوام ، فعظم قدره وتميز على أقرانه في الفقه الحنفي فقصده أرباب الدعاوى للفتوى كما يقول الجبرتي ، فكان بذلك في مرتبة ما نسميه الان بالمستشار القانوني . وكانت هذه الوظيفة أو المهنة حرة وشائعة ابان العصر العثماني وذلك نظرا لجهل بعض القضاة الاتراك الذي استدعى أن يلجأ أرباب الدعاوى الى بعض العلماء المشهورين في الفقه الحنفي ليكتبوا لهم



الفتاوي التي تسند حقهم الشرعي في منازعاتهم وذلك قبل الذهاب الى القاضي التركي الجاهل ، وتولى العريشي منصب مشيخة وافتاء الحنفية في مصر .

واتصل الشيخ العريشي بذوي الجاه من الاعيان والامراء ، وتطلع لمنصب مشيخة الازهر بعد وفاة الشيخ أحمد الدمنهوري سنة ١١٩٠هـ ، كما سنوضح ذلك فيما بعد .

وبعد وفاة الشيخ عبد الرحمن العريشي سنة ١١٩٣هـ خلفه في رعاية أمور الشوام بالازهر الشيخ أحمد اللحام اليونسي المعروف بالعريشي الحنفي ، أصله من خان يونس من أعمال غزة ، حضر الى مصر سنة ١١٧٨هـ وتلقى العلم بالجامع الازهر على الشيخ عبد الرحمن العريشي وعلى الشيخ حسن الجبرتي وعلى المشايخ البيلي والجناحي والصبان والفرماوي وغيرهم من شيوخ عصره ، ولما توفي الشيخ عبد الرحمن العريشي تولى بعده مشيخة رواق الشوام وذكر عنه الجبرتي أن الشيخ عبد الرحمن العريشي أوصى له بجميع كتبه ، وقرأ الدروس في محله بالازهر « وكان فصيحا مستحضرا متضلعا في المعقولات والمنقولات وقصدته الناس في الافتاء ، واعتمدوا أجوبته وتداخل في القضايا والدعاوى (١٥) وتقلد نيابة القضاء في مصر لبعض قضاة العسكر وأصبحت له شهرة في المجال القضائي بمصر لايدانيها غيره .

وهبطت الحملة الفرنسية أرض مصر سنة ١٧٩٨م وهرب القاضي التركي مع من خرجوا من مصر وأراد بونابرت أن يختار شيخا من علماء الازهر ليكون قاضي قضاة مصر (١٦) ، فأصدر أمره في ٢٢ من محرم ١٢١٤هـ ( ١٧٩٩م ) الى أعضاء الديوان بانتخاب قاضي من علماء الازهر يتولى القضاء برأي العلماء .

وقد قابل أعضاء الديوان هذا الاجراء بالاعتراض على الرغم من وجاهته من جانب بونابرت لتعويد المصريين على تولي المناصب القيادية ، ودعا بونابرت جمهورية من علماء الازهر من غير أعضاء الديوان ليتسنى للجميع مناقشة هذه المسألة المهمة على أكبر مستوى من جمهور العلماء ، والا تكون المناقشة مقصورة على أعضاء الديوان ، أمثال الشيخ محمد السادات والشيخ محمد الامير والشيخ محمد الجوهري والشيخ موسى السرسبي والشيخ العناني وغيرهم .

وعلى الرغم من المناقشة الحامية التي دارت في جلسة الديوان والتي أبدى العلماء فيها اعتراضهم على انتخاب قاضي القضاة من علماء الازهر من غير الاتراك الا ان بونابرت أصر على اجراء انتخاب قاض منهم ، فامتثل العلماء لاجراء الانتخاب وأجروا قرعة فاز فيها الشيخ أحمد العريشي الحنفي شيخ رواق الشوام بالازهر .

وترجع معارضة علماء الازهر في أمر تعيين قاضي القضاة من علماء الازهر الى تأصل الهيبة التركية والنفوذ التركي في نفوس المصريين زمنا طويلا ، ومن ناحية أخرى فهم يرون ان ولاية القضاء على المسلمين يجب أن تصدر من حاكم مسلم .

وكان قاضي القضاة في مصر يحتل مكانا عاليا في الهيئة الحاكمة في مصر وتنعته الوثائق بانه : « سيدنا ومولانا شيخ مشايخ الاسلام علامة الانام قاموس البلاغة ونبراس الافهام أشرف السادة الموالي الاعالي الاعزة الكرام الناظر في الاحكام الشرعية قاضي القضاة يومئذ بمصر المحمية الموقع خطه الكريم أعلاه دام علاه آمين » (١٧) .

وكانت هذه اول مرة ولي فيها قاضي القضاة ابان العصر العثماني بانتخاب علماء الازهر وهي بلاشك خطوة كبرى في سبيل تقدم النظام القضائي بمصر لان العثمانيين درجوا على ارسال قضاة جهلاء في الاحكام الشرعية فضلا عن جهلهم لغة البلاد ، وانتخاب قاضي قضاة مصر من بين علماء الازهر لاشك سيرفع من منزلة القضاء وأصدر بونابرت أوامره باقامة حفل كبير بمناسبة تولية قاضي القضاة الجديد الشيخ أحمد العريشي ودعا الى هذا الاحتفال اعضاء الديوان العمومي وبعض العلماء والاعيان من غير أعضائه ، وبدأ الاحتفال بموكب كبير بدأ من منزل الجنرال ( دوجا ) قائمقام بونابرت ، وركب الجميع الى بيت ساري عسكر - بونابرت - ومعهم الشيخ أحمد العريشي فالبسه بونابرت فروة ثمينة وذهبوا جميعا الى المحكمة الكبرى بين القصرين حيث المقر الرئيسي لقاضي قضاة مصر (١٨) .

وظل الشيخ العريشي قاضيا لقضاة مصر حتى مقتل كليبر فعزله الفرنسيون لكون القاتل وهو سليمان الحلبي (١٩) من رواق الشوام ، فلما تبينوا براءته أعادوه الى منصبه ، وعندما خرج الفرنسيون من مصر وعاد العثمانيون اليها سنة ١٢١٦ هـ فصلوه من منصبه وعينوا مكانه

تركيا من جنسهم كما جرت بذلك النظم العثمانية طوال فترة الحكم العثماني ، وظل الشيخ أحمد العريشي شيخا لرواق الشوام مع اشتغاله بالقاء دروس العلم بالازهر وعمله كمستشار قانوني يصدر الفتاوى لاصحاب القضايا الى أن توفي عام ١٢١٨هـ في طريق عودته من أداء فريضة الحج حيث مرض بالطريق ولقي ربه عند ( نبط ) ودفن بها عليه رحمة الله (٢٠) .

وظل رواق الشوام منفردا بالزعامة والشهرة في تخريج العلماء على المذهب الحنفي حتى استقرت أسرة الرافعي الشامية في مصر وانفرد علماءها وأقطابها بالشهرة في هذا المجال ، ففدا الرواق مركزا علميا هاما لتعلم أصول المذهب الحنفي ، وأول من وفد من أسرة الرافعي لتلقي العلم بالازهر هو جدهم الكبير الشيخ عبد القادر بن عبد اللطيف الرافعي الكبير حضر الى مصر في عصر محمد علي الكبير وأنعم عليه محمد علي بقصر مشيد في حي الخرنفش بالقاهرة بما اشتمل عليه من أثاث نادر (٢١) ، وقد تلقى الشيخ عبد القادر الرافعي الكبير العلم في الازهر على علماء عصره وبرع في العلوم والمعارف ولازم الشيخ محمود الكردي الكبير الذي ترجمه الجبرتي في وفيات سنة ١١٩٥هـ وكان رحمه الله معجبا بشيخه الكردي فكان يكتب امضاءه هكذا : « عبد القادر الرافعي خادم القطب الكردي » وعاد الشيخ عبد القادر الرافعي الكبير الى وطنه طرابلس الشام ، يدرس في الجامع المنصوري الكبير بها ويحضر درسه خلق كثير وظل كذلك حتى توفي في طرابلس عام ١٢٣٠ هـ .

وأتى بعده ولده الشيخ مصطفى الرافعي الذي تلقى العلم في الجامع الازهر ورجع الى وطنه طرابلس الشام وكان قد أخذ طريقة الخلوتية على الشيخ أحمد الصاوي ولازمه ملازمة كلية حتى أتم سلوك الطريقة على يديه .

وأتى بعد الشيخ مصطفى ابنه الشيخ محمد الرافعي الذي حضر الى مصر سنة ١٢٤٣ هـ ، وهو أول من استقر من الرافعيين في مصر ، وتلقى العلم على يد والده وعلماء عصره من شيوخ الازهر وفي مقدمتهم الشيخ التميمي الداري مفتي مصر وقتئذ وشيخ رواق الشوام بالازهر فأخذ عنه أصول الفقه الحنفي وبرع فيه واشتهر الشيخ محمد الرافعي في التبصر في فقه الحنفي وتخرج كثيرون على يديه ممن تقلدوا مناصب

القضاء والفتيا في مصر والبلاد العربية يقول عنه ابن أخيه محمد رشيد الرافي : « لم يكن في الازهر يومئذ من علماء الاحناف غير شيخه الشيخ التميمي الداري شيخ رواق الشوام والشيخ الكتبي والشيخ المنصوري والشيخ اسماعيل الحلبي يحيط بهم من الطلبة عدد لايجاوز المائتين ، وأكثرهم من السوريين والأتراك . . . فلم يكديتصدي للافادة حتى أقبل عليه جميع الطلبة على اختلاف مراتبهم في العلم . . . حتى صار مرجعهم في حل المشكلات . . . وتوسع في الافادة . . . فهو شيخ الاحناف على الاطلاق وجميع الموجودين منهم اليوم أما تلامذة له ، وهم قليلون لوفاة أغلبهم أو ممن تلقوا على تلامذته(٢٢) .

فمن تلامذته : عبد الرحمن البحرأوي وعبد الله الدرستاوي وحسين الطرابلسي وصالح قراقوش وسليم القلعاوي وراشد أفندي وحسنين الملط ومصطفى القرشي وحسين الخليلي وأحمد الرافي من أكابر علماء الازهر وقاضي مديرية الجيزة المتوفى في ١٣ ذي القعدة ١٢٩٦ هـ ، والشيخ مسعود النابلسي .

وتخرج على هؤلاء الشيخ حسونه النواوي شيخ الجامع الازهر ومفتي الديار المصرية وعبد الرحمن القطب شيخ الازهر والشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية والشيخ بكري الصدي مفتي الديار المصرية أيضا والشيخ أحمد أبو خطوة عضو محكمة مصر الكبرى الشرعية والشيخ محمد بخيت المطيعي العضو الاول بالمحكمة الكبرى الشرعية بمصر ومفتي الديار المصرية ، وغير هؤلاء ممن تخرجوا من مدرسة رواق الشوام .

وقد تولى الشيخ محمد الرافي المومي اليه مشيخة رواق الشوام بعد وفاة شيخه الشيخ التميمي الداري سنة ١٢٦٨ هـ ، ويذكر عنه ابن أخيه محمد رشيد الرافي سالف الذكر انه عمل الكثير لخير الازهرين وتنظيم النظام القضائي بمصر وذلك بسبب اتصاله بالامراء والحكام فيقول ما نصه : « ومن أعمال المرحوم الشيخ محمد الرافي لخير الازهرين انه سعى لدى الامراء وأهل السعة في ترتيب المرتبات لهم ولم يكونوا ينالون من قبل الا ما هو دون الكفاف وكانت مناصب القضاء والافتاء ليس لها قاعدة يرجع اليها في تعيين من يترشح لاحدها ، ولم تكن مقيدة بمذهب الحنفية ، بل كثيرا ما كانت تسند الى غير الاكفاء فيقع من ذلك الاضطراب في الاحكام وتلتبس الامور لان الواقعة الواحدة قد تتحمل اراء كثيرة من المذاهب المختلفة فبذل المرحوم

كل ما في وسعه وساعده علماء وقته من أهل المذهب حتى جعل ذلك  
خاصا بالحنفية وحدهم وبهذا وضع أساس النظام الشرعي في الحكومة  
المصرية .

ولما أفلح في مسعاه ذلك انتشر اكثر تلامذته في مراكز القضاء  
والافتاء في هذه الديار فبثوا في الناس ما أخذوا من علمه وما استفادوا  
من فتواه حتى عم ذلك فيهم وبهذه الوساطة أقبل الطلبة على المذهب  
الحنفي حتى صار عددهم اليوم نصف من في الازهر أو يزيدون (٢٣) .

وكان الشيخ محمد الرافعي جسم النشاط أسندت اليه كثير  
من المناصب في الديار المصرية ومنها نيابة الحكم في محكمة مصر الشرعية  
الكبرى وعضوية المجلس العالي الملكي الذي أنشأه محمد علي باشا سنة  
١٢٤٠هـ وعين فيه عالما من كل مذهب من المذاهب بشرط ان يكون ثقة  
في سلوكه وفي علمه وذلك للنظر في جميع المسائل الشرعية وكان يرجع  
الى هذا المجلس في كل أمر من الامور المهمة وظل كذلك حتى الفى  
في سنة ١٢٦١هـ بامر محمد سعيد باشا وأنشأ مجلس (٢٤) الاحكام ليقوم  
مقام المجلس العالي سالف الذكر ، وعين محمد الرافعي عضوا فيه  
وكان مجلس الاحكام هذا يتألف من سبعة أعضاء ومن الكبراء وبعض  
العلماء ، وبقي هذا المجلس حتى ظهرت المحاكم الاهلية فالفي ، وكان  
اختصاصه النظر في المسائل الكبرى ما عدا الامور التي اختص بها  
المجلس الخصوصي (٢٥) .

وكان لمجلس الاحكام شأن كبير في عهد سعيد واسماعيل فكان بمثابة  
هيئة استئناف عليا ، ولذلك أطلق عليه أحيانا : « مجلس استئناف  
مصر » وكان من بين أعضائه في سنة ١٢٧٣هـ من علماء الازهر : الشيخ  
محمد العباس المهدي مفتي الحنفية ، والشيخ مصطفى العروس الشافعي  
والشيخ محمد الرافعي الحنفي والشيخ علي البقلي والشيخ محمد  
الشرقاوي (٢٦) .

وتولى الشيخ محمد الرافعي كذلك منصب مفتي ديوان الاوقاف  
بمصر وبقي في منصبه هذا الى أن جاءه أمر ربه في يوم الثلاثاء لاحدى  
عشر خلون من رجب سنة ١٢٨٠هـ ودفن بقرافة المجاورين الخاصة  
بعلماء الازهر ، وراثاه العلماء بمراثي كثيرة كان من أعظمها ما قاله الشيخ  
أحمد ابي العز نقتطف من أبياتها ما يلي :

امام الأنام الرافعي الذي غدت  
فضائله في الغرب والشرق تنشر

امام على نشر الافادات فانتهى  
لرفقته هذا العلا والتصدر

.....

كسا الأزهر المعمور أنوار حكمة  
فأرجأؤه من درسه تنور

فيا بقعة أجنحت بأثار علمه  
تير ومن أنفاسه تنعطر

ويا روضة في أزهـر العلم درسه  
بجملة أنواع الافادات تزهر

ولما توفي الشيخ محمد الرافعي تقلد أخوه الشيخ عبد القادر الرافعي مشيخة رواق الشوام بعده وحل محل أخيه في أستاذية الفقه الحنفي برواق الشوام والأزهر ، وقد حضر الشيخ عبد القادر الرافعي الى مصر في ٢٠ من ذي القعدة سنة ١٢٦٣ هـ فأخذ الفقه عن أخيه محمد الرافعي وعليه تخرج في الفقه والحديث والتفسير والمعقول عن ابراهيم الباجوري والاستاذ الكبير محمد الاشموني ، ونال شهادة أساتذته ومنحوه الاجازات العلمية على طريقة اجازات السلف الصالح وذلك قبل تقرير الامتحان بالأزهر على عهد الشيخ محمد المهدي العباسي سنة ١٨٧٢م ( ١٢٨٩هـ ) ، ومنها اجازة استاذة العلامة الشيخ أحمد المشهور بمنة الله سنة ١٢٧٢هـ وسوف نذكرها في ملاحق هذا البحث .

وقد تصدى الشيخ عبد القادر الرافعي للافادة والتدريس في الأزهر في تلك السنة التي نال فيها اجازة أستاذه الشيخ أحمد منة الله سنة ١٢٧٤هـ وأقبل عليه الطلبة ينهلون من علمه الغزير ، وكان نسخة منقحة ومرآة مصقولة وانطبع فيها فقه أخيه محمد الرافعي ، وتخرج عليه

جميع الحنفية الا ماندر ، وتصدر غالبهم بالتدريس بالجامع الازهر الشريف طبقة بعد طبقة ، وتقلدوا مناصب القضاء والفتيا في مصر وغيرها فأفادوا البلاد بعلومهم .

من تلامذته في مصر : الشيخ عبد الرحمن السويسي الذي كان عضواً بمحكمة مصر الكبرى الشرعية والشيخ أحمد ادريس العضو بالمحكمة المذكورة والشيخ الغرابلي عضو المحكمة الكبرى الشرعية والشيخ عبد الكريم سلمان عضو المحكمة العليا وعضو مجلس ادارة الازهر ، والشيخ عبد الرحمن فوده قاضي ثغر الاسكندرية ، والشيخ محمد الطوخي قاضي مديرية أسيوط ، والشيخ عبد المعطي الخليلي ، والشيخ السيسي مفتي مديرية القليوبية ، والشيخ علي المغربي قاضي محافظة دمياط والشيخ علي الشابوري مفتي مديرية الدقهلية ، والشيخ ادريس قاضي مديرية الشرقية ، والشيخ علي عبد الله العضو بمحكمة مصر الكبرى الشرعية ، والشيخ موسى كساب قاضي مديرية الدقهلية والشيخ صالح الجارم قاضي مديرية البحيرة ، والشيخ حسن القيسي قاضي مديرية المنيا ، والشيخ محمد ناجي العضو بمحكمة مصر الكبرى الشرعية ، والشيخ مصطفى الطهطاوي قاضي مديرية أسيوط ، والشيخ عبد الله الطرابلسي مفتي دمياط ، والشيخ محمد حسنين المرصفي قاضي سيوه وغيرهم من قائمة طويلة ذكرها ابنه محمد رشيد الرافي في ترجمته لوالده (٢٧) .

ومن تلاميذ الشيخ عبد القادر الرافي من علماء الشام الشيخ حسين الجسر عالم طرابلس الشام صاحب الرسالة الحميدية الشهيرة (٢٨) ، والشيخ يوسف النبھاني الشاعر المشهور ورئيس محكمة الحقوق بمدينة بيروت ، والشيخ عباس الخماش من كبار علماء نابلس وأحد أعضاء مجلس ادارتها ، والشيخ أمين الهدى الخماش مفتي نابلس والشيخ مصطفى الخياط والشيخ أحمد الخماش من علمائها كذلك ، من علماء نابلس ، والشيخ عبد العظيم الشرايبي من علمائها أيضاً ، والشيخ مصطفى الخياط والشيخ أحمد الخماش من علمائها كذلك ، والشيخ علي مبارك الغوري من علماء القدس الشريف ، وأخوه الشيخ سعود الغوري من علمائها والشيخ محمد العبيسي مفتي حلب ، والشيخ مصطفى زيد النابلسي مفتي السلط ، والشيخ راغب الداودي من علماء

القدس وأخوه الشيخ عبد الرزاق الداودي والشيخ عبد الكريم عويضة  
من علماء طرابلس وغيرهم ممن يطول ذكرهم .

وتلقى العلم على الشيخ عبد القادر الرافعي أيضا جميع علماء  
الاسرة الرافعية ومنهم أخوه العلامة الشيخ عمر الرافعي الذي اشتهر  
بالورع والتقوى وكان أمينا لفتوى الديار المصرية وتوفي في الثامن من  
المحرم سنة ١٣١٥هـ ، والشيخ عبد الرحمن الرافعي مفتي ثغراسكندرية  
وصاحب الفتاوى الجليلة في فقه الحنفية توفي في ١٥ من رجب سنة  
١٣٠١هـ ، الشيخ محمد علي الرافعي الشهير بالولي وكان صالحا ورعا  
معروفا بالزهد وهو صاحب التقرير الوارد على متن الاشباه والنظائر  
في فقه الحنفية توفي سنة ١٣٠١هـ ، والشيخ محمد سعيد الرافعي  
الكاتب البليغ والشاعر الاديب مفتي مديرية الجيزة توفي في ٢٦ من  
ذي القعدة سنة ١٣١٠هـ والشيخ أحمد الطيب الرافعي مفتي شبين  
الكوم ، صاحب التصانيف المفيدة منها تقرير المسمى : « دقائق الافكار  
على رد المحتار » للامام ابن عابدين الشهير في خمسة مجلدات ، ومنها  
فتاوى فقهية أودع فيها مالا يستغنى عنه كل عالم عامل ، ومنهم الشيخ  
عبد اللطيف الرافعي ( والد عبد الرحمن الرافعي المؤرخ ) من أكابر علماء  
الازهر ومفتي ثغراسكندرية ، والشيخ عبد الرزاق الرافعي أحد  
كبار العلماء وقاضي مديرية الغربية ، والشيخ عبد الحميد الرافعي قاضي  
المدينة المنورة (٢٩) والشيخ محمد طاهر الرافعي قاضي كفر الزيات  
المتوفى في غرة رجب سنة ١٣١٨هـ . والشيخ محمد عبد الغني  
الرافعي وأخوه الشاعر النابغة عبد الحميد بك الرافعي قائمقام بصرى  
الحرير ، ومحمد رشيد الرافعي بن الشيخ عبد القادر الرافعي (٣٠) ..

وعلت شهرة عبد القادر الرافعي في فقه الامام الاعظم أبي حنيفة  
حتى كان يلقب بأبي حنيفة الصغير ، وكان له بجانب استاذيته لكثير من  
العلماء الكثير من المؤلفات والتقارير العلمية في الفقه الحنفي منها : « تقرير  
على الدر المختار » ( مطبوع ) « تقرير على الاشباه والنظائر » في أصول  
الفقه ( مطبوع ) ، و « جدول الاغلاط الواقعة في كتاب قرّة عيون الاخبار  
تكملة رد المحتار على الدر المختار » ( مخطوط ) (٣١) .

وقد منحته الدولة بدل كسوة التشریف من الدرجة الاولى اعترافا  
بعلمه وفضله ، وكانت كسوة الدرجة الاولى يومئذ عبارة عن مرتب



سنوي قدره ٣٠ جنيها و ٨٦٧ مليما ، وكانت تمنح قبل عام ١٣١٢ هـ  
لاثنين من العلماء أحدهما بالضرورة شيخ الأزهر (٢٢) .

وقد ورث الشيخ عبد القادر الرافي ( الصغير ) مناصب أخيه  
الراحل الشيخ محمد الرافي متقلداً مشيخة رواق الشوام منذ عام  
١٢٨٠ هـ ثم منصب مفتي ديوان الاوقاف وعينه الخديوي اسماعيل  
عضواً في مجلس الاحكام مع حداثة سنه بالنسبة لغيره من العلماء  
الموجودين فيه كالشيخ مصطفى العروسي شيخ الجامع الأزهر سنة  
١٢٨١ - ١٢٨٧ هـ ( ١٨٦٤ - ١٨٧٠ م ) والشيخ محمد عليش شيخ  
رواق المغاربة بالأزهر المتوفى سنة ١٨٨٢ م ، وعندما تشكلت محكمة  
مصر الكبرى الشرعية على عهد الخديوي اسماعيل وشكل لها مجلسين  
علميين عين الشيخ عبد القادر رئيساً للمجلس الثاني سنة ١٢٩٣ هـ  
فمكث فيه خمس سنوات ولما أُلغي المجلس الاول واكتفى بمجلس واحد  
كانت الرئاسة له أيضاً ، وكان من عمل المجلس أن ينظر في الاعلامات  
الشرعية ( غير النظر في القضايا الكثيرة المهمة ) التي تصدر من جميع  
محاكم القطر المصري عند الطعن فيها من الخصوم واستمرت في رئاسة  
هذا المجلس حتى ١٣١٣ هـ (٢٢) .

وتقلد الشيخ عبد القادر الرافي أيضاً منصب مفتي الديار  
المصرية الذي خلا بموت الشيخ محمد عبده سنة ١٣٢٣ هـ ولكن عاجلته  
المنية فلم يلبث به سوى ثلاثة أيام ٤ - ٧ من رمضان ١٣١٣ هـ (٢٤) .

وكانت الأسرة الرافية موضع الاحترام والرعاية من حكام مصر  
وأهلها وأصبحت جزءاً لا يتجزأ من الهيئة الاجتماعية المصرية ، واستحق  
الرافعيون احترام المصريين واعترافهم بفضلهم وعلمهم حتى قال أمير  
الشعراء أحمد شوقي فيهم :

**أعزني النجم أوهب لي يراعاً**

**يزيد الرافيين ارتفاعاً**

**تأمل شمسهم وهدى ضحاها**

**تجد في كل ناحية شعاعاً (٢٥)**

ولعل من المفيد أن نذكر أن الأسرة الرافعية بمصر منجبة للاعلام المشهورين في علوم الدين والادب والتاريخ والسياسة ، فمن اعلامها في الادب مصطفى صادق الرافعي ذائع الصيت ، وفي الصحافة والسياسة أمين الرافعي الزعيم المجاهد واحد عمد الحزب الوطني وزميل مصطفى كامل ومحمد فريد وأخيه عبد الرحمن الرافعي بن عبد اللطيف الرافعي المحامي وشيخ المؤرخين وأعظم من توفر على كتابة تاريخ مصر الحديث (٢٦) حتى الآن .

وبعد وفاة الشيخ عبد القادر الرافعي قرر مجلس ادارة الازهر بجلسته المنعقدة في ٨ من شوال سنة ١٣٢٣هـ تعيين الشيخ حسين الطرابلسي أحد اعلام الشوام شيخا لرواق الشوام بالازهر لشهرته بالتقوى والصلاح وحسن الادارة ، وانه يحافظ على الحق في كل أعماله (٢٧) .

وبلغ الشاميون الذروة في البراعة في مذهب الامام الاعظم أبي حنيفة النعمان فنظموا الاحكام الفقهية شعرا على غرار الفية ابن مالك في نظم قواعد اللغة العربية .

وكان ممن برع في هذا المجال السيد محمد منيب الهاشمي ( ١٢٧٢ - ١٣٤٢ هـ ) الجعفري قاضي طرابلس الشام وأحد خريجي الازهر الافذاذ .

نظم متن « تنوير الابصار » في الفقه الحنفي في زهاء ألف وثلاثيها من الابيات الشعرية تسهلا لحفظ القواعد والاحكام الفقهية وانتهى من نظمها سنة ١٢٩٤ هجرية وأخذ تصريحا بنشرها من دار الفتوى بالاستانة في ١٨ حزيران سنة ١٣٠٦ هـ وطبعت بالمطبعة السلفية بالقاهرة سنة ١٣٤٣ هـ وهي ذات السنة التي توفي فيها المؤلف .

وقد قال مؤلف هذه المنظومة في مقدمتها :

« وبعد فان أولى مايرغب فيه الرافعون وأحرى ما يتناقش فيه المتناقشون هو علم الفقه المتكفل ببيان الحلال والحرام الواجب تعرفهما على سائر الانام وان من أجل ما صنف فيه « تنوير الابصار » الذي اشتهر فضله في الاقطار بيد انه لكونه نشرا مع كبر حجمه دعت الضرورة

لاختصاره ونظمه فاختصره في زهاء ألفي بيت رجزية ، تسهيلا لحفظ القواعد والفروع الفقهية ، وذلك بعد الاطلاع على ما حرره سرحه « الدر المختار » واختصرت الكلام في الابواب القليلة الوقوع ، واطنبت فيما يكثر وقوعه من الفروع وربما عدلت عنه في بعض المسائل لكون ما عدلت اليه أولى عند ائمتنا الاعيان الاماثل فدونك كتابا صغير الحجم ، كبير العلم فريدا في هذا الشأن ، لم تنسج على منواله يد الزمان وستقر به بعد التأمل العينان « (٢٨) .

وذاك نموذج من هذا النظم :

وغسل وجهه ويديه في الوضوء  
رجليه مسح ربع رأس فرضوا  
وسنت النية فاعلم أوله  
وقبل الاستنجا وبعد البسمة  
وغسله اليدين للرسفين في  
بدء وعن فرض به قد اكتفى  
تسوك وغسل أنف والفم  
وفيهما البلاغ لا لصائم  
تثليث غسله وان يخللا  
ومسحه من لحية مسترسلا (٢٩)

والمؤلف هو محمد منيب بن محمود بن مصطفى الهاشمي الجعفري ، ولد سنة ١٢٧٢ هـ في بلدة نابلس الفلسطينية من أسرة تنتسب الى جعفر بن أبي طالب ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم ، تعلم مبادئ الكتابة والقراءة وحفظ القرآن في المدرسة الاهلية الكبيرة في نابلس ثم رحل الى مصر والتحق برواق الشوام بالازهر في ١٢٨٥ هـ فتلقى على جهاذة عصره ومنهم الشيخ محمد الانبابي والشيخ ابراهيم السقا والشيخ محمد الاشموني وغيرهم ومنحه أساتذته بعد مضي خمس سنوات اجازة تدل على مبلغ ما وصل اليه من التفوق وكان مما جاء فيها :

« كان ممن ورد علينا من بيوت السيادة والمجد ومواضع الرفعة والحمد معتصما بتقوى الله فيما رام من الفضائل الازهرية مؤيدا بالتوفيق وسامي العزمات القوية وعكف على هذا المطلب الاسمى حق العكوف ووقف في المقام الاسمى على قدم الصدق فيه أوثق وقوف فأسعفته العناية ووالته الامدادات فنظم ونثر وحرر وقرر وادرك في أزهرنا غاية في الاحاطة وقوة الملكة والحفظ مع صغر سنه وقرب عهده بالبلوغ حمى فيها حومة الميدان وانقطعت عنه مبارزة الاقران وأذعن اباهر فضله الواقع وحقيقة العيان وسترى من ذلك ان شاركته في البحث ما يضيق عنه نطاق البيان واذ شاهدت عينك شأن امتحانه ستعلم اني فيه قصرت في المدح . ولدنا العلامة العلم والهمام الحكم أعجب فاضل وأغوص عالم السيد منيب هاشم (٤٠) .

وبعد أن حاز شهادة أساتذته بالازهر رجع الى بلده واشتغل بالعلوم تاليفا وتدريسا ، ثم رحل الى استانبول سنة ١٣٠٥هـ حيث عمل في مجلس تدقيق المؤلفات ، ثم عاد الى الشام حيث عمل قاضيا في طرابلس الشام سنة ١٣٠٩ هـ فقاضيا في لواء قرندس ( من أعمال ولاية بروسه ) فقاضيا في لواء بنغازي بليبيا ، وفي سنة ١٣٢٥هـ عين مفتيا ببلدته نابلس الى أن وافته منيته في ١٣٤٣هـ (٤١) .

وبوفاة الشيخ عبد القادر الرافي ( الصغير ) أسدل الستار على فترة هامة من ريادة علماء الشوام بالازهر للفقهاء الحنفي والحياة القضائية بالديار المصرية . وكانت مدرسة الرافعيين برواق الشوام قد أنجبت كثيرا من فطاحل علماء الحنفية المصريين أمثال الشيخ البراوي والشيخ محمد عبده والشيخ عبد الكريم سلمان والشيخ محمد بخيت المطيعي والشيخ محمد حسنين مخلوف والشيخ أحمد الجداوي والشيخ بكري محمد عاشور الذي تولى منصب مفتي الديار المصرية بعد وفاة الشيخ عبد القادر الرافي (٤٢) وغيرهم .

غير أن مكتبة رواق الشوام ظلت تذخر بنفائس المخطوطات والكتب في فقه أبي حنيفة ، فيقول الشيخ عبد الحميد السايح انه أتى الى الازهر في سنة ١٩٢٠م بعد الحرب العالمية الاولى مع ستة من زملائه الفلسطينيين ، وكانوا أول دفعة أتت من الشام الى الازهر بعد الحرب ، وانه عندما حضر الى رواق الشوام وجد مكتبة الرواق تذخر بنفائس

الكتب والمخطوطات في فقه الامام الاعظم أبي حنيفة ، بيد انه درس اصول الفقه الحنفي على علماء مصريين منهم الشيخ البراوي والشيخ محمد بخيت المطيعي والشيخ محمد حسنين مخلوف وغيرهم ، والتحق بمدرسة القضاء الشرعي التابعة للازهر من سنة ١٩٢٣ حتى ١٩٢٧ م وتلقى فيها الفقه الحنفي على علماء منهم الشيخ أحمد الجداوي والشيخ محمد حسنين مخلوف (٤٢) .

واذا ذكرنا مشايخ رواق الشوام بالازهر من العلماء الشاميين الذين لهم اثر كبير في الحياة العلمية الازهرية ، فلا بد ان نشير الى الشيخ عيسى منون الذي انتخب شيخا لرواق الشوام بعد وفاة الشيخ يحيى الخليلي سنة ١٩١٨ م وكان بينه وبين الشيخ عبد القادر الرافعي شيخين للرواق هما الشيخ حسن الطرابلسي ثم الشيخ يحيى الخليلي ووصل الشيخ عيسى منون الى عضوية جماعة كبار العلماء ولجنة الفتوى بالازهر وعميد كليتي الشريعة واصول الدين .

وكان الشيخ عيسى منون ابا روحيا يرعى كل الطلبة الشوام بالازهر ويعطي أغلب وقته لهم ويحافظ على أوقاف الرواق ووجه عنايته لاوقافه فتماها . ووصل عدد طلاب الرواق على عهده ( ٥٠٠ طالب ) من السوريين والفلسطينيين والاردنيين واللبنانيين .

وعيسى منون أصله من عين كارم من ضواحي القدس الشريف ، وهو عيسى بن يوسف بن أحمد منون ، ولد سنة ١٣٠٦ هـ بعين كارم بالقدس وتلقى مبادئ العلوم الاسلامية بها ، ثم ارتحل الى الازهر في سنة ١٣٢٢ هـ ، وبعد انتسابه للازهر بخمس سنوات رأت مشيخة الازهر أن تدخل الانظمة الحديثة وتضع الطلاب في سنوات دراسية تناسب مؤهلاتهم العلمية وجعلت مدة الدراسة اثني عشر عاما ، ثم نال شهادة الاهلية من الدرجة الاولى سنة ١٣٢٩ هـ ( ١٩١١ م ) ثم شهادة العالمية من الدرجة الاولى أيضا بعدها بعام مباشرة ١٩١٢ م (٤٤) .

وكان شافعي المذهب درس على كثير من علماء عصره منهم الشيخ عبد الحكيم عطا والشيخ محمد شاکر والشيخ حسين والي والشيخ سليم البشري والشيخ محمد حسنين مخلوف والشيخ محمد بخيت المطيعي والشيخ محمد عبده والشيخ دسوقي العربي والشيخ أحمد الرفاعي والشيخ أحمد نصر .

وقد وجه الشيخ عيسى منون عنايته للاوقاف المحبوسة على الرواق فنماها ، وقد تحسن ايراد اوقاف رواق الشوام عما كان عليه قبل أيام تولى وزارة الاوقاف شئون النظارة على اوقاف الرواق وأصبحت على عهده قريبا من الضعف ، فقد كان ايراد اوقاف الرواق حسب كشف التسليم من الوزارة في سنة ١٩١٨ هو ٧٢٥٦٤٧ ج فارتفعت في سنة ١٩١٩ م الى ٨٥٠٠٣٥ ج ، وفي سنة ١٩٢٠ م ارتفعت الى ٨٩٧٠٩٧ ج ، وفي سنة ١٩٢١ م ارتفعت الى ١٤٢٣٦٠٩ ج (٤٥) .

وعلى الرغم من تحسن الايراد كما سلف الا أنه قدمت بعض الطعون من أهل الرواق الطعن في ذمة الشيخ عيسى منون ، وشكلت ادارة الازهر لجنة من الشيخ محمود الدنياري والشيخ محمد صادق عزام لمحاسبة شيخ الرواق وقدمت اللجنة تقريرا عن أوضاع اوقاف الرواق الى مجلس ادارة الازهر ، وعرض هذا التقرير في جلسة ١٧ من شوال ١٣٤٠ هـ برياسة الامام الاكبر شيخ الازهر محمد أبو الفضل ، وقرر مجلس ادارة الازهر بعد الاطلاع على المستندات الموجودة لدى شيخ الرواق تبريء ساحته بعد أن تأكد من تحسن ايراد اوقاف الرواق على عهده كما سلف (٤٦) .

ومن مآثر الشيخ عيسى منون أنه فتح أبواب مدرسة القضاء الشرعي أمام الطلاب الغرباء ، وكان من شروط الانتساب اليها أن يكون الطالب حاملا لشهادة العالمية المصرية ، وأن يكون حنفي المذهب ، فما زال الشيخ عيسى يوالي اتصاله بالقائمين عليها ويشرح لهم فوائد فتح أبواب هذه المؤسسة العلمية أمام الطلاب الغرباء ليكون منهم قضاة قديرون يحكمون بين الناس بالعدل ويسيروا بسيرة أسلافهم حتى كللت جهوده بالنجاح ودخلها فريق من نبهاء الطلاب الاحناف اذ ذاك ، ووقفت عقبة المذهب أمام بعض آخر من الطلاب الذين كانوا ينتمون الى مذهب آخر فاقترح رحمه الله تديلا لهذه العقبة أن يكلف طلاب الشافعية بامتحان مسابقة في فقه الامام أبي حنيفة وفعلا أجريت لهم هذه المسابقة (٤٧) . وتمكنوا من الالتحاق بهذه المدرسة .

وعندما أنشئت كليات حديثة بالازهر بمقتضى قانون سنة ١٣٤٩ هـ ( ١٩٣٠ م ) وهي كلية اللغة العربية وكلية الشريعة وكلية أصول الدين ، وكان من شروط الانتساب اليها أن يكون الطالب حاملا لشهادة اتمام

الدراسة الثانوية ، ولم يكن هذا أمرا ميسورا بالنسبة للطلاب الوافدين من شتى أنحاء العالم الاسلامي ، فبقيت الكليات مغلقة الابواب أمامهم .

وأدرك الشيخ عيسى منون مبلغ الضرر الذي لحق بأولئك الطلاب من حرمانهم من مرحلة التعليم العالي وحاجتهم اليها ماسة وأممهم في أشد الحاجة اليهم لانهم سيكونون رسلا ودعاة الخير ، فسعى لدى المسؤولين حتى أصدروا تشريعا يجيز الطلاب الوافدين بأداء امتحان مسابقة في طائفة من العلوم التي تقررها كل كلية وأجريت لهم هذه الامتحانات وتمكنوا من الالتحاق بالكليات (٤٨) .

وعلى الرغم من ذلك فقد كانت الانظمة واللوائح المعمول بها في الازهر لاتفي بحاجة الوافدين العلمية ولاتحقق الغاية التي فارقوا أوطانهم وذويهم من أجلها وضج طلاب البعوث الاسلامية بالشكوى من هذا الوضع الذي يعود عليهم بالضرر ، وسعى الشيخ عيسى منون كعادته للوقوف بجانبهم وازالة وجه شكواهم فأخذ يواصل مساعيه ويشرح للقائمين على الازهر ضرورة اصلاح أوضاع الطلاب المبعوثين بالازهر ، وأثمرت جهوده الصادقة ثمرتها واستجاب له شيخ الازهر فضيلة الاستاذ محمد مصطفى المراغى ، وأصدر قرار بتأليف لجنة من مشايخ الأروقة في ٨ من نوفمبر سنة ١٩٤١ م برئاسة الشيخ عيسى منون للنظر في حالة أولئك الطلاب والشكاوى المقدمة منهم من أحكام القانون رقم ٣٦ لسنة ١٩٤١ الصادر بتقسيم الاقسام العامة وفي ماينبغي تعديله من مواد هذا القانون بما يلائم حالة الوافدين ورفع تقرير الى مشيخة الازهر بما تراه اللجنة في ذلك .

وقد اجتمعت اللجنة برئاسة الشيخ عيسى منون ، ووضعت تقريرا ضافيا بما تراه لاصلاح أوضاع الطلبة الوافدين الى الازهر ، وطلبت اللجنة في تقريرها وضع لائحة خاصة تناسب الوافدين لصعوبة التسوية بين كثير من الغرباء والمصريين في المعاملة والمنهج الدراسي لاسيما وان كثيرين منهم يفد الى مصر ولايعرف العربية مما يحتم مضاعفة العناية بهم وتيسير سبل تعليمهم بكل الوسائل (٤٩) .

وقد أخذ الازهر بما اقترحته اللجنة ووضعت لائحة للطلاب الوافدين ، وفتحت بذلك أمامهم كثير من الفرص وزالت كثير من العقبات التي كانت تقف في وجههم .

## انشاء الهيئة الازهرية لانقاذ فلسطين :

عندما قامت الحكومة البريطانية بانهاء انتدابها على فلسطين توطئة لاعلان قيام اسرائيل ، وتحالفت قوى اليهود والانكليز على اجلاء عرب فلسطين عن وطنهم هب الازهر لمناصرة الفلسطينيين ، فقد كان ينتسب اليه مئات من أبناء فلسطين فسعى الشيخ عيسى منون لدى مشيخة الازهر لمناصرة عرب فلسطين فانشأ الازهر « الهيئة الازهرية العليا لانقاذ فلسطين » ومساعدة أبنائها من طلاب فلسطين المجاورين بالازهر برواق الشوام لانقطاع مواردهم عنهم .

وقد اجتمعت هذه الهيئة في ٢٧ جمادى الاولى سنة ١٣٦٧ هـ (٧ من ابريل سنة ١٩٤٨ م) ونظرت في المذكرة التي رفعها عميد الشوام بالازهر الشيخ عيسى منون ( عميد كلية الشريعة يومئذ ) والتي شرح فيها حالة طلاب فلسطين ، وقررت اللجنة لكل طالب مبلغا من المال يستعين به على قضاء مصالحه حتى لايعوقه عائق عن طلب العلم ، كما قررت الهيئة تأليف لجنة فرعية تتولى توزيع الاعانات على أولئك الطلاب بعد بحث حالتهم ، وكان من بين أعضائها الشيخ عيسى منون ، وقررت وضع المبلغ الذي خصص للصرف منه على الطلاب في بنك مصر تحت يد الشيخ عيسى منون (٥٠) .

ومن ذلك نرى أن الشيخ عيسى منون كان من أنشط علماء الشوام بالازهر وبوفاته في ٥ من جمادى الثانية سنة ١٣٧٦ هـ ( ٦ من يناير سنة ١٩٥٧ م ) انتهى جيل علماء رواق الشوام الفطاحل بالازهر ، يقول الشيخ مصطفى فاضل العموري (٥١) في فضل عيسى منون على رواق الشوام بالازهر :

نظرة واحدة الى الاقطار الشامية نجدها أكثر الاقطار الاخرى ازدهارا برجال العلم وشهادة تؤديها أن الفضل يرجع في ذلك للشيخ عيسى منون الذي تولى مشيخة رواق الشوام بالازهر الشريف مدة جيل كامل وذلك مما شجع الكثير من أبناء تلك الاقطار الشامية على طلب العلم والانتساب الى الازهر والاقبال على تعلم الشريعة والدين ، فقد كان رحمه الله وجها كريما ومربيا فاضلا وأستاذا نبيلًا وحارسا أمينًا وبرًا رحيما بالمعوزين مما جعل الاقبال شديدا على الجامعة الازهرية .



فأنت لاتكاد تهبط مدينة أو قرية في تلك الاقطار الواسعة الا وتجد تلاميذه قادتها ، والشخصيات اللامعة فيها لاتفتقر السننتهم عن ذكر شيخهم كلما حلت مناسبة أو عرضت مشكلة فهو زعيمهم الروحي وأستاذهم المربي الذي يمدهم بعلمه وتوجيهه حتى بعد تقلدهم مناصبهم الدينية الرفيعة واشرافهم على مقاليد الامور في دوائر القضاء الشرعي والاقواف الاسلامية والدفاع عن حقوق مواطنيهم (٥٢) .

وكان آخر من تخرجوا بالازهر على نظام الاروقة القديم برواق الشوام مجموعة من العلماء المعاصرين منهم :

المرحوم الشيخ محمد أمين الحسيني رئيس الهيئة العربية العليا لفلسطين والشيخ عبد الحميد السايح رئيس محكمة الاستئناف الشرعية بالقدس ورئيس الهيئة الاسلامية العليا بالقدس ثم قاضي القضاة ووزير الاوقاف والمقدسات الاسلامية في الاردن وحاليا يعمل استاذاً للشرعية الاسلامية في كلية الشريعة بالجامعة الاردنية ، والشيخ مصطفى فاضل العورى قاضي حيفا الشرعي سابقا والمحامي الشرعي بلبنان حاليا ، والمرحوم الشيخ عبد الله غوشه رئيس الهيئة العلمية الاسلامية بالمملكة الاردنية ورئيس جمعية العلماء بها والمرحوم الشيخ رازم مسمار رئيس محكمة الاستئناف الشرعية بغزة والشيخ مصطفى السباعي عميد كلية الشريعة بدمشق (٥٢) وغيرهم .

وكان طلاب العلم المجاورين برواق الشوام بالازهر شانهم شان طلبة الاروقة الاخرى بالازهر يقضون السنين الطويلة مجاورين بالازهر بعيدين عن الاهل والاحبة ، وقلما يعودون الى اوطانهم الاصلية الا بعد حصولهم على الاجازات العلمية من شيوخهم قبل انشاء نظام الامتحان في عصر الخديوي اسماعيل على عهد شيخ الازهر محمد المهدي العباسي ١٨٧٢م أو على شهادة الاهلية أو شهادة العالمية بعد انشاء نظام الامتحان ومنح الشهادات الرسمية .

وكان للشاميين عادات برواقهم عند تمام طلب العلم يحدثنا عنها العلامة علي مبارك فيقول : « وعادة الشاميين اذا تم الواحد منهم غرضه وأراد السفر الى بلده أن يدعو أصدقاءه ومحبيه من الطلبة والمشايخ وقد أوقد لهم الرواق بالشموع وفرشه بقدر حاله ، فيجتمعون الى ما شاء الله من الليل ويظاف عليهم بالقهوة والشربات ، وينشدون

بالمجلس قصيدة أو أكثر تشتمل على مدحه والتنويه بفضله وكثرة فضله ثم ينصرفون ، وعادة أكثر المجاورين عند ختم الكتاب أن يأتوا في الحلقة بالمباخر والقماقم فيها الطيب والعطريات ... ثم يرش عليهم ماء الورد وينثر عليهم نحو اللوز والتمر ويقبلون يد الشيخ وبعض المشايخ يعمل طعاما يدعو عليه الطلبة .

« وعادة المجاورين عند ارادة السفر الى بلادهم أن يطلبوا الاجازات من المشايخ فيكتبون لهم اجازات بخطوطهم متوجة بأختامهم تتضمن الشهادة للمجاور بالتحصيل والمهارة في الفنون والاهلية للتدريس والافتاء مثلا واجازتهم بذلك وقد بين فيها الشيخ اتصال سنده أو بعضه ويوصيه فيها بالتقوى والتحري في الاحكام وان لا يقدم على أمر حتى يعلم حكم الله فيه (٥٤) .

وكان للناهبين من الوافدين الحق في أن يتبوأوا مناصب كراسي العلم بالجامع الازهر ، ونال هذا الشرف عدد كبير من علماء الشام كان في مقدمتهم الشيخ عبد الرحمن العريشي والشيخ أحمد العريشي والشيخ التميمي الداري والشيخ محمد الرافعي والشيخ عبد القادر الرافعي والشيخ عيسى منون وغيرهم كثيرون ممن يطول ذكرهم .

وتحت أيدينا قائمة خاصة بعلماء رواق الشوام بالازهر عام ١٨٨٤م على النحو التالي :

الاسم	الوظيفة	استحقاقه في الجراية
١ - عبدالقادر الرافعي شيخ الرواق	مدرس	١٢ رغيفا
٢ - صالح الجبواوي	«	٦ أرغفة
٣ - حسين الخليلي	«	٦ «
٤ - عبد الله الدوستاوي	«	٦ «
٥ - محمد مدوخ	«	٦ «
٦ - صالح الطرابلسي	«	٦ «
٧ - علي الأبريري	«	٦ «
٨ - محمد حسين الأبريري	«	٦ «
٩ - سليمان الخاني	«	٦ «
١٠ - عبد المعطي الخليلي	«	٦ «
١١ - حسين الطرابلسي	«	٦ «
١٢ - مسعود الخاني	«	٦ «

## أرباب وظائف برواق الشوام سنة ١٨٨٤م

٢٥ رغيفا	جابي الرواق	١ - خطاب الخاني
٢ رغيفا	مغير كتب الشافعية	٢ - محمد مدوخ
٢ رغيفا	مغير كتب الحنفية	٣ - محمود سعيد الرافعي
١ رغيفا	أمين الزيت	محمود سعيد الرافعي
٩ رغيفا	نقيب الرواق	٤ - اسماعيل البلتاني
٥ رغيفا	ملا الرواق (٥٥)	٥ - متولي الحلبي

وكان العلماء الشاميون ( وغيرهم من الوافدين ) ينالون كل الامتيازات التي ينالها العالم المصري دون تفرقة بين المصري وغيره ، فلم يفرق الازهر بين أبنائه في التعيين في مناصب أساتذة الكراسي به وراعى في ذلك التفوق العلمي فقط ، وكان الافاقيون ( الوافدون ) ينالون كل الامتيازات التي ينالها العالم المصري ويعينون في مناصب القضاء والفتيا كما سبق أن أشرنا حتى منصب شيخ الازهر ووكيله ومنصب مفتي الديار المصرية وعضوية هيئة كبار العلماء ، ويحصلون على كساوى التشرية .

### رواق الشوام ومشخة الأزهر :

بعد وفاة الشيخ أحمد الدمهوري شيخ الازهر سنة ١١٩٠هـ (٥٦). ظل منصب مشخة الازهر شاغرا حتى عام ١١٩٢هـ فتطلع شيخ رواق الشوام يومئذ الشيخ عبد الرحمن العريشي الى هذا المنصب الرفيع معتمدا على عصبته برواق الشوام وصلته بالماليك ، ولم يتقلد هذا المنصب من قبل أحد الحنفية حتى ولو كان مصريا فضلا عن أن يكون آفاقيا ( وافدا ) وكان هذا المنصب منذ انشائه ابان العصر العثماني محصورا بين علماء المذهب المالكي والشافعي من المصريين وحدهم (٥٧) وكان الشيخ عبد الرحمن العريشي من كبار علماء الحنفية بمصر وتولى منصب مفتي الديار المصرية فعظم صيته وتميز على أقرانه « كما يقول الجبرتي فتطلع الى منصب مشخة الازهر واتصل بكبير الماليك بالقاهرة ابراهيم بك شيخ البلد فتدخل ابراهيم بك بنفوذه وعين الشيخ عبد الرحمن العريشي شيخا للازهر ، وكانت هذه اول مرة يعين فيها شيخ الازهر من غير المصريين ، وكان مخالفا أيضا لما جرت به العادة منذ زمن طويل من تعيين أحد علماء الشافعية في هذا المنصب لان المذهب الشافعي مذهب غالبية سكان القطر المصري ، وعليه غالبية علماء الازهر المصريين .

و غضب لذلك علماء الشافعية وذهبوا الى الشيخ محمد بن الجوهري (٥٨) واختاروه شيخا للازهر فابى غير انه وعدهم بان يساعدهم في معارضة تولية الشيخ العريشي وتولية من يريدون ، فاجتمعوا برئاسته في منزل السادة البكرية واختاروا الشيخ أحمد العروسي (٥٩) لمشيخة الازهر . وأرسل المجتبعون مذكرة الى الامراء جاء فيها :

« ان مشيخة الازهر من مناصب الشافعية وليس للحنفية فيها قديم عهد أبدا وخصوصا اذا كان آفاقيا ( من الوافدين ) نسبة الى الآفاق المختلفة وليس من أهل البلدة ، فان الشيخ العريشي كذلك وموجود في العلماء الشافعية من هو أهل لذلك في العلم والسن وانهم اتفقوا على أن يكون المتعين لذلك الشيخ العروسي . . . .

وختم الحاضرون على ذلك العرضحال وأرسلوه الى ابراهيم بك ومراد بك ومن معهما من زعماء المماليك فتوقعوا وأبوا ، وقال ابراهيم بك : « أي شيء هذا الكلام أمر فعله الكبار يبطله الصغار ولاي شيء ان الحنفية لايتقدمون في المشيخة على الشافعية ؟ أليسوا مسلمين ومذهب النعمان أقدم المذاهب والامراء حنفية ، والقاضي حنفي والوزير حنفي والسلطان حنفي (٦٠) . وتعصب المماليك لقرارهم السابق ولم يتراجعوا فيه ، وردوا على المشايخ بانهم عند رأيهم السابق .

ثارت ثائرة العلماء عندما وصلهم تشدد المماليك وتزعمهم الشيخ محمد بن الجوهري سالف الذكر وخرجوا بجمعهم الى القرافة الصغرى حيث يوجد قبر الامام الشافعي ومسجده فجلسوا بمسجد الامام الشافعي وباتوا به وكان ذلك ليلة الجمعة حيث يجتمع الناس للزيارة فتجمهرت الناس حولهم واجتمع اليهم الكثير من العامة ينظرون فيما يؤل اليه هذا الامر .

لما كان زعيم هذه الحركة الشيخ محمد بن الجوهري ، وكان للامراء فيه اعتقادا وميل وكذلك نساؤهم وأعوانهم بسبب تعففه عنهم وعدم دخوله بيوتهم ورد صلاتهم وكان متميزا بذلك عن جميع الازهريين ، لذلك فقد سعى أكثر الامراء لاصلاح ذات البين وانقاذ غرض الشيخ الجوهري ، فراجعوا مراد بك وأوهموه حصول العطب له ولهم أو ثوران فئته في البلد « فنزل مراد بك عند رأيهم وخضع وذهب الى الشيخ الجوهري فكلمه الشيخ الجوهري في الامر وقال له : « لابد من فروة نلبسها الشيخ العروسي ، وهو يكون شيخا على الشافعية وذاك ( عبد

الرحمن العريشي ) شيخا على الحنفية كما ان الشيخ أحمد الدردير شيخ المالكية ، والبلد بلد الامام الشافعي وقد جئنا اليه وهو يأمرك بذلك وان خالفت يخشى عليك (٦١) » .

فخشي مراد عاقبة الامر وأحضر فروة وألبسها للشيخ العروسي عند باب مقصورة الامام الشافعي وخرج الامراء والمشايخ وتوجهوا جميعا الى شيخ البلد ابراهيم بك الذي وقف موقفا سلبيا ولم يجبهم بشيء فخرجوا من عنده ، وقد تسببت هذه الحوادث في اعلاء شأن الشيخ العروسي ولم يكن معروفا من قبل وترد عليه الناس .

أما الشيخ عبد الرحمن العريشي فقد ناصره في هذا الامر طائفة الشوام بالازهر وطائفة المغاربة لانضمام شيخهم الشيخ أبي الحسن القلعي الى الشيخ العريشي وناصره الشيخ الدرديري وبذلك انقسم الازهريون الى فريقين وتوعد كل فريق منهم الاخر . وقوى من شأن الشيخ العريشي انضمام شيخ السجادة الوفائية اليه وهو الشيخ محمد أبو الانوار بن وفا السادات وقد ذهب العريشي الى الشيخ السادات ومعه الامراء فالبسه السادات فروة وتفاقم بذلك الامر في الازهر وفي القاهرة فقد كان يتبعه جمهور غفير من أرباب الطرق الصوفية في مصر لا يعصون له أمرا .

وقوى شأن الشيخ العريشي بذلك وقوى حزبه حتى انه توعد الفريق الاخر وحذره ووقف لمنع أنصاره من دخول الازهر .

وكاد الشيخ عبد الرحمن العريشي ينجح في التمسك بمنصب شيخ الازهر لولا ما حدث من حوادث بين الشوام والأتراك بالازهر ، وتفصيل ذلك :

ذكر الجبرتي في حوادث سنة ١١٩٣هـ أنه في أواخر شهر ربيع الاول وقعت حادثة بالجامع الازهر بين رواقى الشوام والأتراك ، فقد هجم الشوام على الأتراك وضربوهم وقتلوا منهم شخصا وجرحوا منهم جماعة وذهب الأتراك على أثر ذلك الى ابراهيم بك شيخ البلد وأخبروه بذلك فطلب الشيخ عبد الرحمن العريشي وطلب منه أسماء من تسببوا في ذلك فأعطاه الشيخ العريشي بعض الاسماء الوهمية وقال له بان القاتلين تغيبوا وهربوا ومتى ظهروا أحضرهم اليه ، وعلم ابراهيم بك بعد ذلك ان هذه الاسماء لا وجود لها (٦٢) ، وبذلك تخرج موقف الشيخ العريشي

وانقلب عليه الامراء وتعصبوا للشيخ العروسي وعينوه شيخا للازهر  
وخلعوا العريشي وطلبوه فاختموا وعين لطلبه الوالي ( رئيس الشرطة )  
واتباعه وعزلوه من الافتاء أيضا (٦٢) ، وتعقبت الشرطة الشوام بالازهر  
للقبض عليهم فاختموا وفروا وغابوا عن الاعين .

وتسببت هذه الحادثة (٦٤) أيضا في اغلاق رواق الشوام وتسميره  
عدة ايام وقطعوا من خبزهم مائة رغيف تعطى للاتراك دية المقتولين  
وكتبوا بذلك محضرا باتفاق المشايخ والامراء وفتحوا الرواق ، وعينت  
السلطات الشيخ محمد الحريري في منصب مفتي الحنفية بدلا من  
العريشي المختمى وتعقبت الشرطة الشيخ العريشي وألحوا في طلبه  
لاخراجه من مصر منفيًا فشفع له الشيخ السادات وأمروه بلزوم بيته  
وعدم التدخل في شيء .

وظهر أمر الشيخ أحمد العروسي بعد ذلك وثبتت مشيخته ورياسته  
وخمل أمر العريشي ومات مغموما بعد ذلك بقليل في ليلة السابع من جمادى  
الاولى سنة ١١٩٣ هـ .

### رواق الشوام بعد انشاء مجلس ادارة الازهر سنة ١٣١٢ هـ :

انشىء هذا المجلس في عام ١٣١٢ هـ بعضوية الشيخ محمد عبده  
وصديقه الشيخ عبد الكريم سلمان والشيخ سليم البشري والشيخ  
يوسف النابلسي وبرئاسة شيخ الازهر الشيخ حسونة النواوي .

وكان هذا المجلس بداية عهد جديد للازهر بعد ان قامت قيامة  
الازهريين على المرحوم الشيخ محمد الانبائي شيخ الازهر انذاك  
( ١٣٠٤ - ١٣١٢ ) ورفعوا العرائض الى الخديوي مفعمة بان شيخهم  
عاجز عن ادارة شئونهم (٦٥) وغير ذلك من الطعون وطلبوا تغيير الاوضاع  
فكان انشاء هذا المجلس ثم اقالة الشيخ الانبائي وتولى الشيخ حسونة  
النواوي منصب مشيخة الازهر وكان اول اجتماع لمجلس ادارة الازهر  
في ١٦ من رجب سنة ١٣١٢ هـ ( ١٢ يناير ١٨٩٥ م ) .

ومنذ انشاء هذا المجلس حفل الازهر بالتطورات العديدة والانجازات  
التي شهدتها على يد الشيخ محمد عبده ، وكان من بينها ومايهمنا هنا  
وضع لائحة للنظام الاداري للازهر ثم وضع نظام لمشايخ الازهر والحدائق  
بالازهر فيها : ان يكون شيخ الرواق أو الحارة في الجامع الازهر من

علمائه ومن أهل الرواق أو الحارة . . . . لتقيد أسماء الطلبة وملاحظاتهم في سفرهم ورجوعهم وترتيب الدرجات في الانتظار ونحو ذلك ، وعلى كل شيخ رواق أو حارة أن ينشئ دفترا يقيد فيه أسماء الطلبة التابعين لجهته وتواريخ مبدأ اشتغالهم بالعلم في الأزهر وتواريخ سفرهم وحضورهم أثناء السنة ويحرر هذا الدفتر في أول كل سنة دراسية وتختتم هذه الدفاتر بختم مجلس ادارة الأزهر .

وحدد مسئولية مشايخ الأروقة بانهم مسئولون بأنفسهم عن آداب الطلبة ماداموا في الرواق أو الحارة وعليهم أن يفصلوا في المنازعات الخفيفة التي لا تحتاج أن ترفع لمشيخة الأزهر ، وأن يبلغوا ما يحتاج منها الى ذلك في أسرع وقت ممكن وإذا بلغهم عن واحد من الطلبة شيء يخل بسيرته أو بعمله في الطلب فعليهم تحقيقه وإبلاغه للمشيخة .

ومشايخ الأروقة مكلفون بتحصيل إيرادات الأوقاف فيما له أوقاف وتوزيعها على المستحقين وأجراء العمارات في أعيان الوقف وتقديم حساب عن جميع مايجرونه من ذلك في كل سنة الى شيخ الأزهر وليبعث به الى ديوان الأوقاف ، وعلى مشايخ الأروقة مراقبة الرواق بقية النهار ويراقب بالليل أو من ينيبه (١٦) .

وبذلك بدأت حركة مراقبة سلوك الطالب وسلوك شيخ الرواق ، ومن ثم فأننا نجد كثيرا من الحالات فيها معاقبة الطالب المنحرف عن الصراط السوي الذي رسمه الأزهر ومنها على سبيل المثال فيما يتعلق برواق الشوام .

قدم شيخ رواق الشوام الشيخ عبد القادر تقريرا عن سلوك الطالب : ابراهيم الدباغ أحد طلبة رواق الشوام بالأزهر الى مجلس ادارة الأزهر - وتبين من التقرير أن هذا الطالب سييء السيرة وأنه دخل الأوبرا الخديوية وصدر منه فيها أعمال غير لائقة بأهل العلم وقد ثبت عليه ذلك ثبوتا كافيا ، كما أنه تحقق سوء سلوكه السابق ولم يرتدع لما صدر عليه من الأحكام ، وقرر مجلس ادارة الأزهر باتحاد الإراء أن يقطع ما للشيخ ابراهيم الدباغ من الاستحقاق في رواق الشوام قطعاً مؤبداً ومحو اسمه من دفاتر الأزهر (١٧) .

كما بدأت محاسبة مشايخ الرواق اذا ماتطرق الشك الى ذمهم :

وذلك كما حدث في محاسبة الشيخ عيسى منون سنة ١٩٢٢ ، فقد كانت تحت أيديهم أوقاف الرواق .

ولقد جعلت هذه الانظمة الحديثة الاروقة بالازهر على ثلاث درجات وكذلك الحارات ، وكان رواق الشوام من أروقة الدرجة الاولى (٦٨) .

وتناول مجلس ادارة الازهر تنظيم السكنى برواق الشام ووضع له نظاما بالقرار رقم ١٦ لسنة ١٣٢٢ هـ ( ١٩٠٥ م ) . ونصت المادة الاولى من هذا النظام على أن مستحقي السكنى بالرواق هم المدرسون وطلبة العلم من الشوام بشرط أن يكونوا مولودين في بلاد الشام من أب شامي ، وأن لا يكون لاحدهم زوجة في مدينة مصر ( القاهرة ) وضواحيها التابعة لها في الادارة ، وليس لمن فقد أحد هذه الشروط حق في السكنى بالرواق ، ونصت المادة الثانية أن يقدم في السكنى بالرواق الاول فمن جاء بعده بحسب تاريخ قيدهم في سجلات الازهر أو دفتر الرواق ، ( مادة ٤ ) مستحق السكنى لا يملك التنازل لغيره مطلقا ، ( مادة ٧ ) لا يصح لاحد من سكانه أن يبيت معه أحد ، ( مادة ٩ ) والاسلحة والمواد المتهبة ممنوعة قطعا ( مادة ١١ ) كل من أتى شيئا ممنوعا يحرم من السكنى في الرواق ( مادة ١٤ ) على شيخ الرواق أن يعمل بهذا النظام وأن يعلم به أهل الرواق من وقت وصوله اليه (٦٩) .

وعلى الرغم من أن الفائدة عمت الازهر وأروقته بهذه النظم الا أن شيوخ سورية نعموا على التطوير الذي شمل الازهر كما يذكر الاستاذ محمد رشيد رضا ، فيقول في كتابه « تاريخ الامام محمد عبده » : « وقد كان الشيوخ المعمومون في سورية يتألمون لدخول النظام في الازهر حتى قال بعضهم أمامي في طرابلس الشام عقب حادثة الازهر التي أثارها بعض مجاوري السوريين فأوجبت تدخل البوليس والجند لازالتها ، قال : « ان الازهر أدخل فيه النظام ، فحكم فيه النظام وكان قبل ذلك فوق النظام والحكام (٧٠) .

### دور رواق الشوام في المجال النضالي :

لعب رواق الشوام بالازهر دورا هاما في المجال النضالي بمصر ابان العصر العثماني وكانت له بين أروقة الازهر منعة وقوة وعصبية لا يضاهايه



فيها من أروقة الافاقيين سوى رواق المغاربة ، ومن أروقة المصريين سوى رواق الصعايدة ، وكثيرا ما كانت تقع المشاغبة في الجامع الازهر لاسباب واهية مثل تضاربهم على مجالس الدروس أو المشاغبة في المسائل العلمية ، وكثيرا ماتكون الغلبة للشوام وذلك كما سبق أن ذكرنا عندما حدثت مشاجرة عنيفة بين رواق الشوام ورواق الاتراك على عهد الشيخ عبد الرحمن العريشي شيخ رواق الشوام عام ١١٩٣هـ وكانت ترفع القضايا التي بينهم الى شيخ الرواق فان لم تنحس فليشيخ العموم فان تجسمت فللمحتسب ، كما ترفع للمحتسب ابتداء القضايا التي بينهم وبين غيرهم (٧١) .

وقام رواق الشوام بدور بارز ابان عصر الحملة الفرنسية على مصر ( ١٧٩٨ - ١٨٠١ ) فقد نزلت الحملة الفرنسية أرض الكنانة في صيف عام ١٧٩٨ وانتهج بونابرت سياسة عرفت بالسياسة الاسلامية وذلك لتحذير العاطفة الدينية وكانت هذه السياسة تتلخص في ادعائه بان الفرنسيين مسلمون مخلصون للشعب المصري ، فبدأ منشوراته بالبسمة وشهادة لاله الا الله ، وشارك بربابرت المسلمين في أعيادهم وحفلاتهم الدينية وخصص الاعتمادات المالية لهذا الشأن وكان كثيرا ما يتردد على الازهر ويتظاهر امام علماء الازهر بسماع آيات الذكر الحكيم ويظهر امامهم التأثر بها فيتمایل ذات اليمين وذات اليسار وأشرك عشرة من علماء الازهر في ديوان القاهرة الذي أنشأه لضبط البلاد ، ولم يكن في هذا مخلصا للاسلام ولا للمسلمين كما ادعى وانما كان مقتفيا لاثر الاسكندر المقدوني فقال لاصحابه يوما « ليس الذي يعجبني في الاسكندر المقدوني حملاته الحربية بل أساليبه السياسية لقد كان محقا حين أمر بقتل (بارمينون) الذي عارض بحماقة في تخلي الاسكندر عن التقاليد الاغريقية، وكان منتهى حسن السياسة ان يذهب لزيارة معبد امون فهو بهذا فتح مصر ، ولو انني مكثت في الشرق لاقمت على الارجح دولة كدولة الاسكندر بذهابي الى مكة للحج (٧٢) » وكان يقول عن سياسته هذه بانها دجل ولكنه دجل من أعلى طراز (٧٣) ، وقابل العلماء هذه السياسة الماكرة بالمداراة ريثما يتمكنوا من تنظيم صفوفهم وخاصة أن مؤسسة المماليك العسكرية قد انهزمت أمام الزحف الفرنسي تاركة المصريين يلاقون مصيرهم أمام قوات مدججة بأقوى الاسلحة الحديثة .

ولم يمض على استقرار الحملة في مصر أكثر من ثلاثة أشهر ( يوليو  
اكتوبر ١٧٩٨ م ) حتى هب المصريون بزعامة علماء الازهر في ثورة هادرة  
قلبوا بها الاوضاع الهادئة بالقاهرة الاولى ( ٢١ اكتوبر ) في صحن الجامع  
وتكونت لجنة ثورة القاهرة الاولى ( ٢١ اكتوبر ) في صحن الجامع  
الازهر برئاسة الشيخ محمد أبو الانوار السادات وفي صبيحة يوم ٢١  
اكتوبر خرجت من الازهر أول كتيبة بزعامة شيخ من رواق الشوام هو  
الشيخ بدر المقدسي شقيق الشيخ علي بن موسى المقدسي من كبار  
السادة الحنفية بمصر (٧٤) . وكان يتقدم الثوار ممتطيا صهوة جواده  
على رأس مجموعة من الثائرين كان عددهم كما ذكر الجبرتي نحو الالف  
بل أكثر (٧٥) وأخذت هذه الجموع تردد هتافات يتجاوب صداها قائلين:  
« نصر الله المسلمين » مرددين أيضا « الله ينصر الاسلام » وظلت هذه  
الجموع في سيرها الى أن وصلت الى بيت قاضي القضاة بحي بين القصرين  
غير بعيد عن الازهر .

وعندما علم حاكم القاهرة الجنرال دييوى Dupuy بخروج الثوار  
نزل الى المدينة على عجل في كتيبة من الفرسان وبأيديهم السيوف المسلولة  
لكي يرهبوا المصريين برؤيتها وذهب الجنرال دييوى الى بيت الشيخ  
الشرقاوي شيخ الازهر لكي يتوسط لدى الثوار من أجل اخلادهم الى  
السكينة بيد أن الشيخ الشرقاوي امتنع كما صرح بذلك الجبرتي ، ولما  
يأس الجنرال دييوى من وساطة شيخ الازهر توجه الى بيت القاضي حيث  
الجموع الغفيرة التي يقودها الشيخ بدر المقدسي فوجد عنده تلك الجموع  
مزدحمة فخاف عاقبة الاحتكاك بها وقفل راجعا وخرج من بين القصرين  
الى باب الزهوة وكان الثوار قد نصبوا كمينا بحي الاشرافية لمحافظ  
القاهرة الجنرال دييوى فعندما مر بطريق الكمين خرجوا عليه وضربوه  
وأثخنوا جراحاته وقتلوه وقتل معه كثير من أصحابه الفرسان وحمله  
الباقون وفروا من ( باب ) سرا لمارستان (٧٦) المنصوري (٧٧) .

ولقد أخفقت المحاولات المضنية التي بذلها أطباء الحملة الفرنسية  
لإنقاذ حياة محافظ القاهرة الجنرال دييوى ففاضت روحه بعد قليل  
من اصابته .

وهكذا تمكن ثوار القاهرة بزعامة الازهريين من الشوام وغيرهم من  
تحقيق نصر جزئي في بداية الثورة غير أن قوة المدافع الفرنسية قد تغلبت  
على شجاعة الثوار وأسرع بونابرت بنصب مدافعه على جبل المقطم وأمطر

حي الأزهر مركز الثورة بوابل من قنابله الفتاكة حتى احواله الى خراب وهدمت كثير من المساكن وتحطمت جدران الأزهر ودخل الفرنسيون الأزهر بخيولهم « وربطوا خيولهم بقبلته وعاثوا بالاروقه والحارات وكسروا القناديل والسهارات وهشموا خزائن الطلبة والمجاورين والكتبة ونهبوا ما وجدوه من المتاع والاوناني والقصاع والودائع والمخبآت بالدواليب والخزانات ودشنوا الكتب والمصاحف وعلى الارض طرحوها وبارجلهم ونعالهم داسوها وأحدثوا فيه وتفوطوا وبالوا وتمخطوا وشربوا الشراب وكسروا أوانيه وألقوها بصحنه ونواحيه وكل من صادفوه به عروه من ثيابه أخرجه (٧٨) » .

وتذكر المراجع الفرنسية ان القوات التي دخلت الأزهر كانت بقيادة الجنرال « ديما » الذي كان يتقدمهم على ظهر جواده وهو يلوح بسيفه في صحن الأزهر الشريف في صلف وغرور (٧٩) ، وتواثب الفرنسيون الى الجامع المشرف واقتحموه اقتحام الضواري غير مكترئين لحرمة الدينية والعلمية ثم أخلى الفرنسيون الجامع ممن فيه بسرعة وقبضوا على كثير من الثوار وأعدموهم ، وتعقب الفرنسيون الشيخ بدر المقدسي بعد القضاء على الثورة وبثوا خلفه الجواسيس ، ولكنه خرج من القاهرة فارا الى الشام فنهبوا داره وهدموا طرفا منها .

وتسببت هذه الحادثة الهمجية في سقوط كل زيف ودجل حاول بونابرت أن يستر أهدافه الخبيثة خلفه ، كما تركت جرحا بالغا في نفوس الأزهريين بصفة خاصة غير أنها كشفت حقيقة العدو وعرته من كل زيف وأنه عدو للدين الاسلامي وليس بصديق للمسلمين كما ادعى في منشوراته الى المصريين ، وعلق الشيخ عبد الرحمن الجبرتي على ذلك بقوله : « وفعلوا بذلك الأزهر ماليس عليهم بمستنكر لانهم أعداء الدين وخصماء متغلبين وغرماء متشمتين (٨٠) » .

### رواق الشوام يخطط لاغتيال قائد الحملة الفرنسية :

وعلى الرغم من أن بونابرت قابل ثوار الأزهر بالارهاب فقتل عددا منهم كان على رأسهم الشيخ أحمد الشرقاوي من فقهاء الشافعية والشيخ عبد الوهاب الشبراوي الشافعي ، والشيخ يوسف المصليحي والشيخ سليمان الجوسقي الضرير شيخ رواق العميان بالجامع الأزهر والشيخ اسماعيل البراوي الشافعي وكان هؤلاء المشايخ في مجموعهم

من طراز خاص من العلماء الذين يستطيعون مخاطبة الجماهير وتحريكهم  
وقيادتهم كما يفهم من ترجمة الجبرتي لهم (٨١) .

أقول على الرغم من هذه السياسة الارهابية الا ان الازهر قابل  
الارهاب بالارهاب فاشترك في قيادة ثورة القاهرة الثانية ١٨٠٠ وتكونت  
مجموعة ثورية فدائية في رواق الشوام بقيادة سليمان الحلبي مفخرة  
سوريا والازهر ، وتمكنت هذه المجموعة من اغتيال كليبر قائد الحملة  
بعد بونابرت .

فلقد نكب الازهر في عدد كبير من علمائه في ثورة القاهرة الاولى  
والثانية وظل على عدائه للفرنسيين رغم ما كانوا يبدونه من احترام  
للازهر ورجاله الا ان هذه المظاهر لم تكن تخفي الحقيقة الواضحة ، وهي  
ان علماء وطلابه كانوا يرون في أولئك المحتلين الد أعدائهم وأخطرهم  
على كيانهم ودينهم ، ولقد ترك انتهاك الفرنسيين لحرمة الازهر واقتحامهم  
له بخيولهم أثرا شديدا في نفوس الازهريين وضمنا لايمحى ، وصمموا على  
الانتقام منهم في أقرب فرصة تلوح لهم .

وظل الازهر يغلي بهذا العداء حتى عهد كليبر الذي لم يكن على  
شاكلة بونابرت فكان مشحونا بالفرور وعقب اخماد ثورة القاهرة الثانية  
التي جابهت كليبر ( مارس ١٨٠٠ م ) ضيق كليبر الخناق على الازهر  
وأكثر الفرنسيون من دخوله لمراقبة تحركات أساتذته وطلابه ، وفي هذا  
الجو من العداء والجفاء وقع حادث اهتزت له القاهرة وتهدد الازهر  
بأخطار شديدة ، ذلك هو اغتيال كليبر على يد طالب من رواق الشوام هو  
سليمان الحلبي في ١٤ من يونيو ١٨٠٠ م .

وسليمان الحلبي أصله من حلب بالشام ولد بها لوالد يدعى محمد  
أمين ، وكانت سنه عندما قتل كليبر أربع وعشرين سنة ، ورد الى مصر  
وتلقى العلم بالازهر منتسبا الى رواق الشوام ، وقد ظل سليمان بالازهر  
ثلاث سنوات قبل مجيء الحملة الفرنسية الى مصر ، وعند مجيء الحملة  
غادر القاهرة مع من خرجوا الى الشام عائدا الى بلده حلب ، وعندما سمع  
بما جرى على الازهر من حوادث وكوارث صمم على الرجوع اليه غازيا في  
سبيل الله ، فغادر حلب الى القاهرة مارا بالقدس وغزة ، واشترى من  
سوق غزة خنجرا ، وفي الطريق من غزة الى القاهرة انضم الى قافلة  
تحمل الصابون والدخان في طريقها الى مصر ، ودخل سليمان الازهر

واعتكف برواق الشوام شهرا كاملا تعرف خلاله بأربعة من المجاورين برواق الشوام هم : محمد الغزي واحمد الوالي الغزي وعبد القادر الغزي وعبد الله الغزي وكلهم من طلبة غزة ، ثم أطلعهم على مخططه لاغتيال كليبر قائد الحملة الفرنسية ، فكتبوا سره ، غير أنهم ( كما تذكر محاضر التحقيق الفرنسية ) نصحوه بالاقلاع عن قصده لاستحالة تنفيذه ، ولكن سليمان لم يسمع لنصحهم وأخذ على عاتقه أن ينفذ مخططه لاغتيال كليبر وحده دون مساعدة من الاخرين سوى كتمان هذا السر الخطير .

ولقد أخذ سليمان طوال الشهر يروض نفسه على الاقدام على هذا العمل الكبير ، فأخذ نفسه ببرنامج شديد في طاعة الله بالصوم والعبادة والوعظ (٨٢) وكتب دعاء بأن ينصره الله في مهمته وعلقه فوق رأسه في حجرته برواق الشوام بالازهر (٨٣) ، وعندما أنس من نفسه القوة الروحية والعزيمة التي لاتلين خرج من معتكفه وبدأ يتتبع خطى عزيمة كليبر .

وكان كليبر يقيم في مقر القيادة العامة للجيش الفرنسي في مصر بقصر الالفي بحي الازبكية بالقاهرة ، وكان مدعوا على مائدة غداء يوم ١٤ يونيو ١٨٠٠م لدى زميله الجنرال « داماس » الذي كان يقيم في قصر مجاور لمقر القيادة العامة ، وكان يربط بين هذا القصر ومقر القيادة ممر طويل فوقه تكعيبه من العنب ، وخرج كليبر بعد الغداء ومعه كبير المهندسين ( بروتان ) يسيران في ذلك الممر ، فطلع عليهما سليمان متنكرا في هيئة متسول يطلب صدقة فأشار اليه كليبر بالرجوع وقال له : « مافيش » وكررها فلم يرجع ، ولكن سليمان أوهمه أن له حاجة وهو مضطر في قضائها ، فلما دنا منه كليبر مد سليمان اليه يده اليسرى مظهرا أنه يريد تقبيل يده فمد اليه كليبر يده ، فقبض عليها سليمان بيده اليسرى وضربه بخنجر كان في يده اليمنى أربع ضربات متوالية شقت بطنه وسقط على الارض صارخا وصاح رفيقه المهندس فذهب سليمان اليه هو الاخر وضربه عدة ضربات وهرب ، ولكن سليمان لم يذهب بعيدا عن مسرح الجريمة ، ذلك أنه اختفى في بستان مجاور لمقر القيادة معروف بغيظ مصباح بجانب حائط متهدم (٨٤) .

أسرع حراس المعسكر الفرنسي عندما سمعوا صرخات كليبر وكبير المهندسين ودخلوا الى مكان الاستغاثة فوجدوا قائدهم مضرجا بدمائه يعاني سكرات الموت ، والمهندس بروتان مرمي هو الاخر على بعد أمتار منه

ولم يجدوا القاتل ، فانزعج الحراس ونادوا بالنفير العام وخرجوا مسرعين يجرون في كل ناحية يفتشون على القاتل ، واجتمع رؤساء الفرنسيين وأرسلوا العساكر الى الحصون والقلاع وظنوا أن هذا الاغتيال مقدمة لمؤامرة كبيرة دبرها أهل القاهرة ، وأقبل الجنود الفرنسيون من كل مكان الى ميدان الازبكية وأخذوا يفتشون عن الجاني في كل مكان وتوعدوا الناس بالانتقام والاخذ بالثأر ، وهددوا باحراق المدينة فسرى الرعب الى الناس فلاذوا بالفرداد ودخلوا بيوتهم وأغلقوها عليهم وأغلقت الاسواق وخلت الطرق من المارة ، وأخذت دوريات الجنود تطوف الشوارع والاحياء للبحث عن الجاني ، وسرعان ماعثروا عليه بعد ساعات من ارتكاب الحادث في المكان الذي اختفى فيه .

تولى القوميسير (سارتلون) مدير مهمات الجيش الفرنسي التحقيق (٨٥) مع سليمان الحلبي عقب الحادث ، وقد حاول سليمان انكار ما نسب اليه من قتل القائد العام كليبر والشروع في قتل كبير المهندسين ، ولكنه ووجه بعدة قرائن : منها أن الحائط الذي كان مختفيا وراءه كان به آثار دماء كما كانت ملابسه ملوثة بدم الجريمة ووجدوا خنجرا في مكان اختفائه وعلى نصله الدماء ، وأخذه الجنود لاستجوابه أمام الجنرال منو خليفة كليبر (٨٦) وتعرف عليه المهندس بروتان ، كما شهد الشهود بأنهم رأوه يتتبع القائد العام منذ عدة أيام وازاء اصرار سليمان على انكاره ، قرر الجنرال منو احواله الى فرقة تتولى تعذيبه بقيادة برتلمي الرومي (٨٧) فشد وثاقه ومازالوا يضربونه حتى « طلب العفو ووعد أنه يقر بالصحيح » فتركوه « وصار يحكي من أول وجديد » كما يقول الجبرتي (٨٨) واعترف بجنايته وذكر لهم أنه أسر بنيته الى أربعة من طلاب رواق الشوام ، فأمرت السلطات الفرنسية بالقبض عليهم .

### القبض على شيخ الأزهر وشيخ رواق الشوام :

قبض الفرنسيون أيضا على شيخ الأزهر الشيخ عبد الله الشرقاوي وشيخ رواق الشوام وقاضي القضاة الشيخ أحمد العريشي وألزموا باحضار شركاء سليمان فذهبا الى الأزهر صحبة محافظ القاهرة فوجدوا ثلاثة منهم وهم : عبد الله الغزي ومحمد الغزي وأحمد الوالي ولم يجدوا الرابع وهو الشيخ عبد القادر الغزي وجميعهم من طلبة غزة ومجاورون برواق الشوام بالأزهر ، وجرى التحقيق معهم فاعترفوا بمعرفتهم بنية

سليمان غير أنهم نفوا أي صلة للشيخ عبد الله الشرقاوي شيخ الأزهر بالحادث ونفوا نفيًا قاطعًا أن يكون لديه علم بنية القاتل (١٩) .

وقد أدى استجواب المشايخ الأربعة إلى القبض على شيخ تركي هو : السيد مصطفى أفندي البرسهلي ، وهو معلم في سن الواحدة والثمانين من عمره قال عنه أحمد والي أن سليمان كان يختلف إليه في منزله ، وقد سئل مصطفى أفندي عن صلته بسليمان فأجاب بأن سليمان كان تلميذه منذ ثلاث سنوات وأنه جاءه عند قدومه أخيرًا إلى القاهرة وبات عنده ليلة ثم طلب منه أن يبحث له عن مأوى آخر حيث لا يستطيع لفقره أن يؤويه في بيته ، وقال بأنه لم يخبره بسبب حضوره ولم يعرف عن نيته شيئًا (٩٠) .

وبعد أن تم استجواب المتهمين أصدر الجنرال منو أمره بتأليف محكمة عسكرية بصفة عاجلة لمحاكمتهم مؤلفة من تسعة أعضاء من كبار رجال الجيش الفرنسي ، وقد انعقدت المحكمة العسكرية يوم ١٦ يونيو ، وبعد سماع بيان المدعى العام الذي طالب برؤوس المتهمين ماعدا الشيخ المسن ( مصطفى البرسهلي ) الذي لم يعلم بنية القاتل أصدرت المحكمة حكمها الآتي :

أولاً - احراق يد سليمان الحلبي اليمنى ، ثم اعدامه على الخازوق وترك جثته حتى تأكلها الطير .

ثانياً - اعدام المشايخ الثلاثة : محمد الغزي وعبد الله الغزي وأحمد الغزي وذلك بقطع رؤوسهم واحراق جثثهم .

ثالثاً - اعدام الشيخ عبد القادر الغزي بقطع رأسه وحرق جثته مع مصادرة أمواله .

رابعاً - اعدام المتهمين يكون بعد دفن ساري عنكر كليبر بحضور أهل البلد .

خامساً - براءة مصطفى أفندي وإطلاق سراحه .

سادساً - أن تطبع صورة الحكم بعد ترجمته إلى العربية والتركية وتعلق صورها بمختلف جهات مصر (٩١) .

والذي يلفت النظر ويثير الدهشة والعجب هو أن الجبرتي أشاد

بطريقة الفرنسيين في محاكمة سليمان ، فقال في هذا الصدد : « قبضوا عليه وقرروه ولم يعجلوا بقتله وقتل من أخبر عنهم . . . بل رتبوا حكومة ومحاكمة واحضروا القاتل وكرروا عليه بالسؤال والاستفهام مرة بالقول ومرة بالعقوبة ثم أحضروا من أخبر عنهم وسألوهم على انفرادهم ومجتمعين ، ثم نفذوا الحكومة فيهم بما اقتضاه التحكيم (٩٢) . »

ثم قال مقارنا بين هذه المحاكمة وبين ما يفعله العثمانيون « بخلاف ما رأيناه بعد ذلك من أفعال أوباش العساكر الذين يدعون الاسلام ويزعمون أنهم مجاهدون ، وقتلهم الانفس وتجاريهم على هدم البنية الانسانية بمجرد شهواتهم الحيوانية » (٩٣) .

والذي أدهش الجبرتي هو أن تتاح لرجل ذنبه واضح محاكمة قانونية بدلا من أن يعدم فورا ، ولكن الواقع أن الاجراء الذي اتخذ في هذه الحالة كان يختلف اختلافا كبيرا عن الاجراءات الفرنسية العادية لسبب واحد هو أن المتهمين لم يمثلهم محام ، ولم يكن الغرض من المحاكمة هو انصاف المتهمين بل الكشف عن شركائهم في الجريمة (٩٤) والصاق العمالة لسليمان وأنه عميل للاتراك وتزييف تاريخه وابعاد عمله هذا عن مجال البطولة ، وان الذي دفعه الى هذا العمل المكسب المادي وأنه قبض مبلغا من المال من الاتراك بعد ان اتفق معهم بالقدس وهو في طريقه الى مصر ، وقد غفل الجبرتي عن كل هذا ولم يلاحظ سوى مظهر المحاكمة فقط دون دوافعها وأهدافها ، ولعل أضعف ما في اجراءات التحقيق هو استخدام الاكراه مع المتهم بضربه وتعذيبه وهذه وصمة عار في القضية كلها ، فلقد أرغم سليمان بالضرب حتى أقر بهذه الاعترافات الملفقة ، حتى أن كريستوفر هيرولد نراه مضطرا الى الاعتراف بالتلفيق فيقول : « والاعترافات التي تنتزع بالتعذيب تحتمل الشك ، أما المنطق الذي الصقت به المحكمة الخاصة - المشكلة من الفرنسيين - التبعة النهائية في مقتل كليبر بالصدر الاعظم فمنطق زائف لا أساس له في اعترافات سليمان (٩٥) » .

ومن هذا نرى أن غرض الفرنسيين الاساسي من المحاكمة هو الدعاية الاستعمارية وتشويه تاريخ سليمان ، فقد حاولوا في هذه المحاكمة اظهار سليمان الحلبي في ثوب الرجل المأجور الذي دفع الى هذا العمل بهدف المنفعة الشخصية من الاتراك له ولوالده وأنه قبض مبلغا من الاتراك ووعده بتخفيف الضرائب عن والده ، وحاول الفرنسيون اظهار الحادث



اثناء التحقيق والمحاكمة على أنه مؤامرة أجنبية وذلك عندما فشلوا في الحصول على خيوط المؤامرة الحقيقية التي حبكت داخل أروقة الجامع الازهر ، معنى هذا عند المستعمر أنه يريد أن يقول للناس أن الدافع العقائدي للجهاد في سبيل الله لاوجود له ، والموجود الذي يجب أن يسجله التاريخ هو الدافع الشخصي من أجل مغمم شخصي .

### الدوافع الحقيقية عند سليمان :

وصف وكيل النيابة الفرنسي سليمان الحلبي بالثبات ورباطة الجأش ، فذكر عنه أنه كان ينظر الى محاضر التحقيقات بعين رفيعة فيقول : « وهو كمادح نفسه للقتل الكريه ( ! ) صنع يديه وهو مستريح بجواباته للمسائل ، وينظر محاضر سياسات عذابه بعين رفيعة (٩٦) » وكان دافع الجهاد واضحا في سلوك سليمان فقد مكث معتكفا بالازهر شهرا كاملا يروض نفسه ويقويها للقيام بهذا العمل الخطير لكي ينجح في انجاز مهمته .

ومن ناحية اخرى فان سليمان عندما تعرض لتنفيذ الحكم البشع ابدى بطولة نادرة ، فعندما اخذه الجنود الى مكان تنفيذ الحكم سار ثابت الخطى مطمئن الفؤاد الى مصيره ، وأبدى من الشجاعة والجرأة والثبات ما أدهش الحاضرين فقد مد يده الى الجمر الموقود وكان ينظر لحمه تشويه النار شيا فلا يهتز بألم ولا ينبض له نبض ولا تنبس شفثاه بكلمة وعندما سيق الى الخازوق لم تلمح على وجهه امارة اكرات بما آل اليه أمره ، كما لم يتقلص له عضل ولم يلتو من أعضائه عضو ، بل ظل ساكنا سكون الحجر الاصم ، وكل ما لحظه عليه المشاهدون أنه حينما رفعتة أكف منفذي الحكم لوضعه على الخازوق أجال نظره في الحاضرين مطمئن الفؤاد هادىء الروعة ثم فاه بالشهادتين ، وظل مرفوعا على الخازوق مدة أربع ساعات ونصف ساعة (٩٧) سأل خلالها مرارا شربة ماء فلم يجبه أحد الى طلبه مخافة أن يموت قبل أن ينال من العذاب ما صمم عليه الفرنسيون ، وعندما ناوله أحد الجنود كوب ماء ماكاد يشربه حتى أسلم الروح وبعد موته تركت جثته على تل العقارب بالقاهرة فريسة لجوارح الطير كما نص على ذلك منطوق الحكم .

وقد احتفظ الفرنسيون برأس سليمان وهيكله العظمي وعندما خرجوا من مصر نقلوا معهم ماتبقى من جثمان سليمان الى باريس

ووضعوا رأسه المحنط داخل دولاب زجاجي يظل الى يومنا هذا على  
الزائرين في المتحف الجنائي بباريس ، وقد كتب عليه لافتة تقول : رأس  
قاتل والاسم : سليمان الحلبي (٩٨) وهذه هي كل مخلفات البطل الازهري  
العظيم ، وعظام سليمان معروضة بهيكلها في غرفة التشريح بحديقة  
النباتات الفرنسية في باريس (٩٩) .

ولقد استحققت بطولة سليمان الحلبي من المصريين كل تقدير  
في التاريخ المعاصر وخلده الادباء في أعمالهم الادبية المعاصرة ، فقد كتب  
عنه الكاتب المسرحي الفريد فرج مسرحية رائعة ونشرها في كتاب بعنوان  
« سليمان الحلبي » بدار الكتاب العربي بالقاهرة عام ١٩٦٩م ومثلت تلك  
المسرحية الفرقة القومية على المسرح القومي بالقاهرة في تلك السنة فكانت  
احياء لذكرى هذا البطل الذي غفل عن ذكره كثير من المؤرخين ، كما  
أصدرت له دار المعارف بالقاهرة في عام ١٩٦٤ عددا في سلسلة « بطولات  
عربية » بعنوان « سليمان الحلبي » كما أطلقت محافظة القاهرة اسمه  
على احدى ميادينها وعلى أحد شوارعها المهمة .

### رواق الشوام والثورة العربية :

ابان حوادث الثورة العربية والغزو الانجليزي لمصر سنة ١٨٨٢  
اشترك الازهريون في تهيئة الشعور القومي للثورة على الخديوي ومقاومة  
الاحتلال الانجليزي للبلاد ، وشاركوا في أعمال الثورة ، وكان على رأس  
هؤلاء الشيخ محمد عبده والشيخ محمد عبد الجواد القاياتي وأخيه أحمد  
عبد الجواد والشيخ محمد عليش المغربي وابنه عبد الرحمن والشيخ  
يوسف شرابه والشيخ حسن العدوي وابنه أحمد والشيخ أبو العلا  
الخلفاوي وغيرهم .

وعشية انحياز الخديوي توفيق الى الانجليز بالاسكندرية ليلة ٦  
من رمضان ١٢٩٩هـ ( ٢٢ يوليو ١٨٨٢م ) عقد أهل الحل والعقد بالقاهرة  
جمعية عمومية للنظر في موقف الخديوي واصدار قرار يحدد مصيره  
بسبب انضمامه صراحة الى أعداء البلاد ، وكان على رأس المجتمعين شيخ  
الازهر وقاضي القضاة ومفتي الديار المصرية وكبار العلماء والرؤساء  
الروحانيين ، وقد قررت الجمعية وقف أوامر الخديوي ونظاره (وزرائه)  
وعدم تنفيذها وكان من بين الذين وقعوا على قرارات الجمعية من علماء  
رواق الشوام بالازهر ثلاثة هم : الشيخ عبد القادر الرافعي شيخ الرواق

وعضو المحكمة الشرعية بالقاهرة والشيخ مسعود النابلسي والشيخ عثمان مدوخ . وعلى الرغم من ذكر اسم الشيخ عبد القادر الرافعي من بين الاسماء الموقعة على محضر الجمعية العمومية والذي احصاهم ابن اخته المؤرخ عبد الرحمن الرافعي فيما بعد في كتابه عن الثورة العرابية على الرغم من ذلك الا أن نجل الشيخ عبد القادر وهو محمد رشيد الرافعي أنكر على والده ذلك في كتاب أرخه فيه لحياة والده ذكر فيه أنه لم يكن من أنصار الفتنة ( الثورة ) العرابية فقال عن رأيه في الثورة العرابية : « وكان رأيه فيها الخذلان والفشل وما وقع على محضر من المحاضر التي كان يضعها عرابي مع تتابع الرسل اليه في ذلك حتى أن عرابي غضب منه » وقال أيضا : « ولما حصل الخذلان كان هو ( عبد القادر الرافعي ) أول من توجه الى الاسكندرية مع المرحوم الشيخ المهدي بطلب من الخديوي توفيق (١٠٠) » .

### تعداد رواق الشوام ابان العصر العثماني :

ليس لدينا من السجلات الخاصة برواق الشوام ابان العصر العثماني مانستطيع أن نستمد منه المعلومات عن تعداد المجاورين برواق الشوام الامند عام ١٢٩٩ هـ ( ١٨٨١ م ) أي منذ نحو قرن من الزمان ففي تلك السنة السالفة كان عدد المنتظمين برواق الشوام ٨٩ مجاورا من العلماء والطلاب على رأس قائمتهم الشيخ عبد القادر الرافعي شيخ الرواق ، وكانت تصرف لهم جراية مقدارها من الخبز ٨٥٦ رغيفا يوما بعد يوم (١٠١) ، وفي أقدام سجل موجود للازهر حتى الان وهو سجل أعوام ١٢٨٦ هـ حتى ١٢٨٩ هـ وهو خاص ببيان الخبز الوارد الى الازهر في تلك الاعوام نجد المربوط على رواق الشوام من الجراية الخبز هو ٨٥٦ رغيفا أيضا من مجموع الخبز الوارد الى الازهر ومقداره ( ٨٠٥٧ رغيفا ) توزع يوما بعد يوم على أهل الازهر (١٠٢) .

وفي عام ١٣٠٣ هـ أصبح تعداد رواق الشوام ١٢٢ مجاورا وذلك من واقع بيان بختم واشراف الشيخ محمد مدوخ الشافعي وكيل الرواق ، وبعملية احصائية لاهل الرواق في تلك السنة وجدنا أن أهل المذهب الحنفي أكثر من أهل المذهب الشافعي وذلك بنسبة ٣ : ٢ من امتناع المالكي وندرة الحنبلي ، مع ملاحظة أن مجاوري الشوام من الحنابلة كانوا يقيدون برواق الحنابلة ، فقد كان للحنابلة بالازهر رواق

خاص بهم لقلتهم ونذر أن نجد حنابلة من بين الشوام وعلى الرغم من ذلك فان شيخ رواق الحنابلة بالازهر كان في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين هو الشيخ يوسف النابلسي (١٠٢) الذي كان عضواً في مجلس ادارة الازهر في أول انشائه على عهد الشيخ محمد عبده ، وكان معاصراً للشيخ عبد الرحمن مظهر النابلسي الحنبلي ، وكلاهما من العلماء السابقين على نظام الامتحان بالازهر . أما طلبة الشوام من الحنابلة، فنستطيع أن نجزم بناء على احصائية دقيقة للحنابلة بالازهر انه لم يتخرج منهم في رواق الحنابلة في الفترة من سنة ١٣٠٣ حتى ١٣٤٦ هـ سوى طالب شامي واحد هو حسين عبد اللطيف العبوشي في حين كان عدد الطلبة الحنابلة المتخرجين بالازهر في الفترة السالفة ٢١ طالبا فقط (١٠٤) .

وفي عام ١٣٠٥ قفز تعداد الرواق الى ١٣٢ مجاوراً منهم ٤٩ مجاوراً من الشافعية و ٨٢ مجاوراً من الاحناف ، وذلك من مجموع تعداد الازهر وهو : ٦٧٤٣ مجاوراً من المدرسين والطلاب .

وفي عام ١٣٢١ أصبح عدد مجاوري رواق الشوام هو ٢٢٢ مجاوراً موزعين على النحو التالي :

من فلسطين - ١٣٥ مجاوراً  
من سوريا - ١٩ مجاوراً  
من لبنان - ٣٧ مجاوراً  
من شرق الاردن - لا شيء .

منتسبون من المستقرين في مصر - ٣١ مجاوراً يقال عنهم بأنهم من المولدين في مصر .

المجموع - ٢٢٢ مجاوراً .

منهم احناف - ١١١ مجاوراً من بينهم ٢٨ حنفياً من المستقرين في مصر والمقيمين بالقاهرة وهم من أبناء القضاة الشرعيين الذين يعملون في مصر .

ومنهم شافعية - ١١١ مجاوراً (١٠٥) .

وقد لاحظنا انقطاع كثيرين من مجاوري رواق الشوام ابان الحرب العالمية الاولى عقب مسامحة سنة ١٣٣١ هـ نظراً لحالة الحرب (١٠٦) ، وذلك ضمن اذن في ١٦ من شوال سنة ١٣٣٥ هـ .

ومنذ الحرب العالمية الاولى قلت حركة مجيء الشوام الى الجامع الازهر فقد استطعنا ان نحصل على سجل خاص لقيود طالبي الانتساب الى أروقة الاغراب بالازهر من سنة ١٣٣٥ حتى سنة ١٣٥٤هـ (١٩١٧ - ١٩٣٥ م) واستطعنا حصر طالبي الانتساب من الشوام في كل عام وكانوا على النحو التالي :

السنة	عدد الطلاب المنتسبين الى الازهر من الشوام
١٣٣٥هـ	٢ طالبان
١٣٣٦هـ	٦ طلاب
١٣٣٧هـ	« ٣
١٣٣٨هـ	١٥ طالبا
١٣٣٩هـ	« ٣٠
١٣٤٠هـ	« ٥٣
١٣٤١هـ	« ٤٨
١٣٤٢هـ	« ٥٠
١٣٤٣هـ	« ٧٥
١٣٤٤هـ	« ٥٥
١٣٤٥هـ	« ٥٠
١٣٤٦هـ	« ٤٢
١٣٤٧هـ	« ٣١
١٣٤٨هـ	« ٢٥
١٣٤٩هـ	« ١٢
١٣٥٠هـ	« ٣٤
١٣٥١هـ	« ٥٢
١٣٥٢هـ	« ١٦
١٣٥٣هـ	« ٢٦
١٣٥٤هـ	« ٣٠ (١٠٧)

#### أوقاف رواق الشوام :

كانت لرواق الشوام بالازهر أوقاف عديدة أوقفها عليه أهل البنل والعتاء والخير وكان منها على سبيل المثال :

(١) وقف يعقوب باشا صبري وكانت له أوقاف على ثلاثة أروقة بالازهر هي : أروقة الشوام والمغاربة والاتراك (١٠٨) .

(٢) وقف الست رازدل هانم ، وكانت لها أوقاف على رواقى الشوام والاتراك بالازهر (١٠٩) .

(٣) وقف الامير بشبك الدويدار على أروقة مختلفة بالازهر من بينها رواق الشوام وهذه الوقفية مسجلة في سجلات محكمة الباب العالي بالقاهرة بتاريخ ١٢ من جمادى الاولى سنة ١٢١٨هـ (١١٠) وكان مقدار هذه الجراية ١٣٢٠ اردبا من القمح تأتي كل سنة من ناحية روضة الجمالية بولاية الاشمونين على أن تستغل الغلال في صناعة الخبز للمجاورين قيمة كل رغيف أربع اوقيات ، وتوزع تلك الاخباز على المجاورين تبعا لنظام معروف .

وكان رواق الشوام في سنة ١٣١٥ هـ يستحق في عدة جرايات : الجراية القديمة : وكانت توزع على ٧٥ طالبا من الرواق مقسمين الى درجات ، الاولى - ٤٢ طالبا ، والثانية - ١٠ طلاب ، والثالثة - ٥ طلاب ، والرابعة - ١٨ طالبا .

**جراية أحمد باشا راشد :** ويستحقها عشرة طلاب من الرواق .

**جراية يعقوب باشا صبري :** وتوزع على ٢٥ طالبا منهم وعدد المنتظرين لتوزيع الجراية عليهم فعددهم ٧٨ طالبا ، ويتناول ٤ طلاب من الرواق جراية من وقف الطلبة الاحناف (١١٠) .

وفي عهد مشيخة عيسى منون لرواق الشوام تحسن ايراد أوقاف الرواق عما كان عليه قبله بسبب تعيينه ناظرا على أوقافه بدلا من تنظر وزارة الاوقاف ، فقد كان ايراد أوقافه حسب كشف التسليم من الوزارة في سنة ١٩١٨م هو ٧٢٥ جنيها و ٦٤٧ مليما . فارتفعت في سنة ١٩١٩ الى ٨٥٠ جنيه و ٣٥٠ ر. مليما وفي سنة ١٩٢٠ الى ٩٧٠ جنيها و ٨٩٧ مليما وفي سنة ١٩٢١ الى ١٤٢٣ جنيها و ٦٠٩ مليما وذلك حسب الكشف الذي قدمه الشيخ عيسى منون الى مجلس ادارة الازهر في اجتماعه بجلسته المنعقدة في ١٧ من شوال سنة ١٣٤٠هـ (١١١) .

وقد عرف فضلاء الشاميين للازهر فضله فساهموا في الصرف عليه وارسل الاموال من صدقاتهم لطلابهم وعلمائه ، فيذكر المحبي في كتابه « خلاصة الاثر » أن الشيخ أحمد بن محمد القادري الحموي المتوفى سنة ١٠٣٠ هـ كثيرا ما كان يرسل الاموال والصدقات الى الجامع الازهر ، وكان يرسلها أحيانا صحبة الباشوات ونوابهم في مصر (١١٢) .

وكانت الاوقاف مصدر قوة للجامع الازهر ، فقد حققت له استقلالا ذاتيا عن الحكومة ، فكان العلماء يفكرون ويعبرون عن آرائهم في حرية بعيدا عن جو الرغبة في تملق الحكام لنول منحهم ، أو الرهبة منهم والخوف من عقابهم ، وحياة العلم أن يحترم أهله ويصان استقلال رجاله فيفكرون ويعبرون في حرية وطلاقة ، اما أن يعملوا في جو من الضغط والارهاب فلا أمل في أن يدلوا برأي جرىء أو مشورة خالصة .

وفي ظل هذا الاستقلال المالي عاش الازهر بعيدا عن الخضوع للعثمانيين في نزعاتهم ، وكان مؤسسة اسلامية عامة للمسلمين جميعهم من شتى بقاع العالم .

### موقع رواق الشوام :

يقع رواق الشوام حاليا في الناحية الجنوبية من الجامع الازهر ويتكون من ثلاثة طوابق بها نحو ٢٨ حجرة كبيرة بها بعض طلاب الشوام الملتحقين بالازهر حاليا ، والبناء الحالي مجدد في مطلع القرن العشرين ، وكان للشوام بالازهر باب باسمهم يؤدي الى داخل الازهر من الناحية الجنوبية وباب الرواق الحالي مكانه تقريبا ويؤدي الى رواق الشوام فقط من الناحية الجنوبية للازهر من شارع الامام محمد عبده .

وذكر علي مبارك في خططه أن رواق الشوام من انشاء السلطان قايتباي ( ٨٧٢ - ٩٠١ هـ ) ثم زاد فيه الاميران عبد الرحمن كتحدا ( ت ١١٩٠ هـ ) وعثمان كتحدا ابان العصر العثماني حتى صار من أكبر الاروقة بالازهر ، وقد وقفا عليه الاميران السالفان أيضا بعض الاوقاف ، كما كان به على أيام علي مبارك خزانة كتب مازالت باقية الى الان ، وكان به أيضا بئر وحنفية وأخلية ومطبخ (١١٢) .

وتحتل المكتبة حاليا حجرة كبيرة بالطابق الارضي ، وهي مغلقة تماما خوفا على محتوياتها الثمينة من الكتب ، وهي من المكتبات القديمة بالازهر . فقد ذكرها صاحب ذيل المقريري من بين مكتبات الازهر فقال : « وبرواق الشوام كتبخانة عدد مجلداتها ٢١٠٠ مجلد (١١٤) » وبقيت حتى عصرنا هذا منفصلة عن المكتبة الازهرية الكبرى على الرغم من انضمام كثير من مكتبات أروقة الازهر الى المكتبة الازهرية الكبرى ، ويرجع هذا الى تمسك الشوام بها منفصلة عملا بشروط واقفيها ، وبهذه المكتبة

وغيرها من مكتبات الاروقة نوادر من المخطوطات ، وقد قامت هيئة اليونسكو سنة ١٩٦٣م بتصوير هذه النوادر التي وقع عليها اختيار المختصين من رجال المكتبات ، ومن الكتب التي صورت من مكتبة رواق الشوام :

(١) الباب في الجمع بين السنة والكتاب ، للمنجي المتوفى سنة ٦٨٦هـ .

(٢) الجزء الاول والثالث من كتاب « الكمال في أسماء الرجال للمقدسي المتوفى سنة ٦٠٠هـ .

(٣) « الاخلاق والسير » لابن حزم الاندلسي المتوفى سنة ٤٥٦هـ .

(٤) « عوارف المعارف » للسهروردي المتوفى سنة ٦٣٢هـ .

(٥) « الناسخ والمنسوخ في الحديث الشريف » لعبد الرحمن بن علي ابن الجوزي الواعظ المتوفى سنة ٥٩٧هـ (١١٥) .

وللشيخ عبد القادر الرافي الشامي شيخ رواق الشوام مكتبة خاصة أوقفها بخزائنها الخاصة بها على الازهر ، وقد ضمت هذه المكتبة الى المكتبة الازهرية سنة ١٩٢٧م ووضعت في غرفة خاصة بها في المدرسة الاقبغوية التابعة للازهر وهي مكتبة قيمة عدد مجلداتها ١٤٥٧ مجلدا ، من أغنى المكتبات الخاصة بالفقه الحنفي ، وبها مخطوطات في الفقه الحنفي تعتبر من النوادر العالمية وذلك مثل « شرح السندي على الدر المختار » ويقع هذا الكتاب في ستة عشر مجلدا في كل مجلد نحو ٥٠٠ ورقة (١١٦) .

## القسم الثاني

أما فيما يتعلق بالقسم الثاني من هذه الدراسة وهي الدراسة الارشيفية لمجموعة وثائق رواق الشوام بالجامع الازهر ابان العصر العثماني ، فيمكننا أن نقسم تلك الوثائق الى نوعين :

### النوع الاول :

هو الوثائق غير الارشيفية ونعني بها تلك الوثائق المتناثرة في كثير من الكتب التاريخية التي أرخت للازهر بصفة عامة أو لعلماء الشوام بصفة خاصة ، ويأتي في مقدمة هذه الكتب كتاب : « عجائب الاثار



في التراجم والاختبار» مؤلفه الشيخ عبد الرحمن بن حسن الجبرتي أحد علماء الأزهر وشيخ رواق الجبرت بالأزهر إبان العصر العثماني المتوفى سنة ١٢٤٠هـ (١٨٢٥) ، وكتاب (ترجمة حياة الشيخ عبد القادر الرافعي) بقلم ابنه الشيخ محمد رشيد الرافعي أحد علماء الأزهر ، وكتاب «حياة علم من أعلام الإسلام الشيخ عيسى منون» بقلم يوسف عبد الرازق أحد علماء الأزهر بالاشتراك مع نجل المترجم له وهو من عيسى منون أحد علماء الأزهر أيضا .

أما عن كتاب عبد الرحمن الجبرتي فهو على جانب كبير من الأهمية نظرا لانه أرخ للأزهر وعلمائه إبان القرن الثاني عشر الهجري ونحو ذلك القرن الثالث عشر الهجري حيث أنهى تسجيل يومياته سنة ١٢٣٦ هـ ، وقد ذكر كثيرا من تراجم علماء الشوام بالأزهر وأوضاعهم العلمية والاجتماعية والاحداث التي شاركوا فيها وغير ذلك من المعلومات التي تعد وثيقة حية عن حياة الشوام في عصر إبان العصر العثماني .

وبالجزء الثالث من كتاب عجائب الآثار للجبرتي وثيقة هامة من وثائق رواق الشوام بالأزهر ، وهي عبارة عن محاكمة سليمان الحلبي - قاتل كليبر - ورفاقه من طلبة رواق الشوام بالأزهر ، وتضمنت محاضر استجواب سليمان الحلبي وزملائه والتحقيق معهم أمام المحكمة العسكرية الفرنسية التي شكلت بالقاهرة لمحاكمتهم عقب مقتل كليبر في ١٤ يونيو ١٨٠٠م ، وقد نشر الفرنسيون هذه المحاضر في حينها باللغات الفرنسية والعربية والتركية ، ووقعت النسخة العربية في يد الجبرتي فأودعها كتابه محافظا على نصها دون تغيير حتى فيما يتعلق بالاطعاء اللغوية التي وردت بها ، ولم يتعرض لها الجبرتي بالدراسة التحليلية ، وتقع هذه الوثيقة الهامة في نحو عشرين صفحة بالقطع الكبير من ص ١٢٢ حتى ص ١٤٠ من الجزء الثالث (١١٧) .

وقد قال الجبرتي في تقديمه لهذه الوثيقة الهامة بعد ذكره لحادثة مقتل كليبر على يد سليمان الحلبي ما يلي :

« ثم انهم رتبوا صورة محاكمة على طريقتهم في دعاوى القصاص . . . وألفوا في شأن ذلك أوراقا ذكروا فيها صورة الواقعة وكيفيةها وطبعوا منها نسخا كثيرة باللغات الثلاث الفرنسية والتركية والعربية ، وقد كنت عرضت عن ذكرها (١١٨) لطولها وركاكة تركيبها لقصورهم في اللغة

ثم رأيت كثيرا من الناس تتشوق نفسه الى الاطلاع عليها لتضمنها خبر الواقعة وكيفية الحكومة ولما فيها من الاعتبار وضبط الاحكام من هؤلاء الطائفة الذين يحكمون العقل ولايتدينون بدين وكيف وقد تجارى على كبيرهم ويعسوبهم رجل آفاقي أهوج وغدره وقبضوا عليه وقرروه ولم يعجلوا بقتله وقتل من أخبر عنهم بمجرد الاقرار بعد أن عثروا عليه ووجدوا معه آلة القتل مضمخة بدم ساري عسكرهم وأميرهم بل رتبوا حكومة ومحاكمة وأحضروا القاتل وكرروا عليه السؤال والاستفهام مرة بالقول ومرة بالعقوبة ، ثم أحضروا من أخبر عنهم وسألوهم على انفرادهم ومجتمعين ثم نفذوا الحكومة فيهم بما اقتضاه التحكيم . . . كما يفهم جميع ذلك من فحوى السطور ( ١١٩ ) .

أما كتاب ترجمة حياة الشيخ عبد القادر الرافي ( ١٢٤٨ - ١٣٢٣ هـ ) لمؤلفه الشيخ محمد رشيد الرافي ضمنه تاريخ والده الشيخ عبد القادر بن مصطفى الرافي الفاروقي الحنفي شيخ السادة الحنفية ومفتي الديار المصرية سابقا ، وهذا الكتاب فضلا عن كونه وثيقة حية عن حياة علماء الشوام بالازهر في القرن التاسع عشر وعلى الاخص الرافعيين فان المؤلف أودع فيه وثيقة هامة من وثائق الحياة العلمية ابان العصر العثماني وهي عبارة عن اجازة علمية حصل عليها الشيخ عبد القادر الرافي من بعض شيوخه بالازهر وقد أودعنا ملخصا وافيا لها في ملحق الوثائق بهذا البحث ، والكتاب فضلا عن ذلك مذيّل بأقوال الجرائد ومراثي العلماء والادباء في تأييد الشيخ عبد القادر الرافي ، ويقع في ١٩٤ صفحة مطبوعة التقدم بالقاهرة سنة ١٣٢٣ هـ ( ١٩٠٦ م ) .

والكتاب الثالث هو كتاب « حياة علم من اعلام الاسلام - الشيخ عيسى منون » يؤرخ لحياة الشيخ عيسى منون شيخ رواق الشوام بالازهر وعضو جماعة كبار العلماء ولجنة الفتوى وشيخ كليتي الشريعة وأصول الدين بالازهر سابقا ( ١٣٠٦ - ١٣٧٧ هـ ) وهو أيضا وثيقة حية لحياة شيخ من أهم شيوخ رواق الشوام بالازهر يؤرخ لنشاطه في رئاسة الرواق وبه كثير من الوثائق التي تهتم الباحث في تاريخ الحياة العلمية والعلاقات الثقافية بين مصر وبلاد الشام ، والكتاب من تأليف الشيخين يوسف عبد الرازق ومحمد عيسى منون نجل المترجم له وهما من علماء الازهر ، وطبع بالقاهرة سنة ١٣٧٧ هـ ( ١٩٥٧ م ) ويقع في ٢٢٢ صفحة بالقطع الكبير .

## النوع الثاني :

أما النوع الثاني من الوثائق الخاصة برواق الشوام فهي الوثائق الارشيفية التي وردت ضمن وثائق الازهر الموزعة على دور الوثائق الرسمية بالقاهرة والموجود لدينا منها حتى الان خمس مجموعات : مجموعة دار الوثائق القومية بالقاهرة ، ومجموعة مصلحة التوثيق والشهر العقاري بالقاهرة ، ومجموعة أرشيف وزارة الاوقاف ، ومجموعة المكتبة الازهرية وأخيرا مجموعة محفوظات الازهر بمبنى تكية أبي الذهب .

أما عن مجموعة دار الوثائق القومية بالقاهرة ، فهي عبارة عن وديعة أرشيفية تضم عددا من الوحدات الارشيفية عن أروقة الازهر وحاته وسجلات مجلس ادارة الازهر منذ انشائه سنة ١٣١٢هـ ( ١٨٩٥ م ) وسجلات المجلس الاعلى للازهر منذ انشائه سنة ١٣٢٩هـ ( ١٩١١ م ) ودفاتر القرارات والمنشورات الواردة من النظارات المختلفة الى الازهر ، ودفاتر الكوبيا الخاصة بصور مكاتبات الازهر الى الهيئات المختلفة ومجموعة المحافظ المحتوية على ملفات وأوراق خاصة بأنشطة مجلس ادارة الازهر والمجلس الاعلى للازهر .

وتنتمي هذه الوديعة الارشيفية زمنيا الى النصف الثاني من القرن التاسع عشر والنصف الاول من القرن العشرين ، وكانت موجودة في حوزة الازهر حتى عام ١٣٦٥هـ وفي تلك السنة قام قسم الجمع والتسجيل بدار الوثائق القومية بالقاهرة بجمعها وتسجيلها ثم أتم نقلها الى دار الوثائق القومية بالقاهرة عام ١٩٧٠ م .

وتوجد في هذه السجلات ووثائق رواق الشوام سنة بعد سنة داخل سجلاتها الحصر العام لاهل الازهر ، وهناك سجلات خاصة برواق الشوام وكلا النوعين هام لرصد قوائم علماء وطلاب رواق الشوام بالازهر في تلك الفترة ، ويلاحظ على هذه السجلات أنها غير مرتبة ترتيبا زمنيا ، وليست مرقمة ترقيفا دقيقا ففيها كثير من السجلات التي تحمل أرقاما مكررة ، فعندما رقيمتها لجنة الجمع والتسجيل بدار الوثائق وضعت عليها أرقاما عشوائية ولم تتبع في ذلك الترتيب الزمني أو التصنيف النوعي .

وفي هذه السجلات نجد رواق الشوام من بين قوائم الاروقة، وطريقة التسجيل على نوعين : فهناك سجلات الحصر العام بالازهر ومن هذا

النوع سجل سنوات ١٢٩٩ ، ١٣٠٠ ، ١٣٠١ ، ١٣٠٢ هـ وطريقة التسجيل في هذا السجل عبارة عن قوائم المجاورين بالازهر تبعا لروقتهم وحرارتهم المختلفة ويأتي بالاساتذة اولا وفي مقدمتهم شيخ الرواق أو الحارة ثم الطلبة ثم أرباب الوظائف بالرواق أو الحارة وقرين كل منهم استحقاقه في الجراية وهكذا سنة بعد أخرى (١٢٠) .

وهناك بعض السجلات الدائمة لرواق الشوام وذلك مثل السجل رقم /٩/ ويخضع التسجيل في هذا السجل للاقدمية أي أقدمية التسجيل لطلب العلم بالرواق ، فالطبة في هذا السجل يسجلون الاقدم فالأقدم ، ولا يراعى في ذلك الحروف الابجدية ولا التقدم في السن ، وتسجل فيه بيانات عن المجاور في خانة كبيرة من خمسة أسطر في صفحتين متقابلتين يدون في اليمنى منها رقمه المسلسل واسمه واسم أبيه واسم جده واسم بلدته ومركزه ومحافظةه ومذهبه ثم مبدأ اشتغاله بالعلم ورقمه في السجل القديم ، وفي الصفحة اليسرى يدون بها كثير من خط سير المجاور الدراسي وهذا فيما يتعلق باستحقاق المجاور في الجرايات المختلفة وقطع هذه الجراية بسبب تخلفه مثلا أو بسبب ذنب اقترفه ، وتقدمه للامتحان ونجاحه أو رسوبه ، واذا كان قد استوطن في مصر تكتب كلمة « مولد » في بداية الصفحة اليسرى اشارة الى انه استقر في مصر ثم في النهاية تاريخ وفاته ان تيسر ، وفيما يلي نقل نموذجا لخانة لاجد المجاورين وهو محمود الخطيب بن ابراهيم أحمد ( ص ٦ - ٧ ) من نفس السجل في الصفحة اليمنى :

نمرة الطالب في السجل القديم	مبدأ الاشتغال بالعلم	المذهب	المحافظة	المركز	البلد	اسم الجد	اسم آبيه	اسم الطالب ولقبه	مسلسل
٣٤	١٤ ربيع آخر ١٣١١هـ	ش (شافعي)	القدس	غزة	البربر	أحمد	ابراهيم	محمود الخطيب	٢٠

وخط سيره الدراسي في الصفحة اليسرى كما يلي :

قطعت جرائته خمسة أيام لتجوله في شارع البيرات وقهاوي الرقص بالازبكية في الساعة العاشرة مساء ، وأخذ عليه تعهد بعدم العودة لذلك ، وتقدم لامتحان العالمية سنة ١٣٣٦هـ وقرر مجلس ادارة الازهر بجلسته في ٢٨ جمادى الثانية سنة ١٣٤١هـ ( ١٤ فبراير سنة ١٩٢٣ م ) قبوله في امتحان العالمية لان حادثة تجوله في شارع البيرات لاتمنع من دخوله الامتحان ضمن اذن في ١٩ من فبراير سنة ١٩٢٣ م ثم قطعت جرائته لوفاته الى رحمة الله في ١٠ يونيو سنة ١٩٣٢ م وتاريخ اذن الشطب في ١١ منه .

وقد تسببت حالة الحرب العالمية الاولى في انقطاع كثير من طلبة رواق الشوام عن الدراسة ومن ثم نجد في هذا السجل تجاه كثير من المجاورين أنهم انقطعوا عن الدراسة بسبب حالة الحرب (١٢١) .

ومن الواضح أن هذه المعلومات السالفة تفيد الباحث في مجال العلاقات الثقافية بين مصر وبلاد الشام بصفة عامة وتفيد الباحث أيضا في مجال التاريخ لعلماء الشوام الذين تلقوا تعليمهم بالازهر وهذه المعلومات رسمية لايتطرق الشك اليها .

ومن أهم السجلات التي تهتم الباحث في تاريخ علماء الشوام بالازهر سجلات العلماء ، والتي اضافتها لجنة الجمع والتسجيل بدار الوثائق القومية الى سجلات الاروقة ، ومن أهمها سجل برقم ٧/ وهو لخصر علماء الازهر منذ صدور أول قانون للامتحان بالازهر سنة ١٢٨٧هـ ( ١٨٧٢ م ) على عهد شيخ الازهر محمد المهدي العباسي المعاصر للخديوي اسماعيل حتى سنة ١٣٤٣هـ ( ١٩٢٥ م ) وطريقة حصر العلماء في هذا السجل أن يأتي أولا باسماء العلماء السابقين على قانون الامتحان الشافعية أولا ثم الحنفية ثم المالكية فالحنابلة وعددهم جميعا ٢٥٢ عالما من المصريين وبعض الجنسيات الاخرى التي كان يطلق عليها اسم الآفاقيين ( نسبة الى الافاق المختلفة ) وهؤلاء علماء الازهر يومئذ المشهود لهم بالتقدم قبل قوانين الامتحان .

ومن هؤلاء من علماء الشوام : عبد القادر الرفاعي شيخ رواق الشوام وصالح الجباوي ، وحسين الخليلي ، وعبد الله الدرستاوي ،

ومحمد مدوخ ، وصالح الطرابلسي ، وعلي الابريري ، وسلمان الخاني ،  
وعبد المعطي الخليلي ، وحسين الطرابلسي ( شيخ رواق الشوام بعد وفاة  
الشيخ عبد القادر الرافعي سنة ١٣٢٣هـ ) ومسعود النابلسي وقد  
لاحظنا قلة علماء الحنابلة في هذا السجل لدرجة ان عددهم في تلك  
المدة كان ثلاثة فقط من الشوام منهم الشيخ يوسف النابلسي شيخ رواق  
الحنابلة والشيخ عبد الرحمن مظهر النابلسي .

وهناك سجل رقم /٢/ لتقييد العلماء الحاصلين على شهادة العالمية  
النظامية وغير النظامية للمصريين والغرباء من سنة ١٣٢٩هـ حتى سنة  
١٣٤٥هـ أي منذ أن صدر القانون رقم ١٠ لسنة ١٩١١ م ، ويمتاز هذا  
السجل بانه يأتي بقوائم المصريين وحدهم ، ثم يفرد للحاصلين على العالمية  
من الوافدين قوائم خاصة بهم وطريقة التسجيل في هذا السجل هي بترتيب  
النجاح في شهادة العالمية حيث يسجل اسم الخريج واسم والده وجده  
وبلدته ومحافظة ومذهبه ورقمه في رواقه بالازهر ثم مجموع ما حصل  
عليه من درجات في امتحان العالمية وتوجد في هذا السجل نماذج للشهادات  
التي كانت تمنح في تلك الايام وصور اذن التدريس الذي كان يعطى للعالم  
لممارسة مهنة التدريس بالازهر أو غيره من المؤسسات التعليمية ويستطيع  
الباحث في هذا السجل ان يقوم بعملية احصاء للشوام الذين نالوا شهادة  
العالمية من الازهر في المدة السالفة (١٢٢) .

والباحث في سجلات العلماء يحصل على كثير من المعلومات الهامة  
مثل أسماء العلماء من كل جنسية وتواريخ نيلهم لشهادة العالمية وتاريخ  
توظيفه وعدد الوظائف التي تقلدها وأماكنها وجنسيته ومحل ميلاده وغير  
ذلك من المعلومات الخاصة بحياتهم العلمية بعد نيلهم لشهادة العالمية ،  
وغير ذلك من المعلومات التي قل أن نجدها في سجلات أخرى .

ومن أهم سجلات الازهر بدار الوثائق مجموعة محاضر مجلس  
ادارة الازهر والمجلس الاعلى للازهر منذ انشائه سنة ١٣١٢هـ ( ١٨٩٤م )  
فيها كثير من القرارات والنظم التي استحدثت على أيام الشيخ محمد عبده  
ومن أهمها فيما يخص رواق الشوام وضع نظام لمشايخ الاروقة سنة  
١٣١٤هـ (١٢٢) ، ووضع نظام للسكنى برواق الشوام بالجامع الازهر سنة  
١٣٢٢هـ ( ١٩٠٥م ) (١٢٤) وغير ذلك من الشؤون التي كانت تخص رواق  
الشوام وتعرض على مجلس ادارة الازهر وكذلك المجلس الاعلى للازهر وقد  
نقلنا منها بعض الوثائق الخاصة برواق الشوام واودعناها في ملحق  
الوثائق بهذا البحث .

أما مجموعة مصلحة التوثيق والشهر العقاري بالقاهرة (١٢٥) فإنها تحتوي على بعض الوثائق الخاصة باروقة الأزهر ومنها رواق الشوام وذلك فيما يختص بأوقاف الأروقة التي كانت تسجل في سجلات محاكم الشرع إبان العصر العثماني كما نجد بها نشاط علماء الصدارة في مجلس الأحكام والتي كانت تسجل وقائعه في سجلات الديوان العالي المودعة بأرشيف مصلحة التوثيق والشهر العقاري وهي عبارة عن ١٦ سجلا تبدأ بتاريخ ١١٥٤هـ وتنتهي بتاريخ ١٣٠٧هـ (١٢٧) .

وقد كتبت سجلات محاكم الشرع هذه بخط عربي سريع قليل الإعجاب تصعب قراءته في كثير من السجلات ، وذلك بسبب صفه المتناهي وتلاصق كلماته ، ويحتاج من الباحث بذل كثير من الجهد والمران الطويل حتى يستطيع قراءته .

ومجموعة وزارة الأوقاف بها صور للحجج الشرعية الأصلية التي حررت بمحاكم الشرع إبان العصرين المملوكي والعثماني وهي خاصة بأعيان موقوفة على الأزهر وأروقته وتمتاز هذه المجموعة بوضوح خطها وسهولة قراءته ، ويستطيع الباحث أن يصل إلى مطلوبه منها في وقت وجيز .

والمكتبة الأزهرية تحتفظ بمجموعة من اللوائح والقوانين المطبوعة التي صدرت عن هيئات الأزهر المختلفة منذ إنشاء المجلس الأعلى للأزهر سنة ١٩١١م - والباحث في تاريخ نظام التعليم الحديث بالأزهر يجد في هذه اللوائح والقوانين فائدة كبيرة وخاصة أنها مطبوعة وإن كانت لاتفني عن مثيلاتها الأصلية بسجلات الأزهر بدار الوثائق القومية ، وبالمكتبة الأزهرية مخطوطة عظيمة الفائدة كتبها الشيخ أبو الوفا المراغي (١٢٨) مدير مكتبة الأزهر سابقا ، وهذه المخطوطة بعنوان : « المعجم الأصغر لتراجم ومؤلفات علماء الأزهر » في أربعة مجلدات بخط المؤلف وهي عبارة عن فهرس مبسط استعرض فيها المؤلف بالحصر مؤلفات علماء الأزهر الموجودة في حوزة المكتبة الأزهرية سواء منها المخطوطة أو المطبوعة ، ويستطيع الباحث في هذه المخطوطة أن يقوم بإحصاء علماء الشوام ومؤلفاتهم .

وأخيرا تأتي مجموعة محفوظات الأزهر في مبنى تكية أبي الذهب ، وهذه المجموعة عبارة عن أرشيف لمحفوظات الأزهر وخاصة بعد قانون



تطوير الازهر رقم ١٠٣ لسنة ١٩٦١م ، وهي خاصة بحفظ ملفات علماء الازهر والموظفين العاملين بادارة الازهر والمعاهد الدينية ، ويستطيع الباحث ان يحصل على ملف أي عالم من علماء الشوام بالازهر وذلك منذ صدور القانون رقم ١٠ لسنة ١٩١١م .

### ملحق بأهم وثائق البحث

#### وثيقة رقم ١

اجازة علمية باسم الشيخ عبد القادر الرافي شيخ رواق الشوام بالازهر قبل قانون الامتحان وهي بتاريخ ١٢٧٢هـ .

#### النص :

#### بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي اسمه مبتدأ كل خير ذي بال ، وفعله البديع المتقن واردا على غير مثال . ارتفعت نحو بابه أكف الطالبين . وانتصبت في خدمة جنابه أقدام المصلين . فالمضاف اليه مرفوع . والمجرور نحوه عن كل سوء مدفوع ليس له في أفعاله المحكمة من مضارع . ولا في أمره المجذوم من ممانع . وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له الذي جعل طلب العلم فريضة كما ورد في الخبر . وأشهد أن محمدا عبده ورسوله الذي فاز من اقتضى من هداه الاثر . صلى الله عليه وعلى آله فرسان الكلام في ميادين المقال . وعلى أصحابه الذين كسروا بحروف سيوفهم جيوش الكفر والضلال واختم فاضل كتابا وأجيز . وانتصب حاله من بين أقرانه على التمييز وسلم تسليما كثيرا . وعظم تعظيما كبيرا .

فان محمد شيمت بروق سحابته . وسميت بالسيادة والنباهة أموره في بدايته ونهايته . وبلغ في العلم والدين مرتبة عالية بارعة . حتى أصبح في العلم والدين في عصره باقعة . قد اينعت ثمرات فضله فأصبحت دانية القطوف . وتجلت عرائس فضله فظهر بدرها بلا كسوف . الشيخ العالم العلامة اللوذعي الفهامة . الفاضل الامجد والكامل الاوحد السيد عبد القادر الشهير بالرافي . الراغب في خدمة الكتاب والسنة . أنار الله له في دجا الشك ملكه . وجعله من العلماء العاملين في سلكهم سلكه . اذ

حق لفهمه الصائب وفكره الثاقب ان يكون ابن جلا . وأن يشار اليه  
بالبنان بين الفضلاء . وقد سمع الاسانيد أنساب الكتب واهتم لذلك  
الفضلاء النجب . فالتمس من الفقير أحمد بن أحمد السباسي العميري  
الشهير لقبه الكريم بمنة الله . أن يجيزه بالسند الذي أملاه . وأجازه  
به شيخه الهمام الفاضل والامام الكامل شيخ الطريقة والحقيقة القطب  
الواصل الشيخ محمد البهي المالكي الشاذلي . وهو أخذ عن شيخه  
الهمام الفاضل والامام الكامل الشيخ يوسف الشياسي الضرير الذي  
كان ليس له في الحفظ من نظير . . ثم ذكر سلسلة شيوخه الذي أخذ  
عنهم الى أن قال :

« وهذا اخر ما أملاه علينا شيخنا من الاسانيد المرضية للعلوم  
النافعة الشرعية ولنا أسانيد سوى ما ذكرناه عن أشياخ بلغوا من الفضل  
منتهاه . وفي الذي ذكرناه الكفاية في الاسناد . وبه يحصل السر والامداد .  
واجزت للمجاز المذكور . ضاعف الله له الاجور ان يروى مالي عن رواية  
بشرطه المعتبر عن ذي الدراية وأن يدرس ويقرأ لمن أراد . والله الموفق  
للصواب والسداد . ووصيتي له أن يراعي حدود الشريعة وسنة النبي  
عليه الصلاة والسلام ويلتزم تقوى الله ذي الجلال والاکرام . ونسأل الله  
أن يجعله من العلماء العاملين وان ينفعه بما علمه يوم الدين وكانت الاجازة  
في سنة ١٢٧٥هـ من هجرة من له العز والشرف صلى الله عليه وسلم  
تابعين من خلف وسلف . أمين والحمد لله رب العالمين .  
أملاه الفقير الى اله أحمد الشهير لقبه الكريم  
بمنة الله حفظه الله (١٢٩) .

وثيقة رقم ٢

نظام مشايخ الازهر بالازهر

قرار مجلس ادارة الازهر رقم ١٧

جلسة يوم الاحد ٢١ شعبان سنة ١٣١٤هـ ( ٢٤ يناير ١٨٩٧م )

« انعقدت جلسة ( مجلس ادارة الازهر ) بمنزل صاحب الفضيلة  
الاستاذ الاعظم شيخ الجامع الازهر يوم الاحد ٢١ شعبان ١٣١٤ الساعة  
ثمانية عربي من النهار بحضور صاحب الفضيلة الاستاذ الاكبر الشيخ  
( حسونة النواوي ) شيخ الجامع بصفة رئيس وحضرات الاستاذ الشيخ

( سليم البشري ) المالكي والاستاذ الشيخ ( مصطفى عز الشافعي )  
والاستاذ الشيخ ( يوسف النابلسي ) الحنبلي والشيخ ( عبد الكريم  
سلمان ) بصفة أعضاء والاستاذ الشيخ ( محمد عبده ) عضو وكاتب  
سر وتداول في وضع نظام المشايخ الاروقة والحارات بالجامع الازهر ،  
وبعد الاطلاع على المادة (٧) من قانون الازهر الصادر عليه الامر العالي  
بتاريخ ٢٠ محرم ١٣١٤ قرر : أولا : أن يكون شيخ الرواق أو الحارة  
في الجامع الازهر من علمائه ولا بد أن يكون من أهل الرواق أو الحارة  
التي يعين شيخا عليها فان لم يوجد من أهله أو أهلها عالم أو وجد لكنه  
لا يصلح للمشيخة فيعين عالم من أهل رواق آخر أو حارة أخرى يكون  
أقرب اليه أو اليها وهذا اذا لم يكن هناك شرط واقف أو كان أهل  
الرواق من غير أهل القطر المصري . ثانيا : أن يناط شيخ الرواق أو  
الحارة بجميع مانص عليه في اللوائح المصدق عليها من مجلس النظار  
بتاريخ ٧ محرم ١٣٠٣ ( ٥ أكتوبر ١٨٨٥ ) في تقييد أسماء الطلبة وملاحظتهم  
في سفرهم ورجوعهم وترتيب الدرجات في الانتظار ونحو ذلك . وثالثا :  
على كل شيخ رواق أو حارة أن ينشئ دفترا يقيد فيه أسماء الطلبة  
التابعين لجهته وتواريخ مبدأ اشتغالهم وتواريخ سفرهم وحضورهم  
أثناء السنة وسائر مانص عليه في اللائحة المذكورة ويحرر هذا الدفتر  
في أول كل سنة دراسية وتختم هذه الدفاتر بختم مجلس الإدارة .  
رابعا : مشايخ الاروقة والحارات مسؤولون بأنفسهم عن آداب الطلبة  
ماداموا في الرواق أو الحارة وعليهم أن يفصلوا في المنازعات الخفيفة  
التي لا تحتاج ان ترفع لمشيخة الازهر وان يبلغوا ما يحتاج منها الى ذلك  
في أسرع وقت ممكن واذا بلغهم عن واحد من الطلبة شيء يخل بسيرته أو  
بعمله في الطلب فعليهم تحقيقه وابلغه للمشيخة . خامسا : على مشايخ  
الاروقة والحارات أن يبلغوا ما يرد من الاساتذة متعلقا بمغيب الطلبة  
عن الدروس أو ما يقع منهم في أثنائها من المخالفات وأن يبلغوه الى مشيخة  
الجامع في أوقاته . سادسا : على مشايخ الاروقة والحارات ملاحظة  
الطلبة في أداء وظائفهم المفروضة في شروط الواقفين كقراءة القرآن  
ونحوها . سابعا : مشايخ الاروقة والحارات مكلفون بتحصيل ايرادات  
الاقواق فيما له أوقاف وتوزيعها على المستحقين واجراء العمارات  
في أعيان الوقف وتقديم حساب عن جميع مايجرونه من ذلك في كل سنة  
الى حضرة الاستاذ شيخ الجامع الازهر ليعث به الى ديوان الاوقاف .

ثامنا : على مشايخ الأروقة والحارات اجابة المشيخة فيما يتعلق بمسائل القرعة العسكرية وغيرها مما يحتاج الاستعلام منهم فيه . تاسعا : على مشايخ الأروقة والحارات اتباع أوامر حضرة شيخ الجامع وقرارات مجلس الإدارة في جميع مايكلفون به من الاعمال المتعلقة بالأروقة والحارات التي هم مشايخ عليها . عاشرا : على شيخ الرواق أو الحارة ان يراقب بنفسه رواقه أو حارته بعد الفراغ من دروسه التي يلقيها في بقية النهار وعليه أن يراقب بنفسه أو من يستنيبه ليلا من بيت في رواقه أو حارته . حادي عشر : اذا تغيب شيخ الرواق أو الحارة بسفر أو مرض وكان له وكيل رسمي قام مقامه في جميع الاشغال وان لم يكن له وكيل رسمي انتخب قبل مغيبه من ينوب عنه مدة غيابه وأخبر بذلك مشيخة الجامع بتغيبه . الثاني عشر : حكم المادة الأولى في هذا القرار يسري على من يعين من مشايخ الأروقة والحارات من وقت صدوره . الثالث عشر : يستثنى من أحكام المادة الثانية وجميع المواد التي بعدها شيخ رواق الحنفية فان جميع الاحكام المذكورة فيها تناط بوكيل مشيخة الرواق . الرابعة عشر : من خالف من مشايخ الأروقة والحارات ووكلائهم في غيبتهم ووكيل مشيخة رواق الحنفية حكما من أحكام هذا القرار جرت عليه أحكام المادة الثالثة والخمسين من قانون الجامع الأزهر ويعلن ذلك لمشايخ الأروقة والحارات (١٢٠) .

### وثيقة رقم ٣

نص وثيقة بخط الامام الشيخ محمد عبده  
خاصا بعقاب صادر عن مجلس ادارة الأزهر لطالب من  
طلبة رواق الشوام بالأزهر

جلسة الخميس ٤ ذي الحجة سنة ١٣١٤ هـ قرار رقم ٢٣ لسنة ١٨٩٧ م

### النص :

« في يوم الخميس ٤ ذي الحجة سنة ١٣١٤ انعقدت جلسة مجلس ادارة الأزهر بمحل ادارتها الساعة ثلاثة عربي من النهار بحضور صاحب الفضيلة الاستاذ الاكبر الشيخ ( حسونه النواوي ) شيخ الجامع الأزهر وحضرات : الاستاذ الشيخ ( سليم البشري ) والاستاذ الشيخ ( مصطفى عز ) والاستاذ الشيخ ( يوسف النابلسي ) والاستاذ الشيخ ( عبد الكريم سلمان ) أعضاء والاستاذ الشيخ ( محمد عبده ) كاتب سر وتليت الافادة الواردة من حضرة الاستاذ شيخ رواق الشوام بالأزهر الى فضيلة الاستاذ

الأكبر شيخ الجامع الأزهر بتاريخ ٣ الحجة سنة ١٣١٤هـ بشأن الشيخ (ابراهيم الدباغ) الذي هو من طلبة رواق الشوام بالأزهر فتبين من الافادة المذكورة ان هذا الطالب سيء السيرة وانه دخل الاوبرة الخديوية، وصدر منه فيها أعمال غير لائقة باهل العلم وقد ثبت عليه ذلك ثبوتاً كافياً لم يبق معه للريب مجال، كما وانه تحقق سوء سلوكه السابق ولم يرتدع لما صدر عليه من الاحكام فبعد الاطلاع على المادة (٤) من قرار مجلس الادارة الصادر في ٢٩ ش سنة ١٣١٤هـ بشأن آداب الطالب والاستاذ تقرر باتحاد الاراء أن يقطع كل ما للشيخ ابراهيم الدباغ المذكور من الاستحقاق في رواق الشوام قطعاً مؤبداً ومحو اسمه من دفاتر الأزهر وانتهت الجلسة الساعة خمسة عربي من النهار .

رئيس الجلسة (١٢١)

كاتب سر الجلسة

وثيقة رقم ٤

نظام للسكنى برواق الشوام بالجامع الأزهر  
قرار رقم ١٦ لسنة ١٩٠٥م/١٣٢٢هـ من قرارات

مجلس ادارة الأزهر

قرار صورته

«بجلسة مجلس ادارة الأزهر المنعقدة بتاريخ ٧ الحجة ١٣٢٢هـ ( ١١ فبراير سنة ١٩٠٥ ) عرضت الكتابة المقدمة الى مشيخة الأزهر من حضرة وكيل رواق الشوام ومشروع النظام الذي وضعه لكيفية السكنى بالرواق المذكور فبعد تلاوته بالمجلس وزيادة ما لزمته زيادته عليه وبعد الاطلاع على المادة السابعة من قانون الجامع الأزهر والتحقق من عدم وجود شرط واقف في الرواق يمكن الرجوع اليه في مثل ذلك تقرر تقرير هذا النظام المشتمل على (١٤) مادة والعمل بما اقتضاه .

نظام للسكنى برواق الشوام بالجامع الأزهر

المادة الاولى :

مستحقو السكنى في هذا الرواق هم المدرسون وطلبة العلم من الشوام بشرط أن يكونوا مولودين في بلاد الشام من أب شامي وان لا يكون لاحدهم زوجة في مدينة مصر ( القاهرة ) وضواحيها التابعة لها في الادارة وليس لمن فقد أحد هذه الشروط حق في السكنى بالرواق .

### المادة الثانية :

يقدم في السكنى من أهل الرواق الاول فمن بعده بحسب تاريخ قيدهم في سجلات الازهر أو دفتر الرواق .

### المادة الثالثة :

إذا تزوج أحد الساكنين أو كان متزوجا وأحضر زوجته بمصر أو ضواحيها سقط حقه في السكنى فان خلا بعد من الزواج أو أسكن زوجته في غير مصر وضواحيها واراد ان يسكن في الرواق لزم ان يقدم طلبا بذلك لحضرة شيخ الرواق ومتى تحقق لديه خلو الطالب من ذلك المانع اذن كتابة بقيده أول منتظر من تاريخ الاذن .

### المادة الرابعة :

مستحق السكنى لا يملك التنازل عن استحقاقه لغيره مطلقا وان تنازل فيقبل منه ويصرف استحقاقه الى من هو تحت الدور واذا أراد بعد ذلك أن يسكن في الرواق فعليه ان يقدم طلبا لحضرة شيخ الرواق فيأذن الشيخ بقيده أول منتظر من تاريخ الاذن .

### المادة الخامسة :

إذا استحق أحد الطلبة السكنى في الرواق وادعى عدم احتياجه اليها وقتئذ ثم بعد مدة طلب السكنى فلايجوز له اخراج من سكن في محله وانما يكون هو أول منتظر من تاريخ الاذن بقيده .

### المادة السادسة :

تكون معاملة السكان في الرواق في السفر والحضور منه والانقطاع ونحوها كمعاملتهم في الجراية .

### المادة السابعة :

لايباح لاحد من السكان ان يبيت معه أحدا ولا من سكان أودة أخرى .

### المادة الثامنة :

ممنوع قطعا وضع أسلحة من أي نوع كانت في الاود وكذلك جميع المواد القابلة للالتهاب .

### المادة التاسعة :

ليس لاحد أن يضع دواليب بباب السلم أو بالطرق أو بالفسحات بل لايجوز وضع أي شيء ينشأ عنه مزاحمة السكان .

### المادة العاشرة :

غسل الملابس والاولاني والطبخ في الاود والفسحات والطرق ممنوع ويمنع كذلك كل عمل ينشأ عنه تقذير البلاط والحيطان أو الشبايك أو اتلاف أي شيء من مشتملات الاماكن .

### المادة الحادية عشرة :

كل من أتى شيئاً مما منع في هذا النظام أو خالف حكماً من أحكامه يحرم من السكنى في الرواق ( تفررت بالاغلبية ) .

### المادة الثانية عشرة :

الخزن المزمع انشاؤها في اود الدور الارضي من الرواق تكون للخالين من سكنى الأود وتصرف للاول منهم فمن بعده على ترتيب تواريخ قدومهم الى الرواق وقيدهم في الدفاتر ومتى استحق أحدهم السكنى في الاود أخذت منه الخزانة وأعطيت لمستحقها على هذا الترتيب .

### المادة الثالثة عشرة :

ينشأ دفتر في الرواق يقيد فيه الاود بعدد متسلسل وأسماء الساكنين في كل منها ويقيد فيه أيضاً عدد الخزن ( متى وجدت ) وأسماء مستحقها كذلك .

### المادة الرابعة عشرة :

على حضرة شيخ رواق الشوام أن يعمل بهذا النظام وأن يعلم به أهل الرواق من وقت وصوله اليه ( ١٢٢ ) .

وثيقة رقم ٥ :

قرار بتعيين الشيخ حسين الطرابلسي

شيخاً لرواق الشوام بعد وفاة الشيخ عبد القادر الرافي

سنة ١٩٠٥ م

قرار رقم ٤٣ لسنة ١٩٠٥ من قرارات مجلس ادارة الازهر

## قرار صورته

« اجتمع مجلس ادارة الازهر في يوم ٨ شوال سنة ١٣٢٣ هـ ( من ديسمبر ١٩٠٥ م ) للنظر في تعيين شيخ لرواق السادة الشوام بالجامع الازهر بدل شيخه المتوفى ، فبعد الاطلاع على المادة السابعة من قانون الجامع الازهر الصادر عليه الامر العالي بتاريخ ٢٠ محرم سنة ١٣١٤ هـ وعلى المادة الاولى من قرار المجلس الصادر سنة ١٣١٤ هـ بشأن مشايخ الاروقة والحارات بالازهر ولما يعلم المجلس في حضرة الاستاذ الشيخ ( حسين الطرابلسي ) انه من علماء هذا الرواق وأعلمهم وانه معروف بالتقوى والصلاح وحسن الادارة ، وانه يحافظ على الحق في كل أعماله .

فلهذا قرر المجلس باتحاد الاراء ( عدا حضرة الشيخ محمد حسنين العدوى فانه لم يحضر لمرضه ) تعيين حضرة الاستاذ الشيخ (حسين الطرابلسي) المومى اليه شيخا على رواق الشوام المذكور وعلى قلم كتاب الازهر تنفيذ هذا القرار «(١٢٢) .

وثيقة رقم ٦ :

## صورة البيورلدى العالي الصادر للعلماء المتخرجين

في ١٣٢٩ الداخلة في ١٣٣٠ هجرية

العلامة المحقق والفهامة المدقق حضرة . . . . . الشافعي  
مذهبا . . . من أهالي . . . . . مركز . . . . . بمديرية . . . . .  
دامت فضائله قد عرض علينا شهادة من قدوة الاعلام حضرة الشيخ  
الجامع الازهر بانه صار امتحانكم بمجلس مشكل من فضيلة الشيخ عبد  
الحكم عطا المالكي بصفته رئيسا ومن حضرات العلماء الافاضل والسادة  
ذوي الفضائل الشيخ أحمد الدلبشاني والشيخ علي رضوان النحراوي  
الحنفيين والشيخ عبد اللطيف والشيخ محمد عليان الشافعيين والشيخ  
حسان عبد الرحيم والشيخ عبد المقصود وعبد الخالق المالكيين وأحسنوا  
الشهادة لكم فيما هو مقرر من العلوم وأقروا باستحقاقكم لدرجة  
العالمية على ماتحقق لديهم وكان ذكركم مما يسر الخواطر ويقر النواظر  
ويدعو الى حسن الالتفات لكل من تحلى بتلك الصفات فشكرنا لكم هذا  
التقدم الجليل وقابلناه بالثناء الجميل حيث كان من أجل النعم المهمة  
لاصلاح الوطن وصلاح الامة لنشر انوار أنواع العلوم والفنون اذ بها تستنير  
الافكار وتزول ظلم الشبه والظنون ولاسيما علم الشريعة المقدسة الطاهرة



الذي هو عنوان سعادة الدنيا والاخرة اذ به تعظيم العبادات وتنظيم  
المعاملات ومن العلوم أن المواظبة على التدريس والافادة يوجب للعلم  
البركة والزيادة ومع العفة والورع يزداد بهاؤه وبكمال تهذيب النفس  
وشرف الاخلاق يشرق ضياؤه ولما تبين لحضرتكم السبق في هذا المضمار  
وسلكتم سبيل المحامد لكسب الفخار أصدرنا هذا المرسوم لفضيلتكم  
معلنا بدرجة العالمية لتقدمو شكرا لمنعم فله الحمد في الاولى والاخرة .  
١١ ربيع أول سنة ١٣٣١ هـ

### صورة اذن التدريس

بناء على نجاحكم في امتحان شهادة العالمية بالجلسة المنعقدة بمشيخة  
الجامع الازهر في سنة ١٣٢٩ - ١٣٣٠ هـ الدراسية وصدور البيورلدي  
العالي المؤرخ في ١١ ربيع أول سنة ١٣٣١ هـ باستحقاقكم درجة العالمية  
قد أذنا حضرتكم بالتدريس في الجامع الازهر وفي غيره من أماكن التدريس  
في القطر المصري .

نسأله تعالى التوفيق والهداية لاقوم طريق .

شيخ الجامع الازهر

امضاؤه/ (١٢٤)

ترتيب صاحب هذه الشهادة

( )

عدد الناجحين

( )

وثيقة رقم ٧

صورة الشهادة التي منحت للناجحين من الغرباء

سنة ١٣٤٠ - ١٣٤١ دراسية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه .  
قال تعالى : « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين  
ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون » وقال صلى الله  
عليه وسلم : « الا ليبلغ الشاهد منكم الغائب » .

الجامع الازهر الشريف

شهادة العالمية للغرباء

قد نال الشيخ العالم الفاضل . . . . . من ناحية . . . . .  
شهادة العالمية الخاصة بالغرباء التي قررها مجلس الازهر الاعلى وذلك  
بعد أن أدى الامتحان بنجاح في الفقه - التفسير - الحديث - مصطلح  
الحديث - التوحيد - النحو - الصرف - المعاني - البيان - البديع -  
المنطق .

وانا نوصيه بتقوى الله تعالى وارشاد الخلق الى مافيه صلاح دينهم  
ودنياهم .

تحريرا في ٢٥ رجب ١٣٤٢ هجرية .

**شيخ الجامع الازهر**  
**ورئيس مجلس الازهر الاعلى**  
( ختم ) (١٣٥)

وثيقة رقم ٨ :

**صورة الشهادة الاهلية في ١٣٤٢هـ**  
( غرباء )

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد واله وصحبه وسلم  
قال تعالى :

« فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا  
قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون وقال صلى الله عليه وسلم :  
من يرد الله به خير يفقه في الدين .

**الجامع الازهر الشريف**

**شهادة الاهلية للغرباء**

قد نال الشيخ . . . . . بن . . . . . من ناحية . . . . .  
شهادة الاهلية الخاصة بالغرباء التي قررها المجلس الاعلى للزهر وذلك  
بعد أن أدى الامتحان بنجاح في علوم ( كذا ) وانا نوصيه بتقوى الله تعالى  
والاستزادة من العلم النافع حتى يبلغ درجة العلماء .

تحريرا في ٢٥ رجب سنة ١٣٤٢ هجرية  
**شيخ الجامع الازهر**  
**ورئيس مجلس الازهر الاعلى**

( ختم ) (١٣٦)

ملخص

تقرير اللجنة المشكلة من بعض مشايخ الازوقة  
برئاسة الشيخ عيسى منون شيخ رواق الشوام للنظر في أحكام القانون  
رقم ٣٦ لسنة ١٩٤١ الصادر بتنظيم الاقسام العامة بالازهر

« الجامع الازهر مدرسة اسلامية كبرى لم يحو الوجود له من نظير يشع نوره على جميع الاقطار الاسلامية فيزيل عنها ظلمة الجهالة بشرية الاسلام السمحة . وما يحتاج من العلوم العربية والعقلية - اذ أنه من مبدأ تأسيسه لغاية الان مازالت طلاب العلم تفد اليه من سائر بلاد المسلمين سواء القاصي منها والداني ، فيغرفون من مناهله العذبة الصافية ثم يرجعون الى بلادهم فيرون به غلة أهلها ، ويكونون سببا في حياتهم حياة طيبة وسعادتهم الدنيوية والاخروية .

من أجل ذلك حبس على هؤلاء الطلاب ذوو اليسار من بلادهم ما يعينهم على أداء مهمتهم فصار الجامع الازهر بحكم ذلك وبما جرى عليه العمل مدة وجوده مدرسة مشتركة بين المسلمين . غير أنهم بلسان الحال وتلويح المقال والاستمرار على هذا المنوال الذي سار عليه الازهر في جميع أطواره قد وكلوا أمر القيام بهذه المدرسة وتنظيم شئونها وتكميل ما تحتاج اليه من النفقات الى مصر التي هي زعيمة البلاد الاسلامية في الثقافة الدينية ، وحاملة لواء العلم والدين والمحافظة على القرآن الكريم من عهد بعيد .

ومصر والحق يقال قد قامت ولا تزال تقوم بهذه المهمة العظمية على أحسن الوجوه وأكملها .

وقد خصت مصر الطلاب الغريباء في كل زمان بمزيد العناية ، وجميل الرعاية وتسهيل سبل التعليم أمامهم بثتى الوسائل ، فاستحقت الثناء الجميل ، والشكر الجزيل من العالم الاسلامي أجمع وكانت بذلك أحق بالقيادة العليا من سائر الاقطار الاسلامية لجيوش الثقافة الدينية ، وأجدر بالزعامة العظمية للمسلمين في سيرهم نحو الرقى الى أن يعود اليهم مجدهم القديم .

نظرنا في هذا القانون فوجدناه قد استتبع الفاء الشهادات التي

كانت خاصة بالغرباء ، وحتى على الطالب الغريب الذي يفد على الازهر ويريد الحصول على شهادة يرجع بها الى بلاده ان يلتحق بالاقسام النظامية ، وهذا لايتيسر لكل طالب بمجرد وصوله الى مصر لاسيما الطلاب الذين لايعرفون اللسان العربي وهم كثيرون جدا ويستحقون مضاعفة العناية بهم وتيسير سبل تعليمهم بكل الوسائل . وبذلك انسد باب الجامع الازهر عن كثير من الطلاب الغرباء من غير سبب يرجع اليهم . وهذا لم يقع قطرا فيما مضى . كما انه حتم على الطلاب الغرباء الموجودين قبل صدوره ان يلتحقوا بالاقسام النظامية ، اذا أمضوا في الازهر مدة تقل عن ثمان سنوات وهذا لم يمكن تطبيقه الا على القليل منهم فاستتبع ذلك حرمان الكثير من تلقي العلم على الوجه الاكمل وهو مما لم يعهد قط .

لذلك رأينا بعد البحث الشديد والنظر في شكاوهم وبعد رجوعنا الى خبرتنا باحوالهم ومايحتاج اليه مختلف البلاد الاسلامية ان نتشرف بتقديم اقتراحين لفضيلتكم راجين التفضل بالنظر فيهما بعين الاعتبار والعمل على معاملة الغرباء على أساسها .

### الاقتراح الاول :

ان يعدل القانون باضافة مادة واحدة يستثنى فيها من أحكام الغرباء على أن يضع مجلس الازهر الاعلى لهم لائحة خاصة تناسب حالهم يبين فيها كيفية انتسابهم ونوع الشهادات التي يمنحونها وغير ذلك أسوة بالقوانين السابقة كقانون رقم ١٠ لسنة ١٩١١ .

والذي دعانا لهذا الاقتراح **أولا** : صعوبة التسوية بين كثير من الغرباء والمصريين في المعاملة والمنهج الذي يسرون عليه . **وثانيا** : اختلاف حاجة الاقطار الاسلامية الى العلوم . **وثالثا** : جعل الباب مفتوحا أمام المجلس الاعلى لان الوقوف على الحاجة الحقيقية لمختلف البلاد في وقت واحد غير متيسر . اذ ليس من المصلحة ان تحدد تفاصيل معاملة الغرباء بقانون لايسهل تعديله في كل وقت اذا تصادم مع بعض الحاجات التي يمكن أن تظهر لبعض البلاد الاسلامية ، بل المصلحة تقضي ان يحال تفصيل معاملتهم الى المجلس الاعلى .

### الاقتراح الثاني :

مشروع لائحة للغرباء رأينا أنه مناسب لحوالهم وقد استمددناه

بالنسبة الى اللحاق الى الكليات واقسام التخصص مما جرى عليه العمل طبقا لقرارات في هذا الشأن بمجلس الازهر الاعلى . وبالنسبة الى الالتحاق بالاقسام العامة مما نعلمه من حال كثير من الطلاب الغرباء ومن مختلف حاجات البلاد الاسلامية .

كما انا راعينا في وضعه التفادي عن مكث الطالب في الازهر مدة يعلم منها قطعا انه ليس أهلا لطلب العلم وعن اهمال الطالب في أثناء تعلمه في الاقسام العامة ويلى ذا المشروع وقد تضمن جملة مواد تحقق للطالب مصلحته العلمية وتيسر له نيل كبرى الاجازات العلمية حتى اذا ما رجع الى بلاده كان جديرا بان يكون رسول اصلاح وارشاد لبني وطنه (١٢٧) .

وثيقة رقم ١٠

### وثيقة خاصة بايراد أوقاف رواق الشوام

بالازهر من سنة ١٩١٨ - ١٩٢١ م

محضر مجلس ادارة الازهر في ١٧ من شوال ١٣٤٠ هـ ( ١٣ يونيو ١٩٢٢ م )

#### نص

« اجتمع مجلس ادارة الازهر بجلسته المنعقدة في ١٧ من شوال سنة ١٣٤٠ هـ ( ١٣ يونيو ١٩٢٢ م ) برئاسة الامام الاكبر شيخ الازهر محمد أبو الفضل ، وذلك لفحص التقرير المقدم من اللجنة المشكلة من : (١) محمود الديناري (٢) محمد صادق عزام ، لمحاسبة شيخ رواق الشام وهو الشيخ عيسى منون وكانت تحت يده النظر على أوقاف رواق الشوام واطلعت اللجنة على المستندات الموجودة لديه ، وقرر مجلس الادارة انه :

« قد تحسن ايراد الاوقاف عما كان عليه زمن تنظر الوزارة قريبا من الضعف » لان ايراد الاوقاف بحسب كشف التسليم من الوزارة في سنة ١٩١٨ م هو ٧٢٥٦٤٧ ج فارتفعت في سنة ١٩١٩ الى ٨٥٠٠٣٥ ج وفي سنة ١٩٢٠ م ٨٩٧٠٩٧ ج ، وفي سنة ١٩٢١ م الى ١٤٢٣٦٠٩ ج حسب الكشف المرفق لهذا وكذلك مستندات المصروفات وجدناها بغاية الضبط والاتقان .

وقرر المجلس أن يكتب الى شيخ الرواق بالا يتخذ وكيلاً له يتقاضى راتبه من ريع الاوقاف والا فيحسب راتبه من أجر النظر (١٢٨) .

## الحواشي

- (١) . اختلف المؤرخون حول تسمية العاصمة الجديدة للفاطميين بمصر ، فقيل انها تتعلق بطالع المدينة الفلكي فقد وضع أساسها جوهر الصقلي حين طلوع كوكب يقال له القاهر ، وقيل لانها تقهر من شد عنها ، أو أن هذا الاسم مأخوذ من قول المعز لجوهر حين وجهه الى فتح مصر : ولتدخلن الى مصر . . . . . وتبني مدينة تسمى القاهرة تقهر الدنيا .
- انظر : محمد عبد الله عنان ، تاريخ الجامع الأزهر ، الطبعة الثانية ١٩٥٨ ص ١٦ - ١٩ . وانظر ايضا ، القلقشندي ، صبح الاعشى ، طبعة دار الكتب الخديوية ١٩١٤ ، ج ٣ ص ٣٤٨ .
- (٢) انظر : د. مصطفى محمد رمضان ، دور الأزهر في الحياة المصرية . . . رسالة دكتوراه ، كلية اللغة العربية ، جامعة الأزهر ، ١٩٧٤ ، ص ٢ - ٣ .
- (٣) انظر : تقي الدين المقرئ ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، طبعة دار التحرير بالقاهرة ١٩٦٨ ، ج ٣ ص ١٦٢ - ١٦٣ .
- (٤) انظر : ابن أياس ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، القاهرة سنة ١٩٦١ ، ج ٥ ص ١٧٨ .
- (٥) انظر : على سبيل المثال لا الحصر تراجم العلماء الواردة أسماؤهم فيما يلي في كتاب المحبي :
- ١ - أحمد بن يحيى الحموي المعروف بابن المؤذن ( ت ١٠٨٧ هـ ) ج ١ ص ٣٦٧ .
  - ٢ - أحمد بن يوسف الحنبلي الكرمي ( ت ١٠٩١ هـ ) ج ١ ص ٣٦٧ .
  - ٣ - حسين عبد الله المملوك ( ت ١٠٣٤ هـ ) ج ٧ ص ٩٥ - ٩٨ .
  - ٤ - خير الدين بن أحمد الرملي ( ت ١٠٨١ هـ ) ج ٢ ص ١٣٤ - ١٣٩ .
  - ٥ - شاهين بن منصور الارمناوي ( ت ١١٠٠ هـ ) ج ٢ ص ٢٢١ .
  - ٦ - شحادة بن إبراهيم الحلبي - شيخ الأزهر ( ت ١٠١٠ هـ ) ص ٢٢١ .
  - ٧ - عبد الباقي بن عبد القادر بن إبراهيم بن عز الدمشقي ( ت ١٠٧١ هـ ) ج ٢ ص ٢٨٣ - ٢٨٥ .
  - ٨ - محمد بن عثمان الصيداوي ( ت ١٠٦٥ هـ ) ج ٢ ص ٣٦ - ٣٧ .
  - ٩ - عبد اللطيف بن أحمد البعلبي الدمشقي ( ت ١٠٨٢ هـ ) ج ٣ ص ١٤ - ١٦ .

- (٦) د. عبد العزيز الشناوي ، دور الازهر في الحفاظ على الطابع العربي لمصر ابان الحكم العثماني ، ص ٢٠ .
- (٧) المرجع السابق ، ص ٢٢ .
- (٨) الجبرتي ، عجائب الآثار ، ج ٢ ص ٥٦ .
- (٩) علي مبارك - الخطط التوفيقية - ج ٣ ص ٢٩ - ٣٠ .
- (١٠) انظر سجل سنة ١٣٠٤/١٣٠٥ هـ شوائية ( أي دراسية لان العام الدراسي كل عام كان يبدأ في الازهر أوائل شوال من كل عام ) الصفحة الاخيرة من السجل رقم ٠٩ من وثائق الازهر بدار الوثائق القومية بالقاهرة .
- (١١) المحبي خلاصة الاثر ... ، ج ٣ ، ص ٢٧٧ - ٢٨٦ .
- (١٢) الجبرتي ، عجائب الآثار ج ١ ص ٣١٤ - ٣١٥ .
- (١٣) يقصد الجبرتي بكلمة الحقير نفسه تواضعا ، وكثيرا ما يستعملها الجبرتي في المواضيع التي يتحدث فيها عن نفسه .
- (١٤) انظر : عبد الرحمن الجبرتي ، عجائب الآثار في التراجم والاخبار ، طبعة المطبعة العامرة الشرفية ، القاهرة سنة ١٣٢٢ هـ ، ج ٢ ص ٥٥ .
- (١٥) الجبرتي ، عجائب الآثار ، ج ٣ ص ٣٠٦ - ٣٠٧ .
- (١٦) درج العثمانيون ابان العصر العثماني على ارسال قاضي قضاة مصر من تركيا وكان هذا القاضي القاضي حنفي المذهب وهو مذهب الاتراك الرسمي كما سلف أن ذكرنا وكان هذا القاضي يعين بدوره مندوبين له في المحاكم المختلفة يسمى كل منهم مأذون مولانا أفندي ، وبعض هؤلاء المأذونين ظلوا زمنا طويلا من الاتراك فكانوا يستعينون بالتراجمة وكانت مراسيم تعيينهم تصدر من الاستانة لقاضي القضاة ولعدد من القضاة من رؤساء المحاكم يبلغون ٣٥ قاضيا ( الرافعي ج ١ ص ٣٩ ) .
- (١٧) سجلات الديوان العالي بأرشفيف الشهر العقاري بالقاهرة وثيقة رقم ٤٧٣ ص ٣٠٠ مسلسل رقم ٢ .
- (١٨) الجبرتي ، عجائب الآثار ... ، ج ٣ ص ٧٦ .
- (١٩) سنتحدث بالتفصيل عن هذا الحادث فيما بعد .
- (٢٠) انظر ترجمة الشيخ أحمد العريشي مفصلة في كتاب الجبرتي ، عجائب الآثار في التراجم والاخبار ج ٣ ص ٣٠٦ - ٣٠٧ .
- (٢١) انظر : ترجمة الشيخ عبد القادر بن مصطفى الرافعي ( الصفي ) بقلم ابنه الشيخ محمد رشيد الرافعي ، تحت عنوان « ترجمة حياة الشيخ عبد القادر الرافعي » طبع مطبعة التقدم ، القاهرة سنة ١٣٢٣ هـ ، وهي مذيلة بأقوال الجرائد ومراتي العلماء والادباء في تأبينه .

(٢٢) المرجع السابق ص ١٨ - ١٩ .

(٢٣) المرجع السابق ص ٢٢ .

(٢٤) كانت تسجل وقائع مجلس الاحكام في سجلات الديوان العالي وعلى الرغم من تسجيل وقائع مجلس الاحكام في سجلات الديوان العالي فقد ظلت تحتفظ باسمها القديم « سجلات الديوان العالي » .

انظر : سجل رقم ١٥ من سجلات الديوان العالي ، وانظر بشأن مجلس الاحكام عبد الرحمن الرافي ، عصر اسماعيل ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٤٨ ، ج ١ ص ٤٥ - ٤٧ .

(٢٥) انظر سجلات الديوان العالي ، سجل رقم ١٠ مواد ٧٣ ، ٧٧ ، ٧٩ .

(٢٦) انظر : محمد رشيد الرافي ، مرجع سبق ذكره ص ٢٤ .

(٢٧) المرجع السابق ص ٥١ - ٥٣ .

(٢٨) حسين الجسر هو حسين بن محمد بن مصطفى الجسر عالم الفقه والادب نشأ في طرابلس الشام وتعلم بها ورحل الى الازهر سنة ١٢٧٩ هـ فتلقى العلم على شيوخه ومنهم عبد القادر الرافي وعاد الى طرابلس في سنة ١٢٨٤ هـ . فكان عالما في عصره ، ومن أشهر كتبه : « الرسالة الحميدية في حقيقة الديانة الاسلامية » والحصون الحميدية في العقائد الاسلامية » و « رياض طرابلس الشام » وتوفى بطرابلس سنة ١٣٢٧ هـ ( ١٩٠٩ م ) .

انظر الاعلام للزركلي ج ٢ ص ٢٨٣ .

(٢٩) كان الشيخ عبد الحميد الرافي من فطاحل شعراء الشام نعت ببلبل سورية ، وهو من أهل طرابلس الشام ولد بها سنة ١٢٧٥ هـ ورحل الى مصر وتعلم بالازهر ، ثم دخل مدرسة الحقوق بالاستانة ، وتقلد كثيرا من المناصب في العصر العثماني فكان ( مستنطقا ) في بلده نحو ١٠ سنين وقائمقام في الناصرة وغيرها نحو ٢٠ سنة ، ونفى في أوائل الحرب العالمية الاولى الى المدينة المنورة وعمل بها قاضيا ، وعاد الى بلده طرابلس وتوفي بها عام ١٣٥٠ هـ ( ١٩٣٢ م ) .

انظر : الاعلام لخير الدين الزركلي ، ج ٤ ص ٥٨ - ٥٩ .

(٣٠) محمد رشيد الرافي ، مرجع سبق ذكره ص ٥٤ - ٥٦ .

(٣١) الزركلي ، الاعلام ، ج ٤ ، ص ١٧٠ - ١٧١ .

(٣٢) أصل بدل الكسوة هذا ان الوالي العثماني كان يصرف لكبار العلماء ومشايخ السجاجيد كساوى عند حلول شهر رمضان من كل عام ، واستمر ذلك زمنا في عصر محمد علي باشا ثم استبدلت الكساوى بقيمتها من النقود ، وبلغ بدل الكسوة للعلماء في سنة ١٢٨٨ هـ على عهد الخديوي اسماعيل ( ٨٩٧٣٦ قرشا ) تأخذه مشيخة الازهر في كل عام من



الروزنامة وتصرفه على كبار العلماء طبقا لدرجات معلومة على النحو التالي : مرتب  
الدرجة الاولى = ٣٠٠٨٦٧ ج وهو لاثنين من العلماء أحدهما شيخ الأزهر ، مرتب  
الدرجة الثانية = ٢٧ ج وهو لثلاثة من العلماء ، مرتب الدرجة الثالثة = ٢٤ ج وهو  
لثمانية من العلماء ، مرتب الدرجة الرابعة = ٢١ ج وهو لسنة من العلماء ، مرتب  
الدرجة الخامسة = ١٨ ج وهو لاربعة من العلماء ، مرتب الدرجة السادسة = ١٥ ج  
وهو لخمسة من العلماء ، مرتب الدرجة السابعة = ١٢ ج وهو لعشرة من العلماء .  
وقد تعدل هذا النظام سنة ١٣١٢ هـ بقانون ( بتاريخ ٣ من رمضان صادر من مجلس  
ادارة الأزهر وقسم كساوى التشريف المالية الى ثلاث درجات : أولى وعددها خمس  
عشرة كسوة ، وثانية وعددها خمس وثلاثون كسوة ، وثالثة وعددها خمسون كسوة .  
انظر : سجل رقم ١٣ من سجلات الأزهر بدار الوثائق القومية بالقاهرة خاص بسنة  
١٩١٠ به اجابات مشيخة الأزهر على استفسارات مجلس النظار عن أوقاف الأروقة وبدل  
الكسوة ، وانظر أيضا سجل رقم ١ من سجلات مجلس ادارة الأزهر لسنة ١٣١٢ هـ  
ص ٨ - ٩ وانظر أيضا محمد رشيد رضا ، تاريخ الامام محمد عبده ، ج ١ ص ٤٣٥ .  
(٣٣) محمد رشيد الرافي ، مرجع سبق ذكره ص ٥٦ - ٦٣ .

(٣٤) وقد مات الشيخ عبد القادر الرافي عن نحو ٧٥ عاما ( ١٢٤٨ - ١٣٢٣ هـ ) وكان  
يسكن في حارة التبليطة المتفرعة من شارع الغوري في دار الاشراف قانصوه الغوري  
تجاه قبة الغوري .

انظر : علي مبارك ، الخطط التوفيقية ، ج ٢ ص ٢٤٨ طبعة دار الكتب .  
(٣٥) هذان البيتان من قصيدة قالها شوقي بمناسبة تكريم الشاعر المبدع عبد الحميد بن  
عبد الفني بن أحمد الرافي ، الذي لقب ببلبل سورية وقد سلف ترجمته . وله  
عدة دواوين من الشعر الرصين من بينها ( الافلاذ الزبرجدية في مدح النظرة النبوية ) و  
( المنهل الاصفى في خواطر المنفى ) .  
انظر : د. مصطفى الشكعة ، مصطفى صادق الرافي ، الطبعة الثانية القاهرة  
١٩٧٨ ص ١٨ .

(٣٦) المرجع السابق ص ١٧ .  
(٣٧) انظر : قرار رقم ٤٣ بتاريخ ٥ من ديسمبر سنة ١٩٠٥ ، سجل قرارات مجلس  
ادارة الأزهر ( من سنة ١٣١٢ - ١٣٢٣ هـ ) وكان الشيخ حسين الطرابلسي يشغل  
بجانبه مشيخة رواق الشوام منصب مفتي ديوان الاوقاف بمصر ، وتوفي الى رحمة  
الله في ٢٤ من رمضان ١٣٢٦ هـ .

(٣٨) انظر : مقدمة « حميد الاثار في نظم تنوير الابصار » طبعة المطبعة السلفية بالقاهرة  
سنة ١٣٤٣ هـ ص ٢ - ٣ .

(٣٩) المرجع السابق ، ص ٤ - ٥ .

- (٤٠) من نص نقله محب الدين الخطيب في ترجمة قصيرة له في ذيل منظومته الفقهية ص ١٠٣ .
- (٤١) انظر ترجمته في ذيل منظومته « حميد الانار في نظم تنوير الامصار » المطبوعة بالقاهرة في ١٣٤٣ هـ بالمطبعة السلفية . وانظر أيضا الاعلام للزركلي ج ٧ ص ٣٣٣ .
- (٤٢) انظر : قرار رقم ٤٢ بتاريخ ١١ من نوفمبر سنة ١٩٠٥ ص ١٥٥ من سجل قرارات مجلس ادارة الازهر من سنة ١٣١٢ - ١٣٢٣ هـ سالف الذكر .
- (٤٣) من حديث شفوي في مقابلة لي معه بالقاهرة وقت حضوره المؤتمر الثامن لمجمع البحوث الاسلامية بالازهر سنة ١٣٩٨ هـ ( ١٩٧٨ م ) .
- (٤٤) نص القرار رقم ٤ من قرارات المجلس الاعلى للازهر لسنة ١٩١١ على أن « يقبل الدخول في امتحان شهادة الاهلية من كل طالب أمضى في الازهر مدة أقلها ثمان سنوات فأكثرها احدى عشرة سنة ، ويقبل الدخول من كل طالب أمضى في الازهر مدة أقلها اثنتي عشرة سنة وأكثرها سبع عشرة سنة في امتحان شهادة العالمية ، وكل من أمضى في الازهر احدى عشرة سنة فقط لغاية جمادى الثانية سنة ١٣٢٩ هـ الحالية يجب عليه ان يتقدم للامتحان في شهادة الاهلية ابتداء من ربيع الاول سنة ١٣٣٠ هـ لغاية جمادى الثانية من السنة المذكورة ، فان لم يتقدم يمح اسمه من سجلات الازهر وتقطع مرتباته ، وكل من أمضى في الازهر سبع عشرة سنة لغاية جمادى الثانية سنة ١٣٢٩ هـ الحالية يجب عليه ان يتقدم للامتحان في شهادة العالمية ابتداء من شهر ربيع الاول سنة ١٣٣٠ هـ لغاية جمادى الثانية من السنة المذكورة فان لم يتقدم يمح اسمه من سجلات الازهر وتقطع مرتباته .
- انظر : مجموعة محاضر المجلس الاعلى للازهر المطبوعة وهي تشتمل على محاضر وقرارات المجلس من تاريخ انعقاده لأول مرة ٧ من جمادى الثانية ١٣٢٩ هـ ( ٤ يونية ١٩١١ م ) جزء أول ص ٥ طبع مطبعة الاصلاح بالقاهرة ١٩١١ م .
- (٤٥) انظر : محضر رقم ٢٢٠ لاجتماع مجلس ادارة الازهر بتاريخ ١٧ من شوال سنة ١٣٤٠ هـ ( ١٩٢٢ م ) بدفتر محاضر وقرارات المجلس من ١٩٢١ - ١٩٢٤ م . ( ١٣٣٩ - ١٣٤٢ هـ ) ص ٦٢ - ٦٣ .
- (٤٦) انظر : المصدر السابق ذات المكان .
- (٤٧) انظر : يوسف عبد الرازق ومحمد عيسى منون ، حياة علم من أعلام الاسلام القاهرة ، ( ١٣٧٧ هـ ) ( ١٩٥٧ م ) ص ٢٠ - ٢١ .
- (٤٨) المرجع السابق ذات المكان .
- (٥٠) المرجع السابق ص ٢٦ - ٢٧ .
- (٥١) مصطفى فاضل العوري قاضي حيفا الشرعي سابقا ، والمحامي الشرمي بلبنان حاليا وأحد خريجي الازهر من الشوام .

- (٥٢) من كلمة في تأبين الشيخ عيسى منون كتبها الشيخ مصطفى فاضل العوري وجاء نصها في كتاب « حياة علم من أعلام الاسلام » ص ٢٠٧ - ٢٠٩ .
- (٥٣) انظر المرجع السابق صفحات ١٧٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠٧ ، ٢١٦ .
- (٥٤) علي مبارك ، الخطط التوفيقية ، ج ٤ ص ٢٩ .
- (٥٥) انظر سجل سنوات ١٢٩٩ - ١٣٠٢ هـ ( ١٨٨١ - ١٨٨٤ م ) ص ١٤٦ - ١٤٨ من سجلات الازهر بدار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٥٦) كان الشيخ أحمد بن عبد المنعم بن يوسف الدمنهوري من أشهر من تولوا مشيخة الازهر وأنشطهم في التأليف في شتى العلوم ، وقد ولد عام ١١٠١ هـ ( ١٦٨٩ م ) بمدينة دمنهور عاصمة البحيرة ، وتلقى العلم بالازهر وبرع في كثير من العلوم الشرعية والعربية والطب والهندسة والكيمياء وغيرها وتولى مشيخة الازهر سنة ١١٨٢ هـ وتوفي في عام ١١٩٠ هـ .

انظر في ترجمة الشيخ أحمد الدمنهوري ، الجبرتي ، عجائب الآثار ، ج ٢ ص ٢٦ - ٢٨ ، وانظر أيضا سندنا علميا لاجازات الشيخ الدمنهوري في كتاب : الازهر تاريخه وتطوره ، صادر عن وزارة الاوقاف وشئون الازهر ، القاهرة ١٩٦٤ م . وانظر أيضا : « اللطائف النورية في المنح الدمنهورية » للشيخ أحمد الدمنهوري ، وهي مخطوطة محفوظة في مكتبة رفاة الطهطاوي بسوهاج تحت رقم ٢٣٢ تاريخ .

(٥٧) فاستقى هذه الحقيقة من ثبت رسمي أصدرته وزارة الاوقاف وشئون الازهر في عام ١٩٦٤ متضمنا أسماء شيوخ الازهر ومذاهبهم ومدة كل منهم في مشيخة الازهر ، وهم منذ انشاء هذا المنصب حتى وفاة الشيخ الدمنهوري على النحو التالي :

#### أولا - الشيوخ المالكية :

- الشيخ محمد عبد الله الخش المتوفى سنة ١١٠١ هـ ( ١٦٩٠ م ) الاول .
- الشيخ محمد الفشرتي ( ١١٠٦ - ١١٢٠ هـ ) ( ١٦٩٤ - ١٧٠٨ م ) الثالث .
- الشيخ عبد الباقي القليني ( ١١٢٠ - ) ( ١٧٠٨ - ) الرابع .
- الشيخ محمد شنن توفى ( ١١٣٣ هـ - ١٧٢١ م ) الخامس .
- الشيخ ابراهيم بن موسى الفيومي ( ١١٣٣ - ١١٣٧ هـ ) ( ١٧٢١ - ١٧٢٥ م ) السادس .

#### ثانيا - الشيوخ الشافعية :

- الشيخ ابراهيم بن محمد بن شهاب البرماوي ( ١١٠١ - ١١٠٦ هـ ) الثاني .
- الشيخ عبد الله الشبراوي ( ١١٣٧ - ١١٧١ هـ ) ( ١٧٥٧ - ١٧٦٧ م ) السابع .
- الشيخ محمد بن سالم الحفني ( ١١٧١ - ١١٨١ هـ ) ( ١٧٥٧ - ١٧٦٧ م ) الثامن .
- الشيخ عبد الرؤوف محمد بن عبد الرحمن السجيني ( ١١٨١ - ١٧٨٢ هـ ) التاسع .
- الشيخ أحمد عبد المنعم الدمنهوري ( ١١٨٢ - ١١٩٠ هـ ) العاشر .

انظر : الازهر في ١٢ عاما ، سجل من وضع وزارة الاوقاف وشئون الازهر ، القاهرة ١٩٦٤ ، وانظر أيضا الازهر تاريخه وتطوره ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٢٠ - ٣٢٩ وانظر أيضا تراجم هؤلاء العلماء في سنوات وفياتهم في كتاب الجبرتي ، عجائب الانار في التراجم والاخبار ، وانظر أيضا د. عبد العزيز الشناوي ، دور الازهر في الحفاظ على الطابع العربي لمصر ابان الحكم العثماني ، مرجع سبق ذكره ص ٤٣ .

(٥٨) هو محمد بن أحمد بن حسن بن عبد الكريم الخالدي الشهير بابن الجوهري ، من أكابر علماء الازهر ، ولد بالقاهرة ١١٥١ هـ وتلقى العلم بالازهر على كثيرين من شيوخ عصره ، وجلس للتدريس بالازهر فكان اية في الفهم والذكاء والتبحر في العلم واشتهر بالتعفف والامتناع عن مخالطة الناس وخاصة الامراء ، وزهد عما بأيديهم فأحبه الناس وسعى الامراء الى منزله وترددوا لزيارته ، وعرف عنه انه لم يدخل بيت أمير طوال حياته ولاقابل حاكما ، الاماعرف عنه ورواه عنه المعلم تقولا ترك من أنه قابل بونابرت وتشفع اليه في اخراج الخيل من الازهر عقب ثورة القاهرة الاولى ، وابان عهد الحملة الفرنسية نهبت داره وسرقت كتبه التي جمعها طوال حياته فاغتم وتراكت عليه الهموم ومات في ٢١ من ذي القعدة ١٢١٥ هـ ( ١٨٠٠ م ) .  
انظر : الجبرتي ، عجائب الانار . . . ، ج ٣ ص ١٧٣ - ١٧٤ .

(٥٩) الشيخ أحمد العروسي كان من كبار علماء الشافعية بمصر ومن المعروفين بالتقوى والورع ، وقد ولد بقرية منية عروس احدى قرى محافظة المنوفية بمصر في سنة ١١٣٣ هـ ( ١٧٢١ م ) ودرس بالازهر على كبار علماء عصره ، وكانت وفاته بالقاهرة سنة ١٢٠٨ هـ ( ١٧٩٣ م ) .

انظر : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٦٧ - ٢٧٠ .

(٦٠) الجبرتي ، عجائب الانار ، ج ٢ ص ٥٦ .

(٦١) المرجع السابق ج ٢ ص ٥٦ - ٥٧ .

(٦٢) الجبرتي ، عجائب الانار ، ج ٢ ص ٥٤ .

(٦٣) المرجع السابق ، ج ٢ ص ٥٧ .

(٦٤) لم يذكر الجبرتي سببا لهذه الحادثة .

(٦٥) محمد رشيد رضا ، تاريخ الامام محمد عبده ، طبعة المنار ، القاهرة سنة ١٩٣١

ج ١ ص ٤٣٠ .

(٦٦) انظر سجل محاضر مجلس ادارة الازهر رقم ١ ص ٤٢ جلسة يوم الاحد ٢١ شعبان

١٣١٤ هـ ( ٢٤ يناير ١٨٩٧ م ) .

(٦٧) المصدر السابق جلسة ٤ من ذي الحجة سنة ١٣١٤ هـ قرار رقم ٢٣ لسنة ١٨٩٧ .

(٦٨) المصدر السابق قرار المجلس بتاريخ ١٢ من شوال سنة ١٣١٤ هـ ص ٤٦ .

(٦٩) انظر : دفتر قيد قرارات مجلس ادارة الازهر من سنة ١٣١٢ - ١٣٢٣ هـ ص ١٤٤ - ١٤٥ من وثائق الازهر بدار الوثائق بالقاهرة ، وانظره بملحق الوثائق .

(٧٠) انظر تاريخ الامام محمد عبده ، ج ١ ص ٤٢٩ .

(٧١) علي مبارك - ج ٤ ، ص ٣٠ .

(٧٢) كريستوفر هيروولد ، بونابرت في مصر ص ٢٥٦ .

(٧٣) المرجع السابق ص ٩٨ - ٩٩ .

(٧٤) كان الشيخ بدر الدين المقدسي هذا هو وأخوه الشيخ علي بن موسى المقدسي من كبار علماء الشوام في مصر . قال عبد الرحمن الجبرتي المؤرخ عن أخيه الشيخ علي انه ورد الى مصر وتلقى العلم على كبار شيوخها بالازهر واجازوه وكان من كبار فقهاء الحنفية في مصر « بارعا في معرفة فنون المذهب الحنفي عارفا بأصوله وفروعه يستنبط الاحكام بجودة ذهنه وحسن حافظته ويكتب على الفتاوى برائق لفظه » واتصل بمحمد بك أبي الذهب فوصله بالعطايا والمنح وكان جريئا في قول الحق لا يخشى فيه لومة لائم ، ولما توفي الشيخ علي هذا سنة ١١٨٦ هـ تصدر أخوه بدر الدين المقدسي مكانه « وجرى على نسقه وطبيعته في مكارم الاخلاق واطعام الطعام واکرام الضيفان والتردد على الاعيان والامراء والسعي في حوائج الناس والتصدي لاهل حارته وخطته في دعاويهم وفصل خصوماتهم وصلحهم والذب عنهم ومدافعة المعتدى عليهم ولو من الامراء والحكام في شكاويهم وتشاجرهم وقضاياهم حتى صار مرجعا وملجأ لهم في أمورهم ومقاصدهم وصار له وجهة ومنزلة في قلوبهم ويخشون جانبه وصولته عليهم» .

انظر : ( الجبرتي - عجائب الآثار - ج ١ ص ٣٧٤ - ٣٧٧ ) .

وذكر علي مبارك لبدر الدين المقدسي جامعا باسمه يعرف بجامع بدر الدين ابن النقيب بالحسينية قرب باب الفتوح .

انظر : علي مبارك ، الخطط ، ج ٣ ص ١١٥ طبعة دار الكتب سنة ١٩٧٠ ، بالقاهرة .

(٧٥) الجبرتي - عجائب الآثار - ج ٣ ص ٢٦ .

(٧٦) سر المارستان هو ممر سري مبني للطوارئ يؤدي من شارع المعز لدين الله الى شارع اخر خلف المارستان المنصوري وتوجد هذه الطريقة المعمارية في كثير من العمائر بالقاهرة المعزية ومنها على سبيل المثال ممر سري مازال موجودا بمسجد السلحدار المطل على شارع المعز لدين الله وحارة برجوان بالجمالية فاذا دخله السالك من حارة برجوان يخرج الى المعز وبالعكس ، ويستعمل هذا الممر السري وقت الحروب والثورات والاغارات على المدن ، وكانت هذه الطريقة مستعملة في القصور الملكية ابان العصور الوسطى ومطلع العصور الحديثة فكان في كل قصر ( ممر سري ) يمتد تحت الارض لمسافات طويلة تسمح للامير المحاصر بالافلات من الحصار .

- (٧٧) الجبرتي ، تاريخ مدة الفرنسيين بمصر من ١٢١٣ هـ الى ١٢١٦ هـ ص ٣ ، وهي مخطوطة بخط الجبرتي في مكتبة جامعة ليدن بهولندا تحت رقم ( Cod. Au. 2437 ) حصلنا على نسخة منها عن طريق التصوير بالميكروفيلم وهي عبارة عن مذكرات أولية كتبها الجبرتي بنفسه عن فترة الحملة ، وتحتوي على بعض الاضافات التي حذفها الجبرتي عند اخراج كتابيه ( مظهر التقديس ) و ( عجائب الاثار ) .
- (٧٨) الجبرتي - عجائب الاثار - ج ٣ ص ٢٧ .
- (٧٩) كريستوفر هيروولد ، بونا بورت في مصر ، ص ٢٦٨ .
- (٨٠) الجبرتي - تاريخ مدة الفرنسيين بمصر ص ٣٩ .
- (٨١) ترجمة الجبرتي لهم في وفيات سنة ١٢١٣ هـ في كتابه عجائب الاثار في التراجم والاخبار ، ج ٣ ص ٦٤ - ٦٥ .
- (٨٢) ادوار جوان ، مصر في القرن ١٩ ص ١٦٥ من الترجمة العربية لمحمد مسعود ، الطبعة الثانية ، القاهرة سنة ١٩٣١ م .
- (٨٣) الجبرتي ، عجائب الاثار ، ج ٣ ص ١٣٧ .
- (٨٤) الجبرتي ، عجائب الاثار ، ج ٣ ص ١٢١ - ١٢٢ .
- (٨٥) ذكر الجبرتي محاضر استجواب سليمان ورفاقه بنصها العربي في كتابه عجائب الاثار ، وقد نشر الفرنسيون التحقيق يومئذ باللغات الفرنسية والعربية والتركية وقد وقعت نسخة من النص العربي في يد الجبرتي فأودعها كتابه بكاملها وحافظ على نصها بما فيه من أخطاء لغوية ، وقد استخلصت هذه المعلومات من هذا النص الذي يقع في نحو ثمان عشرة صفحة بالقطع الكبير من ص ١٢٢ حتى ١٤٠ من الجزء الثالث من كتاب : « عجائب الاثار في التراجم والاخبار » .
- (٨٦) كان كليبر قبل مقتله قد عين الجنرال منو قومنداناً للقاهرة في شهر مايو عقب اخماد ثورة القاهرة الثانية ، وبقي منو في وظيفته الجديدة الى أن قتل كليبر ، فتولّى منو استجواب سليمان بصفته قومندان القاهرة وأقدم قواد الحملة ، وكان من قبل قائداً على رشيد منذ قدوم الفرنسيين ، وكان قد أظهر أنه مسلم وتزوج بامرأة مسلمة من رشيد وتسمى باسم : « عبد الله جاك منو » .
- (٨٧) عبد الرحمن الرافي ، تاريخ الحركة القومية ج ٢ ص ١٨٢ .
- (٨٨) الجبرتي ، عجائب الاثار ، ج ٣ ص ١٢٤ .
- (٨٩) المصدر السابق ، ج ٣ ص ١٣٣ .
- (٩٠) انظر : محاضر التحقيق في كتاب الجبرتي ، عجائب الاثار ، ج ٣ ص ١٢٢ - ١٤٠ .
- (٩١) انظر نص الحكم في محاضر المحاكمة في المصدر السابق ص ١٢٨ .
- (٩٢) المصدر السابق ، ج ٣ ص ١٢٢ .

- (٩٣) كريستوفر هيزولد ، مرجع سابق ذكره ، ص ٥٠١ .
- (٩٤) كريستوفر هيرولد ، مرجع سبق ذكره ، ص ٥٠١ .
- (٩٥) المرجع السابق ص ٥٠٠ .
- (٩٦) الجبرتي - عجائب الآثار ، ج ٣ ص ١٣٧ .
- (٩٧) هذه الرواية نقلا عن ادوار جوان ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٦٧ - ١٦٨ ، واعتقد أن في ذلك مبالغة لان الخازوق كان محميا بالنار ويؤدي الى الوفاة السريعة .
- (٩٨) الفريد فرج ، سليمان الحلبي ( مسرحية ) دار الكتاب العربي ، القاهرة سنة ١٩٦٩ نقلا عن مقدمتها التاريخية ص ٥ - ٦ .
- (٩٩) ادوار جوان ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٦٨ .
- (١٠٠) انظر : محمد رشيد الرافي ، ترجمة حياة عبد القادر الرافي ، مرجع سبق ذكره ص ٧٥ - ٧٦ .
- (١٠١) انظر سجل سنوات ١٢٩٩ هـ حتى ١٣٠٢ هـ ( ١٨٨١ - ١٨٨٤ م ) بدون رقم ، من وثائق الازهر بدار الوثائق القومية بالقاهرة .
- (١٠٢) انظر . أقدم سجل للازهر وهو خاص بسنوات ١٢٨٦ حتى ١٢٨٩ هـ ، بدون رقم من سجلات الازهر بدار الوثائق القومية بالقاهرة .
- (١٠٣) توفى الشيخ يوسف النابلسي في ١٩ من شوال ١٣١٨ هـ ( ٩ من فبراير ١٩٠١ م ) .
- (١٠٤) انظر سجل رقم ٢٥ بحصر علماء المالكية والحنابلة منذ قوانين الامتحان حتى ١٣٤٦ هـ .
- (١٠٥) انظر : سجل الحصر العام لاهل الجامع الازهر سنة ١٣٢١ هـ برقم ٢١ ، الجزء الثاني من ص ١٠٢ الى ص ١١٩ .
- (١٠٦) انظر : سجل رقم ٩ من السجلات الدائمة لاهل رواق الشوام بوثائق الازهر بدار الوثائق القومية بالقاهرة .
- (١٠٧) انظر : سجل رقم ٤٦ من سجلات الاروقة وهو خاص بقيد طالبي الانتساب الى أروقة الاغراب من عام ١٣٣٥ هـ - ١٣٥٤ هـ من سجلات الازهر بدار الوثائق القومية بالقاهرة .
- (١٠٨) انظر دفتر قيد أرياب الجرايات عن سنة ١٣١٩ هـ ( ١٩٠٢ م ) ص ٢ - ٣ من وثائق الازهر بدار الوثائق القومية بالقاهرة .
- (١٠٩) انظر أرشيف الشهر العقاري بالقاهرة ، سجلات محكمة الباب العالي ، سجل رقم ٣٢٧ رقم الوثيقة ١١١٨ ص ٤٨١ .
- (١١٠) انظر سجل حصر جميع أهل الازهر لعام ١٣١٥ هـ جزء ٢ ص ١٤٦ - ١٦٤ بدون رقم ، من سجلات الازهر بدار الوثائق القومية بالقاهرة .

- ( ١١١ ) انظر دفتر محاضر وقرارات مجلس ادارة الازهر من سنة ١٩٢١ - ١٩٢٤ م .
- ( ١٣٣٩ - ١٣٤٢ هـ ) ص ٦٢ - ٦٣ من وثائق الازهر بدار الوثائق القومية بالقاهرة .
- ( ١١٢ ) انظر المحبي ، خلاصة الاثر في أعيان القرن الحادي عشر ، ج ١ ص ٢٩٢ .
- ( ١١٣ ) علي مبارك ، الخطط التوفيقية ، طبعة بولاق ، ج ٤ ص ٢٢ .
- ( ١١٤ ) الازهر تاريخه وتطوره ، ص ٤٣٩ .
- ( ١١٥ ) المرجع السابق ص ٤٤٢ .
- ( ١١٦ ) المرجع السابق ص ٤٣٧ .
- ( ١١٧ ) وذلك من طبعة المطبعة العامرة الشرفية بالقاهرة سنة ١٣٢٢ هـ والتي أخرجت كتاب عجائب الآثار في أربعة مجلدات .
- ( ١١٨ ) يقصد الجبرتي أنه كان قد أعرض عن ذكرها في كتابه الاول الذي أخرجه عن أحداث الحملة الفرنسية على مصر عقب خروج الحملة مباشرة بعنوان : « مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيين » ولم يذكر فيه محاضر التوفيق هذه وأشار الى الحادثة بإشارة موجزة .
- ( ١١٩ ) أنظر : الجبرتي ، عجائب الآثار ، ج ٣ ص ١٢٢ .
- ( ١٢٠ ) انظر : سجل سنوات من ١٢٩٩ حتى ١٣٠٢ هـ ( ١٨٨١ - ١٨٨٤ م ) بدون رقم من سجلات وثائق الازهر بدار الوثائق القومية بالقاهرة .
- ( ١٢١ ) انظر : سجل رواق الشوام رقم ٩ صفحات ٦ ، ٧ ، ١١ ، ١٣ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٢٧ ، ٢٩ ، ٣٧ من سجلات وثائق الازهر بدار الوثائق القومية بالقاهرة
- ( ١٢٢ ) انظر : نماذج لصور الشهادات التي كان ينالها الغرباء بالازهر في ملحق الوثائق بهذا البحث .
- ( ١٢٣ ) انظر : سجل محاضر مجلس ادارة الازهر رقم ١ ص ٤٢ جلسة الاحد ٢١ شعبان سنة ١٣١٤ هـ وانظره ايضا بملحق الوثائق بهذا البحث .
- ( ١٢٤ ) انظر : دفتر قيد قرارات مجلس ادارة الازهر من سنة ١٣١٢ - ١٣٢٣ هـ ص ١٤٤ - ١٤٥ من وثائق الازهر بدار الوثائق القومية بالقاهرة وانظره ايضا بملحق الوثائق بهذا البحث .
- ( ١٢٥ ) يطلق كثيرون من الباحثين على هذه الوثائق اسم : « وثائق المحكمة الشرعية » وذلك نظرا لترددهم عليها أولا في محكمة نور الظلام الشرعية ببركة الفيل بالحلمية الجديدة بالقاهرة ثم في محكمة شبرا الشرعية بعد ذلك حتى عام ١٩٧٠م ففي هذه السنة نقلت تلك السجلات الى مكانها الحالي بدفتر خانة الشهر العقاري بالقاهرة ( المقر الرئيسي ) ومن ثم عرفت أخيرا بسجلات دفتر خانة الشهر العقاري أو سجلات محاكم الشرع ابان العصر العثماني .



- (١٢٦) انظر على سبيل المثال وقفية بشبك الدويدار على رواق الشوام وغيره من الاروقة مسجلة بسجلات محكمة الباب العالي بالقاهرة سجل رقم ٣٢٧ ، وثيقة رقم ١١١٨ ص ٤٨١ .
- (١٢٧) انظر بحثا ضافيا لكاتب هذا البحث بعنوان : « وثائق الازهر » قدم الى ندوة وثائق تاريخ العرب الحديث المنعقدة في جامعة عين شمس بالقاهرة في المدة من ٧ الى ١٢ مايو سنة ١٩٧٧ م .
- (١٢٨) انظر مخطوطة ابو الوفا المراغى تحت رقم خاص ( ٨٠٠٦ ) عام ٧٧١٣٠ ، بالمكتبة الازهرية .
- (١٢٩) انظر : نص هذه الاجازة في كتاب محمد رشيد الرافي « ترجمة عبد القادر الرافي » ص ٣٥ - ٤٨ .
- (١٣٠) انظر سجل محاضر مجلس ادارة الازهر رقم ١ ص ٤٢ الجلسة بعاليه من وثائق الازهر بدار الوثائق القومية بالقاهرة .
- (١٣١) نقلا عن سجل محاضر مجلس ادارة الازهر رقم ١ من سجلات وثائق الازهر بدار الوثائق القومية بالقاهرة .
- (١٣٢) انظر دفتر قيد قرارات مجلس ادارة الازهر من سنة ( ١٣١٢ - ١٣٢٣ هـ - ١٨٩٥ - ١٩٠٥ م ) ص ١٤٤ - ١٤٥ من وثائق الازهر بدار الوثائق القومية بالقاهرة .
- (١٣٣) نقلا عن سجل قرارات مجلس ادارة الازهر السنة ١٩٠٥ ص ١٥٥ من سجلات مجلس ادارة الازهر بدار الوثائق القومية بالقاهرة .
- (١٣٤) نقلا عن سجل رقم ٢ من وثائق الازهر بدار الوثائق القومية الخاص بتقييد الحاصلين على شهادة العالمية من سنة ١٣٢٩ هـ حتى ١٣٤٥ هـ .
- (١٣٥) نقلا عن سجل رقم ٢ سالف الذكر .
- (١٣٦) نقلا عن سجل رقم ٢ من سجلات وثائق الازهر بدار الوثائق القومية بالقاهرة وهو خاص بتقييد الحاصلين على شهادة العالمية من الازهر في المدة من سنة ١٣٢٩ حتى سنة ١٣٤٥ هـ .
- (١٣٧) انظر نص هذا التقرير في كتاب : « حياة علم من أعلام الاسلام - عيسى منون » تأليف : يوسف عبد الرازق ومحمد عيسى منون ، القاهرة سنة ١٩٥٧ ص ٢٤ - ٢٦ .
- (١٣٨) نقلا عن سجل محاضر وقرارات مجلس ادارة الازهر من سنة ١٩٢١ الى سنة ١٩٢٤ م ( ١٣٣٩ - ١٣٤٢ هـ ) ص ٦٢ - ٦٣ من سجلات وثائق الازهر بدار الوثائق القومية بالقاهرة .

# المعهد التعليمي الروسي في سورية

حتى عام ١٩١٤\*

الدكتور ديريك هوبود

( جامعة اكسفورد )

واجه مجتمع روسيا القيصرية ، بين عامي ١٨٥٠ و ١٩١٧ ، عدة أزمات رئيسية : منها هزيمتان حربيتان واغتيال القيصر . كما شغلت ذلك المجتمع عدة قضايا جدلية حادة ، اذ كثر الجدل حول الاصلاح الاجتماعي ، والسياسي ، ودور الكنيسة ، والامور التربوية ، وشؤون الفلاحين . وكان وضع المجتمع بحد ذاته ، موضع تساؤل ونقاش ، اذ اعتقد بعض الناس ان باستطاعة روسيا تقليد أوروبا الغربية ، واعتقد بعضهم الاخر ، بان على روسيا ان تحافظ على شخصيتها السلافية الارثوذكسية . كانت روسيا في القرن التاسع عشر امبراطورية كبيرة ، وكانت تتوسع باستمرار باتجاه آسيا الوسطى ، ومناطق الشرق الاقصى ، كما لعبت دورا في تحديد ميزان القوى الاوربية ، وتأثر الدور السياسي الذي رسمته لنفسها في تلك الحقبة باكملها ، بعلاقاتها مع الامبراطورية العثمانية . لقد كانت تلك الدولة ، بذاك المجتمع ، الذي لم يكن يعرف تماما دوره في ذلك العالم ، هي التي قررت ان تثبت وجودها في سورية وفلسطين ، ليس من أجل اظهار قوة روسيا واهتمامها بالمنطقة فحسب، وانما من أجل التصدي لنشاطات القوى الاوربية الاخرى . ولم تكن لتلك النشاطات الروسية سابقة ، كما افتقرت الى اطار عام للعمل تسير وفقه . وكان السبيل الواضح الى ذلك هو العمل من خلال الكنيسة الارثوذكسية في المنطقة .

تتبع الجماعة الارثوذكسية عدة كنائس ذات استقلال ذاتي ، ومقسمة الى عدة بطريركيات ، اثنتان منها في بلاد الشام وهما بطريركية القدس ، و بطريركية انطاكية، ويرئس هذه المجموعة بطريرك القسطنطينية . كانت تحكم الكنيسة الروسية في القرن التاسع عشر هيئة تسمى « المجمع الكنسي المقدس » ، اذ كان بطرس الاكبر قد قام سابقا بلغاء البطريركية الروسية ، في محاولة منه لوضع الكنيسة تحت اشراف الدولة المباشر . ولكن لما كانت كل بطريركية تتمتع باستقلال ذاتي ، فقد كان من

\* قام بترجمة هذا البحث الى العربية الدكتور نجيب الشهابي .

المستحيل نظريا ان يعمل مسيحيون أرثوذكس اخرون لاينتمون اليها ، ضمن اطارها دون الحصول على اذن من البطريرك صاحب الشأن . وقد كان وضع بطريركي انطاكية والقدس في القرن التاسع عشر معقدا لان البطريرك ، وهيئة الاساقفة كانوا من اليونان ، بينما كان رجال الدين الادنون مرتبة ، واتباع الكنيسة ، من العرب . ولقد أدى ذلك الى استياء العرب . وقد ازداد ذلك سوءا بنمو الشعور القومي العربي ، وتطوره في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين . وقد شعر الروس بوجود روابط أخوة وتعاطف بينهم وبين الارثوذكس في سورية ، وبشكل خاص العرب منهم ، اذ اعتقد الروس ان هؤلاء يقاسون الامرين في ظل هيئة فاسدة من الاساقفة اليونانيين تستبد بهم وتضطهدهم .

وكانت قوى أوربية أخرى قد نشطت في المنطقة ، وكان نشاطها في غالب الامر من خلال احدى الكنيستين البروتستانتية أو الكاثوليكية ، وهكذا شعرت روسيا بانه من الطبيعي ان تحذو حذو تلك القوى الاوربية . وكانت المشكلة بالطبع هي ان اليونانيين لم يريدوا ان يززع التدخل الروسي مركزهم . كما لم يعجب بعض الروس ان يشن الارثوذكس الروس حربا على اخوانهم اليونانيين ، يكون سببها اتباع الكنيسة العرب . وقد اعتقد هؤلاء ان عملا كهذا لن يؤدي الا الى اضعاف الكنيسة في وجه نشاطات البروتستانت والكاثوليك التبشيرية . أما الاخرون من الروس فقد اراحوا ضمائرهم بان أكدوا انهم بعملهم ذاك ينقذون الكنيسة العربية من الترددي في ظل الاهمال اليوناني . ومهما كانت الدوافع ، فان النشاط الروسي كان لا بد له من أن يؤثر في المجتمع العربي المحلي . أما بعض رجال الدولة الروس والدبلوماسيين ، فلم يكونوا مهتمين بالكنيسة ، بل أرادوا استغلالها لتوسيع سلطة الدولة . فجل ما كان يشغلهم هو سمعتهم الوطنية ، والحصول على مركز نفوذ داخل الامبراطورية العثمانية لذلك رحبوا باستخدام الكنيسة للوصول الى تلك الاهداف .

وضعت روسيا منذ عام ١٨٤٣ فصاعدا عدة خطط للعمل في سورية وفلسطين ، في مجالات الديانة ، والطب ، والحج ، والتربية . وتقتصر هذه المقالة على بحث النشاطات التربوية . كان مفهوم التربية لدى معظم الروس الارثوذكس هو دعم الشباب العرب وتمتين عرا تراثهم

الديني ، وذلك عن طريق مجابهة النشاط التربوي للكنائس الاخرى ، وتوفير تربية دينية تقليدية ، الا ان عدة عوامل وقفت في طريق تطبيق ذلك المشروع الروسي ، أهمها النقص في الهيئة التعليمية ، من العرب أو من الروس الذين يرغبون بالعمل بعيدا عن بلادهم ، كما لم يكن لدى الروس نظام مدرسي متكامل ، ولم يكن أمر هدف تلك التربية قد اتضح لديهم ( ذلك ان هذا الموضوع كان لا يزال غامضا في روسيا بالذات ) هذا ، وقد ثبت ان بعض الاباء والطلاب العرب لم يرق لهم تعلم اللغة الروسية . وعلى الرغم من تلك المشكلات فانه ما جاء عام ١٩٠٤ حتى كانت روسيا تتحمل مسؤولية ادارة ما يقرب من مئة مدرسة في سورية ولبنان وفلسطين ، عندئذ أصبح باستطاعة الطفل الارثوذكسي دخول مدرسة ابتدائية في القرية ، والانتقال الى مدرسة اعدادية ثم الى مدرسة ثانوية في الناصرة . أما اذا أظهر مقدرة وذكاء خارقين فكان يرسل الى روسيا لمتابعة تعليمه . ولقد ناقشت وقائع هذه التطورات في كتابي المنشور بعنوان « الوجود الروسي في سورية وفلسطين بين عامي ١٨٤٣ و ١٩١٤ » .

The Russian Presence in Syrie and Palestine 1843 — 1914.

وأود هنا أن أناقش بطريقة مختلفة المشكلات التي واجهها الروس وردود الفعل العربية لها .

من الواضح انه تم التقاء مجتمعين متفايرين وجها لوجه . كانت روسيا بلدا كبيرا وقويا ، الا انها كانت في عديد من وجوها مضطربة المعالم ، تتلمس طريقها في درب جديدة ، تكاد تكون مجهولة تماما ، فكانت تأتي من ثم براء ، وافكار ، وأشخاص ، من مجتمع يمر في فترة تحول وتغير . أما المجتمع العربي الارثوذكسي فقد كان يشكل أقلية مسيحية صغيرة ، تعيش بين أكثرية اسلامية ، ولها عادات مستقرة في الحياة ، وبشكل عام موقف ثابت تجاه نفسها وتجاه جيرانها . لذلك فان دخول روسيا الى حياة هؤلاء قد جلب التوتر ، كما جلب تغييرات منها الحسن ومنها السيء .

وكما أسلفت فان هدف المدارس الروسية كان تربية الشباب العرب تربية دينية تمكنهم من التعرف على أسس المذهب الارثوذكسي . أما المنافع الاخرى لتلك المدارس فقد كانت من وجهة نظر « الجمعية الامبراطورية الفلسطينية الارثوذكسية » ، ( الايوبس I O P S ) وهي جمعية طوعية تحملت الاشراف على المدارس المذكورة - أمورا عرضية ولكن يرحب بها وقد رئي أيضا ان على الطلاب تعلم اللغة العربية من أجل

قراءة صلواتهم الدينية بلغتهم ، ولكي يكون باستطاعتهم المشاركة مشاركة كاملة في ثقافتهم الخاصة . كانت تلك سياسة حميدة اذ استطاعت الحد من الشعور بالعداء الذي كان من الممكن ان يسببه تعليم لغة أجنبية دون غيرها . الا ان عدة عوامل أدت الى تغيير تلك السياسة ، أولا كان لدى بعض المسؤولين الروس اقتناع راسخ ان لغة الاداريين في المدارس الروسية يجب ان تدرس ، لا من أجلها وحدها فحسب ، وانما لان بعض العرب كانوا يتوقعون تعلم لغة أجنبية واحدة على الاقل في المدارس الاجنبية ، وبالإضافة الى ذلك فان معرفة اللغة الروسية تسمح للطلاب باتمام تعليمهم في المدارس الاعدادية ، في الناصرة ، وبيت جالا ، اذ كانت معرفة اللغة الروسية شرطا أساسيا للانتساب الى هاتين المدرستين ، كما ان معرفة اللغة الروسية تجعل الطلاب قادرين على متابعة دراستهم في روسيا نفسها وعلى قراءة أمهات الادب الروسي باللغة الاصلية . وقد كتب سكرتير جمعية (اليوبس I O P S ) قائلا : « ان أفضل العناصر من المعلمين قد تمكن من ايصال الادب الروسي الى طلابه ، وانه نتيجة لذلك ازداد الاهتمام بالحياة السياسية والادبية في روسيا ازديادا ملحوظا . ثم أردف قائلا : « يدل ذلك كله على ان تعليم اللغة الروسية لم يكن دون طائل ، فقد كان وسيلة واضحة لزيادة معرفة العرب بثقافة من يقدمون لهم العون ، ولاتتوقف حاجتهم عند معرفة الوجه الناصع للحياة الروسية ، بل تتعدى ذلك الى معرفة الوجه السلبي والمتحيز منها . وعلى أي حال فانهم يحصلون على تلك المعرفة من خلال الترجمة الا انه من الافضل قراءة هذه المعلومات بواسطة مدرس روسي قدير بدلا من ان تصلهم بشكل مموه » . وقد كتبت تلك الملاحظة عام ١٩١٤ ، في وقت متأخر . وكان واضحا ان مثل هذا الرأي كان مغايرا للاهداف المكتوبة لجمعية « اليوبس » ، التي نصت على انها لاتستهدف سوى القيام بالتعليم من خلال روح المذهب الارثوذكسي التقليدي فحسب .

وهكذا تم تعليم اللغة الروسية حيثما أمكن ذلك . وما ان علم العامة من الناس بوجود مدرسة تعلم اللغة الروسية ، حتى أصبح لها سمعة ، وجو خاص بها . وصار الطلاب ينشدون الاناشيد الروسية في عيد الميلاد ، وعيد القيصر ، كما رفع العلم الروسي ، وعلقت صور القيصر والقيصرة ، وبذلك شعر العرب الارثوذكس ان لهم حماة أقوياء . وقد فاجأ الطلاب العرب من الشبان والشابات معلمهم بطلاقتهم في اللغة

الروسية ، اذ كان المعلمون الروس لا يتكلمون اللغة العربية لذلك لم يكن أمام الطلاب من خيار سوى تعلم اللغة الروسية .

وخصت بعض المدارس أياما كاملة للتحدث باللغة الروسية دون غيرها ، وقام الطلاب القدامى بمساعدة الجدد في ذلك . وأصبحت معرفة اللغة الروسية موضع تفاخر ، حتى ان طلاب مدرسة الناهرة أخذوا ينشدون الاناشيد الروسية بشكل مثير للتحدي ، وهم يتنزهون في شوارع البلدة أو في طرقات الريف .

وبينما كان سكرتير « جمعية الايوبس » يكتب تقاريره عام ١٩١٤ ، كانت بعض آراء العرب والروس تذهب الى حد أبعد من ذلك . اذ لم تعجب الروح التقليدية للايوبس بعض موظفي وزارة الخارجية الروسية لذلك تقدموا - حسب ماجاء في تقرير للجمعية - « بطلبات عاجلة ومتكررة من أجل تغيير وتطوير المدارس بشكل يتلاءم مع الزمان ومع شروط الحياة » . وقد أيد تلك المطالب عديد من الاباء السوريين والفلسطينيين وأبنائهم . وقد كان غرض تلك المطالب هو أن تتوقف المدارس عن تعليم اللغة الروسية والمواد الدينية لصالح « العلوم المفيدة » واللغتين الانكليزية والفرنسية ، وذلك بدافع من الاعتقاد السائد ، ان معرفة هاتين اللغتين تساعد على ايجاد فرص عمل ، أفضل من تلك التي توفرها معرفة اللغة الروسية . وقد تبين ان بعض الطلاب رفضوا حضور دروس اللغة الروسية خشية ان تضيع فرصهم في تعلم الانكليزية أو الفرنسية . وقد قال أحد السوريين الذين تخرجوا من جامعة موسكو وهو « يوليان حلبي » وكان يتحدث في حمص عام ١٩١٠ ، ملخصا ذلك الموقف : « ينظر السكان المحليون ، بدافع نفعي ، الى تعلم اللغة الروسية على انه أمر غير ضروري . ان الجمال بشكل عام ، وجمال اللغة الروسية بما فيها لغة تورجنيف السلسلة ، ذات التعابير القوية لا يمكن ان يفهمها اناس شاغلهم الرئيسي البحث عن رغيف الخبز » . وقد أكد أحد أعضاء السفارة الروسية في استانبول هذا الرأي ، بقوله : « ان الدافع الحقيقي وراء الرغبة في تعلم اللغة الانكليزية والفرنسية هي الحاجات الملحة للحياة والمعيشة ، وليس انكارا لجميل عطاء المبشرين الروس » .

وقعت « جمعية الايوبس » فريسة الازمات المالية ، فقبلت مساعدات وزارة الخارجية ، ولم تكن تملك بالمقابل سوى ان تقبل

باشراف تلك الوزارة على نشاطها . لذلك قبلت في عام ١٩١٤ ، ان تفسر  
مناهجها التعليمية وتقدمت بخطة جديدة احتوت على الادب الروسي  
الحديث ، والتاريخ ، والجغرافية الحديثة ، والعلوم ، وصار باستطاعة  
الطلاب اختيار احدي اللغتين الانكليزية او الفرنسية . ومما يدعو للاسف  
ان اندلاع الحرب منع تطبيق تلك الخطة الدراسية منعا كاملا ، ولايستطيع  
أحد التكهن بما كان سيؤول اليه الامر لو تم تطبيقها . لاشك انه من  
سخرية القدر ، ان روسيا التي أنشأت مدارسها من أجل دعم المجتمع  
العربي الارثوذكسي ، وتوطيد أسس ديانته ومذهبه ، وجدت نفسها  
في النهاية تدرس مواد غريبة دنيوية الى جانب الادب الروسي الزمني .

بالاضافة الى الجدل حول استعمال اللغة الروسية ، واجهت منظمة  
الايوبس عددا من المشكلات الاخرى فقد كان نظامها التعليمي بحاجة الى  
مدرسين أكفاء ، والى مدارس وأموال والى طلاب على مستوى حسن .  
ولم يجد الروس سهولة في مواجهة المتطلبات اللازمة في أي مجال من  
تلك المجالات . كانت المشكلة الرئيسية هي في ايجاد المدرسين من العرب  
والروس على حد سواء ، اذ نقرأ باستمرار كتابات تنم عن التذمر ، وعدم  
الرضى عن مستوى التعليم . ولقد وجدت حفنة صغيرة من المدرسين  
فقط نذرت نفسها للعمل وقضت معظم حياتها العملية في المنطقة . أما  
بقية المدرسين فكانوا يمضون عادة مدة قصيرة في خدمة الجمعية . اذ  
لم يكن التعليم في سورية يغري سوى قلة من الروس ، ذلك ان الرواتب  
كانت منخفضة ، والشروط الحياتية فقيرة بصورة عامة وأحيانا كان  
يأتي بعض المدرسين للعمل ، لكن سرعان مايبعدون رغبتهم في العودة  
الا أنهم كانوا يضطرون للبقاء عندما يجدون ان تعيينهم قد تم من قبل  
وزارة التربية ، وبذلك فهم في خدمة الحكومة وعليهم الامتثال لما تفرضه  
الوزارة عليهم . وقد كتبت الجمعية في تقاريرها ، ان مصدر الصعوبة  
التي تواجهها في الحصول على هيئة تعليمية ، هو عدم توفر الراهبات  
والشماسات لدى الكنيسة الارثوذكسية كي تقوم بارسالهن حيثما  
تشاء للقيام بالتعليم . « يقوم على ادارة مدارسنا أناس من عامة  
الشعب ، قلما يوجد بينهم من جاء الى الشرق ليخدم العقيدة  
الارثوذكسية . اذ يجذب المعلم الروسي امران هما المكان الجديد ، والاجر  
الاضافي ، وسرعان مايصاب كلا النوعين من المعلمين بالملل » .

أما الذين يبقون فانهم غالبا مايتهمون بالتكبر في تصرفاتهم ، وفي معاملتهم لزملائهم . وقد كتب احد المسؤولين في وزارة الخارجية مايلي : « ان التذمر من مدارس « جمعية الايوبس » عام وشامل وقد ازداد حدة لان المدرسين الروس يعاملون السوريين بازدراء يؤدي الى الاستياء منهم » . وقد امتدح الاساتذة العرب في مدارس البنات في « بيت جالا » بسبب اخلاصهم ، وعملهم الدؤوب ، بينما أخذ على الروس تكاسلهم وتعاليمهم على زملائهم . وهكذا ازداد ضيق الجمعية بتلك التصرفات فكتب القنصل الروسي بدمشق قائلا : « لا يوجد مكان كالشرق يجد فيه المرء أناسا متفطرسين ومتفاخرين ، وقد انتقلت العدوى الى الروس فاخذوا يعاملون العرب بازدراء . . . ان المدرسين الروس قد أصيبوا بمرض التعجرف ، لذلك فهم يعيشون بعيدا عن زملائهم السوريين . وبذلك يختلفون عن غيرهم من المعلمين الاجانب الذين يختلطون مع أبناء الشعب ، حتى لو كانوا رهبانا أو أعضاء في جمعيات دينية » . وهكذا شعرت المنظمة ، ان تلك المواقف ادت الى « نقص في التعاون بين العرب والروس . فالروس يعيشون حياة رغيدة ، بينما يتوجب على العرب توخي الحذر . فهم ينالون أجورا أقل مما يناله الروس ، ومعظمهم ينتمي الى عائلات فقيرة » . لذلك كان من الصعب ايجاد مدرسين مناسبين ، وباستثناء تلك الاقلية التي ذكرتها ، كان على الروس تغيير هيئتهم التعليمية بشكل دائم ومستمر . « ان المعلمات يبقين فترة أطول ، وبشكل خاص في « بيت جالا » ، بسبب الظروف الفضلى هناك . فبيب جالا قريبة من القدس ، ومن الجالية الروسية فيها . أما في مدارس دمشق ، والناصره وحيفا ، وطرابلس ، فاقامتهن قصيرة . ولاتستطيع منظمة الايوبس اجتذاب سوى الشابات اللواتي سرعان ما يعدن الى روسيا بغية الزواج . أما الطاعنات في السن فقد استتب بهن الامر » .

أما مشكلات المدرسين العرب فهي من نوع مختلف . ان هناك بعض البارزين أمثال « قسطنطين قوزما » مدير مدرسة « الناصرة » . الا أنه يمكن القول أن الايوبس افتقرت الى مدرسين من ذوي الخبرة . لذلك اضطرت الى أن تبدأ من الصفر في تدريب مدرسيها ، وقد أدى



ذلك الى مواجهة عديد من المشكلات . فعندما يتخرج الطلاب يكونون في سن صغيرة ، ولا يتقبلهم بعض اولياء الطلاب بصفتهم مدرسين جديين . وكمثال على ذلك ، ان مجموعة من اولياء الطلاب من الناصرة ، ارسلت عريضة طالبت فيها بان يقوم بتعليم اولادها مدرسون اكفاء ، دون الاستعانة بطلاب من المدرسة الاعدادية في الناصرة . وعندما كان يتم تعيين مدرس جديد في احدى المدارس ، كان الاباء يرفضون ارسال ابنائهم اليها حتى يعرفوا هويته . وقد كان « الشارب » أحد المؤهلات الرئيسية للمعلمين من الذكور ، فهو يدل على عمره ، وبالتالي على مقدرته التعليمية . وقد هرب أحد الحليقيين بعد ثلاثة أيام من تعيينه من قبل الايوس ، بسبب معاملة الاهالي غير اللائقة له . كما أبلغت قرية أخرى مفتش الجمعية ، انها بكل بصراحة ، لن تقبل مدرسا بدون شارب . وبالإضافة الى ذلك ، سرعان ما أحس الشباب العرب من المعلمين بالملل ، بسبب حياة القرية ، فتركوها اما الى المدن واما الى أميركا . وفي بعض المناطق كان يستقيل ١/٨ الهيئة التعليمية من عملهم في كل عام . ونتجت عن ذلك مشكلة ايجاد من يحل محل ثلاثين منهم سنويا ، بينما لم يزد عدد المتخرجين من اعداديتي الناصرة وبيت جالا عن ١٤ طالبا في كل عام . وقد جاء في مذكرة ارسلتها الجمعية انه اذا لم يتم ايجاد مدرسين اكفاء فان « من يستطيع الكتابة ولو قليلا سوف يصبح معلما . وبعد ذلك بيوم او يومين يترك التعليم اذا ما عرض عليه عمل بأجر أكبر في فندق من الفنادق . » الا انه من ناحية أخرى تخرج عدد كبير من الشبان والشابات من مدرستي الناصرة وبيت جالا وأصبحوا مدرسين ناجحين لدى الجمعية .

ذكر الروس في تقاريرهم عدة مشكلات أخرى واجهتهم في تجربتهم التعليمية تلك . وربما كان أكثرها حدة مشكلة ايجاد تقليد تربوي جديد في منطقة افتقرت الى المدارس الارثوذكسية . وقد وضع حجم تلك المعضلة للروس ولكن لم يستطيعوا الوصول الى حل لها . وفي نهاية القرن التاسع عشر ، قدر عدد الاطفال الارثوذكس الذين أصبحوا في سن تؤهلهم لدخول المدارس ما يقارب الـ ( ٣٠٠٠ ) ، في سورية وهذا يعني انهم بحاجة الى ما لا يقل عن ( ٣٠٠ ) مدرسة ، و ( ١٠٠٠ ) معلم . لكن عدد المدارس عام ١٩٠١ لم يزد عن ( ٨٢ ) تحتوي على ( ٤٠٠ ) معلم

و ( ١١٠٠٠ ر ) طالب ، وهكذا أصبح جليا ان عديدا من الاطفال اضطروا الى الامتناع عن الذهاب الى المدرسة ، والانتساب الى مدارس غير ارثوذكسية ، أو تلقي العلم في صفوف تضم عددا كبيرا من التلاميذ . وفي بعض الاحيان كان يقوم بعبء المدرسة كلها معلم واحد فقط . وقد ذكر ان صفوف المدارس في دمشق ضمت اكثر من ٥٠ طالبا . كما كانت الابنية القديمة غير الملائمة مصدرا لليأس والقنوط ، مثل ذلك مدرسة « بيت ساحور » التي كانت هدفا لاشد حملات النقد من قبل الروس : « ان هذه المدرسة فاشلة جدا ، فهي تتألف من غرفة صغيرة وقذرة ، وتقوم على ادارتها معلمة واحدة فقيرة ، وقد زارها البرفسور عطايا ( وهو مغترب سوري يعيش في روسيا ) عام ١٨٩٩ وكتب قائلا : « لا يمكن اعتبار ذلك الشيء مدرسة ، بل لا يمكن اعتباره محاولة لخلق مدرسة . فهو وكر قذر ، يضم بنات وسخات لم يفتسلن مرة ، وتقوم على ادارته امرأة جاهلة غير مثقفة أو متحضرة » . جاء ذلك في تقرير ارسل الى « بطرسبرغ » ، وقد قرأه على المأرئيس جمعية « الايوبس » الدوق الاعظم سيرجي . وعلى الرغم من الطلبات المتكررة ، لم يستطع الروس فتح مدارس جديدة كافية ، أو تحسين وضع المدارس الموجودة بشكل جذري .

وهنا أيضا وجدت بعض الحالات الاستثنائية مثل مدرسة البنات في « بيت جالا » وفي دمشق ، وبيروت ، ومدرسة البنين في الناصرة ، والمدارس المختلطة في طرابلس ، وبعض مدارس القرى في لبنان . وهكذا جد الروس في محاولتهم الرامية الى خلق تقليد تربوي متين باستخدام الامكانيات المحدودة التي توافرت لديهم . ففي فلسطين عمل الروس مدة اربع وثلاثين سنة لتحقيق تلك الغاية ، أما في سورية فلم يكن يعملوا سوى تسعة عشر عاما ، وقد برهنت التجربة انه من الصعب جدا الاشراف على المستوى التعليمي ، وعلى النظام في مدارس منتشرة انتشارا واسعا . اذ لم يستطع بعض المشرفين زيارة بعض تلك المدارس الا مرتين في العام الواحد . وربما استغرقت الرحلة بين مدرستين «متجاورتين» يومين أو ثلاثة أيام لذلك ضعفت القدرة على الاشراف على المدارس النائية ، خاصة تلك التي كان يقوم على ادارتها أساتذة غير أكفيا ، أو غير مدربين بشكل ملائم .

كتب أحد المسؤولين عام ١٩٠٣ قائلا « هناك عديد من المشكلات

في ميدان السلوك العام ، مادام المدرسون أنفسهم يفتقرون الى السلوك الحسن وليس أولياء الطلاب أفضل حالا فكيف يعلمون أبناءهم مخافة الله ، بينما هم يؤدون صلواتهم في جو من الصخب ، وعدم المبالاة ؟ أما دوام الطلاب فلم يكن منتظما ، وخاصة في القرى ، حيث هب الطلاب الى الحقل لمساعدة ذويهم ، بينما تقبع الفتيات في البيوت للقيام بالاعمال المنزلية . وقد رفعت شكاوى عديدة ، حتى في المدارس المركزية ، حول تصرفات الطلاب في بداية مراحل تعليمهم ، وحول عدم استعدادهم لتقبل النظام المدرسي ، وجاء في أحد التقارير الاولى عن مدرسة الناصرة مايلي :

« ان الطلاب الجدد غير معتادين على جو المدرسة وقد اضطررنا لان نكون حذرين في تطبيق أنظمة المدرسة وقواعدها . أما دوام طلاب الحلقة الاعدادية فقد كان غير منتظم للغاية ، وبعض الطلاب صغار السن لدرجة انهم غير قادرين على فهم الامور ، لذلك فهم ينزفون في احدى الزوايا . ان مهمتنا الاولى هي ان نزرع في نفوسهم السلوك المدرسي الصحيح . الا ان الناصرة استطاعت ان تتغلب على معظم تلك المصاعب . » فبعد المشكلات التي ظهرت في البداية ، استقرت الامور في اعداديتنا وهي الان مدرسة حقيقية لاتقل في مناخها ، وأساليبها ، ومتطلباتها ، عن أية مدرسة روسية . وسرعان ما يتسرب نفوذها الى المحيط الخارجي ، عندما سيحاول الطلاب التأثير في ذويهم . لكن المشكلة هي ان مدة الدراسة فيها لاتزيد عن ثلاث سنوات ، وبما ان بعض الطلاب يدخل المدرسة في الخامسة من العمر ، فهم يضطرون لمغادرتها في سن مبكرة . لذلك علينا ان نبقي الطلاب مدة أطول لاتقل عن سبع سنوات . ومع ذلك فان مشكلتنا الرئيسية هي اننا سنخرج طلابنا قبل ان تصبح لديهم مهنة ، وبذلك يهيمن على وجوههم ويصبحون فريسة سهلة للكاثوليك » . أما في مدرسة البنات في « بيت جالا » فقد تمت مواجهة مشكلات مشابهة ثم تم التغلب عليها أيضا . « ان المشكلة الكبرى هي تخليص الفتيات من عاداتهن السيئة مثل الغش ، والكذب ، والنفاق ، وهذا أمر صعب ، ذلك ان معظمهن من البالغات ولاتزيد أعمار الذين يعلمونهن كثيرا عن أعمارهن » . لكن التقارير مالبت ان تغيرت فكتب مايلي : « بدأت الطالبات بالتعود شيئا فشيئا على أساليب الحياة في المدرسة الداخلية لكن تخليهن عن العادات القديمة كان يسير ببطء » . ثم جاء مايلي : « لقد نجح الوجه غير التعليمي للمدرسة نجاحا كاملا ،

فالطالبات اللواتي أتممن تعليمهن يغادرن المدرسة ، وقد أصبحن على استعداد كبير لمواجهة الحياة ( غير انهن لايصبحن بالضرورة معلمات ذوات كفاءة عالية ) . وقد جاءتنا شكاوى ، بان الطالبات اللواتي أمضين ستة أعوام في المدرسة ، لم تعد لديهن الرغبة في الحياة في بيوتهن في القرى الوسخة . ولكن حتى لو تركن المدرسة من أجل الزواج فهذا لايعني ضياعهن . ذلك انهن سوف يضيفن على حياتهن الزوجية ثوبا حضاريا جديدا . ولم يحدث للان ان تركت طالبة مدرستها كي تتزوج . وهذا يعني ان بعضهن قد وصلت الى سن الحادية والعشرين ولم تتزوج بينما سن الزواج العادي هنا هو بين ١٢ - ١٤ عاما . »

لقد تحدثنا فيما سبق عن مواقف أولياء الطلاب اذ لاحظ الروس ان تلك المواقف اختلفت في بعض المناطق عن المناطق الاخرى . وقد شعروا ، بشكل عام ، بوجود حماسة أكبر للتعليم في لبنان وسورية مما هو عليه في فلسطين . غير ان استقبال الناس لهم كان متباينا ، في تلك المنطقة بأكملها . كانت مطالب الاباء في سورية أكبر ، وأكثر من غيرها . وتتميز المدارس السورية بازدهامها . ويهرع السوريون لافتتاح مدارس جديدة ، ولارسال أبنائهم اليها . لكن هنالك عديدا من الاثرياء الذين زاروا أوروبا ، وآخرين يعيشون حياة النبلاء الاقطاعيين في مزارعهم ، والى هؤلاء أتينا بمدارسنا المتدنية في مستواها ، فكانوا ينظرون اليها بشك وحذر . ولقد قال لنا احد الارثوذكس العرب « المتفرنجين » : ليس لدي أطفال وأنا أؤيدكم تأييدا كاملا . ولكن لو كان لدي طفل لارسلته الى مدارس الكاثوليك . ماذا تستطيع مدارسكم ان تقدم لنا ؟ لاشيء . صحيح ان الاطفال يستطيعون بدء تعليمهم في مدارسكم ، ولكن أين يذهبون بعد ذلك لاتمام تعليمهم ؟ وقد عارض بعض الاباء ان يتعلم أولادهم اللغة الروسية لذلك منعوهم من الذهاب الى المدرسة ، الا اذا كان باستطاعتهم تعلم لغة أجنبية أخرى . أما في كثير من القرى اللبنانية ، فقد رحب الاهالي بالمدارس الروسية ، وكان حماسهم لها كبيرا . وأفضل شاهد على ذلك تلك الحادثة التي ذكرها « ميخائيل نعيمة » في مذكراته والتي يصف بها الترحيب بافتتاح مدرسة في قريته « بسكنتا » . أما في « حمص » فقد لاقت منظمة « الايوبس » معارضة شديدة من قبل السكان ، الذين اعتقدوا ان التدريس في المدرسة الروسية للبنين لم يرتفع الى المستوى المطلوب . فقد ضمت تلك المدرسة في بداية الامر ( ٦٩٠ )

طالباً وعدداً ضئيلاً من المعلمين . أما في فلسطين فقد جاء في التقارير أن أولياء الطلاب امتنعوا عن إرسال أبنائهم إلى المدارس الروسية ، ما لم يحصلوا على « بقشيش » . ففي كفر كنة وجدت مدارس كاثوليكية ، وبروتستانتية ، وارتوذكسية . وقد اشتمت جمعية الإيوبس من أن « الدافع لدى الأهالي في إرسال أبنائهم إلى المدرسة ، هو ما يمكن أن يحصلوا عليه كالبقشيش والملابس الجديدة . أما الإحساس الديني فلا وجود له . » وقال أحد القساوسة الأرثوذكس في فلسطين « أن كثيراً من الناس كانوا غير راضين عن الإيوبس ، وأن الآباء الذين أرسلوا أبنائهم إلى مدارس بروتستانتية كانوا على حق » . وأخيراً كانت مدرسة البنات في الناصرة فاشلة ، ولم تكن مديرتها قادرة على تلبية متطلباتها ، والتلاؤم مع الأوضاع المحلية ، لذلك أعيدت إلى روسيا لعدم كفاءتها ، ولتمسكها الزائد باستقلالها الإداري ، مما أثار النسوة في الناصرة ضدها فتركت نصف طالباتها مدرستهن .

تغيرت المناهج في المدارس الروسية بتغير الزمن ، واختلفت باختلاف أنواع المدارس . كما أثرت التيارات الفكرية التربوية في روسيا على المناهج في سورية ، فظهر اتجاهان رئيسيان في التربية تبنى أحدهما الروس « التقدميون » الذين قالوا أن هدف التربية يجب أن يتركز حول تعليم مواد مفيدة مثل الإنكليزية والفرنسية إذا لزم الأمر ، وحول العلوم ، وتأهيل الطلاب في الأمور العلمية كالزراعة على سبيل المثال . أما الاتجاه الآخر ، فقد أصر على أن هدف التربية الحقيقي ، هو العمل على تربية الطلاب وتنشئتهم بما يتفق وروح الديانة المسيحية ، ليصبحوا وهم في سن الرشد ، قادرين على النضال ضد المغريات المادية ، والأغراض النفعية الخالصة . وقد طالب أحد الآراء المتطرفة ، بأن يقتصر تعليم المدارس الابتدائية على القراءة ، والكتابة ، والحساب ، بالإضافة إلى التعاليم الدينية في نطاق المذهب الأرثوذكسي الضيق .

كانت معظم مدارس الريف في سورية ابتدائية ومن النوع الأخير ، وكان لدى بعض أعضاء الجمعية ( الإيوبس ) اعتقاد راسخ ، بأن التربية الأرثوذكسية الأساسية تكفي لغالبية الأطفال العرب ، وأن مدة الدراسة يجب ألا تزيد عن أربع سنوات « لأن الطلاب كانوا يعتبرون في سن تؤهلهم للعمل متى بلغوا الثالثة عشرة من العمر . وإلى أن يصل هؤلاء إلى تلك السن فإنهم يربون بروح المذهب الأرثوذكسي . وهذا هو هدف الجمعية .

أما في المدن فإنه من المستبعد ، ان يغير الاطفال مذهبهم بعد تركهم للمدارس الارثوذكسية والانتساب الى سواها . لذلك فان سياستنا لا تتضمن توسيع مدارس المدن ، لان ذلك لن يخدم الهدف الرئيسي للجمعية ، ولن يكون سوى محاولة لارضاء الاهالي فحسب ، الذين يريدون تهيئة اولادهم لمجابهة الحياة ، قد تؤدي المناهج التعليمية في المراحل المتقدمة الى حدوث انشقاقات بين السكان المحليين . أما نتائجها الوحيدة فلن تكون سوى زيادة النفقات المترتبة على الجمعية مقابل ارضاء قلة من المواطنين الاغنياء ، أما نحن فلن نحصل على أي كسب يذكر » .  
توضح تلك الفقرة السابقة التي كتبت عام ١٩٠٢ تيار الرأي الارثوذكسي الرئيسي في التربية ، لكن هذا الرأي مالبت أن خسر الجولة بسبب الضغوط التي تعرض لها كما اسلفنا . ان أكبر مثال على التغيرات التي طرأت على مناهج التعليم هي مدرسة الناصرة للبنين .

أدى تعليم اللغة الروسية الى حدوث بعض المشكلات لكن مدرسة الناصرة أصرت على تعليمها ابتداء من المراحل الاولى ، وقد لاقى ذلك قسطا من النجاح فاحتوت المناهج الاولى على دراسات دينية وعلى اللغة العربية ، واللغة الروسية والحساب ، والتاريخ ، والجغرافيا ، إلا ان تلك المواد كانت مصطبغة بالصيغة الدينية فالتاريخ في غالب الامر ، كان عن حياة القديسين ، والجغرافيا عن الاماكن المقدسة ، واللغة العربية تعلم بطريقة السؤال والاجابة حول الامور الدينية . . . الخ . كما درست مادتا الغناء ، والموسيقى ، وأنشدت أناشيد مثل « فليرع الله القيصر » وعزفت على الكمان موسيقى « المجد لقيصرنا » ، ثم أدخلت مواد عملية بشكل تدريجي ، ضمت الصناعات اليدوية ، وتجليد الكتب ، والنجارة ، وفن الزراعة ، كزراعة الاشجار المثمرة والعناية بالحدائق . وأخيرا عدل المنهاج المدرسي ليضم اللغتين الانكليزية ، والفرنسية ، والتاريخ والجغرافيا الحديثين ، بالاضافة الى مواد العلوم . وقد فرض هذه التغيرات على الجمعية قانون روسي من « الدوما » ، وزيدت بموجبه المخصصات المالية للمدارس .

على الرغم من المشكلات التي تم استعراضها فان الجهود التربوي الروسي أثمر عن بعض النتائج الايجابية . فقد خلق بعض الشعور بالود نحو روسيا ، وتجلت ذلك بوضوح في لبنان ، ولقد أشرنا الى رد الفعل في بلدة ميخائيل نعيمة « بسكننا » . أما في طرابلس ، فقد

جاء في أحد تقارير الجمعية ، ان الاهالي هناك يكون المودة لها ويتعاونون معها ، « ويهتمون بمصالح المدرسة وانعاشها . ان هذه المدرسة ومثيلاتها في سورية ، تعطي مثالا عما يمكن أن ينجز عندما يحدث تعاون ودي بين ممثلي الجمعية المحليين والكهنوت الارثوذكس » . كما زرعت في نفوس عدد من العرب الارثوذكس محبة عميقة لروسيا ، وشعورا بالانتماء الى الدولة الروسية ، والى قيصرها ، واحتراما لحضارتها .

ومع ان عدد الطلاب في مدرسة الناصرة والطالبات في مدرسة بيت جالا لم يكن كبيرا الا أنهم ربما كانوا أعمق تأثرا من غيرهم بالثقافة الروسية التي تلقوها . اذ حاول الروس هناك عدم ابعاد تلامذتهم عن محيطهم الى حد كبير ، هذا في الوقت الذي أعطوهم فيه منهاجا تعليميا عربيا - روسيا متكاملا واستطاع عدد ضئيل من الطلاب اتقان اللغة الروسية والاستمتاع بقراءة أمهات الادب الروسي . وقد أصبح ذلك بالنسبة لعدد قليل جدا منهم أساسا أقاموا عليه ثقافتهم وبخاصة أولئك الذين أكملوا دراستهم في روسيا نفسها . أما الفتيات فقد حصلن على فوائد عملية تزيد عن ذلك ، الا أن تلك التربية كانت الى حد ما بعيدة عن محيطهن . لذلك فان حصولهن على المعرفة جعلهن غير راضيات عن قدرهن في بيوتهن ، وقراهن بسبب اطلاعهن على عالم واسع ، وعلى مفاهيم جديدة ، وهكذا كان لابد من نمو الشعور بالغرابة لديهن . وقد أدى ذلك في بعض الاحوال ، لدى الشبان والشابات ، على حد سواء ، الى التحرر من الاوهام ، والانفصال عن الطائفة الارثوذكسية وحتى الى الهجرة الى خارج البلاد .

وضعت الحرب العالمية ، والثورة الروسية ، حدا للمجهود التربوي الروسي ، في الوقت الذي كان من الممكن فيه أن يحرز تقدما كبيرا . ومن قبيل المقارنة ان النجاح ، كان سيعني تعليم مواد غير تقليدية ، والاقبال من الاهتمام باللغة الروسية والديانة ، وهذا كان منافيا لاهداف الجمعية الامبراطورية الارثوذكسية الفلسطينية ( الايوبس ) . فالطالبات والطلاب المثقفون ثقافة جيدة ابتعدوا عن محيطهم الارثوذكسي التقليدي ، وتحولوا الى عالم علماني جديد . ومما يؤسف له ان ما قدمه الروس في البداية لم يكن عموما ما ابتغاه العرب الارثوذكس ، غير ان الجهد التربوي الروسي قد أثر بشكل أو بآخر في تطور المجتمع العربي الارثوذكسي في سورية في القرن التاسع عشر ، وفي أوائل القرن العشرين .

## محب الدين الخطيب

الاستاذ سليمان موسى

( عمان )

نجد في حياة محب الدين الخطيب نموذجاً حسناً للمثقفين العرب من رواد النهضة القومية ، الذين آمنوا بمستقبل أمتهم وعملوا في مجالات الفكر والاعداد من أجل بلوغ الهدف الكبير ، ولترجمة ذلك الايمان الى عمل ايجابي مشمر . لقد شهد مخاض تلك الحركة العظيمة التي نمت في نفوس الفئة المستنيرة من أبناء سورية الطبيعية ، ورافق عن كذب نهوض ابناء أمنه من سبات القرون وامتشاقهم السلاح في الثورة العربية الكبرى ، ثم ما كان من صدمات ونكسات تمثلت في طغيان دول أوروبا الاستعمارية ، وفي ( ميسلون ) ، وفي تبدد الحلم الكبير الذي راوده وراود رفاقه في سنوات الشباب .

تعطينا سيرة حياته صورة عن الاوضاع التي وجد أبناء جيله أنفسهم يعيشون في ظلالها . وبينما استكان كثيرون لمقتضيات الواقع ، نرى أصحاب النفوس الكبيرة يرفضون الاستكانة ويتمردون عليها ، ويعملون على شق طريق آخر لحياتهم . فالحياة في ظل السلاطين العثمانيين لم تكن تتلاءم مع مطامح الشبان العرب ذوي النزعة الخرة ، لان النظام كان ينظر بعين السخط الى كل من يحاول تطوير أوضاع المجتمع أو يتطلع الى أي نوع من التجديد .

ولد محب الدين في مدينة دمشق أواخر تموز سنة ١٨٨٦ وتلقى تعليمه الابتدائي في مدارسها ، ثم تحول لتحصيل الدراسة الثانوية في مكتب ( عنبر ) وفي مدرسة بيروت الاعدادية . وقد اتصل بالشيخ طاهر الجزائري ذي النزعة الاصلاحية التحررية وانضم الى حلقة دمشق الصغيرة ذات الاهتمامات السياسية . وكان ذلك بداية الوعي القومي عنده . ونحن نجد فيما رواه عن التعليم في مكتب ( عنبر ) ما يعطينا فكرة عن وضع اللغة العربية في دمشق المدينة التي تعتبر من أمهات المدن العربية :



« حتى اللغة العربية كانت تعلم من كتاب باللغة التركية مؤلف للتلاميذ الترك بمدارس الاناضول والروم ايلي ، ومفروض تعليم العربية به في جميع المدارس الاميرية بالبلاد العربية العثمانية من أقصى اليمن فالحجاز الى العراق والديار الشامية وطرابلس الغرب » (١) .

كانت قضية اللغة العربية ذات تأثير بالغ في نفوس العرب ، اذ كانوا يقيسون بها نيات الاتراك القابضين على زمام الحكم ، نحوهم . وكان العرب يقارنون بين اصرار الدولة على أن يكون التعليم في البلاد العربية باللغة التركية ، وبين كون اللغة العربية هي لغة التدريس الرئيسية في مصر والسودان ، على الرغم من خضوعهما لسيطرة دولة أجنبية هي بريطانيا . وفي سورية الطبيعية بالذات ، كان العرب يستغربون كيف ان مدارس الارساليات المسيحية والمدارس الخاصة الاخرى تحرص على التعليم باللغة العربية ، بينما كانت مدارس الدولة - دولتهم هم - تصر على أن يكون التدريس في مدارسها باللغة التركية . وقل الشيء ذاته فيما يتعلق بالتفاضل واجراء المعاملات الرسمية .

ونستطيع أن نستدل على خطورة عملية التتريك في المجالين العلمي والثقافي ، اذا عرفنا ان التدريس في معهد الحقوق الذي أنشأته الدولة العثمانية في دمشق - عدا بعض الدروس - كان باللغة التركية . وعندما أعادت الدولة العربية السورية عام ١٩١٩ افتتاح ذلك المعهد ، اضطرت الى ابقاء التدريس باللغة التركية في أكثر الفروع ، لان معظم القوانين كانت مكتوبة بتلك اللغة .

ومهما يكن من أمر ، فقد مضى محب الدين الخطيب الى استانبول حيث انتسب الى مدرسة الحقوق فيها . وهناك ( كما يقول في مذكراته المخطوطة ) :

« هاله عند وصوله الى هذه البيئة الجديدة أن جميع أبناء العرب يجهلون قواعد لغتهم واملاءها ، فضلا عن اديابها وثقافتها ، ويتكلمون - حتى فيما بينهم - باللغة التركية ، وليس فيهم انسان واحد له رسالة سامية في الحياة ، ولا لاحدهم مطمح ، الا ان يحذق الكلام والكتابة باللغة التركية ، ويندمج في أهلها ، ثم يكون مستعبدا للوظيفة التي يرجو أن يحصل على العيش من طريقها » (٢) .

ان ماشاهده محب الدين في استانبول من تنكر العرب للغتهم - وهي

عماد قوميتهم - أوجد عنده رد فعل قوي ، فعمد هو وصديقه عارف الشهابي الى انشاء جمعية ( النهضة العربية ) السرية يوم ٢٤ كانون الاول ١٩٠٦ . ويبدو أن نشاطه القومي لفت أنظار رجال الامن اليه فأخذوا يلاحقونه ، وكان هذا سببا لتوقفه عن اتمام دراسته الجامعية وذهابه الى اليمن في تشرين الاول عام ١٩٠٧ للعمل فيها . على أن البذرة التي بذرها لم تلبث أن أثمرت ، إذ قام زملاؤه ( عبد الكريم الخليل وسيف الدين الخطيب ورفاقهما ) بانشاء ( المنتدى الادبي ) وبعده ( الجمعية القحطانية ) التي تكتلت حول سليم الجزائري وأكثر أعضائها من الضباط السوريين وطلبة مدرسة الحربية في استانبول ، بينما قامت بعدها جمعية ( العهد ) متكتلة حول عزيز علي المصري ، وأكثر المنتسبين اليها من الضباط العراقيين .

عمل محب الدين موظفا في بلدة الحديد ، في القنصلية البريطانية ، مع القنصل ريتشاردسون مدة سنة ، ثم عاد الى مسقط رأسه دمشق . ويقول في مذكراته انه أنشأ في اليمن الفرع الرابع عشر لجمعية الشورى العثمانية . وكانت هذه الجمعية تطالب بالحكم النيابي للبلاد العثمانية وعلان الدستور ، وقد تألفت من عناصر الدولة المختلفة ، وكان من أركانها العرب : رفيق العظم وحقي العظم ورشيد رضا . أما بعد اعلان الدستور فقد اتخذت اسم ( الاتحاد والترقي ) ولم يلبث الاتراك ان استقلوا بقيادتها وتوجيهها .

كان اعلان الدستور العثماني عام ١٩٠٨ نقطة تحول حاسمة في تاريخ العرب الحديث ، فقد أحدث دويا عظيما في نفوس القادة والمثقفين ، وفتح عيونهم على حقوقهم المهدورة . وكانت مطالبتهم بالاصلاح ومشاركة نوابهم في مناقشات مجلس المبعوثان بداية لبث الافكار القومية في السر والعلانية . وفي دمشق ، تقدم محب الدين ورفاق له ، بطلب الى السلطات للحصول على ترخيص رسمي لجمعية ( النهضة العربية ) ، ولكن تلك السلطات رفضت منح الترخيص تحت ذلك العنوان لان كلمة « عربية » لم تكن مقبولة لديها . ومن هنا صدر الترخيص تحت اسم جمعية ( النهضة السورية ) .

يؤكد لنا محب الدين ان العرب في بداية الامر لم يكونوا يفكرون بالانفصال عن الدولة العثمانية ، بل كانوا يطالبون بالاصلاح الداخلي من اجل بناء قوة البلاد . وفي هذا الصدد نراه يقول :

« انني أقرر بكل صدق واخلاص بانني أنا وجميع من استعنت بهم وتعاونت معهم من رجالات العرب وشبانهم لم يخطر على بالنا الانفصال عن الدولة العثمانية ، لان الاستقلال عن دولة ضعيفة مريضة أمر مكروه ، ولكن لعلنا أن تمرن الشعوب على أخلاق السيادة يحتاج الى وقت ، فكان من مصلحة العرب في الدولة العثمانية ان تعترف لهم الدولة بلغتهم في الادارة والتعليم في البلاد التي يتكلم أهلها العربية » .

على أن نشاط محب الدين في مجال العمل القومي لفت أنظار السلطات الحاكمة اليه ، فأخذت تلاحقه وتضيق عليه . وهكذا نراه يهاجر الى القاهرة عام ١٩١١ وينشيء فيها المكتبة ( السلفية ) ويشغل بالصحافة فيصبح واحداً من محرري جريدة ( المؤيد ) . ففي ذلك العهد كانت مصر ملجأ للمثقفين العرب يجدون فيها مجالاً للعمل وانطلاق الافكار من عقالها ، وقد قصدوا كثيرون من السوريين واللبنانيين واتخذوا منها وطناً ثانياً ، فأنشأوا الصحف والمجلات ووجدوا فيها المناخ للتعبير عن آرائهم ومعتقداتهم ، ولاظهار الطاقات المبدعة الخلاقة عندهم . ومع ان مصر كانت من ناحية قانونية قطراً من أقطار الدولة العثمانية الا انها في واقع الامر كانت خاضعة لحكم الانكليز الفعلي .

وفي مصر أنشأ الوطنيون السوريون عام ١٩١٣ حزب اللامركزية الادارية العثماني . وكان محب الدين من مؤسسي الحزب وقد اختير سكرتيراً ثانياً للجنة العليا . وهو الذي جمع مادة كتاب ( المؤتمر العربي الاول ) أي مؤتمر باريس العربي الذي عقد في حزيران ١٩١٣ ، وأشرف على طبعه في القاهرة وكتب مقدمته التي قال فيها ان خطة المؤتمر هي « طلب الحياة للولايات العربية حتى تحيا الدولة بذلك وتقوى » .

وفي ذلك العام أيضا انضم محب الدين الى جمعية ( العربية الفتاة ) السرية وكان العضو الثامن والعشرين فيها (٢) .

وأعلنت الحرب العالمية الاولى ، ودارت التساؤلات بين رجال الفكر في البلاد : هل من الافضل أن تدخل الدولة العثمانية في الحرب ، أم تبقى على الحياد ؟ وللإجابة على هذا السؤال أوفدت ( الفتاة ) محمد الحمصاني الى مصر للبحث مع هيئة حزب اللامركزية عما يجب أن يكون عليه موقف العرب . ونتيجة للمداورات قررت اللامركزية ايفاد مندوبين الى زعماء العرب في سورية والعراق وشبه الجزيرة للبحث معهم وأخذ

ارائهم ، حتى يكون للعرب موقف واحد . واختير محب الدين للسفر الى نجد والعراق لمقابلة ابن السعود وطالب النقيب واستشارتهما .

سافر محب الدين في شهر تشرين الاول ١٩١٤ بالباخرة من مصر الى عدن ، وكان يرافقه في رحلته ويشاركه في مهمته شاب بدوي من نجد اسمه عبدالعزيز العتيقي . ومع ان الرحلة بدأت بالتنسيق مع السلطات الانكليزية في القاهرة ، الا ان السلطات الانكليزية في الخليج بادرت الى القاء القبض عليهما ووضعتهما قيد الاعتقال في البصرة مدة سبعة أشهر ، ثم أعيدا الى مصر . ولاعتقال محب الدين قصة دارت حولها مخابرات بين الانكليز في العراق ومصر ، وسأعرض لها في نهاية هذا البحث . ومن مفارقات حوادث تلك الايام ان نشاطه القومي استلقت أنظار السلطات العثمانية فكان محب الدين من جملة الذين حكم عليهم جمال باشا ( الملقب بالسفاح ) غيابيا بالاعدام .

بقي محب الدين في القاهرة الى أن أعلنت الثورة العربية الكبرى في ١٠ حزيران ١٩١٦ . ولم يلبث الشريف حسين ان طلبه وفؤاد الخطيب لكي يؤسس جريدة تنطق بلسان الثورة ، فجاء الى الحجاز في الشهر التالي . وظهرت جريدة ( القبلة ) تحمل اسم محب الدين ، ذلك ان فؤاد ( على الأرجح لاجادته اللغة الانكليزية ) انصرف للعمل في وزارة خارجية الحجاز ، بينما بقي محب الدين محرر الجريدة ويعمل عن كثب مع الحسين . وكان الحسين يستشيره والشيخ كامل القصاب يوميا في أكثر الشؤون التي تتعلق بالقضايا العربية ، باعتبارهما من أعضاء جمعية العربية الفتاة وموضع ثقة سائر الجمعيات العربية .

وكانت لمحب الدين اليد الطولى في اطلاق الملك حسين على أفكار رجال الحركة العربية وخططهم وأمانيتهم . ومن جملة ذلك فكرة ألوان العلم العربي التي كانت ( العربية الفتاة ) قد أقرتها قبل اعلان الثورة . وقد حدثني عن هذا الموضوع في رسالة منه بتاريخ ٣٠ المحرم ١٣٨٦ ( ٢١ أيار ١٩٦٦ ) قائلا :

... ولما دعاني الملك حسين الكبير لاتعاون معه في بداية الثورة العربية الاولى ولاصدر له جريدة القبلة ، كان يرفع على بيته وفي المناسبات علما أحمر عنابيا يسميه علم الشريف ابي نمي ، فاقترحت عليه اننا والشيخ محمد كامل القصاب الالوان الثلاثة للعلم العربي ، فاعتذر بان

عندهم علم أبي نمي . فقلت له : يمكننا أن نستعمل اللون الاحمر العنابي في زاوية العلم فيكون منه في موضع القلب ، ومن ثم وافق وصار للعلم أربعة ألوان ... (٤) .

وبين أوراق محب الدين مذكرة تعود الى أوائل سنة ١٩١٧ يقول فيها أن الحسين شرح له ولكامل القصاب وخالد الحكيم أسباب انفصال عزيز علي المصري عن العمل في الحجاز . ومما قاله الشريف ان عزيز علي غادر الحجاز من ذات نفسه وأنه كان مجافيا له ويسير على « سياسة مزدوجة » ، وان الثورة ستسير بدون عزيز علي . وتقول المذكرة ان ثلاثتهم وافقوا الشريف على أقواله . وحدثني محب الدين انه ورفاقه من السوريين في الحجاز ألحوا في بادئ الامر على الشريف أن يستدعي عزيز علي ، فطلب منهم أن يكتبوا له باسمه ، وعندما وصل عزيز علي عينه الحسين وزير حربية ولكنه لم يعطه صلاحيات كافية . قال عزيز علي للحسين : أريد أن أشتغل ، أعطني صلاحيات كي انتزع المدينة المنورة من فخري . ولكن الحسين كان يخشى الضباط النابهين خوف أن يحدث معه ما حدث مع السلطان عبد الحميد . ثم ذهب عزيز الى مصر كي يقنع الانكليز باعطائه أسلحة ، فاعتبر الحسين سفره دون استئذان بمثابة استقالة ، وعين محمود القيسوني وزير حربية مكانه . وكان القيسوني ضابطا مصرياً يعمل تحت امرة المعتمد البريطاني ( وللحقيقة نقول ان الانكليز لم يجذبوا تعيين القيسوني في هذا المنصب ) . وعندما تولى القيسوني منصبه الجديد كتب يبلغ نوري السعيد ( باعتبار أكبر الضباط العرب رتبة في رابع ) ويقول له : اذا أردتم شيئاً فاطلبوه مني . ورد نوري على القيسوني برسالة مؤداها انه من غير المعقول أن تكون وزير حربية ، ولكن اذا صح هذا فاعتبرني مستقيلاً ( ذلك لان نوري كان يعتقد أن القيسوني ليس أهلاً لان يحل محل عزيز ) . وبادر القيسوني الى اطلاع الحسين على رسالة نوري فاستدعاه الى مكة وحجزه في دار الحكومة ثلاثة أيام ، ثم استدعى المصريين والسوريين الموجودين في مكة وعرض عليهم رسالة نوري وقال لهم : اذا كان هناك ضباط جاءوا ليحاربوا من أجل عزيز علي فهو لا يمنعهم من مغادرة الحجاز اذا شاءوا ، أما الذين جاءوا ليحاربوا من أجل فكرة العروبة ، فكيف يذهبون والثورة باقية ؟ ولم يلبث الحسين أن أعاد نوري الى عمله ، خشية أن يعتصب بقية الضباط معه .

في هذا الصدد لابد من القول ان محب الدين لم يكن مطلعاً على جميع جوانب قضية عزيز علي . فقد كان من أهم أسباب فصله تلك الرسالة التي بعث بها سرا الى فخري باشا ( قائد الجيش التركي في المدينة ) والتي كان علي جودت واحداً من الذين عرفوا بها واطلعوا عليها . كما ان الوثائق البريطانية تشير الى أن عزيز علي طلب من الإنكليز تخصيص ميزانية مستقلة ( من مال وسلاح ) كي يعمل على انشاء قوة عسكرية فعالة يتولى قيادتها دون حاجة للرجوع الى الحسين . ومن المرجح ان يكون الامر بلغ مسامع الحسين فساورته الشكوك ، واغتمت فرصة سفر عزيز الى القاهرة وطلب ان لا يعود الى الحجاز .

وبين أوراق محب الدين نص برقية كان الحسين أرسلها الى مندوبه في القاهرة بتاريخ ٣٠ كانون الثاني ١٩١٧ ، جاء فيها :

تبلغ فوزي ( البكري ) . . . فاني أستغرب بان استعفاء عزيز يضر بلادنا وان كل غيظ وحقد يكون علينا والحالة هذه انتصار لعزيز لاشك انه الظلم والتعدي المحض على حقوق البلاد . وأفكر أنكم أعلم الناس بحرمتي له ولاعلم لي بشيء الا موافاة افادات ابني زيد بأن سعادته سيتوجه الى مصر حتى يغير الهواء مدة أسبوع . . .

أما فيما يتعلق باتفاقية سايكس - بيكو ، فقد أكد لي محب الدين ان الحسين لم يسمع بها الا بعد ان نشرت الصحف المصرية انباءها ، بعد ان أذاع الشيوعيون الروس أخبارها . وعندما اطلع محب الدين على تلك الصحف عرض الامر على الحسين « فرأيته خالي الدهن بيتاتا » . في عام ١٩١٨ أخذ محب الدين اجازة طويلة قضاها في القاهرة . وقد ذكر لي انه خلال اقامته هناك اشترك في وضع المذكرة التي قدمها عدد من السوريين الى السلطات البريطانية في مصر ، والتي عرفت في التاريخ باسم ( رسالة السوريين السبعة ) . وقال ان صاحب الفكرة هو الشيخ كامل القصاب الذي كان رفيقه في السفر من الحجاز الى القاهرة ، وانه ورفاقه كتبوها « بعد أن يئسنا من امكان حكم الحسين حكما ديموقراطيا » . وقد أكد لي انه كان من جملة الموقعين على المذكرة ، ولكنني لم أستطع التثبت من ذلك ، لان اسمه لم يظهر بين أسماء الاشخاص السبعة الذين ذكرت المصادر التاريخية أسماءهم . وللحقيقة أقول ان الملك حسين لم يتدخل في أسلوب نظام الحكم في سوريا بعد تأسيس الدولة العربية فيها ، وأعلن في جريدة القبلة أن كل قطر عربي

يستطيع أن يسير في أسلوب الحكم على الطريقة التي تتلاءم مع تقاليد أهله وعاداتهم وورغباتهم . ومهما يكن من أمر فان تلك المذكرة كانت ذات فائدة سياسية من حيث ان الجواب عليها تضمن تأكيدا جديدا من الحكومة البريطانية لمصلحة العرب .

كان من الطبيعي بعد تأسيس الدولة العربية في سورية أن يحسن الخطيب الى دمشق ، ويتطلع للعودة اليها والاقامة فيها . وهكذا نراه يغادر الحجاز في حزيران ١٩١٩ ليستقر في دمشق ويتولى هناك تحرير جريدة ( العاصمة ) ، التي كانت الجريدة الناطقة باسم الحكومة السورية . وخلافا لما أشاعه البعض ، فقد أكد لي انه غادر الحجاز بمحض رغبته ، وان الحسين كتب له توصية جميلة بخط يده . وقد بقي في دمشق حتى دخول الفرنسيين اليها في تموز ١٩٢٠ ، فتوارى عن الانظار ، ثم تمكن من مغادرتها وعاد الى القاهرة عن طريق فلسطين .

منذ ذلك الحين استقر الخطيب في القاهرة واتخذ منها دار اقامة دائمة له . وهناك أسس المطبعة السلفية ومكتبتها ، وأصدر مجلة ( الزهراء ) الشهرية وبعدها صحيفة ( الفتح ) الاسبوعية والمجلة ( السلفية ) وترأس تحرير مجلة الازهر فترة من الزمن .

اتصلت به أولا عن طريق الرسائل ثم التقيت به في منزله في آذار ١٩٦٩ ، وقد زرتة أكثر من مرة في رفقة المرحوم عوني عبد الهادي . وقد تمكنت أثناء ذلك من الاطلاع على مجموعة أوراقه ( وكانت الدكتوراة خيرية قاسمية تبحث فيها آنذاك وتعمل على تنسيقها وترتيبها ) . وهذه الاوراق تضم مراسلات حزب اللامركزية التي احتفظ محب الدين بها بعد اقضاء حقي العظم ( أمين السر الاول للحزب ) كما تضم جملة أوراق تتعلق بالثورة العربية وبالحكومة السورية في دمشق . وقد أطلعني على مذكرات موجزة ( ٥٣ صفحة ) كتبها عن سيرة حياته ، وتحادثت معه مليا في مسائل عديدة . وقد أفدت من اتصالي به ، وعلى الاخص في ما يتعلق بموضوع العلم العربي وكشف الحقيقة القائمة على ان جمعية العربية الفتاة هي التي وضعت ألوانه قبل نشوب الحرب العالمية الاولى . وبعد وفاته بقيت أوراقه في حوزة ابنه ( قصي ) ، وما أجدرها أن تكون في احدى دور الوثائق العربية ، باعتبارها ذات علاقة وثيقة بالتاريخ العربي الحديث ، ولكي يتاح للباحثين مجال الاطلاع عليها .

عند لقائي به ألفتته مايزال جم النشاط مواضبا على العمل في الاشراف على مطبعته ومراجعة مانتج من مطبوعات ، على الرغم من أنه كان في الرابعة والثمانين من العمر . وظل كذلك الى أن وافته المنية يوم ٣٠ كانون الاول ١٩٦٩ ، رحمه الله(٥) .

وقد أشاد الملك عبد الله به في مذكراته التمهيدية (الامالي السياسية) التي نشرت في عام ١٩٣٨ ، والتي يخامرني الشك في أن يكون الخطيب قد اطلع عليها ، فقال :

ومن الذوات الذين سبقت لهم خدمات جليلة للقضية العربية . والذي أحب على ما يظهر أن يتوارى لتكون خدمته خالصة لا لغرض ذاتي ، الرفيق المحترم السيد محب الدين الخطيب الذي تركته بمكة سنة ١٣٣٤ ولم أره الى اليوم ، والذي كان الوالد له في منتهى الوفاء . وقد استمرت جريدة « القبلة » تحمل اسم صاحب الامتياز محب الدين الخطيب حتى آخر عدد منها .

### الخطيب يصف بعض زعماء الحركة العربية :

#### الملك حسين :

بعد تنازل الملك حسين عن عرش الحجاز ، نشر محب الدين الخطيب مقالة في مجلته ( الزهراء ) بعنوان : الحسين بن علي كما رأيته في ثلاث سنوات ، قال فيها ان الحسين ، عندما تولى امارة الحجاز « رسم لنفسه خطة أساسية ، وهي أن يستعين بقوة الدولة العثمانية على خفض شوكة جيرانه أمراء الاقطار العربية الاخرى ، ولاسيما السيد الادريسي والامام ابن سعود ليقنع الاستانة باخلاصه لها ، وليوسع نطاق امارته بعضا الترك ، وليجعل لنفسه هبة بين القبائل . . . ان الاتحاديين لم يحفظوا للشريف حسين باشا هذا الجميل ، بل كانت لهم هم أيضا خطة في الحجاز يترقبون الفرص لتنفيذها ، وهي أن يزيلوا امارة الاشراف نهائيا ويجعلوا البلاد ولاية تدار بما يشبه ادارة المستعمرات . وكان الوالي وهيب بك قبل مجيئه الى الحجاز قد عقد اجتماعات كثيرة مع الشريف علي حيدر واخيه جعفر ليقف منهما على الطرق التي يتوصل بها الى تحقيق الخطة الاتحادية في الحجاز . ولولا نفوذ محمود باشا جوروك صولي في الباب العالي لجرد الاتحاديون حملة على الشريف(٦) . وكان



للشريف حسين عيون في ادارة البريد والبرق بمكة وفي دار الحكومة ينقلون له مخابرات وهيب . . . الملك حسين من أشجع الذين عرفتهم ومن أربطهم جأشا . كانت القنابل التركية تتساقط على أركان دار الامارة من قلعة أجياد في العشرين يوما الاخيرة من شهر شعبان ١٣٣٤ فتقع القنبلة الى جانبه وهو يكتب أمرا من الاوامر وأمامه أحد الموظفين ، في أثناء صلاته خلف امامه الشيخ ياسين بسيوني وعلى جانبه سائر المصلين ، فينفض كل من حوله عند نزول القنبلة وأما هو فيظل ثابتا كانما لم يقع في القصر شيء . . . ومن مزاياه عزمته الفولاذية ، وقد يلين الفولاذ ولا تلين له عزيمة . . . وهو يمتاز بذكائه النادر في فهم شؤون الحجاز واستكشاف ضمائر المكيين . . . وهو ذو جلد عظيم على العمل : يستيقظ قبل شروق الشمس ويعمل الى وقت الغداء ، ثم ينام ساعة ويعود الى العمل حتى الساعة العاشرة ليلا . . . وقبل أن تعرف السيارات في الحجاز كان يسافر بين مكة وجدة على بغلة له فيركب مساء ويسري الى الصباح ، فاذا وصل في الصباح الى احدي المدينتين يبدأ بالعمل طول النهار كأنه كان نائما في فراشه . . . « (٧) .

### كامل القصاب :

رجل ذكي ووطني فاضل وصديق قديم لي . أوفدت ( العربية الفتاة ) محمد المحمصاني أولا الى القاهرة في صيف ١٩١٤ ، ثم أوفدت الشيخ كامل في تشرين الاول ١٩١٤ ، وعند وصوله كنت في طريقي الى البصرة . وقد اتصل كامل برفيق العظم وغيره من زعماء السوريين ، فأجمع رأي الذين اتصل بهم على أن دخول الدولة في الحرب لن يكون في مصلحتها أو مصلحة العرب ، سواء كسب الالمان الحرب أم كسبها الحلفاء . وعاد كامل بهذا الرأي الى دمشق . وفي عام ١٩١٥ أوفدت الفتاة الشيخ كامل الى مكة وهناك شرح للشريف مظالم الاتحاديين وحرصه على الثورة . وبقي في مكة الى مابعد اعلان الثورة بزمن

### الشيخ رشيد رضا :

رشيد رضا ووطني فاضل ولكنه كان أنانيا مفرطا في أنانيته . نفر الشريف منه عندما لاحظ أنانيته ، وهو بطبيعته لم يكن يحب المعتدلين بأنفسهم . وكان رشيد يأمل أن يكون كل شيء في الحجاز ولكن الملك حسين لم يحقق له آماله ، فانقلب عليه .

## حقي العظم :

حقي العظم : كان مع ابن عمه ( رفيق ) يقيماني في القاهرة ولهما أملاك فيها . كان حقي متهورا مندفعاً لا يتحلى بالحكمة مثل رفيق . كان حقي يبعث الرسائل التحريضية ضد الأتراك الى بعض الأشخاص في سورية ، وأدت تلك الرسائل الى نفي واعدام كثيرين ، هذا على الرغم من ان رفيق كان يحذر حقي من ارسال أية رسائل بعد نشوب الحرب . ثم حدث خلاف بينهما بسبب ذلك فاستقال حقي من أمانة سر ( اللامركزية ) وحللت أنا مكانه ونقلت جميع أوراق اللامركزية الى عهدي .

## اعتقاله في البصرة

ان قصة اعتقال محب الدين الخطيب في البصرة من قبل الانكليز جديرة بأن تروى بشيء من التفصيل ، ليس فقط لما فيها من غرابة وما تنطوي عليه من عبر ، بل لعلاقتها ببعض جوانب سير الحركة العربية الحديثة . ففي الوقت الذي أرسل زعماء ( العربية الفتاة ) محمد المحمصاني وبعده كامل القصاب من سورية الى مصر ، للتشاور فيما يكون عليه موقف العرب اذا ما اشتركت الدولة العثمانية في الحرب - اتصل المستر ستورس ( السكرتير الشرقي في دار الحماية البريطانية بالقاهرة ) باقطاب اللامركزية في مصر ، وأخذ يباحثهم في الموضوع ذاته .

ويبدو أن أقطاب اللامركزية (على الاخص رشيد رضا ورفيق العظم) أعربوا لستورس عن رغبتهم في ارسال رسول الى أمير نجد عبد العزيز آل سعود وبعض الزعماء العرب الآخرين ، للوقوف على آرائهم ولتنقل تفاصيل المحادثات التي جرت بينهم وبين الانكليز ، من أجل الخروج برأي واحد متجانس للعرب . ويقول أمين سعيد انه تم الاتفاق على « أن ينتدب رجال اللامركزية الى البلاد العربية رسلاً يثقون فيهم لدرس الحالة فيها وللاتصال بزعمائها ومفكريها لاطلاعهم على ما وقع ، على أن تتولى دار الحماية دفع نفقاتهم ، وهكذا غادر القاهرة الى البصرة محب الدين الخطيب كما سافر الشيخ محمد القليلي الى سورية وفلسطين (٨) .

وبين أوراق محب الدين نص مذكرة طويلة بعث بها الشيخ رشيد رضا الى عبد الله باشا صفيير وكيل وزارة الداخلية في مصر ، وقد جاء فيها ان ستورس وكلايتون أكدوا له انه « اذا حاربت الدولة العثمانية

انكلترة وحلفاءها ، فان انكلترة لاتعد العرب أعداء لها كالترك ولا تحاول فتح شيء من بلادهم ، ولا تعتدي عليها ولا عليهم ، الا ان تضطر قواتها العسكرية الى شيء من ذلك في مقاومة الترك الذين لا بد لها ولحلفائها حينئذ من القضاء على سلطتهم . واذا استطاع العرب وقتئذ من الاستقلال في بلادهم فان بريطانيا العظمى تساعد على ذلك بما تستطيع من الدفاع عنهم ان اعتدى عليهم معتد وبغير ذلك مما عساهم يطلبونه منها . . . من غير أن تحدث في بلادهم احتلالا عسكريا أو حماية سياسية أو غير ذلك مما يعبت باستقلالهم ، واذا اضطرت لاحتلال شيء من بلادهم تتركه بعد ذلك لهم . . . » . وقد وضع الشيخ رشيد مشروع بيان اقترح ان تصدره بريطانيا ، ولكن الانكليز نقحوه ، وعندما اطلع عليه بعد التنقيح وجد انه « قد حذف منه جميع القيود والعبارات التي وضعها » (٩) .

وحدثني الخطيب عن رحلته الى البصرة فقال انه غادر مصر في تشرين الاول ١٩١٤ ، قبل دخول الدولة العثمانية في الحرب ، وان كبار السوريين في مصر وعلى رأسهم رفيق العظم و رشيد رضا هم الذين ندبوه للسفر الى نجد والاتصال بابن سعود لآخذ رأيه « في هل يكون العرب في صف الحلفاء أم في صف الاتراك ، لمصلحة العرب » ؟ . لقد كان سفره بباخرة مرت بعدن وبومباي وأخيرا بشاطئ الكويت . وقد نفى أن يكون قد حمل رسالة من المكتب العربي أو من أي شخص بريطاني ، كما نفى علمه بأية ترتيبات تتعلق بالنفقات ، وقال ان كلايتون ربما يكون رتب مع رشيد رضا تسهيل سفره بالباخرة . أما عن محمد القلقيلي فقد قال الخطيب انه كان يعمل مجررا في جريدة ( الكوكب ) التي كان الانكليز يشرفون على اصدارها ، وأنه لا يملك أية معلومات عن الهدف من ايفاده الى فلسطين وسورية .

وصلت الباخرة الى ميناء بوشهر ، وكم كانت دهشة الخطيب ورفيقه العتيقي عندما صعد الى الباخرة ضابط بريطاني واعتقلهما بعد ان قام بتفتيش أمتعتهما . كانت الحرب قد أعلنت في تلك الاثناء بين الدولة العثمانية والحلفاء ، ووقعت البصرة تحت احتلال الانكليز . ولم يلبث أن نقلوا الى البصرة للاقامة في معتقل قضيا فيه سبعة أشهر ، ثم اطلق سراحهما وأعيد الخطيب الى القاهرة . وقال الخطيب ان الانكليز لم يطلعوه على سبب اعتقاله ولكنه يعتقد انهم لم يطمئنا الى الرسالة

الشفوية التي كان ينوي البوح بها الى ابن سعود ، خاصة وأنهم كانوا قد اطلعوا على رسالة كان الشيخ رشيد يريد ارسالها الى امراء العرب يحذرهم فيها من الاجانب .

هنا نأتي الى الوثائق البريطانية لكي نقف منها على الجوانب الفاضلة في الموضوع : ففي ٢٦ تشرين الاول ١٩١٤ أرسل المستر شيتام ( القائم باعمال المندوب السامي في القاهرة ) برقية الى وزير الخارجية البريطانية ، جاء فيها مايلي :

... سبق ان تلقت دائرة الاستخبارات استيضاحات من مسؤولين في جماعة الحركة العربية ، ممن يقيمون في القاهرة ، حول الموقف الذي ستخذه الحكومة البريطانية اذا ما أعلن الاتراك الحرب ، وقد أعطيناهم جوابا حسب منطوق برقيتكم . لقد أرسلوا مندوبين يعتمد عليهم ، واختاروهم بأنفسهم ، الى سورية وفلسطين ، لكي يبلغوا الرسالة شفويا الى الزعماء العرب في تلك الاقطار . وقد وضع مبلغ لا بأس به من المال تحت تصرف القائمين بالحركة لكي يتصرفوا به .

وبعد يومين أبرق شيتام يقول ان المندوبين سافروا الى بيروت لكي يتجهوا من هناك الى دمشق وحلب وحمص وحران ، والى الخليج ومنه الى العراق ومنطقة ابن السعود ، والى جدة ومنها الى مكة والحجاز ، والى جنوبي فلسطين وشرقيها . وان مندوبي الخليج محب الدين الخطيب وعبد العزيز العتيقي غادرا مصر يوم ٢٦ تشرين الاول ١٩١٤ .

هاتان البرقيتان توضحان لنا ان زعماء اللامركزية هم الذين قرروا ايفاد مندوبين عنهم اختاروهم بانفسهم ، الى أربع جهات (١) سورية (٢) العراق ونجد (٣) الحجاز (٤) فلسطين . ويبدو من المؤكد أن أحدا من هؤلاء لم يبلغ هدفه باستثناء الخطيب والعتيقي . فالقليلي عاد مسرعا قبل ان يصل الى فلسطين لان الحرب لم تلبث ان وقعت بين الدولة العثمانية والحلفاء ( ٣١ تشرين الاول ) . ولاتذكر الوثائق اسماء المندوبين الذين اختيروا للسفر الى سورية والحجاز .

أما فيما يتعلق بمبلغ المال ، فمن المهم ان نلاحظ ان البرقية تقول ان ذلك المبلغ وضع « تحت تصرف » القائمين بالحركة ، ولم تقل ان المبلغ سلم لهم (١٠) .

وفي هذا الصدد يجب الا نعتد كثيرا بما ورد في تقرير كتبه ابراهيم ديمتري عن الاحوال في جدة والحجاز ، وذكر فيه وصول عدد من العسكريين والمدنيين الى الحجاز . ففي هذا التقرير ذكر وصول فؤاد الخطيب وقال انه كان معلما في كلية الخرطوم وعمل بعض الوقت في مكتب رقيب المطبوعات في الخرطوم . وذكر وصول محب الدين الخطيب ووصفه بقوله انه « كاتب سوري معروف ، وانه كان ممن حمل الرسائل من الوكالة البريطانية ورشيد رضا الى عرب العراق واعتقلته حكومة الهند ثم أطلقت سراحه ، انه أمين ومتحمس لقضية استقلال العرب » (١١) . ذلك ان محب الدين نفسه قال ان الرسالة التي حملها كانت شفوية ومن زعماء اللامركزية فقط ، كما ان المخبرات التي تتعلق بالحادثة لم تذكر ما يتعارض وقوله هذا .

من الواضح ان السلطات البريطانية في العراق لم تبلغ السلطات البريطانية في القاهرة باعتقال الخطيب ورفيقه ، هذا على الرغم من ان وزير الهند ابلغ حكومة الهند بسفرهما ، وعلى الرغم من ان تلك الحكومة أبرقت الى برسي كوكس المعتمد السياسي في خليج البصرة ( ٣١ تشرين الاول ) تطلب اليه تسهيل مهمتها . وكان من الطبيعي ان يشعر رشيد رضا ورفاقه بالقلق لانقطاع اخبارهما . تدل على ذلك البرقية التالية التي بعث بها مكماهون بتاريخ ٩ شباط ١٩١٥ الى سكرتير حكومة الهند :

أرجو تزويدي باية معلومات متوافرة عن رسولي الجماعة العربية عبد العزيز العتيقي ومحب الدين الخطيب . انهما صديقان للشيخ رشيد رضا وقد سافرا الى الكويت قبل نحو شهرين ، ومنذ ذلك اليوم لم نسمع شيئا عن تحركاتهما .

وفي ١٦ شباط أبرق نائب الملك في الهند الى مكماهون البرقية التالية:

برقيتكم ٩ شباط بشأن عبد العزيز العتيقي ومحب الدين الخطيب . ابلغني كوكس ان الشخصين المذكورين معتقلان في البصرة . لقد اعتقلهما ضابط الاستخبارات العسكرية في بوشهر ، لان أجوبتهما على الاسئلة التي وجهت لهما لم تكن مرضية ، ودلت المراسلات والمنشورات التي كانت معهما انهما كانا على اتصال مع السيد طالب النقيب الذي كان موقفه آنذاك محاظا بالشكوك . وكانت هناك أيضا

اشارات تبعث على الاشتباه بانهما كانا على علاقة بالرسول الاتراك الذين  
اعتقلوا في كراتشي . لقد تمت دراسة المراسلات المذكورة بمزيد من  
العناية ، وتبين انها تميل الى الناحية الاسلامية أكثر مما تميل الى  
الناحية العربية ، وهي ضد المسيحية . يرى كوكس انه من غير المستحب  
اطلاق سراح الشخصين في البصرة ، ولكن اذا كان اعتقالهما لا يحظى  
بموافقة سلطات القاهرة ، فهو يقترح ارسالهما الى بومباي بصفة أسيري  
حرب ، ومن هناك يتم تسفيرهما بعد اخذ الاحتياطات الضرورية .  
ويتضمن الملف ملاحظات على هذه البرقية جاء فيها :

الشخصان المذكوران غادرا مصر في آخر تشرين الاول ، وكان  
الترتيب أن يزورا المعتمد السياسي في الكويت الذي كان عليه أن ينسق  
ترتيبات سفرهما . وقد تبين انهما كانا يحملان كتابا يتضمن خطبة طارق  
ابن زياد وخطاب الخليفة عمر عند وفاة أبي بكر ، وخطاب الخليفة علي  
في الحث على الجهاد وقصيدة شاعر اندلسي يتألم لمصير بلاده ازاء فتح  
الاسبان لها .

وقد ترجم الانكليز مقطوعات من هذا الكتاب ومن كتاب آخر كان  
يحملة الخطيب والعتيقي ، واتخذوا من مضمون مادتهما دليلا على  
اتجاهات الرجلين الفكرية .!!!

وعاد مكماهون في ١٩ شباط فأبرق الى حكومة الهند يطلب إعادة  
الخطيب والعتيقي الى القاهرة . ولكنه عاد فأبرق في اليوم ذاته يقول ان  
من الافضل ابقاء الرجلين في البصرة شريطة تزويده بالمعلومات المتوافرة  
عن افادتهما وموقفهما .

وردا على البرقية الاخيرة أرسل كوكس الرسالة التالية الى  
مكماهون وهي بتاريخ ١٨ آذار ١٩١٥ : اشارة الى برقيتكم تاريخ ١٩  
شباط الى حكومة الهند ، واتباعا لتعليماتها ، لي الشرف ان اقدم  
مقطوعات مترجمة من دفترين وجدا بين أوراق محب الدين الخطيب  
وعبد العزيز العتيقي . وهذه المقتطفات تؤلف المادة التي بني عليها الرأي  
القائل بان لهما ميولا اسلامية وعربية ، وبسبب ذلك لم يكن من المستحسن  
اطلاق سراحهما في البصرة .

٢ - يجب أن نذكر أنهما غادرا القاهرة قبل اعلان الحرب ، ولو وصلا الى هنا في الاوقات المعتادة لما كان هناك شك في السماح لهما بالذهاب لمقابلة الاشخاص الذين كانا متوجهين لمقابلتهم . ولكنهما وصلا الى الخليج بعد اعلان الحرب مع تركيا .

ان ضابط المخابرات العسكرية في بوشهر ، الذي كان له عميل على ظهر السفينة التي كانا يسافران عليها ، تلقى تقريرا من ذلك الرجل عند وصول السفينة مؤداه ان الشخصين يثيران الاشتباه وهو يوصي بتفتيشهما . وتم التفتيش وتبين انهما كانا يتراسلان مع طالب النقيب ، الذي كان يومذاك بمثابة عدو بعد ان فض الاتفاق معنا .

وقد قام مفتش الشرطة في الخليج بالتحقيق وقدم تقريرا قال فيه انه يعتقد ان الخطيب والعتيقي على علاقة برسل أتراك سبق اعتقالهم في كراتشي . لذلك جيء بهما الى البصرة ، وأبقيا في منزل فيها رهن الاعتقال ، ومايزالان هناك حتى الان .

ان والد العتيقي مواطن محترم وغير مؤذ ، وهو من الزبير ، ومن الاشارات ذات الدلالة انه لم يحاول التوسط في قضية ولده .

٣ - في الوقت نفسه أشعر أن القضية ضد هذين الشخصين ، اللذين أحرزا قسما من التعليم ، لاتستدعي استمرار اعتقالهما في ظروف شديدة وصعبة . وطبقا لرغباتكم ورأيكم بعد اطلاعكم على هذه الرسالة فاني أقترح الطلب من حكومة الهند أن تحتفظ بهما في بيت ريفي في الهند ، حيث يمكن أن يبقيا تحت اشراف الشرطة . ويسرني أن أتلقى جوابا برقيا منكم .

أما خاتمة المراسلات في هذا الموضوع فقد كانت برقية من كوكس بتاريخ ١١ تموز ١٩١٥ الى حكومة الهند يقول فيها ان محب الدين الخطيب غادر البصرة في ٢٧ حزيران متوجها الى بور سعيد وانه سمح للعتيقي بالعودة الى أهله في الزبير (١٢) .

ويتبين لنا من هذه المراسلات ان محب الدين الخطيب سافر موفدا من قبل زعماء اللامركزية لغاية قومية الا وهي الوصول الى موقف عربي موحد ، وان التخريجات التي طلع بها ايلي خضوري في كتابيه ( انكلترا والشرق الاوسط ) و ( في المتاهة العربية - البريطانية ) والتي توحى بأن الخطيب ذهب موفدا من قبل الانكليز ولخدمة غايات الانكليز - هي

تخریجات مفرضة لاتتفق مع الواقع والمنطق ولا مع روح البحث العلمي  
المجرد عن الهوى (١٣) .

في ختام هذا البحث ، قد يتساءل القارئ عن الغاية من تقديم سيرة  
حياة محب الدين الخطيب . وللإجابة على هذا السؤال أقول :

ان سيرة محب الدين الخطيب تقدم لنا جوانب عديدة ذات فائدة  
تاريخية . فقد كان الرجل نموذجا للمثقف العربي السوري الذي لم يجد  
مجالا لتحقيق ذاته وبلورة طموحاته على المستويين الشخصي والقومي ، في  
ظل الادارة العثمانية الظالمة ، فهاجر الى مصر وعمل فيها صحافيا وكاتبا  
وانشأ مكتبة ومطبعة وأصدر مجلتيه . وهو نموذج لابناء جيله في سورية  
الطبيعية ممن اتصلوا الى حد قريب أو بعيد بالافكار الاصلاحية والتحررية  
وتلقوا قسطا من التعليم الحديث المرتبط بالثقافة العالمية ، فأخذوا  
يتطلعون الى ترقية بلادهم والنهوض بامتهم . وهو أيضا نموذج للمثقف  
المسلم الذي لم تمنعه عقيدته الدينية المحافظة السلفية من الوقوف في  
صف الرافضين لمبدأ سيطرة شعب على شعب بدعوى الرابطة الدينية .  
لقد اقتنع محب الدين الخطيب ( كما اقتنع الشيخ رشيد رضا وغيره من  
المثقفين الاسلاميين ) أن رابطة القومية والعنصر تأتي قبل الرابطة الدينية ،  
وانه لا يصح أن يستمر رضوخ الشعب العربي لسيطرة شعب آخر ، لمجرد  
وجود رابطة دينية بينهما .

ومحب الدين الخطيب صورة للمكافح العربي في الفترة التي سبقت  
الحرب العالمية الاولى ، الذي اتخذ من العمل الحزبي طريقا للكفاح من  
أجل الحرية . والذي يدرس مناقب الحزبيين في ذلك العهد ، وبخاصة  
أعضاء جمعية ( العربية الفتاة ) يجد نموذجا رفيعا من الاخلاقية والالتزام  
بالمبدأ والشرف ، والولاء لخط واحد آمنوا به واعتنقوه . لقد حوكم  
بعضهم أمام المحاكم العرفية وحكم عليهم بالاعدام وعلقوا على أعواد  
المشائق ، ولكن أحدا منهم لم يفكر بأن يشي برفاقه . وهكذا بقي أشخاص  
بارزون من أعضاء ( الفتاة ) بعيدين عن أصابع الاتهام حتى نهاية الحرب .  
وأذكر من هؤلاء محمد رستم حيدر وأحمد قدري وياسين الهاشمي وعلي  
رضا الركابي ، وهم من أقطاب الجمعية .



ثم ان محب الدين صورة للمكافح النظيف ، الذي يعمل دون أن ينتظر أجرا على عمله . لم يسع الى منصب أو جاه أو موقع زعامة ، ولم يجمع مالا أو يقتني عقارا ، وظل ثابتا على مبدأ واحد ، فلم ينتقل من معسكر الى معسكر ، ولم يتقلب أو يتلون ، ولم يظهر قط غير ما يبطن . لقد آثر بعد ميسلون أن يبتعد عن الصراعات العربية ، فلم يتاجر بقلمه ، ولم يتخذ من التهجم على غيره سبيلا للتظاهر بالوطنية .

انها سيرة حياة حافلة بالعمل الوطني ، ناصعة ، نقية ، أعطت أكثر بكثير مما أخذت . وهي لعمرى سيرة جديرة بالتقدير والاحترام .

## - الحواشي -

- (١) حدثني الشريف حسين بن ناصر ( رئيس وزراء الاردن سابقا ) ان معلما تركيا كان يعلم اللغة العربية والدين في مدرسة مكة المكرمة ، وان رداءة نطق ذلك المعلم بالحروف العربية كانت كثيرا ما تدفعه ورفاقه في الصف الى الضحك ، حتى في دروس القرآن الكريم . ذلك ان اللغة التركية لاتضم حرفي ع و ح ، ومن هنا لا يستطيع التركي أن يلفظهما على الوجه الصحيح . وكان علي جودت قد حدثني أن وعيه القومي نحو ماضي أمته العريق بدأ من مطالعة مؤلفات الاديب التركي ( عبد الحق حامد ) الذي وضع كتابا عن قادة عرب كبار مثل موسى بن نصير وطارق بن زياد . ومعنى هذا أن علي جودت لم يجد بين يديه كتابا باللغة العربية عن التاريخ العربي ، فأخذ ذلك عن كتب باللغة التركية . ومن المفيد الاطلاع على كتاب ظافر القاسمي ( مكتب عنبر ) ، منشورات المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ١٩٦٤ .
- (٢) يقول الملك عبد الله في مذكراته ان علي رضا الركابي كان « لا يتكلم الا باللغة التركية » عندما كان يشغل وظيفة محافظ المدينة المنورة عام ١٩٠٩ فاذا كان هذا حال الركابي وهو من أبرز رجالات العرب في سورية ، فما بالك بمن كانوا دونه من الموظفين العاديين ؟
- (٣) سجل محب الدين الخطيب في دفتر له يعود الى عام ١٩١٩ قائمة باسماء الاشخاص الذين انضموا الى ( العربية الفتاة ) . وقد نقل الاسماء عن محمد الشريقي أمين سر الجمعية في دمشق . وجاء في الدفتر ان انشاء الجمعية كان يوم ١٤ تشرين الثاني ١٩٠٩ . وفيما يلي الاسماء الاولى وأرقامها التي تدل على تسلسل عضويتها :
- ١ - توفيق الناطور ٢ - محمد رستم حيدر ٣ - مصطفى الكيلاني ٤ - عوني عبد الهادي ٥ - حسين صبري الخوجه ٦ - محمد المحمصاني ٧ - رفيق التميمي ٨ - أحمد قدري ٩ - بشير القصار ١٠ - رشيد الحسامي ١١ - توفيق فايد ١٢ - ابراهيم حيدر ١٣ - جميل مردم بك ١٤ - رفيق بيضون ١٥ - رشدي سلهب ١٦ - يوسف سليمان مخيبر حيدر ١٧ - توفيق البساط ١٨ - رفيق رزق سلوم ١٩ - سيف الدين الخطيب ٢٠ - فؤاد حنتس ٢١ - عبد الحفيظ يونس ٢٢ - زكي التميمي ٢٣ - محمد يوسف حيدر ٢٤ - محب الدين الخطيب ٢٥ - فائز الشهابي ٢٦ - عارف الشهابي ٢٧ - معين الماضي ٢٨ - علي رضا الركابي ٢٩ - ياسين الهاشمي ٣٠ - شكري القوتلي ٣١ - نسيب البكري ٣٢ - سليم عبد الرحمن ٣٣ - أحمد مريود ٣٤ - محمد الشريقي ٣٥ - شريف الشريف ٣٦ - رشدي الشوا ٣٧ - فائز الفصين ٣٨ - عمر الاتاسي ٣٩ - بشير النقاش ٤٠٠ - عبد الغني العريسي
- وفيصل بن الحسين .
- أما مؤسسو الجمعية فهم : توفيق الناطور ومحمد رستم حيدر وعوني عبد الهادي وأحمد قدري .

- (٤) تجد بحثا مفصلا عن بداية فكرة ألوان العلم العربي في كتابي ( الحركة العربية ) ، دار النهار للنشر ، بيروت ، ١٩٧٠ ( طبعة ثانية ١٩٧٧ ) ص ١٣٤ - ١٤٠ .
- (٥) يمكن مراجعة رثائي له في جريدة ( الدفاع ) الاردنية (١٢ كانون الثاني ١٩٧٠ ) ، ومجلة ( الاديب ) البيروتية ، آذار ١٩٧٠ .
- (٦) محمود جوروك كان قريب زوجة الملك حسين الثانية ، وكذلك حسين رشدي باشا رئيس وزراء مصر يومذاك .
- (٧) الزهراء ، ١٥ ربيع الاول ١٣٤٣ ( ١٥ تشرين الاول ١٩٢٤ ) ص ١٩٠ - ٢٠٠ .
- (٨) الثورة العربية الكبرى ، المجلد الاول ص ١٢٨ - ١٢٩ .
- (٩) المذكرة دون تاريخ ولكن يظهر من سياق الحديث انها وضعت في تشرين الثاني ١٩١٤ ، بعد احتلال الانكليز للبصرة والقرنة .
- (١٠) البرقيتان في الملف F. O. 371/2140 مكتب السجلات العامة Public Record Office لندن .
- PRO F.O. 882/4 (١١) تقرير من ٢٣ صفحة بتاريخ ١٧ آب ١٩١٦ - الملف
- (١٢) البرقيات المترجمة أعلاه في الملف LP & s/11, Vol. 95 وزارة الهند ، لندن .
- (١٣) تناول ايلي خضوري قضية الموفدين العرب في كتابه الاول England and the Middle East 1956
- صفحة ٦٢ ، على أساس أن أولئك الموفدين كانوا يعملون لخدمة غايات الانكليز . وقد بينت في كتابي ( الحركة العربية ، ص ١٥٩ ) أن غاية أولئك الموفدين كانت غاية عربية . ولكن خضوري عاد في كتابه الاخر In the Anglo - Arab Labyrinth 1976
- صفحة ١٦ يقول أن سليمان موسى ، ينكر أية علاقة لمحِب الدين الخطيب بالانكليز ، بينما تدل البرقيات دلالة واضحة أن الخطيب والمبعوثين الاخرين سافروا بتمويل من الانكليز .

## الملاحم الأساسية لفلسفة شبلي شميل المارتية

الدكتور أحمد عوني ماضي

الجامعة الاردنية

قبل الشروع في تحديد وتحليل أهم المفاهيم التي استخدمها شبلي شميل في تكوين فلسفته المادية ، أود القول، بادىء ذي بدء أن هذه الفلسفة لم تبحث بحثا مستفيضا أو مستقلا من قبل الباحثين العرب بغض النظر عن أقطارهم وعن المؤلفات التي تناولت الفكر العربي الحديث أو أعلامه ، وما يستحق التنويه أن ما عالج به الباحثون العرب هو بالتحديد فلسفته الاجتماعية ، وحتى هذه المعالجة ليست وافية ، إنما هي أقرب إلى الاحكام العامة جدا . ومن أجل أن نصدر حكما عاما صادقا وواقعا على فلسفة شميل الاجتماعية من الضروري أن نعرف عناصرها وماهية الافكار الجوهرية التي تتكون منها ، أما فلسفته بالمعنى الكلاسيكي الضيق فلم تبحث بحثا وافيا على الاطلاق .

في ضوء هذا الكلام أرى من الضروري أن يدرس فكر شميل دراسة موضوعية شاملة حتى نحدد موقعه في فكرنا العربي الحديث والمعاصر ، فهو أول اشتراكي وأول دارويني وأول مادي وأول عقل علمي في العصور العربية الحديثة . غير أن هذا الفيلسوف طمس وأغفلت مؤلفاته وكتاباتاته، وهنا أذكر حضرات المستمعين بما قاله مارون عبود للتدليل على الإهمال الذي لقيته كتاباته : « لسنا ندرس الشميل الدارويني ، فعلى من يهمله الأمر أن يرجع إلى كتبه التي طبعت سنة ١٨٨٤ ثم أعيد طبعها في سنة ١٩٠٩ على حساب الاجاويد والانصار واولهم الاب بولس الكفوري والدكتور أيوب ثابت وغيرهما من احرار رجال الفكر والقلم ، ثم أصحاب الاكياس الوارمة » (١) .

واضح مما تقدم أن محاولات الطمس قديمة ، إلا أن ما يزيد حيرتنا هو استمرار هذه المحاولات حتى وقتنا الراهن .

## رأي المفكرين العرب في شميل

قد يقول قائل : ومن هو شبلي شميل حتى نهتم به وندرسه ؟ سأجيب على هذا السؤال بما قاله عدد منتخَب من علمائنا ومفكرينا . من المعلوم أن شميل ترك أثرا كبيرا في فكرنا العربي الحديث والمعاصر وأكاد أجزم قائلا أن الجدل الذي أثاره فكر شميل لا مثيل له في الفكر العربي الحديث كله .

ولعل جمال الدين الافغاني من أوائل الذين ناقشوا شميل واطروا عليه المديح وحاولوا أن يحددوا موقعه في الفكر العربي الحديث ، فقد قال « لا أرى الدكتور شبلي قد تخلص من جرأته الادبية وبعض رسوخه في الفلسفة من وصمة التقليد الاعمى لعلماء الغرب وبمعنى أوضح أنه أراد أن ينتصر لداروين وأن ينشر مذهبه رغم أهل الاديان وفي ذات الوقت عارض أستاذه وصاحب المذهب المنتصر له » (٢) . وفي صفحة لاحقة يقول الافغاني رأيه في شميل بموضوعية وصراحة على النحو الاتي : « هذا الذي رأيت ما يؤاخذ به الحكيم شبلي شميل وقد خالف امامه وأستاذه داروين وفيما عدا ذلك فاني أقدر الشميل قدره في دقة بحثه وتحقيقه وجرأته على بث ما يعتقد من الحكمة وعدم تهيبه من سخط المجموع لما يجهله من حقائق العلم » (٣) .

ومما هو ثابت أن شميل هو الذي أوحى الى اسماعيل مظهر على نحو غير مباشر في ترجمة كتاب « أصل الأنواع » الى اللغة العربية ، الكتاب الذي يمثل نقطة تحول في تاريخ العلم والفلسفة ، زد على ذلك أن شميل قام بزعزعة الافكار التي كان مظهر معتقدا بها . يقول اسماعيل مظهر « يرجع تاريخ « أصل الأنواع » في اللغة العربية الى ليلة من ليالي الصيف سنة ١٩١١ على قدر ما أستطيع أن أذكر . . . قرأت اذ ذاك في احدى الصحف اعلانا عن كتاب لدكتور شميل أسماه « فلسفة النشوء والارتقاء » (٤) . ويستطرد مظهر قائلا : « لم أتم تلك الليلة الا غرارا ، مكررا كلمات لأفهمها ، فلسفة نشوء . ارتقاء . » (٥) . ويتابع مظهر حديثه قائلا : « ولما أن تنفس الصبح كنت في الطريق أسير باحثا وراء النشوء والارتقاء . وكنت أول من دخل مكتبة « المعارف » مع أول عامل فتح بابها ، أسأله أن يعطيني نسخة من كتاب شميل ، ولما أن وصلت النسخة الى يدي بدأت أقرأ فيها وأنا خارج من باب المكتبة ، لأدري كيف أسير ولاأين أذهب ، واذا بعصا التيار قد ألقت بي الى الشارع العباسي ، ولم أشعر بانني هنالك الا بعد أن نبهتني

الى ذلك احدى الاشجار القائمة على جانبيه ، بصدمة قوية ، ألقت بالكتاب من يدي الى الارض(٦) . ويرد ف قائلا : « وتقطعت بي على يد شمائل وبختر كل أسباب الاتصال بذلك العالم العلوي . . . على أنني لم أكن أخلو من حيرة قبل أن يتعهدني نشوء شمائل وارتقائه بتلك التجربة القاسية(٧) . ولما أن لبست ثوبي الطبيعي مرة أخرى ، والتأمت جروح نفسي ، واستقر فكري في الحياة على مثال احتذيه ، اكبت على كتاب « أصل الانواع » أترجمه حتى فرغت منه في ربح طويل من الزمان(٨) .

والجدير بالذكر أن مظهر كان أحد أنصار داروين ، الا انه اختلف مع شمائل في فهمه للداروينية واستنتاجاته منه ، الامر الذي دفعه الى الدخول في حوار طويل معه ، وكتابه « ملقى السبيل » الذي طبع سنة ١٩٢٦ مرة ناضجة من ثمار الاختلاف مع شمائل في الرأي .

ولعل تأثير شمائل يبدو واضحا تمام الوضوح وقويا كل القوة في تفكير سلامة موسى وتكوين شخصيته ، فهو يقول « وفي مجتمعنا المصري كثير من الكظوم التي ترهق الذهن بالقيود والسدود وكان الايمان بنظرية التطور نوعا من التفريج والانتقام ، ولذلك وجدني في ذلك الوقت ( المقصود السنوات الاولى من القرن العشرين ) داعية متحمسا لهذه النظرية في البيت والمدرسة وفي كل مكان آخر ، وشعرت كأي ممتاز بهذه النظرية . فبعثني هذا الى التوسع فيها ، وعرفت لذلك الدكتور شبلي شمائل ، وكان رجلا كبير الذكاء محدود المعارف »(٩) .

ومن الواضح أن شبلي شمائل كان فيلسوفا من فلاسفة نظرية التطور ، أو بكلام آخر كان أقرب الى معالجة القضايا الميثودولوجية للداروينية منه الى أن يكون عالما في نظرية التطور ، وربما هذا الرأي الذي تبناه هو الذي دفع سلامة موسى الى قول ما يلي : « وفي الوقت الذي كان يعتمد فيه المقتطف على البيئات العلمية وينقل أقوال البيولوجيين في أوروبا عن هذه النظرية ، كان شبلي شمائل ينافح عنها فيدعو اليها بقوة المنطق »(١٠) .

ولعل مثل هذا المنحى الذي نجاه شبلي شمائل بجرأة وذكاء هو الذي يمثل الاثر الكبير الذي تركه في تفكير سلامة موسى وبلورة شخصيته ، يقول سلامة موسى « كان شبلي شمائل بجرأته وذكائه شخصية فذة لها قوة الايحاء والتوجيه في نفسي »(١١) .

وهكذا نخلص الى القول بأن من المستحيل ان نحلل تفكير سلامة موسى اذا لم نأخذ بعين الحسبان الدور الكبير لنظرية التطور في تكوين شخصيته وتشكيل وعيه ، تلك النظرية التي عرفها عن طريق مجلة المقتطف وتوسع فيها عن طريق ش. شميل ، وألف كتابا فيها تحت اسم « نظرية التطور واصل الانسان » . يقول س. موسى : « وكانت نظرية التطور التي فهمت مفزاها من « المقتطف » البذرة الخصبة في ثقافتني فقد اكسبتني معرفة وأسلوبا ، وعينت لي أصدقائي وخصوصي من المؤلفين والمفكرين وغرست في نفسي مزاج الكفاح لانها تصدت للعقائد والتقاليد ، وقد تشعب الكفاح من هذه البؤرة الى موضوعات أخرى » (١٢) .

واذا كان دور نظرية التطور في تفكير وسلوك سلامة موسى دورا مؤثرا ، نافذا ، فان شميل الذي استعان به سلامة موسى للتوسع في تلك النظرية ، قد كان له وجود دائم في وعي وشخصية سلامة موسى . « ومن الشخصيات الذهبية التي تبرز في وجداني وأفتأ أذكرها كلما عن حديث عن الادب أو القلم أو الشرق أو الحضارة ، شخصية شبلي شميل » (١٣) .

وأخيرا يختتم سلامة موسى تحليله لشخصية ومكانة شبلي شميل في الثقافة العربية الحديثة قائلا : « كان يدعو الى الحرية الفكرية في كلمات جريئة وأحيانا في وقاحة جريئة كما كان يدعو الى نظرية « النشوء والارتقاء » أي التطور ، « وكان يسخر من الغيبيات في كلمات لايجرؤ غيره على استعمالها » (١٤) . « وكان يحمل على عادات الشرق وتقاليده في لهجة غاضبة » (١٥) ، ويجمل سلامة موسى رأيه في شبلي شميل بقوله : « كان شبلي شميل مفكرا أكثر مما كان عالما ، وكان يقنع القارئ بعقله وليس بمعارفه ، ولذلك عندما نقرأ مخلفاته الان نجد التفكير الرصين والأسلوب الرصين » (١٦) . « وكان كثير من المعجبين به يستهويهم أسلوبه ... » (١٧) .

ان شبلي شميل أردنا أم أبينا يمثل أحد العناصر الاساسية للمناخ الفكري الذي كان سائدا في العالم العربي في تلك المرحلة التاريخية التي استمرت حوالي نصف قرن من الزمان ، ومصادقا لهذا القول يؤكد أنيس الخوري المقدسي ما يلي : « وكما نشأ في الغرب طبقة من أرباب الاقلام تدعو الى طرق جديدة في التفكير هذا نشأ في البلدان العربية كتبة وشعراء يدعون الى ذلك ومعظمهم ممن تأثر بالحضارة الغربية - كشبلي شميل ويعقوب صروف وقاسم أمين وولي الدين يكن وجبران وأمين الريحاني ، وفرح

انظون وطه حسين وحسين هيكل واحمد أمين ومخايل نعيمة وسلامة موسى وكثير من سواهم . . . وهم بمجموعهم يمثلون لنا الاتجاه الروحي العام في أدبنا الحديث « (١٨) . ويرد في المقدسي قائلا : « فلما انتشر كتاب دارون في أصل الانواع وأخذ مفكروا الغرب يبحثون في نظرياته بين مناقش ومدافع لم يستطع العالم العربي أن يبقى طويلا بمعزل عن هذه الموجة الفكرية العامة ، وهكذا قام فيه جماعة من الباحثين الذين أخذوا بهذه النظريات فأقبلوا على أقوال دارون وسواه من دعاة التطور الطبيعي فدرسوها ثم نشروها باللغة العربية فكانت ماثرا لصراع عنيف اشترك فيه نخبة من كتاب العربية « (١٩) .

والجدير بالذكر أن هذا الجدل الذي أثير حول نظرية التطور مرده الى الدور الريادي الذي قام به شميل واشترك فيه اشتراكا فعالا، فكان بذلك محور هذا الجدل .

ويستمر المقدسي في تحديد موقع الداروينية على وجه العموم وأثر شميل على وجه الخصوص في الادب العربي الحديث قائلا : « وصفوة القول أن الادب العربي الحديث قد تأثر تأثرا عميقا بالنظريات العلمية الجديدة ولم ير مندوحة عن مسaire العلم والخروج في ميدان التفكير عما « ألفه الادب القديم « (٢٠) .

هذا الرأي لا يحتاج الى كبير تعليق ، فهو واضح ومعناه ان شميل ومن حذا حذوه في التفكير مثل نقطة انعطاف في تاريخ الثقافة العربية .

أما رثيف خوري فقد اعتبر شبلي شميل « فلتة زمانه في قبول النظريات الجديدة في العلم والسياسة، واعتناقها اعتناقا مدركا واعيا « (٢١) .

ولعل زميله في الدراسة الجامعية يعقوب صروف الذي عرفه حق المعرفة وقدره كبير التقدير أقرب الى الدقة من غيره في وصف شخصية شبلي شميل وتحديد دوره كعالم وفيلسوف وطبيب ، يقول يعقوب صروف : « وفي سنة ١٨٧١ ترك شبلي المدرسة ( يقصد الكلية الانجيلية « الجامعة الامريكية اليوم » ) اذ صار طبيبا جسمانيا ، ثم عالما صريحا ، وفيلسوبا جريئا لا يحابي أحدا ، كان حاد الذهن ، سريع التصور ، نابغة في التعليل ، المعيا في اكتشاف الحقائق ، وكان أشهر الاطباء في التشخيص الطبي فكانما يوحى اليه ، وبلغت منه الفراسة أنه علل حوادث كثيرة بالاستهواء الذاتي قبل شيوع هذا العلم في أوربا » . ويرد في صروف قائلا :



« وهذا النابغة العظيم هو زعيم فكرة التطور والنشوء والارتقاء في عالم الضاد » .

يلاحظ مما ذكره سلامة موسى ويعقوب صروف وهما أكثر الناس - حسب علمي - معرفة بشميل ، انهما يختلفان في اعتبار شميل مفكراً أم عالماً وفيلسوفاً ، فسلامة موسى يعتبره مفكراً في حين أن صروف يعتبره عالماً وفيلسوفاً ، والأصح في نظري أن شميل أقرب الى أن يكون فيلسوف علم ، وبالتحديد فيلسوف نظرية التطور .

لقد كان شميل ، بالإضافة الى ماتقدم ، فيلسوف سياسة واجتماع ، غير أنه عالج القضايا السياسية والاجتماعية بطريقة علمية - منطقية ، وفي هذا الصدد يقول مارون عبود « والشميل عاش وله في كل عرس قرص ، يكتب باللغة الفرنسية كما يكتب بالعربية ، لم يدع مسألة سياسية أو اجتماعية الا ومد اليها مبضعه ، عالج جميع قضايا عصره الاجتماعية ورمى جميع الاهداف بأسلوب علمي منطقي » (٢٢) .

وإذا أخذنا الفكر المسيحي العربي ممثلاً في زعيمه الاب لويس شيخو ومجلته المشرق فاننا لواجدون أن الداروينية ممثلة في شميل في العالم العربي قد كانت الشغل الشاغل لهذا الفكر ، يقول اغناطيوس هزيم في دراسته « شواغل الفكر المسيحي منذ ١٨٦٦ » « دخل مذهب داروين واتباعه الى العالم العربي عن طريق الترجمات وبواسطة « المقتطف » والدكتور شبلي شميل ، وقد كان هذا المذهب من أهم شواغل الفكر المسيحي منذ ١٨٨٢ حتى سنة ١٩٢٦ ، وهو تاريخ آخر مقال فه كتبه « المشرق » بقلم الاب لويس شيخو اليسوعي » (٢٣) .

لم يكن شميل أول دارويني وأول مادي في الشرق العربي الحديث ، بل كان كذلك أول اشتراكي عربي في العصر الحديث ، يقول أديب نصور في مقدمة لدراسة الفكر السياسي العربي في مائة سنة « ١٨٥٠ - ١٩٤٨ » ما يلي : « ومفكر آخر خاض في هذا الموضوع ( يقصد الاشتراكية ) قبل ثورة ١٩١٧ الروسية هو شبلي شميل ، عالج موضوع الاشتراكية في مقال نشر في « الاخبار » سنة ١٩٠٨ وفيه نحو من الفكر جديد ، لاعهد للشرق العربي به ... » (٢٤) . ويقول باحث آخر في دراسته « معالم الفكر التربوي في البلاد العربية في المئة سنة الاخيرة » ما يلي : « ولعل الشميل أول داعية في العالم العربي الحديث الى العلمانية الكاملة في اعادة تنظيم

المجتمع ، والى المواطنة العالمية التي تذوب فيها القوميات الخاصة ويصبح العالم أمة واحدة « (٢٥) . ويردف قائلا : « وطبعاً لم يجد الشميل بدا من أن يتبع في شؤون النهضة المتوخاة في مصر ، أن في السياسة أو الاقتصاد أو التربية والتعليم ، خطأ جديداً لم يكن للفكر العربي عهد به من قبل » (٢٦) .

يتضح مما تقدم ذكره أن شبلي شميل شخصية فذة ، فريدة من نوعها ، ومتعددة الجوانب والاهتمامات ، وقد لعبت دوراً في الثقافة العربية الحديثة لم تلعبه أي شخصية أخرى ، فقد أثار معارك فكرية حامية الوطيس وعرف المثقفين العرب على أفكار جديدة كل الجدة ، وطرح أفكار لم تكن معلومة سابقاً للعرب ، ولعل الجديد الذي واجه به شميل العرب هو الذي أبعد الكثير من الباحثين العرب عن الخوض في مؤلفاته وتحليل الجديد الذي أتى به ، غير أنني أقولها صراحة ان الجديد الذي جاء به شميل هو الذي دفعني الى الاهتمام به ودرس كتاباته .

### شميل وداروين :

يكاد ينعقد الاجتماع على أن شبلي شميل هو رائد الداروينية في الشرق العربي الحديث ، والحق يقال أن تأثير شميل بالداروينية قد سبق تأثير الكثير من علماء الغرب آنذاك ، حتى أنه يمكن القول أن شميل كان أحد عشرة علماء ومفكرين في العالم يناصرون داروين ويحاولون تطوير نظرية التطور على هذا النحو أو ذاك ، وفي هذا الصدد يقول شبلي شميل : « ولما قمت أثبت مبادئ هذا المذهب بيننا ولاسيما ما بني عليه منذ سنة ١٨٧٦ لم يكن له أتباع ولا مؤلفات في اللغة العربية بل كان أنصاره حتى في أوروبا نفسها لا يتجاوزون عدد الأصابع وكان خصومه حتى من العلماء أنفسهم يفوقون حد الحصر . . » (٢٧) .

ولاريب أن ادراك شميل لنظرية التطور واستيعابه التام لها والوصول بها الى استنتاجات معينة يجعل منه داروينياً على مستوى عالمي ، غير أنه مجهول الى حد كبير جداً في أوساط المختصين في القضايا الفلسفية للبيولوجيا على وجه العموم ونظرية التطور على وجه الخصوص ، ويخيل الي أن مرد ذلك الى عدم اهتمام الباحثين العرب بمؤلفاته وكتاباته على كل الأصعدة - تجميع كتاباته المتفرقة أو إعادة الطبع أو الترجمة أو التحليل والدرس . وما تجدر ملاحظته هو أن شبلي شميل كان قد أنكر نظرية التطور في بادئ الأمر ، وبالتحديد عندما كان طالباً في الجامعة ، ولاشك أن أعداء نظرية التطور يؤدون دوراً كبيراً في تشويه صورة الداروينية

حتى وقتنا الراهن . وقد وقع شبلي شمیل تحت تأثير خصوم هذه النظرية الا أنه تمكن في وقت لاحق من ادراك الصورة كما هي في الواقع وأصبح من غلاة الداروينيين . يقول شبلي شمیل « تحولت الى أن أكون من الغلاة فيه بعد أن أنكرته وتأففت من ذكره أول ما سمعت به ، ففي سنة ١٨٧١ - وكنت أدرس الطب في المدرسة الكلية السورية سمعت - ولا أذكر كيف سمعت - أنه قام رجل يدعي أن أصل الانسان من القرد» (٢٨) . « ولاعجب فان الكيفية التي ذكر لي فيها والتي يذكره بها دائما خصومه من أن القرد أصل الانسان لا يمكن أن تحدث في سامعها لأول مرة وهو متشرب بالاعتقادات المخالفة الا نفورا ولو أن في نوع الانسان من هو أحط من القرد بكثير ، وهو سلاح يفترية خصوم هذا المذهب لتحقيره » (٢٩) . ويمكن التكهن بأن دراسة شمیل للطب والعلوم الطبيعية قد افضت به الى بعض النتائج التي تتفق ونظرية التطور ، وعلى الرغم من جهلنا بهذه النتائج ، فما يمكن قوله أن شمیل قد نحا منحى نظرية التطور قبل الاطلاع عليها ، يقول شمیل : « ومن الغريب أنني بعد ذلك بزمان عند نيلي الشهادة كان موضوع خطابي المدرسي النهائي « اختلاف الحيوان والانسان بالنظر الى الاقاليم والغذاء والتربية » وقد جئت فيه بكثير مما يؤيد هذا المذهب وأنا لا أقصد فكننت كالذي يقول النثر وهو لا يدري» (٣٠) .

وبعد سفره الى الغرب واطلاعه على نظرية النشوء والارتقاء في كتابات أصحابها أصبحت هذه النظرية الشغل الشاغل له ومحور تفكيره، واهتماماته « ولكن الذي لم أكن أقصده في ذلك الحين لم يلبث أن صار موقف أفكاري وموضوع حديثي وغرضي في كل كتاباتي بعد مبارحتي المدرسة ( يقصد الجامعة ) ورحلتي الى أوروبا واطلاعي على هذا المذهب في مؤلفات أصحابه ، ولم أجد حينئذ أدنى صعوبة في تطبيقه على أقصى ما يرمي اليه قبل أن أطلع على مؤلفات الغلاة فيه كهيكل وبختر لان علوم المقابلة في الطب تساعد كثيرا على ذلك » (٣١) .

والجدير بالملاحظة أن نظرية التطور أصبحت لدى شمیل تمثل مجموعة من البديهيات المسلمات التي ينبغي أن يسلم بها كل انسان ذو تفكير بسيط أو صاحب قدر بسيط من العلم وكل ناكر أو جاحد لهذه النظرية جبان أو حريص على منفعة معينة تتنافى مع هذه النظرية « ولقد بلغ مني الاقتناع بصحة هذا المذهب اني صرت اعتبر مبادئه أوليات لا يجوز أن تخفى على أبسط متعلم وأقل مفكر فاذا لم يصرح بها فلعدم جسارة أو

لمصلحة « (٢٢) . وفي مكان آخر يقول « ان مذهب داروين بسيط جدا ويقدر كل انسان أن يدركه اذا نظر الى الاشياء كما تعرض له وتأملها بعين العقل ... » (٢٣) . وقد وصل ايمان الشميل بنظرية التطور الى مستوى اعتبارها نظرية شاملة تحوي على حلول لكل المسائل المختلفة التي تتعلق بالعلم أو الفلسفة أو الاجتماع وبغض النظر عن كونها مسائل عظمى أو صغرى ، « لاتمر اليوم بالانسان مسألة جليلة أو صغيرة ، اجتماعية أو علمية أو فلسفية الا وتجد لها في هذا المذهب حلا في كيفية نشوئها وتحولها حتى مصيرها أيضا » (٢٤) .

بالغ شميل كثيرا عندما عم نظرية النشوء والارتقاء على كل مجال متناسيا أن هذه النظرية تتعلق بالعالم العضوي ، بالكائنات الحية ، وقد جاء بها داروين وأنصاره لتفسير الصلة القائمة بين الاحياء من النباتات والحيوان حتى الانسان وكيفية نشوئها وتغيرها ومن المعلوم أن سببنا بمحاولة تطبيقه هذه النظرية على الظواهر الاجتماعية قد جعل منها نظرية تخدم التخلف وتكرس الواقع الاجتماعي السلبي ، وما يستحق اشارة خاصة أن شميل حاول أن يحلل الدين انطلاقا من نظرية التطور ومتجاهلا أن الدين لايجوز أن نتعامل معه كما نتعامل مع العالم العضوي نظرا للاختلاف الكيفي بينهما . « واعلم أن مذهب داروين كما يصح على الانواع يصح على الديانات أيضا » فان الديانات المختلفة تنشأ من أصل واحد وتتحول بعضها من بعض وتتنازع نظيرها ، وكما أن الفائز من الانواع في هذا التنازع هو الانسب للاحوال الخارجية هكذا الفائز من أنواع الديانات أيضا ما كان أنسب لاحوال الزمان ، والعاملان الجوهريان في الديانات هما كما في الانواع التغير والانتخاب الطبيعي » (٢٥) .

ان الاقتباس المذكور آنفا يمثل مثلا بسيطا من أمثلة كثيرة جدا على كيفية نظر شميل الى نظرية التطور ، ولست الان في صدد تحليل موقفه من الدين ، فهذا موضوع يستحق معالجة خاصة ومستقلة . زد على ذلك أن شميل عالج الاخلاق انطلاقا من نظرية التطور فقد وضع رسالة في الاخلاق بحسب مذهب داروين وارسلها الى المقتطف في ١٢ مارس سنة ١٨٨٣ لتنتشر فيه ولم تنشر ، وكان ذلك على أثر الخلاف الذي حصل في الجامعة الاميركية وأدى الى فصل بعض أسانذتها بسبب مذهب داروين ، وهذه الرسالة مثل آخر على محاولة شميل تعميم نظرية التطور واعتبارها كلية شاملة تصلح لمعالجة كل المسائل .

ان كل الذي تقدم ذكره ماهو الا مقدمة للقول بأن شميل اعتمد في صوغ فلسفته المادية بصورة أساسية على الداروينية كاتجاه علمي - فلسفي ضم آنذاك ، بالاضافة الى داروين ، كلا من ويلز وهكسلي ، وبخزر وهيكل وغيرهم ، فقد اعتبر الداروينية « عوناً كبيراً لتعزيز العلم الطبيعي ودعمه قوية للفلسفة المادية في الكون » (٢٦) . على أساس أن « القول بمذهب النشوء يستلزم ضرورة القول بمادية الكون » (٢٧) . وفي هذا الصدد يقول سميرنوف « أن نظرية التطور الداروينية لمادية على نحو عميق ، وهي قائمة على تحليل عوامل موجودة في الطبيعة بموضوعية وواقعية » (٢٨) . ويقول مختص آخر فرلوف : « ان مبدأ التطور لا يمكن أن يطبق باتساق بدون اتحاد عضوي مع مبدأ مادية العالم ... » (٢٩) .

يتضح مما قيل سابقاً أن مادية شميل متصلة أوثق الاتصال بنظرية التطور وليس من شك في أن هذه النظرية مادية في جوهرها .

وبناء على ذلك يعتبر شميل المادية التي يتبناها مادية علمية مثبتة، فهي ليست فرضية تفتقر الى البرهان ، انما هي فلسفة قائمة على وقائع لأريب فيها ، « وقضاياها كالقضايا الرياضية نفسها » (٤٠) .

تمثل فلسفة شميل المادية صورة من صور ارتباط الفلسفة بالعلم على وجه العموم وبالبيولوجيا وبالتحديد نظرية النشوء والارتقاء على وجه الخصوص ، ولا جدال في أن ارتكاز فلسفة شميل الى نظرية التطور لدليل على سمي شميل الى صوغ فلسفته لا على أساس التأمل والنظر بل على أساس نظرية حديثة أحدثت ضجة هزت أركان التفكير العلمي والفلسفي في العالم ، وما يستحق التنويه في هذا المجال أن الماركسية اعتبرت نظرية التطور انجازاً علمياً على جانب كبير من الأهمية ، زد على ذلك أن الماركسية بنت ماديتها على عدد من النظريات العلمية من بينها نظرية التطور .

وهكذا فان مادية الماركسية لا يمكن فهمها دون الاخذ بعين الاعتبار نظرية التطور ، كما أن مادية شميل لا يمكن استيعابها دون أن نأخذ بعين الحسبان نظرية النشوء والارتقاء .

ولكن كيف فهم شميل داروين ؟ ..

يرى شميل أن مآثرة داروين تكمن في المقام الاول في تأييده لمذهب

النشوء والارتقاء « بالادلة العلمية الطبيعية ، وجعله صالحا لان يطبق على الاحياء وحدها فقط بل لان يشمل الطبيعة كلها لا في الارض ومواليدها الجماد والنبات والحيوان فقط ، بل في السماء واجرامها أيضا » (٤١) . على اعتبار أن مذهب التطور بدأ بظهور كتاب ابقرات « الا هوية والمياه والبلدان » ، « فأبقرات أول واضع حجرا على وجه علمي في أساس مذهب النشوء » (٤٢) . والواقع أن داروين قد قام بوضع نظرية تفسر المعطيات والوقائع النظرية والعملية التي تراكت خلال فترة طويلة من تاريخ البيولوجيا ، فقد اكتشف ووضح أصول التطور وقواه المحركة ومن حسن حظ داروين أن فكرة التطور هيمنت في علم الطبيعة غير الحية أي الجيولوجيا بفضل أبحاث لايل . وقد شكل تطور الطبيعة غير العضوية مقدمة لتطور الطبيعة العضوية والجدير بالملاحظة أن داروين اعترف يوما ما بفضل وتأثير لايل القوي في بلورة أفكاره العلمية .

ولكن ماهو فحوى مذهب داروين ؟

فحوى هذا المذهب هو أن الاحياء جميعها ذات أصل واحد وأن نشوءها تم طبيعيا بدون تدخل خارجي ، « فالانسان والقرد والفرس وسائر الاحياء الطبيعية قاطبة من أصل واحد في نشوئها من مواد الطبيعة وبمجرد قواها وقد تغيرت تبعا لناموس المطابقة حتى بلغت مبلغا الان بالانتخاب الطبيعي » (٤٣) . وماهو مؤكد أن هذا الفحوى هو الذي اعتمد عليه شميل في بلورة فلسفته المادية في المقام الاول فشميل لم يقر أي شيء غير طبيعي قادر على التأثير في الطبيعة كالقول بالقوى المجردة والارواح المستقلة فكل ما يحدث في الطبيعة منها وبها واليها ، كما أن موجودات الطبيعة تتحول بعضها الى بعض وتتخذ صوراً وأشكالا مختلفة . يقول شميل : « فالوحد في الطبيعة لايسلم بشيء غريب عنها فاعل فيها أو مفعول عنها بل يعتبر أن كل الحوادث التي تحدث فيها منها وبها واليها متحولة بعضها عن بعض وراجعة بعضها الى بعض لاستتقر على حال ولا تثبت على صورة والبقاء غير متوفر فيها الا للكل » (٤٤) .

انه لجلي مما عرضناه ان مادية شميل تحوي عناصر جدلية ، فهو يحاول أن تكون ماديته جدلية الطابع ، على الرغم من عدم اطلاعه على مؤلفات رواد المادية الجدلية ، وعلى الرغم من أن ماديته على العموم تصطبغ بالميثافيزيقية ، ولعل أبرز صورة لمحاولته صبغ ماديته بالصبغة الجدلية نجدها عندما يؤكد على أن ناموس التحول لايسمح لنا الاعتقاد

بشيء ثابت في الطبيعة لا العناصر ولا الجواهر الفردة . كما أن هذا الناموس يكشف لنا النقاب عن العلاقة بين الظواهر والتغيرات التي تطرأ عليها . « ان هذا الكل المشهود مترابط ترابطا لا ينفك في كل صورده وأفعاله سواء في الطبيعة الصامتة أو في الاحياء النامية أو في الحيوان الأعجم أو في الانسان الناطق ، موضحا أن القوى الفاعلة في كل ذلك كالمواد الداخلة فيه من أصل طبيعي واحد متحول الى ما لاحد له . . . » (٤٥) . وعلاوة على ذلك فان ناموس التحول لا يعرفك مقام الانسان الحقيقي في الطبيعة » (٤٦) . فالانسان قبل ظهور داروين لم يكن يعلم حقيقة نسبته الى الطبيعة ولانسبة الطبيعة بعضها الى بعض فالانسان طبيعي ، وكل ما فيه آت من الطبيعة ، « فان جميع العناصر المؤلف منها موجودة في الطبيعة ، وجميع القوى التي فيه تعمل على حكم قوى الطبيعة » (٤٧) .

لقد فات شمائل ان الانسان كائن اجتماعي علاوة على كونه جزء لا يتجزأ من الطبيعة كائنا بيولوجيا ، فالانسان وليد البيئة الطبيعية والاجتماعية معا ، ومن الثابت أن ما هو اجتماعي أكثر تأثيرا في الانسان مما هو طبيعي ، ان شمائل لا يكتفي بمثل هذا النظر الى الانسان ، فالعقل بالنسبة اليه ظاهرة مادية كذلك ، فعمله ما هو الا نشاط للدماغ ، وكل ما يؤثر في المادة يؤثر في العقل أيضا ، « فيجب النظر في العقل كالنظر في وظائف الاعضاء باعتبار أنه عمل مادي ، فكل ما يتطرق الى المادة من نواميس النشوء والتحول ويؤثر فيها يؤثر في العقل نفسه الذي هو ليس الا فعلا من أفعال الدماغ » (٤٨) . وما ينطبق على العقل ينطبق تماما على نفس الانسان ، فهي عمل من أعمال المادة اي من أعمال الاعصاب والدماغ « فالنفس حالة من القوة المتصلة بالمادة كما أن الدماغ حالة من المادة المتصلة بالقوة » (٤٩) .

لقد أثبت العلم أن التفكير يبنى على أساس مادي وما هو الا وظيفة يؤديها الدماغ الذي هو جهاز مادي ، كما برهن العلم على أن النفس الانسانية مرتبطة أوثق الارتباط بالجهاز العصبي الذي هو جهاز مادي كذلك ، بيد أن الدماغ لا يؤدي هذه الوظيفة على نحو متطور الا ضمن بيئة اجتماعية معينة ، كما أن نفس الانسان لا يمكن فهمها اعتمادا على الاعصاب والدماغ فقط ، انما لابد من معرفة الوسط الاجتماعي الذي نمت وترعرعت فيه ، فالدماغ والنفس ظاهرتان اجتماعيتان بالاضافة الى كونهما ظاهرتين ماديتين والملاحظ أن شبلي شمائل يقلل من أهمية

ماهو اجتماعي فكما أنه لايجوز التقليل من شأن ماهو اجتماعي كذلك لايجوز التعظيم مما هو طبيعي - مادي .

ويستمر شميل في تطوير فلسفته المادية بتوكيده على أن المعاني التي يكونها العقل مكتسبة ، آتية من المادة عن طريق الحواس ، « المعنى العقلي ليس الا تأثيرا ماديا أو صورة المادة المرتمسة في الدماغ كما ترتسم الصورة في المرآة » (٥٠) . لقد تصور شميل أن المعرفة انعكاس مرآوي تتم على نحو لا ضرورة فيه لنشاط فعال متطور تقوم به الذات الانسانية ، فالموضوع ينعكس في الدماغ كما تنعكس الصورة في المرآة ، ان هذا الفهم لكيفية تكوين المعاني والمعارف لدى الانسان مرتبط بتأثير المادية المتطرفة على وجه العموم ومادية بوخنر على وجه التخصيص في بلورة فلسفة شميل المادية .

### المادة والحركة ركنان أساسيان في فلسفة شميل المادية :

تجدر الإشارة الى أن قمة المادية تبرز في معالجة شميل لمقولة المادة التي نظر اليها كمقولة فلسفية لا كمقولة علمية ، فقد اعتبر شميل المادة أزلية غير قابلة للفناء والتغير ، دائمة الوجود ، قديمة ، وما يلفت الانتباه انه عالجهما على نحو متصل بمقولة القوة « الحركة » .

أكد شميل على الديمومة الوجودية لجوهر المادة واختلاف صورها ، « فالمادة لا تدثر الا من حيث الصورة فقط وأما من حيث الجوهر فهي دائمة » (٥١) . والموجودات متكونة منها ومتحولة عنها بقوة فيها ملازمة لها غير مفارقة لها ، والجدير بالذكر أن شميل نظر الى المادة والقوة « الحركة » على انهما غير منفصلتين ، فلا وجود للمادة بدون الحركة ولا وجود للحركة بدون المادة . « ان القوة والمادة لا تنفصلان البتة » (٥٢) . ولما كانت المادة لا تدثر ولا وجود للمادة بدون القوة ، فان العالم قديم ، فلا بداية مطلقة له ولا يعرف له نهاية ، والقوة لا تكتشف ولا تعرف الا بواسطة المادة . كما أن المادة لا تكتشف ولا تعرف الا بواسطة القوة ، وبناء على ذلك فان القول بوجود قوة خالية من المادة قول فارغ ولأساس له نظرا لان القوة صفة متصلة بالمادة وكل صفات المادة الاخرى كائنة فيها جوهريا ، اننا « لانعرف في عالم الطبيعة جوهرها فردا بلا قوة ، فهو انما يظهر بفعل القوة فيه تارة على صورة وطورا على صورة أخرى وآونة مركبا من أجزاء متشابهة وأخرى من أجزاء متباينة » (٥٣) .



## ولكن ماهي القوة ؟

القوة عبارة عن رباط قوتي الجذب والدفع الذي يتكفل بحفظ دقائق الجسم ويؤلف صورته ، ومن طريف القول ان مثل هذا التعريف للقوة أو الحركة نجده لدى ف. انجلز (٥٤) كما أن هيفل أشار قبل انجلز الى أن الدفع والجذب يمثلان جوهر المادة .

القوة اذن خاصية للمادة أو حالة من حالاتها أو هي الحركة . ويستحيل ادراك القوة بدون المادة كاستحالة البصر بلا عين أو الفكر بلا دماغ ، والتغيرات المادية التي تحدث في وضع الدقائق المولفة المادة منها والتي ندركها بحواسنا هي التي تدلنا على وجود القوة « الحركة » . ان اقتران المادة بالقوة قد جعل شميل ينظر اليهما على انهما واحد . والاختلاف في الظواهر هو اختلاف في الشكل ، في الصورة ، اذ أن الجوهر لا يتغير ، لا يختلف وكما أن المادة بلا بداية وبدون نهاية فان الحركة بدون بداية ونهاية كذلك . « فليس للحركة سبب سوى الحركة نفسها ولا واسطة لا يصلها الى الاجسام سوى الاصطدام ولا محول للحركة سوى الحركة المكتسبة » . « والحركة نفسها غير متلاشية كالمادة ومقدارها في الكون واحد كمقدارها الا أنها قابلة للتجول الى ما لانهاية له . . . » (٥٥) .

ان الجوامد والسوائل والغازات متحركة حركة باطنة شديدة .

صفوة القول : ان المادة والحركة غير منفصلتين « لان وجود المادة يقتضي الحركة ، كما أن الحركة تطلب المادة » (٥٦) .

المادة اضافة الى ماتقدم ، لاتنقص ولا تزيد ولا تتغير الا في الصورة ، فقد كانت ولا تزال وستبقى الى الابد ، فهي لم تظهر من لا شيء ولا تستحيل الى عدم .

يستخلص مما تقدم أن شميل أعار المادة والحركة أهمية كبرى ومن المعلوم أن الصراع بين الاتجاهات الفلسفية في تاريخ الفكر الانساني يدور حول الموقف من المادة ما أصلها ، ما مصيرها الى غير ذلك من التساؤلات التي يطرحها الفلاسفة ، ويمكن القول أن التصور الذي ساد في الاتجاهات المادية هو اعتبار المادة أساسا أوليا عاما أو جوهرًا للظواهر والموجودات كلها ، والتغير الذي يطرأ على الموجودات لا يصيب الجوهر انما يحدث في الصورة فقط ، فالصورة تتبدل والجوهر ثابت لا يتغير ، وشميل

لا يختلف عن كثير من الفلاسفة الماديين الذين عاشوا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، والجدير بالذكر أن معالجته للمادة والحركة معالجة فلسفية علاوة على أنها أقرب الى أن تكون جدلية من أن تكون ميكانيكية .

وما يستحق الإشارة هو أن النظريات الفيزيائية التي تم الوصول إليها في القرن العشرين مثل ميكانيكا الكم والنظرية النسبية والفيزيائية النووية قد قدمت المزيد من الدعم للحقيقة القائلة بوحدة المادة والحركة ، ان تبعية كتلة الإلكترون السرعة حركته وغياب الكتلة « الثابتة » لدى كوانتم الضوء ( الفوتون ) يثبتان عدم انفصال المادة والحركة ومصداقا لذلك يقول كيدرروف « وهكذا فان تغير صفات الإلكترون قد أصبح برهانا على الصلة التي لاتنفصل بين المادة والحركة والتي يعبر عنها في صورة تبعية كتلة الإلكترون لسرعة حركته » (٥٧) .

ان الفوتون لايمكن تجريده من الحركة أو تصوره بلا حركة ، وطالما أن الفوتون موجود ، فانه يتحرك بسرعة الضوء أي ٣٠٠ ألف كم/ثانية .

ومن الثابت حتى الان أن الضوء لايملك كتلة « ثابتة » وبكلمات أخرى : كتلة الضوء « الثابتة » تساوي صفرا ، فالضوء لا يوجد الا متحركا ، وهكذا فان القول بأن المادة لا توجد بدون الحركة والاخيرة لا توجد بدون المادة ليس اجتهادا فلسفيا مبنيا على التأمل والحدس انما هو حقيقة علمية مثبتة تتعمق مع تقدم المعرفة العلمية ، وبناء على ذلك فان موقف شميل من المادة والحركة ليس موقفا شائعا ، فهو لايزال صادقا من حيث الجوهر وله دلالة عصرية .

وفضلا عما تقدم فان الفيزياء المعاصرة أثبتت وجهة نظر شميل القائلة بأن المادة قابلة للتحويل الى مالانهاية له ، فقد ثبت أن لاوجود للحدود التي تفصل المادة عن الضوء فصلا مطلقا ، على أساس انهما نوعان مستقلان تمام الاستقلال من أنواع المادة ، فقد تبين أن جميع أنواع المادة المتحركة متصلة مع بعضها البعض ومتحولة بعضها الى بعض ، وأسطع مثال على ذلك تحول الضوء الى مادة والمادة الى ضوء .

وعلاوة على الذي ذكرناها أثبت العلم المعاصر أن المادة أو الطاقة لاتدثر ولا تستحيل الى حركة خالصة .

وهكذا نخلص الى القول بأن رأي شميل في المادة والحركة لايزال

رأيا لا يخالف حقائق العلم المتطور على الرغم من أنه رأي فيلسوف علم  
للعالم يعيش في القرن العشرين .

### مفهوم الحياة :

عند الحديث عن مفهوم الحياة لدى شبلي شميل لا بد من التوكيد  
على أن شميل يبلغ قمة أخرى في بناء فلسفته المادية علاوة على القمة التي  
بلغها عند معالجته لمفهومي المادة والحركة ، والجدير بالذكر أن الحياة  
موضوع طرح في الزمان الغابر ولا يزال يطرح على بساط البحث والتفكير  
الفلسفي حتى وقتنا الراهن ، فالحياة تبث كموضوع علمي كما أنها  
تعالج كمسألة فلسفة ، علاوة على أنها موضوع للاديان ، ويمكن القول  
أن كل انسان قد فكر في ماهية الحياة ونشأتها ومصيرها ولعل العلماء  
والفلاسفة أكثر الناس تفكيرا وتأملا في هذا الموضوع ، وشبلي شميل  
كفيلسوف علم لم يهجر هذا الموضوع بل بحث فيه بشيء من التفصيل  
العلمي والفلسفي ، يقول شميل : « الحياة حيرة العلماء ، والحيرة  
علة البحث ولذلك لم يمر عصر على الانسان الا وقام فيه يسأل : ماهي  
الحياة ومن أين أتت وكيف تولدت مسائل ثلاث مرتبط بعضها ببعض  
كلما أغلقت عليه من وجه قام يعالجها من آخر لعلها تفتح له وهو في كل  
العصور لم يزد بها علما عما قاله فيه ملتون الشرق أبو العلاء المعري .

والذي حارت البرية فيه ، حيوان مستحدث من جماد « (٥٨) .

وما يستحق التنويه ان المادة والحركة والحياة مفاهيم متصلة بعضها  
ببعض ولا يمكن الفصل بينهما في النسق الفلسفي المادي الذي يكونه شبلي  
شميل . الحياة صورة من صور المادة ، انها نوع من أنواع الحركة ،  
« والحركة حقيقة بينة تتحول الى كل القوى المعروفة وترد اليها كل  
القوى المعروفة : الحرارة والنور والكهربائية والمغناطيسية والحياة  
نفسها « (٥٩) .

ان أصل الحياة لا يختلف عن أصل سائر القوى الطبيعية ، كما  
انها متصلة بقوى الطبيعة المختلفة ومرتبطة بالمادة ذاتها التي هي أصل  
كل القوى . « فقوى الطبيعة من حركة الى حرارة الى نور الى كهربائية  
الى قوى حيوية الى غير ذلك من تحولات القوى مترابط بعضها ببعض  
ومتراطة بالمادة نفسها « (٦٠) .

ان الحياة نوع من الحرارة ، والحرارة نوع من الحركة ، والحركة صفة لازمة للمادة وام كل القوى ، وبناء على ذلك فان « الحياة حالة من حالات المادة أو كيفية من كفياتها خاضعة لنواميسها » (١١) . ومصداقا لهذا الرأي يؤكد عالم الاحياء المعروف ريجكوف على مايلي : « لا يوجد في عملية النشاط الحيوي ( نسبة الى الحياة ) شيء « فوق المادة » شيء لا يخضع لنواميس تطور المادة » (١٢) .

فكل ماهو عضوي وغير عضوي مكون من ذات العناصر المادية ويخضع لقوانينها التي لا تتبدل . « ان جميع الاجسام العضوية وغير العضوية مؤلفة من عناصر المادة وخاضعة لنواميسها التي لا تتزعزع » (١٣) . « ولا يوجد في الجسم الحي عنصر غير موجود في العالم المادي » (١٤) .

انه لثابت علميا ان قاسما مشتركا يوجد بين الاجسام الحية وغير الحية ، وهنا لا يختلف رأي شميل من الحقائق العلمية السائدة في علم الاحياء المعاصرة ، ويؤكد العالم ريجكوف ان « وحدة ظواهر الطبيعة الحية وغير الحية تكمن في أولا ان جميع الاجسام الحية وغير الحية تتكون من نفس ذرات العناصر الكيميائية وثانيا ان قانون حفظ الطاقة يسري في الطبيعة الحية وغير الحية » (١٥) . ان الصلة المتبادلة بين ماهو حي وغير حي تبرز في ان نفس المواد التي توجد في المعادن توجد في التكوين الكيميائي للاجسام الحية .

وبناء على ماتقدم فان الحي يأتي من غير الحي بقوة في نفس المادة بتعبير آخر : الحي صورة متطورة من صورة المادة ، والفاعل في الحياة هو القوى الفيزيائية والكيميائية ، أضف الى ذلك ان التولد الذاتي ممكن وأن جميع الوظائف البيولوجية مردها الى القوى الطبيعية وعليه فانه لا وجود لشيء اسمه القوة الحيوية ، هذا بالاضافة الى ضرورة تجميد الحياة من كل قوة فوق الطبيعة وحصرها في قوة المادة نفسها، وبما ان المادة لا تتلاشى والحياة صورة من صورها فان مواد الجسم الحي لا تتلاشى أيضا متى مات ولا شيء يدثر من القوى التي فيه ، ان الذي يحدث هو أن صورة الحي الميت تتغير كثيرا كما أن خاصته تتبدل أيضا ، ان الحي لا يموت ولا يموت بل يرد الى المادة ما استعار منها ثم يرقد في بذره عائدا من حيث أتى » (١٦) .

انه لجلي أن التطرف في فهم شميل للحياة قد بلغ حدا ما بعده حد .

فحياة الجماد لا تختلف عن حياة الانسان أو الحيوان أو النبات ،  
اذ كل الكائنات الحية وغير الحية تخضع لذات السنن ، « ولا يخفى أن  
الفاصل بين الحيوان والنبات يعتبر اليوم صناعيا لاحقيقيا . والظاهر أنه  
كذلك ايضا بين النبات والجماد » (٦٧) . ويردف قائلا : « نظر الفلاسفة  
الطبيعيون الى مواليد الطبيعة الجماد والنبات والحيوان فوجدوا أن  
استقلالها ليس مطلقا كما ترمي اليه مذاهب أهل النظر ، بل نسبي فقط  
بالنظر الى مقامها في سلم التحول والارتقاء فكما أنه ليس لها مواد مستقلة  
ليس لها كذلك قوى أو نفوس مستقلة » (٦٨) . ويستطرد قائلا : « ثم  
نظروا الى الانسان والحيوان فلم يجدوا الفارق الجوهرى الذي يفرق  
الواحد عن الآخر لاني تركيب جسمه ولا في جوهر عقله والفارق النسبي  
بينهما ليس بأعظم منه بين الحيوان والنبات ، وهذا والجماد بل بين أحط  
فروع الانسان وارقاها » (٦٩) .

يتأثر الحي بالاحوال الخارجية كما يتأثر الجماد بها ، والاختلاف بين  
الحي وغير الحي يكمن في الشدة والضعف ، فهما يفعلان وينفعلان على  
السواء وفقا لناموس المادة الاولى ، ألا وهو التكافؤ بين الفعل والانفعال .

ان تحلل الجماد يعني موته ، بيد أن الموت ليس النهاية ، فكل  
موت يتبعه بعث « فالموت كالتوليد نقطة على محيط دائرة لأول لها  
يعرف ولا آخر ليوصف » (٧٠) . وما ينطبق على الجماد يسري على الحي  
لا بل على الانسان كذلك ، « والطفل أو مايتكون يتبدى يموت » (٧١)  
ومرد ذلك الى أن « المادة متحولة ومتغيرة على الدوام فهي في تولد دائم  
وموت دائم وبعث دائم وذلك هو الحياة » (٧٢) .

صفوة القول : الانسان « كالحيوان متكون على نفس النواميس التي  
تكون بموجبها عالم الاحياء » (٧٤) . نظرا لان الاحياء كلها ذات أصل واحد .  
انه لواضح المنطق الذي يتبعه تفكير شميل في النظر الى الحياة .

انه منطق مادي محض لابل منطق مادي مبسط ميكانيكي لتمييز  
فيه بين الاعلى والادنى المركب والبسيط ، غير أن ذلك لايعني ان وجهة  
نظر شميل الى الحياة خاطئة في جوهرها ، انما الادق انها متطرفة للغاية .

فليس من شك أن الحي يمثل صورة معقدة ومنظمة من صور  
المادة ، فهو عبارة عن قفزة نوعية ، لم يدركها شميل ، في تطور المادة ،  
ولاشك كذلك في أن الحي من وجهة نظر علمية بيولوجية - لم ينبثق من

لاشيء ولايستحيل الى عدم ، فانبثاق الحي من عدم مطلق واستحالته الى  
لاشيء لايتفق وحقائق العلم المثبتة ، كما أن ليس ضللا القول بأن الحي  
نوع من الحركة ولايفهم بدون فيزياء وكيمياء لانه يسير - ضمن مايسير  
عليه - وفقا لقوانين فيزيائية وكيميائية ، فمثل هذا الكلام علمي خالص  
ولا غبار عليه . غير أن النظر الى الحي الى أنه لا يختلف كيفيا عن غير  
الحي هو نظر يتصف بالتطرف والتبسيط ، وبالتالي يحتاج الى تعديل  
وتطوير جذريين .

« ان الخصائص الكيماوية الفيزيائية للمادة الحية كثيرا ماتتفرد ،  
تتميز من الخصائص الكيميائية الفيزيائية للمادة غير الحية المعلومة لنا » (٧٥) .  
ويؤكد عالم كبير مختص في أصل الحياة هو ف.أ. ايغلفارديت على نفس  
الفكرة بقوله : « لا تتحقق في الانظمة الحية انماط من التحولات الكيميائية  
التي لاتصادف في العالم غير الحي على الاطلاق » (٧٦) .

وهكذا فان التصور الذي يقوم على أساس أن الحي لا يختلف  
كيفيا عن اللاحي هو تصور لايتفق والمستوى العصري لمعرفة الحي ، وهنا  
مكمن الخطأ الكبير الذي وقع فيه شبلي شمیل ، فالاجسام الحية تتميز  
من الاجسام غير الحية بالايض أي الدثور والتجدد وهو شرط لا بد منه  
للحياة ، والقدرة على التكاثر والنمو والضبط النشط لتكوينها ووظائفها  
والحركة باشكال مختلفة ، والتهيج والتكيف مع الوسط .

مجمل القول في هذا المجال أنه لايجوز فصل الحي عن غير الحي ،  
كما أنه ليس مقبولا علما احالة الحي الى غير الحي ، ومن الثابت تاريخيا  
أن انكار الخصائص التي تميز الحي من غير الحي يقضي الى ميكانيكية  
الموقف والتبسيط في المعالجة . ومن المعروف ان المادية الميتافيزيقية  
وشمیل أحد أنصارها - تنكر الاختلاف الكيفي بين المادة الحية وغير  
الحية . فرواد واتباع هذه المادية لايتصورون الحياة كظاهرة طبيعية -  
مادية ، كمرحلة ضرورية في تطور المادة ، لها خصائص نوعية تميزها  
كمرحلة خاصة للتطور في تسلسل صور حركة المادة .

أما النظر الى الانسان على أنه لا يختلف كيفيا ولا ماهويا ، ولا جوهريا  
عن الحيوان من جهة والجماد من جهة أخرى ، فانه يثبت أن شمیل لم  
يقدر أن يتصور أن الانسان كما يؤدي وظائفه على أساس التفاعل المتبادل  
بين صور الحركة الكيميائية والفيزيائية والبيولوجية الموجودة فيه في وحدة

لاتنفصل يكشف النقاب في الان نفسه عن ذاته على أنها شخصية تحوي أشكالاً اجتماعية للحركة .

صحيح أن العلم يثبت أن المواد التي يتكون منها جسم الانسان هي مواد موجودة في الطبيعة كذلك . بيد أن التنظيم الفيزيائي والتركيب العضوي للانسان يمثلان أعلى مستوى في تطور المادة ، ان الانسان ككائن بيولوجي يحتفظ بعلاقة وثيقة بعالم الحيوانات . ففي جسمه توجد كثرة من الخصائص المشتركة بينه وبين الحيوانات الفقرية ولاسيما الثديية ، وهو كجسم حي داخل في العلاقة الطبيعية للظواهر وخاضع للنواميس البيولوجية ( بيوفيزيائية وبيوكيميائية وفيزيولوجية ) .

ان التطرف الذي وقع فيه شميل مرده الى أنه لم يدرك أولاً ان الانسان يمثل القمة في تطور المادة الحية وثانياً ان الانسان ليس جسماً حياً فقط ، انما هو كائن اجتماعي كذلك ، فالانسان عبارة عن نظام حي يمثل وحدة ماهو فيزيائي وروحي ، ماهو طبيعي واجتماعي ، ماهو موروث ومكتسب . فالميل الطبيعية ( التشريحية - الفيزيولوجية ) لا تتطور ولا تتحقق الا في ظروف نمط اجتماعي معين ، ومن المؤكد ان حياة الانسان بمنظومه واحدة من الشروط التي لانفصال فيها بين العناصر البيولوجية والعناصر الاجتماعية ، والجدير بالذكر أن العناصر البيولوجية تؤدي دور الشروط الضرورية فقط بالنسبة لكيثونة الانسان الاجتماعية ، ولا يمكن أن تمثل القوى المحركة للتطور الانساني .

الذي تناولته في بحثي لا يمثل الا جزءاً ليس كبيراً من كل عظيم ، فلسفة شميل فلسفة شاملة ، طرق فيها الكثير من الافكار ، وحل فيها الكثير من المفاهيم . فهي تحتاج الى الكثير من البحث ، وما بحثي الا محاولة متواضعة لفهم بعض من عناصر فلسفة شميل المادية لا أكثر ولا أقل . وما يمكن قوله أخيراً أن الحكم النهائي على هذه الفلسفة لا يتم قبل أن تحلل العناصر الأخرى من فلسفته ، ومن ثم تتركب مع العناصر التي تناولتها بالعرض والتحليل حتى تتكون المنظومة الفلسفية التي بناها وركبها شبلي شميل ومهما كان اتفاقنا أو اختلافنا مع اتجاهه الفلسفي ، ومهما كنت على صواب أو خطأ في عرض وتحليل بعض من فلسفة شميل ، فان ما ينبغي قوله هو أن شميل شخصية فذة أهملت ، ولم تمنح حقها من التقدير والبحث .

وختاماً أرجو أن يكون هذا البحث فاتحة لمزيد من البحوث والدراسات لفكر وشخصية فيلسوفنا العظيم شميل .

## الحواشي

- (١) مارون عبود ، رواد النهضة الحديثة ، دار الثقافة ، بيروت - لبنان ، ١٩٦٦ ، ص ٢٥٥ .
- (٢) الاعمال الكاملة لجمال الدين الافغاني ، دار الكاتب العربي بالقاهرة ، ١٩٦٨ ، ص ٢٥١
- (٣) المصدر السابق ، ص ٢٥٢ .
- (٤) مقدمة الطبعة العربية الثانية ، أصل الانواع ، ت. داروين ، ترجمة اسماعيل مظهر ، منشورات مكتبة النهضة ، بيروت - بغداد ، ١٩٧٣ ، ص /٦/ .
- (٥) المصدر السابق ، نفس الصفحة .
- (٦) المصدر السابق ص ٦ - ٧ .
- (٧) نفس المصدر ، ص ٧ - ٨ .
- (٨) المصدر السابق ، ص ١٠ .
- (٩) سلامة موسى ، تربية سلامة موسى ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٤١ - ٤٢ .
- (١٠) المصدر السابق ، ص ٤٢ .
- (١١) نفس المصدر ، ونفس الصفحة .
- (١٢) المرجع السابق ص ١٥٠ .
- (١٣) نفس المرجع ص ١٩٦ .
- (١٤) نفس المرجع والصفحة .
- (١٥) نفس المرجع ، ص ١٩٧ .
- (١٦) نفس المرجع ، ص ١٩٦ .
- (١٧) نفس المرجع ص ١٩٧ .
- (١٨) أنيس الخوري المقدسي ، الاتجاهات الادبية في العالم العربي الحديث ، الجزء الثاني الطبعة الاولى ، بيروت ، ١٩٥٢ ص ٨٨ .
- (١٩) المرجع السابق ذات الصفحة .
- (٢٠) نفس المرجع ، ص ٩٢ .
- (٢١) رؤيف خوري ، الفكر العربي الحديث - اثر الثورة الفرنسية في توجيهه السياسي والاجتماعي ، دار المكشوف ، الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٧٣ ص ١٢١ .
- (٢٢) مارون عبود ، رواد النهضة الحديثة ، ص ٢٥٦ .
- (٢٣) الفكر العربي في مائة سنة ، بحوث مؤتمر هيئة الدراسات المنعقد في تشرين الثاني ١٩٦٦ في الجامعة الامريكية في بيروت ، بيروت ١٩٦٧ ص ٣٥٧ .
- (٢٤) المصدر السابق ، ص ١٣٤ .



- المرجع السابق ص ٤٥٤ (٢٥)
- نفس المرجع ص ٤٥٥ (٢٦)
- الجزء الاول من مجموعة د. شبلي شميل ، مصر ، ١٩١٠ ، ص٠ ج . (٢٧)
- المصدر السابق ، ص ٢٦ . (٢٨)
- نفس المصدر السابق ، نفس الصفحة . (٢٩)
- نفس المرجع ، نفس الصفحة . (٣٠)
- المرجع السابق ، ص ٢٦ - ٢٧ . (٣١)
- المرجع السابق ، ص ٢٧ . (٣٢)
- المرجع السابق ، ص ٢٤٨ . (٣٣)
- المصدر السابق ، ص ج . (٣٤)
- المرجع السابق ، ص ٤٨ . (٣٥)
- المرجع السابق ، ص ج . (٣٦)
- المرجع السابق ، ص ١٨ . (٣٧)
- ايفورسميرنوف ، الجدلية المادية ونظرية التطور المعاصرة ، موسكو ، ١٩٧٨ ، ص٤٣ . (٣٨)
- الفلسفة والبيولوجيا المعاصرة ، موسكو ، ١٩٧٣ ، ص ٢٣ . (٣٩)
- الجزء الاول من مجموعة د. شبلي شميل ، ص ٢٥ . (٤٠)
- المصدر السابق ، ص ١٥ . (٤١)
- المرجع السابق ، ص ٥ . (٤٢)
- نفس المرجع السابق ، ص ٢٦ . (٤٣)
- المرجع السابق ، ص ٣١ . (٤٤)
- المرجع السابق ، ص أ - ب . (٤٥)
- المرجع السابق ، ص ٣٧ . (٤٦)
- المرجع السابق ، ص ٤٠ . (٤٧)
- المصدر السابق ، ص ٢٧ . (٤٨)
- المرجع السابق ، ص ٥٠ . (٤٩)
- المرجع السابق ، ص ٢٣٢ . (٥٠)
- المرجع السابق ، ص ٤٠ . (٥١)
- المرجع السابق ، ص ٢٢٩ . (٥٢)
- المصدر السابق ، نفس الصفحة . (٥٣)
- ك. ماركس ، ف. انجلز ، المجلد ٢٠ ، موسكو ، ١٩٦١ ، ص ٥٥٨ - ٥٥٩ + ص٣٥٩ . (٥٤)
- الجزء الاول من مجموعة د. شبلي شميل ، ص ٢٧٦ - ٢٧٧ . (٥٥)
- المصدر السابق ، ص ٢٧٧ . (٥٦)

- (٥٧) م.ب. كيدرروف ، المادية الجدلية حول الاكتشافات المعاصرة في مجال بناء المادة ، موسكو ، ١٩٥٤ ، ص ١٤٠ .
- (٥٨) الجزء الثاني من مجموعة شبلي شميل ، مصر ، ١٩٠٨ ، ص ١٠ .
- (٥٩) المرجع السابق ، ص ٦٥ .
- (٦٠) الجزء الاول من مجموع د. شبلي شميل ، ص ٢٦٧ .
- (٦١) المصدر السابق ، ص ٣١٩ .
- (٦٢) الموسوعة الفلسفية ، المجلد ٢ ، موسكو ١٩٦٢ ص ١٣٢ .
- (٦٣) الجزء الاول من مجموعة د. شبلي شميل ، ص ٣٢٠ .
- (٦٤) المصدر السابق نفس الصفحة .
- (٦٥) المصدر رقم (٦٢) ص ١٣٣ .
- (٦٦) الجزء الثاني من مجموعة د. شبلي شميل ص ٦٤ .
- (٦٧) المصدر السابق ص ٥١ .
- (٦٨) المرجع السابق ص ٢٨٠ .
- (٦٩) نفس المرجع نفس الصفحة .
- (٧٠) الجزء الاول من مجموعة د. شبلي شميل ، ص ٣٣٩ .
- (٧١) المرجع السابق ، نفس الصفحة .
- (٧٢) المصدر نفسه ص ٣٣٨ .
- (٧٣) المرجع السابق ، ص ٤٠ .
- (٧٤) نفس المرجع ص ٢٥٥ .
- (٧٥) ن.ن سمينوف ، حول العلاقة بين الكيمياء والبيولوجيا ، مجلة « مسائل الفلسفة » ، موسكو ، ١٩٥٩ ، العدد ١٠ ص ٩٥ .
- (٧٦) ف. أ. اينفلاردت ، « مسألة الحياة في العلوم الطبيعية المعاصرة » ، مجموعة دراسات « لينين » والعلوم الطبيعية المعاصرة ، موسكو ، ١٩٦٩ ، ص ٢٧١ .

## النباتات الطبية من خلال مخطوطة لعنزي

### الدكتور سامي خلف حمارنة

( معهد سميثونيان ) واشنطن

لقد صدرت عدة كتب في اللغة العربية في موضوع الفلاحة ابان حضارة الاسلام الزاهرة تتمشى مع تقدم المعرفة في العلوم الزراعية وازدياد العرض والطلب لكافة المحصولات الفلاحية . لقد استفاد العرب من حضارات الشعوب المتقدمة وأضافوا الكثير على خبراتهم ومهاراتهم (١).

فمثلا كتب اللغوي عبد الملك بن قريب الاصمعي ( ١٢٢ - ٢١٤ / ٧٤ - ٨٢٩ ) كتابا في النبات والشجر وقد طبع كتابه هذا في بيروت سنة ١٩١٤م وظهر بعده **كتاب النبات** للدينوري حاويا الكثير من المعلومات القيمة لاسيما عن المنتجات الزراعية في بلاد العرب (٢) . انما أكثر كتب هذه الحقبة انتشارا كان كتاب الفلاحة النبطية لابي بكر بن وحشية أكمله حوالي سنة ٢٩١هـ/ ٩٠٤م ويبدو أنه ظهر بحلته المعروفة لدينا بخط أحمد ابن الحسين الزيات وانشائه . وقد استفاد من هذا الكتاب كثير من المؤلفين اللاحقين (٣) .

وفي منتصف القرن الخامس/الحادي عشر أتم أبو الريحان البيروني مسودة كتابه **الطب في الصيدنة** وتوفي سنة ١٠٥١ م قبل أن ينقحه وفي هذا المؤلف وصف رائع ومفيد لكثير من النباتات الطبية وأسمائها في عدة لغات وذكر لمواطنها وأوصافها الطبيعية وأجناسها وأحوالها (٤) .

وفي عصر الاسلام الزاهر في الاندلس كتب الكثيرون في هذا الموضوع، وفي طليعتهم الطبيب والجراح العربي أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوي في كتابه **التعريف لمن عجز عن التأليف** الذي يخصص فصولا هامة في المفردات الطبية وقد أكمله في نهاية القرن الرابع/العاشر (٥) . أما الغافقي والشريف الادريسي فقد خصصا كلا منهما كتابا مستقلا في وصف المفردات النباتية الطبية وأفعالها مع ذكر أماكن زرعها واستثمارها . وكان ضياء الدين ابن البيطار المالقي العشاب من الاندلس أصلا ولكنه أكمل كتابه الجامع لمفردات الادوية والاغذية في بلاد الشام (٦) .

وهناك كتابين في الفلاحة قد لعبا دورا هاما في تطورها ليس في البلاد الاندلسية فقط بل في العالم العربي بأجمعه أولها والاكثر أصالة هو من تأليف أبي عبد الله محمد بن البعال والثاني لابي زكريا يحيى بن العوام . وجدير بالذكر أن التقدم العلمي في الحقل الزراعي استمر حتى في بلاد اليمن السعيد ولاسيما أيام حكم الدولة الرسولية التي اهتم ملوكها بهذه المهنة المباركة (٧) . وفي صدر أيام الدولة العثمانية بزغ نجم أبو الفضل رضي الدين الغزي العامري الدمشقي الذي نستطيع أن نعتبره من أكثر من ألفوا في هذا الحقل أصالة فكأنه امتلك حقلًا في غوطة دمشق الفيحاء فحوله بحسن عمله واجتهاده وخبرته العلمية الى بستان مزدهر بأنواع الاشجار والخضراوات ومن خلال تجاربه الفنية وضع كتابه الحاوي أجمل ما كتب في العربية في هذا الموضوع .

### ترجمة المؤلف :

ولد محمد بن محمد بن أحمد بن عبد الله رضي الدين الغزي العامري الشافعي القرشي في العاصمة السورية سنة ١٤٥٧/٨٦٢ لذلك سمي بالدمشقي ولكن أجداده قدموا من مدينة غزة الفلسطينية لذلك استمر يحمل كنية الغزي . ويخبرنا حفيده نجم الدين في **الكواكب السائرة** أن رضي الدين قد فقد والده وهو صغير فربي في منزل الشيخ زين الدين الخطاب بن عمر الغزاوي وكان آنذاك شيخ الشافعية بدمشق . وقد أظهر رضي الدين منذ صغره اهتماما بالعلوم بالاضافة لتوقد ذهنه وعلوهمته . فانكب على الدرس والتحصيل واعتنق مبادئ الصوفية ودخل شابا في زاوية عين اللؤلؤة خارج دمشق للدرس والتأمل والعبادة . وانا نعرف أساتذته وشيوخه وهم خيرة من كان يدرس بدمشق في كافة العلوم العقلية والدينية واللغوية . وتعين قاضيا أكثر من مرة زمن السلطان سليم خان (٨) . ومن خلال كتابه في الفلاحة نعلم أنه زار فلسطين ومصر والبلاد المقدسة للحج حيث درس نباتات هذه الانحاء وعرف الكثير عن مزارسها وأحوالها بالمشاهدة الشخصية . ومن خلال هذه الاختبارات الفريدة قدم هذا المؤلف معلومات قيمة في علوم النبات والزراعة ومعرفة العقاقير وتأثيراتها . ففي كتابه لانجده جماعاً لما قال من سبقه في هذا الموضوع بل العالم المدقق الذي يسجل اختبارات وما رآه عيناه وحققه بنفسه في بستانه في ربوع الشام الجميلة . فهو مثلاً قلما يشير الى عالم الحشائش المدعو « بديسقوريدس » والطبيب الفيلسوف جالينوس

أو يقتبس مما كتبه الرومان والفرس والانباط بمقدار ما يشير الى ملاحظاته الشخصية وطرقه في البحث والادارة ومهنة البستنة التي اشتهر بها أهل هذه الانحاء وعرب الاندلس أيضا (٩) .

وعنوان كتابه الذي نحن بصدده هو كتاب **الملاحة في علم الفلاحة أو جامع الملاحة في جوامع فوائد الفلاحة** ومنه نسخة في المكتبة الظاهرية وأخرى أقدم وأكثر دقة في المكتبة البريطانية عثرت عليها قبل سنين في أثناء دراستي لمخطوطات تلك المكتبة . ويبدو أن كتاب **جامع الملاحة** هذا قد نال اعجاب القراء آنذاك فيختصره لأول مرة عبد الغني بن اسماعيل النابلسي ( ١٠٥٠ - ١١٤٣ / ١٦٤٠ - ١٧٣١ ) ثم محمد بن عيسى بن محمود ابن كنان بعده . ثم ان مختصر النابلسي قد اختصره أيضا عبد القادر الخلاصي دليل الشهرة الواسعة لهذا الكتاب بين الفلاحين (١٠) .

### أهمية ومحتويات جامع الملاحة للغزي :

يذكر المؤلف أهدافه من هذا الكتاب ومجمل محتوياته بشكل فهرسة لابوابه وفصوله في مقدمة الكتاب اذ يقول : « الحمد لله الذي فتح خزائن الارض بمفاتيح رحمته وزين سماء رياضها بمصاييح حكمته . . . . وبعد فهذا كتاب يقول في علم الفلاحة عليه ويرجع في عمارة الارض اليه حيث اشتمل على بديع شؤون الملاحة في صنيع فنون الفلاحة من كل تركيب عجيب وتطعيم غريب وتوليد وتشكيل وتحسين وتجميل وعلاج علل الارضين والنبات ودفع سائر الافات ووضع مايفرس ويزرع في ابانه بالنسبة الى زمانه ومكانه ومعرفة التلقيح والتذكير والكسح والتشمير وحرث الارض وقلبها وكيفية زرعها ونصبها وتعميرها بما يناسب من الازبال والارمدة والاتبان وترتيب السقي في سائر الاحيان ومايسقى بالامطار وحفر الابار والانهار وصفات العمال في جميع الاعمال ووضع الطلمسات وادخار الفواكه والاقوات وامارات الخصب وعلامات الجذب وغير ذلك من المنافع والفوائد والنوادر والملح والفرائد وسميته جامع فرائد الملاحة في جوامع فوائد الفلاحة . . . . وقد رتبت هذا الكتاب على سبعة أبواب :

### الباب الاول :

في الارض وفيه ثلاثة فصول . الاول في معرفة أنواعها والجيد منها والردىء ومايصلح منها للنبات ومايصلح منها . الثاني في حرثها وافلاحها

وقلبها واصلاحها . الثالث في تعميم الارض بالزبل والارمدة والاتبان وما لا يحتاج الى ذلك من أنواع النبات وما لا يحتمله .

### **الباب الثاني :**

في السقي وفيه ثلاثة فصول . الاول في حفر السواقي والابار ومعرفة استنباط الماء من الارض . الثاني في كيفية السقي وما يحتمله منه الكثير والمتوسط والقليل وما لا يحتمله . الثالث في معرفة ما يسقى بالامطار ومعرفة حال السنة في كثرة المطر وقلته .

### **الباب الثالث :**

في الاشجار وفيه ثلاثة فصول . الاول في معرفة الفراس وقوانينها والكيفيات بقول كلي . الثاني في كيفية غرس كل نوع من الاشجار على انفراده ومنافعه وما يختص به . الثالث في تقليم الاشجار وتشميرها وكسحها وما لا يحتمل ذلك منها وفي تذكيرها وتحسين حملها وحفظه .

### **الباب الرابع :**

في أنواع التراكيب وهو أحسن الابواب وأعجبها وفيه أربعة فصول ، الاول في أنواع التركيب وضروبه ، الثاني فيما ينشأ بعضه في بعض مما يظهر له أثر . الثالث في الاشجار المتحابة والمتنافرة والمتوافقة والمتضادة وعلاج عللها ودفع ما يضر بها . الرابع في تشكيل الفواكه وغيرها واكتسابها المنافع الغريبة والصفات العجيبة .

### **الباب الخامس :**

في الحبوب المقتاتة وغيرها والبزور واختيارها وزرعها وحصادها وفيه ستة فصول . الاول في وقت زرع كل منها وفي حصاده واختيارها وما يوافقها من الارض وما يحفظه . الثاني في ذكر الحبوب المقتاتة ومنافعها على التفصيل . الثالث في زراعة المنابت ذوات البزور المستعملة في الاطعمة وبعض الادوية . الرابع في البقول ذوات الاصول المستعملة . الخامس في البقول المقاتي وما أشبهها مما يثمر في رؤوس قضبانه . السادس في أصناف الرياحين والاحباق والزهور ونحوها .

### **الباب السادس :**

في طلاسم ودخن وخواص وملح ومعرفة الايام والشهور والفصول وأحوال السنة وفيه ثلاثة فصول . الاول في الطلاسم ونحوها . الثاني في

الدخن والخواص العجيبة . الثالث فيما يعلم به حال السنة من غلاء الحبوب ورخصها والايام والشهور والفصول .

### ألباب السابع :

في ادخار الحبوب والبزور والفواكه اليابسة والطرية والقطاني وبعض الخضراوات والعصير والخل والمخللات والملوحات والخمير والورد وماء الورد في خمسة فصول . الاول في ادخار الفواكه ونحوها الرطبة واليابسة . الثاني في ادخار الحبوب المقتاتة والبزور والزرايع وبعض الخضراوات . الثالث في المخللات والملوحات والكوامخ والمسرى والفحنا والعلص والخلول وعصير العنب والدبس والزيت . الرابع في ادخار الورد وملحه وماء الورد الطيب ونحوه من المياه العطرة وزوال عللها وحفظها وكيفية استخراجها . الخامس في فوائد منثورة وفرائد ماثورة بها يتم الكتاب (١١) .

وتوجد في هذه الفصول ملاحظات شخصية هامة ونظريات أصيلة تستحق الذكر . فمثلا يؤكد فيها أن « النبات جسم يخرج من الارض ويفتدي وينمو وأن له نفسا أمدت بسبع قوى : الاولى وهي القوة الجاذبة اذ تجذب عصارات الاركان الاربع ( الماء والهواء والنار والارض ) وتمص لطيفها وما فيها من الاجزاء المشاكلة لذلك النوع من النبات . الثانية القوة الماسكة . . . تمسك ماجذبتة من العصارات اللطيفة المشاكلة . الثالثة القوة الهاضمة . . . تهضم تلك العصارات وتصيرها كيموسا مناسبا لبنائها . الرابعة القوة الدافعة وهي التي تدفعه الى الاعماق ( أعماق ذلك النبات وأطرافه ) والخامسة القوة الغازية وهي التي تمده بالغذاء من ذلك الكيموس والسادسة القوة المصورة وهي التي تصور كل نوع من النبات بشكله ومقداره في عروقه وعيدانه وأوراقه وزهره وثمره وبزره وسائر صفاته من ألوانه وأكوانه . والسابعة النامية وهي التي تنميها بالزيادة في أقطارها الى غايتها . « ثم ينتقل الى تقسيم المملكة النباتية فيقول : « ينقسم النبات الى شجر ونجم فالشجر ما يقوم على ساق والنجم ما لا يقوم على ساق بل يمتد على وجه الارض أو يتعلق بالشجر . « ثم يضيف ، « وللنبات علل أربع : علة فاعلية وهي قوى النفس الكلية وعلة هيولائية وهي النار والهواء والماء والتراب وعلة غائية وتسمى التمامية أيضا وهي كونه من أجل الحيوانات ( ليكون لها ) غذاء ونفعا . وعلة صورية وهي تشكل كل نوع على صورته في جميع صفاته » وهذه نظريات قيّمة في التكوين وحدّ أنواع المخلوقات . لذا يتابع المؤلف حديثه قائلا « والشجر التام الكامل

ماله تسعة أجزاء وهي الاوصل والعروق والقضبان والفروع والورق  
والبزور والثمار واللحاء والسمع والناقص مانقص منه شيء من ذلك . «  
ويتأمل المؤلف عظمة الطبيعة ولايدعه تدينه الى الاعتراف بحكمة وجبروت  
الخالق اذ يضيف ، « وأعلم أن النبات فيه صنائع ظاهرة جلييلة عجيبه  
لاتخفى على ذي عقل وضائع باطنة خفية محتجبة عن الابصار تسميها  
الحكماء القوى الطبيعية وتسمى بلسان الشريعة الملائكة جنود الله الموكلون  
بتربية النبات والحيوان وتكوين المعادن . . . أو النفوس الجريئة . . .  
والصانع المبدع الحكيم هو الله في الحقيقة . وأعلم أن المصنوع المحكم  
يدل على الصانع الحكيم . واذا تأمل العاقل أحوال النبات في فنون  
أشكال أصوله وفروعه وامتداد عروقه في الارض وتنوع أغصانه وتقطيع  
أوراقه وأشكاله وألوانه وألوان أزهاره واختلاف روائحه وصور حبوبه  
وثماره وطعومه ومنافعه ومضاره وطبائعه وخواصه الى غير ذلك مما أودعه  
الله تعالى فيه من العجائب والغرائب ومافيه من القوى علم علما ضروريا  
بأن لذلك فاعلا مختارا فان العقل يشهد بأن الاركان الاربعة المتضادة مع  
القوى المتنافرة الطباع لاتجتمع ولاتألف ولاتصير على هذه الاوضاع  
والاوصاف المذكورة الا بقصد من حكيم قادر » . ويحلل نظرية التطور هنا  
بقوله ، « واعلم أن أدون مراتب النبات يماثل المعادن الكمأة وخضر الدمن  
وليس هي شيء سوى غبار يتلبد على الارض والصخور ثم يصيبه ندى  
الليل فيصبح بالغدوات خضرا كأنها حشائش أو زرع فاذا أصابها حر  
الشمس نصف النهار جفت ثم تصبح من الغد خضراء من نداوة الليل  
وطيب النسيم ولاتنبت كذلك الا أيام الربيع في البقاع المستجادة وكذلك  
الكمأة لاتنبت الا في الربيع وهي معدني نباتي وتلك نبات معدني وأعلى  
مراتب النبات مما يلي الحيوان النخل ونحوه ويسمى نبات حيواني فان  
القوة الفاعلة فيه منفصلة من القوة المنفصلة بالتذكير والتأنيث وكذا التين ،  
وليس كذلك كل النبات . وأعلم أن من النبات ما فعله فعل النفس الحيوانية  
كالكشوت فانه نبات يفتدي وينمو وليس له أصل ينبت في الارض ولاله  
ورق بل هو شيء يلتف على الاشجار والزرور والشوك ويمتص منها  
ويفتدي ويأكل ويقرضها وسائر النبات بينهما فأخر النباتية أول الحيوانية  
وآخر المعدنية أول النباتية كالمرجان والبسد وأدون مراتب الحيوانية  
الرخابة واحدة كالحلزون وديدان الطين ويقال له حيوان نباتي وليس  
له من الحيوان الا حس اللمس لاغير وكذلك النبات له اللمس والدليل



على ذلك ارساله عروقه نحو النهر والمواضع الندية وامتناعه من ارسالها نحو اليبس والصخور القاحلة وكذلك أيضا متى اتفق نبتة في موضع ضيق الجانب مال وعدل عنه طالبا الجانب الفسيح والسعة . . . وهذا يدل على ان له نفس وتمييز بقدر الحاجة كما تقرر في رسائل اخوان الصفاء . . . وليس للنبات حس الالم لانه ليس له حيلة للدفع عنه بالفرار أو التحرز كالحيوان . وأعلى مراتب الحيوانات مرتبة الانسانية وأدونها مما يلي الحيوان مرتبة الذين لا يعلمون الا المحسوسات ولا يطلبون الا اصلاح الاجساد ولا يرغبون الا في الدنيا . . . ولا يتلذذون الا بشهوات الاكل والشرب والجماع كالبهائم والحمير والخنازير ولا يحرصون الا على متاع الدنيا المضمحل الفاني . وأعلى مراتب الانسانية مما يلي الملائكة من شرق عن الجهالات والرذيلة والتحلي بالعلوم والمعارف الجليلة . « (١٢) .

### النباتات الطبية في جامع الملاحه :

يستهل الغزي حديثه في وصف الارض الطبية خاصة الحارة الرطبة السوداء وكيف أن الشمس والهواء يصلحانها « ولذلك تقلب الارض اذا أريد انشاء الغراس فيها ، واعدادها للامطار ثم للغرس ، والسماذ ويذكر نفع ورق الكروم واللوز والجوز والزيتون والفسق والخرع في اصلاحها وتعميرها الاراضي ، المالحة والتي ليست بمالحة بأنواعها . ويذكر حفر الابار ومواقعها ومتى يكثر الحر والمطر في سنة ما لاكثر الزرع أو تغليله وأمر الرياح وطريقة الغرس والحفر واختيار الانواع وفي كيفية غرس كل نوع من الاشجار على انفراده وما يختص به ومنافعه كالزيتون والغار والآس والخروب وغيرها .

أما الباب الرابع من الكتاب فيوليه الغزي انتباها أخرى مما يثبت انه هو نفسه كان خبيرا بمحتواه بالتجربة والممارسة المستمرة اذ يعتبر التركيب أحسن الابواب وأعجبها فيصف التطعيم والاضافة والانشاب ويعرفها والآلات المستعملة في ذلك مع رسوم تصور طريقة العمل كتركيب الشق فيما كان لحاؤه من الشجر غليظا كالزيتون والمنشار والعود المستعملان ، والانبوب والرقعة في تطعيم الفاكهة وتوصية الغزي باستعمال رقعة من ألوان مختلفة في غصن واحد فتعطي الشجرة أثمارا مختلفة الألوان أيضا ، ثم يذكر تلقيح النوى والحبوب في أنواع المنابت كالفرصاد والعنصل والعوسج والخطمي والتين والسوسن والحديث فيه شيق وذو أهمية كبرى .

ويضع الغزي قوائم للأشجار المتحابة كالكرم والزيتون والقرع والبشم الابيض والتي تآلف بعضها فيكثر حملها كمجاورة الآس والرمان والتفاح والكمثرى والتي بغير ذلك . ثم يذكر الامراض التي تعرض للنباتات وطرق معالجتها في أسلوب واضح ومفيد . ويبحث أنواع الأتربة وأي النباتات توافقها وأزمنة الزرع والحصاد والجمع والخزن . ثم يعدد أنواع الحبوب المقتاتة وما يخبز منها كالحنطة ( القمح ) والشعير والحمص والفلو والعدس والجلبان واللوبيا والحلبة والقرطم والكتان والقنب وما يستفاد منها في الغذاء والدواء ومنافعها ومضارها(١٢) .

وفي أسلوب الغزي الواضح الواقعي لأنواع النباتات ووصف أحوالها وأنواعها وطرق نموها ومدة حياتها وطريقة زرعها واستثمارها يعطى الكثير من الفوائد والتفصيلات الجادة الدقيقة مما يخوله بحق أن يحسب بين عظماء كتاب عصره في هذه المواضيع . وله تحليلات صادقة لأنواع الغذاء والدواء مما هو ذو نفع في تاريخ الصيدنة والمداواة فاسمعه يصف الخشخاش فيقول : « منه الابيض والاحمر والازرق والاسود وزهره ابيض واحمر توافقه الارض المدمنة والمودكة ويزرع ويزبل بزبل معفن ووقت زرعه في أول كانون الثاني الى شباط ويزرع كالأحباق وتحرك معه الارض ثم يسقى سقيا لينا مرة أو مرتين فاذا نبت يقطع الماء عنه . . . ويزرع في الارض التي يخالطها رمل وفيها رطوبة . . . والابيض قد يطحن ويخبز منه خبز يترك فيغذى البدن مع الحلو ولا يأكله شيخ البتة ولا البارد المزاج وكثرة أكله تثقل الرأس وتكثر النوم والسبات ولا يقرب البري منه في حال من الأحوال البتة فان فيه سمية . . . وهو منوم يضر بالرئة وقشره أشد تنويما من بزره . . . والخشخاش الاسود وهو البري المصري وأجوده الحديث الرزين وخاصة زهره أن يجلو آثار القروح من أعين المواشي ويستعمل الخشخاش الاسود في وجع العين اذا اشتاد عند الضرورة اليه على خطر فيه وهو نافع من شدة حرارة الكبد وقدر ما يؤخذ منه دانقان وهو مخدر منوم . . . وعصارتة هي الأفيون وأجوده الكثيف الرزين المر القوي الرائحة السهل التحلل في الماء الحار وينحل في الشمس ولا يظلم السراج اذا اشتعل منه ويكون هشاً وأما الأخضر الغفيف الرائحة الصابغ للماء الصافي فانه مغشوش(١٤) » .

ويذكر أيضا زراعة المنابت ذوات البزور المستعملة في الاطعمة وبعض الادوية « فمن ذلك الكمون منه بري ومنه بستاني وكل أصناف الاسود

اللون والاصفر الفارسي والنبطي الموجود كثيرا وهو الشامي والكرماني والاصفر أقوى من الشامي ومن البري صنف يشبه بزره بزر السوسن وأجوده الحدث . والكرماني منه أقوى من الفارسي . . . وكل يزرع سقيا وبعلا توافقه الارض الحرشا والرملية والحمراء الهندية والسوداء الرمادية ولاتوافقه القوية الغليظة لانه يحترق فيها . . . ولا يحب الاشجار ولا القرب منها ولا يسقى كثيرا . . . ويزرع في كانون الثاني وفي الدفيئة في آذار بعد تقدم عمارة الارض وتزليلها . في هواء طيب مع سكون ريح . . . وهو يدمل الجروح ويقطع الرعاف مسحوقا مع خل ويمضغ مع ملح « (١٥) . ويكثر الغزي من ذكر الافعال الدوائية للنباتات مثلا « الشونيز ويسمى السيستنب من بستانى ومنه بري والبري نوعان أحدهما كالبيستاني الا أن بزره أسود أغبر والثاني شونيز الحنطة وهو حب مدحرج أسود خشن والشونيز هو الحبة السوداء توافقه الارض التي توافق الانيسون وهي الزمنة والمودكه والرطوبة والحرشا ولاتوافقه الخشنة وزرعه في شباط وآذار ونيسان . . . مقطوع للبلغم جلاء محلل للرياح والنفخ ويقطع التآليل والخيالن والبهق والجرب وينفع من الزكام البارد وخصوصا مقلوا مجعولا في خرقة كتان ويطلّى على جبهة من به صداع بارد . . . وقدر ما يؤخذ منه درهم « (١٦) .

أما عن البنج فيقول : « ينبت لنفسه كثيرا في الارض الصلبة المحجرة وفي الدمنة . . . وهو ثلاثة أنواع أسود وأحمر وأبيض وزهر الاسود ارجواني وزهر الاحمر أصفر وزهر الابيض أبيض والابيض رطوبته دهنية وهو أجودها وأسلمها وهو الذي يجوز استعماله . . . ولايجوز استعمال الاسود بحال . . . وهو يخدر يقطع نرف الدم وقوة بزره شبيه بقوة الافيون ينفع من نفث الدم المفرط ويسكن الاوجاع الغربانية بتخديره كوجع النقرس طلاءا وشربا قدر ثلاثة قراريط بماء العسل وعصارته تنفع وجع الاذن ومع دهن ورد وخل لوجع الاسنان . . . وهو يفسد العقل ويسبب ويبطل الدهن ويحدث جفافا وجنونا وورم اللسان وخروج زبد من الفم وحمرة عين وضيق نفس وغشاوة في العين ويداوى من سقي منه بالقيء بالماء الحار والدهن والعسل وتنظيف المعدة منه ثم يسقى اللبن الحليب والمرق « (١٧) .

ويستطيع القارىء أن يتلمس اصالة الغزي في أبحاثه حين يذكر أنواع النبات الواحد وأوصافه الطبيعية وأشكاله كحديثه عن السوسن :

« أربعة أنواع مازهره أبيض ومازهره أسود ومازهره أصفر ومازهره لون السماء ويعمل في الارض أصولا وبعضها مستطيلا والسوسن الابيض الكسروي أصوله بصل كثير الاسنان كالثوم ويسمى الزنبق ويفرس بصله في أيلول ويوافق السوسن الابيض الارض الرخوة والحلوة والمودكه والدمنة الرقيقة والملائمة ولاتوافق الارض الغليظة . . . ويفرس بصله في البساتين في المواضع التي لاتحرقها الشمس ، الظليلة وعند السواقي وغرسه في أيار عند تمام زهره ورجوع مادته الى أصله ويفرس أيضا في أيلول وتشرين الاول بان تحفر له حفائر عمقها شبر على قدر البصلة ويجعل فيها زبل بستاني وتفرس البصلة ويرد عليها التراب وبين كل بصلة وأختها ثلاثة أشبار . . . ويسقى في الجمعة مرة مدة الحر وبعض الخريف ويقطع سقيه في البرد وينور عام غرسه . والسوسن القبطي يأتي نواره في آب ويفرس بصله في تشرين الاول وان أحببت تكثير السوسن الكسروي فاغرس بصلاته مفرقة . . . وتنقل في فصل الربيع الى أحواض معمورة مطيبة بزبل كثير ويغذى بغلظ اصبعين من التراب ويسقى بالماء مرتين في الجمعة حتى يصير بصلا ويزهر في العام الثالث وهي اذا كثرت وتضاعفت فتقلع أو يقلع بعضها ويترك منها في المواضع على قدر ما يكفيها واذا دفنت قضبانها مجتمعة تحت سير من التراب في أرض ظليلة بحيث لا يصلها شمس كثيرا فانه يصير تحت كل ورقة منها بصلة في فصل الخريف فينقل ويفرس . . . ويقطر مأؤه كما يقطر ماء الورد . . . وان جعل معه في قرعة التقطير قسط مرضوض ( أو كافور ) اكتسب مأؤه من ذلك رائحة عجيبة ( ذكية جدا وطيبة ) وأطيبه الذي زهره أبيض وبعده الاسمانجوني ويتطبب بمائه الناس . . . ودهن السوسن لطيف لدهن الياسمين . . . يقوي الاعضاء وينفع من الاعياء وينفع المشايخ وأمراض العصب الباردة وقروح الرأس ودوي الاذنين وهو ترياق من سقي البنج أو الكزبرة أو الفطر وينفع من أوجاع الرحم » (١٨) .

ومثل آخر حول القصب نوره في هذا البحث المقتضب ليزيد الايضاح حول أهمية كتاب الفزي ووصفه الدقيق للنباتات وأجزائها وزمن زرعها والعناية بها ثم الاستعمالات الدوائية التي يستفاد منها . والجدير بالذكر أن المؤلف لا يستفيض ، كغيره من مؤلفي هذه الحقبة ، بنقل أقوال الذين سبقوه ، بل يدون مشاهداته الخاصة كمن قام بالزراعة والعناية بنفسه وهو يقرر اختباراته بصدق ودقة وجدية مما يجعل كتابه فريدا

من نوعه في زمانه . يقول الغزي في القصب في طريقته الخاصة من التعريف والوصف الهادىء الرصين : « منه الحلو ( هو ) قصب السكر تفرس أصوله في عشرين آذار ويتخذ من قصبه ومن أصوله وتعمر الأرض له عمارة جيدة في ثرى طيب . . . توافقه الأرض المطمئنة الشمسية بقرب الماء ويزبل بزبل كثير طيب رقيق معفن وتقطع الأرض أحواضاً كل حوض اثني عشر ذراعاً وعرضه خمسة فيقلع أصوله ويحفر لها بقدرها وتترك فيها وترد عليها التراب والرمل غلظ ثلاثة أصابع ويباعد عنها قدر ذراع ونصف ثم يسقى الماء كل رابع . . . ثم كل ثمانية أيام مرة إلى أول تشرين الأول ثم لا يسقى فيه ولا بعده فان سقى نقصت حلوته . . . وعمر القصب الحلو ثلاثة أعوام ويعمل منه السكر ، وصفته أن يقطع القصب إذا كمل وطاب . . ثم يقطع قطعاً صفاراً ويدرس في المهارس جداً أو بما يشبهها ويعصر بالمعصرة ويرفع العصير على النار في مرجل نظيف ويفلى ثم يترك ويصفى ثم يعاد إلى الطبخ حتى يبقى منه الربع ثم تملأ منه قوالب معمولة من فخار على هيئتها ويثقب أسفل كل ظرف بعد أن يبرد ثلاث ثقب ويجعل على شيء كالسلم مبطوحاً ويجعل تحته ما يجري إليه ويكون في موضع دفيء . . ليخرج عسله . اتركه فيه أسبوعاً ليشتد ثم تجعله ( مكان ) بارد عشرين يوماً ثم يحول إلى الغرف حتى يستحکم وتقله الباقي بعد عصره تأكله الخيل وتسمن عليه وتستلذه . . . أجود القصب الحلو الغزير الماء . . . ينفع الصدر والسعال ويدر البول ويجلو رطوبة الصدر . . . وينبغي أن يغسل بماء حار بعد تقشيريه . . . والسكر أجوده الشفاف الأبيض الطبرزد وكلما عتق كان الطف . . إذا طبخ ونزعت رغوته سكن العطش . وعمل السكر المكرر الطبرزد ان يكسر السكر ويلقى في القدر على كل مائة رطل سكر عشرة أرطال لبن حليب ومن الماء ما يغمره ثم يفلى وتكشط رغوته ثم يلقي في ظرف صيني حتى تسكن حرارته ويصفو يوماً وليلة ثم يعاد إلى القدر ويفلى حتى يصير له قوام . . . ثم يرفع ويجعل في اجاجين خضر ويحرك بخشبة . . . وأجوده النفيع المتخذ بماء الورد الذكي . . . بأن يلقي على كيل السكر الطبرزد المسحوق ثلاثة أكيال ماورد . . . يرفع على نار هادئة وتؤخذ رغوته ويرفع « (١٩) .

### ملاحظات ختامية :

لقد وصف الغزي أكثر من مائة وستون مفرداً من الحشائش والخضراوات والأشجار في كتابه ، ومعظم هذه المفردات كان يستعمل في

الغذاء والدواء أو كلاهما وكانت مدخلة في دساتير الادوية منذ زمن سابور ابن سهل حتى عصر المؤلف (٢٠) . وقد أثبت في وصفها وتعريفها بعد نظر وأصالة قلما نجدها في مؤلفي العصور الوسطى فاستحق عمله التقدير والثناء . ونقدر أن نستنتج من خلال فصول الكتاب ما يخولنا بأن نجروا على القول أن المؤلف كان مزارعا نشيطا وبستانياً قديرا وعالم ضليع في تاريخ العلوم الطبيعية بالإضافة الى مؤلفاته الأخرى في علوم الاصول والتشريع الاسلامي ، والفقه واللغة والفلك والطب وحتى الشعر اذ له أشعار رائعة السكب جميلة المعاني كان يميل الى الحكمة والنصح الجميل . أما في هذا الكتاب فقد أدى خدمة جلى في تاريخ العقاقير المفردة والمركبة وتأثير الادوية والاعطور والرياحين والتوابل المستعملة في الاغذية . ثم انه كان له اهتمام صادق بجمال البيئة وحفظها من التلوث والفساد مما يساعد على متعة وغنى النفس والروح مع صحة الاجساد . وله نظريات صائبة حول علاقات العمال مع الفلاحين ، وفي تقديم الأدلة لأصحاب البساتين والحقول المزروعة لمعرفة أحوال الجو والفصول لينالوا النصيب الأوفى من أتعابهم ومنتجات أراضيهم الزراعية . أما فضله العميم على علم الزراعة وتطورها في بلاد الشام فاني أتركه للمختصين في هذا الحقل ولكن لا بد من القول بأن مهارته وحسن تدبيره بشؤون البساتين ومساعدته في غرس الجنائن النضيرة الخصيبة يظهر لنا بوضوح روحانية عصره وجمالها وتعلقه ببيئته وحسنها الامر الذي يوحى بإمكانية خلق فراديس مزدهرة متى توفرت مثل هذه الشروط أيضا وفي كل زمن (٢١) .

وكما ملأ كتاب الغزي فراغا في علم البستنة والفلاحة عامة فانه أظهر في الوقت نفسه معالجته للحاجة الاقتصادية وتنظيمه الفني الدقيق ، وذوقه السليم واعجابه بالجمال الطبيعي وبديع مخلوقات الله في عالم النبات وخبرته الواسعة من حسن الانتقاء ومهارة الادارة وحسن العمل . وانه في تطلعه وادراكه جمال وكمال الطبيعة كان يتلمس حكمة الخالق وقدرته السرمدية . ومن يقرأ كتابه يتمعن يجد نفسه مفتونا بأوصاف هذه النباتات ، أنواعها وأشكالها وألوانها ، زهورها وأثمارها وكان عبير هذه الرياحين لا يزال يعبق مائنا الاجواء بالانس والنشوة . ولذلك اخترت في هذا العرض السريع لهذا الكتاب القيم قليلا من الامثلة من نصه ، على قدر ما يسمح المجال في هذه المقالة الصغيرة، ليتذوق القارئ جمال أسلوب الكاتب وجودة وصفه وابداعه في التعريف والاختيار . وطبعاً ليس من

يقراً عن بعد كمن يقف أمام هذه النباتات عينها التي يصفها المؤلف .  
وغوطة دمشق التي كانت مسرح نشاطه وابداعه واختباراته كانت وماتزال  
عبر العصور الطويلة مكاناً مرموقاً لجنائن ناظرات وفراديس شقيقات .  
وقد نقل أهل بلاد الشام هذا النوع من الابداع معهم الى أقطار بعيدة  
حتى الى بلاد الاندلس التي اشتهرت هي أيضاً بجناتها وبساتينها . ومن  
هناك أضاءت بنورها أرجاء القارة الأوروبية عامة حتى أصبحت جنائن  
الاندلس كما وجنائن الشام مضرب الامثال في الجمال والابداع (٢٢) .

هناك الكثير لم نوفيه حقه من الدرس والتعليق في كتاب الغزي هذا  
الذي يستحق التحقيق الجاد والتقييم الصحيح ، ولكن الحقيقة الواضحة  
هي أن هذا المؤلف كان أصيلاً في خبرته وكتابته ، معلماً في هذا الحقل من  
المعارف ، وأنه لم يحظ بالتقدير والاكرام اللذين يستحقهما حتى يومنا  
هذا وهي حقيقة تضع أمامنا باصرار مسؤولية العمل الجاد النزيه الواعي ،  
لأحياء تراثنا العربي المجيد واظهار فضل أولئك العلماء الافاضل الذين  
ساهموا في قيام بنيانه الشامخ .

## لبنانيون درسوا بالأزهر في القرن التاسع عشر

### الدكتور نقولا زيادة

( الجامعة الاردنية )

#### ١ - بين يدي البحث

كان الراغبون في متابعة دراساتهم العليا من اللبنانيين في القرن التاسع عشر يجدون أنفسهم موزعين بحسب التركيبة الطائفية التعليمية التي كانت في البلاد . ومن ثم فان الاختيارات امامهم لم تكن واسعة ولا متنوعة . ويمكن اجمال هذه الخيارات أو المجالات فيما يلي :

١ - كان في بلاد الشام نفسها ثلاثة معاهد تقدم دراسات عليا بالمعنى المحدود وهي : مدرسة عين ورقة التي أنشئت سنة ١٧٨٩ على غرار المدرسة المارونية في رومه ( من أواخر القرن السادس عشر ) . وهذه مدرسة كانت الغاية منها اعداد رجال الدين الموارنة للإشراف على الرعية ( في لبنان وحلب وقبرص ) . ومن ثم فقد كانت برامجها دينية لاهوتية فلسفية أصلا . الا انه كانت لها عناية باللغات . فقد كانت اللاتينية والسريانية والايطالية موضع عناية . أما لغة التعليم فيها فالعربية . وقبل انشاء هذه المدرسة كان الطلاب يرسلون الى المدرسة المارونية برومة ، وظل بعض خريجي عين ورقة يذهبون الى رومه الى أن أقفلت هذه في العقود الاولى من القرن التاسع عشر .

والمعهدان الآخرا هما دار المعلمين الروسية ( في الناصرة بفلسطين ) ودار المعلمات الروسية ( في بيت جالا بفلسطين ) . هذان المعهدان كانا وقفا على أبناء وبنات الطائفة الارثوذكسية ، من جميع أنحاء بلاد الشام . وقد كان الطلاب والطالبات يقضون في المعهد ست سنوات يعلمون فيها اللغة العربية واللغة الروسية والرياضيات والعلوم وأساليب التعليم . فقد



كانت الغاية من هذين المعهدين اعداد المعلمين والعلماء للمدارس التي فتحتها روسيا القيصرية في بلاد الشام . وقد يختار من هؤلاء الطلبة الممتازون فيرسلون الى روسيا لاتمام دراستهم العالية .

٢ - منذ سنة ١٨٦٦ أصبح هناك معهد للدراسات العليا في بيروت من انشاء الاميركان هو « الكلية السورية الانجيلية » ( الجامعة الاميركية اليوم ) ومنذ سنة ١٨٧٥ قامت كلية القديس يوسف ( جامعة القديس يوسف فيما بعد ) كمعهد للدراسات العليا . وهذان المعهدان كانا يتيحان لعدد من الطلاب ان يتخصصوا في فروع المعرفة كدراسة الطب . ومع ان هذين المعهدين لم تكن لهما صفة مذهبية خاصة ، فقد كان أكثر الطلاب فيهما من الطوائف المسيحية .

٣ - كان الطلاب من الطائفة الشيعية يتجهون نحو الشرق - نحو النجف الاشرف وقم وغيرهما من مراكز الدراسة والبحث . فالمدارس الشيعية المتخصصة التي كان لبنان يضم عددا لا يستهان به منها ، ضعف شأنها منذ القرن السادس عشر ، وأصبح التخصص موجودا في المعاهد الشرقية .

٤ - أثناء الحكم المصري في بلاد الشام منح عدد من الطلاب اللبنانيين ( لعل العدد كان ستة ) حق الذهاب الى مدرسة القصر العيني في القاهرة لدراسة الطب . وقد استمر العمل بهذا حتى بعد انحسار الحكم المصري عن البلاد .

٥ - لسنا هنا في معرض التحدث عن الازهر كمؤسسة علمية اسلامية ، اذ ليس ثمة من لا يعرف ذلك . وكل ما نريد ان نقوله هو ان الطلاب السنين في لبنان ، على ما كانت عليه الحال في البلاد المجاورة أيضا ، كانوا يطمون شطر الازهر تحقيقا لامالهم في الدراسات العليا . والواقع ان الدراسة في الازهر كانت تحمل معها ، عندما يعود الطالب ومعه شهادة العالمية ، وضعا اجتماعيا مرموقا .

٦ - جمعنا في هذه الدراسة التمهيدية أسماء أربعة وعشرين شخصا ممن يطموا شطر الازهر للدراسة . ولسناندعي اننا المنا بالاسماء جميعها ، فنحن واثقون من ان هناك عددا أكبر من ذلك . واننا نأمل ان يتاح لنا متابعة هذا البحث توسيعا وتعميقا . فالواقع اننا لم نزد عن ان مسحنا السطح فقط . والذي لاحظناه ان عدد الطرابلسيين كان أكبر من عدد

البيروتيين أو الصيداويين أو غيرهم مثلا . ويخيل اليانا ان بيروت كانت منذ العقد الرابع من القرن الماضي قد أصبحت تيسر للشباب مجالات العمل في التجارة والوظائف الحكومية وفي المؤسسات الاجنبية والصحافة والطباعة ، مما كان يغريهم بالالتحاق بها . وهذا ينطبق على سكان بيروت بعامة ، لاعلى السنين بوجه خاص . أما طرابلس فقد انصرف الكثير من شبابها الى العلم واتجهوا نحو الازهر . ونحسب انه لما بدأ أبناء أسر معينة من طرابلس بالذهاب الى الازهر طلبا للعلم ، أصبح الامر تقليدا اجتماعيا لتلك الاسر بالذات وأسر أخرى رأت في ذلك منزلة اجتماعية حرية بالاهتمام .

٧ - ونود أن نذكر هنا ان بيروت كانت تتيح المجال الواسع للذين يتخرجون من الازهر بعد عودتهم للعمل في المدارس المختلفة والصحافة . ومن هنا أتيح لهؤلاء ان تكون آثارهم بعد عودتهم متنوعة . أما الذين عادوا الى طرابلس فقد اقتصر عملهم على التدريس في واحد من مساجد طرابلس أو احدى مدارسها ، وكانت كتاباتهم مقصورة على موضوعات دينية في الغالب . وثمة فئة من خريجي الازهر ممن تولى مناصب قضائية في نواح مختلفة من بلاد الدولة العثمانية .

## ٢ - اللبنانيون الذين تعلموا في الازهر

ها نحن نضع بين أيدي القراء ثبنا باسماء أولئك الذين عثرنا عليهم ، ونعود بعد ذلك فنتحدث عنهم بقدر ماتمكنا من العثور على أخبارهم .

١ - يوسف بن عمر بن عبد الله الشهير بالذوق ( طرابلس )

ولد ١١٢٥ هـ تو ؟

ولد ١٧١٣ م تو ؟

( هو أول من عثرنا على اسمه بين من تعلموا في الازهر ، وهو ليس من أهل القرن التاسع عشر ) .

٢ - الشيخ عبد القادر (الاول) الرافي ( طرابلس )

ولد ؟ هـ توفي ١٢٣٠ هـ

ولد ؟ م توفي ١٨١٤ م

٣ - مصطفى بن عبد القادر (الاول) الرافي ( طرابلس )

كان حيا في العقود الوسطى من القرن التاسع عشر .

- ٤ - عبد الرحمن القباني الازهري (بيروت)  
كان حيا في العقود الوسطى من القرن التاسع عشر .
- ٥ - الشيخ نجيب الزعبي الحيلاني الطرابلسي  
لم نقف على تاريخ له .
- ٦ - اسماعيل بن أحمد الحافظ (طرابلس)  
ولد ١١٩٨ هـ تو ١٢٨٨ هـ  
ولد ١٧٨٤ م تو ١٨٧١ م
- ٧ - الشيخ محمد الجسر أبو الاحوال (طرابلس)  
ولد ١٢٠٧ هـ تو ١٢٦١ هـ  
ولد ١٧٩٨ م تو ١٨٤٥ م
- ٨ - الشيخ خليل بن ابراهيم الثمين (طرابلس)  
١٢١٣ - ١٢٩٣  
١٧٩٩ - ١٨٧٦
- ٩ - الشيخ عبد القادر بن مصطفى بن عبد الرحيم نجا (طرابلس)  
١٢٢٢ - ١٢٨٦  
١٨٠٧ - ١٨٦٩
- ١٠ - الشيخ شمس الدين محمد بن ابراهيم القاوقجي (طرابلس)  
١٢٢٤ - ١٣٠٥  
١٨٠٩ - ١٨٨٧
- ١١ - الشيخ يوسف الأسير (صيда)  
١٢٣٠ (وقيل ٣٢) - ١٣٠٧  
١٨١٥ - ١٨٨٩
- ١٢ - الشيخ محمود بن محمد بن عبدالدائم نشابة (طرابلس)  
١٢٢٨ - ١٣٠٨  
١٨١٣ - ١٨٩٠
- ١٣ - عبد الله الصوفي (طرابلس)  
١٢٤٣ - ؟  
١٨٢٧ - ؟

- ١٣ - الشيخ حسين بن محمد منقارة ( طرابلس )  
( تقدير ) ١٢٤٠ - ١٣٢٠  
١٨٢٤ - ١٩٠٢
- ١٤ - الشيخ عبد القادر ( الثاني ) الرافعي ( طرابلس )  
١٢٤٨ - ١٣٢٣  
١٨٣٢ - ١٩٠٥
- ١٥ - الشيخ درويش التدمري ( طرابلس )  
١٣٥٢ - ؟  
١٨٣٦ - ؟
- ١٦ - الشيخ حسين بن محمد بن الحاج مصطفى الجسر ( طرابلس )  
١٢٦١ - ١٣٢٧  
١٨٤٥ - ١٩٠٩
- ١٧ - الشيخ نجيب بن محمد بن احمد بن عبد القادر الحامدي  
( طرابلس )  
١٢٦٢ - ١٣٢٩ ؟  
١٨٤٥ - ١٩١١ ؟
- ١٨ - الشيخ احمد بن عمر المحمصاني ( بيروت )
- ١٩ - الشيخ احمد عباس الازهري ( بيروت )  
١٢٧٠ - ١٣٤٥  
١٨٥٣ - ١٩٢٧
- ٢٠ - الشيخ عبد الحميد بن سعيد بن احمد عبد القادر ( الاول )  
الرافعي ( طرابلس )  
١٢٧١ - ١٣٢٥  
١٨٥٤ - ١٩٠٧
- ٢١ - الشيخ محمد كامل الرافعي ( طرابلس )  
١٢٧١ - ١٣٣٧  
١٨٥٤ - ١٩١٨
- ٢٢ - الشيخ خليل صادق ( طرابلس )  
١٢٨٢ - ١٣٣٣ ؟  
١٨٦٥ - ١٩١٤ ؟
- ٢٣ - عبد الفني البارودي ( بيروت )

### ٣ - ملاحظ عامة

#### ١ - الشيخ عبد القادر ( الاول ) الرافي -

هو اول من تلقب بالرافي من الاسرة . في مصر لازم الشيخ محمود الكردي ، ويبدو انه سلك على يديه طريق الخلوتية . وبعد وفاة شيخه عاد الى طرابلس ودرّس في الجامع المنصوري الكبير ، الا انه كان يتعاطى التجارة الى جانب عمله التدريسي . له شعر رائع وأكثره صوفي . لم تعرف له مؤلفات . لكنه ، على طريقة كثيرين من معاصريه ، شطر البردة ووضع مقامة في المفاخرة بين حمص وحماة ( عبد الله حبيب نوفل ، **كتاب تراجم علماء طرابلس وأدبائها** ، طرابلس ، ١٩٢٩ ص ٤٠ - ٤٤ ) .

٢ - ثمة اثنان من آل الرافي ولدا في طرابلس ولكنهما ، بعد ان تخرجا من الازهر لم يعودا الى بلدهما او حتى لبنان ، بل سارا في طريقين مختلفين عن الآخرين .

آ - الشيخ عبد القادر ( الثاني ) الرافي . بعد ان تلقى مبادئ العلوم في طرابلس سافر الى مصر وقرأ في الازهر الشريف . فكان من شيوخه فيه ابراهيم الباجوري وابراهيم السقا ومحمد الاشموني . وقد اجيز في أعماله العلمية وتولى التدريس في الازهر وهو في سن السابعة والعشرين . وقد كان من شيوخ الحنفية الكبار ، فاكتظت حلقتة بالمطالبين . وقد عين فيما بعد شيخا لرواق الشام في الازهر ، ثم مفتيا لديوان الاوقاف ثم عضوا في مجلس الاحكام . ولما توفي ، الشيخ محمد عبده ، وكان مفتي الديار المصرية ، وختل الوظيفة بوفاته ، عين الشيخ عبد القادر مفتيا للديار المصرية ، لكنه توفي في اليوم الثالث من تعيينه . وله من الآثار المطبوعة تقرير على الدر المختار ، وتقرير على الاشباه والنظائر .

( نوفل ، ص ٨٨ - ٩١ ؛ سر كيس **معجم الطبوعات** ، عمود ٩٢٤ ؛ الزركلي الاعلام ج ٤ ص ١٧٠-١٧١ ؛ مجلة الضياء الجزء الرابع ص ٣٧٠ - ٣٧١ ؛ مجلة المنار ج ٨ ص ٧٥٩ - ٧٦٠ ؛ **معجم المؤلفين العرب** ، ج ٥ ص ٣٠٦ ) .

#### ب - الشيخ عبد الحميد الرافي

على عادة اهل أي مدينة درس الشيخ عبد الحميد في طرابلس ثم انتقل الى الازهر وبعد اجازته في الازهر انتقل الى استانبول . وهناك ، على ما يقول نوفل ، دخل مكتب القضاة وحاز من المكتب المذكور الشهادة

المتأثرة . وعندها أعجب به شيخ الإسلام ، وعين على أثر ذلك لنيابة لواء حماة ، وهو منصب كان من المؤلف أن يصل إليه الشخص بعد أن يتولى نيابة قضاء . وانتقل بعد ذلك الى اللاذقية فالقدس الشريف ( الممتازة ) فولاية البصرة فولاية المدينة المنورة فولاية حلب واخيرا نيابة ولاية ازمير . وقد توفى في هذه المدينة . ولعلّ تنقله المستمر واشتغاله بالقضاء لم يتيح له الوقت للعناية بالتأليف . ولكن ليس من شك في أن احكامه القضائية كانت ذات قيمة ( نوفل ، ص ٢١٠ - ٢١١ ) .

٣ - وهناك طرابلسي آخر ، هو الشيخ حسين ابن الحاج محمد منقارة ، الذي ظل في مصر بعد دراسته في الازهر . فقد درّس فيه وأصبح شيخا لرواق الشوام ، وقد كان في وقت من الاوقات مفتي الاوقاف المصرية ، وقد تجاوز الثمانين من العمر ( نوفل ، ص ٩٥ - ٩٦ ) .

٤ - ثمة عدد من الذين تعلموا في الازهر يّمّموا شطر عاصمة الدولة بعد ذلك ، فمنهم بالاضافة الى الشيخ عبد الحميد الرافعي القاضي ، الشيخ يوسف الذوق والشيخ مصطفى بن عبد القادر ( الاول ) الرافعي والشيخ محمد الجسر ابو الاحوال والشيخ يوسف الاسير وعبد الله الصوفي . ويوسف الذوق أرادوا أن يحملوه على قبول منصب القضاء فلم يقبل ( نوفل ، ص ٣٣ ) . وكان مصطفى الرافعي صديقا لشيخ الإسلام عارف حكمت ، وقد رفض منصب القضاء لما عرف أنه سيأخذ الرسوم من أصحاب الدعاوي ( نوفل ، ص ٤٥ ) . وقد تزوج في الاستانة ( نوفل ص ٤٦ ) ، كما انه عمل على تدريس العلم في يافا ( نوفل ، ص ٤٦ ) . وكان يوسف الأسير ، اثناء اقامته في عاصمة الدولة ، استاذا للعربية في دار المعلمين الكبرى ( نحسب ان المقصود هي دار الفنون - ن . ز . ) . كما عمل مصححا في نظارة المعارف ( جرجي زيدان ، أشهر مشاهير الشرق ج ٣ ( ط ٣ ) القاهرة ، ١٩٢٢ ، ص ١٦٤ ) . ويعرف عنه أنه حرر في الجوائب ، التي كان ينشرها أحمد فارس الشدياق في استانبول . وقد زار عبد الله الصوفي الاستانة . وبعد توليه مناصب مختلفة عاد الى استانبول وتوفي فيها ودفن في تربة أبي أيوب الانصاري ( نوفل ، ص ٢٦٩ ) . أما المناصب التي تولها فهي قاضي نابلس وعكاء وصنعاء ثم عين رئيسا لمحكمة التمييز في اليمن ، وقد اتهم بتحريض أهل اليمن على الثورة الا انه برّئ من التهمة ( نوفل ، ٢٦٨ ) . وبعدها عين رئيسا لمحكمة الاستئناف بحلب ثم في الشام ( نوفل ، ٢٦٩ ) .

٥ - أكثر الطرابلسيين الذين ذهبوا إلى الأزهر للدراسة عادوا إلى طرابلس وعملوا هناك في التعليم . وكان الجامع المنصوري الكبير المكان الأول الذي عملوا فيه . لكن البعض درس في جامع البرطاسي ( خليل الثمين - نوفل ، ص ٢٥٨ ) . والشيخ اسماعيل الحافظ ألقى دروسه في المدرسة الخاتونية ( نوفل ، ص ٢٥٥ ) مقتصرًا في هذه على الدروس الأدبية والآلية أي اللغوية ، أما التفسير والحديث فكان يلقى دروسهما في الجامع الكبير المنصوري ( المكان نفسه ) . والشيخ حسين الجسر أنشئت له ، بناء على طلبه ، المدرسة الوطنية التي كان هو مديرها وكانت تدرس فيها بالإضافة إلى الدروس الدينية بعض الرياضيات والطبيعات على الطريقة الأوروبية واللغات التركية والفرنسية ( رشيد رضا ، المنار ، ج ٢١ ، ص ١٦١ ) وقد دخل السيد رشيد رضا هذه المدرسة سنة ١٢٩٩ أو ١٣٠٠ ، ولكن عمر المدرسة لم يطل ( المكان نفسه ) . وقد درس الشيخ حسين الجسر في المدرسة الرجبية وفي داره ( المكان نفسه ) .

٦ - بين الذين ذكرنا أسماءهم من الطرابلسيين فئة وضعوا كتبًا كانت ، ولا شك ، وثيقة الارتباط بالدروس التي كانوا يلقونها . وها نحن نضع هنا بين أيدي القراء ثبنا - موقتا - بما وصلت إليه يدنا من مؤلفات هؤلاء نفر :

( أ ) الشيخ اسماعيل بن أحمد الحافظ ( راجع الزركلي ، الإعلام ، ج ١ ، ص ٣٠٤ ؛ كحالة ، معجم المؤلفين ، ج ٢ ، ص ٢٥٨ ؛ نوفل ، ص ٢٥٤ - ٢٥٧ ) كان يتكسب بالفتوى ويعمل المسائل الفرضية والتوثيقات الشرعية . له :

١ - حواش وتعاليق على شرح الدر المختار في فروع الفقه الحنفي .

٢ - رسالة في علم الفرائض .

( ب ) الشيخ خليل الثمين ( راجع نوفل ، ص ٢٥٨ - ٢٥٩ ؛ كحالة

معجم المؤلفين ج ٤ ص ١٠٩ ) .

١ - أرجوزة في علم الفرائض .

٢ - السراج الوهاج لايضاح ما يلزم الحاج .

٣ - الرحلة الحجازية .

٤ - تخميس البردة .

٥ - شكاية أهل السنة بحكاية ما نالهم من المحنة .

( ج ) الشيخ عبد القادر نجا ( راجع نوفل ، ص ٢٥٩ - ٢٦١ ؛  
كحالة ، ج ٥ ص ٣٠٥ ) .

روضة الانوار وجامع الاسرار في فضل التعمير في السن والاذكار  
( وصفه نوفل بانه كتاب نافع يبلغ عدد صفحاته الالف جمع من كل علم  
وفن طرفة أو فائدة - نوفل ، ص ٢٦٠ ) .

( د ) الشيخ شمس الدين القاوقجي ( راجع نوفل ، ص ٥٨ - ٦٠ ؛  
كحالة ، ج ٨ ص ٢١٢ ) .

- ١ - ربيع الجنان في تفسير القرآن .
- ٢ - الذهب الابريز على المعجم الوجيز .
- ٣ - معدن اللآلي في الاسانيد العوالي .
- ٤ - تسهيل المسالك مختصر موطأ مالك .
- ٥ - اللؤلؤ المرصوع في الحديث الموضوع .
- ٦ - المنتقى الازهر على ملتقى الابحر .
- ٧ - المقاصد السننية في آداب الصوفية .
- ٨ - تحفة الملوك في السير والسلوك .
- ٩ - البدر المنير على حزب الشاذلي الكبير .

( هـ ) الشيخ عبد القادر ( الثاني ) الرافي ( راجع نوفل ص ٨٨ -  
٩١ ؛ سركيس ، معجم المطبوعات ، عامود ٩٢٤ ؛ الزركلي ، الاعلام ، ج ٤  
ص ١٧٠ - ١٧١ ؛ مجلة الضياء ، ج ٨ ص ٣٧٠ - ٣٧١ ؛ مجلة المنار ،  
ج ٨ ص ٧٥٩ - ٧٦٠ ؛ كحالة ، ج ٥ ص ٣٠٦ ) .

- ١ - تقرير على الدر المختار .
- ٢ - تقرير على الاشباه والنظائر للحموي .

( و ) الشيخ محمود نشابه ( راجع نوفل ، ص ٩٤ - ٩٥ ؛ الزركلي ،  
الاعلام ، ج ٨ ص ٦٤ ؛ كحالة ، ج ١٢ ص ١٩٦ ؛ المنار ج ٢١ ص  
١٥٥ - ١٥٧ ) .

- ١ - العقود الدرية على الاسئلة النحوية .
- ٢ - الدر الثمين في احكام تجويد الكتاب المبين .
- ٣ - شرح البيقونية في مصطلح الحديث .
- ٤ - حاشية على همزية البوصيري .
- ٥ - تعليق على شرح الضناوي في المنطق .



( ز ) الشيخ خليل صادق ( راجع نوفل ، ص ١٨٨ - ١٨٩ ؛  
كحالة ، ج ٤ ص ١٢٠ )

- ١ - منح البر على حزب البر .
- ٢ - مناداة الخليل في مناجاة الجليل .
- ٣ - منحة الخليل في مدحة الجليل
- ٤ - رسائل في علم الانساب .
- ٥ - ديوان شعر .

٧ - ثمة عالمان من الازهر ( أي ممن درسوا في الازهر ) لم يتح لنا  
الوقت الكافي لدرس آثارهما ، لذلك نكتفي بذكرهما هنا آملين أن نوفق  
الى ايغائهما حقهما في المستقبل :

١ - عبد الرحمن القباني الازهري ( راجع كحالة ، ج ٥ ص ١٦٥ ؛  
فهرست الخديوية ١/٧ ص ٣٠٨ ) .

له : الكافية في علم العروض والقافية فرغ من تأليفها سنة ١٢٦٢/  
١٨٤٦ .

٢ - الشيخ أحمد عمر المحمصاني ( راجع كحالة ، ج ٢ ص ٣٤ -  
٣٥ ؛ دي طرازي ، خزائن الكتب في الخافقين ج ١ ص ٢٦١ - ٢٦٢ ؛  
سركيس ، عامود ١٧٠٢ ) .

له : مختصر جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله  
( مطبوع سنة ١٣٢٠ ) .

٨ - مجالات العمل لهؤلاء العلماء :

ليس من اليسير ، في عرض مقتضب وأولي مثل الذي تقدمه الآن ،  
أن نفصل الاعمال التي أتيح لكل من هؤلاء أن يقوم به . لذلك رأينا من  
المناسب ان نقتصر على فئة قليلة ، وقليلة جدا ، من اولئك العلماء ؛  
لنوضح الادوار التي قام بها كل منهم ، ولتكون هذه النماذج سبلا  
للتحدث عن بقية الادوار والاعمال عندما يحين الوقت لذلك .

١ - الشيخ يوسف الاسير

١٢٣٠ - ١٣٠٧

١٨١٥ - ١٨٨٩

- ١٨٠ -

ولد الشيخ يوسف الاسير في صيدا سنة ١٢٣٠ ( ١٨١٥ ) ( دي طرازي ، تاريخ الصحافة العربية ، الاول ، ص ١٣٥ ؛ جرجي زيدان ، تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر ج ٢ ( ط ٣ ) القاهرة ، ١٩٢٢ ، ص ١٦٤ ) . وتلقى علومه الابتدائية في صيدا وكان الشيخ احمد الشرمبالي واحدا من مدرسيه . ثم انتقل الى المدرسة المرادية في دمشق حيث قضى سنة هناك . وبعد مدة سافر الى القاهرة وانتظم في سلك تلامذة الجامع الازهر . وكان شيخه يومها الشيخ حسن العطار . وكان من شيوخه هناك الشيخ حسن القوسيني والشيخ محمد الدمهوري والشيخ محمد الطندتاوي والشيخ محمد الشبيني ( زيدان ، تراجم ، ص ١٦٤ ) والشيخ ابراهيم الباجوري ( المقتطف ، جزء ١٥ ، ص ١٣٢ ) . وبعد سبع سنين قضاها الشيخ يوسف في الازهر حيث تلقى العلوم النقلية والعقلية باصولها وفروعها ، عاد الى صيدا . لكنه لم يطل الاقامة بها فانتقل الى طرابلس حيث قضى ثلاث سنوات كان فيها محط أنظار أهل العلم والمعرفة . وكان ممن اخذ العلم عنه هناك يوحنا الحاج الذي أصبح البطريرك الماروني ، ويوحنا الحبيب مؤسس جمعية المرسلين المارونية ( دي طرازي ، ص ١٣٧ ) .

كانت بيروت قد اخذت وقتها تزخر بالمدارس والمطابع ، وكانت فيها نهضة علمية كبيرة ، فاختر الشيخ يوسف الاقامة فيها . ومن هنا تفتحت مواهبه وتنوعت أعماله . فمن الناحية الرسمية تولى رئاسة المحكمة الشرعية في بيروت ، ثم تولى الفتوى في مدينة عكا وعين مدعيا عموميا في جبل لبنان على عهد متصرفة داود باشا ( زيدان ، ص ١٦٤ ؛ دي طرازي ، ص ١٣٧ ) .

انتقل بعد ذلك الى عاصمة الخلافة حيث تولى رئاسة التصحيح في دائرة نظارة المعارف ، وتعين استاذ للغة العربية في دار المعلمين الكبرى ( دار الفنون ن . ز . ) ( زيدان ، ١٦٤ - ١٦٥ ، دي طرازي ، ١٣٧ ) ، كما كان يكتب في الجوائب لصاحبها احمد فارس الشدياق ( دي طرازي ، ١٣٧ ) . ويبدو ان فئة من كبار رجال السياسة في استانبول كانوا بين من أفادوا من علمه ، يذكر دي طرازي منهم الصدر الاعظم رشدي باشا شرواني وجودت باشا وزير المعارف ووصفي أفندي رئيس كتاب شورى الدولة وذهني أفندي رئيس مجلس المعارف والمسيو بوره سفير فرنسا ( دي طرازي ، ١٣٧ ) ، وان كنا لانعرف تماما مانوع الفائدة التي حصلوا عليها منه .

واشتد برد الآستانة عليه فعاد الى بيروت . وفي بيروت درّس في المدرسة الوطنية التي كان بطرس البستاني قد أنشأها وكان من عمدتها ، وفي مدرسة الحكمة التي أسسها المطران يوسف الدبس والكلية الاميركانية ( كذا في طرازي ) ومدرسة الثلاثة أعمار للروم الارثوذكس ( دي طرازي ، ١٣٧ ) . ولعل من أهم الاعمال التي قام بها هو الاسهام في ترجمة الكتاب المقدس الى اللغة العربية .

وقد وضع الشيخ يوسف الاسير كتابا في الفقه سماه « شرح راض الفرائض » . وشرح كتاب « أطواق الذهب » للزمخشري . وقد ألف رواية تمثيلية سماها « سيف النصر » ووهب ريعها لمشتري ادوات لجريدة ثمرات الفنون عند أول نشأتها ( دي طرازي ، ١٣٧ ) . وقد حرر الشيخ يوسف في « ثمرات الفنون » لصاحبها عبد القادر القباني ، وتولى رئاسة تحريرها ، وجريدة « لبنان » الرسمية ، كما تولى رئاسة تحرير « لسان الحال » مدة من الزمان ( دي طرازي ، ١٣٨ ) .

ويروي دي طرازي ان ممن تلقى عنه العلم في أواخر حياته غريغوريوس الرابع بطريرك الكرسي الانطاكي للروم الارثوذكس ، والدكتور مارتن هارتمان استاذ العربية في برلين ( دي طرازي ، ١٣٨ ) .

وقد نظم الشيخ يوسف الاسير ترانيم كثيرة لا يزال بعضها يحتفظ به ويرنم الى الآن في الكنائس الانجيلية . ومن الترانيم النفيسة ترنيمة تتضمن « الوصايا العشر » وهي :

لا تسجدنّ للصنم	غيري إله لا يكنّ
ولا تهينه بالقسم	لا تأخذ اسمي باطلا
لوالديك المكرمة	والسبت فاحفظ واصنعن
في عمل أو كلمة	والقتل فاحذر والخنى
تكذب وقل قول التقى	لا تختلس شيئا ولا
ما للقريب مطلقا	ولا تكنّ مشتھيا
وصية الفادي الحبيب	وكلّ هذي جمعت
واحب كنفسك القريب	أحيبّ بجهد ربّنا

توفي الشيخ يوسف سنة ١٣٠٧/١٨٨٩ في بيروت . وقد خلف آثارا علمية ، غير الكتابين المذكورين ، في المجلة وفيها القوانين الشرعية والاحكام العدلية ، ولد ديوان ، لكنه يحتوي البعض من شعره فقط ( سركيس ، معجم المطبوعات ، عامود ٤٤٩ - ٤٥٠ ) .

## ٢ - الشيخ حسين الجسر

١٢٦١ - ١٣٢٧

١٨٤٥ - ١٩٠٩

بعد ان تلقى الشيخ حسين علومه الابتدائية في طرابلس على الشيخين عبد القادر وعبد الرزاق الرافعي والشيخ عرابي (نوفل ، ص ١٦٨) انتقل الى مصر ودخل الازهر سنة ١٢٧٩ . وكان من اساتذته هناك الشيخ المرصفي المشهور ( رشيد رضا ، المنار م ٢١ ( ١٩١٩ ) ص ١٦٠ ) ، وعاد الى طرابلس سنة ١٢٨٤ ، وكان يجب العودة الى الازهر ، لكن وفاة عمه اضطرته الى صرف النظر عن ذلك ، فأقام في طرابلس وعني بالتعليم والتأليف ( نوفل ، ١٦٨ ) . وقد تخرج عليه جماعة من أهل العلم منهم الشيخ اسماعيل الحافظ والشيخ عبد القادر المغربي والسيد رشيد رضا .

وقد قال عنه السيد رشيد رضا : « وقد امتاز بين علماء الدين بالنظر في العلوم والفنون التي يسمونها العصرية ، وبقراءة الجرائد السياسية والمجلات العلمية . فكان لذلك يرغب في جعل طلاب العلوم الدينية جامعين بينها وبين الامام بتلك العلوم والفنون . فسعى لحمل بعض الاغنياء على انشاء مدرسة دينية نظامية تعلم فيها بعض الرياضيات والطبيعات على الطريقة الاوربية واللغات التركية والفرنسية . فانشئت المدرسة الوطنية ، وكان هو مديرها . وقد دخل كاتب هذه السطور [ رشيد رضا ] في القسم الداخلي منها سنة ١٢٩٩ أو ١٣٠٠ فكان ذلك أول العهد بطلبه للعلم بعد ان تعلم القراءة والخط في مكتب الصبيان بالقلمون ، وطالع بعض كتب الادب والتاريخ والتصوف منفردا . ولكن لم يطل عمر المدرسة . فان الحكومة التركية لم تقبل جعلها من المدارس الدينية التي يعفى طلابها من الخدمة العسكرية . وأصر مديرها الشيخ رحمه الله تعالى على اقبالها ان لم تعترف بها فاقفلت » ( المنار ، م ٢١ ( ١٩١٩ ) ، ص ٢١ ) .

وقد طلب للتدريس في المدرسة السلطانية ببيروت ففعل ذلك لمدة قصيرة . وفي قطعة اخبارية عن المدرسة السلطانية ببيروت لشاهين مكاريوس ( نشرت في المقتطف م ٨ ( ١٨٨٤ ) ص ٣٠٣ ) ان الشيخ حسين الجسر كان يومها رئيسا للمدرسة السلطانية .

وعاد الشيخ حسين الى طرابلس حيث عاد الى العمل في التعليم . فكان يعلم العلوم الدينية في المدرسة الرجبية وفي داره . وقد وازب

السيد رشيد رضا على حضور تلك الدروس حتى تخرج بها واخذ الاجازة بالتدريس والتعليم منه سنة ١٣١٥ ( رشيد رضا ، المنار ، م ٢١ ( ١٩١٩ ) ص ١٦١ ) .

وكان الشيخ حسين الجسر يحرر في جريدة « طرابلس الشام » . ويروي نوفل ان مقالاته جمعت تحت عنوان « رياض طرابلس الشام » فبلغت عشرة مجلدات « وهي مقالات في مختلف المواضيع وكلها بليغة العبارة غزيرة المادة طلية الابحاث » ( نوفل ، ١٦٩ ) . ولم نعثر على هذه المجموعة .

ومما يدل على وعي سياسي اقتصادي للاحوال التي كانت سائدة في أواخر القرن الماضي ، المقال الذي كتبه في جريدة « طرابلس الشام » بتاريخ ١٥ أيار ( مايو ) سنة ١٨٩٣ وقد طالب فيه بانشاء خط حديدي من الشاطيء الاسيوي على البوسفور حتى ينتهي بدمشق ، ومثله خط حديدي من البصرة مارا ببغداد وينتهي بدمشق . وكذلك بوجوب انشاء خط حديدي يربط دمشق بمكة بالديار اليمينية . وقد بين الفوائد السياسية والعمرانية من مثل هذا العمل . كما انه حذر من مد يد الاجانب الى العمل في مثل هذه المشروعات ( نوفل ، ١٧٠ - ١٧١ ) . وهذا قبل عمل الالمان على انشاء خط استانبول بغداد ، وقبل تفكير عبد الحميد ورجال حاشيته في انشاء الخط الحديدي الحجازي . وهذا يدل على ان الشيخ حسين الجسر كان يعايش مشكلات المنطقة وقضاياها لا عاطفيا فحسب ، بل عمليا وعلميا أيضا .

ترك الشيخ حسين الجسر نحو خمسة عشر مؤلفا ، اشهرها « الرسالة الحميدية في حقيقة الديانة الاسلامية وحقية الشريعة المحمدية » وهي عرض علمي واضح لعقائد الاسلام واركان عباداته واهم المعاملات الاجتماعية مع الاحكام والادلة . وقد كافاه السلطان عبد الحميد بنسبة الرسالة اليه برتبة علمية ووسام وطلبه لان يكون بين شيوخ قصره يلدز ، فأقام في استانبول بضعة اشهر ثم طلب الاذن بالعودة لان مناخ الأستانة لم يوافق فاذن له ( رشيد رضا ، المكان نفسه ، ص ١٦١ ) .

ومن آثاره المطبوعة « نزهة الفكر في ترجمة محمد الجسر » ( والده ) ، واشارات الطاعة ( راجع سر كيس ، معجم المطبوعات ، عامود ٦٩٨ ؛ جرجي زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية ج ١ ص ٢٥١ ) .

٣ - الشيخ احمد عباس الازهري

١٢٧٠ - ١٣٤٥

١٨٥٣ - ١٩٢٧

الشيخ احمد عباس الازهري من المع الشخصيات العلمية التربوية في بيروت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر واول القرن العشرين . والرجل بعد ان تلقى تعليمه الابتدائي في مدينته بيروت ، ذهب الى الازهر ، وعاد بلقب الازهري الى اسمه الاصلي احمد عباس . ( بهذه المناسبة فان الشارع الصغير في بيروت الذي يخلد اسم هذا العالم العامل المربي الكبير يحمل اسم « شارع الشيخ عباس » فقط ) .

واسم الشيخ احمد مرتبط بالنسبة الى التعليم بمؤسستين قامتتا في بيروت في النصف الثاني من القرن الماضي وهما « المدرسة السلطانية » و « الكلية العلمية الاسلامية » ولذلك فلا بد لنا من التعرض الى هاتين المؤسستين .

ثمة روايتان تتعلقان بالمدرسة السلطانية . فعبد الباسط فتح الله روى ، في مقال كتبه عن الاستاذ الامام محمد عبده في بيروت ، ونشر في المنار ، واعاد رشيد رضا نشره في تاريخ الاستاذ الامام الجزء الاول ( القاهرة ، ١٩٣١ ) ص ٣٩٣ - ٣٩٨ ) ان جمعية المقاصد الخيرية انشأت مدارس للذكور والاناث في كل حي من احياء المدينة ( أي بيروت ) « ثم سمت بها الهمة بدافع الحاجة الى انشاء مدرسة عالية داخلية فافتتحت «المدرسة السلطانية» ، (فتح الله ، المكان المذكور ، ص ٣٩٣) وبعد ان يصف الروح التي ادخلها الشيخ محمد عبده لما قبل ان يدرس فيها ، ينتهي الى القول : « غير ان ارادة الله الانتقامية في هذه الامة لم تشأ ان ينعقد لعمله [ الشيخ محمد عبده ] الثمرة المرجوة ، إذ ان ازدهار المدرسة وفلاحها اشعل نار الحسد في قلوب جماعة من رجال العسكرية ، على مديرها ، الذي صار له بفضل الاستاذ وحكمة تدبيره من النبالة ولسان الصدق في الناس ، ما لم يرضه اولئك الاوغاد ، فسعوا به فبدلوه بآخر » ( فتح الله ، المكان المذكور ص ٣٩٦ ) . وفي هامش تلك الصفحة ذكر عبد الباسط فتح الله ان مدير المدرسة كان يومها الشيخ احمد عباس . وكان هذا في السنة الرابعة للمدرسة أي سنة ١٣٠٤ هـ .

الرواية الثانية عن المدرسة هي التي أوردتها شاهين مكاريوس في

نبذة عن المدرسة السلطانية في بيروت نشرها في المقتطف المجلد الثامن ( ١٨٨٤ ) ص ٣٠٣ . جاء فيها ما يلي عن انشاء المدرسة :

« انشئت المدرسة السلطانية في بيروت تحت ظل الحضرة الشاهانية المعظمة وابهة والي ولاية سورية المفخم بهمة شعبة مجلس المعارف في بيروت » . ومن هنا يبدو أن انشاء المدرسة السلطانية كان عملا حكوميا رسميا ، الا اذا كان الكاتب اراد ان يعطي للسلطات اكثر مما تستحق . صحيح ان الدولة العثمانية اخذت ، في اواخر القرن الماضي ، بانشاء المدارس الرسمية المنتظمة ، وكان يتوج هذا النظام مدرسة سلطانية في مراكز الولايات ، وان هذه المدرسة السلطانية كانت على غرار مدارس الليسية الفرنسية . لكن هذه قضية تحتاج الى مزيد من البحث . هل كانت سلطانية المقاصد نفسها السلطانية الرسمية ؛ هل تحولت الواحدة الى الاخرى ؟ وما الى ذلك من القضايا ، مثل زمن قيام السلطانية ، الواحدة ام الاثنتان .

أما المؤسسة التعليمية الثانية المرتبط اسمها بالشيخ أحمد عباس الازهري ، فهي الكلية العلمية الاسلامية . والارتباط هنا أقوى وامتن .

ففي سنة ١٨٩٥ افتتح الشيخ احمد عباس الازهري مدرسته الخاصة التي سماها العثمانية ( والتي اصبحت فيما بعد تسمى الكلية العلمية الاسلامية ) والتي عمرت زهاء عشرين سنة . وقد اتسعت دائرتها وجمعت داخل محيطها اقسام التعليم الثلاثة الابتدائي والاستعدادي والعلمي - عدا روضة الاطفال . وبهذه صارت كلية واخرجت للامة من الشباب الناهض الذي انطلق يؤدي ما وجب عليه لامته من خدمة المدنية في فروع العلم التي حصلها في الكلية الاسلامية « ( عبد الباسط فتح الله ، المنار مجلد ٢٨ ( ١٩٢٧ ) ص ٣٩٣ ) .

على ان الشيخ احمد لم يكن يعنى بالتعليم فحسب ، بل كان شديد العناية بالقضايا العامة وضرورة الاصلاح الاجتماعي . فمن « الاماني الاصلاحية التي كانت تشغل قلب الرئيس [ الشيخ احمد عباس ] التوفيق بين مقتضيات العلوم الحديثة ومقررات العلوم الدينية . كان يزعجه ما يرى من تباين في الرأي بين بعض تلامذة المدارس العصرية وبعض طلبة العلوم الدينية ، لجهل كل من الفئتين بعلم الفئة الاخرى . وخاف على الجهود المبذولة في سبيل نهضة الامة ان يحيط بها هذا الخلاف أو يحبطها

الى عكس المقصود منها فهمّ بتلافي الامر فوسع قدر ما امكن دروس العلوم الدينية من فقه وتوحيد ، واطاف اليها درسا في علم الاصول ، ثم حاول انشاء دائرة خاصة بمريدي الاختصاص في العلوم الدينية شرط ان لا يقبل فيها الا من اضطلع بالعلوم العصرية » . ( المكان نفسه ص ٣٩٣ - ٣٩٤ ) .

( يمكن الرجوع الى المظان التالية للاستزادة عن حياة الشيخ احمد عباس الازهري : الزركلي ، الاعلام ، ج ١ ص ١٣٩ ؛ البرت ريحاني ، الموسوعة العربية ، ص ٤٣ ؛ المنار المجلد ٢٨ ( ١٩٢٧ ) ص ٣٨٦ - ٣٩٥ ؛ مجلة الكشاف ، المجلد الاول ص ٢٥٠ و ص ٢٩٠ - ٢٩٨ ؛ عيسى اسكندر معلوف ، مجلة الآثار مجلد ٤ ص ٥٢٨ - ٥٢٩ ؛ كحالة ، معجم المؤلفين ج ١ ص ٢٥٩ ) .

شهد لبنان ، مع بقية اقطار العربية ، نهضة هامة في القرن الماضي . وهؤلاء العلماء الذين تحدثنا عنهم هذا الحديث المقتضب ، هم الذين مع غيرهم من العلماء ، ممن قامت النهضة على اكتافهم .

فلا أقل من ان نتذكر لنتفجع بالامثلة الطيبة ولنحيي جهودهم وتضحيتهم وثمار اعمالهم .



## اشكاليات نظرية لدراسة التطور التاريخي

### للمسألة الطائفية في لبنان

الدكتور مسعود ضاهر

( الجامعة اللبنانية )

« ان نمط انتاج الحياة المادية هو الذي يحدد تطور الحياة الاجتماعية والسياسية والفكرية عامة. فليس وعي الناس هو الذي يحدد واقعهم ، بل على العكس من ذلك فان واقعهم الاجتماعي يحدد وعيهم » .

انطلاقاً من هذه القاعدة النظرية حاولنا التفتيش على جذور المسألة الطائفية في لبنان ، لافي أذهان الناس كما يعيشونها طائفيًا بل في نمط الانتاج الذي جعلهم يفكرون ويتصرفون طائفيًا .

ومن الطبيعي القول ان الفرد الاجتماعي يعيش في مجتمع معين يتأثر بأفكاره وعاداته وتقاليده ونمط انتاجه وسلوكه الجماعي كما يحاول التأثير في هذا المجتمع عبر المشاركة الجماعية في الانتاج والعمل. والفكرة الطائفية لم توجد منذ قيام « لبنان الطائفي في عهد الفينيقيين » كما حاول تحليله انيس الصايغ لان تلك الاشكال من العبادة قد عرفتها كافة المجتمعات بأساليب مختلفة ولم تكن « مسألة طائفية » تدفع تطور مجتمع بأكمله طيلة مئات السنين . لذا يجب التفتيش عن المرحلة التاريخية التي ظهرت معها الطائفية ذات طبيعة بنيوية على صلة وثيقة بنمط الانتاج وعلاقاته وليس كأشكال من العبادة الدينية فقط . وظهر هذه الطائفية البنيوية لا يمكن النظر اليه الا على قاعدة ظهور التمايز الاجتماعي واستغلال الانسان للانسان ، أي على أعقاب تقسيم العمل ضمن تراتب اجتماعي منظم قبل ولادة الدولة ، بمفهومها الرأسمالي الحديث ، وبعدها .

فالدولة الطبقية من حيث هي أداة للسيطرة الطبقية ، كانت المنظم الاساسي لعلاقات الانتاج السائدة بما يضمن مزيداً من الاستغلال الطبقي تبعاً للقوى الاجتماعية المتصارعة . ففي بعض البلدان البورجوازية ، قامت الدولة البورجوازية بتحطيم العديد من العلاقات الفيودالية القديمة لصالح قوى البورجوازية الصاعدة ، في حين ان الدولة التي قامت على

قاعدة نمط الإنتاج الآسيوي ، حافظت على العديد من الركائز القديمة ومنها الطائفية والعشائرية والتجزئة الإقليمية . لذا يجب تركيز البحث ، لأعلى الأشكال التي ارتدت الطائفية خلال تطورها التاريخي ومرافقتها لعدة أنماط من الإنتاج ، بل على علاقات الإنتاج التي سمحت للطائفية أن تبقى المرافق الآمين لذلك التطور وأظهار المصلحة الطبقية التي عملت لها ولازالت تعمل وجود أشكال سابقة على الرأسمالية في مجتمعات باتت الرأسمالية تدفع العديد من علاقاتها ونمط إنتاجها . وبتحديد هذا الواقع الاجتماعي تتحدد مواقع الطائفية ودورها الطبقي .

ودراستنا تحاول التركيز على المسألة الطائفية منذ قيام الإمارة الشهابية ١٦٩٧ حتى إعلان الاستقلال السياسي للبنان عام ١٩٤٣ . وهذه المرحلة تتضمن نمطين من الإنتاج على الأقل :

**الأول :** ما يسمى بنمط الإنتاج الآسيوي في مرحلة ما قبل الرأسمالية .

**الثاني :** المرحلة الرأسمالية في إطار تكونها التاريخي كرأسمالية هامشية تابعة للغرب الاستعماري . فهي تكتفي بحد أدنى من العلاقات ذات الطابع الرأسمالي ، وتحتضن كل المعوقات السابقة على هذا النمط من الإنتاج حفاظاً على مصالح طبقية لتحالف قوى اجتماعية من كبار الملاكين ورجال الدين والبورجوازية الصغيرة والرأسمالية التجارية الوسيطة وغيرها .

ففي ظل مرحلة ما قبل الرأسمالية نعتمد تعبير « النظام المقاطعي » كنظام سياسي لا كنمط إنتاج سائد . والمقاطعي هو جابي الضرائب ، وزعيم عائلة تسيطر على مقاطعة أو عدة مقاطعات تتوارث حكمها وجباية ضرائبها بتفويض مباشر من المقاطعي الكبير ، أو الأمير الحاكم ، وبموافقة من السلطة المركزية العثمانية . فجباية الضرائب إذا هي في صلب العلاقات المقاطعية . والمقاطعيون ، على اختلاف مراتبهم من أمراء ومشايخ ومقدمين ، على علاقة وثيقة بجباية تلك الضرائب . فهم ، عادة ، معفيون من دفعها لكنهم يسعون لجبايتها لأن في تلك الجباية جانب أساسي من مظاهر نفوذهم وسطوتهم الاجتماعية - الطبقية . فلا سيطرة اجتماعية - طبقية دون جباية ضرائب حيث يحتفظ الجابي لنفسه بأضعاف ما يقدمه للأمير الحاكم وبالتالي للسلطة المركزية . فالمقاطعيون ، جباة الضرائب ، هم قاعدة السيطرة الطبقية في الإمارة الشهابية ، وهم أصحاب حق التصرف بأراضي السلطان أو الإميرية لقاء دفع ضريبتها ،

وهي ضريبة « الميري » التي ظلت موحدة طيلة مئات السنين . وبين المقاطعجي صاحب التصرف ، والفلاح أو الراعي أو الحرفي ، المحروم من كافة اشكال الملكية ، تندرج سلسلة من الاعيان في الارياف وتتوزع على عائلات مقاطعجية صغيرة تعتبر امتدادا للمقاطعجيين الكبار وحلفاء لهم . فضريبة الميري تتوزع في الاساس ، على قاعدة ثلاث قوى تدفع الضرائب :

– المقاطعجي صاحب التصرف والمكلف بجباية الميري .

– الاعيان أو زعماء القرى كامتداد للمقاطعجيين وصلة الوصل بينهم وبين الفلاحين .

– القوى المنتجة الفلاحية التي تعمل على الارض وترتبط بها مدى الحياة .

لكن نظام الجباية في التطبيق العملي ، قد حول تلك السلسلة الى اضعف حلقاتها أي القوى الفلاحية المنتجة ، كقوى تدفع بمفردها ، لاضرائب الدولة فقط بل اضعاف تلك الضرائب لكل من الزعيم المحلي والمقاطعجي المسيطر على مستوى المقاطعة والامير الحاكم وصولا الى الوالي والسلطان . فقانون الاستغلال الطبقي يجد تفسيره الكامل في اختلاف التسميات للضرائب التي يدفعها الفلاح . فقد حرمت السلطنة العثمانية كل أشكال الضرائب خارج الميري الموحدة . لكن القوى الطبقيّة المسيطرة أوجدت تسميات جديدة منها السخرة ، والمعائدات ، والهدايا ، وضرائب الزواج ، والعونة ، بالاضافة الى البلص والقروض أو التسليف بفوائد فاحشة وغيرها . ففي أسفل السلم الاجتماعي للهرم المقاطعجي يقبع الفلاح المنتج الذي عليه أن يمول ، بوسائل بدائية جدا وأراض صخرية قاحلة وغير قابلة للاستصلاح ، سلسلة من المستغلين المقاطعجيين الذين يعيشون طفيليين على حساب القوى الفلاحية المنتجة . وهذا الواقع الاجتماعي الذي يسبب بالضرورة أزمات حادة بين قوى الانتاج الضعيفة والمفككة والمنهكة ، وبين قوى السيطرة المقاطعجية المحاربة والمدعومة من السيطرة المركزية وعساكرها القوية ، هذا الواقع يفسر جانبا هاما من جوانب المسألة الطائفية . اذ ان تلك النقمة والتأزم الاجتماعي الذي تعيشه القوى المنتجة يتحول للانفجار بعيدا عن القوى الطبقيّة المسيطرة أي السبب المباشر والاساسي لذلك التأزم . والطائفية تحاول نقل الصراع عن الارض ، مجال الاستغلال والسيطرة ، الى السماء . فتفنى اعداد

كبيرة من القوى الفلاحية في صراع مستمر يكون المدخل الطبيعي لبعض القوى المقاطعية الطبقية المحرومة من السيطرة ، بفعل ظروف تاريخية معينة ، كي تحسن مواقعها الطبقية باسم الطائفية . فالصراع باسم الطائفية هو صراع حقيقي وليس صراعا وهميا . لكنه صراع تشعله قوى طائفية - طبقية تحاول استخدام القوى الفلاحية المنتجة في سبيل تحسين مواقعها الطبقية أي سيطرتها الاجتماعية على الانتاج وبالتالي على الضرائب . فانتاج الارض كان السبب الاساسي للصراع على السيطرة والنفوذ في مرحلة كانت الحرف والتجارة فيها لازالت في طور شديد الضعف . والسلطة المركزية العثمانية تعتمد في مواردها ، بشكل اساسي على انتاج الارض وتفرض ضرائبها على أساس ذلك الانتاج من خراج واعشار ومكوس أو ضرائب في التصدير والاستيراد . والسلطة المركزية هي حامية الارض وضامنة عمل القوى المنتجة عليها لقاء دفع « الميري » . لذا فالتجنيد واجب على كل قوى السلطنة دفاعا عن الارض من أي اعتداء خارجي أو تمرد داخلي . وتشارك القوى المقاطعية المسيطرة في هذه المهمة لقاء امتيازات واسعة منها الاعفاءات من ضريبة الميري أو اقطاعها أراض تدافع عنها وتدفع ضريبتها للسلطة المركزية . وكثيرا ما ابدلت السلطنة العثمانية أجور الجند والمقاطعيين باقطاعات جديدة معفية من الضرائب . وبفعل هذه الاعفاءات تولدت طبقة كبار الملاكين التي شكلت الركيزة الاساسية للسيطرة الطبقية العثمانية . فكبار الملاكين كانوا في الاساس كبار القادة العسكريين المحاربين . وبعد تمنعهم عن القيام بمهامهم الاصلية سارعت السلطنة العثمانية الى تلافي عجزها العسكري باعتماد نظام الانكشارية ، كقوى مكونة من اولاد المسيحيين في البلقان ، تقتلع من جذورها الطائفية واللغوية والاجتماعية منذ وقت مبكر ، وتصبح قوى عسكرية تعتمد عليها السلطنة في كافة تحركاتها . لكن هذه القوى الطائفية سرعان ما شكلت قوى طبقية على غرار كبار الملاكين . فتحكمت بأجهزة السلطنة ومقدراتها ، بدءا بالسلطان حتى أصغر الولاة ، مرورا بالصدر الاعظم والوزراء . والقوى الانكشارية شكلت القوى العسكرية المنظمة والاساسية على صعيد السلطنة وولاياتها ، وباتت ، مع تفسخ السلطنة وتفكيكها ، ذات مهام قمعية لا تمت الى الحروب والدفاع عن السلطنة بصلة . فقد حصرت همها بملاحقة الولاة وابتزاز التجار والحرفيين وكافة القوى المنتجة . وهذه القوى الطبقية الجديدة تعطي نموذجا

واضحاً على ارتباط الطائفية بالطبقية ، ليس كنفذين بل كوجهين لعملية واحدة . فالانكشارية قوى مسيحية المولد ، اسلامية الانتماء الطائفي ، عثمانية الاهداف السياسية ، قمعية الاساليب اذ تشكل القوة الضاربة الاساسية للسيطرة الطبقية . فالجمهير التي تخضع لابتنزاز هذه القوى القمعية هي جماهير كل الطوائف ، لكنها تحديداً الجماهير المنتجة بالدرجة الاولى . وحتى في حالة هيمنتها على بعض الزعامات المقاطعية وسلبها أموالها ، فان تلك الاموال ليست في الواقع سوى مسلوبات من القوى المنتجة يعاد سلبها مرة ثانية بعد ان جرى تجميعها . وكثيراً ما تشكلت قوى قمعية محلية للولاة كي تحميهم من خطر تلك القوى الانكشارية . كفرق المغاربة ، والدالاتية ، والارناؤوط وغيرهم وهي قوى قمعية أيضاً تجني رواتبها على حساب نهب القوى المنتجة لان الولاة الذين استقدموها كثيراً ماتمنعوا عن دفع رواتبها فأطلقوا ايادي أفرادها للنهب والسرقة . ويبقى الوجه الطائفي لقوى القمع وجهاً اسلامياً ينبع من ادعاء السلطان تمثيل المسلمين كافة ، وادعاء السلطان لنفسه القبا عديدة أبرزها « خادم الحرمين الشريفين » و« خليفة المسلمين » . لكن اسلامية تلك القوى القمعية لاتخفي طبقيتها كأداة للسيطرة الطبقية لكبار الملاكين الذين شكلوا قاعدة السيطرة الاساسية في السلطنة وولاياتها . فطائفية قوى القمع لايمكن ان تستر وظيفتها الطبقية ودورها الاجتماعي .

### بدايات التمايز الاجتماعي بوجهه الطائفي :

تعود بدايات ذلك التمايز الى دخول أشكال من النمط الرأسمالي الى العلاقات الانتاجية السائدة . ونعتقد ان هذه البدايات تعود الى النصف الثاني من القرن الثامن عشر في مقاطعات الامارة الشهابية حيث برزت فيها تمايزات على المستوى الاقتصادي والسياسي والطائفي . لكن تلك التمايزات بقيت ذات طابع جنيني حتى بروزها الكامل في الربع الثاني من القرن التاسع عشر .

فالنظام المقاطعي على قاعدة نمط الانتاج الاسيوي أو أشكال الانتاج ما قبل الرأسمالية، قد تعرض مباشرة لتأثيرات العلاقات الرأسمالية، خاصة الفرنسية منها ، خلال هذه الفترة . واذا كانت الثورة البورجوازية الفرنسية الكبرى قد وصلت الى السلطة عام ١٧٨٩ ، أي في أواخر القرن الثامن عشر ، فذلك لايعني ان الرأسمالية الفرنسية قد تأخر ظهورها حتى ذلك التاريخ بل كانت تنشط عشرات السنين قبل وصولها الى السلطة

وتقيم غرفها التجارية خاصة « غرفة تجارة مرسيليا » ، وشركاتها الواسعة كشركة « الشرق » وتتعاطى التجارة مع المشرق العربي ، ومنه مقاطعات الامارة ، على أساس من تلك العلاقات الرأسمالية قبل أن تصبح مهيمنة . لكن مرحلة القرن التاسع عشر هي المرحلة الحاسمة إذ انتقلت الرأسمالية الى شن هجمات مباشرة للسيطرة على أسواق جديدة و سلع خام وتصدير الرساميل ، فاثرت بعمق في تطور احداث المنطقة وتفجرها الصدامي في اطار المخططات الاستعمارية . فقد قدمت الرأسمالية الاوربية أشكالا جديدة من علاقات الانتاج ومن الوعي الاجتماعي العقلاني الداعي للتحرر تحت ستار « الحرية والمساواة والاخوة » والتأثير المباشر في تكوين الوعي لدى القلة التي تناولت ثقافتها في مدارس الاوربيين التي نشطت كثيرا خلال هذه الفترة .

وهكذا برز تناقض حتمي وجذري بين نمطين من الانتاج : نمط أوربي مندفع للسيطرة على العالم واقامة السوق الرأسمالية الشاملة ، ونمط انتاج آسيوي منغلق على نفسه يقيم علاقات اقتصادية شديدة الركود والتخلف ويحتمي خلف نظام طوائفي - حربي ينتج سلعا تحت الطلب أو للاستهلاك المحلي الضيق ضمن مجموعات حرفية منغلقة تتوارث عملها الصناعي ، وتجارة ضيقة تقوم على القوافل ومقايضة السلع ، وزراعة بدائية قليلة المردود وضعيفة التكنيك الزراعي .

هذه المواجهة الحتمية وجدت تعبيرها المباشر في تفكيك التجمعات العائلية المنغلقة على نفسها وتقيم علاقات ضيقة خارج حدود القرى الواحدة أو مجموعة القرى المتجاورة . وهي علاقات تتميز بالانغلاق والتساكن الطائفي ، وبالزعامات العائلية المقاطعية ، وتقيم علاقات سياسية شديدة الالتصاق بالمفهوم القبلي من حيث سيطرة الزعيم ، وتوارث الحكم ، وتوزيع الاراضي والعمل والحصص ، وممارسة القضاء ، وعلاقات الزواج العائلي الداخلي ، وادخار القوت لفترة طويلة من الحياة غير المنتجة في فصل الشتاء ، وغيرها . وهذه العلاقات تجد كامل تعبيراتها في النظام العائلي حيث تسود الحرف المنزلية المرتبطة بانتاج سلع للاستهلاك خاصة في الزراعة والتي تقوم على آلات تدار باليد أو بحيوانات الجر . وهي آلات بدائية من الخشب أو الحديد ، لا يستطيع استنبات الارض الا بمردود انتاجي ضعيف لا يكفي لاعالة القوى المنتجة ، في أحسن الحالات ، سوى لاربعة أشهر في السنة . وهكذا يبقى

الفلاح دوما في حدود الحاجة الماسة للقوت ، وفي الاستدانة أو الاستقراض للموسم القادم ، وهي علاقات تبقى في اطار التبعية لجابي الضرائب . فهذا الجابي المقاطعي كان يحصل ضريبة الميري عينا ، أي من السلع الانتاجية قبل أن تعم جباية النقود . فيبقى هذا المقاطعي صاحب الادخار الاساسي الذي تستقي منه القوى المنتجة كامل حاجاتها المعيشية في فترة الشتاء ، وتستلف حتى الموسم القادم لقاء ضرائب فاحشة وولاء سياسي كامل .

وهذه العلاقات الانتاجية تقوم على مشاعية للارض أو ملكية تصرف جماعية لها . لكن ذلك التصرف يبقى دوما من نصيب المقاطعي صاحب القوى العسكرية الضاربة ، وممثل السلطة المركزية وعساكرها .

وبحكم عوامل تاريخية عديدة تعود الى بدايات السكن المقاطعي داخل المنطقة التي شكلت امارة المعنيين ثم الشهابيين ، فان المقاطعيين المسلمين ، من دروز وشيعة وسنة ، كانوا في أساس السيطرة على ملكية التصرف في هذه المقاطعات بحيث ارتدت قوى السيطرة المقاطعية طابعا اسلاميا واضحا عبر مئات السنين قبل مجيء الحكم العثماني الذي ثبت هذه القوى في سيطرتها المقاطعية .

وبالمقابل ، كانت القوى الفلاحية تتشكل أساسا من الطوائف المسيحية ، خاصة الموارنة الذين كانوا في الأساس فلاحين بسطاء ورعاة ينزلون من جبال قاديشا مع حاشيتهم الى السواحل حيث يمضون فصل الشتاء ثم يعودون الى الجبال صيفا . وقد استمر هذا الوضع حتى أواخر القرن الثامن عشر كما تؤكد كافة تقارير القناصل الفرنسيين . لكن الكثافة السكانية المارونية ، واضطهاد القوى المقاطعية من آل حمادة وزعماء موارنة لهؤلاء الفلاحين الموارنة في وادي قاديشا ، دفع اعدادا متزايدة منهم للنزوح الى المتن والشوف وجزين والغرب وغيرها بعد ان سبقتهم هجرة مارونية مشابهة اثر الضربة الاليمة التي حلت بدروز وشيعة ونصيرية كسروان على يد المماليك في مطلع القرن الرابع عشر .

وهذه الهجرة المارونية الفلاحية الكثيفة سمحت للقوى المقاطعية ، الدرزية بشكل خاص والاسلامية بشكل عام ، ان تمارس نهب جماهير فلاحية مارونية كبيرة . ولم يكن بإمكانها القيام بذلك النهب الا بدعم مباشر من السلطة المركزية من جهة ، وايجاد قوى عسكرية محلية من جهة

أخرى ، وذلك على غرار ما كان يفعل كافة الولاة . وكان من الطبيعي أن تلجأ الزعامات المقاطعية الدرزية الى تجييش عساكر محلية من الدروز تمارس دور الارهاب والقمع للقوى المنتجة الفلاحية . كذلك فعل المقاطعيون الشيعة أو السنة ، دون أن يعني ذلك انتقال كافة القوى الشبابية في الطوائف الاسلامية الى مصاف القوى التي تمارس العمل العسكري فقط . فقد بقيت جماهير فلاحية غفيرة من كافة الطوائف الاسلامية ، تخضع تماما كالجماهير الفلاحية المسيحية ، لكافة أنواع الابتزاز والبلص . لكن طبيعة نظام التجنيد العثماني الذي لا يسمح بإدخال المسيحيين في عداد العساكر النظامية وغير النظامية بل يعتبر المسيحيين أهل ذمة لا يدخلون القتال ولا يشاركون فيه ويدفعون لقاء حمايتهم ضريبة الجزية . لذا تكونت كل الفرق الضاربة والقمعية من العناصر الاسلامية المولد والمنشأ ، أو المسيحية المولد والاسلامية التنشئة كالانكشارية .

فالقضية اذا ، في جوهرها ، تجد كامل تفسيرها في النظام المقاطعي الذي يسعى دوما الى نهب الفلاحين وتسخيرهم . وجاءت الطائفية تمد هذا النظام بدفع جديد من علاقات التآزم والتناقض الاساسي . فصراع القوى المقاطعية مع الفلاحين والرعاة الخاضعين لاستغلالهم بدأ يدخل حيز الاشكال الطائفية التي ساعد الاستعمار الغربي على بلورتها وازدهارها كصراع مصري بين قوى طائفية . فالرساميل الغربية ، الساعية الى تفكيك كافة البنى الاقتصادية والاجتماعية والسياسية المعيقة لتغلغلها ، وجدت في الطائفية والصراع الطائفي شكلا ملائما تماما لتفكيك النظام المقاطعي السابق وضرب ركائزه مع وعد للفلاحين « بالتححر » من ذلك النظام .

لكن ذلك الوعد جاء على غرار الوعود التي أغدقت على فلاحى الثورة الفرنسية من قادة الثورة البورجوازيين . اذ سرعان ما أقيمت علاقات استغلال جديدة تبقي على كافة علاقات الاستغلال القديمة وتضيف اليها بروز الكنيسة المارونية كقوة اقتصادية واجتماعية وسياسية كبيرة ذات دور محدد في تطور مقاطعات الامارة والشكل السياسي الذي بدأت تظهر به منذ قيام القائمقاميتين والمتصرفية والانتداب حتى اليوم . فالطائفية لم تكن « تشويها » للصراع الاجتماعي أو « حرفه » عن اطاره الصحيح بل مفجر اساسي فيه بعد ان دخلت في عمق التركيبة الاقتصادية والاجتماعية



والسياسية المسيطرة . فانتقال الكنيسة المارونية الى هذه المرحلة في القرن التاسع عشر كان بفعل الملكية الكبيرة التي نالتها هذه الكنيسة ورهبانيتها خلال هذه المرحلة . فليس المطلوب رؤية الاشكال الطائفية للصراع في التركيبة الاقتصادية - الاجتماعية للكنيسة ، بل المطلوب دور تلك البنى الاقتصادية - الاجتماعية للكنيسة في تفجير ذلك الصراع بعد احتدام التآزم بين قوى الانتاج وعلاقات الانتاج . فالانتقال الاجتماعي - السياسي - الاقتصادي للكنيسة المارونية كي تلعب هذا الدور ليس انتقالا طائفا بل ان هذا الانتقال الطائفي هو الانتقال الطبقي عينه . فليست جماهير المؤمنين المسيحيين الموارنة هي التي انتقلت الى السيطرة والتصدي للمقاطعيين الدروز والشيعية والسنة وغيرهم ، بل فئات الاكليروس الاعلى والمقاطعيون الموارنة هي التي انتقلت الى هذا الدور ضد المقاطعيين المسلمين على اختلاف طوائفهم ، وضد جماهير القوى المنتجة من كل الطوائف ، وبشكل خاص جماهير الفلاحين والرعاة الموارنة . فالطائفية في هذا المجال لم تكن شيئا آخر يتميز عن الطبقة .

لكن السؤال الاساسي : كيف تستطيع قوى طبقية - طائفية تجيش اعداد كبيرة من الفلاحين والرعاة في معارك لانتم لمصالحها الطبقية بصلة ، لا بل تدخل في معارك ضد مصالحها الطبقية في معظم الاحيان ؟ هنا يجب العودة الى نمط الانتاج السائد وموضع القيادة فيه ، سواء هنا القيادة المقاطعية أي القيادة الطائفية . « فالتفكير في أية مسألة ماركسية يعني التفكير فيها تاريخيا » كما يؤكد بيير فيلار *Piere Vilar* .

فكيف نفكر تاريخيا بدور القيادة في تفجير صراع طائفي - طبقي تذهب ضحيته جماهير غفيرة من القوى الفلاحية المسحوقة وتخرج منه تلك القيادة الطائفية بمكاسب طبقية تحاول اظهارها وكأنها مكاسب للطائفة بأسرها ، كما حاولت البورجوازية في ثورتها ان تظهر انتصارها الطبقي كما لو كان انتصارا لكافة فئات الشعب .

في جوهر كل نمط للانتاج تكمن اشكال معينة من الملكية . ويعيننا هنا نمط الانتاج الآسيوي حيث كان السلطان بمثابة المالك المطلق للارض . وهذه الملكية لم تنف وجود ملكية خاصة ، ضعيفة لكنها تتزايد باستمرار وتخضع دوما لمزيد من الاعتداء . فكانت في المرحلة الاولى في حدود المنزل وبعض الممتلكات الصغيرة التي ترتبط به وتجاوره . فملكية السلطان المطلقة للارض لم تنف وجود قطع من الملكيات الصغيرة المتوازنة

في القرن الثامن عشر ، أي مطالع الحكم الشهابي . كذلك فان تقسيم العمل داخل القرية والتجمعات السكانية فيها كان يتم على أساس ملكية جماعية للأرض ، وهي ملكية تصرف لكنها ملكية تتمتع بطابع الثبات عليها والعمل فيها وتوارث ذلك العمل من الآباء إلى الأبناء . وتشمل الوراثة المقاطعيين والفلاحين على السواء . المقاطعجيون يرثون السيطرة وجباية الضرائب وحق توزيع الحصص وتقسيم العمل ، والفلاحون يرثون العمل والثبات على الأرض وفي المنزل ، والحماية من الاعتداءات الخارجية ، وتقديم الضرائب في موعدها ... الخ ..

وبالإضافة إلى دور المقاطعجيين في السيطرة وجباية الضرائب ، فان لهم حق ممارسة القضاء على رعاياهم ، وحق توزيع المياه ، ومنع التعديتات على المواسم . كل هذه الأدوار يجب ان تحظى بموافقة السلطة المركزية التي تخوله أياها كاملة ، أو تعزله فلا تبقي له على شيء عندما تعين آخر مكانه ليلعب نفس الدور .

فالسلطة المركزية هي صاحبة الكلمة الأولى في هذا المجال . والمقاطعجي المحلي جزء أساسي منها . وعساكر السلطنة في حالة تأهب كامل لدعم هذا المقاطعجي إذا كان على علاقة وطيدة معها ، أو لعزله وطرده إذا كان على علاقة سيئة بها . والعلاقة الوطيدة تتلخص دوماً بالطاعة وتقديم الضرائب تبعاً لمبدأ « فرض الطاعة عليهم وجباية الميري منهم » . وهذا المبدأ يلخص تاريخ علاقة المقاطعجيين وجماهيرهم الفلاحية بالسلطة المركزية بتاريخ حافل من الغزوات المستمرة لقمع العصيان ، وفرض الطاعة ، وتأمين جباية الضرائب بحيث تختزل تلك العلاقة إلى سلسلة من النهب والافقار المستمر للقوى المنتجة . وما دور الاستعمار الخارجي في مرحلتي المتصرفية والانتداب إلا إبدال لنهب القوى المقاطعجية وسلطتها المركزية العثمانية بنهب للقوى الرأسمالية الخارجية عبر الشركات والبنوك والرساميل . وقد تم ذلك الإبدال بتفكيك العديد من ركائز الاقتصاد البضاعي العائلي ونظام المقايضة وبإدخال أشكال متنوعة من النمط الرأسمالي وعلاقته . وذلك التفكيك لم يتم قط بشكل «سلمي» وهادئ بل رافقه الكثير من الاضطرابات والصدمات الدموية ، لأن القوى المتقهرة طبقياً تحاول التشبث بالحياة دون أن يكون بمقدورها حرف مسار التاريخ عن تطوره الطبيعي . فالنظام المقاطعجي المتماسك على قاعدة نمط الإنتاج الآسيوي المنفلق على نفسه طائفيًا واجتماعيًا واقتصاديًا

لم يستطع الصمود حتى النهاية في وجه غزوات الرساميل المتكررة وما رافقها من تجارة و سلع ومدارس ، وارساليات ، وبنوك وسكك حديد ، وطرق ، وسيارات ، وغيرها . فتهدم العديد من ركائز النمط الاسيوي لصالح اشكال من النمط الرأسمالي الذي كان يبنى على انقاض ما تهدم من النمط الانتاجي السابق في مرحلة شهدت استحالة الاستقلالية لتطور القوى المحلية دون تدخل استعماري مباشر ومؤثر في الوقت نفسه . فالنمط الانتاجي الجديد ضرب آفاق المستقبل أمام الزعامات المقاطعية القديمة ونظامها المنفلق . فأزيلت بعض تلك الزعامات المقاطعية ، وظهرت زعامات جديدة ترتبط بالاشكال الحديثة للنمط الرأسمالي ، وهي زعامات على صلة وثيقة بالرساميل الخارجية وسلعها وسوقها العالمية . ومع ضرب الملكية المشاعية وتفرد السلطان بملكية الارض كانت تنشط ملكية خاصة ، محمية قانونيا ، وتفرض معها زعامات من الملاكين ، على اختلاف درجاتهم ، تتمسك بملكياتها الخاصة وترفض العودة الى الشكل المشاعي أو الملكية السلطان للارض . فتحددت ملامح مرحلة جديدة قائمة على الملكية الخاصة للارض على انقاض الملكيات السابقة عليها . وارتدت هذه المرحلة وجهها الحقوقي مع تدابير الطابو أو المساحة منذ مطالع القرن التاسع عشر ( في الامارة الشهابية عام ١٨٠٧ ) . وهكذا ظهرت ملكيتان واضحتان ومعترف بهما معا : ملكية مشاعية مع ما يستتبعها من اراض موات ومتروكة ، و ملكية خاصة محمية . وبين هذه وتلك كانت تزدهر ملكية وقفية كبيرة للمؤسسات الدينية والتي توسعت كثيرا لاسباب متعددة منها الهروب من الضرائب ، والهبات ، والوفاء ، وتشجيع السلطات ، ونفوذ رجال الدين وغيرها . وباتت هذه الملكية الوقفية ، خاصة الرهبانية منها، تشكل مساحات شاسعة من اراضي الامارة تناولناها بالدراسة من خلال ارتباطها بتأزم المسألة الطائفية . فظهور الملكية الخاصة وتطورها الحقوقي كان يعني بداية مرحلة جديدة ترافق ظهور المرحلة الرأسمالية وتقطع تدريجيا مع النمط السابق للانتاج . وهذا الظهور حمل معه الكثير من الاسقاطات الايدولوجية التي تفرق بين بروز الملكية الخاصة والتحرر من برائن السيطرة المقاطعية . فتقدم الكثير من الاستنتاجات حول « الفلاح اللبناني الحر » والفلاح المتمتع باستقلاله الكامل في جبله » والفلاح الذي فضل الحرية مع الفقر على العبودية مع

وفرة الانتاج . . » الخ . لكن مثل هذه الاسقاطات ليست سوى تضليل لجأت اليه القوى الطبقية الجديدة التي سيطرت على قاعدة الملكية الخاصة للأرض ، فحاولت تصوير الامتار القليلة الصخرية التي « يملكها » هذا الفلاح الجبلي بمثابة « التحرر » من نير العلاقات المقاطعية الطبقية السابقة . وان هذا « التحرر » كان من ثمار الارتباط المباشر بالغرب « المحرر » من السلطنة العثمانية « الاستبدادية » .

لكن الوثائق التاريخية تؤكد ان وضع الفلاح الجبلي لم يكن بأحسن حال من نظيره في السهول المجاورة ، فكلاهما يعيشان دوما على حدود الفاقة والعوز ، ويخضعان باستمرار لكل أشكال النهب والبلص . وما انتفاضات الفلاحين في مطالع القرن التاسع عشر التي يتم الاستشهاد بها لظهور نموذج « التحرر من العبودية » ، سوى اثبات واضح على تأزم العلاقات الاجتماعية الطبقية بين القوى الفلاحية المنتجة ، دافعة الضرائب ، والقوى المقاطعية المسيطرة التي تجبي تلك الضرائب . كذلك الترابط بين انتفاضات الفلاحين في الارياف ، وانتفاضات الطوائف - الحرفية في المدن لأسباب متقاربة ، أي ضد الاستغلال والقهر والمنافسة الخارجية غير المتكافئة . لكن انتفاضات الطوائف - الحرفية كانت أكثر فاعلية بسبب تماسكها البنيوي وتأثيرها المباشر على السوق المحلية بعكس انتفاضات الفلاحين التي شهدت ، في الغالب ، العديد من القيادات المقاطعية على رأسها . مما أضعف دورها وشوه الكثير من مطالب الفلاحين الأساسية . وهذه الانتفاضات الفلاحية ، التي كانت كلها ضد الضرائب والنظام الضرائبي ، لم تؤد الى خفض تلك الضرائب بل الى مضاعفتها في معظم الاحيان وحرق الكثير من القرى والمزارع والقاعدة الأساسية للانتاج الفلاحي ، من أشجار وماشية ومنازل وأدوات زراعية وغيرها . وهنا أيضا يجب التفتيش على البنى الأساسية التي جعلت تلك الانتفاضات الفلاحية تنتهي دوما باليأس وبصعود قوى طبقية جديدة تمارس استغلالها للفلاحين . ففي هذه البنى يكمن مفتاح فهم ذلك الاخفاق وليس في « تصرفات الفلاحين وفقدان الوعي والتنظيم لديهم وممارستهم لأشكال طائفية أثناء الانتفاضات و . . . » .

من أهم تلك البنى يكمن رصد نظام العائلة المقاطعية المسيطرة على الفلاحين . وهذه العائلة المقاطعية أو مجموع العائلات تشكل الهرم السياسي والاجتماعي والطائفي والعسكري والقضائي والاقتصادي وغيره

من العلاقات التي يخضع لها الفلاحون . فالزعيم المقاطعي ليس مجرد فرد مقاطعي بل زعيم عائلة كلها مقاطعيون . ومنهم زعماء تجمعات عائلية مقاطعية . وهذه العائلات المقاطعية والزعيم الفرد الناطق باسم تحالفها ، هي عائلات سياسية مهيمنة ، لكنها في الوقت نفسه عائلات طائفية . وبالرغم من ان الوجه الطائفي لم يكن دوماً وحيد الجانب في التحالفات المقاطعية ، لكنه كان حاضراً فيها باستمرار . وحتى التحالفات المقاطعية المتصارعة ضد بعضها البعض كانت تهدف الى ترسيخ مواقع مقاطعية داخل الطائفة بالدرجة الاولى . فالتحالف الدرزي - الماروني لبعض المقاطعيين مثلاً ، ضد تحالف آخر من النوع الطائفي ذاته أو بتركيبة أخرى ، كان يهدف الى ترسيخ هيمنة الزعيم المقاطعي الدرزي داخل الدرور ، والزعيم المقاطعي الماروني داخل الموارنة ، وهيمنة التحالف كله ، بأفضلية للزعيم الاقوى ، على الساحة السياسية المقاطعية التي تدور المعركة من أجلها . فهؤلاء الزعماء المقاطعيون لا يدخرون في معاركهم وتحالفاتهم أية قوى اقتصادية أو طائفية أو استدرار معونات خارجية في سبيل كسب معركتهم التي يتوقف عليها مصيرهم السياسي ونفوذهم الاقتصادي .

وهكذا يدخل الصراع في عمق التركيبة الاقتصادية - الاجتماعية - السياسية من أعلى الهرم حتى أسفله . فالمعركة لها أبعاد سياسية - عسكرية يعصده نتائجها الولاة المجاورون ، والامير الحاكم ، والتحالفات المقاطعية المحلية . لكن تلك المعركة تدفع ثمنها باستمرار كافة القوى الفلاحية المنتجة على امتداد المقاطعات التي يجري عليها الصراع ، دون أن تحصد ، ولو مرة واحدة ، أية نتائج ايجابية لانتصار أسيادها . فمزيد من الضرائب ، مزيد من التقتيل وحرق المنازل وقطع الأشجار ، مزيد من مصادرة الماشية ، مزيد من البلص والسخرة ، تلك هي النتائج الثابتة لذلك الصراع . ونعود لنطرح السؤال مجدداً : اذا كانت تلك هي النتائج الثابتة فلماذا تدخل القوى المنتجة دوماً في حمى ذلك الصراع ؟ والجواب كما يقدمه أنجلز « وكأنه كتب على الفلاحين أن يدفعوا باستمرار ثمن الصراع الذي فرضته عليهم القوى المسيطرة » . فهذه القوى المسيطرة هي التي تشعل ذلك الصراع دون أن تكون هناك أية امكانية للقوى الفلاحية المنتجة أن تبقى خارجه . فالسيطرة على الأراضي ، والقوى العسكرية ، ونظام الضرائب ، وتفكك الفلاحين ، والاستلاب المستمر

من المقاطعيين ، وفقدان اية امكانية للرحيل خارج منطقة نفوذ المقاطعجي ،  
والتمسك بالارض التي يعمل عليها بالرغم من أن ملكيتها لاتعود اليه ،  
والتأثير الديني على وعي الفلاحين ، وفقدان المدارس والتعليم ، والحفاظ  
على الوجود والثبات العائلي ولقمة العيش وغيرها الكثير ، كلها تشكل  
مظاهر لخضوع الفلاح للسيد المقاطعجي والدولة التي يمثلها وخوفه  
من قواها القمعية ، فيشارك بتلك الحروب ، وأحيانا بحماس زائد للنصر  
الذي يحمل مزيدا من الخضوع والاستغلال والقهر .

ان القاء مزيد من الاضواء على نمط الانتاج السائد يبرز التحليل  
العلمي الوحيد القادر على فهم الية هذا القانون الاجتماعي الذي سيطر مئات  
السنين ولازال حتى اليوم في كثير من قرى لبنان . فاذا كان المقاطعجي هو  
الذي يخوض الحروب ويدخل فيها كافة الفلاحين الخاضعين له دفاعا  
عن مصالحه الذاتية ، مصورا لهم ان مصالحه هي مصالحهم بالضبط ،  
فما هي طبيعة هذه السلطة التي يسيطر من خلالها المقاطعجي على فلاحيه ؟  
هل هي طبيعته كمالك للارض أم مجرد جاب لضرائبها ؟ والجواب على  
هذا السؤال يقود فعلا الى بعض المقاربات النظرية لفهم علاقة القوى  
الفلاحية المنتجة بقوى السيطرة المقاطعجية ، المدنية والدينية على السواء .

لقد كان السلطان المالك الشرعي الوحيد للارض . لكن ماتبقى من  
المسيطرين يمارسون عليها حق التصرف . فهل يعني ذلك ان السلطان هنا  
هو مجرد فرد أم مؤسسة سلطوية تبدأ بالسلطان وتنتهي بصغار  
المقاطعجين الذين يحق لهم الاستنجد بعساكر السلطة لممارسة السيطرة  
على انتاج الارض وبالتالي جباية الضرائب التي يتعهدون تقديمها للسلطان؟  
فالقوى المقاطعجية المسيطرة لها حق شرعي بالبقاء على جباية مقاطعاتها طالما  
أدت ضرائبها عنها . وهذا الحق كان المدخل الطبيعي لتملكها أراضي تلك  
المقاطعات في فترة تفكك بني السلطنة . لكن هذه القوى المقاطعجية ، تماما  
كالعائلة السلطانية المسيطرة ، ليست مجرد فرد مقاطعجي بل أسس  
مقاطعجية متساوية في الحقوق المقاطعجية . وهذا عامل آخر ساعد على  
تثبيت هيمنتها على مقاطعات معينة جبت ضرائبها مئات السنين ثم عادت  
فتملكت مساحات شاسعة من أراضيها الملك بعد استخدام الطابو  
والمساحة ، وجاءت تدابير الانتداب تثبت هذا العامل وتجعل أجهزة  
الدولة في حماية الملكية المقاطعجية الخاصة التي حصلت عليها بالنهب  
والبص والرشوة وابتزاز القوى الفلاحية المنتجة واستغلال هجرة

الكثير من أفرادها . وهذه القوى المقاطعية التي حولت الاملاك السلطانية أو أملاك التصرف الى أملاك خاصة منذ مطلع القرن التاسع عشر لم تكن قوى مدنية فحسب بل دينية كذلك عبر الاملاك الوقفية ، الاسلامية والرهبانية على السواء . وهذا جانب هام لفهم تكون الملكيات الخاصة في المقاطعات « اللبنانية » تبعا للقوى المسيطرة فيها . ففي البعض منها سيطرت القوى المقاطعية الدرزية ، وفي الاخرى الشيعية أو السنية أو الارثوذكسية أو الاوقاف أو الرهبانيات وفي جميع الحالات فان الجامع المشترك بين هذه الملكيات الخاصة انها اخرجت مساحات من الاراضي ، خاصة الوقفية منها ، من دائرة البيع والشراء ومنعت القوى الفلاحية من امكانية تملكها . كما انها حرمت هذه القوى الفلاحية من امكانية تسجيل الاراضي التي كانت تعمل عليها منذ مئات السنين كملكية خاصة لها كما فعلت القوى المقاطعية المسيطرة ، بل أدخلت في روع الفلاحين ان تدابير الطابو والمساحة لم تكن تهدف الا الى فرض ضرائب جديدة باهظة مما دفع العديد من الفلاحين الى التمتع عن تسجيل تلك الاراضي باسمائهم فسجلت بأسماء المقاطعيين أو الاوقاف أو الاديرة . وكانت السوابق السلطوية عديدة في هذا المجال حيث كان يرافق كل احصاء للرؤوس وعدد الاشجار والماشية أو المزروعات زيادات في الضرائب . ولم تكن السلطة ، في عرف الفلاح ، تعني سوى أدوات القمع والحوالة والبلص والسخرة ، ولم يتعرف الا على وجهها الضرائبي دون أية تدابير اصلاحية في الريف . وهكذا تحول المقاطعي صاحب التصرف لقاء جمع الضرائب في فترة قوة السلطنة العثمانية الى مالك حقيقي ، ملكا خاصا معترفا به في فترة تفكيكها منذ القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين . وجابي الضرائب نفسه تحول لاحقا الى النائب والوزير وصاحب السلطة الفعلية في الريف زمن الانتداب الفرنسي وتحولت اليه كامل صلاحيات الولاية العثمانيين في حين اكتفت ادارة الانتداب بحماية ضرائب تلك الريف ووضع عساكرها في تصرف كبار الملاكين لاختضاع فلاحهم وقمع انتفاضاتهم ، وتثبيت النهب العقاري الذي حصل عليه المقاطعيون زمن الحكم العثماني .

ومع تحول في النمط الآسيوي للانتاج الى بعض سمات النمط الرأسمالي الجديد كان حق التصرف المقاطعي يتحول تدريجيا الى

ملكية خاصة قابلة للبيع والشراء والرهن وغيرها . وهذه السمة سمحت للقوى الفلاحية ان تشتري بعض تلك الاملاك بسبب التكاليف الباهظة التي كان يتكبدها المقاطعجي السابق من جراء سكنه في المدينة واقتراجه من مركز السلطة وعساكر الانتداب . وكانت مصاريفه المدنية ومجتمع الاستهلاك الذي يحياه يفرضان عليه حاجة مستمرة الى النقود وتعاطي التجارة بالاضافة الى المشاركة النشيطة في صفقات الادارة الحكومية الفاسدة . وكانت تلك التحولات مقرونة ببعض الملكيات الصغيرة في جبل المتصرفية ، احدى الركائز الاساسية لولادة الملكية العقارية الصغيرة وظهور فئة صغار الملاكين . كذلك ظهور فئة الملاكين من اصحاب الملكيات المتوسطة الذين كانوا في الاساس مندوبي كبار الملاكين ومديري املاكهم في الارياف ( الخولة ) الذين جمعوا تلك الاملاك على قاعدة ابتزاز كبار الملاكين من جهة ، والفلاحين الفقراء من جهة اخرى .

اما الملكيات الوقفية ، خاصة الرهبانية منها ، فقد استمرت تتزايد طيلة القرن التاسع عشر والنصف الاول من القرن العشرين . فقد حرمت قرارات الرؤساء العامين للرهبانية والاقواف بيع أية ملكية وقفية لاي سبب كان . فحافظت تلك الملكيات على طابعها الحقوقي الوقفي غير القابلة للتجزئة والبيع والرهن . ومازالت هذه القوانين سارية المفعول اذ لايجوز بيع اراضي الرهبانية الا بقرار صادر عن البابوية . لهذا بقيت الملكية الوقفية ، والرهبانية خاصة ، تسيطر حتى اليوم ، على مساحات شاسعة من الاراضي تعمل عليها قوى فلاحية كثيرة وتتعرض لاستغلال مشابه لما يجري على اراضي كبار الملاكين .

وهكذا يتبدى بوضوح ان ظهور الملكية الخاصة وتزايدها كان مقرونا بضعف السلطة المركزية العثمانية من جهة ، وتعزز دور السلطة المحلية في الولايات من جهة اخرى . والدولة المحلية التي ولدت مع المتصرفية ولبنان الكبير ، لم تكن في الواقع سوى سلطة طبقية واضحة يلعب فيها كبار الملاكين دورا أساسيا ، خاصة في تقرير مصير الارياف وضرائبها وحرمانها الدائم من مشاريع الري والانارة والطرق وغيرها . وكبار الملاكين هم ابناء المقاطعجيين القدماء ، والمؤسسات الوقفية الدينية سيطرت على املاك عقارية واسعة . ومقابل توضيح هذه الصورة السريعة لولادة الملكية الخاصة والوقفية وظهور كبار الملاكين وسيطرتهم على الارياف ومشاركتهم النشيطة في جميع مؤسسات الدولة ، يطرح سؤال منهجي آخر : كيف تحولت القوى المنتجة الفلاحية من المشاركة ،



الشكلية ، في ملكية أراضي التصرف ، الى قوى فلاحية ذات « تحرر » واضح من العلاقات السابقة ( كالخضوع الدائم للمقاطعي ودفع الضرائب الباهظة وعدم القدرة على الانتقال الى مكان آخر ، ودفع كافة الفروض المقاطعية . . ) وبقيتها قوى منتجة مجبرة على بيع قوة عملها كي تعيش ؟ والجواب على هذا السؤال يختصر ايضا جانبا هاما من العلاقات الاجتماعية التي نشأت بين كبار الملاكين والقوى الفلاحية المنتجة في فترة ظهور وتعزز دور الملكية الخاصة العقارية ، كسمة أساسية من سمات انتقال المجتمع نحو النمط الرأسمالي للانتاج .

وهنا نعيد طرح السؤال بشكل آخر : كي يتحرر الفلاح من القيود المقاطعية السابقة يجب أن تكون هذه القيود أو الفروض المقاطعية قد تعرضت فعلا لهزات عنيفة أدت الى ازالتها ، حقوقيا وعلى أرض الواقع . ونحن نقرأ مثل تلك الهزات في الانتفاضات الفلاحية في الامارة الشهابية ، خاصة في القرن التاسع عشر ، وتحديدًا انتفاضة فلاحي كسروان لعام ١٨٥٨ . ونقرأ أيضا في اعلان المتصرفية ، مواد تنص صراحة على إلغاء القيود المقاطعية السابقة وتحرر الفلاحين والاعتراف بالمساواة الكاملة بين الفلاحين والمقاطعيين في الحقوق والواجبات .

هذه المكتسبات التاريخية لايجوز التقليل من أهميتها في ضرب ركائز الفروض المقاطعية السابقة وتفسخ النظام المقاطعي والسماح بتطوير علاقات جديدة على النمط الرأسمالي ، شديدة التبعية للغرب الاستعماري، خاصة نموذجيه الفرنسي والانكليزي . كذلك شهدت المرحلة اللاحقة ولادة تفسخ للحرف وقيام مؤسسات صناعية رأسمالية شاركت فيها اليد العاملة اللبنانية بنشاط منذ المتصرفية حتى الانتداب ثم الاستقلال . وكانت هذه المؤشرات دلالة حسية على قيام أشكال انتاجية ذات طابع رأسمالي واضح حملت معها دمارا للقوى الحرفية وللملاكين صغار وتحولهم الى مزارعين مياومين أو موسمين أو اجراء ، كما حولت بعض الحرفيين أيضا الى عمال مياومين . لكن ذلك الفرز لم يكن عميقا وقاطعا اذ استمرت اعداد كبيرة من الفلاحين المالكين الصغار يعملون في أراضيهم ، وفي حيازة أملاك أخرى بالضمان أو المشاركة أو العمل الموسمي . كما أن ارتباط الحرفي بالمؤسسات الصناعية الحديثة لم يكن قاطعا اذ استمرت اعداد هامة تمارس عملها الزراعي الى جانب عملها الصناعي .

وهكذا بدأ نمط الانتاج السائد وكأنه مزيج من الانماط السابقة على الرأسمالية والتي أدخلت اليها بعض الاشكال الرأسمالية الشديدة التبعية للغرب في بعض القطاعات السلعية والاستهلاكية . فاذا كان من المستحيل نكران ظهور هذه الاشكال القائمة على النمط الرأسمالي والملكية الخاصة والعمل المأجور ، فان من المستحيل كذلك اثبات ان هذه الاشكال قد قطعت مع الانماط السابقة على الرأسمالية . وان ظهور مؤسسات صناعية لم يكن بفعل الحاجة الموضوعية للتطور الانتاجي الاجتماعي بل مؤسسات مزروعة من الخارج تهدف الربح السريع ، واليد العاملة الرخيصة ، والتهرب من دفع الضرائب في بلادها وسد حاجات استهلاكية محلية ، وتدمير انتاج حربي محلي يشكل عقبة أمام تطور الرساميل الخارجية ويضعف المقاومة المحلية المرتبطة بهذا النمط من الانتاج الطوائفي - الحربي . فظهور الملكية الخاصة العقارية في الريف كان مقرونا بثبات الملكيات الوقفية الدينية الكبيرة . وظهور المؤسسات الصناعية الحديثة كان مقرونا بتهديم السلع المحلية ولايلبي الحاجات الاساسية للتطور الاقتصادي والاجتماعي بل يقوم على تبعية كاملة للرساميل الخارجية . وانتقال المقاطعجين الى كبار الملاكين ، وبروز المؤسسات الدينية كفصيل أساسي من فصائل كبار الملاكين ، كانت تستدعي بقاء الطائفية في صلب العلاقات الاجتماعية لحماية هذه الاملاك الوقفية الكبيرة ولتدعيم نفوذ المقاطعجي السابق في جهاز الدولة الجديدة - القديمة . فهذا الزعيم المقاطعجي بقي يحافظ أيضا على صفته كزعيم طائفي في دولة تقوم على التوازنات الطائفية الحقوقية منذ اعلان القائمقاميتين حتى اليوم . وبدت سيطرة الزعيم المقاطعجي كسيطرة طائفية ، وسيطرة المؤسسات الوقفية سيطرة طائفية كذلك ، بحيث بقيت هذه الطائفية ، كما في السابق ، في عمق الملكية الخاصة المسيطرة التي تجند قوى طائفية واسعة للدفاع عنها . فمجرد الاعتداء على ملكية زعيم طائفي أو على ملكية دير أو أوقاف يستثير حماس جماهير طائفية كبيرة تندفع فورا للدفاع عن أراض ليست لها ، ومصالح ليست مصالحها ، لا بل مصالح طبقية اجتماعية تعيق تطورها .

وهنا بالذات نعود الى الحلقة المنهجية الاساسية : كيف تستطيع قوى طائفية - طبقية ، في ظل نمط من الانتاج يدعي بعض الاشكال الرأسمالية ، ان يحافظ على أشكال سابقة على الرأسمالية ، ويجند قوى طبقية في معارك ليست في صالحها لابل ضد مصالحها ؟

والجواب سنفتش عليه أيضا في هذا النمط من الإنتاج وليس في المظاهر الطائفية السائدة . فتمط الإنتاج الرأسمالي الذي توضح بشكل كامل في المجتمعات الغربية كان الحصيصة التاريخية لتطور قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج المختلفة . وقد أقام ذلك النمط في بعض البلدان الأوروبية علاقات إنتاجية طبقية واضحة دون أن يعني ذلك أن هذه العلاقات واضحة وموحدة لجميع المجتمعات . فالبعض منها قد قطع نهائيا مع الأنماط السابقة على الرأسمالية وأقام دولة بورجوازية على قواعد عقلانية تنظم الإنتاج والعلاقات والعمل والملكية بشكل يضمن هيمنة كاملة لأصحاب الرساميل . لكن البعض الآخر ، في داخل أوروبا بالذات ، قد حافظ على العديد من الأنماط ما قبل الرأسمالية ( أيرلندا ، جنوبي إيطاليا ، اسبانيا ، البرتغال ... )

واستمرت الطائفية أو التجزئة والدعوات الإقليمية تشكل ركائز ثابتة للتحرك في بلدان أوروبية عديدة وهناك بعض النظريات التي تؤكد على مصلحة هذه الرأسمالية في ابقاء مثل تلك العلاقات السابقة على الرأسمالية حماية للاستغلال الرأسمالي نفسه .

ونحن لانستبعد المقولة النظرية التي تؤكد على دور الرأسمالية الهامشية التي سادت في المشرق العربي ، في ابقاء العديد من الأنماط السابقة على الرأسمالية ( كالتجزئة والإقليمية والعشائرية والطائفية والعرقية وغيرها .. ) دفاعا عن هذه الأنماط الهشة من الرأسمالية التابعة . ولم يغير تبني العديد من الأنظمة العربية بعد الاستقلال لصفة الوحدة من هذا الواقع المعاش حتى اليوم على التجزئة والكيانية .

فالتحليل المنهجي لتطور مجتمعاتنا المشرقية من الأنماط الإنتاجية السابقة على الرأسمالية إلى بعض الأشكال الرأسمالية ، مع الحفاظ على العديد من الأشكال السابقة ، يفسر فعلا كيف بقيت تلك الأنماط قاعدة بنيوية فيها بعد ظهور التبادل الرأسمالي العالمي للسلع والإنتاج وقيام الاستغلال على قاعدة العمل المأجور . ففي هذا التطور التاريخي بالذات يكمن فهم تلك الظواهرات وليس بالعكس . لأن الانتقال من الملكية الجماعية للتصرف ، والعائلات المقاطعية المسيطرة ، والنمط الزراعي المتخلف ، والحرف الضعيفة المردود والمرتبطة بسوق الاستهلاك المحلي ، والتجارة الضعيفة غير القادرة على المنافسة ، كل هذه العلاقات لعبت دورا أساسيا في ولادة دولة تقوم على قاعدة تلك العلاقات وترسخ

الروابط العائلية والعشائرية السابقة ، والعادات والتقاليد المتبعة ،  
واللهجة المحلية السائدة ، والتساكن الطائفي في المدن والقرى وغيرها .  
فهذه الدولة لم تولد في صراع مع القديم بل في أحضانه . وجاءت ولادتها  
من الخارج لتبقي على ذلك القديم وتدخل الطائفية في كافة المجالات التي  
يظهر التطور الاجتماعي أن ادارة الدولة بحاجة اليها . فهذه الدولة  
ليست حديثة الا بالتسمية فقط . فقاداتها أبناء المقاطعجين . وقاعدتها  
الانتاجية الزراعية والتجارية الوسيطة والحرفية الضعيفة ، والعادات  
والتقاليد الطائفية ، والانفلاق السكني العائلي ، وأنماط السلوك الاجتماعي ،  
والصاكر التي تدرت على قاعدة طائفية مستوحاة من نظام التجنيد  
العثماني مع تشرة أوربية في المظهر والأوامر والتسلح ، وأدارة ورثت عن  
الإدارة العثمانية كل مساوئها ، ونماذج من التعليم الغربي والإسلامي  
كانت سائدة أيام السيطرة العثمانية عبر الأرساليات والمؤسسات الدينية  
والوقفية واستمرت بعدها ، كل هذه السمات وغيرها تجد تفسيرها  
الأساسي في التطور التاريخي للمتصرفية ودولة لبنان الكبير من الأنماط  
السابقة على الرأسمالية الى اقتباس بعض الأشكال الرأسمالية مع  
الحفاظ على العديد من أشكال الإنتاج القديمة . فالعلاقات العائلية  
المقاطعية كانت تقوم على نمط من الإنتاج يسمح لها بالسيطرة على القوى  
الفلاحية وتصوير مصالحها الطبقية كمصالح لكافة القوى الخاضعة لها .  
وإدخلت الطائفية ، في مرحلة تفجرها بشكل خاص منذ القرن التاسع  
عشر ، في صلب تلك العلاقات العائلية المقاطعية ، طابع امتداد تلك  
المصالح الطبقية المقاطعية الى العديد من القوى الطائفية . فلم يعد  
هذا الزعيم مجرد زعيم عائلي مقاطعي بل أيضا زعيم طائفي يمتد نفوذه  
الى مناطق سكن أبناء الطائفة التي يدعي النطق باسم مصالحها .  
فالنظام العائلي المقاطعي وامتداده الطائفي - الطبقي يرتكز على نمط  
الإنتاج السائد وليس على مجموعة الافراد المنتسبين اليه في مقاطعة  
معينة . وكثيرا ما تجاوز هذا الزعيم حدود المقاطعة والامارة الى مناطق  
مجاورة . فكان تأثير الشيخ بشير جنبلاط ، على سبيل المثال لا الحصر ،  
يتمد الى دروز حوران ، ويستقدم دروز الجبل الاعلى قرب حلب .  
كذلك كان نفوذ البطريرك الماروني يمتد الى موارنة سوريا وقبرص ،  
ونفوذ الرهبانية المارونية يربط بها الرهبان الموارنة في كافة أرجاء المنطقة .

وهذه النماذج السريعة لا تنطبق الا على الزعامة المقاطعية الطائفية في مرحلة القوة وتنتقل الى زعامة اخرى مماثلة لها . فالقدرة على بسط النفوذ والسيطرة وجباية الضرائب وامتلاك الاراضي الواسعة ، واقامة التحالفات السياسية ، واستدراج عساكر السلطنة لتأديب المعارضة ، وغيرها . شروط أساسية تتحدد بها الزعامة العائلية الطائفية وتربط بها القوى الخاضعة لها . وهذه القوى الفلاحية والحرفية ، من طائفية واحدة أو عدة طوائف ، تسعى دوما الى « الحماية » من النهب والبلص والسخره والضرائب في كنف زعيم عائلي مقاطعي . ولم تتماثل طائفية هذا الزعيم مع طائفية القوى الخاضعة له الا منذ قيام المتصرفية بعد هزات عنيفة في النصف الاول من القرن التاسع عشر . لكن ذلك التماثل الطائفي بين طائفية قوى الانتاج وقوى السيطرة كان استمرارا للخط السياسي السابق في خضوع قوى الانتاج لمستغليها ورؤية مصالحها الحقيقية بصورة مشوهة من خلال مصالح القوى المسيطرة عليها . وفي هذه السمة بالذات يكمن تفسير اخفاق كل الانتفاضات الفلاحية في مقاطعات الإمارة في الوصول الى نتائج ايجابية فعلا على طريق تحرير هذه القوى الفلاحية المنتجة . فمثل ذلك النمط من الانتاج كان يغيب مصالح الجماهير المنتجة ويدمجها في مصالح سيطرة الزعامات الناطقة باسمها ، وهي زعامات مقاطعية - طائفية طبقية واضحة .

وفي اطار ذلك النمط من الانتاج تفقد « حرية الفلاح » و « تحرره » كل قيمة عملية على أرض الواقع . كذلك تفقد « ملكيته » الخاصة الصغيرة كل طابع للثبات والديمومة الا في اطار الخضوع الكامل للزعامة المقاطعية - الطائفية . فأى عصيان او تمرد عن دفع الضرائب والمعائدات والسخره والعونة وتقديم واجبات الطاعة والاحترام « للاسياد » تعرض الفرد الفلاح وعائلته وملكته وملكته الى التهديم والحرق والمصادرة . ومع ظهور الاشكال الرأسمالية للتمثيل ، من برلمان وغيره ، كان على هذا الفلاح اظهار خضوعه الكامل لارادة الزعيم المقاطعي والتصويت للائحة التي يفرضا عليه ، واظهار الابتهاج بانتصاره والمشاركة النشيطة والعينية بالحفلات التي يقيمها ، واظهار الحزن الزائد في المآتم ، والفرح الزائد في الاعراس و . . . وأي تقصير أو اهمال لتلك « الواجبات » التي خلفت « الفروض المقاطعية » ستلقى القصاص الصارم لان هناك شبكة من أعوان الزعيم المقاطعي - الطائفي تحصي عليه انفاسه وتراقب حركاته ،

وتجبره على تحمل مسؤولية الاعمال التي يقوم بها ابناؤه أو أحد اقربائه المعارضين لزعامة البيك واطهار سخطه العلني على تلك الاعمال بتدابير عملية كاجبار الابن على الخضوع والعودة الى حظيرة الزعيم تحت طائلة التهجير القسري من القرية والمنطقة . وهكذا تحولت ملكية التصرف المقاطعجية الى ملكية خاصة حقيقية . وتحولت الفروض المقاطعجية السابقة الى واجبات عملية تمارس يوميا على أرض الواقع دون حاجة الى كتابتها بقيود وقوانين ، تماما كما كانت الفروض المقاطعجية السابقة وعادات وتقاليد اشد خطورة من القوانين نفسها . ولما كان طابع الوراثة يلعب الدور الاساسي في انتقال الزعامة المقاطعجية - الطائفية وسيطرتها ، فان طابع الوراثة أيضا كان يحمل بالمقابل تلك الواجبات - الفروض لابناء القوى الفلاحية المنتجة . وهذه الوراثة لم تكن تركز على توزيع العمل والحصص والارباح بل ايضا على امكانية الزعامات المقاطعجية التي تحولت الى كبار الملاكين في فرض سيطرتها على القوى الفلاحية واجبارها عمليا ، بالرغم من تحررها الظاهري ، على الاستمرار لديها بنفس الشروط السابقة كقوى منتجة تقدم قسما كبيرا من انتاجها لصالح هذه القوى ، اداة السيطرة الطبقيّة للدولة الحديثة في الارياف اللبنانية . فماذا بقي للفلاح في اطار الملكية المشاعية للتصرف ، من الملكية الاسمية التي كان يتمتع بها في السابق؟ وماذا قدم له « تحرره » الظاهري من نير سيده المقاطعجي القديم بعد تحوله الى فئة الملاكين الكبار ؟ وماذا بقي له من انتمائه الجماعي لعائلة من المزارعين تعمل سويا على أرض واحدة باشراف زعامة مقاطعجية واحدة بعد تحوله الى « مزارع حر » قادر على العمل في أية بقعة من الارض ؟ واذا اعتبرنا ان العمل ضمن العائلة الواحدة لم يكن عملا يستلج الفرد وانتاجه طالما ان هذا الفرد ، في وعيه الذاتي ، يعتقد انه يعمل لنفسه ولعائلته واقربائه وزعيمه العائلي - الطائفي . فماذا بقي له من ذلك الشعور بعد تفكيك البنى السابقة لذلك النظام العائلي واحلال سمات رأسمالية في داخلها تقوم على ملكية المقاطعجي الخاصة للارض ، وسيطرته الكاملة على الانتاج ، وحرية في بيع هذه الارض ورهنها ، وابتعاده الكامل ، أو شبه الكامل عن السكن فيها وتفضيل سكنى المدينة وعدم الاشراف على تلك الاراضي الا في مرحلة جنح الحصاد والمواسم وجباية الضرائب . فالعلاقات داخل النظام العائلي القديم لم تكن مجرد علاقات انتاج بل علاقات اجتماعية عضوية تندرج في اطارها علاقات الانتاج والعلاقات العائلية

والعادات والزواج ، والتقاليد ، والطائفية ، واللغة ، أو اللهجة ، والفولكلور الشعبي ، ، ونمط الثقافة وغيرها . وهذه العلاقات الاجتماعية العضوية كانت تتفسخ بعنف في القرنين التاسع عشر والعشرين ولم يبق منها سوى علاقات القهر والسيطرة ودفع الضرائب وحلت محلها الفردية في العمل والانتاج والملكية وغيرها . فالزعيم المقاطعي أو المالك الكبير بات غريبا تماما ، كذلك ابناؤه ، عن واقع ذلك النمط العائلي القديم . فقد انساه سكن المدينة وثقافتها الغربية التي تربي عليها ابناؤه ، والعلاقات التجارية والادارية التي اقامها فيها ، هذه الاشكال وغيرها جعلت المالك الكبير مجرد « زائر » لارض غريب عن انتاجها وعادات أهلها وتقاليدهم ولا يزورها الا في المواسم بعد ان حل « الخولي » أو الوكيل مكانه . وبدأت بعض الاساليب الزراعية الرأسمالية ، كالمكننة الزراعية والاسمدة الكيماوية وغيرها تغزو الارياض وتدخل اليها انماط حديثة من الزراعة وتفتت من عمق الترابط البنيوي العائلي - الطائفي السابق . لكن هذه الاساليب لم تدخل الا في زمن متأخر من القرن العشرين ، أي بعد فرض الانتداب الفرنسي على سورية ولبنان .

ان تفكيك بنى النمط العائلي السابق بدأ « يحرر » الفلاح من الاندماج الكامل بالعائلة وزعيمها المقاطعي الطائفي . لكن ذلك التحرر كان مجرد قذف للفلاح في اطار نمط جديد من الانتاج ذي الشكل الرأسمالي حيث برز استغلال الانسان بشكل اكثر وضوحا من ذي قبل ، لكن ذلك البروز كان يتأخر تجليه تبعا للمناطق ولدخول تلك الاشكال الرأسمالية اليها .

فهذا النمط الانتاجي الجديد كان يحتضن في داخله العديد من أشكال الانماط الانتاجية السابقة ولا يقطع مع أي منها . فتحول العمل الجماعي الى عمل فردي لم يكن يعني بالضرورة القطع النهائي مع العمل الجماعي ، والترابط العائلي ، والتماسك الطائفي . وزعيم العائلة المقاطعية لم يبق انسانا فردا بل بات يرتدي اسماء زعيم الطائفة ، سواء أكان دينيا أم مدنيا . وكثيرا ما استخدمت التجمعات العائلية ، ولا زالت حتى اليوم ، في سبيل الحصول الى وزارة او نيابة وغيرها . وهذا ما يفسر بقاء هذا العدد الكبير من الروابط العائلية المعترف بها من الدولة والتي تغطي مئات العائلات

وتقيم لها أشكالاً جديدة من التنظيم الذي يتستر بقشرة رأسمالية واضحة على غرار الأحزاب السياسية والتجمعات النقابية وغيرها .

وهذه الروابط العائلية تهدف الى ربط الفرد العائلي المنتقل الى المدينة بالافراد الباقين في القرية أو عدة قرى ، واطهار التماسك العائلي - الطائفي ضمن نمط من الانتاج الرأسمالي لا يسعى للقطع مع الاشكال السابقة عليها بل يثبتها ويزيد من تماسكها .

وهنا نطرح سؤالاً أساسياً في هذا المجال : هل حلت التنظيمات الطائفية مكان التنظيمات العائلية السابقة ؟ والجواب على مثل هذا السؤال يطرح صياغة جديدة له اذ لا يجوز وضع الطائفية في موضع التناقض مع العائلية كذلك لا يجوز وضع الاثنيين موضع التناقض مع الطبقية .

فالطائفية او التنظيم الطائفي لم يحل محل التنظيم العائلي بل سكنه وعزز تماسكه على قاعدة سكن الانماط السابقة للرأسمالية في الانماط الرأسمالية وتدامجها معها . كذلك فالطائفية والطبقية لا تتعارضان بل تتدامجان عميقاً على قاعدة نمط الانتاج المذكور . وهذا التدامج كان يقتضي بالضرورة ، كي يتبلور ويظهر بوضوح ، أن تصبح الزعامات الدينية زعامات مقاطعية أيضاً وبالعكس . واذا كان ظهور الزعامات المقاطعية كزعامات دينية يعود الى مئات السنين قبل القرن التاسع عشر بفعل عوامل تاريخية متعددة ، فان انتقال الزعامات الدينية الى زعامات مقاطعية لم يتم الا منذ القرن التاسع عشر وبفعل ظروف تاريخية أيضاً قادت اليها مجموعة عوامل داخلية وخارجية على السواء . وهكذا حمل القرنان ، التاسع عشر والعشرون ، معهما وضوح ذلك التدامج الطائفي - الطبقي بأجلى مظاهره . وبات المقاطعيون الذين تحولوا الى كبار الملاكين - بعد المساحة - يتحلون دوماً بهذه الازدواجية في التمثيل الطائفي - الطبقي . فمنذ مطلع القرن التاسع عشر لم يعد الزعيم يذكر الا مقروناً بصفتيه الطائفية والطبقية على السواء . فهو مقاطعي درزي ، أو مقاطعي ماروني أو شيعي أو سني ، وهو تاجر ماروني أو تاجر سني أو كاثوليكي أو ارثوذكسي . الخ . وهذا الزعيم يمثل طائفته في البرلمان وذلك في الوزارة وثالث في الجيش ورابع في الادارة وغيرها . وكلها تعبيرات مباشرة عن مرحلة التوازنات الطائفية - الطبقية التي ارتقى اليها ذلك التدامج بين الصفة الطائفية والصفة الطبقية . فتسقط وزارة امين الحافظ ، لانه ، مع وزرائه « ليسوا من العائلات



السنية العريقة » . ويعتبر تمثيل الموارد ضعيفا في هذه الوزارة لانها ممثلة بفلان وليس بفلان . وهذا التفضيل يقوم على أساس هيمنة الاسر المقاطعية السابقة على مؤسسات الدولة الجديدة دون ان تعني تلك الهيمنة اغلاق الباب نهائيا أمام ترقى افراد من عائلات صغيرة تعبر عن المصالح الطبقية - الطائفية للتوازنات المسيطرة .

فالتوازن المطلوب لا يأخذ مصالح جماهير القوى المنتجة بالاعتبار بل مصالح القوى المسيطرة فقط . وهذه القوى تتوزع على كافة الطوائف ضمن افضليات معينة لطائفة دون أخرى على قاعدة ظروف تاريخية ترقى الى اكثر من قرن وربع القرن . وهذه المرحلة التي شهدت بروز الاكليروس الاعلى الماروني كقوة اقتصادية أي طبقية - طائفية ، لا زالت اسيرة تلك الصيغ التي وضعت للقائمقامية المارونية وتوسعها نحو المتصرفية ولبنان الكبير دون ان تأخذ بعين الاعتبار مستجدات هذه المرحلة التاريخية ، خاصة بعد قيام دولة لبنان الكبير وما رافقها من توازنات طائفية - طبقية جديدة .

فظهر « دولة لبنان الكبير » كدولة سياسية لم تحاول أن تتخطى التوازنات الطائفية - الطبقية لنظام المتصرفية بل أكدت على ترسيخها بدعم مباشر من عساكر الانتداب .

كما ان الدولة الجديدة التي احتضنت مدنا كبيرة ، تجارية بالدرجة الاولى ، بيروت وطرابلس وصيدا ، لم تحاول تخطي الحواجز السابقة لايدولوجية القائمقاميتين والمتصرفية نحو مزيد من الانفتاح على الازدهار التجاري وما يتطلبه من انفتاح سياسي وطائفي بل كانت تمعن في الحفاظ على مرتكزاتها الايدولوجية التي تعبر عن مصالح كبار المقاطعيين وكبار رجال الدين في ظل غياب شبه كامل للتجار المتمركزين في بيروت والمدن الاخرى وليس في المتصرفية .

وجاء توسيع متصرفية جبل لبنان الى دولة لبنان الكبير وبالتالي لبنان المستقل يحافظ على تلك الايدولوجية الطائفية - الطبقية لتوازنات القوى المسيطرة منذ المتصرفية لا بل منذ قيام نظام القائمقاميتين . وجاءت كل الاصلاحات اللاحقة ، وهي اصلاحات تقتضيها توسيع هيمنة الرساميل في المدينة والريف وتحمل معها ملامح من نمط الانتاج الرأسمالي الحديث ، جاءت تلك الاصلاحات الحديثة قشرة خارجية وطلاء «ديمقراطيا» وليبراليا لايدولوجية طائفية - طبقية هي ايدولوجية كبار الملاكين ورجال

الدين . لذا بقيت تلك الاصلاحات هامشية وغير عميقة الجذور بل سهلة الاقتلاع في المنعطفات الحادة . فالتوازنات الطائفية - الطبقيّة في قاعدة السلطة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والعسكرية والتربوية استطاعت ان تجدد نفسها باستمرار . وطبيعة النظام المقاطعي - الطائفي وما دخلته من اساليب قائمة على النمط الرأسمالي الغربي الهامشي ، هذه الطبيعة ذات تركيب بنيوي مولد للازمات في صراع قوى الانتاج وعلاقات الانتاج . وفي كل مرة كانت تلك الازمات تهدد التوازنات الطائفية - الطبقيّة القائمة وبالتالي البنية الاساسية للنظام المسيطر ونمط الانتاج المرتكز عليه ، كانت الطائفية احدي الركائز الاساسية التي تعيد فرزا طائفيا لمصلحة استمرار النظام الطائفي - الطبقي المسيطر . وكان غياب القوى الطبقيّة الداعية الى التغيير الجذري عاملا مساعدا في الوصول الى حلول وسطية على قاعدة « لا غالب ولا مغلوب » والتي هي تعبير طبقي عن غلبة القوى الطائفية - الطبقيّة المسيطرة وانتصار ارادتها في الجمود وبالتالي في استمرار تلك السيطرة على حساب القوى الخاضعة للاستغلال ، وهي قوى طائفية تتوزع على كل الطوائف لكنها قوى طبقيّة تنحصر في طبقة واحدة هي طبقة المنتجين المسحوقين المستغلين . فالطائفية كانت دوما ولا زالت ، عامل تفتيت للقوى المنتجة المسحوقة ، وعامل قوة للقوى الطبقيّة المسيطرة . تلك هي القاعدة الاساسية لفهم الطائفية اللبنانية منذ تفجرها في اواسط القرن التاسع عشر حتى اليوم . يضاف الى هذه القاعدة سمة اخرى لا تقل عنها أهمية وهي ان هذه الطائفية كانت عاملا مساعدا على ارتباط القوى المحلية المسيطرة بعجلة القوى الطبقيّة المسيطرة على امتداد العالم العربي وذات صلات تبعية وثيقة بقوى الاستعمار الخارجي وادواته المحلية ، سواء اكانت تلك الادوات حملات عسكرية مباشرة ( كحملة نابليون ، أو انزال جونه ١٨٤٠ ، أو الحملة الفرنسية ١٨٦١ أو عساكر الاندباب او عساكر الاحتلال الاميركي عام ١٩٥٨ . الخ ) أم قواعد محلية لذلك الاستعمار وتحديد اسرائيل منذ قيامها عام ١٩٤٨ . فالايديولوجية التقسيمية والشوفينية التي تستند اليها تلك القوى الطائفية - الطبقيّة في دعوتها وممارستها السياسية على الصعيد المحلي الضيق او القومي العربي أو العالمي الواسع ، تلتقي بالضرورة ، في ظروف القرنين التاسع عشر والعشرين ، مع المصالح الاستعمارية الخارجية ورساميلها والانظمة المرتبطة بها . وهذه

الايديولوجية التقسيمية والشوفينية على استعداد دائم للتلويح بكافة أشكال الانظمة الفاشية والعنصرية والديكتاتورية لانها السبيل الوحيد لفرض ايديولوجية ونظام حكم يسير بعكس مجرى التطور التاريخي الحتمي للمرحلة المعاصرة . فهذه الايديولوجية تعادي جماهيرها أولا ، وهي جماهير طائفية ضيقة ، وتعادي جماهير كل الطوائف ، كما تعادي آمال حركة التحرر الوطني العربية في التخلص من كافة الركائز التي ثبتتها الاستعمار خدمة لمصالحه الطبقية . ومن الخطأ الاعتقاد انه بالامكان القضاء على النظام الطائفي - الطبقي المسيطر في لبنان بمعزل عن القوى الطبيعية القومية لحركة التحرر الوطني العربية . لان القضاء على مثل هذا النظام سيكون مؤشرا أساسيا على طريق انتقال هذه القوى القومية ، وهي قوى طبقية بالضرورة ، نحو المزيد من تحقيق الانتصارات على طريق ازالة كافة معيقات الوحدة والتحرر والديمقراطية على امتداد الساحة القومية العربية حيث لا زالت الطائفية والعرقية والتجزئة والتخلف وغيرها من الركائز الاساسية التي زرعها الاستعمار في طريقها . ولسنا بحاجة الى التذليل ان تاريخ المشرق العربي الحديث يدور كله على محور الصراع الدؤوب بين قوى التحرر العربية والاستعمار عبر ما تركه من معيقات داخلية بعد خروجه أو قواعد استعمارية لا زالت قائمة حتى اليوم ومتمثلة في القواعد العسكرية الاميركية وعلى رأسها القاعدة الكبرى اسرائيل . فالنظر الى المسألة الطائفية كمسألة لبنانية بحتة لن يقود الى أية نتائج دقيقة بالرغم من تفجرها الدائم على الساحة اللبنانية . فالمسألة الطائفية في لبنان ذات بعد قومي عربي شامل ، وذات بعد عالمي يجد تفسيره في استعداد قوى دولية استعمارية عديدة لتقديم كامل الدعم للقوى الطائفية - الطبقية المحلية المسيطرة ومنعها من السقوط . وبالرغم من ان اسقاط هذه القوى سيكون بالتأكيد لصالح القوى المحلية التي تقاتل لازالة ذلك النظام الطائفي - الطبقي المسيطر ، فان تلك القوى لن تكون قادرة بمفردها على ازالة ذلك النظام مالم تتأمن توازنات عربية وعالمية تضمن لهذه القوى احراز النصر وتثمين نتائجه ولجم القوى الاستعمارية الخارجية من مد يد العون المباشر لقوى النظام المسيطر ومنعها من السقوط . وبقدر ما تكون القوى البديلة ذات افق علماني ديمقراطي لمصلحة القوى المنتجة الحقيقية ، بقدر ما تصبح المعركة اكثر حدة وشراسة لكنها اكثر وثوقا بالتغيير وتحقيق

البديل التاريخي المطلوب . وفي احضان هذا البديل الحقيقي ، بديل قوى التغيير الديمقراطي لمصلحة القوى المنتجة الحقيقية يستعيد تطور المجتمع اللبناني وجهه الطبقي . ويستعيد الفرد اللبناني قدرته على تحقيق انسانيته في مجتمع طبيعي لا مجتمع طائفي ويستطيع بالتالي ان يتحرر من السجن التاريخي الذي وضعه فيه النظام الطائفي - الطبقي المسيطر فأجبره على « ان يولد ويعيش ويتزوج ويموت طائفا » على حد تعبير الدكتور ادمون رباط . وفي هذا المجتمع الطبيعي تبرز مصالحه الحقيقية لا مصالح الطائفة التي تقدم له بديلا عن تلك المصالح . وتبرز الوحدة القومية العربية بديلا « للوحدة الطائفية » التي لم يجن منها سوى القتل والدمار والحرق ومزيد من الضرائب والبلص . ويبرز الانسان كراسم حقيقي ، لا بل كأكبر رأسم في لبنان ، تبعا لعبارة ماركس « الانسان اكبر رأسم » وليس الفرد الطائفي الذي يوضع ضمن أرقام وهمية لتغليب اعداد هذه الطائفة على اعداد تلك وصولا لمنح زعمائها مناصب اكثر في البرلمان والوزارة والجيش والقضاء والادارة وغيرها . فالانسان اللبناني ، كقيمة اجتماعية قائمة بذاتها ، مقموع في المجتمع الطائفي الطبقي ولا يمكن ان يوجد في بلد يخشى الارقام ويعادي الاحصاء وحاجات السكان ومصالح الجماهير الفقيرة خوفا على توازنات طائفية - طبقية - اعدمت كل احصاء رسمي منذ ١٩٣٢ ولا زالت تمنح مواطنيها تذكرة الهوية على اساس ذلك الاحصاء . فهل انتحر الاحصاء في هكذا نظام ام ان ذلك النظام يخاف على نفسه من الانتحار تحت وطأة الارقام ومدلولاتها العلمية الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ؟ وهنا نعود الى التأكيد أيضا ان المطلوب دراسة هذه المدلولات العلمية نفسها التي دفعت ذلك النظام الى الاحجام عن القيام باي احصاء رسمي منذ ١٩٣٢ وليس العكس ؟ فهذه المدلولات تبرز بوضوح ان الانسان اللبناني قد وضع في اطار لعبة التوازنات الطائفية - الطبقيّة المتفق عليه من قبل ممثلي الطبقات الحاكمة باسم دولة الطوائف المتعايشة على أرض واحدة . وان تلك الاحصائيات لا يراد بها انصاف القوى المنتجة المسحوقة بل زيادة حصة بعض ممثلي الطوائف ، أي داخل الهرم السياسي المسيطر مع ما يستتبع الزيادة من منافع اقتصادية واجتماعية وسياسية وطائفية وتوسيع مجال النفوذ لقوى طائفية - طبقية تمد النظام المسيطر بدم جديد وتمنع انتقال قوى محسوبة على هذا النظام من الانتقال الى صفوف

المعارضة ، حتى الشكلية منها . لذا كانت تلك المعارضة ، وهي ذات أفق محدود يجد تفسيره في الصراع الثانوي داخل القوى المسيطرة ، تعود الى حظيرة الدفاع عن النظام بعد نيلها مكاسب شخصية جديدة او عند شعورها ان نظامها السياسي الذي تنتسب اليه بات يتهدهه خطر حقيقي . وسرعان ما تحاول هذه القوى المعارضة من داخل التركيبة الطائفية - الطبقية نفسها ، ان تقدم مكاسبها الشخصية كما لو كانت مكاسب للطائفة كلها ، تماما كما كان يفعل المقاطعيون سابقا مع فلاحهم . وما سبب ذلك الا بقاء النمط الانتاجي السابق مسيطرا ولو باضافة الاشكال الجديدة من النمط الرأسمالي عليه . فاذا كانت القوى الفلاحية دفعت باهظ ثمن الصدمات الدموية التي تفجرها القوى الطائفية - الطبقية المسيطرة دون ان تكون لتلك القوى أية مصلحة حقيقية فيها بل تشارك بحماس ضد مصالحها وتطورها بالذات ، فان هذه القوى في ظل النظام الطائفي - الطبقي منذ القائمقاميتين حتى اليوم لا زالت اسيرة اوضاع مشابهة . ونعود فنذكر مجددا ان المفتاح الرئيسي لهذا العامل يجد تفسيره في بقاء نمط انتاج يسمح بمثل هذه المدلولات ولا يجوز التفتيش عن مفتاح لفهم المدلولات في اذهان القوى المنتجة الضعيفة التنظيم والوعي السياسي وتعداد آلاف الامثلة على ممارستها الطائفية التي تعزز وضع القوى المسيطرة على حساب مصالحها الحقيقية كقوى منتجة .

« فالتحرر » الحاصل في صفوف هذه القوى المنتجة من سيطرة المقاطعيين السابقة كان مجرد انتقال من سيطرة هؤلاء الى سيطرة الرأسمال واستغلاله بالاضافة الى بقايا السيطرة المقاطعية القديمة التي ارتدت أشكالا جديدة دون ان تفقد أية ركيزة من ركائز النهب والسيطرة واستغلال الجماهير المسحوقة من كل الطوائف .

فالعامل الطائفي الذي كان يشدد على وحدة الطائفة وتماسكها تجاه الطوائف الاخرى ، كان يعزز بالضرورة زعامات طائفية ، سواء أكانت دينية أم مدنية ، لكنها زعامات مسيطرة أي طبقية بفعل عامل التمايز الاجتماعي نفسه . واذا كان العامل الطائفي قد أمّن للكنيسة والاقواف الاسلامية والرهبانية ، أراض شاسعة في القرنين الثامن والتاسع عشر ، فان القرن العشرين قد أمد المؤسسات الحقوقية التي تدير هذه الاملاك بقدره تنظيمية على تحول قسم هام منها الى النمط الرأسمالي الحديث . فابتنت لها مدارس تجارية ، واقامت مشاريع زراعية رأسمالية ، وادخلت قانون بيع

الأراضي ورهنها إلى صلب الملكية الوقفية السابقة . وتحولت إدارة تلك المؤسسات إلى إدارة رأسمالية واضحة لا يجمعها بالطائفية والدين سوى الاسم . فهي مجموعة أسماء من كبار متمولي الطائفة وزعاماتها المقاطعية السابقة . وهي التي تدير هذه المؤسسات الحقوقية ، الوقفية سابقا ، بما يضمن مزيدا من الأرباح والتوظيفات الرأسمالية والانفتاح على التجارة والربح السريع وبيع الأراضي لأقامة مشاريع جديدة . وفي جميع هذه الحالات فإن الوجه الطائفي - الطبقي بات شديد الوضوح ، فأبناء الفقراء من الطوائف كافة ، لا مكان لهم في تلك المشاريع والمؤسسات والمدارس . وما قيام إدارة هذه المؤسسات بتقديم بعض المنح لطلاب فقراء إلا محاولة لانقاذ المظهر الطائفي لتلك المؤسسات . لكن تلك المنح توظف بالضرورة في إطار سياسي يهدف إلى تثبيت هيمنة الزعيم الطائفي المسيطر، وهو زعيم طبقي بالضرورة، إذ لا مكان للفقراء في إدارة هذه المؤسسات . وهكذا تحول شعار « وحدة الطائفة » في النظام المقاطعي إلى أوقاف وملكيات طائفية كبيرة . وتحول هذا الشعار نفسه في النظام الطائفي - الطبقي الحالي إلى مؤسسات حقوقية - بقيادة طائفية - طبقية لإدارة تلك المؤسسات على النمط الرأسمالي المعاصر ، بما يضمن مزيدا من الأرباح للقيادات والمكتفبين حولها ، ومزيدا من الدمار والتفقر للقوى الطائفية المسحوقة . ومنع تحول هذه المؤسسات إلى النمط الرأسمالي الواضح فقدت القوى الفقيرة المسحوقة أي أمل في الاستفادة من « أملاك الطائفة الوقفية » . فلم يعد الدير مكانا لآعالة بعض الفقراء والمسافرين ، ولا مدرسته مأوى لابنائهم يعلمونهم مجانا ، كذلك مؤسسات الأوقاف الإسلامية ، بل تحولت هذه المؤسسات نهائيا إلى إدارات تعمل لمصلحة الزعامات الطائفية - الطبقية المسيطرة التي تشارك في استغلال الفقراء كأية مؤسسة تجارية أخرى ضمن شروط للاستغلال لا علاقة لها بالشفقة أو الرحمة أو التعاليم السماوية التي نادت بها الأديان .

وظهور الدولة الطبقية وتعزز قواها القمعية قد ساعد في الوصول إلى هذه النتائج . فقد قطعت تلك المؤسسات مع علاقاتها السابقة التي بنيت لأجلها كمؤسسات خيرية . وليس من الصدفة إطلاقا أن تتمركز تلك المؤسسات في المدن الكبرى بعيدة عن الرؤيا المباشرة للاستغلال بالعين المجردة في الأرياف حيث لا زال الشعور الديني شديد التماسك والنفوذ . وما توسع هذه المؤسسات نحو الأرياف ، في حال وجودها ، إلا توسع

هامشي لا يشغل حيزا كبيرا من ميزانية تلك الاوقاف ومداخيها . ويقصد منه ، بالدرجة الاولى ، الحفاظ على قاعدة طائفية ثابتة هناك ، تمد زعامات الطوائف بقوى فلاحية قمعية وتابعة تسخر طاقتها لقمع اخوانهم الفقراء في الريف لقاء خدمات قليلة في اجهزة الدولة .

فارتباط المؤسسات الوقفية الكبيرة بالمدن وجوارها يجد كامل تفسيره في اعتماد تلك المؤسسات على اجهزة الدولة القمعية لحمايتها وتسهيل عملية تحولها من مؤسسات ، كان الهدف من انشائها خدمة فقراء الطوائف ، الى مؤسسات تخدم زعامات الطوائف على حساب فقراء كافة الطوائف . والدولة الحديثة يرتبط ظهورها وتطورها بقيام ظاهرة المدن وتوسعها ليشمل نفوذها الاقتصادي والسياسي والاجتماعي والعسكري كافة المناطق . لكن المدينة كانت ولا تزال في صلب قيام السلطة المركزية وممارستها لعملية القمع والاستغلال . وتمركز تلك المؤسسات في المدن شديد الارتباط بهذا القانون الاساسي الذي يجعل منها شريكا في قمع الجماهير المسحوقة واستغلالها ، أي دخول تلك المؤسسات في البنية الاقتصادية - الاجتماعية للنظام السياسي المسيطر . ومن المستحيل تصور أي حل لمشكلة الاوقاف وأملاك الاديرة بعيدا عن الحل الشامل الذي يضمن مصالح القوى المنتجة الحقيقية أي تحطيم جهاز الدولة القمعي مع كافة مؤسساتها القائمة على التمييز الطائفي الطبقي واعادة بنائها على اسس ديمقراطية تفتح المجال امام تطور طبيعي للمجتمع اللبناني وقواه المنتجة . والى جانب هذه المؤسسات الوقفية ذات الملكية الكبيرة يجب تحطيم الملكية العقارية الواسعة التي أخرجت من تناول الفلاحين ووضعت ضمن صيغة أملاك الدولة او الأملاك المشاعية . وهذه الاملاك الكبيرة يتم نهبها باستمرار لمصلحة القوى الطائفية - الطبقية المسيطرة وتتحول الى مشاريع رأسمالية هامة تصب في جيوب كبار الممولين . وهكذا تنحصر دائرة الملكية الفردية الخاصة للفلاح اللبناني ضمن حلقة ضيقة جدا . فهي محاصرة بالاملاك الوقفية الشاسعة ، وأملاك الدولة والمشاع التي تنزلق باستمرار الى ملكية كبيرة للممولين ، وملكية كبار الملاكين التي ورثوها عن آبائهم المقاطعجين وما رافق تلك الوراثة من نهب وبلص وسخرة وتسجيل اراض ليست لهم ، وملكيات عقارية جديدة يشتريها الرأسماليون اللبنانيون في اطار اقامة مزارع على النمط الرأسمالي وتوظيف قسم هام من الاموال في تجارة

الاراضي خاصة في السهول الكبيرة أو مناطق الاصطياف . وضمن هذه الحلقة الشديدة التماسك والسيطرة يحاول الفلاح اللبناني أن يمنع نفسه من بيع قطع الارض الصغيرة التي « يملكها » وتكاد لا تكفيه لاشهر قليلة جدا يضطر معها الى العمل في المزارع المجاورة . ويحاول هذا الفلاح أيضا أن يمنع نفسه أو ابناءه من النزوح الى المدينة أو الهجرة الى الخارج في اطار ظروف اجتماعية بالغة الصعوبة ، خاصة في جنوب لبنان بسبب الاعتداءات الاسرائيلية المتكررة التي أحاطت بيروت بحزام من البؤس هو حزام الفقراء أي حزام طبقي لكنه طائفي أيضا . فهذا الحزام الذي ولدت له ظروف اجتماعية وسياسية صعبة جاء يشد الخناق على النظام الطائفي - الطبقي المسيطر . فتركيبة هذا النظام تعطي الافضلية المطلقة لقوى طائفية مسيحية ، مارونية بالدرجة الاولى ، بفعل ظروف تاريخية مساعدة شديدة الارتباط بالمخطط الاستعماري الفرنسي للمنطقة . لكن تركيبة ذلك الحزام من البؤساء هي تركيبة طائفية - طبقية من نوع معاكس تماما ولا تحظى بأي التفات من القيادات المسيطرة على اختلاف طوائفها ، خاصة بعد انتماء اعداد كبيرة من هؤلاء الفقراء الى أحزاب سياسية تصنف على لائحة أشد المعادين لهذا النظام وأربابه . وجاء السكن الفلسطيني ، لاسباب مشابهة في بعض وجوهها بالرحيل الجنوبي الى حزام الفقراء الذي تعزز بأعداد اضافية كبيرة من كافة فقراء الارياف اللبنانية ، خاصة بعلبك والهرمل وعكار ، جاء ذلك السكن الفلسطيني يشدد الحصار القومي على النظام الطائفي - الطبقي المسيطر . فقد استفاد ذلك النظام من مأساة فلسطين عام ١٩٤٨ وتحول قسم من الرساميل والتجارة الى مرفأ بيروت ، واستفاد كذلك من اليد العاملة الفلسطينية الرخيصة ليكتنز ثروات اضافية تحت ستار من الضجيج الاعلامي الفارغ باسم « نجدة فلسطين » و«مساندة الشعب الشقيق المنكوب » و . . . ومع تحول الشعب الشقيق من شعب منكوب الى شعب مقاتل يناضل لاسترداد ارضه بالبندقية لا بالشعارات ، تحولت أكواخ اللاجئين الى قواعد للثوار تقض مضاجع العديد من الانظمة العربية ، ووضع هؤلاء الثوار في خانة اكثر المعادين للنظام الطائفي - الطبقي المسيطر .

ولا ينفع في تستير هذه الحقيقة المزيد من الضجيج الاعلامي حول « خرق حق الضيافة » و « طعن اللبنانيين بالظهر » و . . . فمن الواضح ان النموذج الذي تقدمه الثورة الفلسطينية ، وسط جماهير غفيرة جدا



من الفقراء المشردين في وطنهم ، لهو نموذج شديد الخطر على النظام القائم ، اسير التوازنات الطائفية - الطبقية المسيطرة . فقد خرجت اعداد غفيرة من الفقراء في ضواحي قلعة النظام الاساسية ، من دائرة الاحصاء العددي في خانة هذا الزعيم الطائفي او ذاك لتدخل في خانة المعادين لهذه الزعامات الطائفية - الطبقية كلها بحيث بات من الصعب جدا ايجاد تسويات فوقية كالسابق . وهذه الجماهير الفقيرة ليست في الواقع جماهير حزام البؤس بل جماهير الفقراء في كل المناطق اللبنانية لانها وحدة لا تتجزأ . كذلك ليست جماهير لبنانية صرفة ، بل جماهير لبنانية - فلسطينية وقومية عربية واحدة . ودخلت أزمة النظام اللبناني دفعة واحدة في كامل ابعادها الاجتماعية والوطنية والقومية بالاضافة الى البعد الاممي الشامل لاي حدث جماهيري في ظروف القرن العشرين حيث ضاقت الحدود الى أقصى حد .

فهذا النظام الطائفي - الطبقي المسيطر حاول في البدء الحفاظ على الكثير من الركائز السابقة أي الاشكال السابقة على النمط الرأسمالي واستفاد منها الى أقصى حد .

لكن بروز التحدي المصري لهذا النظام ، خاصة في المرحلة الاخيرة منذ أواسط الستينات من هذا القرن ، وضع هذا النظام امام خيارات بالغة الصعوبة أقلها انه بات مضطرا للكشف عن نفسه كنظام طبقي واضح ليست الطائفية سوى وجه أساسي من وجوهه المتعددة . وان هذا النظام يلجأ الى كافة الوسائل للدفاع عن بقائه بما فيها توسل الديكتاتورية والحكم العسكري والحرب الفاشية وفتح الحدود مع العدو القومي واظهار الاستعداد الكامل للارتباط بعجلة المخططات الاستعمارية التي تلوح له بإمكانية انقاذه . ومع تزايد حدة هذه التناقضات ، وصعوبة الحسم السريع ، وقدرة القوى البديلة على التصدي الجماهيري ، بدأ دور الطائفية ينزلق الى مواقع اكثر ضعفا من السابق . وبات مشروع اقامة دولة طائفية على غرار القائمقاميتين والمتصرفية اي تقسيم لبنان الحالي بعد كافة « الجهود » الداخلية والخارجية ، خاصة الاستعمارية منها ، التي أدت الى « توحيد » ، بات هذا المشروع يواجه صعوبات جدية تمنع قيامه واستمراره في حال الاعلان عنه . فقد انفصلت جماهير طائفية كثيرة عن دائرة الزعامات الطائفية - الطبقية المسيطرة ولم تعد تخدع بان مصالح هذه الزعامات الشخصية هي مصالحها الحقيقية . فقد علمتها التجربة الطويلة ان تلك المصالح متعارضة تماما فيما بينها ، وان وحدة الطوائف

ليست سوى وحدة قياداتها المستغلة ، وان المطلوب وحدة من نوع جديد ،  
وحدة ارقى من السابق وتقوم على تجميع كافة المتضررين من النظام  
الطائفي - الطبقي لضرب هذا النظام واقامة نظام ديمقراطي علماني يضمن  
تطور المجتمع اللبناني في محيطه العربي تطورا حرا لمصلحة قواه المنتجة  
الحقيقية .

ولن يكون بالامكان التنبؤ بمصير التطورات التي تعصف بلبنان اليوم  
لكن من المؤكد ان أي حل يضمن بقاء النظام الطائفي - الطبقي المسيطر يمدد  
بدم طائفي جديد سيكون بالضرورة على حساب القوى المنتجة ، أي جماهير  
كافة الطوائف ، ولصالح الزعامات المسيطرة ، وهي زعامات طائفية -  
طبقية ذات مواقع مختلفة في ترقية هذا النظام . أي أن مثل هذا الحل  
سيتضمن غالبا ، أي القوى المسيطرة ، ومغلوبا ، أي القوى المنتجة  
المسحوقة . ومثل هذا الحل لن يقود الا الى تفجير تناقضات جذرية  
يدفع ثمنها اللبنانيون من دمائهم وممتلكاتهم ومصيرهم . بالاضافة الى  
ذلك ، فان مثل ذلك الحل سيكون بالضرورة ايضا مدخلا لتقسيم المنطقة  
الى دويلات طائفية - طبقية على غرار اسرائيل ، تبرر بقاء الكيان العنصري  
الصهيوني وتكون أداة بيده كما تكون أداة بيد الاستعمار الخارجي وبشكل  
خاص الاستعمار الاميركي . فحل المسألة اللبنانية لن يكون حلا لبنانيا  
بل نموذج واضح لما سيكون عليه مصير المشرق العربي بكامله . فالطائفية  
لم تكن يوما من الايام مجرد حدث لبناني بحت بل عربي بالدرجة الاولى  
لان هذه الطائفية كانت احدي الركائز الاساسية التي بنى عليها الاستعمار  
تجزئته للمشرق العربي واقام عليها أكثر من دولة طائفية او وطن قومي  
طائفي أو كيان اقليمي كان لبنان في عدادها . من هذه الدويلات ما تم  
ازالته بالوحدة السورية ( دويلة حلب ، دويلة جبل الدروز ، دويلة  
العلويين ، دويلة دمشق ) بعد نضالات قومية صلبة ضد الانتداب الفرنسي .  
ومن هذه الكيانات ما تثبت حتى اليوم ( لبنان ، شرقي الاردن ، سوريا ،  
العراق . . . ) ومنها ما ظهر الى الوجود منذ سنوات قليلة ( الكويت ،  
البحرين ، قطر ، اليمنان ، الامارات ، عمان . . . ) .

وهذا الثبات وذاك الظهور الحديث يجد تفسيره في انتشار فكر  
التجزئة والاقليمية وضعف العمل القومي العربي الوحدوي . ولن يكون  
بالامكان تصور حل نهائي للطائفية اللبنانية الا في اطار عمل قومي عربي  
وحدوي يرتقي الى مستوى المجابهة الصلبة ضد الاستعمار وكافة مخلفاته  
في العالم العربي وعلى رأسها الطائفية والاقليمية والتجزئة والكيانات  
المصطنعة .

## مراجع البحث

- \* هذه الاشكاليات ترتبط عضويا بدراستنا « المسألة الطائفية في لبنان » وهي قيد الطبع . مصادر هذه الدراسة ومراجعتها كثيرة ومتنوعة وتستند بالدرجة الاولى الى وثائق الارشيف ، لذا اکتفينا هنا بالمراجع ذات الصلة المباشرة بمنهج البحث التاريخي الذي اعتمدناه في دراستنا المشار اليها والتي ساعدتنا كثيرا في صياغة هذه الاشكاليات النظرية .
- ( ١ ) الحاج ، كمال « الطائفية البناءة » - بيروت ١٩٦١ .
  - ( ٢ ) الحاج ، كمال « فلسفة الميثاق الوطني » - بيروت ١٩٦١ .
  - ( ٣ ) رايش ويلهلم « ما الوعي الطبقي ؟ » ترجمة جورج طرابيشي - دار الطليعة - بيروت ١٩٧٤ .
  - ( ٤ ) رودنسون ، مكسيم والياس مرقص واميل توما « المسألة القومية ، الوحدة العربية والماركسية » . دار الحقيقة - بيروت ١٩٧١ .
  - ( ٥ ) سعد ، احمد صادق « مصر الفاطمية في ضوء النمط الاسيوي للانتاج » . دراسات عربية - السنة الرابعة عشرة - العددان التاسع والعاشر لعام ١٩٧٨ .
  - ( ٦ ) شرارة ، وضاح « المسألة التاريخية في الفكر العربي الحديث » - معهد الانماء العربي - بيروت ١٩٧٧ .
  - ( ٧ ) شرارة ، وضاح « في اصول لبنان الطائفي ، خط اليمين الجماهيري » . . . بيروت ١٩٧٥ .
  - ( ٨ ) شلق ، فضل « الطائفية والحرب الاهلية في لبنان » . دار الحقيقة - بيروت ١٩٧٨ .
  - ( ٩ ) صايغ ، أنيس « لبنان الطائفي » - بيروت ١٩٥٥ .
  - ( ١٠ ) الصمد ، رياض « الطائفية ولعبة الحكم في لبنان » . بيروت ١٩٧٧ .
  - ( ١١ ) ضاهر ، مسعود « بعض السمات الاساسية لتطور النظام المقاطعي اللبناني » مجلة كلية الاداب والعلوم الانسانية - الجامعة اللبنانية - العدد الاول ١٨٧٥ .

- ( ١٢ ) ضاهر ، مسعود « الطائفية والمنهج في دراسة تاريخ لبنان الحديث والمعاصر » - مجلة « الفكر العربي » - العدد الثاني - آب ١٩٧٨ .  
والعدد بكامله ملف خاص بالكتابة التاريخية المعاصرة ومناهجها .
- ( ١٣ ) مجلة « الطريق » ملف « الظاهرة الطائفية في لبنان » - العدد الثاني - نيسان ١٩٧٨ .
- ( ١٤ ) علبي ، احمد « الاسلام والمنهج التاريخي » دار الطليعة - بيروت ١٩٧٥ .
- ( ١٥ ) ملحق « العمل » . « اسبوع الفكر الملتزم : الطائفية السياسية في لبنان » مناقشات ٢٦ - ٣٠ آب ١٩٦٨ ملحق « العمل » رقم ٧١٨٦ .
- ( ١٦ ) غرامشي ، انطونيو « قضايا المادية التاريخية » مترجم - دار الطليعة بيروت ١٩٧١ .
- ( ١٧ ) غليزمن « قوانين التطور الاجتماعي » مترجم - دار الفارابي - بيروت ١٩٧٨ .
- ( ١٨ ) كورس ، كارل « التصور المادي للنظرية الماركسية » مترجم - دار الطليعة - بيروت ١٩٧٣ .
- ( ١٩ ) لاروك ، بيار « الطبقات الاجتماعية » - مترجم - بيروت - عويدات ١٩٧٣ .
- ( ٢٠ ) ليون ، ابراهام « المفهوم المادي للمسألة اليهودية » مترجم - دار الطليعة - بيروت ١٩٦٩ .
- ( ٢١ ) ماركس - انجلز « الماركسية والجزائر » نعوص - ترجمة جورج طرابيشي - دار الطليعة - بيروت - ١٩٧٨ .

- 1 — Amin, Samir « Le developpement inégal »  
éd — de minuit - Paris 1973.
- 2 — Berque, soboul, vilar et autres « aujourd'hui l'histoire ».  
editions sociales. Paris 1974.
- 3 — Centre d'Etudes et de recherches Marxistes ( C.E.R.M )  
« sur le mode de production asiatique » préface de Roger  
Garaudy. Editions sociales 1969.
- 4 — C. E. R. M. « sur les sociétés précapitalistes » . préface  
de Maurice Godelier. E. S. Paris 1970
- 5 — Corm, georges « contributions à l'étude des sociétés multi-  
confessionnelles » - Paris 1971.
- 6 — A. H. Hourani « minorities in the Arab world ». Oxford  
University Press - London - 1947.
- 7 — Dubar, claude, et Nasr, sélim « les classes sociales au  
Liban ». presses de la fondation nationale des sciences  
politiques ». Paris 1976.
- 8 — La Pensée. No. spécial « sur la catégorie de formation  
économique et sociale ». No. 159. Octobre 1971.
- 9 — Plekhanov « Essai sur le developpement de la conception  
moniste de l'histoire » : E. S. Paris 1973.
- 10 — Recherches internationales à la lumières du marxisme  
« premières sociétés de classes et mode de production  
asiatique ».  
No. spécial 27 - 58 Janvier - Avril 1967.
- 11 — Saint - cloud, colloque de l'Ecole Normale Supérieure de,  
en 1965 : « l'histoire sociale , sources et Méthodes ».  
Paris - P. U. F. 1967.

- 12 — Schumpeter , joseph « impérialisme et classes sociales ». ed. de minuit - Paris 1972.
- 13 — STAVENHAGEN, Rodolfo « les classes sociales dans les sociétés agraires ». ed. Anthropos - Paris 1969.
- 14 — Vilar, Pierre « histoire marxiste et histoire en construction ». in «Faire de l'histoire», sous la direction de jacques le Goff et Pierre Nara. TI. Paris 1974.

البَيْتُ السَّلْبِيُّ  
الدَّيْخُ السِّيَاوُ الْعَلَوِيُّ الدَّوَلِيُّ

# العلاقات الثقافية بين إسبانيا وسورية

في القرن الثامن عشر

الدكتورة مانويلا مارين

( المعهد الاسباني العربي ) مدريد

من الممكن القول بأن العلاقات بين اسبانيا والمشرق خلال القرن السابع عشر كانت منعدمة تماما أما في مطلع القرن الثامن عشر فلقد جرى في اسبانيا ما يترك تأثيره مستقبلا على مجرى الاحداث الداخلية والسياسية الخارجية في اسبانيا ، أقصد بذلك ، انتقال الحكم الى أسرة جديدة هي أسرة ال بربون ، والذي حدث بتولي الملك فيليب الخامس ( Felipe V ) حفيد الملك الفرنسي لويس الرابع عشر ( Louis XIV ) حكم اسبانيا . ولقد ارتبطت السياسة الاسبانية ارتباطا وثيقا بالسياسة الفرنسية خلال هذا القرن ، وبالتالي تأثرت الحياة الثقافية الاسبانية بالازدهار الذي تمتعت به الحياة الثقافية الفرنسية آنذاك . ولقد أحدثت حركة التنوير بصورة خاصة في النصف الثاني من القرن المذكور صدى رنانا في بعض الدوائر الاجتماعية الاسبانية وان كانت أقلية بالنسبة لمجموع الشعب . وتلك الاقلية حاولت - مدفوعة بالافكار الجديدة - خلق أو ايجاد اسبانيا الجديدة المتجهة نحو التقدم . هذا الاتجاه نحو التغيير والتجديد يمكن لنا ان نلاحظه في سائر ملامح الحياة الوطنية ، وكذلك - على ما هو طبيعي - في العلاقات التي تربط اسبانيا بالبلاد الاخرى ومنها بالضرورة بلاد المشرق العربي (١) .

وسأقسم هذه العلاقات الى أربعة أقسام هي :

أولا - العلاقات السياسية .

ثانيا - العلاقات الاقتصادية .

ثالثا - العلاقات الدينية .

ورابعا - العلاقات الثقافية .

وأود ان اشير الى ان هذا التقسيم ليس الا محاولة لتبسيط دراسة هذه العلاقات ولا يغيب عن بالكم ان العلاقات تشكل في ذاتها وحدة مترابطة .

فلنستعرض معا بسرعة الملامح العامة لهذه العلاقات .



## أولا - العلاقات السياسية :

منذ بدايات العصور الحديثة واسبانيا تعيش في حالة حرب دائمة مع الامبراطورية العثمانية وان كنا لا نستطيع ان نصف الحالة خلال القرن الثامن عشر بحالة حرب حقيقية . ولكن المشكلة الرئيسية التي واجهتها الحكومة الاسبانية هي مشكلة قراصنة البحار الذين كانوا يهددون السفن الاسبانية ويغيرون على سواحلها . ونضيف الى ذلك الشعور المستمر بالصراع ضد الاسلام الذي حَمِيَ وارتفع عند الشعب الاسباني منذ سقوط غرناطة .

ولهذه الاسباب مجتمعة تبدو الاهمية القصوى لعام ١٧٨٢ وهو العام الذي شهد توقيع معاهدة سلام وتجارة مع الباب العالي في الآستانة (٢) ، ولقد كان هذا الاتفاق بداية لاتفاقيات أخرى تم توقيعها مع طرابلس وتونس والجزائر ، كما ان هذا العام شهد صياغة العلاقات العادية بين اسبانيا والعالم الاسلامي . ولقد كان وراء هذا الاتفاق السيد ( خوسيه مونينو ، كونت فلوريدا بلانكا ( José Monino , Conde de Floridablanca ) الذي كان يشغل منصب رئيس الوزراء للملك كارلوس الثالث ( Carlos III ) وجدير بالذكر ان الملك كارلوس الثالث الذي اعتلى عرش نابولي قبل أن يتولى الملك في اسبانيا ، وخلال حكمه لنابولي وقع اتفاقا للسلام مع تركيا يشابه تماما الاتفاق الذي وقع فيما بعد حينما أصبح ملكا على اسبانيا . وحتى أمكن الوصول الى هذه المعاهدة أرسل رئيس الوزراء أحد التجار الاشبيليين من ذوي الاصل الفرنسي باعتباره وزيرا مفوضا واسمه خوان بولوني ( Juan de Bouligny ) ، ولقد اختار رئيس الوزراء هذا الرجل لذلك الغرض لانه كان قد عاش فترة طويلة في المشرق ويعرف اللغة التركية علاوة على اطلاعه على العادات والتقاليد السياسية والاجتماعية في بلاد المشرق . وبعد ان نجح هذا الرجل في مهمته ، وفي عام ١٧٨٤ أرسل الملك كارلوس الثالث ملك اسبانيا الى الآستانة السيد (غابرييل دي اريستثابال) ( Gabriel de Aristizabal ) مساعد وكيل أمير البحر على رأس بعثة بغرض تحقيق ثلاثة أهداف هي :

- ١ - حمل هدايا الملك كارلوس الثالث الى السلطان عبد الحميد .
- ٢ - استعراض قوة الاسطول الاسباني في مياه البوسفور التركية .
- ٣ - محاولة تعميم نتائج اتفاقية السلام لتشمل كافة المجالات وخاصة العلاقات التجارية (٣) .

ولا شك ان الهدف الثالث كان هو الاكثر أهمية ، ولكن لم يكن لتلك البعثة نتائج عملية تذكر ولسوف أعرض فيما بعد وبعوض التفصيل للنجاح الذي أحرزته بعض المحاولات الاخرى في مجال اقامة علاقات تجارية وثيقة .

أما في عهد الملك كارلوس الرابع ( Carlos IV ) خليفة الملك كارلوس الثالث ووريثه فان السياسة الاسبانية الخارجية حيال العالم الاسلامي قد تركزت في الشمال الافريقي وعلى وجه الخصوص في المغرب . وفي نهايات القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر فان رئيس الوزراء ، أقصد هنا رئيس وزراء الملك كارلوس الرابع ( Manuel Godoy ) قد دفع ببعثة تتكون من اثنين من المستشرقين الاسبان هما : دومينغو باديا ( Domingo Badia ) وسيمون دي روخاس ( Simôn de Rojas ) وأترك الحديث هنا لمذكرات رئيس الوزراء وهي تصف هذه البعثة قائلة :

« لقد كانت فكرتي الاولى ان يبدو امام النظرة الخارجية كما لو كانا في رحلة علمية الى افريقيا وآسيا وان كان هدفهما الرئيسي الكشف عن وسائل تنشيط تجارتنا في موانئ المشرق ، امتدادا من المغرب الى مصر والبحث عن خطط بل عما يجب اتخاذه من اجراءات لاقامة علاقاتنا التجارية في آسيا بطريقة مستقلة تماما عن الدول الاوروبية الاخرى(٤) »

ومع ذلك فان احسن نتائج هذه البعثة يتجلى فيما كتبه «دومينغو باديا» عن رحلته في المغرب ومصر والحجاز وبلاد الشام خلال المدة من ١٨٠٣ الى ١٨٠٧ ، فلقد خلف لنا هذا الرجل كتابا يعد من أحسن كتب الرحلات التي نشرت في عصره . وجدير بالذكر والتنويه ان الرحالة الاسباني قد تنكر تحت اسم علي بيه العباسي مرتديا الملابس العربية منتحلا شخصية اسلامية . ونجد في كتابه اشارات على غاية من الاهمية تتعلق بالزراعة والتجارة والصناعة والازياء والواقع العسكري والاداري للمناطق التي مر بها . ولقد نشر هذا الكتاب لاول مرة باللغة الفرنسية عام ١٨١٤ محتويا على مائة لوحة رسمها بيده ، ثم ترجم الى الاسبانية عام ١٨٣٦ ، ولم يطبع مرة ثانية بصورة علمية(٥) .

### ثانيا - العلاقات الاقتصادية :

ان اتفاقية عام ١٧٨٢ تعدّ اتفاقية سلام وتجارة ، هدفها الاساسي

اقامة القواعد الرئيسية للعلاقات التجارية المباشرة بين اسبانيا والمشرق .  
تلك العلاقات التي لم تكن موجودة قبل ذلك ، وفي الحقيقة فان العصور  
الوسطى المتأخرة قد شهدت تجارة مباشرة بين القطلانيين والمشرق ولكن  
ومنذ القرن السادس عشر احتلت فرانسأ أولا ومن بعدها انجلترا مجال  
التجارة مع المشرق . وفي القرن الثامن عشر استوردت اسبانيا بعض  
البضائع المشرقية لكنه لم يكن استيرادا مباشرا بل كان عبر بعض التجار  
الفرنسيين مما جعل أسعار هذه البضائع عالية . ولدينا بعض البيانات  
عما أثاره هذا الاتفاق من اهتمام لدى التجار الاسبان وخاصة القطلان  
والبلنسيين . وعلى سبيل المثال فان التمثيل القنصلي الملكي والتجار في  
اليكانتي قد أرسلوا في يناير من عام ١٧٨٤ رسالة تهنئة الى رئيس الوزراء  
واعدين اياه بالاستفادة من مزايا المعاهدة (٦) . ومع ذلك فعلينا ان نبين  
ان العلاقات التجارية لم تطرد على ما كان منتظرا ، على الرغم من حماسة  
بعض التجار . ومثالنا الواضح على تلك الحماسة ان تاجرا من بلدة  
« بيناروث » ( Vinaroz ) باقليم بلنسية اسمه خوان دي لوستاو  
( Juan Loustau ) قد كتب تقريرا عن امكانيات التجارة مع المشرق حملته  
معها البعثة التي أرسلها كارلوس الثالث والتي رأسها Gabriel de  
« Aristizabal السابق الاشارة اليه . وما زال هذا التقرير او ان شئت  
القول ، الدراسة التي اعدتها هذا التاجر البلنسي مخطوطة ومحتفظا بها  
في ارشيف الكونت ذي كامبومانيس « Conde de Campomanes » (٧)  
ويذكر صاحبه انه قد كتبه في أربع وعشرين ساعة فقط ، ومع ذلك فان  
تلك الدراسة تحتوي على كثير من الموضوعات وتتناول جوانب كثيرة من  
جوانب التجارة مع المشرق مرفقا معها أولا : قائمة بالصادرات الاوروبية  
الى المشرق وثانيا : قائمة اخرى بصادرات بلاد المشرق الى أوروبا(٨) .

ويتضمن التقرير ملاحظات قيمة ومفيدة عن الجوانب العلمية في هذه  
التجارة ويشير صاحب التقرير الى بعض الجوانب الاجتماعية في العملية  
التجارية وهذه الجوانب على درجة عالية من الاهمية منها على سبيل المثال:  
ان التجار المشرقيين يتعاملون بشرف في علاقاتهم بالتجار الاوروبيين  
أما فيما بينهم فليس الحال كذلك ، ويصر في عدة مواقف على حاجة اسبانيا  
الملحة الى اقامة ميناء خاص للتجارة مع المشرق مقترحا لذلك احد موانئ  
برشلونة Barcelona ، الفاقيس Los Alfaques ، كارتاخينا  
Cartagena ، أو ميناء مدينة ماهون Mahon بجزيرة مينورقة  
Menorca كما يبرز نقطة أخرى بارزة ألا وهي الحاجة الى موانئ آمنة

ومنظمة ملمحا الى ضرورة مساعدة الدولة ومضمنا تقريره أخيرا مشكلة قراصنة بحار شمال افريقيا الذين يهددون هذه التجارة .

وفي تقرير قدمه فلوريدا بلانكا Floridablanca الى كارلوس الثالث والى كارلوس الرابع فيما بعد في عام ١٧٨٩ (٩) يؤكد ان اسبانيا تحظى بازدهار في تجارتها مع المشرق وأن العلم الاسباني يرفرف حيث لم يسبق أن وقعت عليه الاعين ولقد كرر هذه الفكرة كثير من الكتاب بعد ذلك . وعلى الرغم من هذه الاقاويل ، فالحقيقة هي ان الامر لم يتعد كونه آمالا ورغبات اكثر من كونه حقيقة واقعة . والسفير الاسباني في الاستانة السيد بولينسي Bouligny السابق الاشارة اليه لاحظ أيضا امكانيات اسبانيا في التجارة مع المشرق ، وخاصة في مجال صناعات النسيج . وتقرير التاجر البلنسي Loustau المشار اليه يصر على الحاجة الى التجارة المباشرة مع بلاد المشرق ، ولكن ماتمخض عنه الامر في النهاية لم يكن الا قيام بعض التجار ببعض العمليات التجارية المتفرقة وليس لها أهمية كبرى . ومن بين هؤلاء التجار تجدر الاشارة الى خوان سولير Juan Soler وهو تاجر ميورقي ساهم بنشاط كبير في توقيع اتفاق السلام مع طرابلس في عام ١٧٨٤م (١٠) ولقد قام كارلوس الرابع بتعيينه قنصلا عاما في تركيا حتى يتمكن من زيارة الموانئ المشرقية وانشاء العلاقات التجارية الممكنة هناك . مرت عشر سنوات تقريبا على التقرير الذي كتبه التاجر البلنسي Loustau ونحن الان في عام ١٧٩٣ حيث نجد سولير Soler يقدم تقريرا اخر الى اللجنة الخاصة بالتجارة في مدينة برشلونة وفيه يعرض للمنتجات التي يمكن لاسبانيا تصديرها الى المشرق وللمنتجات المشرقية التي يمكن استيرادها الى اسبانيا اما فيما يتعلق بالتصديرات الاسبانية فيذكر سولير منتجات من أمريكا ومن جزر الفلبين . أما مايمكن ان نحضره من المشرق فلقد وضع لنا قائمة تحتوي على : الارز ، البن اليمني ، الزيت ، التمر ، والبقليات ، والذرة ، والحنطة ، والعبور ، والصوف ، والقطن ، والكتان ، وشعر الماعز والجمال . . . الخ ، ولقد لاحظ سولير أن الثورة الفرنسية تقدم لاسبانيا فرصتها الذهبية لكي تحل محل فرنسا في التجارة مع المشرق واقترح على اللجنة تمويل رحلة تجارية الى المشرق ، وبعد مجادلات ومناقشات طويلة أبحر في عام ١٧٩٦ المركب الفيرمي « El Firme » من جزيرة ميورقة ، ويرجع اختيار هذه الجزيرة لبحار السفينة الى كون البحارة الميورقيين هم أعرف الناس بالطرق الى المشرق ، ولقد حمل

هذا المركب على ظهره : السكر والعرقسوس ومناديل الحرير والمنسوجات ،  
والشيكولاته ، والنيل ، والينسون والفلين ، والآجر ... الخ .

ولكن اللجنة التجارية الخاصة قد خسرت بعض أموالها في هذه  
الرحلة ، وعلى الرغم من جهودها لتشجيع هذه التجارة إلا أنها لم تحقق  
نجاحا يذكر . وفي خلال القرن التاسع عشر تعرضت اسبانيا لعدة هزات  
عنيفة منها تعرضها للغزو الفرنسي وفقدان مستعمراتها في أمريكا واندلاع  
الحروب الأهلية على أرضها . كل تلك الهزات لم تسمح لاسبانيا بمواصلة  
الطريق الذي كانت قد فتحتة بشق الانفس في الثلث الاخير من القرن الثامن  
عشر . وحتى بدايات القرن العشرين فاننا نجد قناصلة اسبانيا لدى  
الموانئ المشرقية يشكون من انعدام التجارة بين اسبانيا وهذه الموانئ ،  
مرجعين ذلك الى أسباب ثلاثة : **أولا** عدم وجود خطوط بحرية منتظمة ،  
**ثانيا** عدم وجود جاليات اسبانية في المشرق **وثالثا** عدم ذهاب التجار  
الاسبان الى هناك . ولا تبعد هذه الاسباب كثيرا عن الاسباب التي منعت  
من اقامة علاقات تجارية ثابتة ومنتجة في القرن الثامن عشر .

### ثالثا - العلاقات الدينية :

أود أن أشير بايجاز شديد في هذا المجال الى التواجد المستمر  
والمواصل لرجال الدين الاسبان في الاديرة السورية . ولقد كان لهذا أثر  
كبير - على ما سنرى - في تطوير الدراسات العربية على أرض اسبانيا  
ذاتها ، ويشير الى ذلك المستشرق دومينغوباديا ( علي بيه العباسي ) المشار  
اليه سابقا حيث يؤكد وجود بعض الرهبان الاسبان في القدس والرملة  
وبيت لحم ويافا والناصره وعكا ودمشق وطرابلس واللاذقية ، وان من بين  
العدد الاجمالي للرهبان في تلك المدن والذي يصل الى ١١٨ راهبا يوجد  
بينهم ٧٧ راهبا اسبانيا . ولقد كرس هؤلاء الرهبان أعوامهم الاولى في  
المشرق لتعلم اللغة العربية ، وفي بدايات القرن الثامن عشر أسست في  
مدينة دمشق مدرسة لتعليم الاسبان اللغة العربية . أما المهمة الاساسية  
لهؤلاء الرهبان فكانت في المقام الاول المحافظة على الاماكن المقدسة  
المسيحية في فلسطين ( ولهذا الغرض وجد في اسبانيا مؤسسة تسمى  
« المؤسسة الخيرية للاماكن المقدسة » ) ، وهدفهم الثاني يرمي الى محاولات  
تحويل المسلمين الى المسيحية ، ونمتلك بين أيدينا وثائق عديدة تتعلق  
بالهدف الاول .

ومن الملامح المثيرة في هذه العلاقات الدينية وصول عدد من رجال الدين المسيحي المشرقين الى اسبانيا وهؤلاء هم الذين لعبوا دورا مهما في خلق الدراسات الشرقية في بلادنا وأشهر هؤلاء القسيسين القس المسيحي ميخائيل الغزيري ، المولود بمدينة طرابلس في حوالي عام ١٧٠٧ والذي انتقل أولا الى روما ثم الى اسبانيا حيث عمل بالمكتبة الوطنية في مدريد وفي مكتبة الاوسكوريال وفي سكرتارية الدولة ( ونقصد بسكرتارية الدولة ما يسمى حاليا بوزارة الخارجية ) ولقد حضر أيضا بعض الرهبان الشرقيين وبرز من بينهم الراهب بولس الهدار(١٢) ، الذي كان استاذا للغة العربية بمدينة كومبرا بالبرتغال . ولقد كان عمل هؤلاء الرهبان والقساوسة في اسبانيا مكرسا للجوانب الثقافية وليس الدينية .

#### رابعا - العلاقات الثقافية :

بانتها السيطرة الاسلامية في اسبانيا بسقوط مملكة غرناطة في عام ١٤٩٢ تفتح فترة جديدة من تاريخ الثقافة الاسبانية تتميز بالازدهار الادبي والفني ولكنها تجهل تماما الانجازات الثقافية للفترة الاسلامية السابقة عليها . وفي القرن الثامن عشر يتجلى الوعي بجهلنا بهذه الفترة التي تشكل جزءا من ماضي اسبانيا وتاريخها . وتنبه رجال حركة التنوير الى ان جزءا من التراث العربي يمكن ان يصلح للحياة المعاصرة . ولاننسى أن الافكار السائدة في الفترة المعروفة باسم عصر التنوير هي أفكار التقدم والمصلحة . وللاستفادة من هذا التراث فان المطلوب في المقام الاول هو معرفة اللغة العربية والتزود بوسائل دراستها وتعلمها . ولقد قام الاب فرانسيسكو كانيس « Francisco Canes » في عام ١٧٨٧ بنشر القاموس الاسباني - اللاتيني - العربي . ومما يذكر ان مؤلف هذا القاموس كان قد قضى ستة عشر عاما في القدس ودمشق ، وعلى غلاف القاموس يشير الى أنه سيفيد « المشرين والمسافرين والذين يتعاملون مع افريقيا والمشرق » ويجدر التنبيه الى ان الاب القسيس الغزيري مؤلف أول فهرست للمخطوطات العربية بمكتبة الاسكوريال كان قد قام بمراجعة هذا القاموس قبل نشره .

وتلقت الدراسات العربية في اسبانيا مساعدة الدولة : فالقاموس تم طبعه بمعاونتها ، وبالرغم من عمل كثير من رجال الدين في هذا الموضوع الا أن الامر لم يكن مركزا على النواحي الدينية ففي عام ١٧٩٨ تلقت بعثة كانت في طريقها الى المغرب تعليمات كتابية بالألا تشتري كتب الدين والفقهاء

والفلسفة ، بل تعمل على شراء المعاجم والقواميس وكتب التاريخ وعلم  
الزراعة والعلوم البحتة(٩٤) .

ومن بين طلبة الغزيري لدراسة اللغة العربية نجد شخصيات بارزة  
في مجالات الحياة الثقافية والسياسية الاسبانية ، منهم على سبيل المثال  
خوسيه بانكيري « José Banqueri » ، واغناثيو آسوديل ريو  
« Ignacio Asso del Rio » وعلى وجه الخصوص ، بيدو دي كمبومانس  
« Pedro de Campomanes » ، كونت دي كمبومانس  
« Conde de Campomanes » (١٥) .

وإذا تحدثنا قليلا عن تلك الشخصية فاننا نشير بسرعة الى أن  
كامبومانس قد شغل منصب رئيس الوزراء للملك كارلوس الثالث ،  
كما كان أحد أهم شخصيات عصره السياسية ، وعلاوة على ذلك ، كان  
علامة وباحثا(١٦) ، ولقد شجع بشدة الدراسات العربية في اسبانيا بادئا  
بذلك مدرسة الدراسات العربية الحديثة التي لا تزال تواصل طريقها في  
اسبانيا الى ايامنا هذه . وعلاوة على ما قدمه للبحث في مجالاته الواسعة  
فقد كتب « مقدمة تمهيدية حول فوائد اللغة العربية » . تلك المقدمة التي  
نشرت في الجزء الاول من قاموس الاب كانيس . كما انه ترجم بالاشتراك  
مع الغزيري فصلين من كتاب الفلاحة لابي زكريا بن العوام وهو الكتاب  
الذي ترجم كاملا الى الاسبانية فيما بعد على يدي خوسيه بانكيري المنوه  
عنه سابقا . فلنتوقف لحظة قليلة أمام ترجمة كتاب ابن العوام لقد تمت  
الترجمة على اساس نسخة قام بنسخها الاب الغزيري وهدار ، وقام  
بمراجعة الترجمة الاب كانيس ونشرت تلك الترجمة في عام ١٨٠٢ مزودة  
بمقدمة كتبها كامبو مانس ، وفي المقدمة يلح كامبو مانس على أهمية  
هذا الكتاب محددًا هذه الأهمية في قوله « لكي يتمكن الفلاحون في شبه  
الجزيرة وخاصة في المناطق الجنوبية والجزر الاسبانية من تحسين واعادة  
الازدهار الذي كان سبب كثافة سكانية عالية - على ما يرى الغزيري -  
في هذه المناطق » .

ويلتقي الاهتمام بالدراسات العربية مع اهتمام المفكرين في القرن  
الثامن عشر بتجديد الزراعة والصناعة والتقدم العلمي . ونتيجة لدفع  
وتشجيع كامبو مانس ظهرت في أرجاء اسبانيا جمعيات اهلية تحت اسم  
« الجمعية الاقتصادية لاصدقاء البلاد » تهتم بتشجيع الثقافة والعلوم .  
وفي عام ١٧٧١ نرى الملك يقدم هدايا قيمة من الكتب الى جمعيات منطقة

الباسك ومن بين هذه الهدايا فهرس الغزيري الذي أعد من المخطوطات العربية في مكتبة الاسكوريال . ونرى جامعة « الكلاسي أينارس » « Alcalà de Henares » تطالب باقامة كرسي للدراسات العربية . ولقد أنشأ كامبو مانس في المعهد الملكي بمدير كرسيا للدراسات العربية عام ١٧٧٧ . كما ان اكاديمية التاريخ الملكية لعبت دورا بارزا في حركة الدراسات العربية . وضمن مخطوطات هذه الاكاديمية نجد مخطوطات ترجع الى الغزيري وبانكيري وكامبو مانس وباحثين آخرين .

وكيلا أطيل عليكم الحديث أوجز كلماتي بالاشارة الى النقاط التالية :

أولا - أنه قد نشأ في القرن الثامن عشر الميلادي تقارب حقيقي بين اسبانيا والمشرق وان كان هذا التقارب لم يتمخض عن نتائج مهمة في المجالين السياسي والاقتصادي فانه على الاقل قد أنهى فترة من العداوة والتجاهل .

ثانيا - أما عن العلاقات الثقافية ، فعلاوة على أنها قد بدأت الا انها تمتعت بأهمية كبرى تتجلى في كونها تشكل العودة الى دراسة تراث اسبانيا العربي . ولقد شهدت هذه الدراسات تشجيعا من الدولة التي رأت في الدراسات العربية احتمالات كثيرة منها مثلا فائدتها العملية في فهم تاريخ اسبانيا نفسها والاستفادة من النظم الزراعية العربية علاوة على التغطية العلمية لمحاولات النفوذ السياسي . ويمكن ان نقول انه في مجال فهم التاريخ والحضارة الانسانية فان الطريق قد قطع شوطا طويلا . بينما في عمليات النفوذ السياسي فعلينا ان نقتصر القول حول شخصية دومينغوباديا أو علي بيه العباسي ، كما كان يتسمى والذي توفي في ظروف غامضة بمدينة دمشق عام ١٨٢٢ .



## الحواشي

( ١ ) هناك دراسات كثيرة عن التطور الثقافي والاجتماعي في اسبانيا خلال القرن الثامن عشر ونشير هنا الى « L'Espagne éclairée de la seconde moitié du XVIIIesiècle »

« للباحث الفرنسي » « Jean Sarrailh »

( ٢ ) انظر - « Espania Y los paises musulmanes durante le minis - terio de Floridablanca » ( اسبانيا والبلدان الاسلامية خلال وزارة فلوريدا

بلانكا ) ، للمؤلف الاسباني « M. Conrotte » مطبوع في مدريد سنة ١٩٠٩ .

( ٣ ) نفس المصدر ، ص ٢٩٦ .

( ٤ ) انظر « Memorias » ( مذكرات ) لـ « M. Godoy » ، مدريد

١٩٥٦ ص ، ٢٨ - ٣٦ .

( ٥ ) توجد المعلومات الخاصة ببلاد الشام في الجزء الثالث من كتابه ، وقد زار علي بك المدن الآتية : القدس ، ويافا ، وعكا ، والناصره ، ودمشق ، وحمص ، وحماء ، وحلب ، ويطيل في وصف دمشق حيث يتكلم عن جامعها واسواقها وصناعاتها واكلاتها وتجاريتها وصحتها ، مركزا ملاحظاته على نشاط التجارة بالمدينة التي تربطها القوافل يوميا مع بيروت وطرابلس وعكا ، ومع حلب مرتين أو ثلاث مرات في كل شهر ومع بغداد ثلاث أو اربع مرات في السنة ويشير أيضا الى ان منتجات دمشق الرئيسية هي الحنطة والشعير والقنب والعنب والمشمش والفسق وفواكه أخرى والعسل بينما تستورد السكر من مصر واوروبا والارز من مصر أيضا ، ويكثر كتاب علي بك من الملاحظات المهمة عن هذه المنطقة التي لا نستطيع ذكرها هنا بكمالها والكتاب في رأبي يحتاج الى ترجمته كاملا باللغة العربية .

( ٦ ) انظر كتاب « Conrotte » ص ٢٩١ - ٣١١ .

( ٧ ) يحتفظ بنسخة اخرى من هذا التقرير في « Archivo Historico Nacional » ( الارشيف التاريخي الوطني في مدريد ) .

( ٨ ) يورد صاحب التقرير المنتجات الآتية التي يتم استيرادها من اوروبا : الاقمشة المشكلة وأشرطة الذهب والفضة والحريير وزخرفة لحاشية الثياب والطبرزل واللوز والينسون والدار الصيني والفلفل الاسود والقرنفل وجوز الطيب والكينا والعنبر والزرنينج والرهج الاحمر والسندروس وقهوة في المرتنيك والنيل والات حديدية ومذهبات على الخشب ومعادن منوعة ( صلب وتك وسلك وقصدير وورصاص وزئبق وزنجفر ) واخشاب والكافور والمرجان والقرمز والزنجبيل والصمغ وزيت الزاج وحجر الشب . ومن بين المنتجات المصدرة من الشرق الى اوروبا : القطن وشعر الماعز والبعر والحنطة

والطحين والارز والشمع والبن « من مخا » والجلود والزعفران والفسق والزبيب  
والتين اليابس والتمر والشاي والمشروبات والحريير والاقمشة والكتان وزيت الزيتون  
وعطور متنوعة وريش النعام والقصب الحلو المصري والسجاد والصوف واللؤلؤ  
والجواهر .

- ( ٩ ) المطبوع في « مكتبة المؤلفين الاسبان » في الجزء التاسع والخمسين .
- ( ١٠ ) انظر « Historia de la Real Junta Particular de Comercio »  
تاريخ اللجنة الملكية الخاصة للتجارة في برشلونة من ١٧٥٨ الى ١٨٤٧ ) للمؤلف  
الاسباني « A. Ruiz y Pablo » مطبوع في برشلونة سنة ١٩١٩ ، ص ٢٥١ .
- ( ١١ ) انظر كتاب علي بك ، الجزء الثالث ، ص ١٧٢ .
- ( ١٢ ) توجد دراستان صغيرتان عن حياة الراهب بقلم « Miguel Breidy » .  
أولهما « Michel Gharciéh al - Ghaziri » مطبوع في حريصا سنة ١٩٥٠  
وثانيهما « La Labor dos maronitas acerca de la Arabico - Hispana - Escurialense »  
( مجهود راهبين مارونيين حول المكتبة العربية الاسبانية الاسكوريالية ) ، مطبوع  
في مدينة برانفا البرتغالية سنة ١٩٧٥ .
- ( ١٣ ) تحول هذا الرجل عن الرهبنة في اسبانيا ، كما تخبرنا بذلك رسالة محفوظة رقم  
( ١٩ - ٣٨ ) ، في ارشيف الكونت دي كمبومانس في مدريد كتبها باللغة العربية  
يوسف مارون تايب انطاكي سنة ١٧٦٩ .
- ( ١٤ ) هذه الوثيقة محفوظة في ارشيف كمبومانس ( رقم ب ٩ - ٢٨ ) .
- ( ١٥ ) انظر الفصل الاول لكتاب « Arabistas espanoles del XIX » (المستشرقون  
الاسبان في القرن التاسع عشر ) بقلم M. Manzanares ، المطبوع في مدريد سنة  
١٩٧١ .
- ( ١٦ ) انظر كتاب « El Conde de Campomanes. Su obra historica »  
( الكونت دي كمبومانس ومؤلفاته التاريخية ) لـ « F. Alvarez Requejo »  
المطبوع في اوفييدو « Oviedo » ( اسبانيا ) سنة ١٩٥٤ .

## بحرنة كرخ كرىن فى سورىة

الدكتور احمء عبء الرءىم مصطفى  
ءامعة الكوىة

بعء أن نشبء الحرب العظمى ضاعف المبشرون الامرىكان نشاطهم فى الشام ، ءاصة وءء انبشرت المءاعة الءى عصفت بءىاء الكءىرىن من الناس بعء ان صاءرت السلطاء العثمانىة الءواب والمؤن . وفى أوائل عام ١٩١٥ اسس ءالكوء ولىمز Talcott Williams - مءىر كلىة الصءافة بءامعة كولومبىا بالاشءراك مع سءانلى هواء - منءوب الهىئة البرسبءىرىة بسورىا - صنءوق الاغاءة السورى - الفلسءىنى الءى باشر نشاطه بمءرء انشاءه (١) . الا ان الءكام الاءراك من ءماعة الاءءاء والءرقى لم ىسمءوا ءءى عام ١٩١٦ باءءال المواء اللازمة للاغاءة . وفى كانون الاول ( ءىسمبر ) من هءا العام ءبرعت ءكومة الولاىاء المءءة بسفىنة فءم لنقل المؤن الى سورىا ، وناشءء وزارة الءارءىة الامرىكىة المءءارىبن - بما فىهم ءركىا - السماع باءءراق السفىنة للءظر البءرى الءى فرضه الءلفاء . وأءء المبشرون والءبلوماسىون والقناصل الامرىكان ىوزعون المءونة ، وءءولء مملءكاء البءشاءء ءبشىرىة الى مراكز للاغاءة . ولكن مءظم مواء الاغاءة سلمء الى ءىر المسلمىن الءىن لم ىءعء نصىبهم منها نسبة ٢ ٪ ، على ءىن ءسلم الارمن والءرب المسىءىون مءظم ما ءبقى . وءء أءء مءاباة الاقلىاء المسىءىة الى امءعاض المسلمىن الءىن كان الكءىرون منهم لا ىقلون بؤسا عن اءوانهم المسىءىبن ، بل كانوا فى ءالة ىرءى لها . وعلى اى ءال فان سوء اءوال كل من الارمن والءرب ءعل ءال الءىن الامرىكان ىءءولون من المسائل الءىنىة والءعلىم الى العمل الانسانى - فقء قءمء كل من هىئة الصلىب الاحمر واللءنة الامرىكىة لاغاءة ارمنىيا وسورىا (٢) نماءء انسانىة كان من المءوقع ان ءزوءها ءكومة واشنءون بمءوناتها (٣) .

أما موقف امرىكا الرسمى من الءولة العثمانىة فكان أمىل الى الءىاء ، وءلك رءم ان الرئىس ولسون كان ىءمنى انهىار الامبراءورىة العثمانىة

ووافق على مخططات بهذا الصدد في محادثات خاصة أجراها مع البريطانيين . وحين دخلت الولايات المتحدة الحرب الى جانب الحلفاء عام ١٩١٧ هددت المانيا بقطع مساعداتها عن الباب العالي في حالة عدم اعلان تركيا الحرب على الولايات المتحدة . ولكن المسؤولين الاتراك كانوا يطمعون في أن تساعدهم امريكا على موازنة النفوذ الالمانى في حالة سيطرة المانيا على أوروبا كما كانوا ، من ناحية أخرى ، يرغبون في أن تساعدهم أمريكا على اصلاح ما خربته الحرب في حالة انتصار الحلفاء . وعلى أي حال فقد استسلم مجلس الوزراء التركي للضغط الالمانى ووافق في ٢٠ نيسان (ابريل) ١٩١٧ - باغلبية صوت واحد - على قطع العلاقات الدبلوماسية مع الولايات المتحدة . وحينئذ نوقش في الولايات المتحدة موضوع الحياد ، وطالب بعض الامريكان بمعاينة تركيا . الا ان المجلس الامريكى لمثلي البعثات التبشيرية في الخارج رأى في اجتماعه السنوي لعام ١٩١٧ ان البعثات التبشيرية واللجنة الامريكية لاغثة سوريا وأرمينيا ستتعرض للحصار والعزلة في حالة اعلان الولايات المتحدة الحرب على تركيا وأن عددا آخر من أفراد الاقليات سيتعرض للموت ، وأن تركيا ستستغل الفرصة للاستيلاء على الاملاك الامريكية . وازداد قلق المبشرين في الخريف حين دفع أعداء تركيا الكونجرس الى اصدار قرار يخول الرئيس تجميد أرصدة الرعايا العثمانيين في الولايات المتحدة - ولما كان من المتوقع أن يؤدي تنفيذ مثل هذا الاجراء الى دفع الاتراك الى اتخاذ خطوة مماثلة ، فقد بادر وزير الخارجية الامريكية بارتون - الذي كان يكن كثيرا من الاحترام لرجال الارساليات - مذكرة الى ولسون بهذا الشأن . كما قرر رجال الصناعة أن يبعثوا الى الرئيس بدفاع عن قرار الولايات المتحدة الخاص بالمحافظة على الحياد ازاء تركيا ، وهو الاتجاه الذي أبدى رجال الارساليات شدة تمسكهم به . فمن شأن اعلان امريكا الحرب على تركيا أن يؤدي الى تعريض كثير من الامريكان للموت وعرقلة العمل الذي كان يقوم به المبشرون ويستهدف انقاذ حياة مئات الالوف من رعايا الدولة العثمانية . وازاء كل ذلك تردد ولسون في اعلان الحرب على تركيا ، برعم اقتناعه بضرورة تقسيم الامبراطورية العثمانية الى مناطق تتمتع كل منها بالاستقلال الذاتي على أسس عرقية .

واستمر الجدل خلال ربيع عام ١٩١٨ حول مزايا حياد الولايات المتحدة ازاء تركيا . ووضع السناتور هنري كابوت لودج تقريرا جاء

فيه : ان الاتراك يشتركون في الحرب على الجبهة الغربية ، وأعلن ان الآستانة شديدة العداء للولايات المتحدة وان فصلها عن المانيا « وهم شديد » . كما ندد « الحلفاء » بموقف بعثات الاغاثة الداعي الى عدم اعلان الحرب ، خاصة وان بريطانيا كانت بحاجة الى تعزيز جهودها الحربية في الشرق الادنى . فبرغم تعاون القوميين العرب معها بزعامة الشريف حسين وابنائهم ، فانها لم تستطع ضعفة روح الاتراك المعنوية . الا ان الدوائر الرسمية الامريكية كانت تخشى تعرض البروتستانت داخل الامبراطورية العثمانية للخطر في حالة اعلان الحرب ، ومن ثم تزكية ولسون للجنة الشؤون الخارجية بمجلس الشيوخ عدم اجراء تعديل على السياسة الامريكية ازاء تركيا .

وفي تشرين الاول ( اكتوبر ) ١٩١٨ أعلن الرئيس ولسون مبادئه الاربعة عشر - وقد نص المبدأ الثاني عشر منها على ما يلي : « يجب ان تضمن للمناطق التركية الداخلة في نطاق الامبراطورية العثمانية الراهنة سيادة أكيدة - ولكن يجب ان يضمن للقوميات الاخرى الخاضعة الآن للحكم التركي الامن الاكيد على حياتها وان يفسح لها المجال ، دون اضرار بها ، للتطور نحو الحكم الذاتي . ويجب ان يبقى الدردنيل مفتوحا باستمرار - باعتباره ممرا حرا - امام سفن وتجارة كل الدول طبقا ل ضمانات دولية » . وقد جاء هذا الاعلان نتيجة لمذكرة اعدتها مكتب التحقيق في كانون الاول ( ديسمبر ) عام ١٩١٧ وأشارت الى الاستقلال الذاتي لارمينيا وفرض الحماية الغربية على فلسطين وسورية ومنطقة ما بين النهرين ( العراق ) وشبه الجزيرة العربية وبدء عهد جديد بالنسبة الى المناطق التركية الداخلة في نطاق الامبراطورية العثمانية . وحين انتهت الحرب في تشرين الثاني ( نوفمبر ) ١٩١٨ كان مصير الاراضي العثمانية من أهم المسائل التي جرى بصددتها تبادل الرأي بصفة غير رسمية بين الوفدين الامريكي والبريطاني ، وبخاصة قبيل انعقاد مؤتمر الصلح . وقد تم الاتفاق بوجه عام بين الوفدين على تمزيق الامبراطورية العثمانية الى وحدات تضم الاجناس التي تتكون منها الامبراطورية . وفي المسودة الاولى التي وضعها ولسون لميثاق عصبة الامم في ١٠ كانون الثاني ( يناير ) ١٩١٩ أوضح وجوب خضوع الاراضي التي كانت تتبع للامبراطورية العثمانية لنوع من الوصاية تحت اشراف عصبة الامم المقترحة وعدم ضمها لاحدى الدول الكبرى . على ان التصريحات التي أدلت بها حكومة الرئيس ولسون حول الامبراطورية

العثمانية كانت تنم عن اتجاهات مثالية بالامكان تطبيقها بصور مختلفة : فالرئيس كان يرغب في اتخاذ موقف مرن في مؤتمر الصلح ، في الوقت الذي لم يكن من المتوقع فيه أن يتمشى مبدأ تقرير المصير مع ارضاء كل من الجماعات الجنسية الخاضعة للامبراطورية العثمانية ومواجهة المخططات الاستعمارية لدول الحلفاء . وفيما يتعلق بفلسطين كان الرئيس قد أيد اصدار وعد بلفور دون ان يصرح بذلك علنا ، متوخيا تأجيل الموافقة العلنية حتى نهاية الحرب . فبعد وقت قصير من دخول أمريكا الحرب الى جانب الحلفاء زار وزير الخارجية البريطانية جيمس آرثر بلفور الولايات المتحدة بهدف الحصول على مساندتها للخطوة التي كان مجلس الوزراء البريطاني يفكر في اتخاذها فيما يتعلق بمساندة آمال الصهيونيين . فلما كان من المتوقع أن تلعب أمريكا دورا رئيسيا في تسويات الصلح ، فان اصدار الرئيس الأمريكي تصريحاً قاطعاً موالياً للصهيونية من شأنه ان يبدد مخاوف البريطانيين من احتمال عزلة بلادهم السياسة بصدد المسألة الفلسطينية . وقد أكد الرئيس الأمريكي لبلفور موافقته على مثل هذه الخطوة ، ووافق على الصيغة الانجليزية الاصلية ، ولم يدل بموافقته العلنية على النص النهائي لوعد بلفور الا في آب ( اغسطس ) ١٩١٨ ، وكانت هذه الوعود والتصريحات التي بذلها الرئيس ولسون فيما يتعلق باقامة وطن قومي لليهود تتعارض مع مبدأ تقرير المصير على العرب .

وفي ١٨ كانون الثاني ( يناير ) ١٩١٩ افتتح مؤتمر الصلح رسميا في باريس - وكان من المتوخى ان توفر الاتفاقيات السرية التي اجراها الحلفاء فيما بين عامي ١٩١٥ و ١٩١٧ والتصريحات التي تلت ذلك خلال عام الحرب الاخير اساسا للمناقشات المتعلقة بمستقبل الشرق الادنى . ولم تبدأ مناقشة مصير الامبراطورية العثمانية الا في ٣٠ كانون الثاني ( يناير ) - وحينئذ اوضح لويد جورج - رئيس الوزراء البريطاني - ان مبدأ الانتداب قد تقرر بالفعل ، برغم عدم وجوب تطبيقه بوجه عام الا على الاجزاء التي تم احتلالها بالفعل . ويتضح موقف الانجليز الفعلي من مبادئ ولسون من ان بلفور كان يعتقد ان الرئيس الأمريكي لم يتنبأ جدياً بتطبيقها خارج أوروبا - وهكذا ذهب الى ان ولسون كان يعني عدم وقوع بلد متحضر تحت سيطرة بلد آخر وأنه على استعداد لقبول وقوع دولة عربية تحت الحماية البريطانية اذا ما اتضح ان العرب لا يستطيعون الوقوف على أقدامهم . وفي نفس الوقت كان السير برسي كوكس - المندوب السامي البريطاني في العراق - يرى عدم

اجراء أي نوع من الاستفتاء في العراق على اعتبار ان ذلك لا يناسب السكان المحليين، وانه لا بد ان يثير شكوكا لاحصر لها(١٤). وفي كانون الثاني(يناير) تقدم الوفد البريطاني في مؤتمر الصلح بمسودة قرار جاء فيه أن سوء الحكم العثماني للشعوب التي خضعت لتركيا ومذابح أرمنيا وغير ذلك من شأنه أن يبرر الموافقة على فصل أرمنيا وسوريا وما بين النهرين وفلسطين وشبه الجزيرة العربية فصلا تماما عن الامبراطورية العثمانية ، وان لا بد من تطبيق مبدأ ان « رفاهية وتطور » شعوب هذه البلدان يشكلان « أمانة مقدسة في عنق الحضارة ، وان من الواجب أن يتضمن دستور عصابة الامم ضمانات اداء هذه الامانة » واقترح ان يتم الاعتراف المؤقت « بمجتمعات معنية » كانت في السابق خاضعة للامبراطورية العثمانية باعتبارها أمما مستقلة ، وذلك نظرا لمدى التقدم الذي احرزته ، بشرط ان تقبل مساعدة دولة منتدبة الى ان تستطيع الوقوف على قدميها ، على ان تشكل رغبات هذه المجتمعات « اعتبارا رئيسيا في اختيار الدولة المنتدبة » . وكانت المشكلة في البلدان التي يتكلم سكانها اللغة العربية أعقد منها في البلدان الاخرى - فقد ذهب الانجليز بوجه عام الى ان بالامكان تلبية رغبات السكان في المناطق العربية وضمان السلام والاستقرار فيها على اتم وجه متى ما أنشئت سلسلة من الدول المستقلة ، خاصة وأن بعض هذه الشعوب كانت قد أعلنت استقلالها بالفعل وجرى الاعتراف بها . وكان انشاء اتحاد فدرالي بين هذه الشعوب نهاية المطاف « أمرا متروكا للعرب أنفسهم » وان يكن « أمرا مستبعدا نظرا لحالة المواصلات والاختلافات القائمة بين مختلف الشعوب العربية في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والتاريخية » . وهكذا نجد ان بريطانيا تتجه الى فرض نوع من الوصاية ، وذلك بوضع البلدان العربية تحت اشراف عصابة الامم .

وقد رفض ولسون الموافقة على وجهات النظر البريطانية ، خاصة وانه كان يعتقد ان الفرصة لم تسنح بعد لمناقشة تقسيم الامبراطورية العثمانية وكان قد ترمى الى سماعه اقتراح بانتداب امريكي ، وتوقع عدم ميل الشعب الامريكي لقبول ذلك . ففي حالة اقتراح احتلال القوات الامريكية للأستانة أو لما بين النهرين كان من الواضح انها لن تستطيع تنفيذ ذلك ، على اعتبار ان امريكا لم تكن في حالة حرب مع تركيا . لهذا كان يرى ان من الخطأ قبول أي نوع من الانتداب حتى يمكن تبين اسلوب

تنفيذه . وقد أورثت هذه التعليقات لويد جورج نوعا من اليأس . ومرة أخرى كرر ولسون ما سبق ان أشار اليه من تردد الشعب الامريكى في قبول « مسؤولية عسكرية » في آسيا ، وصرح بأن من الواجب ، في حالة مطالبة الولايات المتحدة بقبول أي انتداب ، تأجيل الطلب حتى يتمكن من ايضاح المسألة للشعب الامريكى . وفي النهاية تم قبول اقتراح ولسون بضرورة تحويل مسألة الاحتلال العسكري والسيطرة على مختلف المناطق الى المستشارين العسكريين بالمجلس الاعلى للحرب الذي وافق في النهاية على القرار الاساسى الذي تضمن مبدأ الانتداب ونصه كالآتى :

« ان المؤتمر يهدف الى أن يفصل عن الامبراطورية العثمانية بعض المناطق التي تشمل - على سبيل المثال - فلسطين وسوريا والبلدان الواقعة شرق فلسطين وسوريا ، وما بين النهرين وأرمينيا وكيليكيا ، وربما بعض المناطق الاضافية من آسيا الصغرى ، وأن يضع تطور هذه الشعوب تحت اشراف الحكومات التي ستنتدبها عصبة الامم . ولاسباب مماثلة . . . فان الحلفاء والدول المنضمة اليهم متفقون على وجوب فصل أرمينيا وسوريا وما بين النهرين وفلسطين وشبه الجزيرة العربية عن الامبراطورية العثمانية ، على ألا يتعارض هذا مع التسوية التي ستوضع لاجزاء أخرى من الامبراطورية التركية » .

وتم الاتفاق على ان تطبق الدول الكبرى على هذه الاراضي مبدأ أن رفاهية وتقدم شعوبها يشكلان « أمانة مقدسة في عنق الحضارة » وأن النص على طريقة أداء هذه الامانة يجب أن يدون في ميثاق عصبة الامم وفقا للاقتراح البريطانى . ورؤى وجوب أن توكل السيطرة على مثل هذه الشعوب الى بعض الدول المتقدمة برغم توقع اختلاف شكل الانتدابات باختلاف الظروف . فبعض الشعوب التي كانت تابعة للامبراطورية العثمانية قد قطعت بالفعل شوطا من التطور يستلزم الاعتراف المؤقت باستقلالها ، بشرط مساعدة الدولة المنتدبة لهما الى أن تستطيع الوقوف على قدميها . كما ان رغبات هذه الشعوب شرط أساسى لاختيار الدولة المنتدبة . الا ان ولسون اشترط ارسال لجنة مشتركة للقيام بالتحقق من رغبات السكان . وباستمرار المناقشات أوضح ولسون أنه يقدر المعاهدات السرية والاتفاقيات المعقودة مع العرب - ولكن لما كان مبدأ الانتداب قد



تم قبوله في ٣٠ كانون الثاني (يناير) فان من دواعي العقل التأكد مما اذا كان الفرنسيون حقيقة مرغوبا فيهم في سوريا والبريطانيون في منطقة ما بين النهرين (٥) .

وفي الوقت الذي اعتبر فيه البريطانيون والفرنسيون أنفسهم معاونين لشعوب غربي آسيا ، شعر كثير من سكان الشرق الادنى - مثلهم في ذلك مثل البروتستانت الامريكان - بأن من الظلم أن يتشجع الاستعماريون بثوب الخيرين ، وتمنوا أن تنقذ أمريكا الشرق من الحلفاء « المنقذين » . وكانت سوريا من المناطق الواجب انقاذها بعد ان دخلت دمشق القوات العربية التي كانت يقودها فيصل بن الحسين (٦) ، وبعد ان كان الامريكان فيها قد اقحموا انفسهم على مشكلة الاستقلال (٧) . وقد أسهم كل من كليفلاند دودج صديق الرئيس ولسون - وفيصل في جعل المسألة السورية تناقش في باريس خاصة وان الرئيس الامريكي كان يرى أن تطبيق المعاهدات السرية الخاصة بالامبراطورية العثمانية ، من شأنه أن يؤدي الى العودة الى الدبلوماسية الاستعمارية القديمة وابطال مفعول المبدأ الثاني عشر . الا ان وزارة الخارجية الفرنسية كانت قد استاءت لاحتلال آلاف من الجند البريطانيين للاراضي السورية المخصصة لفرنسا في المعاهدات السرية ، واعتبرت فيصل عميلا بريطانيا وحاكما عسكريا على المناطق السورية الداخلية كما لم ترحب باغراء لويد جورج لكليمنصو بالتنازل عن ادعاءات فرنسا في فلسطين وفي منطقة الموصل الغنية بالبتترول ، خاصة وانها كانت قلقة ازاء ضعف موقف فرنسا في سوريا ، وانحناء الحكومة الامريكية أمام نداءات تقرير المصير الصادرة عن فيصل وغيره . أما عن فيصل ذاته فقد حاول ان يحسن موقفه بالتفاهم مع الصهيونيين ، ومن ثم اتفاق فيصل - وايزمان (٨) الذي سلم بحق اليهود في وطن قومي في فلسطين الداخلة في مملكته التي تشمل الشام بمعناه الجغرافي ، أي من جبال طوروس الى خليج العقبة .

وأدى ميل السوريين الى الامريكان الى تحريك فكرة اجراء التحقيق للتحقق من رغبات السكان - وكان هذا الشعور قد نما بطول احتسكالك البعثات التبشيرية بالعرب ، كما كانت فترة الحرب العظمى قد وفرت الظروف التي ساعدت على نمو المشاعر ازاء امريكا اكثر منها ازاء أوروبا ، خاصة وان المبشرين الامريكان قد قاموا بأعمال الاغاثة التي سبقت الاشارة اليها ، وان مبادئ ولسون الداعية الى حق تقرير المصير قد أدت الى

تحويل اتجاه أغلبية السكان عن الانجليز والفرنسيين بحيث مالوا الى اقامة انتداب امريكي في حالة تعذر الحصول على الاستقلال (٩) .

وفي اواسط كانون الثاني (يناير) ١٩١٩ كان من الواضح ان فيصل قد وجد آذانا صاغية لدى بعض أعضاء الوفد الامريكي الذي أشيع أنهم قد تبنا قضيته بحماسة « وعبروا عن رغبتهم في تمزيق اتفاق سايكس - بيكو (١٠) » . وفي ٦ شباط ( فبراير ) ظهر فيصل ومعه لورنس ( العرب ) أمام المجلس الاعلى للحلفاء ، مرتدين الملابس العربية البيضاء . وهناك أكد فيصل حق الشعوب الناطقة بالعربية والقاطنة في آسيا في الاستقلال والوحدة موضحا بصورة خاصة العوامل الثقافية والجغرافية والاقتصادية التي تربط بينها ، وأشار الى الدور الذي لعبه العرب في الحرب والتضحيات التي بذلوها ، وندد باتفاق سايكس - بيكو ، وشكر بريطانيا وفرنسا على المساعدة التي قدمتها للعرب في نضالهم من أجل الحرية وطالبهما بتنفيذ الوعود التي قطعتهما لهم . ثم تقدم باقتراح طالب فيه باتخاذ التدابير اللازمة للتأكد من رغبات السكان ، وذلك حتى تكون التسوية عند تقريرها عادلة وثابتة ، على ان تتبلور هذه التدابير في أن يعين مؤتمر الصلح لجنة تحقيق تزور سوريا وفلسطين حيث تقوم ببحث محلي شامل للتأكد من رغبات السكان . ورغم عدم تردد ولسون في الموافقة على اقتراح فيصل ، الا ان لويد جورج لم يبد ميلا الى الاخذ به برغم قبوله له من حيث المبدأ . أما كليمنصو - رئيس الوفد الفرنسي - فلم يرحب بذلك ، واقترح إرسال لجنة تحقيق الى سوريا والبلاد المجاورة لها اذا لزم الامر ، على ان تؤلف من عدد متساو من الاعضاء يمثلون فرنسا وبريطانيا وايطاليا وامريكا - ومهمتهم التحقيق من الوقائع وتقديم تقرير لمؤتمر الصلح . وأقر هذا الاقتراح وتعهد ولسون باعداد التعليمات اللازمة للجنة (١١) . هذا برغم عدم تحمس فرنسا وبريطانيا للاخذ به ، خاصة وانهما كانتا تدركان ان نتائج التحقيق في فلسطين والعراق وسوريا ستكون ضد رغباتهما . كما أثارت فكرة التحقيق مخاوف الصهيونيين وأشياعهم الذين خشوا استحالة تحقيق آمالهم الا باللجوء الى القوة ، اذا ما ظهرت نتائجه معاكسة لطموحاتهم .

وفي آذار (مارس) ١٩١٩ استمع ولسون في مؤتمر الصلح الى حوار انجليزي - فرنسي حول المعاهدات السرية ، ثم طالب بتطبيق حق تقرير المصير مصرأ على قبول الحلفاء تحقيقا دوليا في سوريا . ووافق كليمنصو

على ذلك بشرط ان تهتم لجنة التحقيق بكل أرجاء الامبراطورية العثمانية لا بسوريا وحدها ، ذاهبا الى ضرورة فرض الانتداب على فلسطين وبلاد ما بين النهرين وأرمينيا واجزاء أخرى من الامبراطورية العثمانية السابقة . ولم تكن هذه التعللات سوى ستار يخفي وراءه كليمنصو مخاوفه الحقيقية - اذ كان موقنا من تبعية فيصل لانجلترا ومن ان فرنسا لن تفرض سيطرتها على سوريا الا باستعمال مزيد من الجنود الفرنسيين . ولكنه لم يكن على استعداد لإبداء رفضه للاقتراح الأمريكي منذ البداية - فقد قبله « من حيث المبدأ » مشترطا ضرورة توخي العناية في اختيار اعضاء اللجنة الذين عليهم ان يدرسوا كل انتدابات الشرق الادنى . وقبل أن يختار ولسون الاعضاء الامريكيين في اللجنة الدولية كانت الشكوك تحيط بالتحقيق - ففي ٢٥ آذار ( مارس ) توصل الفرنسيون والانجليز الى اتفاق أساسي يقتضي ضرورة سعي فرنسا الى مصالحة فيصل وان تكون على استعداد لان تسمح له بتبوء مكانة كبيرة في الدوائر العربية ، وان من المستحسن حسم المسألة السورية في باريس بدلا من تعليقها على نتائج تحقيق لا بد ان يؤدي الى زعزعة اوضاع الشرق الادنى . وحينئذ شعر الامير العربي بان العلاقات الانجليزية - الفرنسية اقوى من علاقته بلندن ، ومن ثم مطالبته بانتداب امريكي . وفي ٣١ أيار ( مارس ) صرح كليمنصو بأنه سيعين المندوبين الفرنسيين حين يتم حلول القوات الفرنسية محل البريطانية في سوريا . والحق أن الفرنسيين كانوا يشكون في نوايا بريطانيا ، ويخشون أن تعمل هي وأمريكا على عرقلة ادعاءات فرنسا في سوريا ، وبخاصة اذا ما جاءت نتائج تحقيق نزيهة بصورة معاكسة لاطماعهم ، ولهذا كانوا يتمسكون بشدة ببنود اتفاق سايكس - بيكو (١٢) .

أما لويد جورج فلم يعترض على اجراء التحقيق في فلسطين وبلاد ما بين النهرين ، حيث انجلترا صاحبة اليد العليا ، وكان يرى ضرورة بدء اللجنة لعملها في الحال في حالة توسيع اختصاصاتها ، خاصة وان العبء الحربي كان يقع أولا وقبل كل شيء على عاتق القوات البريطانية - هذا على حين ان اللورد بلفور كان يخشى أن يؤدي نشاط اللجنة الى تأجيل ابرام الصلح . ولكي لا تعترض امريكا على المكاسب التي كانت فرنسا وبريطانيا ترميان الى الحصول عليها في سوريا وبلاد ما بين النهرين اتجه لويد جورج وكليمنصو الى اغراء امريكا بالحصول على انتداب ارمينيا والآستانة . ووقع ولسون في الفخ ، وصرح بأن خضوع الاتراك لانتداب

دولة واحدة في آسيا الصغرى يوفر ميزة حقيقية ، وان من المحتمل ان تضطلع الولايات المتحدة بهذه المهمة . ولكنه ما لبث ان ادرك انه لا تتوفر له القوات اللازمة او المساندة في داخل الولايات المتحدة بحيث يتمسك بأناضول موحدة .

وفي غضون ذلك اعترض قادة الحلفاء على طلب ولسون الخاص بضرورة توجه لجنة التحقيق الى الشرق الادنى في الحال ، وان يكن لويد جورج قد وافق على ذلك ، ولكن ليس قبل ان تعين فرنسا مندوبيها . ورفض كليمنصو تعيين المندوبين حتى تحل القوات الفرنسية مكان البريطانية في سوريا . وازاء ذلك نفذ صبر ولسون فقرّر اجراء تحقيق أمريكي منفرد وعين كلا من دكتور هنري تشرشل كنج وتشارلز كرين للاضطلاع بهذه المهمة ، على أن يستعينا بثلاثة مستشارين من قسم المخبرات هم الاستاذ البرت ليباير المستشرق والاستاذ بجامعة إلينوي الذي عين مستشارا فنيا عاما للجنة ، ودكتور مونجرمري وكان من المبشرين البروتستانت ، وأمضى عدة سنوات في الشرق الاوسط ، والكابتن وليم ييل وكان من الباحثين عن المتاعب لحساب شركة ستاندرد أويل . كما عين الكابتن دونالد برودي أميناً للسر وأميناً للصندوق . أما كنج فهو من رجال الدين ومن دعاة التعاون الدولي . وكان قد عمل أستاذا بكلية أوبرلين لعدة سنوات وأصبح رئيساً لها منذ عام ١٩٠٢ ، كما كان قد قام بكثير من الرحلات ، وأقام صلة خاصة بالأراضي المقدسة في فلسطين نتيجة لدراساته الانجيلية . وقد ألف عددا كبيرا من الكتب والكتيبات والمقالات ، وبخاصة في مجال الادب الديني - ومنذ آب ( أغسطس ) ١٩١٨ عمل في جمعيات الشبان المسيحيين مع القوات المسلحة الأمريكية الموجودة في فرنسا . أما كرين الذي ولد في عام ١٨٥٨ ، وهو نفس العام الذي ولد فيه كنج ، فقد كان رجل أعمال في شيكاغو ، وكان لعدة سنوات رئيساً لشركة تحمل اسمه . وفي عام ١٩١٢ انضم الى الحزب الديمقراطي وساند وودرو ولسون . وكان قد عرف عنه منذ شبابه ولعه بالرحلات : فقام بعدة رحلات الى الشرق الادنى حيث استطاع ان يعقد صلات صداقة مع عدد كبير من الناس وان يلم بأحوال المنطقة . وهكذا أتاحت خبرات المندوبين الأمريكيين وشخصيتاهما اللتان تكملان كل منها الاخرى لهما أن يحرزا أكبر قدر من التعاون .

وفي ٢٢ أيار (مايو) ١٩١٩ توجه كنج وكرين الى الرئيس ولسون لتلقي

تعليماتها، فأخبرهما بأنه يرغب في الحصول على معلومات عن رغبات الاهالي .  
وفي ١٠ حزيران ( يونيه ) وصلت اللجنة الى يافا وقضت ستة اسابيع في  
فلسطين وسوريا حيث توسعت في التحقيق الى أقصى حد ممكن في ذلك  
الوقت وقابلت عددا كبيرا من الوفود فيما يقارب الاربعين مدينة ومركزا  
في الارياف وتلقت ما يزيد على ٨٠٠٠ عريضة وعملت على افساح المجال  
أمام الجميع للاعراب عن مختلف آرائهم دون قيد (١٢) . ثم قامت بزيارة  
قصيرة الى كليكيما توجهت بعدها الى الآستانة حيث كتبت تقريرها ، وفي  
الاسبوع الاخير من آب (اغسطس) عادت الى باريس حيث سلمت صورة من  
التقرير الى أمانة سر وفد الولايات المتحدة ثم أبحر دكتور كنج الى نيويورك  
حيث عمل على ارسال التقرير الى ولسون . وخلال قيام اللجنة بجولاتها في  
الشرق الادنى عقد فيصل - الذي ترك باريس وعاد الى الشام ليواجه  
أعضاء البعثة بجهة عربية موحدة وغيره من القوميين العرب في أوائل  
تموز ( يوليه ) - ما اطلقوا عليه اسم المؤتمر السوري في دمشق . وتقع  
مقررات هذا المؤتمر في عشر مواد تتضمن مطالب يمكن تلخيصها فيما يلي :

١ - الاعتراف باستقلال سوريا وبضمنها فلسطين ولبنان كدولة  
ذات سيادة وتنصيب الامير فيصل ملكا عليها والاعتراف  
باستقلال العراق .

٢ - نقض اتفاق سايكس - بيكو ووعده بلفور وكل مشروع يرمي الى  
تقسيم سوريا وانشاء دولة يهودية في فلسطين .

٣ - رفض الوصاية السياسية التي ينطوي عليها نظام الانتداب  
المقترح وقبول المعونة الاجنبية لمدة محدودة بشرط ألا تتعارض  
مع الاستقلال والوحدة القومية ، وتفضيل معونة الولايات  
المتحدة على سواها ، فان لم يكن فمعونة بريطانية .

أما الحكومة الفرنسية فقد ردت على مقررات دمشق باللجوء الى  
خطط قمعية في لبنان بقصد توفير واجهة موالية لفرنسا . وعلى حين ان  
فيصل قد استنجد بالرئيس ولسون فقد رأى لبيبايران الحل الوحيد المعقول  
للمشكلة هو فرض الانتداب الامريكى على سوريا بحيث لا ترتبط بمشروع  
اقامة وطن قومي لليهود . وفي ١٠ تموز ( يوليه ) ارسلت اللجنة الامريكية  
تقريراً مبدئياً الى ولسون جاء فيه ان الولايات المتحدة كانت بالفعل هي  
المرشحة الاولى للانتداب . ولم تكن اللجنة في ذلك تجري وراء اهداف

محض انسانية ، بل انها كانت تسعى الى المحافظة على المصالح الامريكية في المنطقة ، وبخاصة فيما يتعلق بحق التنقيب عن النفط . ذلك ان عددا كبيرا من الشركات الامريكية الكبرى كانت قد لجأت الى وزارة الخارجية الامريكية لكي تساعد على شق طريقها عبر المنافسة النفطية الدولية ، وبالتالي جرت مشادة شديدة بين الولايات المتحدة وبريطانيا منذ عام ١٩١٩ حين تدخلت بريطانيا بعد احتلالها لفلسطين في أعمال شركة ستاندرد أويل اوف نيويورك ( سوكوني ) الخاصة بالتنقيب عن النفط في فلسطين (١٤) . وقبل نهاية عام ١٩١٩ كانت الحكومتان قد دخلتا في مشادة أخرى حول استثمار نفط العراق . وقد أدى موقف بريطانيا من النشاط البترولي الامريكي المحتمل في فلسطين والعراق - وهما بلدان كان من المتوقع ان تنتدب بريطانيا عليهما - الى اثاره شكوك قوية في واشنطن حول مفهوم نظام الانتداب لدى بريطانيا - فقد جرى التساؤل حول ما اذا كان الانجليز يزمعون استغلال نظام الانتداب الجديد وجعله ستارا لنظام الحماية القديم ، مما يختلف تماما عن وجهة النظر الامريكية كما عبر عنها الرئيس ولسون في فرساي . وهكذا اتخذت الولايات المتحدة موقفا مزجت فيه شكاوها المتعلقة بالنفط بالقضية الاساسية المتعلقة بسياسة الانتدابات - وما حل تشرين الاول ( اكتوبر ) ١٩١٩ حتى كانت وزارة الخارجية الامريكية تصر على ضرورة تطبيق الانجليز لمبادئ الانتدابات التي جرت الموافقة عليها من قبل فطالبت الدول المنتدبة بان تضمن لمواطني كل دول عصبة الامم ما يلي :

- ١ - المساواة في حق الحصول على الاملاك الثابتة .
- ٢ - المساواة التامة في المجالات الاقتصادية والتجارية والصناعية ، بالاضافة الى حرية المرور ( الترانزيت ) .

وكان كل من لويد جورج وماندوبي فرنسا وايطاليا قد وافقوا مع ولسون في مجلس الاربعة على الاتسعي الدولة المنتدبة بأي حال من الاحوال الى الحصول على اولوية في الامتيازات . واستندت وزارة الخارجية الى هذا الاتفاق لدعم ادعاءات شركة سوكوني في فلسطين وطالبت بأن تتمتع الشركات الامريكية بنفس المزايا التي يتمتع بها البريطانيون وغيرهم في كل من اقليم ما بين النهرين ( العراق ) وفلسطين . وكان من الواضح أن سياسة « الباب المفتوح » هي الوسيلة المثلى لتحقيق الاهداف الامريكية . ولقد رسم بيل صورة اجمالية للوضع البترولي في العالم وارتباطه بالمصالح الامريكية ، وطالب باتخاذ الاحتياطات اللازمة لضمان حق حرية الحركة

بالنسبة الى الصناعة البترولية الامريكية - وقد جاء في تقريره بهذا الخصوص ما يلي :

« ان سلامتنا القومية وحماية تجارتنا الداخلية والخارجية وحفز توسعها - كل ذلك يجب ان يتوقف الى حد كبير على استمرار تدفق النفط على الولايات المتحدة . ولما كانت حاجتنا تزداد باستمرار ، ولما كانت مواردنا الخاصة عرضة للانخفاض ، ولما كان اكثر من نصف الانتاج العالمي المحتمل يوجد خارج اراضيها ، فمن الواضح الآن ضرورة حصول الصناعة الامريكية على حق ضمان نصيبها في تنمية الموارد البترولية الكامنة في الاراضي التي على وشك أن تنتقل الى يد بريطانيا (١٥) . وهكذا نجد ان الولايات المتحدة منذ البداية تساند بشدة مبدأ الانتداب دون أن تكون مستعدة لتحمل مسؤوليات رسمية في الشرق الادنى - وقد اهتمت بوجه خاص بمبدأ « الباب المفتوح » تحقيقا لمصالح شركات النفط الامريكية التي كانت لها امتيازات فعلية ، أو كانت تطالب بامتيازات محتملة ، في استثمار نفط فلسطين والعراق . وكانت الحكومة الامريكية ترى ان الموارد الاقتصادية في اراضي الانتداب ترتبط بمبدأ يعلو على أي مصلحة خاصة أو أي اعتبارات استراتيجية - فاحتجت على السياسة النفطية البريطانية التي فرضت كثيرا من القيود ووضعت شروطا تحقق مصالحها وحدها ، كما احتجت بعد ذلك على اتفاقية النفط الموقعة في سان ريمو في نيسان (ابريل) ١٩٢٠ بين بريطانيا وفرنسا والتي حصلت فرنسا بمقتضاها على حصة من الانتاج المحتمل لنفط العراق . وكانت فرنسا قد هددت ، في حالة عدم منحها حصة من نفط الموصل ، بمعارضة فعالية امتياز ١٩١٤ الممنوح لشركة النفط التركية ، وبوضع العراقيل في وجه مد خط الانابيب الى البحر المتوسط . وكان من المعتقد أن فرنسا على اتصال بشركة ستاندرد أويل الامريكية ، وأنها ستلجأ الى الولايات المتحدة وتضغط معها في سبيل تطبيق سياسة « الباب المفتوح » بصدد نفط العراق في حالة عدم اتفاق بريطانيا معها (١٦) . وهكذا أثرت مسألة ملكية الموارد الجوفية في الشرق الادنى ، وهي المسألة التي نبهت كل من لجنة كنج - كرين والوفد الامريكي في مؤتمر الصلح الى مخاطرها .

أما تقرير لجنة كنج - كرين (١٧) - الذي اكتمل في ١٩ آب (اغسطس) ١٩١٩ - فانه يعتبر وثيقة ذات أهمية بالغة ، لانه المصدر الوحيد الذي يجد فيه المؤرخ تحليلا نزيها وموضوعيا للشعور السائد في الدوائر

السياسة العربية بعد الحرب مباشرة ، على اعتبار ان تحقيق اللجنة هو المحاولة الوحيدة التي بذلها مؤتمر الصلح لمعرفة حقيقة أمانى العرب والتأكد منها محليا - ولو لم تفعل اللجنة ذلك لاستحقت أبحاثها اهتماما خاصا (١٨) . ورغم ان التقرير لم يؤثر في أوضاع الشرق الأدنى فقد كان له أثره في أحداث المنطقة ، خاصة وان من المحتمل أنه قد أثر في تطور السياسة الأمريكية ازاء هذه البقعة الهامة من بقاع العالم . فقد عارض التقرير فكرة قيام دولة صهيونية في فلسطين ، على أساس ان حوالي ٩٠ ٪ من السكان قد عبروا عن رفضهم لهذا المشروع ، بحيث كان لا يمكن تطبيقه الا بالقوة . كما حذر من سيطرة فرنسا على سوريا التي كان من الواضح ان سكانها يفضلون الاستقلال ، واعترف بوضع لبنان الخاص ، وكان أميل الى انتداب بريطانيا على العراق وفلسطين ، وزكى انتداب أمريكا على أرمينيا وقيام حكومة دولية في الآستانة وانتداب أمريكا على تركيا باستثناء العراق . وينقسم التقرير في مجمله الى ثلاثة أقسام رئيسية : المادة ، والانطباعات العامة ، والتوصيات ، وان كنا سنتناوله من زاوية انطباعاته وتوصياته فيما يتعلق بكل من سوريا وفلسطين .

فلقد أثارت سوريا ( بمعناها الأشمل ) مشاكل خطيرة ومعقدة لارتباطها بالاديان السماوية الثلاثة واحتواء فلسطين بوجه خاص على أماكن مقدسة تهم كلا من المسلمين والمسيحيين واليهود - ومن ثم ما ذهب اليه التقرير من استحالة التوصل الى حل لوضعها يقوم على ادعاءات شعب واحد . وقد جاء فيه بهذا الخصوص ما يلي :

« لما كانت سوريا جزءا من رأس الجسر الذي يربط بين أوروبا وآسيا وأفريقيا - حيث يلتقي الشرق والغرب بصورة فريدة - فان موقعها ذو أهمية استراتيجية وسياسية وتجارية ، كما ان له أهمية من زاوية الحضارة العالمية . لهذا يجب ان تتصف التسوية التي توضع لهذه المنطقة بالعدالة بحيث تبقى على الاقل في نتائج حسنة لها صفة الاستمرار بالنسبة الى قضية نمو حضارة خيرة في العالم . ويجب أن يمنح كل جزء من أجزاء الامبراطورية العثمانية السابقة حياة وفرصة جديدتين في ظل ظروف سياسية متغيرة تماما » . وذهب التقرير الى ان انهيار الامبراطورية العثمانية قد وفر فرصة جديدة لكي ينمو في سوريا مجتمع شرق ادنى على الأساس الحديث المبني على الحرية الدينية التامة ، وبخاصة فيما يتعلق بحماية حقوق الاقليات ، وان من دواعي العدالة الاساسية بالنسبة



الى العرب أن يحظو بدولة عربية حديثة تشرف عليها دولة منتدبة مستنيرة وتوفر ضمانا لعدم ارتكاب العرب لاططاء الاتحاديين ، خاصة وان ثمة ثقة في زعامة وذكاء الامير فيصل الذي اوصى التقرير بتنصيبه ملكا على سوريا المحررة والموحدة . أما اذا فشلت السياسة في تحقيق آمال البلاد ، فبالامكان تقسيمها بشرط أن يراعى أي برنامج يوضع لسوريا بقدر الامكان « وحدتها الطبيعية من النواحي الجغرافية والاقتصادية » وذلك تمشيا مع اتجاه مؤتمر الصلح ورغبات السكان . كما أشار التقرير الى أن من الواضح ان الموظفين البريطانيين والفرنسيين في سوريا يميلون الى توحيد سوريا في ظل دولة منتدبة واحدة ، والى احتمال كون البلاد مسرحا للصراعات فيما لو بقيت فيها كل من فرنسا وبريطانيا . ولمح الى العقبات التي تعترض وحدة سوريا ، وأهمها عدم رغبة كل من بريطانيا وفرنسا في الانسحاب منها ، ورفض العرب المسلمين ومسيحيين للبرنامج الصهيوني ورغبة اللبنانيين في الحصول على الاستقلال التام ، وشدة معارضة العرب بوجه عام لاية سيطرة فرنسية ، وتخوف كثير من المسيحيين من السيطرة الاسلامية وعدم توفر الشعور الوطني في سوريا بالصورة المرجوة .

وفي ضوء هذه الاعتبارات العامة قدمت لجنة كنج - كرين توصياتها الخاصة بالشام ( سوريا وفلسطين ) . فقد اقترحت - أيا كانت الإدارة الاجنبية التي تتولى حكم الشام - أن تضطلع بهذه المهمة دولة منتدبة تخضع لاشراف عصبة الامم ، على ان يكون مفهوما بصورة قاطعة ان تحقق سعادة الشعب السوري وتطوره ، وأن تسعى الى تدريب البلاد والسير بها نحو الاستقلال . ولما كان مؤتمر دمشق قد أوضح في أكثر من موضع أن السوريين شديداً التخوف من أن تصبح بلادهم مجرد ملك استعماري لدولة أخرى أيا كانت المسميات ، فمن الواجب القضاء التام على مثل هذه المخاوف . أما التوصية الثانية الاساسية التي تقدم بها تقرير اللجنة فهي ضرورة المحافظة على وحدة سوريا وذلك تحقيقا لرغبة الاغلبية الساحقة للسكان ، خاصة وأن ثمة أسبابا عدة تؤيد الاخذ بهذه التوصية : فالاراضي ضيقة جدا والسكان من قلة العدد « والوحدة الاقتصادية والجغرافية والجنسية من الواضح » بحيث لا يمكن تبرير تقسيم البلاد ، خاصة وأن لغتها وثقافتها وتقاليدها وعاداتها عربية في جوهرها ، وأن توحيد سوريا يتمشى مع أماني السكان ومبادئ عصبة الامم . . وفي الوقت الذي أوصت فيه اللجنة بتوحيد سوريا ، فانها أوصت بان

يتمتع لبنان بقسط كبير من الاستقلال الذاتي ، خاصة وأنه كان ينعم بقسط كبير من الرخاء والاستقلال الذاتي التام تحت الحكم العثماني .  
وإذا كان من الممكن أن يكون لبنان أكثر سعادة في ظل دولة سورية قومية حديثة ، فان مصلحته تتحقق في أن يكون عضوا تأسيسيا في الدولة لافي استقلاله عنها استقلالا تاما . وأشارت التوصية الثالثة الى ضرورة تولي دولة منتدبة واحدة المسؤولية عن سوريا على اعتبار ان ذلك يشكل الوسيلة الطبيعية لضمان وحدة البلاد الحقيقية والفعالة . حقيقة ان اللجنة لم تنكر وجود الصعاب ، الا أنها توقعت حتمية التحام الشعب بشكل ما . ولهذا فعلى الدولة المنتدبة الواحدة أن يطرد تشجيعها للوحدة بشرط أن تعمل على اتاحة الفرصة لقدر معقول من الاستقلال الذاتي . أما القلاقل التي سبق لسوريا أن شهدتها بين مختلف المجموعات التي تقطنها ، فمصدرها في كثير من الاحيان السياسة التي كانت تتبعها الحكومة العثمانية - ومن ثم فبالامكان قيام علاقات طيبة بين السكان في ظل حكومة عادلة تضطلع بها دولة منتدبة واحدة تضع نصب عينيها تحقيق أكبر قسط من الفائدة لكل فئات السكان . واقترحت التوصية الرابعة تولي فيصل بن الحسين رئاسة الدولة الجديدة ، ليس فقط لان مؤتمر دمشق قد طالب بذلك باسم الشعب السوري ، بل أيضا لان فيصل قد تبوأ مركزه بصورة طبيعية ، ولعدم وجود شخص آخر بإمكانه الحلول محله . وفي التوصية الخامسة نصح أعضاء اللجنة باجراء تعديل كبير على البرنامج الصهيوني المتطرف الخاص بفتح أبواب الهجرة غير المحدودة الى فلسطين امام اليهود ، بهدف اقامة دولة يهودية متميزة في فلسطين في نهاية المطاف . ورغم أن أعضاء اللجنة قد بدءوا عملهم وهم ميالون مسبقا الى الصهيونيين ، الا أن مالمسوه في فلسطين ، بالاضافة الى المبادئ التي أعلنها الحلفاء ، قد أرغمتهم على اتخاذ موقف مخالف الى حد ما . ولاشك أنهم اتصلوا باللجنة الصهيونية ودرسوا الكتابات والدعاية الصهيونية ، وكانوا على علم بتشجيع الحلفاء بوجه عام للحركة الصهيونية . الا ان التقرير اقترح اجراء تعديل كبير على البرنامج الصهيوني المتطرف . فقد اقتنعت اللجنة بان الصهيونية تهدف الى تجريد سكان فلسطين من غير اليهود مما يملكونه ، ولهذا أشار التقرير الى أن عملا كهذا يعد عدوانا قاسيا على حقوق الشعب وتجاهلا للمبادئ التي أعلنها الحلفاء والرئيس ولسون . ولما كان الموظفون الانجليز في فلسطين ممن اتصلت بهم اللجنة قد أجمعوا

على عدم امكان تنفيذ المشروع الصهيوني الا بقوة السلاح ، فقد اقترحت اللجنة تقليصه الى حد كبير وتحديد هجرة اليهود بصفة نهائية ونبذ فكرة تحويل فلسطين الى دولة يهودية فتمشيا مع مبدأ ولسون الخاص « بالقبول الحر » للتسوية من جانب الشعوب التي يعنيه الامر ، أشارت اللجنة الى أن سكان فلسطين من غير اليهود البالغ عددهم ٩٠٪ من مجموع السكان - يعترضون بصفة قاطعة على تنفيذ البرنامج الصهيوني، وزكت ضم فلسطين الى الدولة السورية الموحدة ، على أن تتولى لجنة دولية متعددة الاديان - يمثل فيها اليهود - بالاماكن الدينية المقدسة وذلك تحت اشراف - وبشرط موافقة - الدولة المنتدبة وعصبة الامم .

ولكن ماهي الدولة التي يوكل لها الانتداب ؟ لقد ذهبت اللجنة الى أن الدولة المثالية التي تستطيع الاضطلاع بهذه المهمة هي التي يرغب فيها السكان ولديها الاستعداد لتحمل مسؤولية الانتداب ، بشرط أن تتحلّى بالروح الديمقراطية والعطف والصبر والخبرة اللازمة « للتعامل مع الشعوب الاقل تطورا وأن تكون لديها موارد بشرية ومالية وفيرة » . ورغم وجود دولة واحدة تتمتع بكل هذه الصفات ، فان التقرير لم يتسرك مجالاً للشك حول الدولة التي تفضلها غالبية سكان سوريا ، خاصة وأن ٦٠٪ ممن تقدموا بعرائض قد أبدوا تفضيلهم للولايات المتحدة ، في الوقت الذي لم تزد فيه نسبة من فضلوا اية دولة اخرى على ١٥٪ . ورغم أن خبرة أمريكا لم تعدل خبرة بريطانيا ، فقد عبر أعضاء اللجنة عن ثقتهم في قدرة الولايات المتحدة على الاضطلاع بالانتداب ، خاصة وأنها كانت شديدة الايمان بنظام الانتداب الجديد التابع لعصبة الامم ، وان الغالبية العظمى للسوريين قد فضلوا الولايات المتحدة على أية دولة اخرى ، وأن انجلترا وفرنسا لن تعترضا على الانتداب الأمريكي اعتراض كل منهما على انتداب الاخرى . وفي حالة رفض الولايات المتحدة الاضطلاع بهذه المهمة ، زكى أعضاء اللجنة منح الانتداب لبريطانيا على اعتبار أن ما يزيد على ٦٠٪ من عرب سوريا اعربوا عن كرههم لفرنسا - هذا ورغم مخاوف اللجنة من أن تتبع بريطانيا نفس السياسة الاستعمارية التي اتبعتها في الماضي . وفي حالة تمسك فرنسا بادعاءاتها في سوريا ، يمكن منحها انتداباً على لبنان المستقل عن سوريا ، وفقاً لما طالبت به بعض الجماعات ، وان يكن أعضاء اللجنة لم يزكوا مثل هذا الحل باعتباره اجراء صائباً .

وكان من المتوقع أن تقريراً كهذا ينطوي على الصراحة والقوة لا يروق قط لمندوبي الصلح في باريس الذين أمروا بحفظه وأهملوه ، بل لم يأخذ به أحد في واشنطن . ولما لم تكن للتقرير صفة الرسمية ، فإنه لم يعمل به على الإطلاق . ولكنه من ناحية أخرى يمثل وثيقة هامة وذلك لاسباب عدة : فمن ناحية نجده يتضمن نتائج تحقيق جرى بناء على طلب من رئيس الولايات المتحدة للحصول على عينات شاسعة من الرأي العام في الشرق الأدنى . وسواء أكان الحيز الزمني الذي أنفقته اللجنة أو الوسائل التي لجأت اليها كافية ، فإن التقرير سيظل أول شاهد على اهتمام أمريكا - على أعلى المستويات - بالمعلومات الأساسية التي يمكن الحصول عليها عن المنطقة بوسائل مستقلة . وهناك سبب آخر لاهمية تقرير كنج - كرين هو كثرة اشارة الدوائر العربية والصهيونية اليه . فلما كان قد أوصى بتقليص البرنامج الصهيوني الى حد كبير ، فقد ظل العرب يشيدون به ، كما طعن فيه الصهيونيون لنفس السبب ، وذلك رغم أن الاسس التي بنيت عليها التوصيات كانت تختلف الى حد كبير في عام ١٩١٩ عن الاوضاع المتغيرة للقضية الفلسطينية (١٩) . ومن المشكوك فيه ما اذا كان ولسون قد قرأ تقرير اللجنة . ففي الوقت الذي وصل فيه التقرير الى البيت الابيض في ٢٧ ايلول (سبتمبر) كان الرئيس شديد الاهتمام بعصبة الامم وكان يقوم بجولة في المناطق الغربية للدعاية لها ، كما كان الوفد الامريكي في باريس - شأنه شأن الوفدين الانجليزي والفرنسي - شديد الرغبة في التوصل الى تسوية خاصة بمصير الامبراطورية العثمانية . وبالإضافة الى هذا فان الحكومة الامريكية كانت قد فقدت نفوذها فيما يتعلق بشئون الشرق الاوسط حين أبدت عدم رغبتها في قبول انتداب أرمينيا . ولهذا ففي الوقت الذي توصل فيه لويد جورج وكليمنصو الى تفاهم حول سوريا لم يكن الوفد الامريكي في موقف يسمح له بالاعتراض على ذلك . ولما كان الامريكان قد ارتاحوا الى التوصل الى حل ما لمشاكل الشرق الاوسط ، فانهم قرروا عدم تقديم تقرير كنج - كرين الى مؤتمر الصلح - ومن ثم كان الانجليز والفرنسيون في حل من تنفيذ ما اتفقوا عليه في عام ١٩١٦ بشأن تقسيم أملاك الامبراطورية العثمانية السابقة في المشرق العربي فيما بينهما . ففي ١٣ ايلول (سبتمبر) وافق كليمنصو ولويد جورج على أن يجلو الجيش البريطاني عن الساحل السوري وأن تحل

القوات الفرنسية محله ومعنى ذلك تخلي بريطانيا عن فيصل . وفي باريس ولندن حاول بارتون وكارين ووليم بيل والجنرال اللنبي و فيصل الاستشهاد بتقرير كنج - كرين لتعديل خطة استبدال القوات ، على حين عمل فيصل - في محادثاته مع الامريكان - على حث الحكومة الامريكية على مواصلة اللجنة الامريكية لنشاطها ، بل انه أبدى موافقته المسبقة على أي تصريح يدلي به ولسون فيما يتعلق بالاحتلال العسكري الغربي لسوريا . ولما كان الرئيس الامريكي يعاني مرضا شديدا منذ أوائل تشرين الاول (اكتوبر)، فان الحكومة الامريكية لم تصخ سمعا لبرقيات مؤتمر الصلح الخاصة بهذا العرض ، في الوقت الذي أبدت فيه الحكومة البريطانية تخليها عن العرب ارضاء لحليفها فرنسا طبقا لمبدأ التعويض : فحين تحركت القوات الفرنسية الى داخل منطقة البقاع لم تبد انجلترا أي نوع من الاحتجاج أو الاستنكار ، خاصة وأنها كانت لا تقبل أي احتجاج فرنسي على الاجراءات التي كانت تقوم هي بها في بلاد ما بين النهرين أو في ولاية الموصل أو على حدودها (٢٠) .

ففي ٢٥ نيسان (ابريل) ١٩٢٠ اجتمع المجلس الاعلى للحلفاء في سان ريمو واتخذ قراراته القاضية بوضع كل المستطيل العربي الممتد من البحر المتوسط الى حدود فارس تحت الانتداب ، وتقسيم بلاد الشام الى ثلاثة أقسام مستقلة هي فلسطين ولبنان وسوريا . أما الانتدابات فقد وزعت بشكل يتفق مع مطامع كل دولة : فوضعت سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي ووضعت فلسطين تحت الانتداب البريطاني ، وأضيفت عبارة تقول بأن الدولة المنتدبة على فلسطين ملزمة بتنفيذ وعد بلفور . ولم يذكر شيء عن التناقض الصارخ بين هذه المقررات وبين الرغبات التي أعلنتها الشعوب ذات العلاقة . ثم مالبت الدولتان الغربيتان أن نفذتا ما اتفقتا عليه في سان ريمو ، مما أدى الى سقوط مملكة فيصل قصيرة العمر في دمشق . أما تقرير كنج - كرين (٢١) فقد ظل سرا (٢٢) الى أن أذيع في عام ١٩٢٢ دون أن يتحقق شيء مما جاء فيه . فالكونجرس الامريكي رفض التوقيع على معاهدة فرساي وغيرها من معاهدات التسوية، كما لم تشترك الولايات المتحدة في عصبة الامم التي تدين بوجودها الى أفكار وطموحات الرئيس ولسون الذي مالبت أن ووجه بالمعارضة ثم سقط نتيجة لاهماله مشاكل بلاده وسعيه الى تطبيق أحلامه الخاصة بتقرير المصير في العالم الخارجي . وهكذا عادت الولايات المتحدة الى

العزلة وتركت شؤون العالم القديم نهبا للاطماع الاستعمارية الانجليزية - الفرنسية وان لم تهمل مصالحها النفطية في الشرق الاوسط ، حيث ضغطت في أعقاب الحرب العظمى في سبيل كسر الاحتكار النفطي البريطاني الذي تبلور فيما عرف باتفاقية « الخط الاحمر » . ولم يبق أمام العرب سوى الاعتماد على أنفسهم لمقاومة تسلط الاستعماري الغربي والاطماع الصهيونية .

هناك تعقيب اخير على لجنة كنج - كرين وتوصياتها . فقد سبق ان المينا الى نشاط المبشرين الامريكان في الشام ، وهو النشاط الذي بدأ في أوائل القرن التاسع عشر وكان هدفه الاساسي تنصير المسلمين مع التستر وراء الجهود التعليمية والطبية والانسانية . وحين تبين للمبشرين الامريكان مدى مقاومة المسلمين في الشام وغيرها من أقطار المشرق العربي لاهدافهم ، عمدوا الى تحويل الطوائف المسيحية الشرقية الى مذهبهم ، والى التهجم على الدولة العثمانية وأعرافها واثارة النعرات المذهبية والقومية والطائفية بغية تمزيق أوصالها بعد أن بدت لهم باعتبارها العائق الاكبر في وجه تحقيق أهدافهم - ومن ثم تشجيعهم لحركة القومية العربية والارمنية وغيرها . وحين انهزمت الدولة العثمانية بالفعل ولاح في الافق احتمال تقسيم أملاكها لعب المبشرون الامريكان في الشام دورا هاما في الايحاء الى فيصل بن الحسين بالمطالبة بارسال لجنة للتحقق من رغبات السكان وهي اللجنة التي لعبوا دورهم في الحصول على المادة اللازمة لوضع تقريرها ، كما أوحوا اليه بالمطالبة بانتداب أمريكي اذا ما تعذر استقلال الشام ، في الوقت الذي اهتم فيه أحد أعضاء اللجنة - الكابتن وليم ييل - بالاحتمالات النفطية في المشرق العربي وأهميتها بالنسبة الى المصالح الامريكية . ولايفوتنا في هذا المضمار أن نلمح الى أن المستشارين الثلاثة الذين ألحقوا باللجنة - ومنهم وليم ييل - كانوا من رجال الاستخبارات ، ومن ثم يتضح لنا ان الدوافع الامريكية الكامنة وراء ارسال اللجنة لم تكن انسانية محضة ، بل تكمن وراءها أطماع من نوع أو آخر . الا ان الرأي العام الامريكي في أعقاب الحرب العظمى - كان أميل الى الابتعاد عن مشاكل أوروبا وملحقاتها ، خاصة وأن مجالات التوسع الامريكي كانت متوفرة في كل من نصف الكرة الغربي ، حيث طبقت الولايات المتحدة مبدأ مونرو الداعي الى وجوب كون أمريكا للامريكيين ، والشرق الاقصى حيث كانت قد انتزعت الفلبين من الاستعمار الاسباني

المتداعي . فاذا كانت الولايات المتحدة لم تشترك في توزيع الاسلاب في الشرق الاوسط في أعقاب الحرب العالمية الاولى فانها لم تهمل الشؤون الاقتصادية ، وبخاصة مايتعلق منها بالنفط - ومن ثم ضغطها في سبيل القضاء على الاحتكار البريطاني في هذا المجال المتمثل في اتفاقية الخط الاحمر ، ومساندتها لنشاط الشركات البترولية الامريكية سواء في العراق أو في منطقة الخليج وشبه الجزيرة العربية . وحين عادت أمريكا بكل ثقلها الى المنطقة العربية في أعقاب الحرب العالمية الثانية كانت قد أحرزت سمعة مرجعها الاحترام الذي كان يكنه العرب للجهود الامريكية في مجالات التعليم والطب والغوث ، وللبادئ ولسون الخاصة بتقرير المصير التي أدت ، هي وتقرير كنج - كرين ، الى تعزيز الصورة المثالية للولايات المتحدة بصفتها خصما للاستعمار القديم ، خاصة وأن واشنطن كانت لانزال مترددة في مواجهة مسألة ما اذا كان من الممكن تحقيق الاهداف التجارية على طول المدى دون اتباع سياسة متشددة أو مواجهة احتمال التدخل ، وأن رعاياها لم يكونوا بعد على استعداد لدفع ثمن النفوذ والسيطرة .

وهكذا يمكن القول بان الامبريالية الامريكية ، التي تختلف في ملامحها العامة عن مظاهر السيطرة الاوروبية القديمة ، كانت - فيما يتعلق بالشرق العربي في أعقاب الحرب العالمية الاولى - تتصف بالتردد، ومن ثم لم تستجب لطموحات المبشرين الخاصة بالسيطرة على بعض أسلاب الامبراطورية العثمانية المنهارة ، تاركة اياها فريسة للاطماع الفرنسية - البريطانية . ولكنها مع ذلك لم تهمل مصالحها النفطية التي قيض لها بعد وقت قصير أن تلعب دورا حاسما في الاتجاهات التوسعية الامريكية كما كانت عليه في أعقاب الحرب العالمية الثانية . ويبقى تقرير كنج - كرين لا باعتباره دليلا على تمسك الامريكان بحق تقرير المصير وهو ما تلمح اليه كثير من المصادر العربية والامريكية ، بل باعتباره جزءا من خطة رسمية لدفع الولايات المتحدة الى اقتسام ثمار النصر مع حليفتيها الغربيتين . حقيقة ان بريطانيا وفرنسا قد انفردتا بالغنائم في البداية ، الا أن الولايات المتحدة لم تلبث أن لعبت دورا أساسيا في القضاء على سيطرتهمما قصيرة الامد على المشرق العربي والتمهيد للسيطرة الامريكية المستندة الى موارد وأساليب لم تتح لحليفتيها الغربيتين .

## الحواشي

- (١) في تموز ( يوليه ) ١٩١٥ تسلّم القنصل الامريكى في بيروت مبلغا قدره ١٥٥.٠٠٠ دولار بهذا الخصوص .
- (٢) American Commission for Armenian and Syrian Relief ( ACASR )  
Grabill, Protestant Diplomacy and the Near East, pp. 77 - 9
- (٣) Busch, Britain, India and the Arabs, p. 159, also p. 278.
- (٤) Harry Howard, The King - Crane Commission, pp. 20 - 21 @ p. 32.
- (٥) يذهب ايلي كدورى ( The chatham House Version. etc. pp. 33 ) الى أن الحكومة البريطانية هي التي أمرت قواتها بعدم دخول دمشق ، ومن ثم اتاحت ليفصل أن يدخل عاصمة الامويين بصفته محررا - وهدفها من ذلك أن تفرض أمرا واقعا من شأنه أن يودي الى التنصل من اتفاق سايكس - بيكو .
- (٦) هناك دلائل على ان الدكتور بليس مدير الجامعة الامريكية في بيروت ، بالاشتراك مع مختلف الجماعات التبشيرية في العالم العربي ، قد لعب دورا هاما في جمع المعلومات التي توصلت اليها لجنة كنج - كرين .
- (٧) C. Friedrich, American Policy Toward Palestine, p. 13, n. 10.
- (٨) وقعت هذه الاتفاقية في كانون الثاني ( يناير ) ١٩١٩ - وفي بنودها التسعة اشارت الى « حسن النية والتفاهم القويين » فيما يختص بالعلاقات بين الدولة العربية وفلسطين . وقد اكدت هذه الاتفاقية للبيان الذي اذاعه الانجليز في نوفمبر ١٩١٧ وذلك في مقابل أن تبذل المنظمة الصهيونية خير جهودها لمساعدة الدولة العربية في الحصول على وسائل تطوير مواردها القومية وامكانياتها الاقتصادية .
- Klieman, Foundations of British Policy in the Arab World p. 34.
- (٩) كانت كلية سوريا البروتستانتية ( الجامعة الامريكية في بيروت ) والبعثات التبشيرية تميل بشدة خلال الحرب الى تفضيل انتداب بريطانيا « الانجليكانية » على انتداب فرنسا « الكاثوليكية » .  
Grabill, p. 158
- (١٠) Busch, op. cit., p. 286.
- (١١) جورج أنطونيوس : يقظة العرب ، ص ٣١٦ - ١٧ .
- (١٢) Harry Howard, p. 85 - Grabill, p. 177.
- (١٣) هناك شك حول وسائل ايصال رغبات السكان الى اللجنة . فلم يتح سوى لعدد قليل من المسيحيين اللبنانيين بالمثل امامها . وكان لذلك أثره فيما يتعلق بالعناصر الموالية لفرنسا في سوريا الذين خشوا فيما بعد أن يبدا آراءهم . وقد اعترف ليباير فيما



- بعد بأن الضغط قد بوشر على بعض الافراد والجماعات ، وأن بعض المندوبين قد حيل بينهم وبين الوصول الى اللجنة وأن الصفة التمثيلية لكثير من العرائض كانت محل شك .  
CF. Sacher, The Emergence of the Middle East, pp. 267 - 8.
- De Novo, American Interests and Policies in the Middle Est ( 1900 - 39 ) ( ١٤ )  
pp. 169 - 73.
- (١٥) هاري هوارد ، ص ٥٠ - ٥١ .  
Busch, op. cit., p. 306. (١٦)
- (١٧) هاري هوارد ، ص ٢٩٤ - ٥ . ( ألحق مونتهجومي وييل بالتقرير مذكرتين مطولتين شككا فيهما في حقيقة التومية العربية وقدرة فيصل على الحكم . وقد زكيا وضع فلسطين ، بما في ذلك الوطن القومي لليهود ، تحت الانتداب البريطاني المنفصل ، كما زكيا وضع لبنان تحت الانتداب الفرنسي ووضع سوريا تحت انتداب فرنسي - بريطاني مشترك .  
Sachar, op. cit., p. 269
- (١٨) يقظة العرب ، ص ٣٢٦ .  
Speiser, The United States and the Near East , pp. 70 - 1. (١٩)
- Monroe, Britain's Moment in the Middle East, pp. 64 - 5. (٢٠)
- (٢١) يوجد نص التقرير في ملحق بكتاب « يقظة العرب » لجورج أنطونيوس ( الاصل الانجليزي ) وفي الترجمة التي قام بها ناصر الدين الاسد واحسان عباس .
- (٢٢) كان من أسباب عدم اذاعة نص التقرير عداؤه الشديد لاطماع كل من فرنسا والصهيونيين ( De Novo, op. cit., p. 122 ).

## ردود الفعل الهندية تجاه المشكلة الفلسطينية

في الثلاثينات من هذا القرن\*

الدكتور محمد شافي اغواني

( جامعة جواهر لال نهرو )

توضحت دوافع وعد بلفور لدى ابناء الشعب الفلسطيني حتى قبل أن يبدأ الانتداب البريطاني في فلسطين وتجلى ذلك في مقاومتهم هجرة ما يقارب ٥٠٠٠ يهودي الى فلسطين ومقاومة قانون نقل ملكية الاراضي الذي صدر في شهر ايلول عام ١٩٢٠ . وقد بدأت الاهداف بعيدة المدى للسياسة البريطانية والصهيونية تتبلور عندما أدمج وعد بلفور في بنود صك الانتداب البريطاني ، واعترف بالوكالة اليهودية لفلسطين وبدورها كقابلة مهمتها اتمام ولادة الكيان الصهيوني المقترح . ومع نهاية العشرينات بدأت القضايا التي تشكل جوهر المشكلة الفلسطينية تثير اهتمام الحركات الوطنية خارج العالم العربي وداخله على حد سواء .

ربما كان المؤتمر القومي الهندي الذي قاد نضال الشعب الهندي من أجل الحرية هو المنظمة البارزة الوحيدة خارج العالم العربي التي تفهمت بشكل كامل المضمون الاسود لوعد بلفور وايدت نضال الفلسطينيين من أجل الاستقلال تأييدا مطلقا . وقد برز موضوع المشكلة الفلسطينية واحتل مركزا رئيسيا في الاجتماعات السنوية للمؤتمر القومي الهندي منذ عام ١٩٢٨ وقد تحدث عنه بتوسع قائدا الحركة البارزان المهاتما غاندي وجواهر لال نهرو ، ليس في تلك الاجتماعات فحسب وانما في ندوات ومناسبات أخرى .

وفي الدورة الثالثة والاربعين التي عقدت في كلكتا من ٢٩ كانون الاول ١٩٢٨ الى ١ كانون الثاني ١٩٢٩ ، أصدر المؤتمر القومي الهندي قرارا عبر فيه عن تعاطفه الكامل مع الفلسطينيين « في نضالهم للتحرر من قبضة الاستعمار الغربي ، وهو في رأي المؤتمر يشكل تهديدا خطيرا لنضال الهند من أجل الحرية » . ومنذ ذلك التاريخ راقب المؤتمر القومي الهندي مراقبة دقيقة التطورات التي حدثت في فلسطين واتخذ اجراءات

\* قام بترجمة هذا البحث الى العربية الدكتور محمد منير صلاحي الاصبحي .

مناسبة لتوعية الرأي العام الهندي حول نتائج التطورات الجارية في ذلك البلد . وما أن شن البريطانيون حملة الارهاب ضد الفلسطينيين عام ١٩٣٦ حتى قررت لجنة العمل المنبثقة عن المؤتمر المذكور اعتبار يوم ٢٧ ايلول من عام ١٩٣٦ يوم فلسطين، وقد نظمت فيه اجتماعات ومظاهرات في كل أرجاء الهند للاحتجاج على الاجراءات التعسفية التي قامت بها سلطات الانتداب البريطاني . ومرة أخرى سجلت لجنة عموم الهند في المؤتمر « احتجاجها الشديد ضد حكم الارهاب الذي طبقه في فلسطين الاستعمار البريطاني بغية ارغام العرب على قبول التقسيم المقترح لفلسطين » . وأكد للفلسطينيين « تضامن الشعب الهندي معهم في نضالهم من أجل تحررهم الوطني » . كما نص قرار آخر صدر في ايلول ١٩٣٨ على ما يلي : « يتوجب على بريطانيا أن تطلع عن سياستها الحالية وأن تترك العرب واليهود لكي يحلوا القضايا المعلقة بينهم بالطرق السلمية » . كما ناشدت اليهود عدم الاحتماء وراء الاستعمار البريطاني « (١) » .

غير أن غاندي ونهرو وهما أبرز قادة الحركة الوطنية الهندية ، عكفا على دراسة القضايا السياسية والاخلاقية العميقة التي جسدتها القضية الفلسطينية .

وقد نشرت مجلة غاندي الخاصة هاريجان (أي أبناء الله) عرضاً مفصلاً لآرائه حول القضية الفلسطينية وذلك في العدد الصادر يوم ٢٦ تشرين الثاني عام ١٩٣٨ . لقد كرر غاندي استيائه العميق من اضطهاد المانيا الهتلرية لليهود ، ذلك الاضطهاد الذي لم يشهد التاريخ له مثيلاً ولم يذهب طغاة التاريخ القدماء الى مثل ما ذهب اليه هتلر من جنون . « ثم تحدث عن القضية الفلسطينية فقال بحق :

« الا ان تعاطفي ( مع اليهود ) لا يمنعني من رؤية متطلبات العدالة . ان الصرخة لايجاد وطن قومي لليهود لاتروق لي ، فان مبررات ذلك يجري البحث عنها في الكتاب المقدس وفي تشبث اليهود وتوقهم للعودة الى فلسطين . فلماذا لا يبقون كغيرهم من شعوب الارض حيث ولدوا وحيث يجدون مصدر رزقهم ؟ » .

أما فيما يتعلق بعروبة فلسطين وبالوضع الاخلاقي للانتداب فقد علق على ذلك بقوله :

« ان فلسطين ملك للعرب مثلها في ذلك مثل انكلترا التي هي ملك للانكليز وفرنسا التي هي ملك للفرنسيين . وانه لامر خاطيء ولاانساني أن يفرض اليهود على العرب . ان مايجري في فلسطين لايمكن ايجاد مسوغ أخلاقي له ، وليس لسلطات الانتداب من حق شرعي سوى شريعة الحرب الاخيرة . ومما لا شك فيه هو أن قهر العرب الإبادة باعادة فلسطين الى اليهود كليا أو جزئيا يعتبر جريمة في حق الانسانية » .

لم يكن غاندي يتفق مع أولئك الذين حملوا أنفسهم على تصديق الزعم القائل بان انشاء وطن قومي يهودي في فلسطين سوف يحل المشكلة الاكبر وهي مشكلة معاناة الشعب اليهودي في بلاد ( الاغيار ) . وقد دافع عن آرائه بقوله :

« ان الحل الاكرم هو ان نؤكد على المطالبة بمعاملة اليهود معاملة عادلة حيثما ولدوا وعاشوا . . . فاذا كان لا يوجد لليهود من وطن سوى فلسطين ، فهل ستروق لهم فكرة اضطرارهم لمغادرة الاجزاء الاخرى من العالم حيث عاشوا واستقروا ؟ أم أنهم يريدون الحصول على وطن ثان يفتصبونه اغتصابا ؟ ان الصرخة التي أطلقت لايجاد وطن قومي تجد مبررا زاهي الالوان في طرد اليهود من المانيا » .

وأخيرا أسدى غاندي النصيحة التالية لليهود :

« لا يساور في شك أنهم يسرون في الطريق الخاطيء وان فلسطين في المفهوم التوراتي ليست بقعة جغرافية بل هي في قلوبهم . ولكن اذا اختاروا النظر الى فلسطين الجغرافية على أنها وطنهم القومي فانه من الخطأ الدخول اليها في ظل المدفع البريطاني ، فالعمل الديني لايمكن القيام به بمساعدة الحراب أو القنابل . أنهم لا يستطيعون دخول فلسطين والاستقرار بها الا بمشيئة العرب ورضاهم . . . . هنالك المئات من الطرق لاقناع العرب لو أنهم ( أي اليهود ) صدوا عن الاحتماء وراء الحراب البريطانية . أما والامر كما هو فهم شركاء للبريطانيين في انتهاب شعب لم يفعل ما يسيء اليهم (٢) » .

ومما يجدر ذكره هو أن مقالة غاندي أثارت بعض الضجة في الاوساط الصهيونية ، فنشرت مجلة جويش فرونتير ( Jewish Frontier ) في نيويورك في عددها الصادر في آذار عام ١٩٣٩ ردائهم غاندي بانه «يسمح

لنفسه بأن يكون عرضة لتأثير الدعاية المعادية للصهيونية التي يروج لها بعض المتعصبين من مؤيدي المسلمين » . كما ألمحت الى أن حماسة غاندي للوحدة بين الهندوس والمسلمين قد جعله ينحاز الى صف العرب ، مما دفع غاندي لان يكتب مقالة أخرى في مجلة هاريجان ( العدد الصادر في ٢٧ أيار ١٩٣٩ ) معلنا فيها :

« لقد قلت مرارا بانني لن ابيع الحقيقة من اجل خلاص الهند ولن يدفعني الى ذلك سبب اقل اهمية وهو كسب صداقة المسلمين » .  
ثم أبدى غاندي الملاحظة التالية التي دلت على التزامه الثابت بالمبادئ :

« انني اغبط نفسي عندما أفكر ان بعض كتاباتي سوف تعيش اكثر مني وستخدم القضايا التي كتبت من أجلها . ولأشعر بالخيبة من ان ما كتبت لم يؤد حسبا اعلم الى تغيير رأي يهودي واحد (٢) » .

ثم جاء رد آخر كتبه مارتن بوبر شكك فيه بصحة بيان غاندي القائل بان « فلسطين ملك للعرب » . أما حجته الأساسية وهي أن شعبا يعيش في بقعة معينة لا يعطيه حق امتلاكها وانما يدل على واقع حال فحسب ، هذه الحجة لا تستحق التعقيب ، كما أن النتيجة التي خلص اليها تنم عن النفاق . ذلك ان بوبر قال :

« ليس في نيتنا ان نسلب ممتلكاتهم ( أي العرب ) . بل نريد ان نعيش معهم ولا نريد ان نحكمهم بل نريد ان نقدم لهم خدمة (٤) » .

ويستحق تطور آراء نهرو حول مشكلة فلسطين اهتمام المؤرخين لعدة أسباب ، أولها انه على الرغم من أن غاندي كان يمثل ضمير الأمة الهندية المناضلة ، فان نهرو كان في الحقيقة المحرك الفكري لها . وكمناضل من أجل حرية الهند فان نهرو ظل متصلا اتصالا فكريا وعاطفيا بالحركات الوطنية في أمكنة تبعد بعدا كبيرا عن الحدود الجغرافية للهند . ثانيا كان نهرو المتحدث الرئيسي للمؤتمر القومي الهندي عن القضايا الدولية قبل الاستقلال بزمن بعيد . وبالإضافة الى ذلك فقد أصبح الشخصية الرئيسية التي رسمت السياسة الخارجية للهند بعد الاستقلال .

وبالرغم من أن نهرو تحدث في عدة مناسبات عن مشكلة فلسطين وكتب عنها منذ بداية العشرينات فان معرفته الشخصية بالقادة الفلسطينيين

بدأت في مؤتمر بروكسل لعصبة مناهضة الامبريالية الذي عقد في عام ١٩٢٧ . أما الموضوع الرئيسي الذي تحدث عنه في كلمته التي ألقاها في المؤتمر المذكور فكان وحدة النضال ضد الامبريالية . وقد أكد فيه أن الوجود البريطاني في المناطق المحيطة بالهند بما فيها البلدان العربية هو فرع للاطماع الاستعمارية في الهند ، وانه من غير الممكن مقاومة هذا العدو المشترك مقاومة ناجحة الا عن طريق تنسيق جهود تلك الامم المستعبدة(٥) .

وقد نشر أول بيان لاراء نهرو عن المشكلة الفلسطينية في كتاب « لمحات من تاريخ العالم » Glimpses of World History الذي يتألف من رسائله التي كتبها في أوائل الثلاثينات . وهنا تحدث نهرو عن الوعود المجانية والمنحازة التي قطعها وعد بلفور وقدمها للصهاينة ، واستطرد يقول ساخرا : « غير أن هنالك نقطة صغيرة واحدة ، فهم قد نسوا شيئا هاما ، وهو أن فلسطين ليست قفرا ولا هي أرضا قاحلة خالية من السكان . انها وطن قومي لشعب آخر » (٦) وفي خطابه الذي ألقاه في المؤتمر الخمسين للمؤتمر القومي الهندي عشية انتخابه رئيسا له عام ١٩٣٦ قال نهرو :

« أود ان أوكد امامكم كما اكدت سابقا هذا الترابط العضوي بين احداث العالم واتصالها بعضها مع بعض ، وبذلك نستطيع أن نفهم قليلا هذه الصورة المتشابكة لعالمنا اليوم ، فهو على الرغم من تنوع ابعاده ونزاعاته المذهلة يشكل وحدة متكاملة . ففي أوروبا كما في الشرق الاقصى هناك أزمات مستمرة وفي كل مكان نجد الغليان . فالكفاح العربي ضد الاستعمار البريطاني في فلسطين هو جزء من هذا النزاع العالمي العظيم ، ولا يقل أهمية عن كفاح الهند من أجل الحرية (٧) » .

أثار تأييد نهرو الصريح لقضية فلسطين موجة نقد في بعض الدوائر اليهودية في أواسط الثلاثينات ، ونتيجة لذلك عبر نهرو عن آرائه بشكل أكثر شمولا في بيان له صدر في ١٣ حزيران ١٩٣٦ .

بعد أن ركز نهرو اهتمامه على خلفيات قضية فلسطين وما سبقها قال معلقا « ان تاريخ ما قبل الحرب وتاريخ الحرب أيضا قد أظهرنا أن الاستعمار البريطاني خان العرب خيانة كبرى اذ وعدهم مرارا بمنحهم الاستقلال منذ عام ١٩١٥ فصاعدا ، لكن العرب وجدوا بلادهم وقد تحولت فجأة الى منطقة انتدابية . ثم أضيف عبء جديد على كواهلهم ألا وهو وعد بريطانيا بانشاء وطن قومي لليهود ، وخلق ذلك العبء الجديد وضعا

أصبح فيه الحصول على الاستقلال مستحيلا . ثم وصف نهرو بصدق  
المؤامرة التي كانت تحاك خلف ماسمي بالوطن القومي بقوله :

لقد أريد انشاء دولة تكبر باستمرار داخل دولة فلسطين تدعمها  
قوى الاستعمار البريطاني الذي أمل أن تصبح تلك الدولة اليهودية قوية  
عدديا واقتصاديا حتى تتمكن من السيطرة على فلسطين بأكملها .

كما ناقش نهرو الحجج المؤيدة والداخضة لدعوى « الحق التاريخي »  
الذي طرحه الصهاينة فقال :

« قد نصف قضية الصهيونيين بانها قضية عاطفية تنم عن ارتباطهم  
القديمة بأرضهم المقدسة واحترامهم لها في الوقت الحاضر ، وقد يتعاطف  
المرء معها ، ولكن ماذا عن العرب ؟ ان تلك الارض مقدسة بالنسبة لهم  
أيضا سواء كانوا مسلمين أم مسيحيين ، وقد مر على اقامتهم فيها الف  
وثلاثمائة عام ونيف ، وقدنمت جذور مصالحتهم الوطنية والعرقية واصبحت  
راسخة هناك . ليست فلسطين أرضا جرداء خالية من السكان تصلح  
كمستعمرة للغرباء بل هي بلاد مأهولة وليس فيها مكان لعدد كبير من  
المستعمرين القادمين من خارجها . فهل من العجب أن يعارض العرب  
هذا التدخل ؟ ولقد زادت معارضتهم له بعد أن أدركوا أن هدف الاستعمار  
البريطاني هو خلق مشكلة عربية يهودية تظل عقبة دائمة في طريق  
حصولهم على استقلالهم » .

من خلال ذلك المنظور ، اعتبرت مشكلة فلسطين ، « مشكلة قومية  
في أساسها ، أي مشكلة شعب يكافح من أجل استقلاله ضد سيطرة  
الاستعمار واستغلاله » . ثم أضاف نهرو :

« ان الامر في جوهره هو ان الكفاح يتحول الى مواجهة بين القومية  
والاستعمار ، اما المظاهر الثانوية الاخرى له مثل مشكلة العرب واليهود ،  
فهي ذات أهمية تاريخية ضئيلة على الرغم من أنها ذات أهمية في يومنا  
هذا .

وهكذا فان كفاح الشعب الفلسطيني جزء لا يتجزأ من حركة  
النضال العالمي ضد الاستعمار مما يبرر الصلة الوثيقة بين نضال الشعبين  
الهندي والفلسطيني . ثم قال نهرو :

ان للهند وللفلسطين مشكلات قومية وكل من البلدين يناضل من

أجل نيل استقلاله ، وبينهما أمر مشترك وهو ان العدو واحد . وفي كلا الحالتين كما في الحالات الاخرى نجد ان القومية قد اتصلت بقوى اجتماعية جديدة وتأثرت بها ، وبدأت بالتدرج تأخذ شكلها كوجه من وجوه المشكلة العالمية التي تؤثر علينا جميعا سواء أدركنا ذلك أم لم ندركه . لذلك علينا ان نفهم بعضنا وان نتعاطف مع بعضنا » .

ثم أسدى نهرو نصيحة الى يهود فلسطين ثبت انها لاتزال على درجة كبيرة من الصحة في تاريخنا المعاصر رغم مرور الوقت فقال :

« اذا أراد اليهود اختيار طريق الحكمة فانهم سيأخذون العبرة من التاريخ فيصادقون العرب ويرمون بثقلهم لصالح استقلال فلسطين دون ان ينتهزوا الفرصة للوصول الى مركز السيطرة والافضلية بمساعدة الدولة الاستعمارية(٨) » .

ولقد تأثر نهرو تأثرا بالغا باجراءات القمع التي اتخذتها سلطات الانتداب عام ١٩٣٦ فقرر المؤتمر القومي الهندي اعتبار يوم ٢٧ ايلول ١٩٣٦ يوم التضامن مع فلسطين وأعلن نهرو في كلمة ألقاها في تلك المناسبة ان القضية الرئيسية في فلسطين هي عزم الاستعمار البريطاني على سحق الحركة العربية ، ثم قال :

« ترسل بريطانيا جيوشا وقوات جديدة وكبيرة الى فلسطين وكأنها محاولة لغزو هذا البلد من جديد وسوف تنتشر الاحكام العرفية ، فلا بد لنا من أن نتعاطف مع شعب فلسطين ونتمنى له الخروج من محنته هذه . ان سحق هذه الحركة سوف يؤدي الى انزال ضربة تتأثر منها قوانا الوطنية كما تتأثر قواهم . انا نقف معا في هذا الصراع الدولي من أجل الحرية (٩) » .

استمر نهرو في حملته التي شنّها ضد الفظائع التي ارتكبتها بريطانيا بحق الفلسطينيين في أواخر الثلاثينات . وقام أيضا بالقاء اللوم على الصحافة البريطانية لاتخاذها موقف « الصمت المدروس » تجاه الاوضاع في فلسطين(١٠) . ثم قال نهرو : « ان الرقابة الشديدة ومؤامرة الصمت في الصحف البريطانية تمنعان الحقيقة من الوصول الينا ذلك أن الصحف في بريطانيا ترفض نشر أي بيان مهما كان موثوق المصدر يأتي مؤيدا للعرب المنكوبين الذين يقاتلون ويموتون من أجل الحرية »(١١) وفي أواخر عام ١٩٣٨ عندما أعلنت الحكومة البريطانية قرارها بعقد مؤتمر مائدة



مستديرة لبحث قضية فلسطين ، وجه نهرو على الفور تحذيرا الى الفلسطينيين قال فيه :

« قيل لنا ان مؤتمر مائدة مستديرة سوف ينعقد في لندن لحل مشكلة فلسطين ، اننا نعرف ما يكفي عن مؤتمرات المائدة المستديرة (١٢) وكيف استخدمونها لتشويه القضايا وتدعيم أسس السيطرة الاستعمارية . وفي بعض الاحيان تظهر خلف حجاب رقيق من العبارات الزائفة والتأكيدات الغامضة في البرلمان وفي المؤتمرات لمحات عن الواقع المفجع في فلسطين (١٣) . »

نستخلص من الدراسة السابقة لردود الفعل الهندية تجاه القضية الفلسطينية في السنوات العشر التي سبقت الحرب العالمية الثانية ، النتائج الثلاث التالية : أولا اعتبرت الحركة الوطنية الهندية التحركات البريطانية والصهيونية في فلسطين محاولة من محاولات الاستعمار البريطاني لتوسيع قاعدته وترسيخها حول العالم . ثانيا : استطاعت الحركة الوطنية الهندية أن ترى الامور بوضوح من خلال سفسطائية الجدل الصهيوني والذي بدا في ظاهره على انه يرتكز على أسس تاريخية أو مستمدة من الكتاب المقدس وان تؤكد على الطبيعة العلمانية للنضال الفلسطيني من أجل الحرية . وأخيرا اعتبر غاندي ونهرو أن أية محاولة لفرض دولة صهيونية على فلسطين ستكون محاولة لا أخلاقية كما ستلحق الضرر بقضية السلام .

## الحواشي

- (١) ذكر في الصفحتين رقم ٢٥٢ و ٣٣٦ من كتاب :  
D. G. Tendulkar Mahatma, Vol. 6, Bombay, 1952.
- (٢) المهاتما غاندي في مجموعة أعماله  
Collected works, Vol. 68, New Delhi, 1977, pp. 137 - 140
- (٣) المرجع ذاته المجلد : ٦٩ الصفحات ٢٨٩ - ٢٩٠ .
- (٤) انظر الصفحات ٢٣١ - ٢٣٢ من كتاب :  
Martin Buber, Israel and the World, New York, 1963 2nd ed.
- (٥) انظر الصفحات ١٢١ - ١٢٥ من كتاب :  
Doro thy Norman, Nehru : The First Sixty Years, Vol. I, Bolbay,  
1965.
- (٦) انظر الصفحات ٧٦٣ - ٧٧٥ من كتاب نهرو :  
Glimpses of World History, New York, 1939.
- (٧) انظر الصفحة ٤١٧ من كتاب نهرو :  
Toward Freedom : The Autobiography :  
of Jawaharlal Nehru, New York. 1941.
- (٨) انظر الصفحات ١٢٧ - ١٣١ من كتاب نهرو :  
Eighteen Months in India 1936 - 37, Allahabad, 1938.
- (٩) المرجع السابق ذاته ، صفحة ١٣٧ .
- (١٠) رسالة نهرو الى صحيفة Time and Tide في لندن بتاريخ ٨/١٠/١٩٣٨ نص هذه  
الرسالة موجودة في الصفحات ١٨٤ - ١٨٦ من كتاب نهرو :  
Selected works of Jawaharlal Nehru Vol. 9, New Dehhi, 1976
- (١١) المرجع السابق الصفحتان ٢١٩ - ٢٢٠ .
- (١٢) ألمح نهرو هنا الى مؤتمر المائدة المستديرة الذي عقدته بريطانيا لبحث موضوع الاصلاح  
الدستوري في الهند خلال الفترة الواقعة بين ١٩٣٠ - ١٩٣٢ .
- (١٣) المرجع السابق ذاته (١٠) الصفحتان ٢١٩ - ٢٢٠ .

## علاقات بلاد الشام بمصر في العصر العثماني

( ١٥١٧ - ١٧٩٨ )

الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم

( جامعة قطر )

علاقة بلاد الشام بمصر ، أقدم بكثير من العصر العثماني ، فهي علاقة ممتدة عبر العصور التاريخية ، وكانت بلاد الشام خلال العصر المملوكي وحتى عام ٩٢٣ هـ ١٥١٧ م ، تمثل جزءا من الدولة المملوكية ، وكان حكام مناطقها نوابا للسلطان المملوكي في القاهرة (١) ، وكان لبلاد الشام جيشها المملوكي منوطة به مهمة حماية بلاد الشام ، وله ديوانه الخاص به (٢) ، وعن طريق نواب بلاد الشام ، كان السلطان الغوري يتابع أخبار الصراع العثماني الصفدي ، ويعمل على حماية بلاد الشام ، وبخاصة حلب التي وصلته الأنباء بأنه يخشى عليها من العثمانيين ، ولذا قرر ارسال تجريدة تقيم بها وتحرس البلاد ، بل أشيع في البلاد أن السلطان الغوري نفسه سوف يسافر الى حلب ، مما أدى الى ارتباك الاحوال في القاهرة ، والاضطراب بين العسكر ، حتى تحقق أمر سفر السلطان الى البلاد الشامية ، حينما برز الى الريدانية من ٦ ربيع الاخر ٩٢٢ هـ / ٩ ايار ( مايو ) ١٥١٦ م ، لمواجهة الخطر العثماني الذي وصلته الأنباء بان حلب سوف تتعرض له ، من ناحية ، وتأمين الطريق الذي يمر به التجار الذين يجلبون الممالك الشراكسة الى بلاد السلطنة المملوكية ، ولذا فان السلطان الغوري تحرك فعلا في ١٥ ربيع الثاني ٩٢٢ هـ / ايار ( مايو ) ١٥١٦ م « قاصدا نحو البلاد الشامية والحلبية (٣) . ووصل الى دمشق في ١٨ جمادى الاول ٩٢٢ هـ ٢٢ حزيران ( يونيه ) ١٥١٦ م ، واستقبل فيها استقبالا حافلا « برز فيه كبار الاداريين الممالك والقضاة والعلماء والفرنجة المستأمنون في دمشق ، ونثر صدقة اليهودي ، المسؤول عن دار ضرب النقود ، وقنصل الفرنجة الدراهم على الاهلين بهذه المناسبة للتعبير عن ولائهما ولكسب رضى السلطان (٤) ثم اتجه الى حلب ، وانضم اليه كل من خاير بك نائب حلب وجان بردى الغزالي نائب حماة ، ودخلت الجيوش المملوكية حماة في

١٠ جمادى الثانية ٩٢٢ هـ / ١١ تموز ( يوليه ) ١٥١٦ م ، وجاء مراسلة الشاه اسماعيل الصفوي للتفاوض معه من أجل التحالف ضد العثمانيين ، ولكن مراسله وقعت في أيدي العثمانيين ، مما دفع بالسلطان سليم الى الاسراع في مهاجمة المماليك ، فاجتاح عنتاب واستعد للسير نحو حلب للقاء الغوري (٥) ثم كان لقاء الجيشين المملوكي والعثماني في ٢٤ رجب ٩٢٢ هـ / ٢٣ آب (اغسطس) ١٥١٦ م ، وحلت الهزيمة بالمماليك ، وكانت هذه الهزيمة نذيرا بانهيار النفوذ المملوكي من بلاد الشام ، بل وانهيار النظام المملوكي برمته من كل من بلاد الشام ومصر ، وقد تم هذا الانهيار بعد ان حددت معركة الريدانية مصر هذا النظام ، وبداية عهد جديد من تاريخ المنطقة هو العهد العثماني (٦) ، وهو مجال هذا البحث ، ورغم أن العثمانيين قضوا على النظام المملوكي ، فان انهيار النظام المملوكي لايعني مطلقا انقطاع الصلة بين مصر وبلاد الشام خلال العصر العثماني ، فان استقرار تاريخ المنطقة من مظانه الاصلية يثبت لنا استمرار العلاقة بين الاقليمين سياسيا وثقافيا واقتصاديا واجتماعيا .

#### أولا - الناحية السياسية :

ان المتتبع للاحداث التاريخية من كلا الاقليمين ، منذ البداية يدرك انعكاس أثر الاحداث التي كان يمر بها كل من الاقليمين على أحداث الاقليم الاخر ، فمثلا حينما راجت شائعات عن هزيمة قوات السلطان سليم من مصر ، فان أهالي بلاد الشام ، استغلوا هذه الشائعات ، وثاروا ضد العثمانيين من كل من صفد ودمشق ، مما اضطر السلطات العثمانية في دمشق في صفر ٩٢٣ هـ / شباط (فبراير) ١٥١٧ م ، ان تذكر في بلاغاتها الرسمية اشادتها بالعناصر المملوكية التي تعاونت معها ، وتنكيلها بالعناصر الشعبية التي وقفت ضدها وساعدت الجيش المملوكي « هذا تذكير لعوام وزعر دمشق بوجوب الخضوع للعثمانيين ، وتشجيعا للموالين للعثمانيين على فرار خاير بك » (٧) ، كما أنه كان لاعلان نبأ القبض على السلطان طومان باي ، أثر كبير على تعاضم نفوذ العثمانيين في بلاد الشام ، وتوطيد سلطتهم ، واتخذت اجراءات كثيرة لادخال تنظيمات جديدة « كتخفيض سعر العملة العثمانية بمقدار النصف » (٨) واتخاذ اجراءات أمن مشددة لردع الذعر وارهاب الاهالي ، وضبط الممتلكات ، والتفتيش على المستندات المتعلقة لمعرفة الزورة منها ، ودققت مستندات الاوقاف ، وبذلك « استغلت انتصارات العثمانيين في مصر لادخال كثير من التنظيمات

في بلاد الشام» (٩) ، بل كان « كل ظفر للعثمانيين على المماليك في مصر ، كان يتلوه اتخاذ اجراءات غير شعبية من بلاد الشام » وفي الحقيقة فان التنظيمات العثمانية التي تمت في بداية الحكم العثماني في كل من مصر وبلاد الشام ، لم تكن دقيقة وانما كان الهدف الاساسي منها في تلك الفترة تسيير الامور بصورة مؤقتة ، كما انها اهتمت في المقام الاول بالشؤون المالية وفرض الضرائب ، وهو الامر الذي كان يهيم العثمانيون بالدرجة الاولى مما جعل الناس في كلا الاقليمين يتذمرون ضد الحكم العثماني منذ البداية (١٠) ، وهكذا نرى كيف ان كلا من الاقليمين كان يتأثر سياسيا بالاحداث التي كانت تحدث من كليهما ، وبعد ان خضع الاقليمان كلية للحكم العثماني ، وبدأ العثمانيون يمارسون سلطتهم في كل من مصر وبلاد الشام عن طريق ولائتهما ، فان استمرار تأثير الاحداث في تاريخ البلدين استمر ، فتذكر لنا المصادر المعاصرة انه حينما حدثت اول انتفاضة ضد الحكم العثماني في بلاد الشام بزعامة جان بردى الغزالي والي الشام الذي عمل على الغاء التنظيمات العثمانية بالتدريج لمحاولة كسب ود الاهالي ، حدث اتصال بين والي الشام وخاير بك والي مصر ، للتعاون فيما بينهم ضد الحكم العثماني ، وحقيقة فان الغزالي لم يحظ بتأييد خاير بك ، الذي ظل على ولائه للعثمانيين ، بل انه ابدى استعداداه لارسال جيش ضد الغزالي ، رغم ان الغزالي « عرض عليه فصل بلاد الشام ومصر عن العثمانيين واعادة السلطنة المملوكية ، ووعد الغزالي خاير بك باقتسام السلطة وان يكون الغزالي حاكما على بلاد الشام وخاير بك على مصر » (١١) وهكذا كانت اول فتنة ضد الحكم العثماني تنشأ بالتعاون بين مصر وبلاد الشام ، من أجل اعادتهما الى الحوزة المملوكية الخالصة مرة ثانية ، ولو قدر لهذا التعاون ان يتم لربما تغير وجه تاريخ المنطقة ولكن عدم تعاون خاير بك مع الغزالي ساهم بصورة واضحة في فشل هذه الثورة المملوكية ضد النظام العثماني في تلك المرحلة من تاريخ المنطقة بل « ويعتبر القضاء على الغزالي قضاء على آخر نفوذ للمماليك في بلاد الشام وبداية لحكم العثمانيين الفعلي لها » (١٢) ، ورغم موقف خاير بك العدائي من ثورن جان بردى الغزالي ، فان ذلك لم يمنع من وجود عناصر مملوكية في مصر اثلجها نبأ هذه الثورة ، وتمردت على السلطة العثمانية في مصر ، ولاذت بالفرار الى بلاد الشام وانضمت الى جانب جان بردى الغزالي ، أي ان رد الفعل

ازاء ثورة الغزالي في مصر كان قويا حتى ان المماليك كانوا « ينتظرون هجوم الغزالي على مصر . . ليعلنوا ثورتهم » . ولذا فان السلطان سليمان كان يخشى ثورة المماليك في مصر فطلب من خاير بك ان يبقى بقواته في مصر « وهو يتدبر امر الغزالي » (١٢) كما ان نفوذ البدو ازداد في تلك الفترة الانتقالية حتى انهم سيطروا « على اكثر المناطق الواقعة خارج المدن في ولاية مصر في هذه الفترة » بل ان جانم السيفي حينما قاما بثورتهم ضد الحكم العثماني تم التنسيق بينهما على « الالتقاء بقواتهما في الشرقية حيث يمكنهما السيطرة على الطريق التجارية مع الشام » (١٤) وبعد ان استقر الحكم العثماني في كل من مصر وبلاد الشام ، وبخاصة بعد القضاء على الثورات المملوكية التي واجهها هذا الحكم في بدايته ، نجد ان الوضع في الاقليمين تميز وحتى الربع الاخير من القرن السادس عشر حينما بدأت ثورات الجند - بالهدوء ، وانعكس اثر ذلك كما يتضح من استقراء تاريخ الاقليمين في تلك الفترة على العلاقات السياسية بين الاقليمين ، وقد اتاح هذا الهدوء الفرصة للولاة ان يقوموا ببعض المشروعات الخيرية ، وتأمين طرق الاتصال بين البلدين ، ولكن حينما بدأت تمردات العسكر ضد الحكم العثماني ، نجد ان التمردات حدثت في الاقليمين في فترة زمنية واحدة (١٥) ، بل ان خزنة مصر المرسله الى استانبول في ١٥٨٤ م ، هوجمت من منطقة عكار في لبنان ، وفي الفترة التي كانت تشهد تمردات جند السباهية في مصر في مطلع القرن السابع عشر ، كانت منطقة حلب ببلاد الشام تشهد تمردات افراد أسرة آل جنبلات ، وبخاصة تمرد علي بن أحمد بن جنبلات الذي تمكن من الاستيلاء ، على ولاية حلب قهرا ، وكون جيشا كبيرا من السكان ورفض دفع اموال الميري ، وتذكر المصادر المعاصرة ان السلطان العثماني ، كلف والي مصر ارسال تجريدة من طرفه للمشاركة في القضاء على هذا التمرد الذي وقع في بلاد الشام ضد الحكم العثماني ، وفعلا سافرت تجريدة من مصر وشاركت في القضاء على هذه الفتنة المحلية ، ثم تكرر ارسال مثل هذه التجريدات من مصر الى بلاد الشام للقضاء على الفتن التي كانت تحدث من جانب الامراء المحليين ، او من البدو ضد الحكم العثماني حتى القضاء على نفوذ أسرة آل العظم في الربع الاخير من القرن الثامن عشر حيث تم ذلك بناء على تدخل من جانب السلطات المملوكية في مصر، ومما يؤكد ارتباط احداث تاريخ

الاقليميين السياسي ، أو أول غزو اجنبي في العصر الحديث على المنطقة ، ونعني به الحملة الفرنسية ، كان يستهدف الاقليمين معا ، وقد قووم هذا الغزو من جانب الشعبين المصري والشامي ، مقاومة عنيفة بل ان قاتل كليبر أحد قواد الحملة كان من أبناء حلب بالشام (١٦) .

هكذا نرى ان علاقة مصر ببلاد الشام من الناحية السياسية لم تنقطع بانهيار الدولة المملوكية التي كانت تسيطر على الاقليمين ، وانما فوق ان كلا البلدين خضع لنفوذ حاكم أعلى واحد وهو السلطان العثماني ، فان الاحداث المحلية التي كانت تحدث في أي من الاقليمين كانت تؤثر في الاقليم الآخر ان سلبا وان ايجابا ، وكثيرا ما كان حاكم مصر او واليها من قبل السلطان العثماني يكون قد سبق له ممارسة العمل في حكم ولايات الشام بل وكثيرا ما كان والي مصر يأتي عن طريق بلاد الشام ، وهو ما كان يعرف بالطريق البري آنذاك (١٧) .

ان العمل السياسي بين الاقليمين ظل مستمرا بل انه خلال القرن الثامن عشر وحينما تعاظم نفوذ القوى المحلية في كليهما حدث بين بعض أطراف هذه القوى تنسيق واتفاق في العمل ضد الحكم العثماني ، ولو قدر لهذه القوى أن تعطي لعملها شيئا من الجدية والرغبة في الانفصال عن الدولة العثمانية بصورة تامة لتحقيق لها ذلك ، ولكن من الملاحظ ان هذه القوى كانت راضية بالنفوذ الذي وصلت اليه في مناطقها دون الرغبة الجدية في الانفصال عن السلطان العثماني ، خليفة المسلمين .

كذلك من الظواهر السياسية البارزة التي تميز تاريخ الاقليمين منذ الربع الاخير من القرن السادس عشر وحتى نهاية القرن الثامن عشر ، بروز العناصر المحلية في كلا الاقليمين سواء أكانت مملوكية او غيرمملوكية، على وجه الحياة السياسية والعسكرية ، وسيطرتها سيطرة تكان تكون تامة على ادارة شؤون البلاد السياسية والعسكرية بل والاقتصادية ، وقد برزت هذه الظاهرة في كلا الاقليمين في وقت واحد او متقارب ، مما يدل على تلاحم الاقليمين سياسيا عبر مراحل التاريخ الحديث .

## ثانيا - العلاقة الاقتصادية :

ان دراسة العلاقة الاقتصادية ، والنشاط الاقتصادي للشوام في مصر في العصر العثماني يحتاج الى دراسة مطولة ومفصلة نظرا للكم الضخم المتوفر ضمن وثائق أرشيف المحكمة الشرعية بالقاهرة (١٨) ، والذي يرسم

بصورة تفصيلية هذا الدور ونوعيته وضخامته في تاريخ مصر الاقتصادي في ذلك العصر ، ولكننا سنكتفي هنا بالإشارة الى الخطوط العريضة لهذه العلاقة وهذا الدور ، تاركين تفاصيله لدراسة مطولة في وقت لاحق ، وباستقراء بعض هذه الوثائق ، نجد ان الشوام الذين قدر لهم أن يشتغلوا بالتجارة سواء في داخل مصر ، أو بممارسة هذا العمل ما بين مصر وبلاد الشام ، نجد ان هؤلاء الشوام ، قد اشتغلوا بالتجارة من مختلف السلع التي كانت رائجة في مصر في تلك الفترة ، من اقمشة وبن وقطن وحرير وتبغ وصابون ومشروبات وحلوى ، وغير ذلك من السلع (١٩) واستطاع بعض هؤلاء التجار ان يكون شركات خاصة ببعض هذه السلع ، كما قام بعض الشوام بدور الموردين لبعض السلع وخير مثال لذلك ، الذمي نقولا النصراني الحمصي الشامي الذي كان يقوم باستيراد المرجان وتوزيعه على التجار المشتغلين بالتجارة في هذه السلعة بوكالة المرجان بالقاهرة ، كما ان بعضهم اشتغل بالتجارة في المجوهرات ، لذا فان الباحث في وثائق العصر يقف على كثير من اسماء التجار الشوام في سوق الصاغة بالقاهرة كما ان هذه الوثائق ترصد كثيرا من التجار الشوام الذين كانوا يعملون بسوق الحمزاوي حيث يشتهر هذا السوق بتجارة الاقمشة المحلية والمستوردة ، وبخاصة الاقمشة الحريرية والقطنية (٢٠) ، وقد ذكر شابرول ضمن قائمة البضائع المستوردة الى مصر عام ١٧٧٥ م ، ان الاقمشة القطنية والحريرية التي استوردت الى مصر من كل من دمشق وحلب بلغ مجملها مائة طرد ( ١٠٠ طرد ) وكمية الحرير التي استوردت من بيروت ( ٥٠٠ بالة ) ، ومن طرابلس ( ٥٠٠ بالة ) . وكميات أخرى من الاقمشة الدمشقية لم يحدد حجمها (٢١) . ولاشك ان ضخامة هذه الكميات التجارية التي كانت قائمة بين مصر وبلاد الشام ، كما ان استهلاك هذه الكميات داخل المجتمع المصري المحدود آنذاك ، يوضح بدوره اقبال الشعب المصري على استهلاك السلع الشامية والاقبال عليها . كذلك اشتغل بعض الشوام بالتجارة في الحلوى وصناعاتها والبقسماط مثل « الشيخ عمر والحاج محمد ولد المرحوم الحاج أحمد الشامي البقسماطي كلاهما » (٢٢) . كما عمل بعضهم في الاشتغال بالحرف المهنية مثل الحلاقة والحيافة والتجارة وصناعة الاسلحة (٢٣) .

وقد كان للشوام المشتغلين بالتجارة في القاهرة ، الوكالات الخاصة بهم حتى ان المتبع لخريطة القاهرة العمرانية في ذلك العصر ، ليصعب عليه أن يجد حيا من أحياء القاهرة التي كانت قائمة آنذاك لايقطنه بعض



الشوام الذين يمارسون العمل التجاري ، أو الاشتغال ببعض الحرف القائمة بهذه الاحياء وحينما امتد نشاط التجار الشوام الى عمليات التصدير والاستيراد من مصر واليهما ، أصبح لهؤلاء التجار وكلاء تجاريين يعملون باسمهم في موانئ البحر الاحمر مثل جدة ومخا والسويس ، كما كان لهم وكلاء ببلاد الشام ، ولم يقتصر نشاطهم على المتاجرة في السلع الشامية وانما امتد الى السلع اليمينية والهندية فشمّل البن والاقمشة الهندية(٢٤) التي راجت في مصر في ذلك العصر وراجا كبيرا ، وقد ثبت لي من واقع معلومات سجلات محكمة القسمة العسكرية بارشيف المحكمة الشرعية بالقاهرة ، ضخامة التركات التي خلفها بعض هؤلاء التجار الشوام ، والذين ثبت لنا من واقع هذه الوثائق كذلك انهم لم يقطعوا صلتهم باصولهم ببلاد الشام حيث كانت حجج اعلام الوراثة وتحديد الورثة تصدر احيانا من محكمة دمشق أو غيرها من محاكم بلاد الشام ، ويقرها القضاء في مصر بعد ثبوت صحتها(٢٥) .

ومما تجدر الاشارة اليه ان بعض تجار الشوام الذين كانوا يمارسون نشاطهم الاقتصادي في مصر، كان يصل الى منصب شيخ طائفة السلعة التي يشتغل بها ، طبقا لنظام المجتمع آنذاك والذي كان قائما على ان يكون لكل حرفة شيخها المسؤول عن افرادها المشتغلين بها أمام الادارة فقد استطاع الخوارجا محمد الشامي أن يصبح شيخ الشرب بسوق الشرب ، ووصل الحاج أحمد الشامي ان يصبح شيخ طائفة القطنيين بوكالة القطن ببولاق وهناك عدد كبير تسجل الوثائق اسماءهم كشيوخ لطوائف المهن التي يعملون بها ويوصفون بوصف « الشامي »(٢٦) .

وقد كان هؤلاء التجار والحرفيون كما يتضح من الوثائق ينتمون الى جميع الاقاليم الشامية ، فنجد من بينهم الغزي والعريشي والنبلسي والحمصي والطرابلسي والدمشقي والحلبي وغير ذلك من البلدان الشامية التي كانوا ينتسبون اليها(٢٧) .

أما عن استثمار هؤلاء الشوام لرؤوس الاموال التي تكونت لديهم ، فقد استفلوا كما يتضح من الوثائق في كل أوجه الاستثمار الممكنة ، مثل شراء العقارات والدور في القاهرة وغيرها من المدن المصرية ، وفي التزام الاراضي الزراعية في مختلف انحاء مصر ، وفي عمليات الاستيراد والتصدير ما بين مصر وبلاد الشام واليمن والهند ، حتى يصبح من العسير على أي باحث في تاريخ مصر في العصر العثماني أن يغفل الدور الاقتصادي البارز

الذي لعبه التجار الشوام في هذا التاريخ ، وبذلك حافظ هؤلاء التجار على استمرار العلاقات الاقتصادية بين مصر وبلاد الشام في ذلك العصر (٢٨) .

### ثالثا - العلاقات الثقافية :

يكفي للباحث كي يدرك ضخامة العلاقات الثقافية بين مصر وبلاد الشام ان يرجع الى كتب التراجم وسجلات المحاكم الشرعية ، ووثائق العصر ، وبخاصة ما يتعلق منها بالازهر فانه ولا شك سوف يقف على سلسلة كبيرة ومتصلة الحلقات من المثقفين الشوام الذين تلقوا تعليمهم بالازهر ، كما انه سوف يجد من بين علماء الازهر كثيرا من الشوام حيث ان بعضهم تصدى للتدريس والافتاء بالجامع الازهر بعد ان اجيزوا من علمائه ونعتوا بانهم « من اعيان اهل الافادة والتدريس بالجامع الازهر » بل ان هناك علماء شوام جمعوا بين وظيفتي التدريس والافتاء في نفس الوقت مثل الشيخ « حسن المقدسي الخلفي » فقد ذكرت الوثائق انه كان « من اعيان اهل الافادة والافتى والتدريس بالجامع الازهر » (٢٩) .

وقد كان للشوام رواقهم الخاص بهم في الجامع الازهر ، عرف باسم رواق السادة الشوام ، وكانت مشيخة هذا الرواق ونظارة اوقافه توكلان الى احد علماء الشوام باختيارهم ، بشرط ان يكون ممن يشتغلون بالتدريس في الجامع الازهر (٣٠) ، وتسجل الوثائق ذلك فتذكر ان « الشيخ الامام العلامة الهمام شهاب الملة والدين مولانا الشيخ احمد الفالوجي ، شيخ رواق السادة الشوام المجاورين بالجامع الازهر - الشافعي عين اعيان اهل الافادة والتدريس بالجامع الازهر » (٣١) و « الشيخ شهاب الدين احمد ابن المرحوم الشيخ عنبر الشامي شيخ رواق السادة الشوام بالجامع الازهر » (٣٢) ، هكذا نرى ان الذي يتولى مشيخة رواق السادة الشوام ، كان ولا بد ان يكون شاميا ، ومشتغلا بالتدريس في الازهر ، حتى يستطيع ان يشرف على المجاورين ( طلاب ) الشوام اشرافا دقيقا وصادقا ، وقد كان رواق الشوام من أكبر أروقة الازهر جميعها وقد أوقف عليه بعض الامراء المماليك ، منذ عصر السلطان قايتباي كثيرا من الاوقاف وقد كان العلماء الشوام فريقين ، **احدهما** : ولد ونشأ وتعلم في مصر ولكنه ظل يحتفظ بنسبته الى بلاد الشام ، مثل ابراهيم بن ابي بكر بن اسماعيل العوفي فهو دمشقي صالحى الاصل ، مصري المولد والوفاة « كان من اعيان الافاضل له اليد الطولى في الفرائض والحساب ، مع التبخر في الفقه وغيره من العلوم الدينية ، وهو حنبلي المذهب ، نشأ بمصر واخذ

الفقه عن العلامة منصور البهوتي ، والحديث عن جمع من شيوخ الازهر ، وأجازه غالب شيوخه و ألف مؤلفات منها شرح على منتهى الارادات في فقه مذهبه في مجلدات ، ومناسك الحج في مجلدين ، ورسائل كثيرة في الفرائض والحساب ، وكان لطيف المذاكرة حسن المحاضرة ، قوي الفكرة ، واسع العقل ، وكان فيه رياسة وحشمة موفورة ، ومروءة «(٢٣) .

**والفريق الثاني :** من هؤلاء العلماء ، كان يأتي الى مصر للالتقاء بعلماء أزهرها ، والايخذ عنهم في بعض العلوم وإجازتهم ، وكانت مدة اقامتهم فيها لفترات قد تطول وقد تقصر ، حسب قدراتهم التي تمكنهم من الحصول على الاجازة المطلوبة ، وأحيانا كان نفر من هذا الفريق يشتغل الى جانب طلبه العلم ببعض الامور التي تمكنه من كسب عيشه مثل ابراهيم بن علي بن احمد بن علي السعدي الحموي الذي كان « يأكل من كسب يمينه ، ويتردد الى القاهرة للتجارة ، ولقي بها الجلة من العلماء مثل النجم الفيضي صاحب المعراج والايستاذ محمد البكري والشمس الرملي والبنوفري وأخذ عنهم » (٢٤) بل ان البعض من هذا الفريق آثر الاستقرار بمصر والاشتغال ببعض الامور التي تدر عليهم بعض الرزق الذي يكفي لمعاشهم ، مثل كتابة الحجج في المحكمة الشرعية وغير ذلك بل ان بعضهم استطاع التدرج في السلك القضائي حتى تولوا نيابة القضاء في مصر مثل القاضي السيد نجم الدين بن صالح بن احمد بن محمد بن صالح بن عبد الله التمرتاشي الفزي الحنفي الذي ذكر عنه الجبرتي انه تولى « نيابة أبيار بالمنوفية ، ومرسومات بنظارات أوقاف ، فأقام بأبيار قاضيا نيافا وعشرين سنة ، وهو يشتري نيابتها كل دور ، وابتدع فيها الكشف على الاوقاف القديمة والمساجد الخربة التي بالولاية وحساب الواضعين ايديهم على ارزاقها ، وأطيانها حتى جمع من ذلك أموالا ، ثم رجع الى مصر ، واشترى دارا عظيمة بدرق قرمز بين القصرين ، واشترى المماليك والجواري ، وتروثق حاله ، واشتهر أمره وركب الخيول المسومة ، وصار من عداد الوجهاء ، ثم تولى نيابة القضاء بمصر في سنة ست وثمانون (١١٨٦ هـ / ١٧٧٢ م) فازدادت وجاهته وانتشر صيته ، وابتكر امورا منها تحليف الشهود ، وغير ذلك ، ووصل به الامر الى حد انه جعل مملوكه علي افندي ، يتولى نيابات القضاء في المحلة ومنوف وغيرها » (٢٥) أما الفريق الذي عاد الى بلاد الشام بعد اجازته في علوم الفقه والحديث والعربية . فقد حمل رسالته في نشر ما تعلمه بين أبناء وطنه أو تولى مناصب الافتاء والتدريس أو نيابة القضاء في احدى

محاكم بلاد الشام واذا ما واصلنا تتبع العلماء الشوام من كتب وتراجم العصر ووثائقه منذ القرن السادس عشر ، وحتى نهاية القرن الثامن عشر ، لخرجنا بالملاحظات التالية :

**أولا -** نجد ان معظم العلماء الذين برزوا على المسرح الثقافي في بلاد الشام، تلقوا علومهم أساسا في مصر في أزهرها الشريف ، وأجيزوا على يد علماء مصريين من مختلف علوم الدين واللغة ، وظل هؤلاء العلماء كما تذكر المصادر على صلة باساتذتهم في الأزهر ، يرسلون اليهم طلابهم أحيانا ، ويناقشونهم ويستفتونهم عن طريق المراسلة في بعض المسائل الأخرى .

**ثانيا -** ان بعض العلماء الشوام حسنت لهم المعيشة في مصر ، فاستقروا بها ، وتصدوا للتدريس في الأزهر ، وحازوا على مكانة عالية بين علماء عصرهم مثل مرعي بن يوسف الحنبلي ، الذي ينتمي الى قرية طوركرم من قرى نابلس ، وكذا ابن أخيه الشيخ احمد بن يحيى بن يوسف الحنبلي وقد استطاع بعض هؤلاء العلماء خلال القرن الثامن ان يصل الى مناصب مشيخة الأزهر ، ورياسة القضاء في مصر .

**ثالثا -** تذكر المصادر المعاصرة ووثائق المحكمة الشرعية في صدر ترجمتها لهؤلاء العلماء كثيرا من الألقاب التي تدل على النباهة والذكاء مثل القاب « الامام ، الفقيه ، العلامة ، المحدث ، الباحث ، الاديب ، اللبيب ، النجيب ، المفوه ، الفهامة ، شهاب الدين والملة » وغير ذلك من الألقاب التي تدل على مكانة هؤلاء العلماء العلمية ، كما تدل في نفس الوقت على اعجاب علماء عصرهم بهم (٢٦). وهكذا نجد انه عن طريق هذا الوجود الثقافي الشامي في مصر ، اصبحت علاقة مصر ببلاد الشام في هذا المجال علاقة تأثر وتأثير ، أخذ وعطاء ، أي وجود تكامل ثقافي بين الاقليمين .

#### **رابعا - العلاقة الاجتماعية :**

يتميز دور الشوام في الحياة الاجتماعية في مصر في العصر العثماني بانه ذو شقين ، شق ايجابي ، وشق سلبي .

**أما عن الشق الايجابي :** فيبرز واضحا حيث استقرت غالبية

شامية في القاهرة والمدن المصرية الاخرى ، وتتضح ايجابية هذا الدور مما سجله لنا وثائق المحكمة الشرعية ، فان اشتغال الشوام بالتجارة وبالحرف المهنية جعلهم على علاقة قوية بطوائف المجتمع المصري الاخرى ، والاندماج مع هذه الطوائف والتأثر بها والتأثير فيها ، والامتزاج معها دما ومعاملة ، فنعثر بين هذه الوثائق على كم ضخم من عقود الزواج التي تمت بين شوام ومصريات ومغربيات والعكس بالعكس ، ومن السمات البارزة في هذه العقود ان شهودها معظمهم من الشوام . كذلك نجد في دفاتر محكمة القسمة العسكرية التي كانت تسجل فيها تركات المتوفين من رجال الاوجاقات ، كثيرا من الشوام الذين اندمجوا في الاوجاقات العسكرية التي تتكون منها الحامية العثمانية في مصر ، وتمتعوا بامتيازات رجال هذه الفرق ، واندمجوا فيها وصاهروا بعض أسرها ادراكا منهم لاهمية الاندماج الاجتماعي مع الفرق العسكرية (٢٧) .

وتذكر المصادر المعاصرة لبعض الشوام الذين طابت لهم المعيشة في مصر فاستقروا فيها وتخلقوا باخلاق أهلها وتزويوا بزي أهلها ، وترك هذا الوجود الشامي في مصر بصماته الواضحة على المجتمع المصري وذوقه ، فمثلا وصل إعجاب المجتمع المصري ببعض الاطعمة والملبوسات الشامية يفوق مجرد الإعجاب العادي ، فالشاشات الشامية والملابس الحريرية كانت لها شهرة واسعة في مختلف أوساط المجتمع المصري ، بل ان الشخصية الشامية حازت إعجاب المجتمع المصري فشخصية « ابو الشام » أصبحت في نظر المصري محل التقدير والاحترام ، حتى ان هذا اللقب ، أصبح من الالقاب التي يطلقها المصريون بعضهم على بعض في حالة التقدير والإعجاب ، حيث صار هذا اللقب في نظرهم يدل على الشهامة والكرم تلك الصفات التي يتمتع بها الشامي . ومن جانب آخر فان الشوام الذين استقروا في مصر علماء وتجار ، أعجبوا بالشخصية المصرية واندمجوا وتخلقوا باخلاقها واصبحوا مصريين في سلوكهم شاميين في أصولهم ، وحمل بعضهم صفة المصري الى نسبة الشامي « مصري الإقامة » « شامي الاصل » هكذا كان دور الشوام الايجابي في حياة المجتمع المصري تأثير

وتأثر ، أخذ وعطاء (٢٨) أما عن الشق السلبي : من دور الشوام في المجتمع المصري ، فيتمثل في دور العربان البدو ، الذين كثيرا ما أغاروا على ريف مصر وقراها يسلبون وينهبون وبخاصة في ريف الوجه البحري ومصر الوسطى ، واعتدائهم المتكرر على قافلة الحج المصري وسلب ماتحملة ، التي اضطرت سلطات القاهرة الى تعيين قائد من الامراء المماليك لحماية قافلة الحج اصبح يحمل لقب « أمير الحاج » وصار هذا المنصب من كبار المناصب التي يتنافس عليها الامراء المماليك ، ويصدر به فرمان من السلطان العثماني ، ومع ذلك استمرت عمليات هؤلاء العربان العدوانية حتى بعد دخول الحملة الفرنسية الاراضي المصرية ، وقد قام علماء هذه الحملة بتسجيل هؤلاء العربان والمناطق التي كانت تتعرض لعدوانهم وجهات انتمائهم في بلاد الشام ، حتى كان عصر محمد علي ، الذي عمل على اجتذاب هؤلاء العربان وترويضهم عن طريق منحهم الاراضي ومحاولة استقرارهم ، ذلك هو الجانب السلبي المتمثل في عمليات العربان العدوانية ضد المجتمع المصري ، خلال فترة الحكم العثماني (٢٩) .

### تقويم :

من الاستعراض السابق نجد ان الشوام قد لعبوا دورا بارزا ، في تاريخ مصر في العصر العثماني ، واذا كان الاقليمان يكونان في ظل الحكم المملوكي جناحين لجسم واحد هو الامبراطورية المملوكية ، ولا توجد قيود تحد من العلاقة بينهما ، ومع ان هذه الامبراطورية قد انهارت ، فان العلاقة بينهما في ظل الحكم العثماني بقيت قائمة ، رغم التغيير الذي حدث في السلطة الادارية والسياسية ، ولذا بقيت الصلة بين الاقليمين مستمرة ، وظلت احداث كل منهما واحواله تتأثر باحداث الاقليم الآخر وتؤثر فيه ، فالعلاقات الاقتصادية استمرت على حالها ، وظلت السلع الشامية توزع في المدن والقرى المصرية ، وقد سجل علماء الحملة الفرنسية كما سبقت الاشارة ، وكذلك فعلت وثائق المحكمة الشرعية حجم السلع التي كانت تستوردها مصر من بلاد الشام ، من دمشق وحلب وطرابلس وبيروت وصفد والقدس وغزة ، كما تسجل لنا هذه المصادر ان بعض التجار الشوام استطاع ان يكون رأس مال ضخمة ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فان الروابط الثقافية بين الاقليمين رغم ما يقال عن التخلف الذي اصاب

الحياة الثقافية في ظل الحكم العثماني ، فان التراجم التي سجلتها المصادر المعاصرة ووثائق العصر للعلماء الشوام الذين اتوا الى مصر وتعلموا فيها وعلموا ودرّسوا ودرسوا ، ثم ارتحلوا الى بلادهم وتصدوا للتدريس فيها لتثبت قوة هذه العلاقة ونشاطها بل وازدهارها ، فكثير من المصادر ، والتراجم ، والمصنفات من مختلف فنون العلوم النقلية والعقلية وضعت على يد هؤلاء العلماء .

أما العلاقات الاجتماعية بين الاقليمين فكانت نتاجا طبيعيا للعلاقات الاقتصادية والثقافية ، فلا شك ان اقامة بعض طوائف الشوام في مصر وارتحالهم منها واليها أدى الى امتزاجهم وتأثيرهم في المجتمع المصري ، وتأثر عادات وتقاليد وذوق كل من الاقليمين بعادات وتقاليد وذوق مجتمع الاقليم الآخر ، وظل هذا التأثير قائم حتى يومنا هذا ولم يعد قصرا على العصر العثماني كما سبقت الإشارة .

خلاصة القول ان العلاقة بين الاقليمين كانت علاقات تأثر وتأثير أخذ وعطاء بين اقليمين من أمة واحدة مهما اختلفت صور الحكم والهيئة الحاكمة .

## الحواشي

- (١) يذكر لنا ابن اياس ان نواب البلاد الشامية من ١٥١٦/٩٢٢ من قبل السلطان الغوري هم « المقر السيفي سيبيي من بختجا نائب الشام والمقر السيفي خاير بك من ملباي نائب حلب ، وتمراز الاشرفي نائب طرابلس وجان بردى الغزالي نائب حماه ، ويوسف الذي كان نائب القدس انتقل الى نيابة صفد ، ونائب غزة دولاب باي ، وقد أضيف اليه نيابة القدس والكرك مع نيابة غزة » ، ( انظر محمد بن احمد بن اياس ) بدائع الزهور في وقائع الدهور ، ج ٥ ، ص ٤ .
- (٢) حيث ذكر نفس المصدر ، ان « الامير شرف الدين يوسف النابلسي استادار العالية ، كان واليا فصار متحدثا من استيفاء ديوان جيش الشام ، نفسه ص ٩ ، .
- (٣) نفسه ، ج ٥ ، ص ٢٩ .
- (٤) دكتور عبد الكريم رافق ، بلاد الشام ومصر ، من الفتح العثماني الى حملة نابليون بونابرت ١٥١٦ - ١٧٩٨ م ، ص ٦٨ .
- (٥) نفسه ، ص ٩٨ .
- (٦) Abdul Rahim Abdul Rahman, the Ottoman rule and its effect on Egyptiansociety in Jornal af Asian and African studics no. 13, Tokyo, 1977, 156.
- (٧) دكتور عبد الكريم رافق ، المصدر السابق ، ص ١٠٧ .
- (٨) نفسه ، ص ١٠٩ .
- (٩) نفسه ، ص ١٠٩ ، ص ١١٢ .
- (١٠) دكتور عبد الرحيم عبد الرحمن ، القضاء في مصر العثمانية ( ١٥١٧ - ١٧٩٨ ) ، ضمن كتاب بحوث في التاريخ الحديث ، طبع جامعة عين شمس ، ص ١٧١ .
- (١١) دكتور عبد الكريم رافق ، المصدر السابق ، ص ٩٢٢ ، يذكر ابن اياس بشأن الاتصال بين جان بردى الغزالي وخاير بك ، انه في يوم الاربعاء ٢٦ ذو القعدة ٦/٩٢٦ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٥١٩م حضر قاصد من عندنائب الشام الاميرجان بردى الغزالي ، يقال له خشقدم اليحياوي ، ودفع الى خاير بك بمطالعة نائب الشام ، ومطالعات الى الامراء ، فلما قرأها خاير بك اضطربت احواله ، ثم تزايد القيل والقال ، واشيع عصيان نائب الشام « فلما تحقق ملك الامراء ذلك أرسل يعلم السلطان ابن عثمان من أمر سلطنته بالشام وارسل اليه المطالعات التي وردت عنه بما جرى منه » ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٥ ، ص ٣٦٧ - ٣٦٨ .
- (١٢) دكتور عبد الكريم رافق ، المصدر السابق ، ص ١٢٤ .
- (١٣) نفسه ، ص ١٣٠ .



(١٤) نفسه ، ص ١٣٩ ، يذكر ابن اياس ، المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٣٨٨ ان خاير بك « رسم للوالي بان كل من كان عند الغزالي من الممالك وحضر الى مصر يوسطه من غير اذن ولو كان من الامراء » .

(١٥) لمزيد من التفصيل حول فتن المساكر ضد الحكم العثماني انظر « كشف الكربة في رفع الطلبة ، تأليف محمد بن أبي السرور البكر » الصديقي « بلوغ الارب برفع الطلب » تأليف محمد البرلس السعدي ، تقديم وتحقيق الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن ، نشرتا بالمجلة التاريخية المصرية بالعدد ٢٣ ، ٢٤ عامي ١٩٧٦ ، ١٩٧٧ : وانظر كذلك ، دكتور عبد الكريم رافق ، المصدر السابق ، ص ١٦٦ - ١٧٦ ، ثورات المساكر في القاهرة ، طبع دمشق .

(١٦) بخصوص تفاصيل هذه الاحداث انظر : دكتور عبد الكريم رافق ، المصدر السابق ، ص ١٩٥ - ٢١٧ ، أحمد شلبي بن عبد الغني ، أوضح الاشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشا ، مخطوطة اعدتها للنشر حاليا ، من مواضع متفرقة من ورقة ٣٩ الى ورقة ٨٢ .

(١٧) انظر ، أحمد شلبي بن عبد الغني ، المصدر السابق ، أحمد كتخدا عزبان ، الدررة المنصانة في اخبار الكنانة ، مخطوطة بالمتحف البريطاني بلندن ، نسخة مصورة في حوزتي ، حيث يصف كل منهما مجيء الولاة الى مصر ، وكانوا يذكرون دائما عن الباشا الذي يأتي عن طريق بلاد الشام انه قدم « بالطريق البري » .

(١٨) على سبيل المثال لا الحصر ، نعثر في سجل واحد من سجلات محكمة القسمة العسكرية وحواليه رقم ( ١٧٥ ) ، الخاص بالفترة من ٢٢ ربيع الاول ١١٧٧ هـ - ٢٠ ذي الحجة ١١٧٧ هـ / ٣٠ سبتمبر ١٧٦٣ هـ / ٢٠ يونية ١٧٦٤ م على الوثائق التالية متعلقة بالتجار الشوام ، وثيقة رقم ٣٤٦ ص ٢٤٢ ، رقم ٤٢٧ ، ص ٣٠٦ ، رقم ٤٣٤ ص ، رقم ٥٨٢ ص ٤٣١ ، رقم ٥٨٣ ص ٤٣١ ، رقم ٥٨٤ ص ٤٣٥ ، رقم ٦١٨ ص ٤٥٩ ، وهكذا دواليك في كل سجلات المحاكم الشرعية المصرية ، والتي قمنا بحصرها وحصر سجلاتها في كتاب الريف المصري من القرن الثامن عشر ، ص ٣٩ ، وعددها ١٦ محكمة وعدد سجلاتها ( ٢٠٦٦ ) سجلا ، ( ٣٥٣ ) .

(١٩) ارشيف المحكمة الشرعية ، سجلات محكمة الصالحية النجمية ، سجل ( ٥١٩ ) ص ٢٧٠ ، وثيقة ٥٣٦ ، سجلات القسمة العسكرية ، سجل ( ١٧٥ ) ، ص ٣٠٦ ، مادة ٤٢٧ ، سجل ٦٨٤ ، ص ٦ ، وثيقة ، ص ٨٢ وثيقة ١٧٢ ، ص ١٠٦ ، وثيقة ٢٢٧

(٢٠) ارشيف المحكمة الشرعية ، محكمة القسمة العسكرية ، سجل ١٧٥ ، مادة ٣٨٣ ،

ص ٢٧٠، والصالحية النجمية سجل ٥١٩ ، وثيقة ٥٣٦ ص ٢٧٠ المجلة التاريخية المغربية ،  
عدد ١٠ ، ١١ ص ٩٨ - ١٠٠ سجل ١٦٥ قسمة عسكرية ، ص ٢٠٢ مادة ٧ .

(٢١) ج. دي شابرول ، دراسة عن عادات وتقاليد سكان مصر المحدثين ، ضمن ابحاث  
وصف مصر ، ترجمة زهير الشايب ، طبع القاهرة ١٩٧٦ م ص ٢٦١ - ٢٦٦ .

(٢٢) أرشيف المحكمة الشرعية ، محكمة القسمة العسكرية سجل ٦٨٤ ، ص ١٠٦ ، وثيقة  
٢٢٧ .

(٢٣) أرشيف المحكمة الشرعية ، محكمة القسمة العسكرية سجل ٦٨٤ ص ٦ ، وثيقة ١٥ ،  
ص ٨٢ ، وثيقة ١٧٩ .

(٢٤) أرشيف المحكمة الشرعية ، محكمة القسمة العسكرية ، سجل ١٦٥ ، ص ٢٠٢  
وثيقة ٣٠٧ ، سجل ١١٤ ص ٤٨ ، وثيقة ٣٨ ، ص ٥٣ ، وثيقة ٤١ ، سجل ١٤٥ ،  
ص ٤١ ، وثيقة ٣٨ ، سجل ٦٨٤ ، ص ٨٢ ، وثيقة ١٧٩ ، ص ١٠٦ ، وثيقة ٢٢٧ ،  
سجل ١٧٥ ، ص ٣٠٦ وثيقة ٤٢٧ ، ومحكمة الصالحية النجمية سجل ٥١٩ ، ص  
٢٧٠ ، وثيقة ٥٣٦ ، وانظر كذلك بخصوص التجار الشوام ومناطق انتشارهم في  
القاهرة المصدر القيم الذي كتبه البرفسور اندريه ريمون عن الحرفيين والتجار في  
القاهرة في القرن الثامن عشر .

André Raymond , Artisans et Commerçants au X V IIIe Slécle.

Damas , 1973 Tome I , PP 189 - 191, 193, 198, Lome II PP 405 - 407 ,  
477 , 496.

(٢٥) أرشيف المحكمة الشرعية ، محكمة القسمة العسكرية ، سجل ٧ ص ١٧٩ ، وثيقة  
١٨١ ، سجل ١٦٥ ، ص ٤٨ ، وثيقة ١٠٣٨ ، سجل ١٧٥ ، ص ٤٣١ ، وثيقة  
٥٨٢ ، سجل ١٤٥ ، ص ٧١ وثيقة ٩٥ ، وسجلات اسقاط القرى ، سجل ٧ ،  
ص ٧٩ ، وثيقة ١١٨ ، وسجل ١٨ ، ص ١١ بدون رقم للوثيقة ، سجلات الديوان  
العالي ، سجل رقم ( ١ ) ، ص ٨٥ ، وثيقة ١٧٦ ، ص ٣٠ ، وثيقة ٥٧ .

(٢٦) أرشيف المحكمة العسكرية ، محكمة القسمة العسكرية ، سجل ٧ ص ١٧٩ وثيقة  
١٨١ . سجلات الديوان العالي ، سجل ( ١ ) ص ٨٥ ، وثيقة ١٧٦ ، قسمة عسكرية  
سجل ١٧٥ ص ٣٠٦ ، وثيقة ٤٢٧ .

(٢٧) أرشيف المحكمة الشرعية ، قسمة عسكرية ، سجل ١٧٥ وثائق رقم ٣٤٦ ، ٤٢٧ ،  
٤٣٤ ، ٤٦٦ ، ٤٧٧ ، ٥٨٢ ، ٥٨٣ ، ٥٨٤ ، سجل ١٦٥ وثيقة ٣٨ ، سجل ١٤٥ ،  
وثائق ٣٨ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٩ ، هذا على سبيل المثال لا الحصر .

(٢٨) أرشيف المحكمة الشرعية ، سجل اسقاط القرى ، رقم ٧ ص ٧٩ وثيقة ١٨١ ،  
سجل ١٨ ، ص ١١ قسمة عسكرية ، سجل ١٧٥ ، ص ٤٣١ ، وثيقة ٥٨٣ ، سجل

- ١٦٥ ، ص ٤٨ ، وثيقة ٣٨ الصالحة النجمية ، سجل ٥١٩ ، ص ٢٧٠ ، مادة ٥٥٦ ،  
 قسمة عسكرية ١٤٥ ، ص ٧١ وثيقة ٩٥ ، ص ٧٤ ، وثيقة ٩٩ .
- (٢٩) ارشيف المحكمة الشرعية ، محكمة القسمة العسكرية ، سجل ١٧٥ ، ص ٢٤٢ ،  
 وثيقة ٣٤٦ .
- (٣٠) أنشأ هذا الرواق السلطان قايتباي (١٤٦٨ - ١٤٩٦ م) وزار فيه الامير عثمان كتخدا ،  
 وعبد الرحمن كتخدا في القرن الثامن عشر ، حتى صار اكبر من رواق الصعايدة ،  
 وكان باعلاه نحو الثلاثين حجرة لمجاوري الشوام ، وبه خزانة كتب ، وقد أوقف عليه  
 كل من الامير عثمان ، والامير عبد الرحمن كتخدا أوقافا ظلت جارية حتى حلت هذه  
 الاوقاف ، وكانت فيه بئر وحنفية ، انظر ، محمد عبد النعم خفاجي « الازهر في الف  
 عام » الجزء الثاني ، ص ٩٩ - ١٠٠ .
- (٣١) أرشيف المحكمة الشرعية ، محكمة القسمة العسكرية ، سجل ١٧٥ ، ص ٣٣٥ ،  
 وثيقة ٤٦٦ .
- (٣٢) ارشيف المحكمة الشرعية ، محكمة القسمة العسكرية ، سجل ١٧٢ ، ص ٣ وثيقة (٥) .
- (٣٣) المحبي ، خلاصة الاثر في اعيان القرن الحادي عشر ، ج ١ ، ص ٩ .
- (٣٤) المحبي ، المصدر السابق ، ج ١ ص ٣١ .
- (٣٥) عبد الرحمن الجبرتي ، عجائب الآثار في التراجم والاختبار ، ج ٢ ، ( حوادث  
 ١٢٠٠ هـ / ١٧٨٥ م ) ، ص ١٢٧ .
- (٣٦) ارشيف المحكمة الشرعية ، محكمة القسمة العسكرية ، سجل ١٧٥ ، ص ٢٤٢ ،  
 وثيقة ٣٤٦ ، ص ٣١١ ، وثيقة ٤٣٤ ، ص ٣٣٥ ، وثيقة ٤٦٦ سجل ١٧٢ ، ص ٣ ،  
 وثيقة ٥ ، ص ٨٣ ، وثيقة ١٢١ . وكذلك كل الوثائق التي وردت بسجلات المحاكم  
 المشار اليها سابقا .
- وبخصوص كتب التراجم انظر ، المحبي ، خلاصة الاثر ، ج ١ ، ص ٩ ، ٣١ ،  
 ٤٦ ، ٦٨ ، ص ١٥٤ - ١٥٥ ، ٢٩٧ - ٢٩٨ ، ٣٦٧ ، ٤٠٨ ، ٤٨٩ ، ج ٢ ،  
 ص ٢١ ، ٧٩ ، ٩٤ ، ١١٦ ، ١٤٠ ، ١٧٢ ، ٢٠٢ ، ٢٢١ ، ٢٣٨ ، ٢٨٥ ،  
 ٣٤٤ ، ٤٣٤ ، ج ٣ ، ص ١٤ ، ١٢٢ ، ٣٩٠ ، ٤٧٥ ، ج ٤ ص ٣٤ ، ٤٣٣ ،  
 السيد محمد خليل المرادي ، سلك الدرر في اعيان القرن الثاني عشر ، ج ١ ،  
 ص ١٩ ، ٣٠ ، ج ٢ ص ٨٣ ، ٢٥٤ ، ٢٩١ ، ج ٣ ، ص ٢ - ٣ ، ٨٣ ، ج ٤ ،  
 ص ٥٩ ، وكذلك نقل الجبرتي في تراجمه .

(٣٧) انظر الوثائق المشار اليها ، حتى ان معظم الوثائق المتعلقة بالتجار الشوام سجلت بسجلات محكمة القسمة العسكرية ، التي كانت تختص بتركات ومخلفات كل المنتمين الى الفرق العسكرية .

(٣٨) انظر تراجم الشوام السابق الاشارة اليها في المحبي ، والمرادي ، واحمد شلبي ، وابن ابي السرور ، والجبرتي ، وتحفة الاحباب ، ( مخطوطة ) ليوسف الحلواني .

(٣٩) المصادر المعاصرة المشار اليها ، وكذلك دكتور عبد الرحيم عبد الرحمن الريف المصري في القرن الثامن عشر ، ص ١٥٧ - ١٦٧ .

## النياراك السياسية في فلسطين في عصر النهضة

( ١٨٥٠ - ١٩٢٥ )

الدكتور علي محافظة  
الجامعة الاردنية

بدأ الوعي السياسي في فلسطين بداية مبكرة . فقد أشار القنصل البريطاني في القدس في رسالة بعث بها الى السفير البريطاني في الآستانة في الثالث من آب عام ١٨٥٤ ، الى أن بعض العرب لا يحترمون الاتراك ويعتبرونهم غزاة فاتحين ومغتصبين للخلافة الاسلامية (١) ويذكر أيضا ان روسيا وراء هذه الحركة التي لم تجد بعد قائدا عربيا مؤهلا لقيادتها ويشير القنصل نفسه في رسالة أخرى بعث بها الى السفير البريطاني في العاصمة العثمانية في ١٣ ايلول عام ١٨٥٨ ، الى أن سكان فلسطين يفهمون من كلمة الاستقلال التي راجت في تلك الفترة ، استقلالهم عن الدولة العثمانية ، لانهم يعتبرون الاتراك شعبا اوربيا (٢) . ولانعرف اذا كانت مثل هذه الافكار من بقايا الشعارات والآراء التي خلفها محمد علي باشا وابنه ابراهيم في المنطقة أم انها مجرد فجة تعبر عن ردة الفعل العربية الاسلامية على الانتماء الاوربي للاتراك .

لقد أحس عرب فلسطين كغيرهم من العثمانيين بظلم الدولة وطغيان ولايتها، وابتزاز ملتزميها قبل ذلك بكثير، ورفعوا عقيرتهم على الظلم والجور، فلما مات أحمد باشا الجزائر فرحوا لزوال ظلمه وقال أحد شعرائهم :

بهلاك غاشم لا يعادله مثل  
شر العوالم ان تفكر أو عمل  
مفضوب في ثوب المساويء قد دخل  
مهدي ولكن بالردائل قد حفل  
والقحط والجور الذي لا يحتمل  
هذا المنى غاب التعدي والوجل (٣)

وإفا السرور وصح ترجيح الأمل  
عين المظالم والمآثر والردى  
أحمد ولكن ليس يحمد بالورى  
جزار لكن للفضائل جازر  
بحياته كان الفلاثم الوبسا  
وبموته زال العنا يا حبيذا

وشارك الشيخ يوسف ضياء الدين الخالدي ، أحد مفكري القدس

وأعيانها في مجلس المبعوثان العثماني الاول عام ١٨٧٧ . وساهم في الحركة الاصلاحية العثمانية ، وكانت له صلات وثيقة بأحد دعاة هذه الحركة السيد خليل غانم الذي هرب الى باريس وأقام فيها بعد تعليق الدستور وتعطيل الحياة النيابية عام ١٨٧٨ (٤) .

وأجاد روجي الخالدي (٥) في وصفه للظلم والاستبداد الذي اتسم به عهد عبد الحميد الثاني ( ١٨٧٦ - ١٩٠٨ ) . وتحدث عما أصاب أحرار العثمانيين من اضطهاد وتحقير وعذاب حتى صار أرباب الدناءة والفساد ويتقربون للعثمانيين بالتملق والوشاية والتجسس على اخوانهم وأعمامهم وابائهم ، منهم من تجسس على أمه وأخيه فنفيا من دار السعادة ، فكانوا يصورون للمتبعين الاعظم بمفترياتهم التبعة الصادقة بصورة وحوش ضارية تريد افتراسه وغصب تاجه ، ويزينون في عيني جلالته الاستبداد . « وكان من نتائج هذا الاستبداد أن « اختل نظام المملكة وبطلت مراعاة الاحكام القانونية والسير في ادارة الدولة على الاصول والتقاليد المتعارفة من القديم وفسد التعليم في المدارس وانحرفت ادارة الامور الداخلية والخارجية عن محورها ومالت الى الانحطاط .

ويسوق لنا مثالا على الفساد الاداري ماقاله وزير الداخلية العثماني حينما عين قائمقام لقضاء بئر السبع « اني أرسلك لغابة لن تدخلها بلطة الخطاب » (٦) .

تأثر روجي الخالدي في آرائه ودعوته الى الاصلاح بالفكر السياسي الفرنسي وبخاصة بمفكري الثورة الفرنسية مثل ديدرو ومونتسيكو وفولتير وروسو ، فهو يعالج قضية الحرية مستشهدا بارائهم ، ويسوق لنا ماقاله مونتسيكو ، في أثر الحرية على الانتاج ومن القواعد التي قررها الفيلسوف الشهير مونتسيكو مؤلف روح القوانين : ان الاراضي تقل غلتها بالنسبة لحرية سكانها لا بالنسبة فاذا كان الفلاح حرا عمر الاراضي الموات وجعلها مخصبة بعمله وحرثته واذا فقد الحرية أصبحت أرضه المخصبة مواتا بسبب الظلم والاستبداد (٧) .

غير أن الانقلاب العثماني عام ١٩٠٨ هو الذي أطلق الافكار من عقابها فقد استقبله المثقفون العرب في فلسطين بحماس بالغ ورحبت به الصحف

أجمل ترحيب فقد جاء في افتتاحية العدد الاول من مجلة الاصمعي الصادر في ١٩٠٨/٨/١٩ ما يلي :

« الحمد لله الذي أخرجنا من الظلمات الى النور ، ومن علينا بأن أطلق السننتنا في القول بعد أن كاد يقضي عليها بالتعقيد لطول احتباسها وراء الثنايا والشفاه ، ومكن أيدينا من العمل بعد أن مرت عليها السنون وهي مكبله بالاصفاد .

حتى كادت تورثها الشلل ، فلم يكن الا طرفه عين حتى أصبحنا طليقي الايادي والالسنه ، فوجب علينا والحاله هذه أو أول ما نبداً باستعمال هذه الاعضاء في حمد الله وعمل ما يرضيه ، ومن ثم في السعي وراء كل ماهو نافع للانسان والانسانية والوطن والوطنية وتوطيد دعائم القومية وتمكين روابط الجنسية . «(٨) .

وإذا كانت مجلة الاصمعي ، أثنت على حرية الرأي والتعبير التي جاء بها الدستور فان جريدة « الانصاف » أشادت بالمساواة والاخاء وبعث الحياة العربية ، فانصف المظلوم من الظالم ، وتساوى أمام العدل السيد والخادم . «(٩) .

ومثل فلسطين في مجلس المبعوثان الذي تكون اثر صدور الدستور السادة روجي الخالدي وسعيد الحسيني وحافظ السعيد عن لواء القدس ، والشيخ أحمد الخماش عن لواء نابلس ، والشيخ أسعد الشقيري عن لواء عكا «(١٠) .

وحيثما قامت الردة الرجعية على يد السلطان عبد الحميد في آذار ١٩٠٩ ، وتحركت القوات العثمانية في سلونيك فأخدمتها ، وخلعت السلطان ونصبت أخاه السلطان محمد رشاد على عرش المملكة العثمانية ، ونظم اسعاف النشاشيبي «(١١) قصيدة يمجدها فيها الجيش العثماني ، ويحيي الحرية ، ويندد بالرجعية والاستبداد اللذين تمثلا في حكم عبد الحميد في أبشع صورهما ، نقتطف منها هذه الابيات :

لاتخافي من العدو اغتياالا  
كان هذا الحسبان منه ضلالا  
يرقبون الشؤون والاحوالا  
وأذاقوه شدة ووبالا  
وأذلسوه في السورى أذلالا

اخطري اليوم في الربوع اختيالا  
حسب القوم نائمين وخالالا  
نسي الكامنين في سلنيك  
فأتسوه مزمجرين غضابا  
أنزلوه عن عرشه مستكينا

ويدعو الشرف العربي الى النهوض والتخلص من الجهل والابتعاد  
عن التعصب الديني فالدين غالبا ما استغل واتخذ سبيلا للظلم والاستبداد:

أيها الشرف طال نومك فانهض  
اهجر الجهل والعماية هجرا  
اترك الدين في المعابد يبكي  
تخذوه ياترق للظلم سبيلا  
للمعالي وصافح الامثالا  
وأعد للعلم مرقلا ارقالا  
واحتفل بالفناة شرق احتفالا  
واضلوا وحرثوا الاقوال(١٢)

غير أن هذه الفرحة التي عمت أوساط المثقفين العرب مالبت أن  
اختفت ، وذلك الحماس الذي أبدته نحو الدستور تلاش ، والتأييد الذي  
منحوه لقادة جمعية تركيا الفتاة ، ورجال جمعية الاتحاد والترقي زال  
وحلت محل ذلك كله مرارة خيبة الامل ، فانقلاب الاتحاديين لم يحقق  
لهم ما كانوا يرجون وسياسة التتريك التي انتهجوها جاءت صفة قوية  
لامال العرب القومية ، وعبر الشاعر سليمان التاجي الفاروقي ، الملقب  
« بدوي فلسطين » عن خيبة الامل هذه ، فقال يعاقب السلطان محمد  
رشاد :

العرب لاشقيت في عهدك العرب  
هم الجبال فما حملتهم حملوا  
وكل فضل أتى فالعرب مصدره  
كنا نعلل بالدستور أنفسنا  
حتى اذا جاء لم يحدث لنا حدثا  
سيوف ملكك والاقلام والكتب  
لكن اذا مسهم ضيم النفوس أبوا  
بل أي فضل أتى لم تحوه الغرب  
بفارغ الصبر ذاك اليوم نرتقب  
ولا استجيب لنا في مطلب طلب(١٣)

ومالبت العتاب أن تحول الى ثورة تغلي في النفوس بعد اندلاع  
الحرب العالمية الاولى ، وفرض الاحكام العرفية في البلاد ، وسوق آلاف  
الشباب الى ميادين القتال ، وسلب المؤن من الفلاحين والتجارة لتأمينها  
للجند المشاركين في حملة السويس ، وتعطيل الحياة الاقتصادية ونشر  
المجاعة بين السكان وتقديم العشرات من الشباب المثقف الى المجلس  
العربي في عاليه ، وتعليقهم على أعواد المشانق في ساحة المرجة في دمشق  
وساحة الشهداء في بيروت خلال عامي ١٩١٥ و ١٩١٦ . ونهض الشيخ  
سعيد الكرمي أحد ضحايا أحمد جمال باشا ، قائد الجيش الرابع المرابط  
في سورية ، يدعو العرب الى رفع راية الثورة في وجه الاتراك .



أيا أمة أودى بها مرض الجهل  
 أما فيكم ذو نخوة عربية  
 ويرفع عن أبناء عدنان عارها  
 فتلك بيوت الله ثلث صروحها  
 وأبناؤكم في الجوع والعري والعنا  
 تحكم فيكم نسل جنكيز فاتكا  
 فلم ننس طرابلس حين تقدمت  
 وذلت فصارت عرضة النهب والقتل  
 يعاف ورود الضيم من منهل الذل  
 ويدفع عنهم سلطة الخائن النذل  
 كما ضيم بالترفيق مجتمع الشمل  
 كأنكم عما يعانون في شغل  
 بسيف عتو ليس يعروه من فل  
 لهادولة الطليان بالخيل والرجل (١٤)

وتأثر المثقفون ورجال الفكر في فلسطين بالتيارات السياسية التي ظهرت بين اخوانهم العرب في هذه الحقبة وأثروا فيها . وسأقتصر على تناول تيارين . الدعوة الى الجامعة الاسلامية ، والدعوة الى القومية العربية ، كما سأتناول صورة فلسطين في ذهن أبنائها ، وموقفهم من الصهيونية والانتداب البريطاني .

#### الدعوة الى الجامعة الاسلامية :

من المعروف ان هذا التيار السياسي الذي ظهر في بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر كان ردا على الغزو العسكري والثقافي للعالم الاسلامي ، ونتيجة لعجز الدول الاسلامية على ايقاف هذا الغزو أو دفعه . ويتلخص في الدعوة الى وحدة المسلمين في كفاحهم ضد الغزاة ، وقيام نهضة صحيحة تعتمد مبادئ الاسلام والعلم الحديث والتربية المعاصرة والتجديد في مختلف جوانب الحياة . وكان رائد هذه الدعوة الشيخ جمال الدين الافغاني الذي طاف العالم الاسلامي يبشر بها ويستنهض همم الحكام والشعوب وانشأ مع الامام محمد عبده جمعية « العروة الوثقى » وأصدرا مجلة بهذا الاسم في منفاهما في باريس ، كما أصدر الافغاني مجلة « ضياء الخافقين » لمدة في لندن في سبيل الدعوة لافكاره ونقلها الى أكبر عدد من المثقفين المسلمين .

وجدت هذه الدعوة هوى في نفوس الناس في الاقطار الاسلامية فأيدوها وتحمسوا لها وعلقوا عليها الامال . ولما كانت الدولة العثمانية أكبر الدول الاسلامية آنذاك وأكثرها عرضة لاطماع الدول الغربية ومؤامراتها فقد اتجهت اليها الانظار لمواجهة الغرب والتصدي له . فاختلطت هذه الدعوة بالدعوة الى تأييد الدولة العثمانية والولاء لها . وانقسم المفكرون من هذه الدعوة الى فريقين : فريق مؤيد لتيار الجامعة

الاسلامية الاصلاحية وفريق مؤيد للدولة العثمانية تأييدا أعمى . ويمثل الفريق الاول من مفكري فلسطين روجي الخالدي وأسعد الشقيري وعبد القادر المظفر ، ويمثل الفريق الثاني رجال الدين التقليديون الذين لم ينم لديهم وعي سياسي سليم .

فروجي الخالدي كان واعيا لهذين التيارين ولابعادهما فهو يرى أن لسياسة الجامعة الاسلامية معنيين : المعنى القديم الاستبدادي « الذي لا يوافق حقيقة الاسلام ولا روح العصر والمدنية الحاضرة » ومعنى حديث يوافق أصل الاسلام والمدنية « غير انه يخالف مسلك المستبدين بالامر ويحول بينهم وبين مآربهم » (١٥) .

وظهر لنشاط هذا الفريق في أعقاب اعلان الدستور العثماني عام ١٩٠٨ وانخراط في صفوف جمعية الاتحاد والترقي (١٦) وانضم بعضهم الى جمعية الاخاء العربي العثماني التي تشكلت من النواب والاعيان العرب في الاستانة عام ١٩٠٨ (١٧) وبقي الشيخان أسعد الشقيري وعبد القادر المظفر صديقين لقادة جمعية الاتحاد والترقي حتى نهاية الحرب العالمية الاولى . وكان أولهما صديقا وفيما لاحد جمال باشا قائد الجيش الرابع . وفي عام ١٩١٧ قاد وفدا من أعيان فلسطين وتوجه الى دار الخلافة ، وقابل الصدر الاعظم وألقى كلمة أمامه جاء فيها :

« فاذا سمعتم رجال الوفد السوري يمدحون أحمد جمال باشا ويطرون أعماله ، ويشنون على أخلاقه وعاداته ويقدمون مبادئه . . . فليس ذلك الا لانهم وجدوا فيه الرجل الفعال الذي يطلبونه منذ الزمن الاطول ، فلا يجدون اليه سبيلا ، حتى صاروا يعدونه من الاشخاص الخيالية التي يصورها الوهم وينفيها الحس والعقل . لذلك هم يقدمونه من أعماق قلوبهم ويقدمون كل من كان على شاكلته من رجال العمل المخلصين » (١٨) .  
أما الفريق الثاني فيمثلهم الشيخ سليم أبو اقبال اليعقوبي صاحب ديوان « حسنات اليراع » المليء بالثناء والمدح للسلطان عبد الحميد الثاني فمن شعره في مدح السلطان عبد الحميد :

عصر عبد الحميد ملك ملوك الارض وافى بصيب الرحمات  
عصر علم به تجلى يراع خط للناس هذه الحسنات

ويقول مهنتا السلطان من مكيدة الاعداء :

نجوت فخابت بالنجاة جناة بغين وهل بالبغي ساد بغاة  
نجانك للآداب والدين والتقى وللناس في أي الجهات حياة  
وما أنت للاسلام الا خليفة يحفك نصر في الوغى ونقاة (١٩)

لقد أضفى هذا الفريق على السلطان العثماني مسحة دينية مقدسة ، فهو في نظرهم شخصية دينية جليلة ، لا يجوز أن تطالها يد النقد والتجريح . وهو رمز لوحدة المسلمين وعزتهم وفخرهم ، وحمي الشريعة الاسلامية والقيم على تنفيذها . وقد استفل السلطان عبد الحميد دعوة الجامعة الاسلامية استفلالا جيدا لصالحه . وأحاط نفسه بمجموعة من رجال الدين التقليديين وشيوخ الطرق الصوفية العرب ، فكانوا له خير دعاة وأفضل المدافعين عن استبداده وتسلمه .

### الدعوة الى القومية العربية :

ولد الوعي القومي عند العرب أثناء نهضتهم الفكرية العامة وكان ثمرة من ثمارها الاولى . غير أن الفترة التي شهدت ولادة هذا الوعي شهدت أيضا ولادة يقظة قومية مماثلة عند الاتراك شركاء العرب في الدولة العثمانية . ونما الوعي القومي لدى الامتين بصورة متوازية . واتخذ في بداياته شكل الحركة الاصلاحية التي دعت الى تحديث الدولة وتعزيز قدراتها لكي تتمكن من الحفاظ على كيانها ودفع الاطماع الرامية الى اغتصاب ممتلكاتها في أوروبا وآسيا وافريقيا . ولم تجد العرب حرجا في الانضمام الى الجمعيات الاصلاحية السرية بما فيها جمعية الاتحاد والترقي بعد قيامها عام ١٨٩٤ . وساهم الضباط العرب من أعضاء هذه الجمعية في القضاء على الردة الرجعية التي قام بها السلطان عبد الحميد الثاني عام ١٩٠٩ .

صحيح ان بعض الجمعيات السياسية السرية العربية قد تشكلت قبل قيام جمعية الاتحاد والترقي ، وكانت تنادي بنهوض العرب واستعادة أمجادهم ومقاومة الظلم والاستبداد في عهد عبد الحميد ، كما ان بعضها دعا الى اعادة الخلافة الى أهلها العرب ، غير أن نزعة الانفصال عن الدولة العثمانية لم تظهر الا في فترة متأخرة ، وبعد أن اصطدم التيار القومي التركي المهيم على جمعية الاتحاد والترقي الحاكمة ، بالتيار القومي العربي ، عند محاولة الاتحاديين تنفيذ سياسة التتريك في الدولة متجاهلين مشاعر العرب القومية والوجود العربي في الدولة .

كانت ردة الفعل العربية تمسكا بالعروبة واقبالا على انشاء الجمعيات

والاندية الادبية والسياسة العلنية والسرية في سبيل الدفاع عن كيانهم القومي الذي أصبح مهددا بالزوال . وهكذا تأسس « المنتدى الادبي » في دار الخلافة . وكان من أعضائه الفلسطينيين عارف العارف ورشدي الشوا وعاصم بسيسو ومصطفى الحسيني وغيرهم (٢٠) .

وفي عام ١٩١١ تشكلت « جمعية العربية الفتاة » على أيدي الطلبة العرب في باريس . وكان اثنان من أبناء فلسطين هما عوني عبد الهادي ورفيق التميمي من أعضائها المؤسسين . أما هدف الجمعية فهو النهوض بالامة العربية الى مصاف الامم الحية في نطاق الدولة العثمانية ولم تدع الجمعية الى الانفصال عن الاتراك الا بعد قيام الحرب العالمية الاولى ، وبعد أن قلب الاتراك للعرب ظهر المجن وساقوا طليعتهم المفكرة الى أعواد المشانق في دمشق وبيروت . فأصبحت تسعى الى تحرير البلاد العربية الاسيوية من النير التركي واستقلالها التام . وانتقل مركز الجمعية الى بيروت ثم الى دمشق عام ١٩١٢ . وتعرض أعضاؤها لبطش السلطات التركية أثناء الحرب العالمية . واتصلت عام ١٩١٥ بالامير فيصل بن الحسين فانسب اليها وأصبح صلة الوصل بينها وبين والده قبيل اندلاع الثورة العربية الكبرى (٢١) .

وكان لنواب فلسطين في مجلس المبعوثان دور بارز في تكوين الكتلة العربية النيابية في المجلس المذكور في آذار ١٩١١ . وقد انضمت هذه الكتلة الى النواب الالبان والارمن وبعض الاتراك وانشأوا « حزب الحرية والائتلاف » الذي كان يسعى الى منح الولايات العثمانية الاستقلال الاداري ، وتطبيق مبدأ اللامركزية في ادارة الدولة (٢٢) .

وكانت مساهمة مفكري فلسطين في الدعوة الى يقظة العرب والانعتاق من الاستبداد كبيرة . فاسعاف النشاشيبي يشكو ضعف العرب وتخاذلهم ويتمنى أن يراهم سادة أعزاء :

العرب مات شعورهم	فاندبه دهرك باكيا
والى فولى بعده	أنسيء وساء مآليا
قد كنت أطمع أن أرى	وطني بهيجا زاهيا
فوجدته من كل علم	أو علاء خاليا
فسعادتي يا ابن الكرام	وبغيتي ومراميا
أن تصبح العرب الأذلة	سادة ومواليا (٢٢)

وخطب سليمان التاجي الفاروقي النواب العرب في مجلس المبعوثان  
بقصيدة تغنى فيها بأمجاد العرب ومآثرهم وقارنه بأمجاد الاتراك

يقولون ان العرب مات رجالها  
أبغيا علينا وافتئانا وأثيرة  
ألا قل لهم لو أنصفوا أين مجدهم  
ومن ذا الذي قاد المناقب وارتمى  
ألا ليت شعري هل أرى العرب أمة  
ان صاح في وادي الكنانة صائح  
وان أن في الصقع اليماني مثقل

يقولون ان الجؤ أصبح خاليا  
ويرجون منا بعد هذا تفاضيا  
وذلك البناء الضخم من كان بانيا  
الى ما وراء الصين في الشرق هاديا  
يساند بعض بعضها لاتجافيا  
يبيت له الربيع الشامي داويا  
أهاب له الفطر الحجازي باكيا (٢٤)

وأعلنت الحرب العالمية الاولى ، واختلف مفكرو فلسطين في موقفهم  
منها . فمنهم من دعا الدولة العثمانية الى التحالف مع ألمانيا - ومنهم  
من فضل التحالف مع بريطانيا . وكان لكل فريق حجته . غير أن الدولة  
العثمانية لم تأخذ برأي سواء أكانوا في موقع المسؤولية مثل الشريف  
حسين بن علي أمير مكة ، أو كانوا من قادة الرأي العام مثل الادباء  
والصحفيين من المفكرين . ولما فشل الجيش العثماني الرابع وقائده  
أحمد جمال باشا في حملته على مصر اتجه الى العرب يحملهم مسؤولية  
الفشل والهزيمة . وقدم العشرات من طليعتهم المفكرة الى المجلس العربي  
في عاليه . وكان نصيب فلسطين من حقد جمال باشا وبطشه لا يقل عن  
نصيب غيره من الاقطار العربية . فقد أصدر المجلس المذكور آنفا الحكم بالاعدام  
على السادة : سعيد الكرمي من طولكرم وحسن حماد من نابلس ، وأحمد  
العارف من غزة ، وعلي عمر النشاشيبي من القدس ، وسليم عبدالهادي من  
جنين ، ومحمد حافظ السعيد ، من غزة . والقي القبض على خمسة منهم  
سعيد الكرمي ومحمد حافظ السعيد وسليم عبد الهادي وعلي  
النشاشيبي وأحمد العارف . ونفذ حكم الاعدام بثلاثة منهم وهم سليم  
عبد الهادي وعلي النشاشيبي وأحمد العارف . وأبدل حكم الاعدام  
بحق حافظ السعيد وسعيد الكرمي بالسجن المؤبد لتقدمهما في السن .  
ونفي العشرات من أعيان فلسطين الى الاناضول وغيره من المناطق النائية  
أثناء الحرب (٢٥) .

ولما أعلنت ثورة العرب من مكة في العاشر من حزيران عام ١٩١٦  
لم يتوان أبناء فلسطين عن اللحاق بها . وسارع المثقفون منهم الى وضع  
أنفسهم تحت تصرف الامير فيصل بن الحسين عند قيام الحكم العربي  
في دمشق بين عامي ١٩١٨ و ١٩٢٠ .

وقبل قدوم لجنة كنج - كرين King - Crane الى فلسطين التقى  
أعيان البلاد في القدس . واتفقوا على تقديم التوصيات التالية للجنة  
المذكورة :

١ - استقلال سوريا الممتدة من جبال طوروس شمالا الى ترعة  
السويس جنوبا استقلالا تاما ضمن الوحدة العربية .

٢ - استقلال فلسطين التي تشكل جزءا لا يتجزأ من سورية ،  
استقلالا داخليا بحيث تختار حكامها من الوطنيين بنفسها حسب رغائب  
أهلها وحاجات البلاد .

٣ - رفض الهجرة الصهيونية والاحتجاج على أماني الصهيونيين في  
فلسطين مع القبول باليهود الاصليين المقيمين في البلاد قبل الحرب باعتبارهم  
وطنيين لهم مالل عرب وعليهم ماعليهم (٢٦) ولما وصلت اللجنة الى القدس  
يوم ١٢ حزيران ١٩١٩ ارتفعت في شوارع المدينة المقدسة اللافتات التي  
تحمل الشعارات التالية :

« سورية لا تتجزأ » ، « نطلب استقلالا تاما » ، « نحتج على الصهيونية  
ونرفض مهاجرة اليهود الى بلادنا » ، وليعيش أميرنا فيصل » ،  
« سورية تمتد من جبال طوروس شمالا الى ترعة السويس جنوبا » (٢٧) .

وشاركت فلسطين في المؤتمر السوري العام الذي عقد في دمشق  
في تموز ١٩١٩ والذي كانت من مقرراته المطالبة باستقلال البلاد  
السورية ووحدها ورفض وعد بلفور رفضا قاطعا . وقبيل انعقاد  
المؤتمر السوري العام الثاني التقى ممثلو فلسطين في المؤتمر مع ممثلين  
عن اللجنة العليا للدفاع الوطني وحزب الاستقلال العربي وحزب الاتحاد  
السوري وجمعية العهد السورية وجمعية العهد العراقية وجمعية النهضة  
الادبية والنادي العربي وعدد من أعضاء المؤتمر السوري وبعض شيوخ  
العشائر وعلماء الدين ، في النادي العربي بدمشق في ٢٧ شباط ١٩٢٠ ،  
واتخذ المجتمعون قرارات ثلاث أولها : اعتبار فلسطين جزءا لا يتجزأ من  
سورية ، وثانيها المطالبة بدفع الخطر الصهيوني عن البلاد السورية ،  
وثالثها رفض كل حكومة تتشكل في فلسطين قبل أن تعترف حكومة  
الاحتلال البريطاني . بمطالب الشعب العربي في فلسطين (٢٨) .

وبقيت ذكرى الثورة العربية عزيزة على نفس كل عربي في فلسطين  
فكان يحتفل كل عام بيوم اعلانها باعتباره عيدا قوميا . ولما انهار الحكم  
العربي في دمشق في تموز ١٩٢٠ تسرب اليأس الى النفوس وحدثت ردة

فعل اقليمية رهجت لها حكومة الانتداب . ومثل هذه الردة تحدث دوما كلما فشلت تجربة وحدوية . فوقف عبد الله البستاني بمناسبة الاحتفال بعيد المولد النبوي عام ١٩٢١ في حيفا يقول :

أبكل عام حفلة للمولد  
أيامنا تترى نمر ومن لنا  
ما حال لون الصبح عن عهد به  
والامس يوم تقرب لتوحد  
شتى المذاهب والدروب كثيرة  
ياضيعة الاقوام بين تمقدس  
تقضي مراسمها وتنسى في الغد  
منها بيوم مثل يوم محمد  
لكننا في حالة لم تعهد  
واليوم يوم تفرق لتبدد  
درب الكنيسة غير درب المسجد  
وتمدن وتدمشق وتبغدد (٢٩)

### صورة فلسطين في ذهن مفكريها :

أطلق الرومان على فلسطين والاردن بحدودهما الحالية اسم فلسطين وقسموها الى مقاطعات ثلاث هي فلسطين الاولى Palestina Prima وفلسطين الثانية Palestina Secunda وفلسطين الثالثة Palestina Tertia ومنذ قيام البطريركية الارثوذكسية في القدس في العهد البيزنطي امتد نفوذها على هذه المناطق الثلاث . واستمرت كذلك حتى الفتح العربي الاسلامي في القرن السابع الميلادي . فقد قسم العرب جنوبي بلاد الشام الى جندين هما : جند فلسطين ويشمل المنطقة الجنوبية من فلسطين والاردن وعاصمته اللد ثم الرحلة فيما بعد وجند الاردن ويشمل المنطقة الشمالية من فلسطين والاردن وقسما من الجولان وعاصمته طبرية . واستمرت البطريركية الارثوذكسية تمارس سلطتها الدينية على فلسطين والاردن حتى اليوم . ولهذا كانت صورة فلسطين « كمنطقة جغرافية محددة المعالم » واضحة في ذهن المسيحيين الارثوذكس من أبنائها . وكان للنزاع الذي نشب بينهم وبين الاكليروس اليوناني أثره القوي في وضوح صورة فلسطين في أذهانهم .

فلا عجب اذ قام اثنان من أبناء الطائفة الارثوذكسية وهما عيسى داود العيسى (٢٠) ويوسف العيسى (٢١) باصدار صحيفة باسم « فلسطين » عام ١٩١١ ، وأن يعطي خليل السكاكيني لهذه الصورة معالمها الواضحة في كتابه « النهضة الارثوذكسية في فلسطين الصادر عام ١٩١٣ » (٢٢) .

أما مستقبل فلسطين فلم يطرح على بساط البحث من قبل أبنائها الا بعد الاحتلال البريطاني في كانون الاول ١٩١٧ . اذ حكمت فلسطين

حكما عسكريا مباشرا باسم « بلاد العدو المحتلة . المنطقة الجنوبية »  
ووضعت تحت ادارة الميجور جنرال سير أ. موني A. Money الذي كان  
مرتبطا بالرئيس الاعلى للادارة العسكرية في بلاد الشام الجنرال ادموند  
النبسي Edmund AllenbeY (٢٣) وارتفعت أصوات فيها تقول : هل تستقل  
فلسطين عن بقية الاقطار السورية أم تنضم اليها ؟

وبعد مناقشات طويلة ساد الرأي القائل : « ان فلسطين وسورية  
اختان اشتركتا في مصائب كثيرة قبل اليوم ، وفي التطلع الى الحرية  
والاستقلال معها فيجب أن تشتركا الان في مصيرهما ، ولايجوز بوجه  
من الوجوه بتر احدهما عن الاخرى مهما كان ذلك المصير (٢٤) . ولكن  
شكل الاتحاد الذي اراده اعيان فلسطين بين بلادهم وسورية كان أقرب الى  
الاتحاد الفيدرالي . ففي الاجتماع الذي عقد في منزل اسماعيل الحسيني  
في القدس في ١٢ نيسان ١٩١٩ أي قبل قدوم لجنة كنج كرين الامريكية  
بشهرين ، والذي حضره راغب النشاشيبي ويعقوب فراج والمفتي كامل  
الحسيني وسعيد الحسيني وموسى كاظم الحسيني وعارف الدجاني  
وعلي جار الله وراغب الدجاني واسعاف النشاشيبي والحاج أمين الحسيني  
وعزة دروزة وحافظ كنعان تقرر أن تكون فلسطين جزءا لايتجزأ من  
سورية المستقلة ، وأن تكون مستقلة استقلالاً داخليا بحيث تختار حكامها  
من أبنائها وحسب رغائب أهلها وحاجات البلاد (٢٥) .

واتجهت أنظار عرب فلسطين الى الحسين بن علي لانقاذها من  
المؤامرة الصهيونية البريطانية . وكتب يوسف العيسى في مجلة  
« النفائس العصرية » في مطلع عام ١٩٢٠ يقول :

أيها الملك :

إذا كنت تجفوني ، وأنت دخيرتي ، وموضوع حاجاتي ، فما أنا  
صانع ؟ نعم ماهي صانعة فلسطين . . . وقد تمكن عدوها في وسطها ،  
واشتركت أمم الارض في ادار حكمها عليها ، وأخذت اليهود على اخراج  
أهلها منها ، وكتبت المعاهدات ، على فصلها عن الوحدة السورية وتسليمها  
الى أمة صهيونية . . . فلسطين عربية بمسلميها . . . عربية بمسيحييها  
. . . عربية بيهودها الوطنيين أيضا . فعلام يبيع حماها الاجنبي  
الصهيوني ، وتسيل عليها أنهار المهاجرة الصهيونية من الغرب ؟ ويأخذ  
أبنائها أهبتهم لترك الوطن والرحيل ؟ ان زوابع الطبيعة ربما تهدأ ،



ولكن زوابع فلسطين لاتهدأ اذا فصلت عن سورية وجعلت وطننا قوميا للصهيونية .» (٢٦) .

ولما انهار الحكم العربي في دمشق، اضطرت النفوس وأحست بخيبة الامل ، ولكن الانظار بقيت متجهة الى الاقطار العربية المجاورة لتعلل النفوس بالعون والمساعدة للتخلص من الانتداب البريطاني والمؤامرة الصهيونية ، وسعى المفكرون الفلسطينيون الى ايقاظ الرأي العام العربي وتنويره بما كان يجري في بلادهم . ونشر خليل السكاكيني مجموعة من المقالات في جريدة « السياسة » المصرية بهذا الهدف فهو يقول :

هذا وليس لي من غرض فيما أكتبه عن فلسطين في جريدة السياسة الغراء الا ابلاغ ظلامات فلسطين واحدة واحدة الى الرأي العام العربي عامة ، والرأي المصري خاصة . الى من تجمع بيننا وبينهم الانساب ومواسك اللغة والادب والتاريخ منذ عرفوا وعرفنا هذا الوجود . الى من شاركناهم وشاركونا في آمال هذه الحياة والامها . الى من هم حقيقون بالعطف علينا والقيام بنصرنا . وان كان كل فريق منهم من همه في شغل شاغل بفضل سياسة هذا الزمان . وحسبي من التوفيق أن أكون مفهوما .» (٢٧) .

ويطمع خليل السكاكيني في أن يهتم كتاب مصر بقضية فلسطين ويعطوها بعض وقتهم وكتاباتهم ، مذكرا اياهم بروابط العروبة والجوار التي تربط القطرين :

« واني لاطمع في كرم كتاب مصر الاعلام ووطنيتهم الصادقة أن يجعلوا لفلسطين نصيبا فيما يكتبون ولو قليلا . فأنا نعيد فضلهم وشممهم وما بيننا من حقوق النسب والجوار أن يروا خصمنا يستكثر من الانصار ويهيبه أسبابه لمحاربتنا والقضاء علينا في عقر دارنا ، فلا يقوم بنصرنا منهم معشر خشن » (٢٨) .

وهذا ابراهيم الدباغ يحث العرب على التدخل ودعم شعب فلسطين ويحذرهم من وخيم العاقبة فيقول :

يصول فيها العدا في جحفل لجب	ولا يصد بغير الجحفل اللجب
أين الفتى العربي المستعان به	يوم الكريهة هل ضاع الفتى العربي
اني أرى حولها برقاً وجلجلة	وقد خالذ رعدهما من هائل السحب
اني أرى الفلك الدوار ينذرهم	بعاجل من خراب الدار مقترب
قومي وأهلي ومالاقوا ونجدتهم	تقيهمني وعناد الدهر يقعدني (٢٩)

وإذا كان السكاكيني والدباغ قد حاولا استدرار العطف والتأييد  
العربيين وتعبئة الجماهير العربية ، فقد ذهب غيرهما الى الدعوة الى  
العمل الجدي .

ويرى هذا الفريق ان العواطف والمقالات والمظاهرات لن تنقذ فلسطين  
وانما سينقذها المال الذي تبني به المدارس والمعاهد الحديثة وتعبد  
الطرق وتجفف المستنقعات وتفتح المصانع . فهذه مجلة النفائس العصرية  
تنشر مقالة في عام ١٩٢٠ جاء فيها :

« . . . فلسطين ، مهد الاديان ، لا ينقذها عيسى ولا موسى ولا محمد .  
ولا يرد عنها ماتخشاه وتحذره مقالة تجد ، او كتاب ينشر ، او جمعية  
تتألف .. الا الاله الجديد الذي صنع منه بنو اسرائيل الها وعبده في  
برية سيناء !

أجل ان المال هو الركن الاول الذي عليه المعول في دفع الخطر الذي  
به الصهيونيون . . . فهم لم يزحفوا علينا بالاساطيل والجيوش  
ولكنهم زاحفون بالملايين الجرارة من الدولارات ، يتعاون بها المنازل  
والحقول والفياض والرياض وينفقونها في بناء المعاهد والمدارس وانشاء  
الطرق وتجفيف المستنقعات واستثمار الاراضي ونشر الصناعة والتجارة  
والقيام بالمشاريع الكبيرة التي تعود بالنفع الجزيل على القائمين بها . . » (٤٠)

### الموقف من الصهيونية :

أدرك عرب فلسطين خطورة الهجرة اليهودية الى بلادهم منذ أن  
اتخذت شكلا منظما في الربع الأخير من القرن التاسع عشر . وبدأ أول  
صدام بين الفلاحين العرب وسكان المستعمرات الصهيونية في مطلع  
الثمانينات . غير أننا لم نجد ما يشير الى موقف المفكرين العرب في  
فلسطين من الحركة الصهيونية قبل الانقلاب العثماني عام ١٩٠٨ وانشاء  
الصحف العربية في فلسطين . ولعل أول من أشار الى اطماع الصهيونية  
في فلسطين الرهبان الكاثوليك الذين كانوا يتابعون باهتمام وقلق النشاط  
الصهيوني . فقد نشر الاب هنري لامنس اليسوعي مقالة في مجلة المشرق  
عام ١٨٩٩ بعنوان : « اليهود في فلسطين ومستعمراتهم » تحدث فيها عما  
ذكرته صحف الآستانة عن انتشار اليهود في فلسطين ، وحثها السلطات  
العثمانية على مواجهة النشاط الصهيوني . واستعرض الكاتب بعد ذلك  
المستعمرات اليهودية وتاريخ نشأتها والجمعيات والافراد الذين يدعمونها  
ماليا . وحذر في ختام مقالته من الاطماع اليهودية في شرقي الاردن وقال :

« هذا ولم يزل اليهود يطمحون ببصرهم نحو نهر الاردن . ولما اجتزنا منذ ثلاث سنين في تلك الاقطار ، اخبرنا مختار مكيس ( أم قيس ) ان للبارون دي روتشيلد عمالا في تلك النواحي يطوفونها في كل جهاتها ليملكوا لسيدهم اراض يجعل فيها اليهود ليفلحوا ويستغلوا غلاتها » (٤١) . وكانت اولى الصحف العربية في فلسطين التي نبهت الى الخطر الصهيوني صحيفة « الكرمل » منذ صدورها عام ١٩٠٨ ، وتلتها جريدة « فلسطين » ودعت « الكرمل » الى انشاء « جمعية وطنية فلسطينية » تضم اعضاء نابلس والقدس ويافا وحيفا وغزة لشراء اراضي الدولة ( الاراضي المدورة ) قبل ان يستولي عليها الصهاينة (٤٢) .

ومنذ أصبحت هذه القضية شغل الصحافة الوطنية الشاغل قبيل اندلاع الحرب العالمية الاولى . وعبر اسعاف الناشيبي عن قلق عرب فلسطين ازاء الخطر الصهيوني بقصيدة نشرت في مجلة « النفائس العصرية » في تشرين الاول عام ١٩١٠ نكتطف منها مايلي :

يا فتاة الحي جودي بالدماء	بدل الدمع اذا رمت البكاء
فلقد ولت فلسطين ولم	يبقى يا أخت الحي غير دماء
نكبت أقدامها سبل الهدى	فشرتها للعدى شرشراء
سوف تشكين وتبكين دما	ليوم لايجدي ولايفني البكاء
ان الاستعمار قد جاز المدى	دون ان يعدوه عن سير عداء
انها أوطانكم فاستيقظوا	لاتبيعوها لقوم دخلاء
فاعلموا يا قوم ان لم تعلموا	ان عقباكم هلاك وفناء
اذكروا ان عزكم مالهم	عزة الانفس دوما والاباء (٤٣)

وكان للصحافة الوطنية دور مهم في حث السلطات العثمانية على وضع العراقيل في طريق الهجرة اليهودية ، وفي اتخاذ بعض التدابير الادارية في هذا الاتجاه حتى ان الحركة الصهيونية اضطرت الى اصدار صحيفة باللغة العربية هي : « صوت العثمانية » التي أصدرها الدكتور شمعون مويال في يافا في مطلع عام ١٩١٤ من أجل الرد على الصحف العربية الوطنية وتهدة خواطر العرب (٤٤) وبعد صدور وعد بلفور واحتلال الانجليز للبلاد ازداد الوعي للخطر الصهيوني واشتدت المقاومة الوطنية . وشعر وديع البستاني بالاهانة حينما بلغه أن مفتي القدس الشيخ كامل الحسيني ومطران البروتستانت قد شاركا في وضع حجر الاساس للجامعة العبرية في المدينة المقدسة . فسأل المفتي عن أسباب ذلك ، وجاء الجواب من شقيقه الحاج أمين الحسيني . فنظم الشاعر البستاني السؤال والجواب شعرا في قصيدته « الفتوى » .

## السؤال :

الاسود بالركم الاغر  
فوق رأس الطور تلهو بالعبر  
ونهى الحاخام فيها وأمر  
ان للمطران والمفتي حجر

أفتني بالله بالكعبة بالحجر  
ان علت في عزها شامخة  
وغدت جامعة عبرية  
أيقول الشيخ والقس اتند

## الجواب :

تعجلن باللوم ان أمر بدر  
في هراء القول عشق مستمر  
أرني الفعل والا فازدجر  
ان يكن خيرا أتى أو يك شر  
معولا وابن مصي مجد عمر  
بظبا العلم وماتحوي البدر(٤٥)

ياأخا العرب اتند حكما ولا  
اننا نحن بني الشرق لنا  
ليس في الاقوال خير يرتجى  
انما الاعمال مسبار الفتى  
فدع القول أخا العرب وخذ  
أو فحارب جيش جهل هائل

وحذر خليل السكاكيني الامة العربية من خطر الصهيونية ودعاها الى الاتحاد من أجل دفعه . فقد كانت الدعوة الى الوحدة العربية الرد الطبيعي على التآمر الدولي على فلسطين ، يقول السكاكيني في مقالة نشرها قبيل مجيء لجنة كينج - كرين .

« أكبر خطر على الامة العربية أولا الصهيونية . واذالم نتحد في مقاومة الصهيونية ذهبت فلسطين من أيدينا ، وعرضنا غيرنا للخطر . واذا خسرت أمة بلادها خسرت كل شيء . واذا أردنا أن يكون لنا مستقبل مجيد فيجب أن نحتفظ ببلادنا ، بكل قطعة منها . ومادام لنا بلاد فمستقبلنا مضمون . الخطر الثاني في التجزئة : مهما بلغنا من الانحطاط ، ومهما اختلفنا في الاخلاق والاذواق والعادات فان تلافي ذلك ميسور اذا اتحدنا . ولكن اذا تجزأت بلادنا وأصبحت كل قطعة منها في يد دولة فاننا لانلبث أن نصبح أمما مختلفة لانزيدنا الايام الا اختلافا . لانستطيع أن يكون لنا وجود قوي الا اذا بقيت بلادنا لنا من أقصاها الى أقصاها وجمعتنا الوحدة العربية . لا يحترم أحد جانبنا الا اذا ألفنا وحدة كبيرة . بلادنا واسعة ، حسنة الموقع ، كثيرة الشطوط ، وافرة الخيرات ، عظيمة الاهمية وعددنا كثير ، وفيها قابلية ان نتعلم ونترقى . اذا بثنا التعليم وبثنا روحا عالية في النفوس كنا أمة عظيمة حرة أن يخطب ودها أو يخشى جانبها(٤٦) » .

ويعتبر السكاكيني الخطر الصهيوني خطرا على حضارتنا وثقافتنا وراثنا وتهديدا لحريتنا ووجدتنا وأمننا ، وهذا يدل على فهم عميق للحركة الصهيونية ومبادئها ووعي كامل لمخططاتها . كتب في جريدة « السياسة » القاهرية في ١٣ حزيران ١٩٢٣ يقول :

« فهو الخطر الذي يهدد شرقيتنا وتقاليدينا واخلقنا وآدابنا وسائر خصائصنا ومقومات حياتنا هذا الخطر الذي يهدد حريتنا بالاستعباد واستقلالنا بالضياع ، ووجدتنا بالتجزئة ، واجتماعنا بالتفرقة ، وكثرتنا بالقلّة ، واستغناءنا بما لدينا على قتلته بالفاقة ، وراحتنا بالتعب وأمننا بالخوف ، وكرامتنا بالامتهان ، ولغتنا بالرطانة ، ووجودنا بالانقراض » (٤٧) .

ولايفوتني أن أذكر هنا موقف بطريركية اللاتين في القدس من الصهيونية . وكانت مجلة المشرق الكاثوليكية الصادرة في بيروت تعبر عن موقف هذه البطريركية في فلسطين فقد كتب الاب لويس شيخو اليسوعي مقالة بعنوان « الصهيونية ماضيها وحاضرها ومستقبلها » عام ١٩٢٠ ندد بالسياسة البريطانية الموالية للصهيونية . وجاء فيها : « كفى برهاننا على ذلك اقامة السير هربرت صموئيل مندوبا أعلى على فلسطين . وهو اسرائيلي يدعو اليهود علانية بأمر اسرائيل . وهو أول حاكم يهودي على فلسطين منذ بركوكب ، زعيم ثورة اليهود في القرن الثاني للمسيح . ويؤكد الاب شيخو عزم الصهاينة على اقامة دولة يهودية في فلسطين فيقول : « لانكير ان الصهيونيين يحاولون انشاء موطن لليهود في فلسطين ، وليس موطنا فقط بل دولة قائمة بذاتها مستقلة بتدبير نفسها » ويفند بعد ذلك مزاعم الصهيونية في الحق التاريخي لليهود في فلسطين بالاعتماد على الحجج التاريخية (٤٨) .

وتناول الدكتور فرنس كسافييه المقيم في فلسطين في مقالته « الصهيونية وغاياتها » التي نشرت في المشرق في عدد شباط عام ١٩٢٥ غايات الحركة الصهيونية ونشاطاتها ، وكشف عن نواياها من خلال تصريحات زعمائها . ويختتم مقاله بالتحذير من خطر الصهيونية :

« فخلاصة الكلام ان الصهيونية خطر مستديم . وليس من وسيلة لاختماد الحركة العربية ما دام الصهيونيون يسعون الى انشاء وطن قومي في فلسطين . وهذا مما يلوح كل سنة في التظاهرات والاحتجاجات التي يقيمها الاهلون برصانة وثبات في ثاني يوم من شهر تشرين الثاني الذي فيه أعلن بلفور قراره المشؤوم . ولا أمل لليهود أن يعيشوا يوما بامان تام

في موطنهم هذا . . . . . وانه لضلال مبين سيء العقبى تنشيط الصهيونيين في مساعيهم وتسهيل الهجرة الزائدة لليهود نحو فلسطين» (٤٩) .

### الموقف من الانتداب البريطاني :

دخلت القوات البريطانية بقيادة الجنرال النبي مدينة القدس في كانون الاول من عام ١٩١٧ . وخضعت البلاد منذئذ للادارة العسكرية المباشرة التي استمرت حتى شهر تموز من عام ١٩٢٠ . ووجد عرب فلسطين أنفسهم في واقع جديد اختلف آراؤهم ومواقفهم منه . فبعضهم قال : ان البلاد ستصبح مستعمرة انكليزية ، لان الانكليز هم الفاتحون . وبعضهم الآخر قال : بل ستلتحق بمصر . وفريق ثالث قال : ستصبح فلسطين حرة مستقلة . وأبدى فريق رابع ، ومعظمهم من المسلمين التقليديين أسفهم على زوال الحكم العثماني ، لاعتقادهم ان ما حدث ضربة للاسلام وتعزيز للنصرانية . ورحب فريق خامس ومعظمه من المسيحيين بالانكليز توهماً منه بأن الوجود الانكليزي نصر للمسيحية (٥٠) وتأثر الذين رحبوا بالانكليز بالنشاط الاعلامي للثورة العربية الكبرى ، باعتبار ان الانكليز حلفاء العرب في ثورتهم ، وهم الذين وعدوهم بالحرية والاستقلال الناجز بعد انتهاء الحرب . وقد عبر الشيخ محمد الفلقيلي رئيس تحرير جريدة « الكوكب » عن رأي هذا الفريق الاخير في مقاله التي نشرها بعنوان « نحن وبريطانيا العظمى » في جريدته في ١٦ كانون الثاني ١٩١٧ وجاء فيها :

« يقول العرب في أمثالهم : ان الطيور على اشكالها تقع . ويقولون في آثارهم المأثورة : الارواح جنود مجندة فما اتفق منها اتلف وما تناكر منها اختلف . ويقولون في اشعارهم التي سارت سير الامثال :

### عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدى

فنحن العرب حالفنا ، ونحن ننهض من عثرتنا بريطانيا العظمى لانها على شاكلتنا ونحن على شاكلتها في المبادئ الاجتماعية والاخلاق السياسية والسنن العمرانية . اتفقت روحنا مع روحها فاتفقنا واتفقنا وتحالفنا . امتزجت مصالحتنا بمصلحتها فارتبطنا واتحدنا . . . . . فأني محظور ديني على العرب ان اعتمدوا في نهضتهم على مساعدة دولة عظيمة متمدنة مثل دولة بريطانيا العظمى ؟ وأي بأس عليهم ان حالفوها وحالفتهم على قتال دولة همجية متوحشة اكبر همها القضاء على العرب والعربية ومحو الدين الاسلامي من عالم الوجود ؟ (٥١) » بهذه العبارات البسيطة التي تخلو من المنطق

يبرر الشيخ القليلي تحالف العرب مع بريطانيا . وامتدح الشيخ علي الريموي بريطانيا بقصيدة نشرت في ملحق جريدة « فلسطين » الرسمية التي كان يصدرها الجيش البريطاني في فلسطين بمناسبة مرور السنة الاولى على احتلال القدس . وكان موضوع المقارنة دوما الحرية التي تمتع بها العرب في ظل الاحتلال الجديد والكتب والاضطهاد الذي عاشوه في ظل الحكم التركي . يقول الشيخ الريموي :

وهذا نهار فيه حلت قيودنا  
بريطانيا العظمى وانت شهيرة  
عهدناك للمظلوم اعظم ناصر  
عهدناك للاسلام اكرم دولة

وقد نشط الاقدام وانطلق الفكر  
وعندك طبعاً يجمل الحمد والشكر  
فمن اجل هذا جاءك الفوز والنصر  
عهدناك والعهوان دينك البر (٥٢)

ونشرت « الكوكب » لاسكندر الخوري البتجالي قصيدة طويلة مماثلة يهجو فيها الاتراك ويرحب بالانكليز بعنوان « رويدا ايها المدفع » نقتطف منها هذه الابيات :

بني التايمز قد فزتم وبالانقاز قد جئتم  
بلاد القدس شرفتم فاهلا ايما تيتتم

وسهلا فيكم اجمع (٥٣)

غير ان ردة الفعل في فلسطين على وعد بلفور كانت ضعيفة ، ولذلك اسباب عدة يوردها خليل السكاكيني وهي : ان العرب كانوا من الضعف والاعياء لا يستطيعون معهما ان يهتموا بشيء . وانهم قدروا ان الوعد قد صدر لضرورات حربية اقتضتها اوضاع الحرب العالمية الاولى ، فاذا زالت تلك الضرورات سقط الوعد من تلقاء نفسه ، وانهم كانوا يعرفون بعود بريطانيا للعرب والتي سبقت وعد بلفور ، كما توهموا ان الامة البريطانية اعلى من ان ترضى بمثل هذه الخيانة لقضية العرب ، ولذا فلا بد ان تنكر على حكومتها هذه السياسة الخرقاء . واعتقد العرب بقدرتهم على ابطال وعد بلفور متى تنفسوا الصعداء ووقفوا على اقدامهم بعد انتهاء الحرب . كما ذهب بهم الظن الى ان اليهود اعجز من ان ينالوا فلسطين مادامت الامة العربية حية واعية . كما تصوروا ان الوعد اقرب الى الخيال والحلم منه الى الحقيقة ، وان اليهود متى تابوا الى رشدهم وادركوا المصاعب والمتاعب التي ستواجههم في فلسطين ، وفي غيرها من اقطار الدنيا تراجعوا وتخلو عنه . وقد العرب ايضا ان فلسطين لن تتسع لليهود ، وان الوطن القومي لا يشتري بالمال ولا ينال بالدسائس والدعاية والمؤامرات السياسية (٥٤) .

وما ان شعر العرب بالنشاط اليهودي المنظم في فترة الاحتلال العسكري البريطاني وممالة الانكليز لليهود حتى اسرعوا الى انشاء الجمعيات الاسلامية - المسيحية في كافة مدن فلسطين الكبرى . بهدف مقاومة فكرة الوطن القومي اليهودي . فكانت هذه الجمعيات حجر الاساس للحركة الوطنية الفلسطينية التي اخذت شكلها المنظم بانعقاد المؤتمر العربي الفلسطيني الاول في القدس في نهاية عام ١٩١٩ . وقد اتخذ هذا المؤتمر عدة قرارات اعتبرت بمثابة ميثاق قومي لعرب فلسطين وأهلها : رفض وعد بلفور ومقاومة الهجرة اليهودية ، ورفض الانتداب البريطاني على البلاد ، والمطالبة بوحدة فلسطين مع سورية باعتبارها جزءا طبيعيا منها ، وتسوية فلسطين باسم « سورية الجنوبية » (٥٥) وتقرر في هذا المؤتمر عقد المؤتمر الثاني بعد عام . غير أن سلطات الاحتلال حالت دون عقده فالتأم المؤتمر الثالث في حيفا في ١٣ كانون الاول عام ١٩٢٠ ، بعد سقوط دمشق في أيدي القوات الفرنسية وزوال الحكم العربي في سورية . لذلك اتجه المؤتمر الى فلسطين وانطلقوا من واقعهم الجديد . وحاولوا تقديم مطالب محددة وواضحة الى سلطات الانتداب . فقد انتهى الحكم العسكري وحلت محله الادارة المدنية في تموز ١٩٢٠ ، ووصل الى البلاد اول مندوب سام بريطاني هو هربرت صموئيل Herbert Samuel وأصبح تقسيم بلاد الشام امرا واقعا ، وعلى الحركة الوطنية العربية في كل قطر أن تتعامل مع هذا الواقع الجديد . واحس عرب فلسطين بخطورة وضعهم ، لان فرض الانتداب البريطاني على فلسطين يعني الالتزام بتنفيذ وعد بلفور .

ولهذا اسفر المؤتمر العربي الفلسطيني الثالث عن مطالب محددة من حكومة الانتداب تلخص بتشكيل حكومة وطنية مسؤولة امام مجلس نيابي ينتخب من سكان البلاد المقيمين فيها حتى بداية الحرب العالمية الاولى . وهذا يعني رفض الاعتراف بالمهاجرين اليهود الذين دخلوا البلاد خلال السنوات الست الماضية ، كمواطنين فلسطينيين . كما شجب المؤتمر الادارة المدنية البريطانية لاتخاذها صلاحية سن القوانين والانظمة بدون مجلس تشريعي منتخب ، وقبل صدور قرار عصبة الامم النهائي حول مستقبل البلاد ، ولاعترافها بالحركة الصهيونية كهيئة رسمية ، وتأليفها مجلسا استشاريا معينيا ينوب مناب المجلس التشريعي (٥٦) .

اما المؤتمر العربي الفلسطيني الرابع فقد التأم عام ١٩٢١ وقرر ارسال وفد من اللجنة التنفيذية للمؤتمر برئاسة السيد موسى كاظم



الحسيني وعضوية شبلي الجمل وتوفيق حماد ومعين الماضي و ابراهيم شماس الى لندن لاقتناع الساسة البريطانيين بالتخلي عن وعد بلفور .  
وأقام الوفد عاما كاملا في العاصمة البريطانية عاد بعده بخفي حنين .  
اذ صدر صك الانتداب البريطاني على فلسطين وأقره مجلس عصبة الامم  
في ٢٤ تموز ١٩٢٢ وتضمن تنفيذ ما جاء في وعد بلفور(٥٧) .

وبعد عودة الوفد العربي الفلسطيني من لندن بقليل عقد المؤتمر  
العربي الفلسطيني الرابع في مدينة نابلس في ٢٠ آب ١٩٢٢ . وكان قد  
صدر الكتاب الابيض البريطاني عن وزارة المستعمرات ، والذي تضمن  
دستورا لفلسطين ومجلسا تشريعا يتفق والمخطط الصهيوني البريطاني  
الوارد في صك الانتداب .

ولذلك كانت أولى مقررات المؤتمر رفض الدستور ومقاطعة الانتخابات  
المنوي اجراءؤها لتشكيل المجلس التشريعي ، ورفض الانتداب البريطاني ،  
ومقاطعة اليهود (٥٨) .

لقد برر خليل السكاكيني هذا الموقف الرفض من جانب العرب في  
مقالة نشرتها جريدة السياسة القاهرية في عددها الصادر في ٣٠ كانون  
الاول ١٩٢٣ ، جاء فيها :

« لو قبلت الامة الانتداب لكان معنى ذلك انها جعلت الانتداب غير  
المشروع مشروعاً ، لو قبلت الامة وعد بلفور لكان معنى ذلك أنها قبلت  
برضاها ان تتنازل عن حقوقها السياسية في بلادها . لو قبلت الامة  
الدستور الذي وضعه بنتويش ( Bentwich ) رئيس العدلية ، وهو من  
كبار زعماء الصهيونيين ، ولم يؤخذ رأيها فيه لكان معنى ذلك ان الامة  
أعطت خصمها حق وضع دستورها الذي لا يجوز ان يشاركها في وضعه  
أحد ، لو قبلت الامة المجلس التشريعي ، فالمجلس الاستشاري وأكثر  
اعضائهما من الانكليز واليهود ، وللمندوب السامي فيهما - وهو من  
زعماء الصهيونية - سلطان واسع ، فاذا شاء قبل قراراتهما واذا شاء  
رفض ، لكان معنى ذلك ان الامة قبلت برضاها ان يكون امرها في يد  
غيرها بل في يد خصومها الطامعين في بلادها . لو قبلت الامة ان تكون  
لها وكالة عربية ، كما ان لليهود وكالة يهودية ، لكان معنى ذلك انها قبلت  
برضاها ان تكون على مستوى واحد مع اليهود الغرباء ، فضلا عن ان اسم  
الوكالة العربية يشعر العرب غرباء دخلاء في بلادهم » (٥٩) .

وتبنت مجموعة من السياسيين مقررات المؤتمر العربي الفلسطيني الخامس وانشأت « الحزب الوطني العربي الفلسطيني » عام ١٩٢٣ . فكان أول الاحزاب السياسية في البلاد في عهد الانتداب ، اللهم اذا استثنينا الحزب الشيوعي الفلسطيني الذي نشأ في بدايته على أيدي اليهود . اما أهداف الحزب الوطني العربي الفلسطيني فهي الحفاظ على عروبة فلسطين ، وعدم الاعتراف بوعد بلفور وبال دستور الذي سنته الادارة المدنية البريطانية وبالمجلسين التشريعي والاستشاري وبالوكالة العربية وبأي نفوذ غير وطني في البلاد . وبالمقابل قدم مطالب شعب فلسطين والتي تتلخص في انشاء حكومة وطنية ديمقراطية حرة . و سن دستور مستمد من رغبات الاهلين وروح الشعب ، وتأليف مجلس نيابي ينتخبه الشعب على نحو ما في البلاد المتقدمة (٦٠) والحقيقة ان هذه المطالب بقيت المحور الاساسي الذي دارت حوله افكار وبرامج الحركة الوطنية الفلسطينية طوال عهد الانتداب .

و خلاصة القول ان التيارات السياسية العامة في فلسطين لم تختلف عن تلك التي سادت المنظمة العربية في هذه الفترة . فقد نشأ الوعي السياسي بين المثقفين من أبناء الاقطاعيين والتجار ورجال الدين والموظفين ، الحريصين على مركزهم الاجتماعي والراغبين في مشاركة الاتراك في السلطة . ولذلك لاجب اذا رأينا ضعف المضمون الاجتماعي لهذه التيارات السياسية . كانت الطبقة المثقفة العربية في الدولة العثمانية . وقد تشبعت بالروح الليبرالية ، تقاوم بشدة الحكم الفردي المطلق الذي يمارسه السلطان عبد الحميد . فاذا ما انهار حكم عبد الحميد ، وجاء الدستور ، أملت في ان يكون لها نصيب في الديمقراطية الجديدة . غير ان الاتحاديين أغلقوا في وجهها الابواب ، وحالوا دون مشاركتها في الادارة والحكم ، ايمانا منهم بان سياسة التتريك هي الوسيلة الوحيدة للحفاظ على كيان الدولة العثمانية ، وتحويلها الى دولة قومية على غرار الدول الاوروبية الحديثة . وكان الصدام حتميا بين هذين التيارين : التيار القومي التركي والتيار القومي العربي . ولا ندهش اذا رأينا المثقفين العرب يحاولون ، من خلال نضالهم القومي ، التأكيد على ضرورة حصولهم على نصيب في الادارة والحكم يتناسب وعدد السكان العرب في الدولة العثمانية . ومقررات المؤتمر العربي الاول الذي عقد في باريس في حزيران ١٩١٣ ، واتفاقية طلعت - الخليل التي تلتها شاهد على ذلك .

وحاول المثقفون العرب نشر الوعي السياسي بين الجماهير العربية .  
فاقبلوا على الصحف التي اصبحت منابر يعلنون فيها مطالب العرب  
وظلاماتهم ، ووسيلة فعالة في اليقظة السياسية . واستفادوا من التدمير  
الشعبي العام الناشئ من الظلم والاستبداد وشيوع الرشوة والمحسوبية  
وهيأوا المناخ المناسب لاندلاع الثورة العربية .

ولم يختلف وضع المثقفين العرب في عهد الانتداب عما كان عليه في  
العهد العثماني . وفي فلسطين واجهوا مشكلتين معقدتين : الانتداب  
البريطاني والحركة الصهيونية . وكان عليهم ان يحاربوا على هاتين  
الجهتين باعتبارهما جبهة واحدة . فرفضوا الانتداب البريطاني كما  
رفضوا الاستيطان اليهودي ، وردوا على ذلك بالمطالبة بوحدة فلسطين مع  
بقية الاقطار السورية .

## الحواشي

- (١) F. O. 78/1032 ( Despatch from Finn to Clarendon dated 3 August 1854 ).
- (٢) F. O. 78/1384 ( Despatch from Finn to Malmesbury dated 13 Sept. 1858 ).
- (٣) معلوف ، لويس : تاريخ حوادث الشام ولبنان : المشرق ، السنة ١٥ ، العدد ٧ ( تموز ١٩١٢ ) ص ٥٨٢ .
- (٤) حقق الشيخ يوسف ضيا الجزء الاول من ديوان لبيد بن ربيعة احد شعراء المعلقات وطبع هذا الجزء في فينا عام ١٨٨٠ والفا قاموسا للغة الكردية ، روجي الخالدي : تاريخ علم الادب عند الافرنج والعرب ، وفيكتور هوكو ، الطبعة الثانية ، مطبعة الهلال ، القاهرة ١٩٠٤ ، ص ٤٥ ، ١٤٧ .
- (٥) ولد روجي الخالدي عام ١٨٦٤ في القدس ، وتلقى تعليمه الابتدائي فيها ثم انتقل مع والده الذي كان موظفا في الادارة العثمانية فدخل المدرسة الرشدية في نابلس والمدرسة الوطنية في طرابلس الشام ، والمدرسة السلطانية في بيروت ، وعين رئيسا لكتاب محكمة غزة ، والتحق بالمكتب الملكي في الاستانة وقضى فيه ست سنوات فنال شهادته عام ١٨٨٣ ، وعاد الى القدس فاشتغل معلما في مدرستها الرشدية ، وسافر بعد ذلك الى باريس والتحق بمعهد العلوم السياسية وحصل على شهادته ، ودخل بعد ذلك في كلية الاداب في السوربون حيث درس العلوم الاسلامية والشرقية وعين مدرسا في جمعية نشر اللغات الشرقية .
- وشارك في مؤتمر المستشرقين الذي عقد في باريس عام ١٨٩٧ ، وعاد الى الاستانة فعين قنصلا عاما للدولة العثمانية في مدينة بوردو بفرنسا عام ١٨٩٩ ، وبقي في هذا المنصب حتى حدث الانقلاب العثماني عام ١٩٠٨ ، وعاد بعد ذلك الى القدس وانتخب نائبا عنها في مجلس المبعوثان وبقي لذلك حتى حل المجلس وتوفي عام ١٩١٣ .  
الهلال ، ج ٢ السنة ٢٢ ( ١ تشرين الثاني ١٩١٣ ) ص ١٥٢ - ١٥٣ .
- (٦) الخالدي ، روجي : الانقلاب العثماني وتركيا الفتاة : الهلال ج ٣ السنة ١٧ ( ١ ) ديسمبر ١٩٠٨ ص ١٥٨ ) .
- (٧) المصدر نفسه ، ص ١٥٧ .
- (٨) يهوشع ، يعقوب : تاريخ الصحافة العربية في فلسطين في العهد العثماني ، مطبعة المعارف القدس ، ١٩٧٤ ، ص ٦٩ .

- (٩) الانصاف ، العدد الاول ١٠ - ٢٣ كانون الاول ١٩٠٨ ( الافتتاحية ) .
- (١٠) الهلال ، ج ٣ السنة ١٧ ( ١ كانون الاول ١٩٠٨ ) ص ١٧٧ .
- (١١) ولد اسعاف النشاشيبي في القدس وتعلم فيها ، أنتج عددا من الكتب : مثل : « كلمة في اللغة العربية » وقلب عربي وعقل اوروبي ، والعربية في المدرسة ، والعربية وشاعرها الاكبر ، والعربية والاستاذ الريحاني ، والبطل الخالد صلاح الدين والشاعر الخالد أحمد شوقي ، ومقام ابراهيم ، وتوفي عام ١٩٤٨ (محمد عبد الفني حسن : العربية في رجل ، المقتطف ، المجلد ١١٢ ( مارس ١٩٤٨ ) ص - ١٩٤ - ٣٠٠ ) .
- (١٢) النفائس العصرية ، ج ١ ( تشرين الثاني ١٩٠٩ ) م ٢ ، ص ٥٠ - ٥٢ .
- (١٣) الشهابي ، مصطفى : القومية العربية ، ط ٢ القاهرة ١٩٦١ ، ص ٢٥ .
- (١٤) الكرمني ، عبد الكريم : الشيخ سعيد الكرمني ، دمشق ١٩٧٣ ، ٩ ، ٢١٩ .
- (١٥) الخالدي ، روجي : الانقلاب العثماني وتركيا الفتاة ، الهلال ، ج ٣ السنة ١٧ ( ١٢/١ / ١٩٠٨ ) ص ١٤٨ .
- (١٦) كان من اعضاء جمعية الاتحاد والترقي في غزة : احمد عارف الحسيني احد نواب القدس في مجالس المبعوثان ، وسعيد الشوا ومحمد الصوراني ، وحسني خيال ، وخليل بسيسو و محمد الشافي ( عارف العارف : تاريخ غزة : القدس ١٩٤٣ ، ص ٢٠٤ )
- (١٧) من أعضاء جمعية الاخاء العربي العثماني في القدس : موسى الخالدي وفيضي العلمي واسماعيل الحسيني ، ونخلة زريق ، وحنا العيسى و خليل السكاكيني ( خليل السكاكيني : كذا أنا يادنيا ، القدس ، ١٩٥٥ ، ص ٤٧ - ٤٨ ) .
- (١٨) البعثة العلمية الى دار الخلافة الاسلامية ، ص ١٠٠ .
- (١٩) اليعقوبي ، سليم : حسنات اليراع ، ص ١٩ - ٢٣ .
- (٢٠) العارف ، عارف : تاريخ غزة ، ص ٢٠٣ .
- (٢١) الشهابي ، مصطفى : القومية العربية ، ص ٧٨ .
- (٢٢) ثورة العرب مقدماتها واسبابها ، مطبعة المقطم ، القاهرة ١٩١٦ ، ص ٥٥ .
- (٢٣) الجندي ، أدهم : اعلام الادب والفن ، ج ١ ، مطبعة صوت سورية ، دمشق ١٩٥٤ ص ٤٧٣ .
- (٢٤) النشاشيبي ، اسعاف : هل الادباء بشر ، ص ٧٤ - ٧٥ .
- (٢٥) الجندي ، أدهم : شهداء الحرب العالمية الكبرى ، مطبعة العروبة ، دمشق ، ١٩٦٠ ص ٧٣ ، ٨١ ، ١٣٠ ، ١٤٧ ، ١٦٦ ، العارف ، عارف : تاريخ غزة ، ص ٢٠٥ .
- (٢٦) السكاكيني ، خليل : كذا أنا يادنيا ، ص ١٧٥ - ١٧٦ .

- (٢٧) المصدر نفسه ص ١٨٦ .
- David, Philip : un gouvernement arabe à Damas, Marcel Giard, (٢٨)  
Paris, 1923, p. p. 91 - 92.
- (٢٩) الاسد ، نصر الدين : الشعر الحديث في فلسطين والأردن ، القاهرة ١٩٦١ ، ص ٨٥
- (٣٠) ولد عيسى العيسى في يافا وتلقى تعليمه الاولي فيها . ثم التحق بالجامعة الاميركية في بيروت . وعمل في التجارة بعض الوقت ، ثم أنشأ مع يوسف العيسى جريدة فلسطين عام ١٩١١ ، نفي الى الاناضول اثناء الحرب العالمية وعاد الى دمشق . وعين كاتباً في بلاد الامير فيصل بن الحسين اثناء الحكم العربي . وبعد احتلال الفرنسيين لدمشق عاد الى يافا وأصدر من جديد جريدة « فلسطين » التي توقف صدورها اثناء الحرب . وكان يدعى « شيخ الصحافة » ( يهوشع ، يعقوب : الصحافة العربية في فلسطين ، ص ١١٧ ) .
- (٣١) يوسف العيسى من ابناء يافا تتقف ثقافة فرنسية وتولى رئاسة تحرير « فلسطين » منذ نشأتها . اصدر جريدة الف باء في دمشق بعد الحرب العالمية الاولي ( يهوشع ، يعقوب : الصحافة العربية في فلسطين ص ١١٨ ) .
- Porath , Y : The Emergence of the Palestine National Movement, (٣٢)  
1918 - 1929 London, 61974, p. 7.
- David, Ph. : Un gouvernement arabe à Damas, P. 14. (٣٣)
- (٣٤) السكاكيني ، خليل : كذا أنا يا دنيا ، ص ١٦١
- (٣٥) المصدر نفسه ، ص ١٧٥ .
- (٣٦) النفائس العصرية ، ج ١٦ السنة السابعة ( ١٩٢٠ ) ، ص ٢١٨ - ٢١٩ .
- (٣٧) جريدة السياسة ، القاهرة ، عدد ١٢ آب ١٩٢٣
- (٣٨) السكاكيني ، خليل : المجموعة الكاملة ، ج ١ المطبعة العصرية ، القدس ١٩٦٢ ص ٣٦٥ .
- (٤٠) النفائس العصرية ، السنة ٧ ، ج ١٤ ( ١٩٢٠ ) ص ٢١٩ - ٢٢٠ .
- (٤١) لامنس ، هنري : اليهود في فلسطين ومستعمراتهم ، المشرق ، م ٢ ، السنة الثانية ( ١٨٩٩ ص ١٠٨٨ - ١٠٩٤ ) .
- Porath, Y. : The Emergence of the Palestine Natonal Movement, (٤٢)  
P. 8 .
- (٤٣) النفائس العصرية ، ج ١٢ ، م ٢ تشرين الاول ١٩١٠ ص ٥٧٦ - ٥٧٧ .
- (٤٤) يهوشع ، يعقوب : الصحافة العربية في فلسطين في العهد العثماني ، ص ١٢٢ - ١٢٣ .
- (٤٥) البستاني ، وديع : ديوان الفلسطينيين ، بيروت ١٩٤٦ ، ص ٩٣ .

- (٤٦) السكاكيني ، خليل : كذا أنا يادنيا ، ص ١٧٩ .
- (٤٧) السكاكيني ، خليل ، الاعمال الكاملة ، ج ١ ، ص ٣٥٠ .
- (٤٨) شيخو ، لويس : الصهيونية ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، المشرق ، السنة ١٨ ، العدد ١٠ (ت ١٩٢٠) ص ٧٦٨ - ٧٧٨ .
- (٤٩) كسانيه ، نرنس : الصهيونية وغاياتها ، المشرق ، السنة ٢٣ ( شباط ١٩٢٥ ) .  
ص ١١٧ - ١٣٤ .
- (٥٠) السكاكيني ، خليل : كذا انا يا دنيا ، ص ٩٠ .
- (٥١) الكوكب : عدد ٢٥ ( ١٦ كانون الثاني ١٩١٧ ) .
- (٥٢) يهوشع ، يعقوب : الصحافة العربية في فلسطين في العهد العثماني ، ص ٧٧ .
- (٥٣) المصدر نفسه ، ص ١٥٧ .
- (٥٤) السكاكيني ، خليل : ماذا فهم العرب من وعد بلفور ، السياسة ، القاهرة ، عدد ١ حزيران ١٩٢٣ .
- (٥٥) قاسمية ، خيرية : عوني عبد الهادي ، أوراق خاصة ، بيروت ١٩٧٤ ، ص ٥٧ .
- (٥٦) قاسمية ، خيرية : عوني عبد الهادي ، ص ٥٧ - ٥٨ .
- (٥٧) المصدر نفسه ، ص ٥٨ - ٥٩ .
- عبود ، اسعد : تاريخ الناصرة ، القاهرة ١٩٢١ ، ص ١٢١ .
- (٥٨) قاسمية ، خيرية : عوني عبد الهادي ، ص ٥٩ .
- (٥٩) السكاكيني ، خليل : المجموعة الكاملة ج ١ ، ص ٣٧٣ ، ٣٧٤ .
- (٦٠) الحزب الوطني العربي الفلسطيني : دستوره ونظامه الداخلي ، القدس ١٩٢٣ .

## المنافسة الامبريالية الفرنسية الانكليزية

والاحتلال الفرنسي لسورية ولبنان (( مقتبس عن المصادر الفرنسية ))\*  
الدكتور مصطفى كريم

( الجامعة التونسية )

كان ذلك ابان الحرب الكبرى عندما بدأت بلدان «دول الوفاق» بالاتفاق على حل جذري للمسألة المشرقية ، لمجابهة الخطر الالماني الذي هدد مصالحهم الحياتية ، مما ارغمهم على تحريك كل قواهم وان يقبلوا أغلى التضحيات . لقد تناس الحلفاء ولفترة من الزمن منافساتهم التقليدية ، ووقعوا اتفاقات تتعلق وبكل بساطة باقتسام الامبراطورية العثمانية وتلاشيها ككيان سياسي . ان تطور العمليات العسكرية في هذا الوقت قاد الى تغير عميق في علاقات القوى بين الحلفاء . ففي عام ١٩١٧ انهار النظام القيصري ، فضلا عن ذلك فان المملكة المتحدة ، لاسباب عسكرية أدت الى فصل العرب عن الاتراك ، شجعت القومية العربية ، والتزمت أمام شريف مكة بالاعتراف باستقلال المقاطعات العربية .

ان احتلال الشرق الادنى التركي من قبل قوى تكاد تكون برمتها انكليزية ، اعطى للبريطانيين ضمانات هامة ، حدث بهم لان يضعوا على بساط البحث الاتفاقات المبرمة ، بغية اشباع اطماعهم الاستعمارية . وفي الفترة التي انكسرت فيها الامبراطوريات المركزية ( آ ) وتلاش الخطر الالماني ، انطلقت المنافسات القديمة من جديد بين فرنسا وايطاليا والمملكة المتحدة .

اننا نقصد بهذه الدراسة رسم تطور الصراع الفرنسي البريطاني حول سورية ولبنان ، منذ احتلالهما من قبل القوى العسكرية الانكليزية في ايلول ١٩١٨ . ان هذا الهدف يحملنا على دراسة الاتفاقات المبرمة اثناء الحرب من قبل دول الوفاق ، وكذلك السياسة الاستعمارية الخاصة بكل دولة ، وسيقودنا ذلك الى دراسة السياسة العربية للحلفاء ، الذين لم يترددوا مطلقا في انكار الوعود والالتزامات المبذولة ، من اجل انتهاج سياسة سيطرة استعمارية نحو حلفائهم بالامس .

\* قام بترجمة هذا البحث الى العربية الاستاذ عبد الرحمن بدر الدين .



## السياسة الاستعمارية الانكليزية تجاه الشرق الادنى

منذ القرن الثامن عشر والتنافس الاستعماري قائم بين فرنسا وانكلترا : فنقصان الموارد الضرورية لمعيشة المملكة المتحدة واستيرادها غذاءها من مستعمراتها ، ومن تجارة ما وراء البحار وحاجتها لاسواق لتصريف منتجاتها الصناعية جعلها بحاجة لمستعمرات لتأمين حياتها المادية والتجارية . وللاسباب ذاتها وجب عليها تأمين السلامة المطلقة لهذه المستعمرات ، وكانت مسألة مواصلات الامبراطورية أمرا رئيسيا بالنسبة لبريطانيا . ومن أجل الدفاع عن مستعمراتها ، كان عليها تأمين السيطرة على البحار وامتلاك الممرات البحرية الكبرى ، مما يستدعي وجود اسطول حربي تعادل قوته قوة الاساطيل المتحالفة لمنافستها . وكانت ترى في كل أمة تسعى لتقويض امبراطوريتها الاستعمارية منافسا خطيرا لها . فصراع المملكة المتحدة مع اسبانيا وهولندا من اجل سلبهما مستعمراتهما في القرن الثامن عشر كان معروفا ومثله استخلاصها من فرنسا ، اراض في الهند وكندا ولوزيانا . وفي عام ١٨٣٠ حاولت انكلترا ان تعارض وجود فرنسا في الجزائر ، واجبرتها عام ١٨٨٢ على ان تخلي لها المكان في مصر . ومنذ تولي فرنسا الامور في مراكش ، حصلت انكلترا على تدويل طنجة (١) .

ووجهت انكلترا اهتمامها منذ نهاية القرن الثامن عشر نحو مرافئ البحر المتوسط التجارية ، لرغبتها بتحويل بلاد ما بين النهرين الى مستعمرة - وبذلك تحمي مراكزها المتقدمة في الهند ولحرصها كذلك على مصر وقناة السويس - ولذلك ارادت حمايتها بفلسطين . ومن أجل تحقيق هذه المخططات ، كان على المملكة المتحدة أن تضع في حسابها اطماع منافسيها ووجود الامبراطورية العثمانية . وقد اعطتها الحرب الكبرى الفرصة لتحقيق اطماعها بفضل انهيار روسيا وتركيا .

ومنذ ١٩١٥ أصبحت « المسألة العربية » محورا هاما للسياسة الانكليزية في الشرق الادنى ، وقد استخدمتها كسلاح في المعركة ضد الامبراطورية العثمانية اذ كانت ترى انكلترا وجوب اسقاطها منذ ذلك الوقت . ومن اجل تحقيق انكلترا هدفها ، عبأت وسائل ذات شأن : فقد شكلت جيشا يزيد عدده على ٩٠٠.٠٠٠ رجل وجعلت مهمته احتلال المقاطعات العربية التركية في الشرق الاوسط .

ان هذ المجهود العسكري الضخم يتفق مع هدف سياسي ، اذ كانت انكلترا تنوي استقطاع امبراطورية ، تمتد من البحر المتوسط الى الهند . ويدعوها الى ذلك أسباب عدة : كانت الهند - وهي قوام تلك الامبراطورية مهددة تهديدا خطيرا طيلة الحرب ، اذ ان جيوشا المانية - تركية تغلغت عن طريق العراق الى فارس وافغانستان ، وكادت تطيح بأمن الهند ، وتثير الثورة فيها ، مما أرغم انكلترا على ارتجال دفاع في المنطقة الدنيا من بلاد ما بين النهرين ، وفي بلاد فارس الجنوبية لتقطع الطريق على الغزاة .

وكذلك الامر بالنسبة لمصر وقناة السويس التي كانت قد هددت بجيش جمال باشا . ومنذ ذلك الوقت ارادت بريطانيا تأمين السيطرة على الطريق (٢) .

ان تدمير الامبراطورية العثمانية كان نتيجته الطبيعية خروج العالم العربي منها . أما بالنسبة لانكلترا فقد كان عليها تنظيم هذا العالم من جديد وفق المصالح البريطانية ، وذلك بجعله تحت الوصاية الانكليزية . وقد بقيت هذه المسألة مرتبطة بالتالي بأمن الهند ومصر .

وقد أرادت انكلترا من منظور امبريالي ان تمد الخط الحديدي الذي كان سيربط القاهرة بالكاب حتى كلكتا ، وقد عملت المملكة المتحدة على تقوية امبراطوريتها مشكلة كتلة متصلة ومستقرة . ولقد اظهرت الحرب في الواقع بأن السيطرة على البحار لم تكن كالسابق مفتاح الامن المطلق . فالغواصات والطيران وضعا حدا لسيطرة الاساطيل المدرعة . واصبحت المستعمرات غير منيعة الجانب ، مما استوجب ان تتصل ببعضها بعضا لتبادل النجدة بسرعة .

وعلى المستوى الاقتصادي فان انكلترا كانت تأمل فتح الشرقين الادنى والاوسط للاستثمارات التجارية والصناعية . كما ان الثروات البترولية كانت معروفة ولا يمكن اغفالها . وسهول دجلة والفرات المروية يمكن ان تصبح حقولا منتجة للقمح والقطن ، وتعود الطرق التجارية الاسيوية القديمة مفتوحة من جديد . وبواسطة الطرق الحديدية والسيارات ستحمل الى البحر المتوسط منتجات آسيا الوسطى ، اذ ان العراق وسوريا يشكلان الطريق الاقصر الى البحر المتوسط . وكانت انكلترا تتوقع ايجاد خط حديدي يصل بين دلهي والقاهرة (٣) .

واخيرا على مستوى النفوذ الامبراطوري ، ان الوصاية على العالم

العربي في الشرق الاوسط ستعطي لبريطانيا العظمى ، بصفتها قوة مستعمرة للمسلمين ، نفوذا لا نظير له ، لوجود ذلك النفوذ في المدن الاسلامية المقدسة : مكة ، المدينة ، القدس ، دمشق ، بغداد والقاهرة . ان هذه الاعتبارات المختلفة تشرح لنا ارادة السلطات الانكليزية في أن تقيم في الشرق الاوسط نفوذا مسيطرا على بلدانه ، وفي أن تستأصل كل امبريالية منافسة قد تؤذي المصالح البريطانية . ومع ذلك ، فان فرنسا على غرار انكلترا ، اعتبرت بأن لها مصالح حيوية يجب الدفاع عنها في الشرق الادنى .

### السياسة الاستعمارية الفرنسية في الشرق الاوسط

لجأت فرنسا الى حجج ذات صبغة تاريخية وثقافية واقتصادية من أجل تبرير ارادتها في أن تقيم نفوذا مهيمنا في الشرق الاوسط وبخاصة في سوريا وفلسطين . فتظاهرت كأنها الحامية للسكان الوطنيين تجاه استبداد السلطة العثمانية .

وقد رجع الفرنسيون الى عصر فرانسوا الاول ليشيروا الى قدم نفوذهم في تركيا ، ولم يتردد بعضهم في التأكيد على أنه منذ ذلك الوقت فان تاريخ تركيا « لا يعدو تقريبا كونه فصلا من تاريخ فرنسا » (٤) . وفي هذه الاثناء اخذت الاوساط الرسمية تلح على التدخلات الفرنسية المختلفة في القرن التاسع عشر في مقاطعات الشرق الادنى التركية ، وظهرت فرنسا كحامية للمسيحيين ، والاقليات العرقية المضطهدة كالارمن . واثناء ثورة لبنان ١٨٦٠ أكد الفرنسيون بان فرنسا هي التي أخذت زمام المبادرة بالدعوة لتداول وجهات النظر بين القوى الاوربية الخمس الكبرى من أجل إيقاف القمع ، كما ان فرنسا هي التي الحت على نفس تلك القوى بضرورة التدخل عسكريا لصالح السكان المسيحيين في لبنان ، بالرغم من مقاومة مجلس الوزراء في لندن . كما طاب للفرنسيين ان يذكروا بأن الجيوش الفرنسية هي التي أعادت توطيد النظام في البلاد ، مما يجعلها بالتالي بلادهم . وفي المؤتمر الدبلوماسي الذي عقد في السنة التالية في استنبول من اجل اعادة تنظيم لبنان ، استبعدت فرنسا مشروع تقسيم لهذه المنطقة ، الى عدة قائمقاميات ، وتوصلت الى ان يعهد بالسلطة الوحيدة الى مسيحي بالجبل (٥) .

وفي فترة قمع ثورة الارمن عام ١٨٩٤ ، وما تبعه من تدخل لدى الباب العالي من قبل فرنسا وبريطانيا العظمى وروسيا ، فان الدبلوماسية الفرنسية ذكرت ، أنه بالرغم من العرقلة التي عمدت اليها المانيا ، والتي كانت في الاصل لاحباط تدخل القوى الغربية ، فان الموظفين الفرنسيين المقيمين في المقاطعات الارمنية وبخاصة في كليكا ، سعوا بكل قواهم كي يعوضوا بعملهم الشخصي عدم كفاية النتائج التي حصلوا عليها عن طريق المفاوضات الدبلوماسية ، فكانوا يؤوون على قدر طاقتهم ، « وغالبا تحت خطر الموت » ، في منازلهم القنصلية ، الارمن المهديين والملاحقين (٦) . من هذه الاحداث كانت الدبلوماسية الفرنسية تستمد حججا ونتائج لا تركز على اي برهان ، كاعتقادها « ان الذكرى التي يحتفظ بها السوربون والارمن منذ تلك الفترات المأسوية عن افضال وكرم بلادنا ، يجب أن يولد لدى عدد كبير منهم الرغبة في الارتباط بفرنسا بصلة ذات طابع سياسي (٧) » .

والى جانب هذا الاهتمام السياسي كانت تضاف مصالح ثقافية واقتصادية ، وحسب ملاحظة ابدت في شهر كانون الثاني ١٩١٩ كانت المدارس الابتدائية مفتوحة ، ليس فقط في مراكز الولايات ، ولكن ايضا في عدد كبير من القرى الصغيرة . ففي لبنان كان يوجد في كل قرية تقريبا مدرسة ابتدائية ، وكان عدد تلاميذ المدارس التي يديرها فرنسيون ، أو التي كانت موضوعة تحت اشرافهم ، يبلغ الخمسين الف طفل من الجنسين ، وينتسبون الى مختلف الديانات ، ولجميع الطوائف الشرقية .

وكانت المدارس الفرنسية الثانوية كثيرة : اعدادية « القديس بولس » في أضنة واعدادية اللعازريين في دمشق ، واعدادية القديس نيقولا ، واعدادية الاخوة المريميين ، في حلب ، واعدادية اللعازريين في عنطورة ، واعدادية العقيدة المسيحية في طرابلس ، والاعداديات المارونية والمالكانية Melkite ، واعداديات البعثة العلمانية ، واخوة العقيدة المسيحية في بيروت . وكان نحو ٤٠٠٠ - ٥٠٠٠ تلميذ يتعلمون فيها كل سنة اللغة ، والثقافة الفرنسية ، وتربحهم الحضارة الغربية الى صفها وربما النفوذ الفرنسي (٨) . ومن جهة أخرى كانت فرنسا تشرف في بيروت على بعض مؤسسات التعليم العالي : كلية للطب ، ومدرسة للحقوق ، ومدرسة للمهندسين (٩) . وفي مجال المساعدة الاجتماعية كانت أعمال المستشفيات كثيرة : مستشفيات في أضنة ، وفي حلب ، ودمشق ، وطرابلس ، وبيروت كما كان يوجد أيضا مستوصفات عديدة ، وميام

كثيرة تأوي أبناء الارمن المقتولين اثناء القمع ، واخيرا ملجأ للشيوخ في بيروت (١٠) ، وكان لفرنسا مصالح اقتصادية هامة في سوريا ، اذ ان شبكة الخطوط الحديدية السورية فرنسية في معظمها . وفي اثناء اعلان الحرب العظمى كانت فرنسا تشرف على شبكة طولها ١٢٣٣ كم من الخطوط الحديدية منها ٦٨٣ كم في حالة استثمار . ومن جهة أخرى ، كان مرفأ بيروت الذي انشأته فرنسا ، تستغله شركة فرنسية ؛ ومياه بيروت ، وغاز بيروت ، وكهرباء هذه المدينة كانت كلها مؤسسات فرنسية ، وكانت فرنسا قد حصلت على امتيازات هامة : ارض مساحتها ٩٠ الف هكتار في « تشوكور اوف ا » « Tchoukour - ova » قرب اضنة لمصلحة شركة افرنسية كانت تستعد لزراعة القطن . وفي كسارة كان اليسوعيون يزرعون الكرمة بشكل كثيف ، واخيرا انشأت فرنسا بضع مصانع : مصنع للمنتوجات الصيدلانية ومصنع للعطور ومنسوجات الحرير في لبنان ، ومزرعة مدرسية في تعنايل في ولاية دمشق (١١) .

وقبل اندلاع الحرب بكثير كانت فرنسا تعتبر الاراضي السورية - اللبنانية منطقة نفوذ خاصة بها ، فكانت تتبع الحوادث فيها بانتباه ويقظة كبيرين تجاه المساعي الامبريالية للقوى الاوربية المنافسة . كما كانت تعنى بالاهمية الاستراتيجية لهذه المنطقة بصفتها عازلة بين البحر المتوسط والمحيط الهندي وما ورائه ، وبفضل مستعمراتها في الشرق الاقصى فهي مرحلة هامة نحو المحيط الهادي ، الذي اصبح هدف اطماع جميع القوى . ان هذه الاعتبارات تشرح لنا الاهتمام الذي توبع به مصير الشرق الادنى بصورة دقيقة من قبل بلاد الوفاق اثناء الحرب العظمى .

### الاتفاقات بين الحلفاء بشأن سوريا ولبنان

اننا لا نقصد في الاطار الضيق لهذه الدراسة ان نعيد رسم المفاوضات المتعلقة بالدولة العثمانية كاملة ، ولكننا سنهتم بشكل أساسي بالاتفاقات التي تتضمن مباشرة مصير سوريا ولبنان ، أي المفاوضات بين انكلترا وشريف مكة منذ ١٩١٥ والاتفاقات الموقعة في شهر مايس ١٩١٦ من قبل بريطانيا العظمى وفرنسا وروسيا .

#### اتفاقات مكماهون - شريف مكة :

منذ صيف ١٩١٥ دخل السير هنري مكماهون المفوض السامي

الانكليزي في مصر في مفاوضات مع الحسين شريف مكة ، وقد وجدت بريطانيا العظمى نفسها آنذاك في موقف عسكري صعب .

ومنذ دخول ايطاليا الحرب الى جانب دول الوفاق في ربيع العام نفسه ، والتحالف بين تركيا والمذهب السنوسي القوي يعرض الحدود الغربية لمصر الى الخطر (١٢) . وفي الوقت نفسه فان الدفاع العثماني في سيناء باتجاه قناة السويس ، هدد الوجود العسكري الانكليزي في البحر المتوسط ، فمن الممكن ان يؤدي الى قطع طرق المواصلات الى الهند . لقد وجدت بريطانيا العظمى نفسها في موقف دفاعي صعب ، فمن اجل فصل العرب عن القضية التركية شجعت القومية العربية ، وباشرت مفاوضات مع شريف مكة ، بهدف قيام ثورة عربية ضد الاتراك . هذه الثورة التي ستجمد الجيوش العثمانية بالنسبة لاتساع رقعة الدولة . ان هذه الاعتبارات طرحت برنامجا سياسيا جديدا : استبدال مجموعة دفاعية تشكلها دولة او مجموعة دول عربية تحت الوصاية البريطانية ، بالامبراطورية العثمانية التي لا يمكن الاعتماد عليها . وذلك بهدف تأمين الدفاع عن الطرق الرئيسية الى الهند ، وتقوية مواقعها الاستعمارية بشكل نهائي في افريقيا ، وآسيا ، بفضل الاتصال الارضي بين افريقيا الجنوبية والهند .

وفي اثناء المفاوضات طلب امير الحجاز من الانكليز وعدا بالسماح له بتشكيل دولة عربية كبرى - في حال انهزام الامبراطورية العثمانية - تضم كل البلاد الناطقة بالعربية في آسيا الصغرى . وفي رسالة مؤرخة في تموز ١٩١٥ كتب شريف مكة الى مكماهون قائلا : « من الواجب على بريطانيا الاعتراف باستقلال البلاد العربية التي يحدها شمالا مرسين Marsina واضنة وحتى خط عرض ٣٧ شمالا الذي تقع عليه بره جيك ، اورفه ، مدياث ، الجزيرة ، العمادية وحتى الحدود الفارسية . ومن الشرق من الحدود الفارسية حتى خليج البصرة ، ومن الجنوب المحيط الهندي عدا اقليم عدن الذي سيبقى على وضعه الحالي ، ومن الغرب البحر الاحمر والبحر المتوسط حتى مرسين » (١٣) هذا المخطط للحدود يتضمن اذاً سوريا - لبنان - فلسطين - بلاد ما بين النهرين وشبه الجزيرة العربية . وقد اجاب مكماهون في رده المؤرخ في ٢٤ تشرين الاول ١٩١٥ « ان مناطق مرسين واسكندرون والاجزاء الواقعة الى غرب مناطق دمشق وحمص وحماء وحلب في سوريا لا يمكن اعتبارها عربية بحتة ، ويجب ان تستبعد من التحديد والحدود المقترحة .

ومع التحفظ على هذه التعديلات ودون الحاق ضرر بمعاهداتنا المعمول بها مع الزعماء العرب فنحن نقبل هذه التحديدات والحدود ، وفيما يتعلق باجزاء الاراضي المتضمنة في الحدود المذكورة آنفا ، فان بريطانيا العظمى حرة بالعمل ، دون الحاق ضرر بمصالح فرنسا حليفها ، وقد منحت السلطة ان اصرح لك باسم حكومة بريطانيا العظمى التصريحات التالية ، وان اوجه لك الجواب التالي على رسالتك : مع التحفظ بشأن التعديلات المبينة اعلاه فان بريطانيا العظمى مستعدة للاعتراف ، ودعم استقلال العرب القاطنين الاقاليم الموجودة ضمن التحديد والحدود المقترحة من قبل شريف مكة « (١٤) .

وقد قبل الشريف في رسالته المؤرخة ١ تشرين الثاني ١٩١٦ بهدف مراعاة التحالف الفرنسي الانكليزي باحتلال موقت لبيروت وسهلها الساحلي من قبل الفرنسيين . وقد اشار السير هنري مكماهون في رده النهائي ٣٠ تشرين الثاني بكل بساطة ، بأنه سجل بسرور رغبة الشريف بابعاد كل ما من شأنه ايداء التحالف الفرنسي البريطاني . وبروح أخرى مغايرة جرى التفاوض على اتفاق مايس ١٩١٦ بين المملكة المتحدة وفرنسا وروسيا .

### اتفاق مايس ١٩١٦

قبل الحرب بوقت طويل علقت الدبلوماسية الفرنسية أهمية كبرى على المشروعات السياسية التي تتعلق بسوريا . وقد انتشر اللفظ في شهر تشرين الثاني ١٩١٢ بان انكلترا هيأت عملا في سوريا . وقد طلب الى السفير الفرنسي في لندن من قبل حكومته ان يبحث المسألة مع وزارة الخارجية ، « فأجاب السير ادوار جراي Edward Grey السيد بول كامبون Paul Cambon ليس لدينا ازاء سوريا أي نية في التدخل ولا أية خطة ، ولا مطامح من أي نوع » وأضاف السير ادوار جراي على سؤال طرحه عليه ممثل فرنسا انه لا يرى اية غضاضة في أن يستند ريمون بوانكاره Raymond poincaré وزير الخارجية الفرنسية حينئذ الى هذا التصريح ، من أجل القاء خطاب كان على وشك القائه في البرلمان بشأن السياسة الخارجية وقد استغل السيد بوانكاره هذا التصريح فيما بعد ، واعتبرته الدبلوماسية الفرنسية تخليا من بريطانيا عن سوريا ، واعترافا ضمنيا بالنفوذ الراجح لفرنسا في هذه المنطقة (١٥) .

وجرى التفاوض على اتفاق مايس ١٩١٦ في فترة لم يكن مصير الحرب فيها معروفا بعد ، وكانت بريطانيا بالتالي - امام خطر

الامبراطوريات المركزية - مجبرة على ان تقيم وزنا للاطماع الامبريالية لـحلفائها . ان هذه الضرورات توضح التحول الذي أخذته الدبلوماسية الانكليزية ، التي تبنت وجهة النظر الروسية بموافقتها على التدمير الكامل للامبراطورية العثمانية ، وبتسليم استانبول والمضائق لسيطرة امبراطورية القيصرية . ان اتفاق مايس ١٩١٦ كان قد أعدده الكولونيل الانكليزي مارك سايكس Mark Sykes وجورج بيكو Georges picot وكان يحمل اسم المفاوضين فيه . وحسب نصوص البروتوكول الذي أعدده سايكس وبيكو قسمت آسيا العربية عدا شبه الجزيرة العربية الى خمس مناطق : المنطقة الزرقاء ، والمنطقة الحمراء ، حيث كان الفرنسيون احرارا في اقامة الادارة التي يختارونها في الاولى ، وكذلك الانكليز في الثانية ، وهكذا كانت بريطانيا تتوقع فرض سيطرتها على منطقة بغداد والبصرة في ما بين النهرين حتى الخليج الفارسي .

أما فرنسا فقد حصلت على الحق في اقامة الادارة التي تراها ملائمة من الساحل السوري ، وفي منطقة اضنة وفي « كليكا » ؛ واحتفظت انكلترا بمينائي حيفا وعكا ، على ان تكون حيفا ميناء حرا للتجارة الفرنسية ويكون للاسكندرون نفس النظام بالنسبة للتجارة البريطانية ، وكان لانكلترا علاوة عن ذلك الحق في انشاء خط حديدي يصل بغداد بحيفا مباشرة ، وان تنقل عليه الفرق العسكرية . وكانت المنطقة الادارية الممنوحة لفرنسا تضم الشريط الساحلي للبنان ، ولا تحتوي مقاطعات دمشق ، وحمص ، وحماه ، وحلب ، التي كانت موجودة في المنطقة المخصصة لانشاء دولة او مجموعة من الدول العربية . ان هذه المنطقة الاخيرة الموجودة بين المنطقة الفرنسية والمنطقة الانكليزية كانت مقسومة الى منطقتين محاطتين على التناوب باللونين الازرق والاحمر . ومع انها موضوعة تحت السيادة العربية فقد كان معروفا انها منطقة مصالح فرنسية من جهة ومنطقة مصالح انكليزية من جهة أخرى . أما المنطقة الخامسة فكانت تغطي فلسطين ، وكان من المتوقع ان توضع هذه المنطقة السمرات تحت الاشراف الدولي أولا ، بسبب روسيا القيصرية التي كانت تعتبر نفسها انها تدافع في الارض المقدسة عن حقوق الطائفة الارثوذكسية التي كانت حاميتها ، وثانيا بسبب اهتمام بريطانيا بمنع اقامة قوة اوربية في فلسطين . الا أن الصهاينة كانوا يفكرون بأن يجعلوا من هذه الاراضي مأوى للاستعمار



اليهودي وفي أن يحصلوا من الحكومة البريطانية على وعد في هذا الشأن .  
وقدم ذلك في ٢ تشرين الثاني ١٩١٧ عندما أبلغ اللورد بلفور Lord Balfour  
الناطق بلسان الحكومة البريطانية اللورد روتشيلد Lord Rotshild  
« ان حكومة صاحب الجلالة تنظر بعين العطف الى اقامة وطن قومي  
للشعب اليهودي في فلسطين » ، ان اتفاق سايكس - بيكو وهو على نقيض  
اتفاق مكماهون - حسين ظل سريا . وكانت هذه التسويات المتناقضة  
انعكاسا لمواقف مختلفة في ظرفي حالة تطور . ولكي ندرك مغامرات القوى  
المعنية وتنافسها ، من الضروري ان نذكر بحملة الشرق الادنى ، والوضع  
العسكري للمتحاربين عند تحرير الاراضي المطموح بها .

**حملة سوريا - فلسطين :** كانت مسألة العمليات العسكرية  
المخصصة لتأمين تفكيك تركيا موضوع المفاوضات السرية بين الحكومتين  
الفرنسية والانكليزية منذ عام ١٩١٦ . ولم يكن مشروع حملة بريطانيا  
العظمى على بلاد ما بين النهرين كافيا لدحر الامبراطورية العثمانية ، وفي  
الفترة التي فشلت فيها حملة الدردنيل ، أصبح من الواضح بأن عملا  
في فلسطين وسوريا ، ومن المحتمل من كليهما ، هو الوحيد الذي باستطاعته  
ارغام تركيا على القاء السلاح . وقبل شن الهجوم طلبت الحكومة البريطانية  
من الحكومة الفرنسية معاونتها ، والمحت بأنها ستسمح لها باحتلال  
سوريا (١٦) . ولكن في نهاية ١٩١٦ بدا الوضع العام للجبهات حرجا بل  
وحتى مهددا للحلفاء . ففي اسابيع قليلة استطاعت المانيا في الواقع  
سحق رومانيا ، وخشيت رئاسة الاركان الفرنسية ان تندفع فجأة  
الجيش الالماني والنمساوية الهنغارية التي اصبحت متفرغة ، نحو  
الجبهتين الرئيسيتين للمعركة وهما جبهة فرنسا ، وجبهة مقدونيا .  
ان اقتطاع جزء هام من القوى الفرنسية من احدى هاتين الجبهتين  
والذي كان ضروريا من وجهة نظر تحقيق الحملة على سوريا اصبح اذا  
مستحيلا (١٧) . وكان عبء الحرب ضد تركيا يكاد يقع بكامله على كاهل بريطانيا  
وحدها . فالامبراطورية البريطانية والهند كانتا في الواقع قد ركزت جيشا  
مؤلفا من ٩٠٠.٠٠٠ الى مليون رجل في الامبراطورية العثمانية والقوقاز .

وفي بداية الحملة ظهرت بريطانيا العظمى انها ادخلت في حسابها  
المصالح الفرنسية وتدل برقية من « بول كامبون » Paul Cambon سفير  
فرنسا في لندن بتاريخ ٩ كانون الاول ١٩١٦ موجهة الى بريان A. Priand  
وزير الخارجية ، على ان الحكومة البريطانية ستبلغ الحكومة الفرنسية

طلبا رسميا للمشاركة بإدارة المنطقة التي احتلت حديثا في فلسطين . وفي حالة نجاح الحملة على العريش سيضطر البريطانيون الى دفع عملهم العسكري نحو الشمال ، في حين تكلف الحكومة الفرنسية جورج بيكو بتمثيلها في الادارة المقبلة المشتركة للاراضي المحتلة . واتفق في الوقت نفسه على ارسال فيلق فرنسي محدود العدد لتأمين تمثيل عسكري فرنسي رمزي في نفس المنطقة يلحق بجيش الجنرال اللنبي Allenby (١٨) .

ان موقف السلطات الانكليزية بعد اجتياز قناة السويس لم يكن مطابقا للروح التي كانت منتظرة منذ البدء . وقد اعتبر الجنرال قائد الجيش في فلسطين ، ممثل فرنسا مستشارا عاديا مجردا من كل سلطة حقيقية ، والضباط الذين يشكلون جزءا من المفزة الفرنسية كانوا من جهة ثانية مبعدين كليا عن مناصب الحكام العسكريين التي كانت قد أحدثت في المدن المحتلة . وقد أُجيب على العروض المتعددة ، التي تدور حول هذا الموضوع والتي قدمت سواء الى الحكومة الانكليزية بواسطة السفير الفرنسي في لندن . أو من قبل وزارة الخارجية الفرنسية لسفارة بريطانيا العظمى في باريس ، أو الى الجنرال اللنبي من قبل جورج بيكو - بيساطة تملص ، بان الوضع العسكري لايسمح بعد أبدا بمشاركة الممثلين الفرنسيين في ادارة المناطق المحررة (١٩) . وعلى ما يبدو أنه منذ ذلك الوقت تغلبت كليا في لندن وجهات النظر الامبريالية للموظفين الانكليز - الهنود ، والانكليز - المصريين فيما يتعلق بآسيا الصغرى . وفي شهر أيلول ١٩١٨ حينما اقترب جيش الجنرال اللنبي من خط جبل الكرمل - بحيرة طبريا وهو حد المنطقة التي اعترف فيها بحقوق خاصة لفرنسا حسب اتفاقات ١٩١٦ توترت العلاقات على نحو خطير بين الحكومتين الفرنسية والانكليزية ، اذ كانت فرنسا تخاف أن تتابع السلطات العسكرية الانكليزية تقدمها في سوريا ولبنان وكليزيا ، وتعتبر ذلك اساءة كما حدث في فلسطين . ومع ذلك ، فانه عشية الهجوم الذي سيؤمن احتلال سوريا ، اهتمت القيادة البريطانية بتهدئة قلق الفرنسيين . وأكدت برقية صادرة عن الكابتن كولوندر Coulondre المفوض الفرنسي السامي بالوكالة في دمشق في ٢٦ ايلول ١٩١٨ هذه الحالة الفكرية فكتب قائلا : كما كان متوقعا ان تدمير الجيش التركي سيتيح لاتفاقات ١٩١٦ بالدخول في حيز التنفيذ « فان الجنرال اللنبي مع احتفاظه بحق الاشراف الذي لاينفصل عن سلطاته العسكرية فانه مستعد لان يعهد الينا بإدارة الاراضي الموجودة في منطقتنا واني انتظر مقابلته هذا المساء لكي أعطي

بيانات لسيادتكم . يجب أن يتم احتلال دمشق فوراً وقد اقترح علي الجنرال كلايتون ان أذهب اليها معه في نهاية هذا الاسبوع ، واطاف أن الجنرال قائد الفرق التي تعمل في هذا الاتجاه تلقى أمراً بالتزام دوره العسكري والا يقيم أي جهاز اداري حتى اشعار آخر (٢٠) ، وهذا التقدير للموقف أكده السفير الفرنسي في لندن غداة مسعى قام به لدى وزارة الخارجية ، وغايته أن يعرض على الحكومة البريطانية مخاوف فرنسا من رؤية حقوقها في سورية مسلوقة من قبل الاحتلال الانكليزي . واخبر الدبلوماسي الفرنسي حكومته بأنه سيتباحث في يومي ٢٦ و ٢٧ ايلول ١٩١٨ مع لورد روبرت سيسل Lord Robert Cecil بشأن المسألة السورية « ان النية الطيبة للحكومة البريطانية ليست موضع شك ومثل السيد بلفور حرص روبرت سيسيل على ابعاد كل شبهة بوجود أية فكرة خلفية (٢١) » ، ومن جهة أخرى بادرت الحكومة الفرنسية لتحصل على مزيد من الضمانات لتحاشي منازعات جديدة وذلك بفتح مباحثات جرت في لندن ، واشترك فيها من الجانب الفرنسي بول كامبون وجورج بيكو ومن الجانب الانكليزي روبرت سيسل ومارك سايكس (٢٢) .

وسرعان ما قادت هذه المباحثات في ٣٠ ايلول الى اتفاق نظم مسألة ادارة الاراضي المحتلة من قبل الحلفاء في سوريا ، وقد تركت السلطة المطلقة بموجب هذه التسوية الى القائد العام ، وذلك بالنسبة لمناطق المصالح الفرنسية الخاصة والمحددة بالاتفاق الانكليزي - الفرنسي سنة ١٩١٦ ، سواء منها المحتل أو الذي يمكن احتلاله من قبل الحلفاء وسيعترف بممثل الحكومة الفرنسية كمستشار سياسي له ، وتكون وظائفه هي التالية :

١ - ان يعمل تحت السلطة المطلقة للقائد العام كوسيط وحيد في المسائل السياسية والادارية بين القائد وكل حكومة عربية أو جميع الحكومات العربية الدائمة أو المؤقتة التي يمكن تأسيسها في المنطقة (آ) واعترف بما نصت عليه بنود اتفاق ١٩١٦ مع التحفظ بان هذا البند لا يمكن بأية حال أن يفسر بأنه يلغي لاي كان ، حق الوصول المباشر الى القائد العام ، أو أنه يعطي للمستشار السياسي حق حضور المؤتمرات العسكرية ، أو أن يعمل بصفته وسيطاً في المسائل العسكرية . وبالمقابل يجب أن يكون مفهوماً بأن القائد العام سيرسل فيما بعد الى المستشار السياسي مادة كل المحادثات الرسمية فيما يتعلق بالامور غير العسكرية ،

التي يمكن ان تجري مباشرة بينه وبين أي شخص له حق الاتصال به عن طريق المستشار السياسي .

٢ - بطلب من القائد العام ، وتحت سلطته المطلقة ، فان المستشار السياسي كان مكلفا من قبله ببسط نوع من الادارة المدنية الموقته في مدن الساحل السوري الواقعة في المنطقة الزرقاء .

٣ - مع الاحتفاظ بشرط قبول القائد العام فان المستشار السياسي يستطيع أن يختار :

آ - مجموع الافراد الذين يحتاجهم للقيام بوظائفه كوسيط كتلك التي حددت بالبند رقم ١ من هذا التصريح .

ب - موظفي المستشارية والموظفين المرؤوسين الاوربيين الذين يمكن أن يكونوا لازمين للحكومة العربية أو الحكومات العربية المؤسسة في المنطقة (آ) حسب البند ١ من الاتفاق الانكليزي الفرنسي ١٩١٦ .

ج - الموظفين الضروريين للاعمال المدنية في المدن الساحلية واجزاء أخرى من المنطقة الزرقاء ، مع التحفظ بان هؤلاء الموظفين الذين سيشغلون مراكزهم تحت أمره السلطة العليا للقائد العام الذي له الحق بطلب استبدال أي مستشار أو موظف اداري أو ضابط اتصال ، لاسباب تتعلق بالكفاءة أو الانضباط .

٤ - يكون المستشار السياسي مسؤولا أمام القائد العام عن العلاقات السياسية في المنطقة ( آ ) والعلاقات السياسية والادارة المدنية الموقته في المنطقة الزرقاء .

٥ - ان هذا الاتفاق يجب أن يظل معمولابه حتى الفترة التي يتطلب الوضع العسكري فيها فحصا جديدا لقضية الادارة المدنية ولللاقات السياسية في المناطق المحتلة (٢٢) . لقد تضمن هذا الاتفاق تحفظات كافية تسمح بتفسيرات متضادة ، وفي الواقع ان العلاقات بين الحكومتين سرعان ماتدهورت ، ومنذ احتلال المدن الرئيسية السورية ، فان المعلومات المرسلة الى وزارة الخارجية الفرنسية . من قبل الموظفين الفرنسيين وصفت الوضع وكأنه كارثة للمصالح الفرنسية . وبالفعل فان القوى العربية تحت قيادة الامير فيصل كان قد سمح لها من قبل القائد الانكليزي بان تكون الاولى في الدخول الى المدن السورية المحتلة . وقد استغل الاشراف

ذلك لوضع اداريين عرب في المناطق المعنية ، وكما هو الامر في المنطقة الزرقاء كذلك في المنطقة (آ) .

وفي ٣٠ ايلول وردت برقية الى وزارة الخارجية الفرنسية من قبل الكابتن كولوندر Coulondre تعلن احتلال دمشق من قبل الشريفين ، وتسمية حاكم عربي عليها واطاف بأن مدن صور وصيدا وبيروت التي جلا عنها الاتراك كانت مرتبطة بملك الحجاز ورفعت العلم الشريفى وقد سجل الكابتن بانه « يعتقد انه من غير المجدي الالاحاح على خطورة هذا النبأ . . . » فالشريفيون يحاولون وضعنا أمام الامر المبرم ، وما على الحكومة في هذه الفترة الا أن تبادر لاتخاذ مواقف يمكن ان تكون هامة في نتائجها بغية اعادة توطيد مركزنا المهتدد (٢٤) » .

ومن جهة أخرى فقد اتهم الموظفون الفرنسيون السلطات العسكرية الانكليزية بتشجيعها مبادرات الاشراف للاضرار بالمصالح الفرنسية . « والسلطات العسكرية البريطانية لم تسلك مسلكا اخر اذا أرادت مساندة لعبة الاشراف غير المخلصة للمصالح الفرنسية وان بعض الضباط البريطانيين قد ساعدوا ان لم يكونوا قد وجهوا (٢٥) » . وفي الحقيقة بدت بريطانيا العظمى مهتمة بتطبيق اتفاقات ١٩١٦ بكل دقة . وقد رفضت ان تعترف بالحكام العرب الذين سماهم فيصل ، في المدن الواقعة في المنطقة الزرقاء . وقسمت سوريا الى المنطقة الشمالية التي سميت فيما بعد بالمنطقة الغربية ، وتتضمن لبنان وسنجد اسكندرون وهي معادلة من حيث المساحة للمنطقة الزرقاء . وقد قام بادارتها ضباط فرنسيون . ومنذ ٧ تشرين الاول ١٩١٨ بادرت فرنسا لتسمية الكولونيل بيب *De Piépe* حاكما عاما للبنان . وكانت المنطقة الثانية هي المنطقة الشرقية وتطابق للمنطقتين ( آ و ب ) من اتفاق ١٩١٦ . وهنا أقام الانكليز ادارة شريفية تحت سلطة الامير فيصل (٢٦) . وفي البدء كانت التعهدات البريطانية تجاه فرنسا محترمة ، الا أن الاختلاف في الواقع بين البلدين نجم عن تفسير متباين وظيفيا لاتفاقات ١٩١٦ من قبل الحكومتين : ففرنسا اعتبرت المنطقة الزرقاء و (آ) تكونان جزءا من نفوذها وبالتالي تخضعان لرقابتها . واذا نظرت الى نفسها على أنها مخولة بان تقيم في المنطقة الزرقاء ادارة مباشرة على غرار الادارة في الجزائر ، فانها رأت بالتالي أن اتفاقات ١٩١٦ تسمح لها أيضا باقامة نوع من الحماية ، من النموذج المطبق في تونس ،

والذي يضمن لها الكلمة العليا في الاعمال الداخلية والخارجية في الدول العربية المقبلة الموجودة في المنطقة (آ) . وقد خشيت بريطانيا العظمى حقا من عقلية اللاحق الفرنسية ، ورأت تشجيع ولادة دولة أو اتحاد دول عربية تمتد سيادته على المنطقتين (آ) و (ب) وحيث لا يستطيع فرنسا أن تحصل في المنطقة (آ) الا على اولوية من أجل القروض ، والاشغال العامة ، والمشاريع الاقتصادية ، والتعاون التقني الذي سينفذ بناء على طلب من السلطات العربية المقبلة . ان مثل هذا الوضع لا يمكن في نظر الانكليز للنفوذ السياسي البريطاني عند الحكومة العربية المقبلة . وفي الواقع ان اتفاق ١٩١٦ كان أكثر موافقة لتفسير بريطانيا العظمى ولم يتوان لويد جورج Loyd George خلال مؤتمر رؤساء دول البلاد المتحالفة وحكوماتها المنعقد في ٢٣ آذار ١٩١٩ ، أن يذكر المفاوضين الفرنسيين بالمضمون الحقيقي لاتفاقات ١٩١٦ ، « وكان السيد بيشون M. Pichon في عرضه الواضح جدا ، قد أغفل في شرحه بان المنطقة الزرقاء التي كانت فرنسا مخولة باقامة كل ادارة فيها أو سلطة مباشرة ، أو غير مباشرة ، ترغب بها وتستطيع حكمها بما يتلاءم مع ما حدده الاتفاق مع الدولة ، أو اتحاد الدول العربية ، لم تتضمن هذه المنطقة أبدا دمشق ، حمص ، حماه ، أو حلب . وفي المنطقة (آ) كانت فرنسا على استعداد للاعتراف ودعم دولة عربية مستقلة أو اتحاد دول عربية تحت سيادة رئيس عربي » وكذلك في المنطقة (آ) سيكون لفرنسا حق اولوية بالنشاط وبالفروض المحلية . . . . وستكون الوحيدة في تقديم المستشارين أو الموظفين الاجانب بطلب من الحكومة العربية أو اتحاد الدول العربية « فهل فرنسا مستعدة لقبول هذا . . . ؟ (٢٧) ان هذا التفسير الدقيق لاتفاقات ١٩١٦ أخفى ارادة هيمنة امبريالية من قبل المملكة المتحدة . وكانت الحرب قد قلبت رأسنا على عقب المعطيات لعلم السياسة العالمي القديم . ففي ١٩١٨ انتهى الخطر الالماني : أربع امبراطوريات كانت قد انحلت : الامبراطورية الالمانية ، الامبراطورية النمساوية - الهنغارية ، الامبراطورية الروسية والامبراطورية العثمانية . والمنافسات التقليدية الاستعمارية الروسية الالمانية كانت قد زالت . وكانت المملكة المتحدة حريصة على تحاشي تقوية المنافسين لها الذين كان أخطرهم فرنسا . ومن ناحية أخرى ان تدمير الامبراطوريات المركزية ، والامبراطورية العثمانية بشكل خاص ، خلق فراغا واسعا مما يستوجب تنظيمه ، لاستغلاله على أفضل شكل لفائدة المصالح البريطانية .

كما ان انهيار روسيا في التعاقد أسقط اتفاق ١٩١٦ ، وشكلت الاوساط الاستعمارية الانكليزية والموظفون البريطانيون - المصريون - الهنود فئة ضغط تنوي اخراج فرنسا ، وذلك بتقليص توسعها الاستعماري ، في منطقة احتلت كلها بفضل السلاح الانكليزي ، الى الحد الأدنى . ويظهر ان وجهة النظر هذه تغلبت داخل مجلس الوزراء في لندن اذ انه منذ مطلع شهر تشرين الاول ١٩١٨ اتجهت السياسة الاستعمارية نحو اتجاهين رئيسيين : وهما ضرورة اعادة النظر باتفاقات ١٩١٦ ، والرغبة بالاعتراف بالعائلة الشريفية الحسينية التي كان الناطق باسمها هو الامير فيصل الذي كان يجب في نظر الانكليز فرضه على الفرنسيين كممثل وحيد لسكان الاراضي المحتلة .

### محاولات لاعادة النظر باتفاقات ١٩١٦

منذ ٨ تشرين الاول ١٩١٨ أي بعد أسبوع واحد من احتلال دمشق . واتفاق ٣٠ ايلول مازال غير مصدقا عليه من قبل الحكومة البريطانية ، بعث اللورد روبرت سيسيل ، Robert Cécil بمذكرة للحكومة الفرنسية يؤكد فيها بأن الحكومة الانكليزية كانت جاهزة لقبول تسوية ٣٠ ايلول ، علما بان هذه التسوية يجب أن تعتبر كمواجهة للوضع الناشئ عن التقدم الاخير لقوات الجنرال اللنبي في سوريا ، والمتعلقة فقط بالاراضي المحتلة أو التي ستحتل من قبل هذه القوات . وقد أضافت المذكرة انه فيما يتعلق بالحكومة المقبلة لهذه الاراضي المذكورة في الاتفاقية الانكليزية الفرنسية ١٩١٦ ، فقد رأت الحكومة الانكليزية أن توضح بان الوضع العام قد تغير كثيرا منذ عقد هذه الاتفاق ، بحيث أن أحكامه لايمكن أن تتلاءم من جميع جوانبها مع الشروط الراهنة . وتابعت المذكرة سردها بان الوضع العسكري لم يتغير تماما فحسب في بلاد ما بين النهرين وفلسطين ، بل ان تغييرين سياسيين على جانب كبير من الاهمية قد تدخلوا وهما : دخول الولايات المتحدة الحرب وانهيار روسيا . فمن البدهة اذا انه من ناحية لايمكن تجاهل أمريكا في أية تسوية تتعلق بمستقبل هذه البقعة وبخاصة سوريا وفلسطين ، ومن جهة أخرى فان التسويات المتوقعة بشأن الجزء الشمالي الشرقي من أرمينيا كانت جميعها قد انقلبت رأسا على عقب بسبب انهيار روسيا . وحسب رأي روبرت سيسيل ان هنالك صعوبة أخرى تتجلى بالبند ٩ من معاهدة لندن التي اعترفت بمطالب ايطاليا بما يتعلق بشرقي البحر المتوسط ،

« ولتكونوا على اطلاع فان الافتراضات الموقته التي وضعت في Saint Jean de Maurienne والمتعلقة بالادعاءات الايطالية كانت قد الفيت ، وكان من الصعب تحقيقها وتنفيذها دون اثاره احتجاجات من قبل اليونان وحتى من قبل تركيا نفسها . والحكومة البريطانية ، وهي تلفت الانتباه لهذه الاعتبارات ، تجد انه من غير المجدي العودة الى تسوية هذه المسائل . وفي هذه الآونة تقترح ان هذه التسوية تستوجب ان تكون موضوعا لمحادثات جديدة تشارك فيها الحكومة الايطالية وحكومة الولايات المتحدة بالاضافة للحكومتين الفرنسية والايطالية(٢٨) .

وقد ابرزت وزارة الخارجية الفرنسية بمذكرة موجهة الى سفيرها في لندن ، بغية تبليغها الى اللورد روبرت سيسل ، كجواب على مذكرته المؤرخة في ٨ تشرين الاول ، بأن الحكومة الفرنسية لا تنكر ان الاحداث التي طرأت منذ ١٩١٦ والحفاظ على الامبراطورية العثمانية - اذا ما تقدمت الحكومة التركية بتنازلات من نفسها - كانت تطرح امكان نظرة جديدة الى حقوق القوى الحليفة ومصالحها ، وامكان اعادة فحص مشترك للاتفاقات السابقة ، غير ان الحكومة الفرنسية - كما اكد الوزير - ترى ان الاتفاقات التي ذيلتها فرنسا وبريطانيا بتوقيعهما تظل « جيدة ومقبولة » حتى اشعار آخر فقد كانت تلك الاتفاقات خاتمة لمفاوضات وتعهدات ، استندت الى الاعتراف بتطلعات البلدين المتبادلة الى مناطق كان لهما فيها ، في كل الاوقات عملاء ومصالح وحقوق . « واختتم الوزير الفرنسي مبرزاً ان الحكومة الفرنسية قررت دعم المطالب الانكليزية التي وردت في اتفاق ١٩١٦ معتمداً على دعم مساو من بريطانيا العظمى ، وكان يقدر من جهة أخرى بأن انكلترا وفرنسا قبل الشروع بمحادثات مع حلفائهما كانت مصلحتهما المشتركة ان يتفاهما فيما بينهما على التدابير الواجب اتخاذها بشأن الشرق(٢٩) .

ويجب ان نشير الآن ان الاتفاقيات السرية لعام ١٩١٦ لم تبق سرا منذ ان نشر الروس الثوريون محتوياتها عام ١٩١٧ . وقد خشي الحلفاء الاوربيون الموقعون وبحق ردود الفعل المعادية من قبل ويلسن Wilson الذي كان قد أعلن مرات عديدة بأن الولايات المتحدة كانت قد انخرطت في الحرب للدفاع عن العدالة والحق ، وان بلاده متمسكة بعمق بمبدأ حق تقرير المصير للشعوب . أما من جهة الامير فيصل الذي اطلع على وجود اتفاقات ١٩١٦ فانه تلقى تأكيدات مطمئنة قاطعة من جهة السلطات



العسكرية الانكليزية ، وكان بالتالي واثقا باتفاقات ١٩١٥ ، وبعود الحكومة البريطانية وتعهداتها على أن المبادرات الاولى المتخذة من قبل القيادة العليا الانكليزية غداة غزو سوريا ولدت قلقا كبيرا لدى الشريفين ( اتباع الشريف ) . وان تقسيم سوريا الى مناطق ادارية ، والحاق لبنان بالادارة الفرنسية ، كان قد أثار سخط الامير فيصل الذي هدد بريطانيا العظمى بتقديم استقالته (٢٠) « اذاً ظهر المسرح السياسي العسكري للشرق الادنى منذ بداية شهر تشرين الاول معقدا وخطيرا . ولذا فانه أثناء المفاوضات التي أفضت الى اتفاق ٣٠ ايلول عبرت فرنسا وانكلترا عن رغبتها بنشر تصريح مشترك وباسرع وقت ممكن ، يتضمن المبادئ العامة للسياسة التي كان الحلفاء ينوون اتباعها ازاء سكان المناطق المحتلة ، وهذا التصريح سيهدىء من ظنون العرب ، ويمهد لمباحثات مع الرئيس ويلسن الذي كان يجب اعلامه رسميا باتفاقات ١٩١٦ (٢١) . وقد أقنع التطور اللاحق فرنسا بضرورة اعلان هذا التصريح ، فمن جهة ، كان هنالك دعاية قوية يقوم بها الشريفيون وتشجعها السلطات العسكرية متهمة فرنسا بأنها قوة استعمارية تسعى الى ضم سوريا والى اضطهاد السكان الوطنيين سياسيا والى استغلالهم اقتصاديا ، ومن جهة أخرى كانت في انكلترا حملة تقودها الاوساط الاستعمارية تؤكد انه اذا سلمت سوريا وكليكيما الى فرنسا ، فان هذين البلدين سيفرض عليهما حالا نظام مماثل لنظام الجزائر واستغلال تقوم به الشركات المالية والصناعية الفرنسية ، وان هذا اليوم سيسجل نهاية كل استقلال حقيقي لهذين البلدين ، لان الفرنسيين لم يفعلوا شيئا لقيادة مستعمراتهم نحو حكومة ذاتية . ويضيفون ان مثل هذا النظام سيلاقي من السكان المعنيين مناهضة عامة وان القلاقل ستتشب حتما . أبرزت تلك الاوساط الاستعمارية ان هذا الاحتمال سيهدد كل العمل الذي قامت به انكلترا لدى العرب (٢٢) . وكانت فرنسا واعية ان هذه العواطف المنتشرة على نطاق واسع بين الانكليز ، حتى أكثرهم تحبيذا للتحالف ، تهدد بجعل المفاوضات الخاصة بتنظيم الادارة الفرنسية في سوريا أكثر صعوبة . وكانت الحكومة الفرنسية تخشى أن تؤثر الاوساط الامبريالية ، التي كانت لاتزال تأمل في اقناع الوزارة البريطانية بالرجوع عن التزاماتها السابقة ، أن تؤثر هذه الاوساط على الرأي العام ، وعلى الاوساط السورية غير المحبذة للنفوذ الفرنسي . ولذلك أدركت الدبلوماسية الفرنسية ان من مصلحتها أن تفتنم الفرصة

بأسرع وقت ممكن ، لتقطع كل دعاية معادية للمصالح الفرنسية ، وتذيع تصريحاً عاماً ومختصراً صادراً عن مصدر مخول بذلك ، ومخصصاً لتحديد السياسة التي كانت الحكومة الفرنسية تنوي اتباعها إزاء سكان الشرق الأدنى (٢٣) . ومع ذلك فقد تطلب الأمر شهراً من الاستشارة ، والمقترحات المضادة ، كي تتمكن الحكومتان من الاتفاق على نص نهائي ، وقبل نص التصريح أخيراً في ٣٠ تشرين الأول ١٩١٨ واتفقت الحكومتان الحليفتان قبل إذاعته على إبلاغه للرئيس ويلسن للاطلاع بواسطة سفير فرنسا في واشنطن بصفته عميداً للسلك الدبلوماسي باسم الحكومتين (٢٤) . وقد كتب هذا النص في الحقيقة بروح مبهمة تسمح فيما بعد بتفسيرات مختلفة . وكانت الحكومتان تعترف بمبدأ حق سكان البلاد المحررة بتقرير المصير ، وباختيار الحكومات ، والادارات الوطنية ، ولكن لا ذكر مطلقاً لاستقلال هذه الشعوب . والادعى من ذلك ، ادعاء القوتين ، انهما حاميتان على المستوى الداخلي والخارجي للدول المقبلة . والدور الذي احتفظتا به لنفسيهما يعني أن لهما الحق في التدخل في سير الإدارة ، بحجة فرض التقدم والمساواة في المعاملة بين مختلف السكان داخل نفس البلد . ورغم كل شيء استخدم هذا التصريح على نحو مختلف في بلاد الشرق . فالسكان الوطنيون رأوا في هذه الوثيقة اعترافاً بالاستقلال التام بالحكومة العربية المشكلة حول الأمير فيصل ، وكانوا مقتنعين بأن الجيوش الأوروبية ستفادر البلاد قريباً ، وأن فرنسا لم تعد تستطيع التمسك بمطالبها القديمة . ان هذه الطريقة في الرؤية لم يكذبها الضباط الإنكليز في جيش الجنرال النبي ، الذين لم يترددوا في توزيع نص التصريح في مدن لبنان المحكومة بالاداريين الفرنسيين (٢٥) . وعلى نسق هذه الافكار اجتهدت الحكومة البريطانية في حمل الحكومة الفرنسية على الاعتراف بالامير فيصل ناطقاً وممثلاً للسكان السوريين . وقد فرض الإنكليز على الفرنسيين الاعتراف بصفة المحاربين للجيوش العربية ، التي كانت تقاتل ضمن جيش الجنرال النبي ، لكن الحكومة الفرنسية كانت تعتبر جيش فيصل ممثلاً للشريف حسين بصفته ملك الحجاز ولذلك سعت بريطانيا بجميع الوسائل لحمل فرنسا على المفاوضة مباشرة مع فيصل بشأن القضايا التي تعني سوريا ولبنان (٢٦) . ولنلاحظ من جهة أخرى انه رغم الاحتجاجات الفرنسية توصلت انكلترا الى الحصول على اشراك الامير فيصل في مؤتمر السلام في فرساي المنعقد في بداية شهر كانون الثاني ١٩١٩ ، ولم يكن الامير فيصل موجوداً فيه كممثل لابيه فقط ، بل

بصفة رئيس الحكومة القائمة في دمشق ومعترف به من قبل بريطانيا .  
ورغم اتفاق ٣٠ ايلول ورغم توقيع التصريح المشترك ثارت المناقشات  
وتدهورت العلاقات على نحو خطير بين الحكومتين الفرنسية والانكليزية .

### تدهور العلاقات الفرنسية - الانكليزية :

ظهر هذا التدهور في مستويات مختلفة : ففي سوريا أولا حيث  
أصبحت العلاقات بين الموظفين الفرنسيين والسلطات العسكرية الانكليزية  
صعبة ، وكذلك على مستوى الصحافة ، اذ أن الصحف الفرنسية شنت  
حملة حقيقية ضد انكلترا ، وأخيرا على مستوى الحكومتين لان العلاقات  
توترت بينهما الى حد يندر بالتهديد .

وقد سمي جورج بيكو مفوضا ساميا في سوريا ، فأبحر في ٦ تشرين  
الثاني ١٩١٨ الى بيروت ، وزار القيادة العامة للتباحث مع الجنرال اللنبي ،  
وقد اطلع جورج بيكو حكومته ببرقية موجهة الى وزارة الخارجية  
الفرنسية على المحادثات المتبادلة مع القائد العام ، وقد أحاطه هذا الاخير  
باستقبال ودي « وفي اليوم التالي عندما بدأنا نبحت الميدان السياسي  
سرعان ما وجدت فيه الجندي الذي كنت قد عرفته ، مصمما على ان  
لايقاسمه أحد سلطته . وقد قرأ في البنود المختلفة لاتفاق ٣٠ ايلول  
مع شرح ، وكنت مستشاره السياسي فيما يتعلق بالمنطقة الزرقاء ومنطقة  
( آ ) مما يستوجب أن اقيم بشكل مستمر بالقرب منه حسب ما جاء في  
الاتفاق ، وقدمت له الضباط لمختلف المناصب التي ستوفر لهم ، وسيكون  
باستطاعتي انشاء علاقة مع السلطات المحلية ، الا أن الجنرال وحده هو  
الذي يمارس السلطة ، ويتلقى الضباط الاداريون منه وحده توجيهاتهم  
وسأبلغ بتقاريرهم ، وباستطاعتي أن أرفع له حلولي وهو وحده يبت في  
القضايا . ولم يكن باستطاعتي ان أخفي عن الجنرال اللنبي ان ذلك الوضع  
ليس هو الذي كانت تتطلع اليه الحكومتان - فتحت سلطته العليا ووفقا  
للاتجاهات المنسقة معه ، كان يعود الي بموجب المادة الثانية ، اقامة  
الادارات المحلية في المنطقة الزرقاء ، واعطاء التوجيهات ونقل أوامره  
العسكرية الرسمية . ولكن مع كل التلميح للاتفاق المعقود بين الحكومتين  
كان الجنرال يجيب « أنا لأعرف الحكومات ولاأعرف الا مكتب الحرب  
أتلقي منه فقط الاوامر » من ثم كان مستحيلا علي أن أحصل على شيء  
بهذا الخصوص (٢٧) . ان هذه البرقية أوردت تفاصيل حقيقية عن  
الحوار الذي لاجدوى منه - حوار الطرشان - القائم في سوريا بين

ممثلي الحكومتين المتحالفتين ، اذ كل جهة تعطي تفسيراً مناقضاً لاتفاق ٣٠ ايلول ، مما نتج عنه عدم تحسن العلاقات مستقبلاً أبداً . وبعد اسبوع أبرق المفوض السامي الفرنسي الى حكومته انه مادام الجيش الانكليزي يحتل البلاد فسيبقى الشك في ذهن السكان حول المستقبل المتعلق بسوريا ولبنان مشجعاً على قيام الدسائس ، وبخاصة الاحزاب المعادية لفرنسا . والعلاج الذي يرتئيه جورج بيكو هو ارسال ٢٠ ألف جندي فرنسي الى سوريا لتنفيذ الاحتلال الحقيقي للبلاد .

وسيكون لهذا الحل اطلاق يده في المفاوضات العليا حسب اعترافه لانه لم يكن باستطاعته العمل كما كان يتمنى كقائد عام ، ونتيجة للمصاعب المتعددة التي يخلفها له القائد العام « اذاً هنالك قرار يفرض نفسه ، ولا يمكن تأجيله دون أن يترتب عليه نتائج بالغة وخطيرة ، فعلى كل انسان أن يتحمل مسؤولياته . ولهذا يتوجب على المدى القريب تطمين اللبنانيين ، واشعار العرب بالقوة التي بدأوا يشكون فيها . واذا ماأجلت الامور أيضاً فان الوقت سيفوت . فالتمرددون سيتحزبون ضدنا لاننا لم نستطع العمل في الوقت المفيد . وعليه يكون وضعنا منهاراً مثلما كان عليه الحال في فلسطين ، عندما حكمت علينا الظروف بالامتناع عن الاسهام في شأنها . » (٢٨) وقد اتهم الموظفون الفرنسيون في سوريا السلطات العسكرية الانكليزية بتشجيعها دسائس الامير فيصل وانصاره . فتحت أعين الفرنسيين قدم الانكليز مساعدتهم المالية للحكومة العربية ، وسهلوا توسعه حتى في المنطقة الزرقاء ، وذلك بسماحهم لموظفي الملك فيصل برفع العلم الشريف في بيروت واللاذقية وصيدا وصور وبعبك وحاصبيا . وحسب رأي الكابيتين « مرسيه Mercier » ضابط الارتباط وممثل فرنسا عند الامير فيصل في دمشق ، ان الترحيب الخاص للسلطات الانكليزية بالحكومة العربية تؤيده المبادرات المحددة بهذه الوقائع :

١ - رفض رئاسة الاركان Head Quarters احتجاجاً ضد المرسوم الذي ظهر في جريدة لسان العرب بتاريخ ١٩١٨/١٠/٧ وبصيغة تعني ان حكومة دستورية تشمل كل سورية كانت قد خلقت في دمشق باسم الشريف حسين .

٢ - منح رسل الشريف حسين منافذ حرة الى لبنان ، لحمل مبالغ ضخمة جداً بهدف تثبيت الدعاية .

٣ - ابقاء حكام معينين موقتا في حاصبيا وراشيا وبعبك .

٤ - مكائد انكليزية سهلت مجيء بعثة من المتاولة وقبائل أخرى من البقاع وبعلبك الى دمشق لتقديم ولائها للشريف وقد تلقت منه مبالغ ضخمة .

٥ - ارسال قادمين من فلسطين الى الامير فيصل عن طيب خاطر للتطوع في جيشه .

٦ - الاسهام من قبل السلطات البريطانية والمؤسسات بنشر الخرافة القائلة أن تحرير كل البلاد العربية بما فيها فلسطين وسوريا قد تم من قبل جيش الامير فيصل وحده مما أعطاه نفوذا معتبرا في كل سوريا .

وقد أوضح الكابتن مرسيه Mercier فضلا عن ذلك بأن الرجال الرسميين البريطانيين لم يكتفوا فحسب ألا يرفعوا اصواتهم ضد مقالات الصحف العربية والخطب التي لا يحصى عددها ، والتي تفوه بها زعماء leaders العرب في دمشق والهادفة جميعها الى تدعيم هذا الايمان وبغرض يحمل سوء النية نحو فرنسا ، بل ان الجنرال اللنبي لم يتردد أبدا بأن يأتي على ذكر الانتصارات الباهرة لفيصل ، لتعزيز هيئته والفوز بمشاركته في مؤتمر السلام (٢٩) . فضلا عن ذلك فان جورج بيكو أعلن بتاريخ ١٠ كانون الاول ١٩١٨ أنه أثناء حفلة الاستقبال المنظمة في زغرتا ، كان ضباط انكليز قد وزعوا قصدا نصا عربيا للتضريح المتفق عليه بين فرنسا وانكلترا ، « وعلى الشكل الذي قدم الى رئيس جمهورية الولايات المتحدة والذي فيه تفسير موجه ، جاعلا المستمع يعتقد بأن اتفاق ١٩١٦ لا وجود له ، وان السوريين هم أحرار في استدعاء انكلترا » . وقد أضاف المفوض السامي بأن هذا النص كان قد انتشر في كل لبنان ، وانه خلق نوعا من التردد الانتخابي جعل البلاد في حالة حمى ، شديدة الغضب وأعاق ظاهريا عمله (٤٠) ، وبنفس الفترة تقريبا ابلغ جورج بيكو ادارته ، بأن مارك سايكس الذي كان قد عاد من جولة له ، كان قلقا جدا من التحول الذي اتخذته الحركة المناهضة للصهيونية ، وقد دأب منذ وصوله ، على تحويل هذه النقمة على الصهيونية ، بأن أظهر أمام أعين المسلمين الامكانات المقدمة لهم في سوريا . وقد أكد بانه في دمشق وفي المنطقة (آ) يجب ألا يحدث شيء من استقلال الحكومة الشريفة . وتابع جورج بيكو قوله ، بأن فرنسا بدت له وكأنها العائق ومن ثم فانه يسعى بكل قواه ، لدى الحكومة البريطانية والاهالي ، لتقليص نفوذها وعملها ، وقاوم بشكل خاص وبكل ما في وسعه فكرة احتلال حقيقي للبلاد من قبل قطع

فرنسية(٤١) ، وهناك شواهد عديدة أخرى صادرة عن رجال فرنسيين في سوريا وصفوا مكائد مسؤولين عسكريين ومدنيين انكليز ودسائسهم ضد النفوذ الفرنسي في الشرق الادنى كما يوجد تحت تصرفنا عدة مبادرات حسية تثبت اهتمام الحكومة البريطانية بالنضال ضد التوسع الامبريالي الفرنسي . وعلى غرار ما فعلته انكلترا في مصر سمت فرنسا لفلسطين وسوريا موظفا لقبته بالمفوض السامي . وقد عارضت الحكومة البريطانية بشدة ، وذلك خشية ان يترتب في المستقبل على اعترافها بهذا اللقب امتيازات وسلطات واسعة ، بحسب ماتقتضيه الاعراف الانكليزية .

وبرسالة مؤرخة في ٢٥ تشرين الاول ١٩٢٥ موجهة الى بول كامبون Paul Cambon لاحظت وزارة الخارجية البريطانية Foreign - office انه خلال اتصال Communication قام به السفير الفرنسي في لندن جرى بحث قضية المفوض السامي الفرنسي . وقد أبرز منشيء الرسالة بان أية تسمية من هذه التسميات لا توجد في اتفاقية ٣٠ ايلول . و اضاف انه حسب نص الاتفاقية فان الموظف الذي يجب الاعتراف به كرجل سياسي في الظروف المنوه عنها بالاتفاق كان يسمى « مندوب الحكومة الفرنسية » . وتابعت الرسالة قولها : ليس هناك مجال لتعيين مفوض سام فرنسي ، وكل محاولة لوضع موظف فرنسي بهذه الاهمية في سوريا ، سيحدث انطبعا مقلقا لدى العرب . واختتمت الرسالة بالتاكيد بان الجنرال اللنبي القائد العام يعارض معارضة كلية هذه التسمية(٤٢) . ومن أجل تعزيز مركزها في سوريا اقترحت الحكومة الفرنسية في شهر تشرين الثاني ١٩١٨ ارسال فرق فرنسية جديدة تؤمن هي بنفسها تموينها عن طريق تنظيم قاعدة في مرفأ بيروت ، الا أن القائد العام للجيش الانكليزي رفض هذا الاقتراح ، كما رفض اقتراحا ثانيا يرمي الى زيادة عدد افراد الفرقة الفرنسية في الشرق ، عن طريق تجنيد الارمن الراغبين في الخدمة تحت العلم الفرنسي ، وعن طريق تنظيم تشكيلات مساعده مؤلفة من السوريين المسلمين تماثل الفرق الجزائرية والمغربية(٤٣) . ومع كل الحاح جورج بيكو للحصول على اثناء اللنبي عن موقفه فان اللنبي بقي مصمما عليه . وكان سبب تمسكه برفضه ليس صعوبة التموين فقط ، بل ماسيحدثه ذلك التجنيد من تأثير سيء على العرب - بحسب معلوماته - ومن اضطرابات تقلقل بالمناطق التي كان يتولى مسؤوليتها(٤٤) . وفي ٢٠ كانون الاول القى وزير الخارجية الفرنسية خطابا في مجلس النواب

حدد فيه سياسة حكومته ازاء الشرق الادنى وابرز الوزير بشكل خاص ان اتفاقات ١٩١٦ ستظل تربط البلدين الحليفين ، وان الحقوق المعترف بها لفرنسا أصبحت مكتسبة منذ الان . وان فرنسا التي طلبت تكريس حقوقها في سوريا لايمكنها ان لاتبالي بمصير ارمينيا(٤٥) . ولم تسمح الرقابة في القاهرة بظهور خلاصة هذا الخطاب ، الذي نقلته وكالة هافا Havas الا في الجزء المتعلق بالسياسة الفرنسية في الشرق ، بالرغم من المساعي الكثيرة لوزارة الخارجية الفرنسية لدى وزارة الخارجية الانكليزية ولدى السلطات العسكرية الانكليزية في القاهرة . ولم يقرر المراقب نشره الا في ٢٠ كانون الثاني ١٩١٩ بعد ان عرف مضمون الخطاب بفضل الصحف الاوربية(٤٦) .

هذه الحوادث المختلفة وترتت الجو السياسي وبشكل خطير بين البلدين اللذين لم يتوانيا عن التراشق بالتهديدات . وبالرغم من انتهاء الحرب آنذاك فان أية مسألة لم تكن قد حلت . وفي ٢٤ تشرين الثاني كلف وزير الخارجية ستيفن بيثون Stephan Pichon سفيره في لندن ان يلفت انتباه الحكومة البريطانية الى قضية رفض الجنرال اللنبي السماح بتجنيد فرق مساعدة لمصلحة فرنسا . وبصيف جازمة بين الوزير أنه « لمصلحة الوفاق الطيب بين الجيشين ، من الضروري أن تعمل الحكومة البريطانية على افهام أركانها في سوريا ، بأن هنالك مصلحة سياسية في الامر وليست القضية مجرد قضية عسكرية . وان رغبات الحكومة الفرنسية التي تخصنا يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار(٤٧) » . وقد كرر اللورد بلفور من جهته تهديدات مباشرة ضد فرنسا ، وابلغ الحكومة الفرنسية بأن الحكومة البريطانية قررت عدم التساهل بقضايا أوربية تهم فرنسا مثلا أثناء تسوية السلام ، اذا كانت لاتبدي مرونة في القضايا المتعلقة بالشرق الادنى(٤٨) . ولنلاحظ أخيرا انه أثناء اجتماعات مؤتمر السلام كانت المباحثات المتبادلة بين لويد جورج وكليمانصو أقل ما يمكن قوله فيها انها بعيدة عن التقاليد والاعراف الدبلوماسية .

أمام تدهور العلاقات الفرنسية الانكليزية ، وفي مواجهة المنافسة الامبريالية البريطانية التي يحركها تشجيع فيصل على تأسيس دولة عربية كبرى تحت الوصاية الانكليزية ، فقد مارس الفرنسيون وعلى عكس الانكليز ، سياسة تهدف الى زيادة حدة التنافس العرقي والديني في الشرق ، ليفرضوا وجودهم ، الا أنهم كانوا على علم بأن تحقيق تطلعاتهم الاستعمارية كان مقيدا باتفاق سابق مع بريطانيا العظمى .

## فرنسا أمام المسألة السورية :

ان العمل الفرنسي في سوريا كان مبعثه الطموح بمد النفوذ الاستعماري الفرنسي والتكتيك المخصص لتأمين نجاح هذا العمل رسمته مذكرة وجهها روبر دو كيه Robert de caix الاختصاصي في وزارة الخارجية الفرنسية في قضايا الشرق الادنى الى وزير الخارجية . وحسب رأي هذا الموظف الكبير يجب أن تبنى السياسة الفرنسية في سوريا « على الواقع السوري ، وعلى النظام الاكثر ملاءمة لمصالحنا في آن واحد . ان هذا الواقع وهذه المصالح ينصحان بتنظيم مختلف تماما عن التنظيم الذي يجده فيصل ، وتابع قوله : هذه البلاد هي فسيفساء من الاديان ان لم يكن من العروق ، وبعض هذه الجماعات كما في لبنان أو في حوران تريد دعم استقلالها الذاتي والاعتراف به ، وهكذا » فان القومية العربية التي يمثلها فيصل ليست ضرورة في السياسة السورية التي تكون فيها هذه القومية بدعة اصطناعية وغير مرغوب فيها بالنسبة لنا ، وان الحكم الذاتي سيؤمن على نحو أفضل استمرار عملنا ويستجيب للتقاليد ولرغبات البلاد » (٤٩) .

ان هذه الاستراتيجية تعارض الاستراتيجية التي يجدها الانكليز ، والذين كانوا يسعون فيها لتوحيد الاراضي العربية التي كانوا لا يتولون فيها الادارة المباشرة ، تحت سلطة فيصل ، الذي شعر بانه مهدد بالفرنسيين فبحث عن حماية لدى المملكة المتحدة ، وسيقبل بسهولة التجاوزات الانكليزية . ان الاستراتيجية الفرنسية تتعارض مع مشاريع الامير فيصل ، الذي بالرغم من ادراكه لوضعه كسجين لانكلترا لم يكن مخدوعا بالألعاب والدسائس الانكليزية . وحسب مذكرة فرنسية حررها روبر دو كيه كان الامير فيصل وطنيا عميق العداوة لكل رقابة اجنبية ، ولم يكن من المستطاع أن نرى فيه أية شخصية كانت تصلح في الشرق لتمثيل دور باي تونس أو سلطان مراکش ، ولم يكن بالامير الجائع الذي خرج من الحجاز برغبة الحصول على أي بلاط ، وعلى حريم من سوريا . كان فيصل نصيرا متحمسا للتعاون العربي ، كان يريد أن تتمكن جميع البلاد الناطقة باللغة العربية من تكوين اتحاد تحت اشراف العائلة الشريفة المكية . وكان فيصل يعمل في دمشق ممثلا لوالده ، وقد مثله في مؤتمر السلام ، وكان يرى فيه ملكا للعرب . فمن وجهة نظر روبر دو كيه كان ليفصل رؤية وطنية أكثر منها دينية ، وذلك باعتماده على وحدة اللغة فتأكيد على



وحدة سوريا كان يستميل المسيحيين واليهود فيها ، كما كان يريد أن يصنع منها مركزا تنجذب اليه البلاد العربية الاخرى ، ويريد أن يجعل منها ميدان ثقافة عربية محضة بقدر الامكان . وكان قد عبر لروبير دو كيه أثناء مفاوضات نيسان ١٩١٩ عن الاستياء الذي سببه له نجاح المدارس الفرنسية ، التي كانت تفرس الى حد كبير كثيرا من السوريين وعلى الاخص المسيحيين ، وأكد له أنه لن يقبل أن تبقى لغة التعليم الاولى في أية مدرسة سورية لغة أجنبية بل يجب أن تعلم كلغة أجنبية . وقد أشار روبر دو كيه الى ذلك كتابة بأن قال وهكذا فان وجود سوريا متحدة تحت حكم الاشراف سيشكل عائقا وخطرا بالنسبة لفرنسا ، لان سورية المتحدة ستشكل اطارا يشجع نمو القومية العربية التي كانت قليلة الانتشار ، وستقوى الاتجاهات التي كانت موجودة في بعض الاوساط في كل الشرق ، والتي كانت تعززها تصريحات ويلسن . ولذلك أكد « روبر دو كيه ان اكثر القوميين المناصرين لفصل حكمة ، يريدون تحقيق وحدة سوريا واستقلالها ويرون ان المطامح السياسية التي كانت فكرة سوريا متحدة تفتح لها الطريق ستؤدي الى نشر القومية في باقي الولايات العربية » . ان البناء الذي يتجه اليه الشريفون الواعون هو معاكس جذريا لسياستنا في سوريا ، وفي شمال افريقيا ، وان شخصية فيصل ذاتها مهما كانت ملائمة وساحرة لن تجعل في أعيننا هذا البناء مرغوبا (٥٠) . ومن جهة أخرى كانت الدبلوماسية الفرنسية مقتنعة بأن استراتيجية البريطانيين وآمال فيصل كانتا متناقضتين ، بل لا يمكن التوفيق بينهما ، وكدليل على ذلك لاحظ الفرنسيون مواقف اتخذها فيصل بشأن فلسطين والعراق وذهب روبر دو كيه الى حد التأكيد « ان أسوأ لعبة نستطيع أن نلعبها على الانكليز ، لولا أننا نخاف من أن ندمر أنفسنا ، هي بلاشك أن نشجع وجود الدولة السورية كما يتصورها فيصل وأصدقائه ، وان نحاول منعها من الوقوع في الفوضى ، وان نحميها من كل تدخل أجنبي . وستكون موثلا تتجه اليه أنظار أوساط مضطربة كأوساط مصر أو حتى أوساط ما بين النهرين الذي لا تبدي أي ميل للسيطرة البريطانية (٥١) » .

ان افتتاح مؤتمر الصلح في فرساي في بداية كانون الثاني ١٩١٩ لم يهدىء مطلقا التزاحم الفرنسي البريطاني حول الشرق الادنى ، وكان الفرنسيون واعين متانة الموقف الانكليزي ، وان باستطاعة الانكليز الحاق الاذى بالمصالح الفرنسية في أوروبا . وعلى صعيد الشرق الادنى أخذ

الانكليز ضمانات باحتلالهم بقواهم العسكرية أراضي متنازعا عليها . ولهذا فانه منذ شهر كانون الاول انجزت الدبلوماسية الفرنسية خطة محكمة للوصول الى اتفاق مع الانكليز يضمن للفرنسيين الرقابة على سوريا سواء في المنطقة الزرقاء أو المنطقة ( آ ) كما حددتهما اتفاقات ١٩١٦ . وعلى المستوى العسكري فان الفرنسيين ادركوا بان احتلال سوريا وحده من قبل فرق فرنسية تحل محل القوى الانكليزية كان السبيل الوحيد لتقوية مركزهم . حقيقة ان هذا الاحتمال كان قائما منذ شهر تشرين الاول ١٩١٨ ، ولكن منذ شهر كانون الاول ١٩١٨ وكانون الثاني ١٩١٩ أخذت الحكومة الفرنسية تتابع باصرار تحقيق هذا الهدف .

وفي ٣٠ كانون الثاني ١٩١٩ دعا لويد جورج مؤتمر السلام الى فحص توزيع الفرق في تركيا والقوقاز ، بهدف التخفيف من التضحيات التي تقدمها بريطانيا العظمى . وكتمة لهذا الطلب فان الممثلين العسكريين للبلاد المتحالفة هيئوا خطة تتضمن :

— احتلال سوريا وكليزيا من قبل فرنسا بفرقتين ولواء من الخيالة .

— احتلال مابين النهرين بما فيها الموصل من قبل بريطانيا العظمى : فرقتان ولواء من الخيالة .

— احتلال القوقاز وقونيه من قبل ايطاليا (٥٢) .

هذه الخطة وضعت في جدول أعمال المؤتمر ، ولكن بناء على طلب اللورد ملنر Milner أجلت المسألة ثم لم تبحث مطلقا . ومع ذلك استغلت فرنسا قرار الممثلين العسكريين هذا لتطالب بحق الاحتلال العسكري لسوريا وكليزيا .

وخارج مؤتمر السلام ، وبصورة موازية له ، تمسك الفرنسيون باجراء مفاوضات مباشرة بين رئيسي الحكومتين للوصول الى اتفاق بطريقة ودية . وفي شهر كانون اول ١٩١٨ أثناء زيارة كليمانصو الى لندن ، اعتزم رئيسا الحكومتين الانكليزية والفرنسية التفاوض بكل صراحة ووضوح والتفاهم نهائيا . وطلب رئيس الوزراء الفرنسي من مفاوضه تأكيد اتفاق ١٩١٦ ، فأجاب لويد جورج انه لا يرى صعوبة بشأن حقوق فرنسا في سوريا ، وفي كليزيا ، لكنه طالب ببعض الاماكن التي في رأيه يجب أن تضمها المنطقة البريطانية ، والتي حسب اتفاق

١٩١٦ كانت في منطقة النفوذ الفرنسي . وكان هذا وضع الموصل بشكل خاص ، وطلب أيضا فلسطين ، التي حسب الاتفاق نفسه كان يجب أن تخضع لنظام دولي . وعند عودته الى باريس حرص كليمانصو على دراسة هذا الاتفاق بأكبر قدر من التحديد وبالتالي اعدت الحكومة الفرنسية مشروع اتفاق أحيل الى الحكومة البريطانية في ٦ شباط عام ١٩١٩ (٥٢) . وقد أخذت فرنسا بعين الاعتبار معطيات الموقف ، وجو المؤتمر ، فانقصت بشكل محسوس في الشمال المنطقة المحددة في اتفاقية ١٩١٦ وتنازلت عن الموصل ، وارجعت الحدود الشرقية لمنطقتها الى حوض الخابور ، الذي كان ضمن المنطقة الفرنسية . وبنفس الوقت سلمت خارطة أولية مع تخطيط تقريبي للمنطقة التي كانت فرنسا تطالب بالانتداب عليها .

وجوابا على هذه التنازلات التي تضاف الى التنازلات عن فلسطين وحيفا ، سلم الكولونيل هانكي Hankey وزير الخارجية الفرنسية مصورا لايقيم وزنا للحدود التي أقرها اتفاق ١٩١٦ فهي تنقص نحو ثلثي ٢ المنطقة الداخلية الشرقية من سوريا والمحددة منذ ذلك الحين بخط ينطلق من Dibra على الفرات ومارا بتدمر ، كما انها تنقص أيضا الحدود الجنوبية واضعة جبل الدروز خارج منطقة النفوذ الفرنسي . وأخيرا فهي تفصل سوريا عن السهل الخصيب الجنوبي (٥٤) .

ان هذه الحدود المرسومة للمنطقة الفرنسية على المصور الذي سلمه الكولونيل هانكي رفضتها فرنسا التي اعتبرت ان سوريا لا يمكن ان تتشكل منطقيا الا من الاراضي التي كانت موضوعة على المصور الفرنسي ١٩١٦ ، وهذه الاراضي يحدها من الجنوب خط ينطلق من رأس الناقورة الى استان Istan في جنوب جبل الدروز على الضفة الغربية لبحيرة طبريا و Desra ثم يصعد من استان الى الفرات الذي يبلغه عند البوكمال وأخيرا يكون حده الشرقي حوض نهر الخابور حتى نصيبين . ومقابل التنازلات التي وافقت عليها فرنسا طلبت من بريطانيا العظمى :

١ - دعما مؤكدا في مؤتمر السلام للمطالب الفرنسية بشأن سوريا وكيكيا والمحددة كما رأينا .

٢ - تصريحا شبه رسمي ، وواضحا كل الوضوح ، موجهها الى الامير فيصل ، أن عليه التفاهم بصدد سوريا مباشرة مع الحكومة الفرنسية وان لايعتمد في مناهضة فرنسا على مساندة الحكومة الانكليزية ، كما يجب على الحكومة الانكليزية أن تكف عن دفع الاعانة المخصصة لفيصل لدعم

ميزانية الحكومة العربية ، وان على فرنسا منذ الان فصاعدا أن تقوم بدفع هذه الاعانة .

٣ - القبول والتنفيذ الفوري لقرار الخبراء العسكريين في مجلس فرساي المتعلق بتوزيع الاحتلال العسكري في الاجزاء المحتلة من الامبراطورية العثمانية أي تسليم القوات الفرنسية مهمة احتلال جميع أراضي سوريا وكيكيا(٥٥) .

ان المفاوضات الفرنسية البريطانية على مستوى القمة لم تحل مطلقا الخلاف بين الدولتين . وفي أثناء اجتماع رؤساء الدول والحكومات المتحالفة في باريس في ٢٣ آذار ١٩١٩ جرت مجابهة عنيفة بين ممثلي فرنسا وانكلترا ، وقد اضطر لويد جورج البارع جدا ، وزير الخارجية الفرنسي الى اتخاذ موقف دفاعي . اذ برهن أن بلاده لم تنكث بالتزاماتها ، وان فرنسا اذا اعطت اتفاق ١٩١٦ تفسيراً خاطئاً ، كانت تسعى لاحتلال لبنان وسوريا ، بينما كانت قد تعهدت في أن تعترف في المنطقة (آ) بتكوين دولة أو اتحاد من الدول المستقلة ، وذهب رئيس الحكومة البريطانية الى حد التأكيد ، انه لا توجد مشكلة بين فرنسا وانكلترا ، لان بلاده منذ ١٩١٢ كانت قد تخلت عن سوريا . الا أن المشكلة كانت بين فرنسا ومؤتمر السلام الذي يجب أن يحل القضية السورية حسب الوعود ، والالتزامات السابقة ، وحسب مبدأ تقرير مصير الشعوب ، أي تقرير مصير العرب هنا في أن يمنحوا أنفسهم المؤسسات التي يختارونها وقد حمل هذا الخطاب الرئيس ولسن على اقتراح تشكيل لجنة تحقيق من الحلفاء تذهب الى الشرق الادنى مهمتها استطلاع عواطف السكان فيما يتعلق بالادارة المقبلة لشؤونهم وفي انتظار ذلك أيد الوضع القائم(٥٦) وأقر الاقتراح الاميركي بالاجماع كما قرر مؤتمر السلام فيما بعد أن تتألف لجنة التحقيق من ممثلين من كل البلاد الآتية : الولايات المتحدة ، بريطانيا العظمى ، فرنسا ، ايطاليا ، وحدد للجنة أن تستطلع قدر الامكان حالة الرأي العام في المناطق المعينة ، فيما يتعلق بالحاجات ، والادارة ، وفي أن تجمع كل المعلومات التي تنير المؤتمر فيما يتعلق بالاوضاع الاجتماعية والعرقية والاقتصادية ، وان تسعى لتكوين رأي قدر ماتسمح به الظروف والوقت المتاح لها عن تقسيمات الاراضي وعن تعيين المنتدبين الاصلح لدعم النظام والسلام في هذه المناطق ولتقدم الشعوب في طريق الحضارة(٥٧) . ان قرار انشاء لجنة تحقيق لم يفض الى أية نتيجة ، فبعد أن وافقت الحكومة

الفرنسية عادت ورفضت تسمية ممثليها في اللجنة خشية أن يأتي التقرير منافيا لمصالحها لو أتيحت للسكان حرية التعبير ، كما خشيت من مناورات السلطات الانكليزية في المناطق المعنية .

واقترح الانكليز بالفرنسيين وتخلوا من جهتهم عن تعيين ممثليهم . وفي النهاية تحولت لجنة التحقيق الدولية الى لجنة أميركية انتقلت الى البلاد المذكورة ، وقامت بتحقيق اعتبرته فرنسا يعكس الرأي العام الاميركي . وأمام الطريق المسدود الذي وجدت فيه الحكومة الفرنسية نتيجة الموقف الانكليزي ، بادر كليمانصو الى الشروع بمفاوضات مباشرة مع الامير فيصل في ربيع ١٩١٩ .

### مفاوضات بين فيصل والحكومة الفرنسية :

وحقيقة القول كانت الحكومة الفرنسية ترفض دائما التفاوض مع فيصل الذي اعترفت به كممثل فقط لمملكة الحجاز ، وبالتالي ليس له حق أن يتكلم باسم السكان السوريين . وصل الامير الى فرنسا في أواخر ١٩١٨ ليحضر أعمال مؤتمر السلام ، وقد رفضت الحكومة الفرنسية باصرار أن تعقد معه عقودا . وكانت الدبلوماسية الفرنسية في الواقع قد قررت منذ البداية أن التفاوض مع فيصل يجب أن يكون لاحقا لوفاق مع انكلترا وليس سابقا عليه بسبب ميوله الوحودية العربية Ponarabe ورغبته بخلق مملكة عربية كبيرة ، وكان فيصل يعتبر الشخصية الأكثر خطورة على المصالح الفرنسية في الشرق . فضلا عن ذلك عند وصول الوفد العربي الى باريس برئاسة الامير فيصل شنت الصحافة الفرنسية ضده حملة شعواء قاسية لم تستبعد منها الشتائم . وكانت الحكومة الفرنسية مقتنعة ، ان مفاوضاتها مع انكلترا ستفضي الى نتيجة في مهلة قصيرة ، الا أن بريطانيا العظمى الحث على الحكومة الفرنسية كي تتفاهم أولا مع الامير من أجل فتح باب الحوار بين البلدين . ولذلك قابله كليمانصو بمقابلة طويلة في ١٣ نيسان بعد ان كان قد مضى على وصوله العاصمة الفرنسية اكثر من ثلاثة أشهر . وبدا ان محادثات الامير مع رئيس الوزراء دلت على امكان التفاهم على المسألة السورية ، ولتحقيق هذا التفاهم تقرر فتح باب المفاوضات . ان فتح المفاوضات كان نجاحا سياسيا للامير الذي اعترفت به الحكومة الفرنسية كناطق باسم السوريين ، وعلاوة على ذلك فان فتح باب الحوار في هذه الاونة كان يقوى الى حد كبير موقف الحكومة

العربية في دمشق . وكان فيصل يخشى من قيام اتفاق مباشر بين فرنسا وأنكلترا يمحى وضعه الشخصي ، كما كان يخاف من مناورات فرنسا لدى بعض الفئات المسيحية في لبنان التي تشعر بعطف حقيقي نحو فرنسا ، وكان يريد بشكل خاص الحصول من الحكومة الفرنسية على تصريح يعترف به كمثل ، وكمملك لسوريا الحرة والمستقلة والتي تشكل جزءا من الاتحاد العربي (٥٨) . واثرا لمقابلته مع كليمانصو عين روبير دو كيه من قبل رئيس الوزراء الفرنسي ليمثل بلاده في هذه المفاوضات . وبواسطة « قدور ابن غبريط » تحدث روبير دو كيه مطولا يومي ١٥ و ١٦ نيسان ١٩١٩ مع الامير الذي بدا حذرا جدا اذ كانت تقلقه فكرة الانتداب كثيرا ومما زاد في قلقه حديث كليمانصو الذي أكد له ان العلم الفرنسي يجب أن يخفق في دمشق وحلب (٥٩) . وكان على روبير دو كيه ان يكافح دوما ضد الذكرى التي تركها في نفس فيصل تأكيد رئيس الوزراء هذا ، مؤكدا انه يجب أن لا نعطي هذا الكلام معنى دقيقا ، فالرئيس كليمانصو حرص فقط أن يبين بصورة لطيفة ان نفوذ فرنسا سيبقى جليا في كل سوريا (٦٠) . وسعى روبير دو كيه الى توجيه المفاوضات نحو اتفاق يشمل أساسا المواد الثلاث التالية:

١ - ستعترف فرنسا باستقلال سوريا ضمن الحدود التي يسمح بها مؤتمر السلام المدعو الى تسوية مصير البلاد المنتزعة من العدو .

٢ - ان سوريا المستقلة هذه سيكون لها شكل اتحاد لمناطق محلية تتمتع بالحكم الذاتي وتستجيب لاماني وتقليد السكان .

٣ - يعترف الامير بان فرنسا كانت القوة المؤهلة لتمنح سوريا المساعدة الضرورية من أجل التحرير . وحسب روبير دو كيه ان البند الاول من هذه البنود هدفه اعطاء الامير مصلحة في عقد الاتفاق . وكلمة استقلال - كما يشير المفاوض الفرنسي - تثير اهتمام فيصل وحاشيته وأنصاره في سوريا ، وكانت فرنسا قد أوردتها ( الاستقلال ) في تصريحها المشترك مع أنكلترا في ٩ تشرين الثاني ١٩١٨ . والبند الثاني كان ضروريا كي لا يصبح الاتفاق مع فيصل بالنسبة لفرنسا خطرا وعقبة كبيرة ، واذا لم تتعهد فرنسا ببقاء أمر اقامة حكومة ذاتية محلية ، فانها ستعرض لفقدان انصارها الذين سيتوهمون أنها اسلمتهم لفيصل ، مما يجعلها لاتجد فيما بعد أنصارا علنيين في سوريا يوم تطرح قضية الانتداب على بساط البحث ، وعلاوة على ذلك - حسب روبير دو كيه - سيجعل مهمة الفرنسيين صعبة في ممارسة دور الحكم ، الذي يجب أن يكون من

أولى المهام التي تقع على عاتق دولة كلفتها عصبة الأمم بالانتداب على دولة في الشرق . والبند الثالث كان يجب أن يحقق المصلحة التي تتوخاها فرنسا من التفاهم مع فيصل ، وذلك بأن يعترف هذا الأخير بالدور الذي ستلعبه فرنسا في تحرير سوريا ، أي الاعتراف ضمنا بحق فرنسا في الانتداب على سوريا . وخلاصة القول ان الاعتراف باستقلال سوريا لم يكن في نظر الدبلوماسيين الفرنسيين الامنورة وهمية لفرض السيطرة الاستعمارية الفرنسية بشكل حماية . وفي ١٧ نيسان شعر روبر دو كيه ان الامير فيصل وصل الى حد لا يمكن حمله على توقيع اتفاق حسبما ورد آنفا ، وكان يجب الاستعجال لان سفره الذي أجل أملا باتفاق مع الحكومة الفرنسية ، قد تحدد في اليوم التالي مساء . فكتب المفاوض الفرنسي رسالة تضم قدر الامكان الشروط الثلاثة ، وفي الفقرة الاخيرة أمل ان الامير اذا قبل بنصوصها ، فان الموظفين الفرنسيين في سوريا سيعملون منذ الان فصاعدا على مساعدته . وتفضل كليمانصو بتوقيع هذه الرسالة التي حملها روبر دو كيه الى فيصل بعد الظهر . وبدا الامير مهتما بها ، لكنه طلب مهلة للتفكير ، وأعطى موعدا لمفاوضه في المساء . وعندما قابله هذا الأخير كان مترددا جدا اذ وجد الرسالة مرنة ، وقام بحركة تعني انها كالمطاط ، فأخذ روبر دو كيه الرسالة معلنا أن التقليد الدبلوماسي يقضي أن يسحب الاقتراح غير المقبول ، وان على الامير أن يقترح بدوره نصا يكرس المحادثة المتبادلة مع كليمانصو (٦١) . ووعده الامير أن يقترح نصا يسلمه في صباح اليوم التالي ، واخر سفره ليتاح له انجاح المفاوضات . ولم يسلم الامير جوابه الا بعد يومين ، أي يوم السبت ١٩ نيسان ظهرا ، بواسطة أمين سره عوني عبد الهادي الذي كتب الرد . وبعد عبارات الشكر التقليدية ، اشار فيصل في رسالة موجهة مباشرة الى كليمانصو ان المهمة التي كلفه بها السوريون هي أن يطلب لهم الاستقلال الكامل وبدون شرط ولا تحفظ ، ثم ذكر بمجرى المفاوضات وبكتاب رئيس الحكومة الفرنسية ونعته بهذه الكلمات : لسوء الحظ ان الكتاب الذي تلقيته منكم لم يكن واضحا ودقيقا كما كنت آمل ثم عدد فيصل رغبات جميع سكان سوريا بما فيهم السوريون في الخارج :

١ - ان الشعب السوري يطلب من الحكومة الفرنسية ، ومن كل حكومات أوروبا ، ومن الولايات المتحدة الاميركية الاعتراف باستقلاله الكامل والمضمون من قبل عصبة الأمم ، وأن يكون على شكل ديموقراطي اتحادي بحسب رغبات السكان وتمنياتهم .

٢ - مع ان ( الامة السورية ) مستعدة تماما لتحقيق استقلالها الكامل ، فسيساعدها توظيف المستشارين والاختصاصيين الفنيين في العمل الكبير المتمثل في تشييد حكومتها المقبلة ويكون هؤلاء على نفقة السوريين .

٣ - ان الامة السورية نظرا للصدقة القديمة والعميقة القائمة بينها وبين الامة الفرنسية ، تنتظر من هذه الاخيرة الدعم في الحصول على استقلالها . وفي هذه الحالة فان فرنسا ستزيد من نفوذها الادبي وتطور مصلحتها في كل سوريا (٦٢) .

ان رسالة فيصل هذه التي سردت المطالب السورية قال عنها روبر دو كيه بأنها « اثر فظ » وصرح لعوني عبد الهادي بانه يرفضها ، وأنه لن يعمل على ايصالها حتى لرئيس مجلس الوزراء ، خشية ان يفسرها بشكل لا يعد بالامكان اصلاحه ، معتبرا ذلك بمثابة قطع للحوار . وقدر روبر دو كيه ان هذه الصلابة من قبل فيصل يمكن تفسيرها بتأثير الكولونيل لورنس الذي وصل لتوه الى باريس قادما من لندن ، والذي هو حسب الاوساط الفرنسية نصح فيصل ان يتخذ موقفا متصلبا .

وفي الواقع بعد رفض المطالب السورية سلم عبد الحميد عوني ( هكذا وردت في النص ) الى روبر دو كيه في نفس الامسية رسالة جديدة من الامير فيصل لاتتضمن أي تنازل، ولما كانت صيغة هذه الرسالة مناسبة فقد قبلها الدبلوماسي الفرنسي . واكتفى جورج كليمانصو بشكر الامير على كلماته الجميلة في مقابلة قصيرة تمت يوم عطلة ٢١ نيسان وقبل بضع ساعات من سفره (٦٣) .

ان فشل هذه المفاوضات لم يشن الفرنسيين عن اعادة البحث عن اتفاق مع الامير فيصل وفي الواقع ان اتفاقا موقتا بين فيصل وكليمانصو وقع في ٦ كانون الثاني ١٩٢٠ . وبموجبه اعترفت فرنسا بالامير كناطق باسم سوريا وضمنا كرئيس لها كما قبلت فرنسا بوحدة سوريا باستثناء حوران ، التي نص على استقلالها الذاتي في رسالة ملحقة . فالاتفاق اذا لحظ الوحدة ، وليس اقامة مناطق ذات استقلال ذاتي ، كما لحظ اقامة برلمان يعبر عن السيادة الوطنية ، ولحظ أيضا في المقطع الخاص باقامة القوات الفرنسية التي جلت عن كليكيا في حلب ، ومن جهة ثانية فان الامير اعترف مقدما بالانتداب الفرنسي والتزم بالاستعانة بمستشارين



فرنسيين دون غيرهم (٦٤) . وبالرغم من المفاوضات الفرنسية العربية فان فرنسا كانت مقتنعة بأن مصالحها ومصالح فيصل كانت في نهاية الحساب متباعدة ، ولذلك تابعت باصرار محاولاتها للوصول الى اتفاق مباشر مع الانكليز الذين سيضعون فيصل أمام الامر الواقع .

### نحو اتفاق فرنسي - انكليزي :

منذ ربيع ١٩١٩ طرأ على الموقف الانكليزي تجاه فرنسا تراخيا ، وكان هنالك عدة عوامل في الاصل سببت هذا الموقف الجديد ، فانكلترا نفسها وجدت صعوبات جسيمة ومقاومة ضارية من قبل السكان الاصليين تجاه مشروعها لتشكيل وطن قومي يهودي في فلسطين . وكذلك الامر بالنسبة لسيطرتها الاستعمارية في بلاد ما بين النهرين ، اذ لقيت مقاومة عنيفة . وفي مصر فان الحركة الوطنية المصرية ثارت غداة الحرب مستفيدة من مبادئ ولسن فطالبت بتحرير البلاد . والخلاصة فان الانكليز ادركوا خطورة التعاون العربي Pan Arabisme الذي من المحتمل أن يتحول الى سلاح في معركة الدفاع ضد المصالح البريطانية في الشرق الادنى . فضلا عن ذلك في نهاية الحرب أظهرت بريطانيا العظمى رغبتها بتضحية الاطماع الايطالية . وقد فهم عدد كبير من الانكليز انه يجب أن لا يلحق بفرنسا خيبة أمل يمكن أن تترك بين البلدين مرارة دائمة . وهذا ما يفسر حضورها عام ١٩١٩ لقيامها بمساومات تتعلق بتحديد الحدود بين فرنسا وانكلترا ، لان هذه الاخيرة كانت مستعدة منذ الان فصاعدا للوصول الى اتفاق ودي مع حليفها ، وذلك بأن تؤمن لنفسها منزلة متفوقة ، ومقلصة الى أقصى حد ممكن منطقة النفوذ الفرنسي . ومع ذلك بدت فرنسا أكثر انغلاقا ، ونافذة الصبر . وخلال صيف ١٩١٩ بدأت الصحافة الفرنسية وبتوجيه الحكومة ، بشن حملة حقيقية ضد سياسة الحكومة البريطانية المعادية للمصالح الفرنسية ، كما أسهم في هذا النقد بعض الشخصيات الفرنسية الرسمية مثل روبر دو كايه Robert de Caix . هذه الحملة حركت الى حد معين الوزارة الانكليزية فباشرت خطوة رسمية لدى السفير الفرنسي في لندن .

هذه الاعتبارات أدت الى نتيجة كانت تبحث عنها فرنسا . و في ١٢ تموز أعلنت بريطانيا العظمى وبشكل مكتوم الامير فيصل بأنها تخلت صراحة عن الانتداب على سوريا (١٥) . ولم تتأخر عن مبادرات جديدة لتوضيح الاتجاه الجديد للسياسة الانكليزية . ففي ٦ ايلول ١٩١٩ اتخذت

التايمس موقفا لاليس فيه لحت حكومة بلادها لدعم المطالب الفرنسية في سوريا : « يجب أن تحصل فرنسا على انتداب على سوريا ، وواجبنا مساعدة فرنسا في الحصول عليه ، وتمهيد الطريق الذي يسمح لها أن تقوم به بنجاح . ومن واجبنا أن نعمل كل مانستطيع لتشجيع قيام تفاهم ودي بين فرنسا والامير فيصل . وبصورة عامة يجب السعي حتى لا يأتي أي ظل من الشرق يظلم مستقبل الصداقة الفرنسية الانكليزية » وفي اليوم نفسه أبرق قنصل فرنسا في بورسعيد الى حكومته ليعلمها بتبدل موقف الضباط الانكليز حول القضية السورية . وقال انه لم يمض الا وقت قصير على قولهم بأن مصير سوريا لم يكن مقررا ، ومن الواجب على كل حال الاخذ بعين الاعتبار عواطف السكان الذين يتحدثون عن أشياء وأشياء عدا حقوق فرنسا « فهم يقولون اليوم أكثر من أي وقت مضى ان انكلترا لاتريد الاتيان بعمل من شأنه مضايقة الشعب الفرنسي ، واذا كان الرأي العام في فرنسا مهتما بسوريا فان انكلترا ستساعد الادعاءات الفرنسية(٦٦) . وكذلك في الفترة ذاتها توترت علاقات بريطانيا مع فيصل ، ولم يعد الضباط الانكليز يترددون في استعمال الحزم ، بل التهديدات تجاه حكومة دمشق العربية . وأمام المظاهرات السورية في ٦ و ٧ ايلول المنظمة للتعبير عن الاحتجاج ضد السيطرة الاستعمارية المحتملة كلف الجنرال اللنبي، رئيس المكتب السياسي في الاركان بمرافقة ضابط فرنسي للقيام بمسعى لدى فيصل . وقد قرأ الضابط تصريحاً حازماً، مبرزاً بأن المارشال اللنبي المسؤول عن أمن البلاد تجاه مؤتمر السلام ، لن يتردد مطلقاً في قمع كل فتنة محتملة تعرض النظام العام للخطر . وأما جواب فيصل الذي شرح بأن هذه المظاهرات لم تكن الا للتعبير عن ارادة الشعب بأنه لا يتسامح أبداً في تقسيم سوريا ، أو في استعمارها من قبل قوة أجنبية ، وان هذه المظاهرات بالتالي مشروعة لانها مرتكزة على فكرة العدالة ، وان القائد العام الممثل لفكرة العدالة هذه ، التي من أجلها قاتل الحلفاء ، لا يستطيع معارضتها . وقد أجاب الممثل البريطاني بجفاء سواء أكان ذلك مبرراً أم لا فان كل اضطراب ينشأ عن ذلك سيقمع بالقوة(٦٧) . ان التحول الحاسم لهذا الاتجاه الجديد اتضح بالقرار البريطاني بتاريخ ١٥ ايلول ١٩١٩ ، الذي قبلته فرنسا ، وهو جلاء الجيش البريطاني عن سوريا وكيكيا وان تحل مكان هذه القوى قطع فرنسية(٦٨) . ومنذ ذلك الوقت تتابعت

الحوادث بسرعة ، ففي مطلع شهر تشرين الاول ١٩١٩ عينت الحكومة الفرنسية الجنرال غورو مفوضا ساميا في سوريا وقائدا عاما لجيش الشرق الفرنسي . ان تسمية جنرال له شأنه ونفوذه ، ومعروف بسلطته وصلابته يشير الى النوايا الحقيقية لفرنسا في سوريا (٦٩) .

وبالاضافة الى ذلك عند تنفيذ الاتفاق الفرنسي البريطاني حول استبدال القطع من سوريا ، طلبت الحكومة البريطانية من فرنسا ان تتحمل اعتبارا من مطلع شهر تشرين الثاني ١٩١٩ نصف الاعانة الشهرية وهي تعادل ٧٥٠٠٠ جنيه استرليني كانت قد دفعت من قبل فيلق الاحتلال البريطاني الى الامير فيصل (٧٠) . اجتمع مؤتمر السلام في ٢٦ نيسان في سان ريمو « لتصديق الوفاق الفرنسي - البريطاني مقررا ان يعهد الى انكلترا بالانتداب على ما بين النهرين وفلسطين وفرنسا بالانتداب على سوريا (٧١) » .

## خاتمة

تشكل الحرب الكبرى مرحلة حاسمة في تطور الامبريالية الغربية . ان الغاء الامبراطوريات المركزية ( الوسطى ) وروسيا ترك المسرح خاليا أمام فرنسا وبريطانيا العظمى . وقد وجدت فرنسا التي انهكت اقتصاديا ، ورعفت ديموغرافيا ( سكانيا ) نفسها في وضعية متدنية تجاه حليفها التي حاولت ابعادها كليا . وفي نهاية الاعمال العدائية وجدت انكلترا نفسها سيدة الشرق الادنى التركي برمته . ولكي تنظم هذه الاراضي الواسعة وتستغلها لمصالحها دون أن تلقى من الان فصاعدا عداء أي منافس ، وعت المملكة المتحدة أنه من الضرورة في نهاية الحساب القيام ببعض التنازلات لحليفها . والحصة التي أعطيت لفرنسا تمثل شيئا قليلا بالنسبة للمكاسب البريطانية ، وقد رأى الانكليز بان التطلع الى الحرية والاستقلال وكذلك فكرة الجامعة العربية Pan Arabisme التي تطورت في بعض الاوساط ، كان كل ذلك أكثر خطورة على بريطانيا العظمى بل يمكن أن يطرح على بساط البحث أسس السيطرة الاوربية كلها . كان ذلك الخطر في رأينا هو الذي حدد التقارب والاتفاق بين البلدين . وخلف مبادئ العدالة والكفاح من أجل الحرية واحترام تطلعات الشعوب وحقوقها في تقرير المصير تابعت القوى الاوربية في الواقع سياستها التقليدية بتوسعها الاستعماري وبالسيطرة الشاملة . وبالرغم من العهود والوعود كان مصير العرب قد قرر في غيابهم ، وبدلا عن الاستقلال والاتحاد وضعوا تحت النير الاستعماري كي يقسموا ويستغلوا . ويمكن اعتبار عام ١٩٢٠ من الكارثة « عام النكبة » وكان مستقبل الشرق الاوسط قد تحدد لمدة طويلة ومن الصعب أن نفهم القضايا الراهنة لهذه المنطقة دون العودة الى فترة الحرب الكبرى .

## الحواشي

Des Empires centraux

(٢)

(١) راجع دراسة غير مؤرخة وربما انها كتبت عام ١٩٢٦ معنونة : الدعاية البريطانية في الشرق في محفوظات Archives وزارة الحربية، فانسين Vincennes الشرق ٥٦٣ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) المصدر السابق .

Chanterre

(٤) مذكرة غير مؤرخة حول سوريا وفلسطين وتركيا محررة من قبل الاب شانتير

رئيس البعثات الى سوريا . في محفوظات وزارة الحربية . الشرق ١٩١٧ - ١٩٢٩ Vincennes ٢ ب ٣ .

(٥) مذكرة مؤرخة في ٢٤ تشرين الثاني ١٩١٨ معنونة : مراجعة عرضية لاتفاقات ١٩١٦ .

في محفوظات وزارة الخارجية الفرنسية . الشرق - سوريا - لبنان - ١٩١٨ - ١٩٢٩  
المجلد رقم ٥ .

(٦) المصدر السابق .

(٧) المصدر السابق .

(٨) مشروع مذكرة من أجل مؤتمر عن سوريا بتاريخ كانون الثاني ١٩١٩ - محفوظات وزارة

الخارجية الفرنسية - الشرق - سوريا - لبنان ١٩١٨ - ١٩٢٩ المجلد رقم ٧ . راجع

نشرة قسم الاعلام لرئاسة الاركان العامة . ١١ أيار ١٩١٩ ، المجموعة الجديدة رقم

١٠٣ : صفحات جميلة للجهود الفرنسية : التقاليد والاعمال الفرنسية في سوريا .

(٩) نفس المصدر .

(١٠) نفس المصدر .

(١١) نفس المصدر .

(١٢) يرجع الى موضوعنا ( العلاقات الانكليزية السنوية زمن الحرب العالمية الكبرى )

المنشور في مجلة التاريخ المغربية عدد ٦ - ٧ تموز ١٩٧٦ .

(١٣) راجع نص الالتزامات المأخوذة من قبل الحكومة البريطانية تجاه الشريف حسين في

محفوظات وزارة الخارجية الفرنسية مجموعة الشرق - سوريا - لبنان ١٩١٨ - ٢٩

المجلد ٩ .

(١٤) نفس المصدر .

(١٥) مذكرة بتاريخ ٢٤ تشرين الثاني ١٩١٨ بعنوان : مراجعة عرضية لاتفاقات ١٩١٦ في

محفوظات وزارة الخارجية الفرنسية - الشرق . سوريا - لبنان ١٩١٨ - ٢٩ المجلد

الخامس .

- (١٦) راجع محضر المؤتمر المنعقد عند رئيس الوزراء البريطاني في باريز بتاريخ ٢٠/٣/١٩١٩  
وبحضور رؤساء الدول أو الحكومات الفرنسية والاطالية والولايات المتحدة . محفوظات  
وزارة الخارجية الفرنسية الشرق : سوريا - لبنان ١٩١٨ - ١٩٢٩ المجلد ١١ .
- (١٧) راجع : مراجعة عرضية للاتفاقات ١٩١٦ . مصدر سبق ذكره .
- (١٨) المصدر السابق .
- (١٩) المصدر السابق .
- L'Coulondre (٢٠) برقية رقم ٤١٨ مرسله من القاهرة في ٢٦/٨/١٩١٨ من قبل الكابتن  
الى وزارة الخارجية الفرنسية . محفوظات وزارة الخارجية الشرق - سوريا -  
لبنان ١٩١٨ - ٢٩ المجلد الثاني .
- P. Cambon (٢١) برقية مرسله من لندن ٢٧/٩/١٩١٨ من قبل بول كامبون  
سفير فرنسا في بريطانيا العظمى . في محفوظات وزارة الخارجية - الشرق - لبنان  
١٩١٨ - ١٩٢٩ المجلد الثاني .
- (٢٢) المصدر نفسه .
- (٢٣) راجع النص الكامل للاتفاق بتاريخ ٣٠/٩/١٩١٨ في البرقية رقم ١١٥٠ المرسله من  
قبل P. Cambon في ٣٠ ايلول ١٩١٨ الى وزارة الخارجية الفرنسية محفوظات  
وزارة الخارجية - الشرق - سوريا - لبنان ١٩١٨ - ٢٩ المجلد الثاني .
- Coulondre (٢٤) برقية مرسله من القاهرة بتاريخ ٥ تشرين الاول ١٩١٨ من قبل الكابتن  
الى وزارة الخارجية الفرنسية . في محفوظات وزارة الخارجية الشرق - سوريا -  
لبنان ١٩١٨ - ٢٩ المجلد الثاني .
- Coulondre (٢٥) برقية رقم ٤٤٥ مرسله من القاهرة في ٨/١٠/١٩١٨ من قبل الكابتن  
في محفوظات وزارة الخارجية الفرنسية - الشرق - سوريا - لبنان ١٩١٨ - ١٩٥٩  
المجلد الثاني .
- Coulondre (٢٦) برقية مرسله من القاهرة في ٧ تشرين الاول ١٩١٨ من قبل الكابتن  
في محفوظات وزارة الخارجية الفرنسية - الشرق - سوريا لبنان ١٩١٨ - ٢٩ المجلد  
الثاني .
- Nitol (٢٧) راجع . مؤتمر عقد عند رئيس الوزراء البريطاني . ٢٣ شارع نيتول  
في باريز ، مرجع سبق ذكره .
- (٢٨) مذكرة اللورد Roberticel في محفوظات وزارة الخارجية الفرنسية . الشرق -  
سوريا - لبنان ١٩١٨ - ١٩٢٩ المجلد الثاني .
- (٢٩) مذكرة مؤرخة بتاريخ ٢١ تشرين الاول ١٩١٨ في محفوظات وزارة الخارجية الفرنسية .  
الشرق - سوريا - لبنان ١٩١٨ - ١٩٢٩ المجلد الثالث كانت قد سبقها برقية بتاريخ  
١٥/١٠/١٩١٨ الى السفير الفرنسي في لندن شارحة نفس المضمون .

(٣٠) راجع المذكرة المحررة لوزير الخارجية الفرنسي بتاريخ ١٥/١٠/١٩١٨ في محفوظات وزارة الخارجية الفرنسية . الشرق - سوريا - لبنان ١٩١٨ - ١٩٢٩ المجلد الثالث .  
(٣١) ان مشروع مثل هذا التصريح كان قد نشر صراحة في ملحق للاتفاق المعقود بين الحكومتين الفرنسية والانكليزية في ٣٠/٩/١٩١٨ .

(٣٢) راجع المذكرة المحررة لوزير الخارجية الفرنسية بتاريخ ١٧/١٠/١٩١٨ في محفوظات وزارة الخارجية الفرنسية الشرق - سوريا - لبنان ١٩١٨ - ١٩٢٨ المجلد الثالث .  
(٣٣) المصدر نفسه .

(٣٤) هذا هو نص التصريح : ان الهدف الذي وضعتة دولنا فرنسا وبريطانيا لمتابعتهما في الشرق الحرب التي اطلقتها الاطماع الالمانية ، هو التخليص الكامل والنهائي للشعوب التي حكمت زمنا طويلا من قبل الاتراك واقامة حكومات ، وادارات ، تستمد سلطاتها من مبادرات السكان الاصليين واختيارهم الحر . ومن أجل متابعة تنفيذ مقاصدهما فان فرنسا وبريطانيا متفقتان على التشجيع والمساعدة في اقامة حكومات وادارات من سكان البلاد في سوريا ، وفي بلاد ما بين النهرين المحررة حاليا ، من قبل الحلفاء أو في الاراضي التي سيتابع تحزيرها ، وفي الاعتراف بهذه الحكومات فور قيامها . وبعيدا عن رغبتهما في فرض هذه المؤسسات أو تلك على شعوب هذه الاقاليم ، فلا هم لهما الا تأمين السير الطبيعي للحكومات والادارات عن طريق مساندهما ومساعدتهما الفعالة اللتين ستقدمانها اليها بحرية ، وعدالة ومساواة للجميع ، وتسهيل التطور الاقتصادي للبلاد ، ببعث وتشجيع المبادرات المحلية ، وتيسير انتشار التعليم ، ووضع حد للانقسامات التي استغلت زمنا طويلا من قبل السياسة التركية . ذلك هو الدور الذي تطالب به الحكومتان المتحالفتان في الاراضي المحررة في محفوظات وزارة الخارجية الفرنسية - الشرق - سوريا - لبنان ١٩١٨ - ١٩٢٩ المجلد ٣  
(٣٥) راجع البرقيات رقم ٥٦١ و ٥٧٤ المرسله من القاهرة من جورج بيكو المفوض السامي الفرنسي في سوريا بتاريخ ١٥/١١/١٩١٨ من محفوظات وزارة الخارجية الفرنسية . الشرق - سوريا - لبنان ١٩١٨ - ٢٩ المجلد الرابع .

(٣٦) راجع الترجمة برقية ١٢٥١ موجهة من قبل مارك سايكس الى السيدين « غو Gout وبيكو Picot » تتضمن خلاصة لمعلومات وردت من سوريا بواسطة « هيئة الحرب War - office » مكتب الحرب في محفوظات وزارة الخارجية الفرنسية . الشرق . سوريا ولبنان ١٩١٨ - ١٩٢٩ المجلد الثاني .

(٣٧) برقية برقم ٥٤٦ مرسله بتاريخ ١٢/١١/١٩١٨ من القاهرة من قبل جورج بيكو . في محفوظات وزارة الخارجية الفرنسية : الشرق - سوريا - لبنان ١٩١٨ - ١٩٢٩ المجلد الرابع .

(٣٨) برقية رقم ٥٥٩ مرسلة من القاهرة بتاريخ ١٤/١١/١٩١٨ من قبل جورج بيكو الى وزارة الخارجية في محفوظات وزارة الخارجية الفرنسية . الشرق : سوريا - لبنان ١٩١٨ - ١٩٢٩ المجلد الرابع .

(٣٩) مذكرة مرسلة من دمشق بتاريخ ٢٠ تشرين الثاني ١٩١٨ من قبل ضابط الارتباط الفرنسي في المفوضية العليا الفرنسية في بيروت - في محفوظات وزارة الخارجية الفرنسية . الشرق - سوريا - لبنان ١٩١٨ - ٢٩ المجلد الخامس .

(٤٠) برقية رقم ٦٨٢ مرسلة من القاهرة في ١٠/١٢/١٩١٨ من قبل جورج بيكو الى وزارة الخارجية في محفوظات وزارة الخارجية الفرنسية - الشرق - سوريا - لبنان ١٩١٨ - ١٩٢٩ المجلد الخامس .

(٤١) برقية مرسلة من القاهرة بتاريخ ١٢/١٢/١٩١٨ من قبل جورج بيكو الى وزارة الخارجية . في محفوظات وزارة الخارجية الفرنسية - الشرق - سوريا - لبنان ١٩١٨ - ٢٩ المجلد الخامس .

(٤٢) في محفوظات وزارة الخارجية الفرنسية : الشرق - سوريا - لبنان - المجلد الثالث .  
(٤٣) مذكرة موجهة من رئيس المجلس وزير الحربية الى وزارة الخارجية بتاريخ ١٦/١١/١٩١٨ في محفوظات وزارة الخارجية الفرنسية - الشرق - سوريا - لبنان ١٩١٨ - ١٩٢٩ المجلد الرابع .

(٤٤) برقية مرسلة بتاريخ ٣٠ تشرين الاول ١٩١٨ من قبل جورج بيكو الى وزارة الخارجية في محفوظات وزارة الخارجية الفرنسية : الشرق - سوريا - لبنان ١٩١٨ - ١٩٢٩ المجلد الخامس .

(٤٥) راجع التصريح الوزاري المتعلق بالشرق والذي ادلى به وزير الخارجية للوكالة السياسية الفرنسية في القاهرة بتاريخ ٢/١٩١٩ في محفوظات وزارة الخارجية - الشرق - سوريا - لبنان ١٩١٨ - ١٩٢٩ المجلد السابع .

(٤٦) برقية برقم ١٢ - ١٣ بتاريخ ٧/١/١٩١٩ و ٢٠/١/١٩٢٠ مرسلة من قبل وزير فرنسا في مصر . في محفوظات وزارة الخارجية الفرنسية . الشرق - سوريا - لبنان ١٩١٨ - ١٩٢٩ المجلد السابع .

(٤٧) برقية رقم ٦٢٣٠ تاريخ ٢٤/١١/١٩١٨ مرسلة من وزير الخارجية الى سفير فرنسا في لندن . في محفوظات وزارة الخارجية الفرنسية . الشرق - سوريا - لبنان ١٩١٨ - ٢٩ المجلد الخامس .

(٤٨) برقية رقم ١٤٠٦ تاريخ ٢٨/١١/١٩١٨ مرسلة من قبل السفارة الفرنسية في لندن - نص رسالة بلفور جوابا على مذكرة وزير الخارجية الفرنسية المؤرخة ١١/١١/١٩١٨ .



- في محفوظات وزارة الخارجية الفرنسية . الشرق - سوريا - لبنان ١٩١٨ - ٢٩  
المجلد السابع .
- (٤٩) تقرير Robert de Caix الى السيد ستيفن بيثون وزير الخارجية الفرنسية  
بتاريخ ١٩١٩/٤/٢٢ في محفوظات وزارة الخارجية . الشرق - سوريا - لبنان ١٩١٨ -  
١٩٢٩ المجلد ١٢ .
- (٥٠) راجع مذكرة Robert de Caix المؤرخة في ٢٦ كانون الثاني ١٩٢٠ عن سياسة العمل مع  
فيصل . في محفوظات وزارة الخارجية الفرنسية . الشرق - سوريا - لبنان ١٩١٨ -  
١٩٢٩ المجلد ١٩ .
- (٥١) المصدر السابق .
- (٥٢) راجع محضر المؤتمر الجامع لرؤساء الدول والحكومات الرئيسيين للبلاد المتحالفة المنعقد  
في باريس بتاريخ ٢٠ آذار ١٩١٩ عند رئيس الوزراء البريطاني مصدر سبق ذكره .
- (٥٣) المصدر السابق .
- (٥٤) راجع مذكرة الاتفاق الفرنسي - الانكليزي عن القضية السورية بتاريخ ٩ شباط ١٩١٩  
في محفوظات وزارة الخارجية الفرنسية الشرق . سوريا - لبنان ١٩١٨ - ٢٩ المجلد  
التاسع .
- (٥٥) المصدر السابق .
- (٥٦) راجع برقية بتاريخ ٢٢ آذار موجهة من قبل وزير الخارجية الفرنسي الى المفوض  
السامي في سوريا . في محفوظات وزارة الخارجية الفرنسية . الشرق - سوريا -  
لبنان ١٩١٨ - ١٩٢٩ المجلد الحادي عشر .
- (٥٧) راجع تعليمات عامة معطاة الى اللجنة الدولية المرسله من قبل مؤتمر السلام . في  
محفوظات وزارة الخارجية الفرنسية . الشرق - سوريا - لبنان ١٩١٨ - ١٩٢٩  
المجلد الحادي عشر .
- (٥٨) مذكرة معنونة : الاتفاق مع فيصل بتاريخ ١٩١٩/٤/٢٥ . في محفوظات وزارة الخارجية  
الفرنسية . الشرق - سوريا - لبنان ١٩١٨ - ١٩٢٩ المجلد الثاني عشر .
- (٥٩) راجع التقرير الموضوع بتاريخ ٢٢ نيسان ١٩١٩ من قبل روبر دو كيه الى وزارة  
الخارجية الفرنسية عن المفاوضات . مصدر سبق ذكره .
- (٦٠) المصدر السابق .
- (٦١) المصدر نفسه السابق .
- (٦٢) راجع رسالة فيصل الى كليمانصو في محفوظات وزارة الخارجية الفرنسية . الشرق  
سوريا - لبنان ١٩١٨ - ١٩٢٩ المجلد الثاني عشر .
- (٦٣) تقرير روبر دو كيه لوزير الخارجية . س . بيثون . مصدر سبق ذكره .

- (٦٤) مذكرة كتبها روبر دوكيه بتاريخ ٢٦ كانون الثاني ١٩٢٠ عن سياسة العمل مع فيصل .  
مصدر سبق ذكره .
- (٦٥) راجع تقرير عن سفرة في سوريا ٢٩ حزيران - ٢٥ تموز ١٩١٩ وضع من قبل الكومندان Sciard في محفوظات وزارة الخارجية الفرنسية . الشرق - سوريا - لبنان ١٩١٨ -  
المجلد الخامس عشر .
- (٦٦) برقية رقم ١٠٠ تاريخ ٦ ايلول ١٩١٩ في محفوظات وزارة الخارجية الفرنسية - الشرق سوريا - لبنان ١٩١٨ - ١٩٢٩ المجلد الخامس عشر .
- (٦٧) راجع البرقية رقم ١٢٣٣ المرسله من بيروت بتاريخ ١٣/٩/١٩١٩ الى وزارة الخارجية الفرنسية من محفوظات وزارة الخارجية . الشرق - سوريا - لبنان ١٩١٨ - ٢٩ المجلد الخامس عشر .
- (٦٨) راجع نص هذا الحل بتاريخ ١٥ ايلول ١٩١٩ في محفوظات وزارة الخارجية الفرنسية الشرق - سوريا - لبنان ١٩١٨ - ٢٩ المجلد السابع عشر .
- (٦٩) راجع صحيفة الباريزي الصغير Le Petit Partisien تاريخ ١١/١٠/١٩١٩ .
- (٧٠) مذكرة بتاريخ ١٤/١١/١٩١٩ في محفوظات وزارة الخارجية الفرنسية . الشرق - سوريا لبنان ١٩١٨ - ١٩٢٩ المجلد التاسع عشر .
- (٧١) برقية رقم ٤٦ مرسله من سان ريمو بتاريخ ٢٦/٤/١٩٢٠ في محفوظات وزارة الخارجية الفرنسية - الشرق سوريا - لبنان ١٩١٨ - ١٩٢٩ المجلد السابع والعشرون .

# المقاومة العربية في بلاد الشام وجمال باشا

( ١٩١٥ - ١٩١٦ )

الدكتور جهاد مجيد محي الدين

« جامعة البصرة »

كانت الفترة التي انقضت بين سقوط السلطان عبد الحميد سنة ١٩٠٨ ، وقيام الحرب العالمية سنة ١٩١٤ فترة حافلة بالنشاط ضد الحكم العثماني في العالم الغربي . وكان أمل العرب في الدستور الذي أعلنه الأتراك سنة ١٩٠٨ ان يحقق بعض اهدافهم القومية ، وان يمنح العرب بعض مظاهر الحكم الذاتي ، الا ان الدستور الجديد قام على أساس ( الدولة الطورانية ) (١) .

فعندما استولت جمعية الاتحاد والترقي على الحكم في استانبول سنة ١٩٠٨ ، وبدأت الصحف التركية بالاشادة بأمجاد الطورانيين ، وأخذت تنشط عند الترك عصبية تركية ترمي الى صبغ الامبراطورية العثمانية بصبغة تركية ، واعتقد معظم أعضاء جمعية الاتحاد والترقي ان سياسة التتريك ستصهر بقية عناصر الامبراطورية العثمانية في بوتقة تركية واحدة (٢) . ولقد رافق السياسة الطورانية شدة في الحكم ، وضغط على الحريات ، وعلان الحكم العرقي ، والى تنافس شديد بين الترك والعناصر الأخرى (٣) . وأدى ضغط الاتحاديين على الجمعيات العربية ورجالها العاملين في داخل السلطنة الى تطور مجرى النضال القومي العربي ، وظهرت في تلك الفترة ( ١٩٠٨ - ١٩١٤ ) عدة جمعيات ونواد اتخذت كلها صفة عربية ، مثل جمعية النهضة العربية ، والمنتدى الادبي ، والجمعية القحطانية ، والجمعية العربية الفتاة ، وجمعية العهد وساعدت كلها على بلورة الفكرة القومية في العالم العربي (٤) وسارعت السلطة التركية لاختماد نشاطها واغلاق أبوابها مع ان بعضها كان يدعو الى الاخاء العربي العثماني وتمسك الترك بأسلوب الإدارة المركزية الشديدة بدلا من العمل على تخفيف وطأتها وعندئذ قام نوع من التفاهم السري بين نفر من رجال الإصلاح

العربي ، ومن ضباط الجيش ، كما حدثت أيضا محاولات من جانب بعض الزعماء العرب للاتصال ببعض الدول الأوروبية(٥) .

ثم عقد المؤتمر العربي في باريس سنة ١٩١٣ ، وبحث المؤتمر حقوق العرب في الدولة العثمانية ، واتخاذ اللامركزية قاعدة لادارتها ، وقرر المؤتمر مطالبة الدولة العثمانية الاعتراف بحقوق العرب السياسية ، واعلان الادارة المركزية ، واعتبار اللغة العربية لغة رسمية في الولايات العربية ، واشتراك العرب في ادارة الحكومة المركزية في العاصمة ، وأن يستخدم الجنود العرب في ولاياتهم في غير أيام الحرب(٦) . وجاء في الدعوة لعقد المؤتمر : أننا ذات وجود حي لا ينحل ، ومقام عزيز لا ينال ، وخصائص قومية لا تنتزع . ونصراح الدولة العثمانية بان اللامركزية قاعدة حياتنا ، وان حياتنا أقوى حق من حقوقنا ، وان العرب شركاء في هذه الدولة ، شركاء في الحرية ، شركاء في السياسة ، وأما في داخلية بلادهم فهم شركاء أنفسهم(٧) فقد رأى هؤلاء العرب ان اللامركزية الخطوة الاولى نحو تحقيق استقلال ووحدة الامة العربية ، على أن يتلوا خطوات اخرى . ولم تخطر فكرة الانفصال عن الدولة العثمانية على بال المؤتمرين ، بل بالعكس كانت كلمات الخطباء كلها تنصب على الاحتفاظ بوحدة الامبراطورية ، شريطة الاعتراف بحقوق العرب ، عن طريق اشراكهم في حكم بلادهم ضمن الشكل الاداري اللامركزي(٨) .

وافقت حكومة الاتحاد والترقي في تركيا على قرارات المؤتمر ، أو تظاهرات بالموافقة عليه . وانفض المؤتمر ، ولكن الحكومة التركية اكتفت بعد ذلك بتعيين خمسة أعضاء من العرب في مجلس الاعيان ثم ما ان انتهت حرب البلقان ، وانتهى هذا الخطر الذي تهددها فترة حتى بدأت الحكومة التركية تتهرب في تنفيذ وعودها ، وعادت الى سياسة العنف والتريك ، مما أدى الى ازدياد بلورة الفكرة القومية العربية ، واصرار الامة العربية على المطالبة بحقوقها القومية(٩) .

والواقع ان الجمعيات العربية حتى نشوب الحرب العالمية الاولى ما كانت تنوي الانفصال عن الدولة العلية لسبيين : الاول : هو تمسك العرب بالخلافة الاسلامية والرابطة العثمانية ، والثاني : خوفهم من تطرق النفوذ الاجنبي الى بلادهم(١٠) ، ولكن على اثر نشوب الحرب العالمية الاولى واشتراك الدولة العثمانية تشرين اول ١٩١٤ ، ان دخلت القضية في

مرحلة جديدة ، فقد وجد العرب ان بلادهم قد جرت الى حرب لا يرغبون فيها ، وأصبح من الواضح ان الامبراطورية العثمانية على وشك الانهيار ، فكان لا بد من التفكير في مصير بلادهم . وانقسمت آراء القوميين العرب السياسية في هذا المجال ، اذ بينما رغب البعض في تأسيس دولة مستقلة معتمدين على جهودهم الخاصة ، رغب البعض الاخر في تحقيق هذا الهدف بمساعدة خارجية ، وبقيت فئة أخرى على تمسكها بالدولة العثمانية خوفاً من الاطماع الاوربية(١١) ، ولكن الظروف التي اکتفت سني الحرب دفعت بالحركة العربية الى أن تأخذ اتجاهها آخر يبعدها عن الدولة العثمانية ، فقد عين جمال باشا قائداً للجيش الرابع في الشام مع صلاحية مطلقة في حكم سورية الطبيعية ( للقيام بهجوم على القوات الانجليزية المرابطة على قناة السويس ، واعادة الامن والنظام الى سورية ) (١٢) ولقد أصبحت سورية ذات أهمية عظمى بعد اشتراك الدولة في الحرب من الحصار البحري الذي ضربه الحلفاء على السواحل لم يبق سبيلاً للمواصلات بين الاناضول وسائر بلاد العرب ، الا بواسطة الطرق البرية ، فوليات البصرة وبغداد والموصل تعتمد على طريق حلب ، وسائر أرجاء الجزيرة العربية تعتمد على الطرق المارة بدمشق ..

ومن هنا رأى مجلس الوزراء العثماني ان يعهد بالمحافظة على هذه المنطقة المهمة ذات الشرايين الحيوية الى قائد قوي الشكيمة مع منحه سلطات فوق العادة يستطيع بواسطتها ان ينظم المسائل الادارية والاقتصادية وفق متطلبات الحركات العسكرية . وقد وقع الاختيار على جمال باشا الذي رؤى ان الصفات المطلوبة تتوافر في شخصه(١٢) .

ومهما يكن من أمر فان أنور باشا دعى جمالا وناشده باسم الوطن ان يوافق على تولي قيادة الجيش الرابع في سورية وتنفيذ عملية الهجوم على قناة السويس ، ووافق جمال على عرض زميله أنور(١٤) .

وكانت قيادة الجيش الرابع ، التي اتخذت مقرها في مدينة دمشق تمتد بنفوذها على جميع البلاد العربية ( فتشمل من الناحية العسكرية والادارية ولايات أضنه وحلب والشام وبيروت وجبل لبنان والقدس والحجاز ) أي مقاطعات كيليكية وسورية ولبنان وفلسطين والحجاز وجزء من جنوب الاناضول . وقد عينت الحكومة العثمانية في هذه القيادة أول الامر الفريق زكي باشا الحلبي الذي كان أحد الضباط العرب القلائل ممن يحملون رتبة لواء في الجيش العثماني ، وقد تمت التعبئة العامة في

عهده ، واشرف على وضع الخطط العسكرية في هذه المنطقة ، وبعد فترة حذا بالانراك الى احلال أحمد جمال باشا مكانه واكتفوا باخراج القائد العربي زكي باشا الحلبي من خدمة الجيش العامل ، وجعلوه ياورا « للامبراطور الالماني غليوم(١٥) لانه اعتذر عن الموافقة على القيام بحملة سيناء وقناة السويس ، اذ كان من رأيه أنه من المستحيل نجاح الحملة بالاستعدادات العسكرية التي كانت الدولة العثمانية تمتلكها حينذاك . وأشار الى ضرورة مد خط سكة الحديد في الطريق التي سيسلكها الجيش الزاحف لضمان تموينه وارسال التعزيزات وكان زكي باشا يرى ان هجوما دون استعدادات كافية لن يكن نصيبه الا الفشل الذريع(١٦) .

وفي مذكرات عزيز بك رئيس مخابرات جمال باشا يوضح أسباب اختيار جمال فيقول : ( كان في سورية في بداية الحرب زكي باشا كقائد للجيش الرابع وكان شريفا محبا للجامعة العثمانية - أي غير عنصري - ولم تكن هذه الصفات لتروق للقباضين على زمام السلطنة الذين كانوا يريدون نفوذ أمرهم في هذه البلاد وان يكون على رأسها شخص يعرف كيف ينفذ ارادتهم ويقضي تماما على الفكرة العربية فقررروا استبدال جمال باشا به ) (١٧) .

ويؤيد هذا نبذة مختصرة وردت في مذكرات جمال باشا في سياق ذكره أسباب اختياره قائدا لسورية جاء فيها : ( ان أنور باشا قال له ان الانباء الواردة من سورية تدل على وجود هياج داخل البلاد مضافا الى ذلك النشاط العظيم الذي يبديه القوميون العرب . وان زكي باشا لا يريد القيام بحملة السويس ويطلب مطالب كثيرة ونجدات كثيرة لحماية سورية ضد انزال قوات من البحر وانه - أي جمال - هو الرجل الذي يمكنه ان يسد الفراغ ، وهو القادر على تحقيق المقاصد ) (١٨) .

ان تعيين وزير البحرية الفريق جمال باشا قائدا للجيش في سورية ، قد أوحى الى المفكرين في سورية ولبنان عزم الوزارة وسلطة الجيش العليا على اتخاذ خطة جديدة تسير عليها ، بعد أن أعلن الجنرال البريطاني مكسويل الغاء سيادة تركيا عن القطر المصري المحتل من قبل الجيوش البريطانية وخلع الخديوي عباس باشا الثاني الموالي للترك والمقيم بينهم ، واجلاس ابن عمه الامير حسين كامل على العرش المصري بلقب سلطان مصر . ثم قرر الرأي العثماني بايعاز من الحلفاء الالمان الذين تكاثروا في العاصمة اسطنبول

وفي دمشق ، على تخفيف العبء عن كاهل الحليفة الكبرى المانيا في ساحات الحرب الاوربية ، بهماجمة البريطانيين في مصر وتهيئة الحملة العسكرية لعبور قناة السويس مما اضطر بريطانيا لامداد قواتها في القطر المصري بقوات ومعدات جديدة(١٩) وكان النفوذ الالمانى بارز الاثر في العاصمة العثمانية ، كما كان المستشارون الالمان في دمشق والقدس يحيطون بالقائد الاعلى جمال باشا ، وبينهم الهرلوفيلد قنصل حيفا السابق(٢٠) .

لقي جمال باشا في سورية أثناء مروره من حلب الى حماة الى حمص فبعلبك فدمشق حفاوة بالغة وتكريما عظيما . وكان الشعراء يتلون قصائد الترحيب به . وخلع عليه الناس لقب ( فاتح مصر ) وكان يبدو لمن يحيطون به واثقا كل الثقة من انه سيحقق تلك الامنية التي تجول في أذهان الناس . وقد وصف علي فؤاد بك رئيس أركان حرب جمال باشا الذي رافقه في هذه المرحلة حفاوة الاهلين في المدن التي مروا بها ، فقال : ( وقد استقبلنا في دمشق استقبالا حافلا ليس فيه زيادة لمستزيد ، فازينت المدينة احتفاء بقدوم فاتح مصر وتراخض الالوف من الناس الى موقف القطار ، وفيهم رجال الدولة وقادة جندها وسادة البلاد وعلماؤها وخطباؤها وشعراؤها وقناصل الحكومات فيها ، وذبحت الاضاحي والقيت القصائد التي هي أشبه شيء بأحاديث المناجاة وانصرف الناس مبتهجين متحمسين ، وكان يوما لانظير له ) (٢١) .

ووصف جمال نفسه ترحيب أهالي سورية بقدومه فقال انهم (أظهروا وطنية كبرى واخلاصا ، وقد امتلأ قلبي سرورا اذ رأيت وشعرت ان غالبية العرب لاتحجم عن بذل ما يطلب منها من التضحيات في تلك الحرب لتحرير الخلافة الاسلامية ) (٢٢) .

وبمجرد وصول جمال باشا دمشق جعل مسكنه الخاص في بعض غرف فندق داماسكوس بالاس المتخذ مقرا لقيادة الجيش العليا . وتظاهر بانه من أنصار العروبة ، وسعى لاستمالة الاصلاحيين واتصل برجالهم وزعمائهم وقربهم اليه واتخذ من أحدهم الدكتور عبد الرحمن شهنسدر طبيبا خاصا له ، كما فتح أبوابه في وجه عبد الكريم الخليل ، ونفح محمد كرد علي مبلغا كبيرا من المال باسم جريدة ( المقتبس ) وجاد بمثل ذلك على عبد الغني العريسي صاحب جريدة ( المفيد ) وكلتا الجريدتين من أعظم صحف الاصلاحيين يومئذ فانضمتا الى الحكومة عملا بالخطة المرسومة(٢٣) .

لقد أخذ جمال باشا يلقي بالتصريحات يشيد فيها بالعرب وبرهن لهم بان عروبتهم قوة وان الدولة تقدرها تمام التقدير ، ودعى في أوائل شهر كانون الثاني سنة ١٩١٥ الى حفلة أدبية أقيمت في النادي الشرقي لتكريم الشيخ عبد العزيز جاويش وحضرها شبان العرب ورجالهم ولما جاء دوره وقف وخطب قائلاً :

« يجب عليكم يا أبناء العرب أن تحيوا مكارم أخلاق العرب ومجدهم منذ شروق انوار الديانة الاحمدية . أحيوا شهامة العرب وآدابهم حتى التي وجدت قبل الاسلام . دافعوا عن عربيتكم بكل قواكم . اعملوا على ترقية العرب والعروبة جددوا مدينتكم ، قوموا قناتكم . كونوا رجالاً كاملين ، ان البرنامج الذي عقد حزبنا عزيمته على تنفيذه لاصلاح حالة العرب لاوسع كثيراً مما قد يخطر ببالكم ولست لاوجس شراً من بقاء العرب والترك متحدين وخاضعين لخليفة واحد بل من انفصال أحدهما عن الآخر كشعبين مستقلين » (٢٤) .

وقبل وصول جمال باشا الى دمشق بقليل كانت السلطات التركية قد عثرت اثر اقتحام القنصليات الفرنسية في بيروت ودمشق على مراسلات ووثائق بين بعض الزعماء العرب والقنصل الفرنسي ، وهذه الوثائق تدين بعض الشخصيات العربية بانهم يعملون تحت حماية دولة أجنبية ومن أجل مصلحتها (٢٥) ، مع ان خلوصي بك والي سورية اعتبر هذا النشاط خيانة للدولة وابلغه لجمال باشا عند وصوله الا ان جمال أراد ان يتغاضى عن هذا الموضوع وصرف النظر عن اتخاذ اجراءات ضد المتهمين في الحال رغبة — كما يقول — في تجنب ايجاد صدع في الجبهة الاسلامية ، وحتى لا يظن المسلمون في مختلف البلاد الاسلامية ان الاتراك ينتقمون من أجل ضممان سيادة الامة الطورانية ، وعن طريق عبد الكريم الخليل ، استدعى جمال بعض الوطنيين وشرح لهم ضرورة انتصار الاسلام . وقد أراد جمال تهدئة مخاوف المسيحيين في لبنان فأعلن ان المقصود باعداء الدين هم الانجليز والفرنسيون والروس ، اما مواطنونا غير المسلمين فهم اخواننا في وطن مشترك ومصالح مشتركة وسوف نعاقب بمنتهى الشدة من يحاول الاضرار بهم (٢٦) .

وفي تلك الاثناء أعلنت بريطانيا ان مصر تحت حمايتها . كما أعلن الجنرال ماكسويل في بلاغاته التي أصدرها بمقتضى الاحكام العرفية ، انتهاء



سيادة تركية الاسمية على مصر ، وخلع الخديوي عباس الثاني وارتقاء الامير حسين كامل العرش خلفا له ومنحه لقب سلطان مصر (٢٧) .

وصار تحضير الحملة على قناة السويس هو الشغل الشاغل لجمال باشا . وهذا مايفسر موقفه المهادن من ( الاصلاحيين ) وخاصة المسلمين منهم في تلك الفترة . يقول جمال باشا : ( منذ وصولي الى دمشق ، بدأت بتحضير الحملة العسكرية على القناة وقد ركزت كل جهودي على خلق جو من الحماس الديني والوطني في البلاد العربية . وقد نظمت بمساعدة الزعماء العرب المدعويين بالاصلاحيين مهرجانا لهذا الهدف (٢٨) .

ويتابع ( لقد أردت اتباع سياسة مصالحة وعفو في سورية وكان عندي ثقة كبيرة في الحزب الاصلاحى (٢٩) لدرجة انني لم أتردد في حضور عيد وطني في بعلبك ، نظمه عبد الكريم الخليل ، وحيث لم يكن يرافقني سوى حارسي الشخصي والوالي السوري ) (٣٠) .

بدأ جمال باشا هجومه على قناة السويس ليلا في الثاني من شباط ١٩١٥ ، وكان من الواضح أن جيشه غير كاف لهذا الهجوم ، ولكنه كان يعتمد على نشوب ثورة في مصر حيث مشاعر الناس عامة نحو بريطانيا غير ودية . ولكن هجومه صد وظلت مصر ساكنة فسحب القسم الاكبر من جيشه عائدا الى دمشق بعد أن ترك قوات ضئيلة في سيناء لتناوش القوات البريطانية في القناة مناوشات متفرقة بين حين وآخر ، وقد جاء في بلاغه لجيشه قبل الزحف ما يلي :

« أيها الجنود ، ان الصحارى القاحلة لتمتد من ورائكم ، والعدو الجبان يقف أمامكم ، فان ترددتم فلن يكون نصيبكم الا الموت . فالى الامام ، فان الجنة أمامكم » (٣١) .

وبعد اخفاق هذه الحملة أخذ يشيع انه لم يقصد من وراء هذا الزحف الا ان يكون عملية استطلاع بالقوة وسيتلوه في الوقت المناسب الهجوم الحقيقي (٣٢) وبدأ ينفذ المشروعات اللذين جاء يحملهما معه بالاتفاق مع طلعت وأنور . الاول ( الغاء امتيازات متصرفية جبل لبنان واخضاع سكانها للسيادة العثمانية المباشرة ، والثاني القضاء على الفكرة العربية التي اختمرت في النفوس وتترك العرب ) (٣٣) . فما كادت تعرض عليه أوراق تتضمن اتهام رجل يدعى يوسف الحايك ، وهو قسيس ماروني

من جبل لبنان بتبادل رسائل مع السيد ديشانل الذي كان حينئذ رئيسا للبرلمان الفرنسي ، رأى فيها جمال باشا دليل خيانة ، فوقع عليه حكم الاعدام . ونفذ الشنق علنا أمام الجمهور في مدينة دمشق في ٢٢ آذار سنة ١٩١٥ (٢٤) .

أخذ جمال باشا يوجه همه الى المنظمات المدنية ، وقرر أن يحاكم المتهمين الذين ورد ذكرهم في الوثائق التي عشر عليها في القنصليتين الفرنسيتين فالقي القبض على عدد كبير من الناس وحوكموا أمام ( ديوان الحرب العربي ) أي ( المجلس العسكري ) في مدينة عالية بجبل لبنان (٢٥) . و صدر الحكم باعدام ثلاثة عشر منهم ، وبالحكم نفسه غيابيا على خمسة وأربعين آخرين ممن كانوا خارج البلاد أو كانوا قد فروا ، كما حكم على عدد غيرهم بالسجن مددا متفاوتة وبالنفى ، وكانوا جميعا من الرجال البارزين وبعضهم من الشخصيات المشهورة ، وقد أرجىء تنفيذ الحكم في اثنين من الثلاثة عشر الذين حضروا المحاكمة واستمعوا الى الحكم الصادر باعدامهم ، أما الباقيون فقد نفذ فيهم الحكم فجر اليوم الحادي والعشرين من شهر آب ١٩١٥ فنصبت إحدى عشرة مشنقة في الميدان الرئيسي ببيروت وبعلمك وحماة ودمشق وجنين (٢٦) ولقد أعدمت القافلة الاولى من الشهداء في بيروت في ٢١ آب سنة ١٩١٥ وهذه أسماؤهم :

عبد الكريم الخليل ، وكانت له مع رجال الحكومة أوثق صلات المعاشرة والصداقة وذيلت بتوقيعه مع طلعت بك الاتفاقية العربية التركية واحرز شهرة واسعة ومكانة مرموقة في استانبول كرئيس للمنتدى الادبي . وصالح حيدر الذي كان رئيسا لبلدية بعلمك ، ومسلم عابدين ، ونايف تلو ، ومحمد المحمصاني وهو خريج مدرسة الحقوق بباريس ومحرر جريدة المفيد وأحد مؤسسي جمعية الفتاة ، وشقيقه محمود المحمصاني وعبس القادر الخرسا ، ومحمود العجم ، وسليم عبد الهادي ، ونور الدين القاضي وعلي الارضاري (٢٧) .

يوضح جمال باشا في مذكراته ان كثيرا من أركان الحركة العربية الذين حوكموا وحكم عليهم ونفذ فيهم الاعدام في آب ١٩١٥ كانوا ضحية وشايات وتحريضات بعض رؤساء الفئة الثالثة مثل الشيخ أسعد شقير والامير شكيب ارسلان وكامل الاسعد ، وان جمالا اصدر أوامره باعتقال رجال الحركة العربية بدءا من عبد الكريم الخليل ورضا الصلح ورياض الصلح وغيرهم على أثر مراجعة الشيخ أسعد له وقوله له ان لدى كامل الاسعد اخبارا

عنهم ، وكامل الاسعد هو الزعيم الاكبر الشيعي في جبل عامل ، وقد أحضر جمال كاملا هذا وأصغى لما قاله له عن حركات ونشاط رضا الصلح وعبد الكريم الخليل ورفاقهم في جبل عامل . ورضا الصلح من صيدا وعبد الكريم من صور . هذه الوشاية أكدت لدى جمال باشا مخاوفه وقلقه واعتقاده بان الثورة أصبحت على الأبواب . وبادر على اثر ذلك الى اصدار أوامره بمطاردة هؤلاء وأمثالهم واعتقالهم ومحاكمتهم (٢٨) . ان وشاية كامل الاسعد لم تكن سوى محاولة من قبله لابعاد منافسيه السياسيين . ولكن جمال باشا كان بحاجة على كل حال الى حجة يبرر بها سياسته هذه .

ويوضح محمد جابر صفا ، الذي كان موقفا بناء على وشاية مفتي الجيش وكامل الاسعد ، عن نشاط عبد الكريم الخليل في الجنوب ( كان الخليل مفوضا ، من قبل جمعية عربية اندمجت مع حزب اللامركزية باشر هذا الاخير في ١٨ تشرين الاول ١٩١٤ في تأسيس فرع للحزب يقوم برنامجه على اللامركزية ، في صيدا وصور وبعض مناطق جبل عامل ) (٢٩) .

ولاشك أيضا في أن التحسب من نزول حملة عسكرية من جنود الحلفاء في الساحل السوري ، كان من أكبر الدوافع التي حدثت بجمال باشا الى اتخاذ قراره باعتقال أولئك الاصلاحيين واحالتهم الى المحكمة ثم الحكم عليهم بالاعدام ، ولم تكن الحجج الاخرى التي تدرع بها جمال باشا الا من قبيل التماس الاعذار (٤٠) .

وحكم في هذه القضية نفسها بالاعدام على حافظ بك السعيد - نائب يافا في مجلس المبعوثان العثماني - والشيخ سعيد الكرمي - مفتي قضاء طولكرم - وحسن حماد وغيرهم . وقد أبدل حكم الاعدام الصادر على الاول والثاني بالسجن المؤبد لتقدمهما في السن وأفرج عن الثاني في نهاية الحرب بعد اقامته نحو أربع سنوات في قلعة دمشق سجينا (٤١) أما حسن حماد - من نابلس - فقد نجا بمعجزة وذلك انه لم يتسلم اشعار استدعائه الى المحكمة بسبب تأخر في الاجراءات ، فلم يحضر الجلسة بل ذهب وهو خالي البال ليصرف أمور عمله بوصفه رئيسا لدائرة تسجيل الاراضي في بلده ، فحكم عليه بالاعدام غيابيا وفي تلك الاثناء وصله اشعار الاستدعاء فسافر للمثول أمام المحكمة العسكرية في عاليه وحينما وصل الى فندق البلدة قرأ بالمصادفة احدي الصحف التي نشرت الحكم عليه ، فتناول حقيبة ملابسه واستقل القطار الى دمشق واختفى فيها

وأطلق لحيته ، وتزوج ابنة الرجل الذي اختبأ عنده ، وانجب منها طفلين ، وعاد سالما الى نابلس بعد أن وضعت الحرب أوزارها(٤٢) .

وحكم في هذه القضية أيضا غيابيا على كل من رفيق العظم وحقي العظم والشيخ رشيد رضا وداود بركات وفارس نمر والدكتور شبلي شميل وخليل المطران وابراهيم النجار وجورج عبد المسيح وجبرائيل ناصيف ونجيب عازوري والفرد عازوري وجورج بحري والامير خليل أبي الدمع وخليل بولاد وهنري حبيب بولاد ونجيب البستاني وأمين البستاني ويوسف البستاني وفيليب سمان ونجيب قطان ونجيب قريصاني وجورج دوماني وجورج خير ورشيد خياط وادمون ملحمة والدكتور خليل مشاققة ويوسف سمعان سيدناوي والياس حنين وسليم شميل وماريوس شميل ويوسف حبيب زنائيري والياس زهار والفونس زينيه وفؤاد الخطيب وقسطنطين بني وحسن حماده وعبد الحفيظ الحسن ورزق الله أرقش وسليم ثابت وعزت العابد وشكري غانم وعزيز علي المصري وجميعهم من السوريين الذين كانوا ينزلون مصر وأوربا في تلك الايام باستثناء الاخير فهو من أصل مصري وبعضهم من المتصلين باللامركزية كما ان بينهم من كان قنصلا بالحكومة الفرنسية ويعمل في خدمتها .

وحكم أيضا بالاعدام غيابيا على كل من بشارة البواري واسكندر سرسق وادوار كرم وجبرائيل حداد وسيمون ابي شنب واسعد باسيلا ونجيب أيوب والفريد ليان واسعد مفرج وانطوان ارقش ونجيب موسى دياب ( امريكا ) وسليم بولس والامير أمين مجيد ارسلان وسعيد مخيبر ورشيد تقي الدين ويوسف صموئيل(٤٣) .

لم تكن هذه المحاكمة عادلة أو قانونية ( حتى لقد كان معظم الذين نجوا من قبضة الديوان العربي هم الذين تظاهروا بالبله ، أو أنكروا نسبتهم العربية أو قدموا هدايا ثمينة لرجال التحقيق ، فشهدوا ببلاهتهم ، أو جاؤوا بوسائط أخرى ) (٤٤) .

ولقد قال شكري بك رئيس هيئة القضايا في هذا الديوان العربي :  
( ان الحكم في هذه القضية عدل اربع مرات بأمر جمال باشا ، فكان في كل مرة يخرج أناسا من قائمة المعدمين ويدخل غيرهم ، وأخيرا ابلغه بشكله النهائي ، فنفذ كما أمر ) (٤٥) .

أما أدلة الاتهام التي استند عليها المجلس العسكري التركي فهي عبارة

عن بعض الرسائل التي كان يبعث بها حقي العظم أحد أعضاء اللامركزية في مصر الى بعض هؤلاء الاشخاص قبل وبعد دخول تركيا الحرب ، وفيها يحذر رفاقه في الشام سوء العاقبة ليكونوا على أهبة العمل ، حتى لاتقع بلادهم في قبضة أحد ، ويبين لهم ان تركيا ان دخلت الحرب أو لم تدخلها فان بلاد العرب معرضة للاخطار مالم يكن ابناءؤها مستعدين للذود عنها ، وانه قد تكون فرصة طيبة لهم ليستقلوا عن العثمانيين (٤٦) .

ويوضح رئيس أركان حرب علي فؤاد باشا ( ان جمال باشا لم يكن مخطئا في اجراءاته الخاصة بتنفيذ حكم الاعدام في رجال القافلة الاولى ، فقد كان في موقف حرج يبرر عمله ، ولو لم يقدم على عمل ماعمله لما استطاع السيطرة على الموقف والحيلولة دون اتساع نطاق الثورة ، وكانت تهدد البلاد العثمانية في البقعة العربية منها ) (٤٧) .

ثم يستمر قائلا ( لقد كان عليه أن يقف عند هذا الحد خصوصا وقد لمس تأثير عمله في البلاد فقد هابه رجال الحركة الثورية ، فطالب بتحويله السلطة اللازمة لمحاكمة جميع الذين وردت أسماؤهم في الاوراق التي صودرت في القنصلية الفرنسية ، وهذا خطأ فادح ارتكبه ، وجعل العرب يمقتونه حتى لقبوه سفاح سورية ، وهم على حق ) (٤٨) .

ان الوثائق والمراسلات التي عثر عليها الترك واتخذوها مدارا للتحقيق هي أوراق حزب اللامركزية والجمعية القحطانية والجمعية الثورية وكانت مخطوطة بيد حقي العظم وكذلك أوراق القنصليتين الفرنسية في دمشق وبيروت (٤٩) وماعدا ذلك فلم يوفقوا الى معرفة سر جمعية واحدة من الجمعيات العربية الكثيرة التي كانت تعمل في تلك الايام ولم يصادروا ورقة واحدة من أوراقها (٥٠) .

وبين الرواة اختلاف في كيفية وصول أوراق القنصليتين الفرنسيتين في بيروت ودمشق الى الترك فهناك من يقول ان رجال الحكومة في بيروت ذهبوا الى دار القنصل الاميركي وطلبوا منه أن يسمح لهم بتفتيش دار القنصليتين الفرنسية والانجليزية لانهما كانتا تحت اشرافه بعد سفر القنصلين في ابتداء الحرب فأجاب بالرفض لانهما ختمتا بالشمع الاحمر فقال الموظفون الترك انهم لا يريدون دخول الغرف المختومة بل يكتفون بتفتيش مالم يختم فاستمهلها ريشما يراجع السفير في الاستانة ، وقد راجعه فأجاز الطلب ففتشوا غرف الدارين فعثروا في دار القنصل الفرنسي على

هذه الاوراق فأخذوها ، ولم يعثروا على شيء في دار القنصل الانجليزي لانه لم يترك شيئا بعكس قنصل فرنسا(٥١) .

ويروى ان محمد الشنطي اليافي أحد مساعدي حقي العظم ومعتديه هو الذي حمل هذه الاوراق الى الترك فقد اغتتم احدى الفرص فسافر في أوائل الحرب الى أثينا فسلم الاوراق بكاملها ، الى السفير العثماني غالب كمال بك أملا أن تمنحه الدولة مكافأة مالية كبيرة فأرسله هذا على الفور الى طلعت بك وزير الداخلية فأحاله هذا الى جمال باشا(٥٢) .

وهناك رواية أخرى مؤداها ان الموظفين الترك في بيروت دخلوا دار القنصلية الفرنسية وفضوا أختامها ، فأبلغ القنصل الاميركي وكانت الدار موضوعة تحت حمايته كسفير دولته في الاستانة وهذا رفع الامر الى الحكومة الاميركية فاحتجت في شهر تموز سنة ١٩١٦ احتجاجا رسميا على خرق القواعد الدولية ويقال أيضا ان أحد تراجمة قنصلية بيروت اللبنانيين هو الذي أرشد الترك الى مكان هذه الاوراق فحصلوا عليها(٥٣) .

ومن بين الاوراق التي استخرجت من دار القنصلية في بيروت وظفرت بها السلطة التركية ، عريضة تتضمن التماس مساعدة فرنسا لفصل سوريا ولبنان عن الدولة العثمانية وحصولها على الاستقلال التام والحرية وكان بين التواقيع التي تحويها العريضة اسم يوسف الهاني وهو من موارد لبنان(٥٤) ، وتم تقديمه الى المحاكمة أمام الديوان العربي بعالية فحكم عليها بالاعدام ونفذ فيه الحكم فشنق في بيروت يوم ٥ نيسان سنة ١٩١٦(٥٥) أما باقي الاشخاص الذين اشتركوا في توقيعها ، فقد غادروا بيروت في بدء اعلان الحرب فسلموا مما كان ينتظرهم من مصير(٥٦) .

ومن الذين قدموا الى المحاكمة بتهمة التجسس للحكومة الفرنسية ، والعمل على فصل لبنان نهائيا عن الدولة العثمانية واستقلاله وتوسيع حدوده وطلب معونة فرنسا في هذا السبيل الشيخ فيليب والشيخ مزيد الخازن ، فقد حكم عليهما بالاعدام فاعدما في بيروت يوم ٥ حزيران سنة ١٩١٦(٥٧) .

أما حالة الشهداء حين اعدامهم وطريقة الاعدام ومافاه به كل واحد منهم فقد كانت حالة تدعو للتأمل اذ نقل رجال الرعيل الاول بالعربات من عالية الى ديوان الشرطة في بيروت منتصف ليل ٢٠ آب سنة ١٩١٥

فأدركوا على الفور ماأعد لهم فتوضأ معظمهم . وتقدم عبد الكريم الخليل من مفوض الشرطة وقال له :

– ألا يحضر الوالي اعدامنا .

– كلا . فمدير البوليس ورضا باشا كافيان .

– أتريد ان تدعو لي قليلا مدير البوليس .

– حيا وكرامة .

وذهب المفوض الى مدير البوليس فدعاه وشد ماأسرع الى مقابلة عبد الكريم وكان أثناء اقامته في الاستانه قد انقذه من السجن مرتين فلما تقابلا . التفت اليه عبد الكريم شامخ الرأس وقال له :

– أتذكر انني انقذتك من الموت مرتين .

فقطب مدير البوليس حاجبيه وقال :

أذكر ذلك ولكنني عاجز الان عن مكافأتك فقد حكم عليك من يد فوق يدي .

– أنا لأطلب منك أن تنقذني لانني أعرف الحد الذي يبلغ اليه عرفان الجميل عند الاتراك ولو كلفوك أن تضع الحبل في عنقي لما تأخرت ولفاخرت أقرانك بعملك .

– والان ماذا تطلب .

– أطلب منك أن تقابلني بالوالي عزمي .

– ذلك مستحيل .

– أتمنعون عن محكوم عليه بالموت رغبة يرجوها قبل موته .

– قل ماتريد ان يعرفه الوالي عنك وانا ابغاه اياه حرفا حرفا .

– لأأريد ذلك اذا كان هو لايجسر ان يقابلني وجها لوجه . ولكنني

أريد منك أن تمنع كل تركي من الدخول علي وهذه هي ارادتي الاخيرة(٥٨) .

ثم أدار ظهره وأخذ يتمشى بسرعة وهو واضح يديه في جيوبه . وأحب مدير البوليس أن يرضيه في آخر ساعات حياته فمنع عن الدخول الى غرفته في تلك الساعة التي سبقت الاعدام كل مأموري البوليس الترك .

وماهي الا هنيهة حتى وصل الى تلك الغرفة بوليس يحمل حبرا  
وأقلاما وقال للمحكومين :

– اكتبوا وصاياكم اذا شئتم .

وترك الاقلام والحبر على طاولة كبيرة في الغرفة وخرج فجلس  
الشهداء يخطون على الطروس آخر ماتمليه عليهم الوطنية والعاطفة قبل  
ساعات الموت .

كتب كل واحد وصيته وتركها وديعة عند دار البوليس لتسليمها  
الى أهله وبعدها صدرت الاوامر الى الجنود بتكيب السلاح (٥٩) . وأول  
من وقف تحت حبل المشنقة عبد الكريم الخليل فقال بصوت عال وبجمل  
متقطعة – قوانين العالم كلها تجيز للمحكوم عليه بالموت ان يقول ارادته  
الاخيرة قبل ساعة فهل يجيز لي قانونكم ايها الباشا ( يريد رضا باشا قائد  
جبل لبنان يومئذ ) أن أتكلم قبل أن يوضع الحبل في عنقي .

فتوقف رضا باشا بضع ثوان لايجد جوابا ثم أذن له في الكلام  
فقال :

( أشهدكم أيها القوم اننا لم نأت أمرا فريا يوجب وقفنا هذه وانسي  
أسف على ماأظهرته من الاخلاص للدولة منذ نشوب الحرب ولكن  
الاتحاديين أبوا الا أن يعلنوا عداهم لهذا العنصر الكريم الذي لايملك من  
أمره شيئا فاذا كان جمال باشا يتهمنا باضرام الثورة لاستقلال العرب  
فلا بد من ضحايا لهذا الاستقلال ولنكن نحن أول هذه الضحايا ، انني أعرف  
السبب الحقيقي الذي شنقني جمال باشا لاجله وسيعرفه التاريخ ) (٦٠) .

وكانت آخر كلمات الشهيد عبد الكريم الخليل ( بلغوا السفاح جمال  
باشا انه سوف يكون اعدامنا أكبر برهان على ذهاب ملك آل عثمان ) . ولما  
جاء بالاخوين محمد ومحمود محمصاني الى الساحة تعانق الاخوان قبل  
الصعود الى منصة المشنقة ثم نادى محمد ، المأمور الموكل بتنفيذ الحكم  
وقال له :

– لي رجاء اليك قبل موتي وهو أن تتكرم وتنفذ الحكم بي وبأخي  
في وقت واحد حتى لايتعذب الواحد منا برأى أخيه يموت أمامه . ولما  
وقف محمد تحت حبل المشنقة احال نظره في الجمع وقال :

– يشهد الله اني لم أحن وطني دقيقة واحدة . يشهد الله ان ما فعلته



وقمت به من الحركات التي اتهمت بها انما كان عن اعتقاد ثابت لا يتزعزع  
باني أخدم بلادي . اني أموت شهيدا . فلتحيا أمتي وليحيى العرب .  
ودفعت الطاولتان بحركة واحدة من تحت أقدام الاخوين وماهي  
الا خمس دقائق حتى كانا جثة بلا حراك (٦١) .  
ثم جيء بعبد القادر خرسا ونور الدين القاضي فوقف نور الدين  
وقال :

— اني بريء ياناس مما اتهمت به فأرجوكم أن تبلغوا أخي سلامي ،  
ثم قولوا له ان لا يتأثر ولا يبكي علي لاني مت ميتة الابطال واني لم أسود  
لاسمي صحيفة لافي الحياة ولا في الممات وهوى الكرسي من تحته فقضى مثل  
رفاقه (٦٢) .

لقد انتهى كل شيء عند الساعة الرابعة وتم اعدام احد عشر شابا اما  
الذي كان يقرأ أمام رضا باشا ومدير البوليس وهيأة الديوان العرفي  
فرمانات الاعدام فهو ضابط مغربي برتبة ملازم كان عضوا في الديوان  
العرفي واسمه عبد الله .

وعند الصباح جيء باحدى عشرة عجلة فانزلت الجثث عن الاعواد  
ووضعت كل واحدة منها في عربة وجلس عن جانبيها بوليسان وساروا  
بالجميع الى الرمل حيث حفروا لكل واحدة حفرة واروها فيها .

أما الاخوان محمد ومحمود المحمصاني فقد وضعا في حفرة واحدة  
وقد أبقى الاتراك فرقة من رجال البوليس حيال القبور حذرا من سرقة  
أجساد الشهداء . غير أن بعضا من عائلة حيدر صمموا النية على سرقة  
جثة صالح حيدر فجاءوا الرمل وغافلوا البوليس الواقف أمام الحفرة  
واخذوا الجثة بعد دفنها بنهار واحد (٢٦) . بعد الرعيل الاول من الذين  
أعدموا في ساحة البرج ببيروت في ٢١ آب ١٩١٥ اتسعت شقة الخلف  
بين العرب والترك ، وتغيرت نظرة العرب في الشام ، واتفقوا على وجوب  
الثورة على الدولة من أجل الحصول على الاستقلال ، حتى انه ليتمكن القول  
بان سياسة جمال باشا في الشام كانت أحد العوامل الحاسمة التي دفعت  
معظم زعماء المسلمين الى الاستقرار على وجوب الانسلاخ عن الدولة  
العثمانية .

ثم ألقى جمال باشا القبض على طائفة أخرى — أكثر عددا من سابقتها —

بتهمة الخيانة العظمى وكان أول من أعدموا في الخامس من نيسان ١٩١٦ جوزيف هاني من بيروت ، ثم حكم بالاعدام كذلك على واحد وعشرين آخرين : سبعة منهم في دمشق وأربعة عشر في بيروت وثلاثة مبعوثين من ممثلي دمشق كما وردت في بيان جمال باشا يومئذ (١٥) والذي اتهم فيه هؤلاء بانهم اشتركوا في تأسيس جمعيات غايتها سلخ سورية وفلسطين والعراق من السلطنة العثمانية (١٦) وهذه أسماءهم : عبد الحميد الزهراوي ( من حمص ) وهو عضو مجلس الاعيان وكان قد ترأس المؤتمر العربي في باريس ، وشفيق أحمد مؤيد العظم ( عضو مجلس النواب ) ، وشكري بدري العسلي وكذلك سليم محمد سعيد الجزائري وهو ضابط في الجيش التركي ، وسيف الدين ابي النصر الخطيب ( من حيفا ) وكان قاضيا ، والشيخ احمد حسين طباره ( من بيروت ) وكان صاحب جريدة واحد المندوبين في المؤتمر العربي في باريس ، والامير عارف الشهابي (من حاصبيا) وكان محاميا وعلي عمر النشاشيبي ( من القدس ) ومحمد حسين الشنطي ( من يافا ) ، وجرجي موسى حداد ( من جبل لبنان ) ، والامير عمر عبد القادر الجزائري ، وعبد الغني محمد العريسي صاحب جريدة المفيد ، وعمر مصطفى ورفيق رزق سلوم ، وتوفيق أحمد البساط وعبد الوهاب أحمد الانكليزي ، وسعيد فاضل عقل ، وباتره باولي ، ورشدي أحمد الشمعة ، وأمين لطفي محمد حافظ ، وجلال سليم البخاري (١٧) .

وحكم على كل من سالم بن مصطفى المظلوم بالاعتقال في القلعة لمدة خمس سنوات وتوفيق محمد الناطور ويوسف مخبير سليمان بعشر سنين وحسين خليل حيدر بخمس عشرة سنة ورياض رضا الصلح بنفي مؤبد والامير طاهر أحمد الجزائري بعشر سنين معتقلا في القلعة (١٨) . وتقرر براءة كل من محمد كامل الهاشم وابراهيم القاسم وسامي العظم ورشدي الشوا وعاصم بسيسو وعزت الاعظمي ومصطفى الكيلاني وعبد الرحيم حنون والدكتور حسام الدين ونجيب شقير والشيخ فتح الله علي أديب والدكتور أحمد قدري وسليم الطيارة وجميل الحسيني والشيخ سعيد الباني وسليم الشمعة وسليم النجاري وفايز الخوري ورشيد الحشيمي وعمر الاتاسي وعلي رضا والدكتور أمين قزما وسعيد عدوه والدكتور عبد الحفيظ ومحمد جميل الاشبي ومزيد باشا اليافي وعثمان العظم (١٩) .

ولقد اقترنت أحكام الاعدام والنفي والسجن باحكام النفي والابعاد فشملت نحو ٣٠٠ أسرة من أسر الشام ( سورية وفلسطين ولبنان ) قبض

على أعضائها نساء ورجالا واطفالا بأمر جمال باشا في شهري مايس ونيسان سنة ١٩١٦ وارسلوا الى الاناضول أي قبل صدور الاحكام بعدما صودرت أملاكهم وأموالهم فوزعوا في مدنه وقراه فمنهم من أرسل الى ولاية قونية ومنهم من أرسل الى انقره وغيرهم الى ديار بكر وبروسه وأضنة وسيواس وقسطموني حتى لم تبق مدينة من مدن الاناضول الا ونزلتها عائلة أو أكثر من العائلات السورية والغاية من هذا التدبير - وهم لم يقصوا سوى الاسر الغنية والكبيرة الممتازة - اضعاف العصبية العربية في بلاد الشام باقتطاع هذه العناصر القوية فترك وتفقد وتندمج في الطورانية (٧٠) .

والواقع ان التدقيق في هذه الوثائق التي تم العثور عليها يدل على أن أصحابها لم يرغبوا في الانفصال الكلي عن الامبراطورية العثمانية بل كانوا يعملون من أجل الحكم الذاتي (٧١) . ففي المذكرة التي بعث بها المسيو بومبار سفير فرنسا في استانبول بتاريخ ١٥ كانون الثاني ١٩١٣ نرى السفير يقول ان شفيق بك المؤيد نائب دمشق السابق قام بزيارة له للبحث في القضية السورية بعدما حل بالدولة العثمانية من هزائم في البلقان ، وسأله عما اذا كان اهتمام فرنسا يقتصر على المسيحيين في سورية ام يشمل المسلمين كذلك ( الذين اعتادوا ان ينظروا الى فرنسا وطن ثان ) وقد بحث شفيق المؤيد مع السفير عن الاصلاحات الواجب تنفيذها في ميدان الادارة بسورية وعن اللامركزية ، وعن قلب ولايات سورية الثلاث الى امارة ، وعن عدم قبول الاتراك في الوظائف العمومية في الولايات السورية . ثم سأل السفير عما اذا كانت فرنسا مستعدة لسوق جيش الى حلب اذا قامت الحكومة العثمانية باستعمال القوة العسكرية لاجل ابقاء سورية تحت سلطتها . وكان جواب السفير النصح بان يعمل الاصلاحيون على الحصول على الاصلاحات بالتفاهم مع الحكومة العثمانية . ثم قال : ان شفيق المؤيد سوف يسافر الى مصر حيث سيكرر للمندوبين الانكليز فيها بياناته ذاتها ، وبعد ذلك يسافر الى بيروت لتوحيد مساعيه مع الاصلاحيين فيها (٧٢) .

ويتضح من هذه المذكرة ان شفيق المؤيد لم يكن يطلب من فرنسا الا المساعدة على معاضدة سورية في طلبها الاصلاح على أساس اللامركزية ، هذا اذا كانت أقوال شفيق المؤيد قد نقلت نقلا أميناً .

وهناك نص المذكرة التي بعث بها قنصل فرنسا في بيروت بتاريخ ٢٢ نيسان ١٩١٣ والتي جاء فيها ان شفيق المؤيد زاره بعد مجيئه من مصر وحدثه عن المسألة السورية وبأنه يريد السفر للشام هناك ( سيتشبت

بتأسيس حزب اللامركزية لاحزب الاصلاح ويشترك مع اللامركزيين في  
مصر (٧٣) .

ومن هذا يتضح أن شفيق المؤيد كان يسعى للإصلاح على طريقة  
اللامركزية ، دون أن يتطرق لطلب حماية الدول الاجنبية أو للانفصال  
عن الدولة العثمانية .

أما الجنرال علي فؤاد اردن الذي كان رئيسا لاركان الجيش الرابع  
تحت قيادة جمال باشا ، فيوضح مدى مسؤولية جمال باشا نفسه في هذه  
القضية وذلك لان معظم أحكام الاعدام التي أصدرها ديوان الحرب كان  
مخالفا لرأي رئيسه وأعضائه ومنافيا لاقتناعهم الوجداني فهو يقول :  
( في شهر نيسان ١٩١٦ جاء الى مقر أركان الجيش بدمشق المقدم  
شكري بك رئيس ديوان الحرب بعاليه وقال ان محاكمة المتهمين انتهت  
وهيئة الديوان مقتنعة بان عدد الذين يمكن الحكم عليهم بالاعدام لايتجاوز  
الثلاثة أو الاربعة على أكثر تقدير وقد كتب أيضا رئيس الديوان قائمة  
بأسماء المتهمين وكتب ازاء كل اسم رأي هيئة الديوان في الحكم الذي يجب  
أن يصدر في حقه ، وذهب شكري بك الى غرفة جمال باشا وقال له ان  
ديوان الحرب أنهى المحاكمات ودون رأيه في هذه القائمة ولكن جمال باشا تناول  
الورقة وأخذ يكتب مقابل كل اسم الحكم الذي يريده هو : اعدام ، اعدام ،  
اعدام . ورأي رئيس المحكمة أن يعمل بتوجيه علي فؤاد اردن فقال :  
ياباشا أرجوك ، فكر في التاريخ ، ولكن جمال باشا صاح في وجهه : تأريخ  
فليتحطم على رأسك . وبعدها صدرت أحكام الاعدام وفقا لاوامر جمال  
باشا (٧٤) .

ولما انتهت المحاكمة وتقرر الاعدام نقل الذين سيعدمون في بيروت الى  
ديوان شرطتها ليلة ٦ مائس فادركوا على الفور مايراد بهم . ونقل الآخرون  
الى دمشق . وكان الذين نقلوا الى بيروت يرددون نشيد :

**شادوا مجدا وعلا  
جد كل العرب**

**نحن أبناء الالى  
نسل قحطان الابي**

واستمروا على ذلك طول مدة وجودهم في دار الشرطة . وعند الساعة  
الثالثة منتصف الليل دخل البوليس الى غرفة الشهداء ونادى ثلاثة منهم  
هم : سعيد عقل وباترو باولي وجرجي حداد (٧٥) .

أخذ الجند الرجال الثلاثة الى ساحة الاعدام ، وتقدم الثلاثة بقمصانهم  
البيضاء نحو المشانق وفحص الطبيب أجسامهم ( لان القانون يقضي بعدم

اعدام المريض ) فصرخ باترو باولي وقال : ( عجلوا بنا وخلصونا من وجوهكم  
اللعينة ) (٧٦) .

وجاء دور سعيد عقل فوقف على منصة المشنقة والتفت الى الواقفين  
حوله قائلاً :

– غفر الله لمن ظلمني ، وأسأل ربي ان يكون دمي الذي يراق الان  
سببا في المستقبل لحياة بلادي وشرفا لعائلي واولادي .

ثم التفت الى الطبيب الواقف امامه وقال له :

– رجائي اليك ، وانت من أهل بلادي ، ان تهوي بكل قوتك علي حال  
تعلقي لان خفة جسمي تمنع انقطاع حبل حياتي بسرعة .

وجاء الجنود بثلاثة آخرين للاعدام هم عمر حمد وعبد الغني العريسي  
والامير عارف الشهابي وكان البوليس قد طلب من عبد الغني ان يخرج من  
الدائرة الى الساحة مع عمر حمد وحدهما فالتفت اليه عبد الغني وقال له .

– اذهب وقل لرئيسك ان عبد الغني يطلب ان يعدم مع رفيقه  
الامير عارف (٧٧) ولا يجب ان يفترق عنه حتى في الموت ، فذهب البوليس  
ثم عاد وقال له : حسن فليذهب معك وكتب عمر حمد على الطاولة قبل  
خروجه من دائرة البوليس ثلاث أبيات حماسية من الشعر أخذ يرددتها وهو  
صاعد الى المشنقة . ولما وقف على منصة الاعدام خاطب رضا باشا ومدير  
البوليس باللغة الفرنسية ماتعريبه :

اني اكلمكما باللغة الفرنسية لانكما لاتفهمان العربية فبلغا حكومتكما  
الظالمة ان هذا العمل الذي تعمله الان سيكون سببا في خرابها . ثم التفت  
الى الحاضرين وقال باللغة العربية :

– اني أموت غير خائف ولاوجل ، اموت فداء للامة العربية ، فليسقط  
الاتراك الخونة وليحيى العرب . ولما وصل الى كلمة ( فليسقط الاتراك  
الخونة ) اشماز منه الموكل بامر اعدامه ف ضرب الكرسي من تحته قبل ان  
يتمكن الحبل من عنقه فاهوى الى الارض وهو بين حي وميت ، ثم وضع  
الحبل من جديد في عنقه .

والتفت عبد الغني عند هذا الحادث الى الواقفين من مأموري الحكومة  
وقال لهم :

– عار عليكم ان تعذبوا المحكوم بالاعدام الى هذه الدرجة ، ان  
الانسانية ستنتقم منكم على هذه الاعمال .

فنهزه الشرطي بخشونة قائلا :

– هذا لايعنيك ومن يخن دولته ينله أكثر من ذلك(٧٨) .

وجاء دور عبد الغني العريسي فوقف على المنصة وحاول البوليس  
ان يعجل في وضع الحبل في عنقه فالتفت اليه عبد الغني وقال :

– بلغوا جمال باشا ان الملتقى قريب وان ابناء الرجال الذين يقتلون  
اليوم سيقطعون في المستقبل بسيوفهم أعناق الاتراك . ان الدول لاتبنى على  
غير الجماجم ، وان جماجمنا ستكون أساسا لاستقلال بلادنا . وكان  
الكرسي قد هوى من تحته(٧٩) .

وقد عجل البوليس باعدام الامير عارف لم يتركه يتكلم أكثر من بضع  
كلمات(٨٠) .

ولابد لنا ان ندون جزءا من وصية الشهيد عبد الغني العريسي اذ  
قال في وصيته : ( يا بني العرب وسلالة قحطان ، يانسل الاكارم الاماجد  
وياخلف الاشاوس الصيد الذين دوخوا العالم بعزمهم وملكوا الدنيا بعدلهم  
ياذوي الهمم السماء والنفوس العصماء ، الغد لنا فان تيسر لي الخلاص  
والافلات مرة ثانية اتممت الواجب والا فحسبي انني خدمت امتي وبلادتي  
حتى آخر نقطة من دمي ولست بالفدائي الاول الذي يموت اليوم في  
سبيل القومية العربية فالرفاق كثر والغاية النبيلة التي ندعو اليها تقتضي  
ضحايا كثيرة فلأتأسوا اذا بلغكم غدا ان مئات من نخبة رجال الاممة  
العربية قتلوا فالغد يتلوه غدا أيضا ، وبعد غد فرج انشاء الله ) .

وجيء بعد ذلك بالقافلة الثالثة فكانت مؤلفة من الشيخ أحمد طباره  
ومحمد الشنطي . وقد اعتقدت عائلة الشيخ أحمد طباره بان الشيخ  
سيحكم عليه بالنفي فقط ولكن همس الناس في الأذان ولد في صدر عائلته  
شكا . وجاء اثنان من اخوة الشيخ احمد الى ساحة الاعدام ليشاهدوا  
المحكوم عليهم ولم يكونا قادرين على معرفة القادمين الى الاعدام بسبب  
الظلام وصعد الشيخ الى منصة المشنقة واخواه واقفان ينظران الى  
جهته ولايعرفانه حتى بدأ الكلام فثعرا بالمفاجئة وعادا الى البيت يحملان  
للعائلة ذلك الخبر المحزن(٨١) .

ظل الجنود يقودون الشهداء اثنين الى المشانق حتى جاء دور توفيق البساط ، فوصل الى أمام الساحة ، وهناك شاهد أحد عشر جثة معلقة فالتفت الى المشنوقين والى شانقهم وقال :

– مرحبا بارجوحة الشرف – مرحبا بارجوحة الابطال – مرحبا بالموت في سبيل الوطن الحر . ثم وضع الحبل في عنقه ورفس الكرسي فاهوى ومات شهيدا(٨٢) .

ولما قضى توفيق البساط التفت رضا باشا الى البوليس وقال له من بقي عندكم ؟ فاجابه الضابطان سليم الجزائري وأمين لطفي وهما من كبار ضباط الجيش العثماني . فلما سمع رضا باشا اسم الضابطين نهض الى دار الشرطة وقابل سليم وأمين هناك ودامت المقابلة نصف ساعة فقال أمين لطفي في أثناء المقابلة لرضا باشا :

– ليقل لنا الديوان العرفي على الاقل كيف حكم علينا بالاعدام . لماذا لم يستنطقونا ؟ لماذا لم يسمعوا كلامنا ؟ أهذا هو جزاء خدماتنا للدولة ؟ وأخيرا قال لهما رضا باشا :

– سأخبر القيادة العليا بشأن العفو عنكما .

وجلس الى التلفون وطلب مخابرة جمال باشا فأجيب انه متغيب وان فخري باشا وحده في القيادة فطلب محادثته ، وحاول رضا باشا في أثناءها طلب العفو عن الضابطين بصفة كونهما من كبار ضباط الجيش . غير ان الجواب كان يرن من التلفون بهذه الكلمة – أولماز ( غير ممكن ) .

ولما يؤس رضا باشا من استجداء العفو عنهما التفت الى سليم الجزائري وقال له : ماذا تريد أن أفعل بعد الان – تعال انت وخاطب فخري باشا . فاقرب سليم من آلة التلفون وطلب مخابرة فخري فلم يسمع غير هذه الكلمة – أولماز – وهنا التفت الى رفيقه وقال له – هلم بنا(٨٣) .

صعد سليم الجزائري الى منصة الاعدام ونظر الى الحضور من تحت نظارتيه ثم قال لرضا باشا – قل لهذا الخنزير جمال ان لايفرح بموتي لان روحي ستظل حية وتعلم أبناء البلاد من وراء القبر دروس الوطنية وبغض الأتراك – ولما جاء البوليس ليضع الحبل في عنقه أراد ان ينزع نظارتيه عن عينيه فمانع وقال لهم :

اعدموني على حالي كما عشت لاني لا اريد أن أموت وفي شيء ناقص .  
فلم يستطع البوليس الا الموافقة .

ولما جاء دور أمين لطفي صعد الى منصة الاعدام . واضطرب البوليس  
في وضع الحبل في عنقه فالتفت اليه وقال له :

– ( الم تعلم طرق الاعدام كما يجب ؟ ضع الحبل في عنقي بفن ونزاهة  
على الاقل جزاء خدماتنا للدولة . ولما لم يحسن البوليس وضع الحبل  
أخذ الشهيد الحبل منه ووضعه هو بنفسه في عنقه ورفس البوليس  
الكرسي من تحته رجليه(٨٤) .

هذا في بيروت أما في دمشق وقد أعدم فيها كل من عبد الحميد  
الزهرراوي وشفيق المؤيد وعبد الوهاب الانكليزي وشكري العسلي والامير  
عمر الجزائري ورفيق رزق سلوم في نفس الوقت أي في صباح ٦ مايس(٨٥)  
حيث استطاع البوليس بعد فترة قصيرة ان يلقوا القبض على عبد الحميد  
الزهرراوي الذي صعد الى المشنقة والتفت الى الحاضرين وقال ( ان العناية  
ترعى وطننا العربي الحبيب ، واننا سوف نصل الى الحصول على  
استقلالنا كاملا بعد أن ننتقم من الخونة الاتراك ) (٨٦) .

ويصف فالح رفي آتاي مدير مكتب جمال باشا الخاص اعدام رفيق  
رزق سلوم في دمشق بانه ( كان مثاليا حقيقيا ، قابل الموت بوجه ضاحك  
بسام . كان آخر من سيقوا الى المشنقة ، ستة أشخاص قد صاروا قبله  
جثا هامة تتدلى من بين أعواد ست من المشانق . وعندما وصل الى  
رأس الميدان ، ورأى المشنقة الفارغة ، قال مبتسما – يظهر ان موقفي  
هناك ، وأخذ يسير نحوها ، ولكنه عندما قرب من المشانق ورأى جثة  
عبد الحميد الزهرراوي المتدلية من المشنقة الاولى سلم عليها قائلا مرحبا  
ياأبا الحرية . حقا ان السير نحو الموت ، دون حقد ودون أسي ، لهو من  
أصعب الامور ) (٨٧) .

وقد حكمت المحكمة على أشخاص آخرين بالسجن مددا متفاوتة .  
ومع ان جمال باشا أعلن حل المحكمة العسكرية بعد تنفيذ احكام الاعدام ،  
الا انه لم يلبث ان اعتقل في شهر حزيران أمير اللواء شكري الايوبي ( وكان  
موظفا مدنيا يومذاك ) وشكري القوتلي ( رئيس جمهورية سوريا فيما بعد )  
وفارس الخوري ( نائب دمشق يومذاك ورئيس وزراء سورية فيما بعد )  
وأمر اللواء عبد الحميد القلطي ، واشخاصا آخرين بتهمة التآمر



لاشعال ثورة عربية ، وعندما حمل اليه رئيس المحكمة القرار لتصديقه . قال له : اخرج من هنا فأنا أريد حكما بالعقوبة لابلبراءة . وجرت المحاكمة مجددا فحكم بالاعدام على شكري الايوبي واثنين آخرين . ولكن الحكومة المركزية في العاصمة قررت أن ترسل جميع قرارات الاحكام في القضايا السياسة الى ديوان التمييز العسكري - نتيجة لاندلاع الثورة العربية - وعندما عرضت أوراق الحكم على هذا الديوان قرر نقضها ورغم ذلك أصر جمال باشا على أن يبقى اولئك الاشخاص رهن الاعتقال ، فظلوا في السجن الى مابعد مغادرته سورية(٨٨) .

ان هذه الاعدامات التي نفذها جمال باشا السفاح أثارت ضمير المفكرين حتى من الدول الغربية ، فنشرت صحيفة Tomps الفرنسية بتاريخ ٥ آب ١٩١٥ ( ان الحركة العربية أهم مما يظنها المرء لاول مرة ، فقد نصبت المشانق في ميدان الحرية ببيروت وشنق فوقها أحد عشر من الاعيان وظلت جثثهم معلقة في الجبال ست ساعات ثم القيت بعد ذلك في حفرة المقابر العامة برمال بيروت ) (٨٩) ورافقت هذه الاعدامات مصادرة المحاصيل وفرض اعانات للجيش باسم التكاليف الحربية ونقل الكنائس العربية من بلاد الشام الى مناطق بعيدة من الجبهة ) (٩٠) .

وكان لهذه الاجراءات أثرها الكبير في ابتعاد العرب عن القضية التركية وكما يذكر الجنرال الالماني فون ساندرز ( ان تأثير حكم جمال باشا لم يحرم سورية من زعامة الثورة بل زاد في الشعب روح الثورة ) (٩١) . وكان لابد لتحقيق هذه الثورة من البحث عن زعيم يتولى قيادتها وعن مصدر خارجي للمساعدة نظرا لافتقار البلاد الى الامكانيات اللازمة للثورة وصعوبة انطلاق الثورة العربية من الشام بسبب احتشاد القوات العثمانية فيها(٩٢) .

وفي ٢٦ آذار ١٩١٥ وصل فيصل دمشق في طريقه الى الاستانة ومكث فيها اربعة اسابيع . وقد استقبله جمال باشا بمظاهر الترحيب ودعاه الى الإقامة في مقر القيادة العامة ، ولكن فيصلا اعتذر عن ذلك لانه كان قد وعد آل البكري بان يكون ضيفهم (٩٣) .

وفي أثناء هذه المدة التي قضاها فيصل في دمشق استطاع ان يطلع على أسرار الحركة العربية القومية وان يلتقي بالاعضاء البارزين في الجمعية العربية الفتاة ، وقد جرى تبادل وجهات النظر في حذر وحرص شديدين ، وقد ترددوا في البداية في التصريح بما يختلج في نفوسهم ، وبدأوا يشرحون

له الاسباب التي دفعتهم للمضي في طريقهم فقد وافقت اللجنة العليا لجمعية العربية الفتاة التي عقدت قبل مجيء فيصل ببضعة شهور على القرار التالي :

« نتيجة لاشتراك تركيا في الحرب أصبح مصير الولايات العربية في الدولة العثمانية معرضا لمخاطر شديدة ويجب بذل جميع الجهود لضمان حريتها واستقلالها ، كما تقرر انه اذا تحقق ان للدول الاوربية مطامع في هذه البلاد فان الجمعية ملزمة بان تعمل الى جانب تركيا لكي تقاوم التدخل الاجنبي مهما تكن صورته » (٩٤) .

وأخيرا تمت الموافقة ان يتولى الشريف حسين زعامتهم وقيادة الثورة رغم ان مجتمع الجزيرة كان أقل المجتمعات العربية ثقافة ووعيا قوميا (٩٥) ولكنهم وضعوا مخططا يتضمن المطالب التي أرادوا ان تكون أساسا لمفاوضات الشريف حسين مع بريطانيا ، وقد عرف هذا المخطط باسم ( بروتوكول دمشق ) وارفقت به خريطة تبين حدود البلاد العربية في آسيا ، والتي كانوا يرون ضرورة حصولها على الاستقلال (٩٦) . ويتلخص بروتوكول دمشق فيما يأتي :

١ - اعتراف بريطانيا العظمى باستقلال البلاد العربية الواقعة ضمن الحدود التالية شمالا :

شمالا - بخط مرسين ، أضنه ، الى ما يوازي خط العرض ٣٧ شمالا ثم على امتداد خط بيرجيك - أورفه - ماردين - مديات - جزيرة ابن عمر - العمادية الى حدود ايران شرقا .

وشرقا : على امتداد حدود ايران الى خليج العرب جنوبا .

وجنوبا : المحيط الهندي ( ما عدا عدن التي تحافظ على وضعها الحالي كما هو ) .

وغربا : على امتداد البحر الاحمر ثم البحر الابيض المتوسط الى مرسين .

٢ - الغاء جميع الامتيازات الاجنبية التي عقدتها الدول الاوربية مع السلطات العثمانية طوال عهد الاحتلال .

٣ - عقد معاهدة دفاعية بين بريطانيا العظمى وهذه الدولة العربية المستقلة .

٤ - منح بريطانيا الافضلية في الشؤون الاقتصادية (٩٧) .

ولهذا الميثاق أهمية كبيرة ، لانه اول قرار تتخذه جماعة مسؤولة من العرب بانشاء دولة عربية مستقلة متحدة تستعين على توطيد كيانها لعقد معاهدة دفاعية مع بريطانيا ، ولقد منح هذا الميثاق بريطانيا العظمى كل ماكانت تطمح اليه لضمان مصالحها وتأمين طرق مواصلاتها مع الشرق (٩٨) .

لقد كان الامير فيصل في اليوم الذي تم فيه تنفيذ حكم الاعدام ، مقيما مع آل البكري في مزرعتهم بالقابون ، وهي تبعد عن دمشق حوالي خمسة كيلو مترات وبلغهم النبا . ثم قفز فيصل واقفا ، وانتزع الكوفية من على رأسه وقذف بها على الارض ، وداسها بعنف وصاح : ( طاب الموت يا عرب ) (٩٩) .

عاد الامير فيصل الى الحجاز بعد أيام قليلة من حوادث الشنق (١٠٠) وأخذ يوم اعلان الثورة العربية يقترب بسرعة (١٠١) وفي صباح يوم السبت التاسع من شعبان ١٣٤٤ - العاشر من حزيران ١٩١٦ الساعة الثالثة والنصف أطلقت الرصاصة الاولى في مكة وبدأت الثورة على العثمانيين (١٠٢) واستطاعت القوات العربية ان تستولي في أقل من ثلاثة شهور على مدن الحجاز باستثناء المدينة المنورة التي بقيت محاصرة حتى آخر الحرب ، ويوبع الحسين بن علي ملكا على العرب في كانون الاول ١٩١٦ وتقدم الجيش العربي بقيادة فيصل بن الحسين من أرض الحجاز فنسف سكة الحجاز بين معان والعقبة ، ثم تقدم شمالا نحو شرقي الاردن ، ثم والت القوات العربية زحفها الى دمشق واحتلتها ، واندحر العثمانيون متراجعين الى بلاد الاناضول ، ولم يمض شهر حتى تحررت سورية كلها من النفوذ العثماني (١٠٣) .

أما جمال باشا فقد ظل يعتقد ان الشريف لن يجسر على اعلان الثورة، لذلك فوجيء بانباء قيامها ، وقد سجل في مذكراته مايدل على ذلك ، اذ قال :

« واني وايم الله لو علمت ذلك وقتئذ ( ترقب الشريف الفرصة الملائمة للقيام بالثورة ) لكنت أمرت بالقبض على فيصل في دمشق وعلى أخيه في المدينة ، ولارسلت فرقة تركية على جناح السرعة الى مكة للقبض على الشريف حسين وأولاده والقضاء على تلك الثورة المشؤومة في مهدها ،

ولكن ماذا عساي كنت أفعل في تلك الظروف ولم تكن لدي بعد البراهين على التدابير الجنائية التي كان يقوم بها أولئك الاشخاص «(١٠٤) .

مانقضى عام ١٩١٧ حتى ساد السكوت عن ذكر جمال باشا واوامره فقيل في تفسير ذلك ان حكومة الاستانة استدعته واحتفظت به لديها وزيراً للبحرية(١٠٥) لانها اعتبرته المسؤول الاول عن الفشل الذريع الذي مني به الجيش في سيناء والحجاز وقسم من فلسطين ، وعن اخفاقه في الادارة والسياسة اخفاقا كان من شأنه ان يقوم السوريون واللبنانيون عليه وعلى حكومته ، وانضم عشرون الفا من شبانهم ورجالهم الى الثورة العربية العاملة تحت راية الشريف حسين الى جانب الجيوش البريطانية .

## الحواشي

- (١) علي حسين الخربوطي - التاريخ الموحد للامة العربية - القاهرة ١٩٧٠ - ص ٢٢٦
- (٢) أحمد طربين - الوحدة العربية في تاريخ الشرق المعاصر ١٨٠٠ - ١٩٥٨ ، دمشق ١٩٧٠ ص ١٦٤ .
- وسليمان موسى - الحركة العربية - سيرة المرحلة الاولى للنهضة العربية الحديثة ١٩٠٨ - ١٩٢٤ بيروت ١٩٧٠ ، ص ٩٩ .
- (٣) جميل بيهم - العرب والترك - بيروت ص ١٥٢ .
- (٤) وجيه كوثراني - الاتجاهات الاجتماعية والسياسية في جبل لبنان والشرق العربي ١٨٦٠ - ١٩٢٠ بيروت ، ١٩٧٦ ، ص ٢١٦ - ٢٢٤ .
- وعلي حسين الخربوطي - المصدر السابق - ص ٢٢٨ - ٢٢٩ .
- (٥) أحمد طربين - المصدر السابق - ص ١٦٤ .
- (٦) وجيه كوثراني - المصدر السابق - ص ٢٢٤ .
- (٧) انظر نص البيان في : توفيق علي برو : العرب والترك في العهد الدستوري العثماني ١٩٠٨ - ١٩١٤ مصر ١٩٦٠ ، ص ٥٠٦ .
- (٨) أحمد طربين - المصدر السابق - ص ١٦٤ .
- محب الدين الخطيب - المؤتمر العربي الاول - القاهرة - ص ١٩ .
- (٩) علي حسين الخربوطي - المصدر السابق - ص ٢٠٣ .
- (١٠) تحسين العسكري - مذكرات عن الثورة العربية الكبرى والثورة العراقية - ج ٢ - ص ٢٢١ . أحمد طربين - المصدر السابق - ص ١٦٤ .
- (١١) كان عزيز علي المصري قد أرسل من مصر الى زعماء العهد في سوريا والعراق يرجوهم ان لا يقوموا بأي عمل عدائي ضد الدولة بل ان يقفوا بجانبها حتى يحصلوا على ضمانات فعلية ضد الخطط الاوربية .
- انظر : خيرية قاسمية - الحكومة العربية في دمشق من ١٩١٨ - ١٩٢٠ - القاهرة ١٩٧١ ص ٢٣ .
- (١٢) جمال باشا - مذكرات جمال باشا السفاح - تعريب علي أحمد شكري ، بغداد ١٩٦٣ ، ص ١٥٤ وانظر وجيه كوثراني - المصدر السابق - ص ٢٥٩ .
- وسليمان موسى - المصدر السابق - ص ١٠٠ .

(١٣) أحمد جمال باشا قائد عسكري وسياسي عثماني ( ١٨٣٣ - ١٩٢٢ ) انتسب الى جمعية الاتحاد والترقي مع أنور باشا وطلعت باشا وأصبح من زعمائها عين وزيراً للأشغال العامة عام ١٩١٣ - ١٩١٧ وتزوج من إحدى البنات الارمنيات المدعوة ( روز ) .  
انظر : مصطفى طلاس - الثورة العربية الكبرى - دمشق - ص ١١٥ .  
وجورج انطونيوس - يقظة العرب ، ترجمة د. ناصر الدين الاسد ، ود. احسان عباس بيروت ١٩٧٤ - ص ٢٣٤ .

(١٤) سليمان موسى - المصدر السابق - ص ١٠٠ .

(١٥) جورج انطونيوس - المصدر السابق - ص ٢٣٤ .

ويوسف الحكيم - بيروت ولبنان في عهد آل عثمان - بيروت ١٩٦٤ ، ص ١٥٩ .

(١٦) سليمان موسى - المصدر السابق - ص ١٠١ .

(١٧) محمد عزة دروزة - نشأة الحركة العربية الحديثة ، دمشق ١٩٧١ ، ص ٣٤٣ .

(١٨) المصدر السابق - ص ٣٤٦ .

ومحمد طاهر العمري - تاريخ مقدرات العراق السياسية جا ، الموصل ١٩٢٤ ، ص

١٨٩ .

(١٩) يوسف الحكيم - المصدر السابق ص ١٠٧ .

(٢٠) يوسف الحكيم - المصدر السابق - ص ١٨٠ .

(٢١) سليمان موسى - المصدر السابق - ص ١٠٢ .

(٢٢) جمال باشا - مذكرات - ص ٢٤٩ .

(٢٣) المصدر السابق - ص ٣٤٠ - ٣٤٣ .

(٢٤) جمال باشا : مذكرات - ص ٢١٥ .

وانظر نص الخطبة في أمين سعيد : الثورة العربية الكبرى - ج ١ مصر ص ٥٩ - ٦٠  
Yale, W : the Near East , A Modern Yistory ( University of (٢٥)  
Michigan ) 1958, p. 244.

وانظر : خيرية قاسمية - المصدر السابق - ص ٢٣ .

(٢٦) جمال باشا - مذكرات - ص ٣٤٠ - ٣٤٣ .

(٢٧) جورج انطونيوس - المصدر السابق - ص ٢٣٥ .

وانظر : Anderson , the Eastern Question, London , 1966, p. 315.

(٢٨) جمال باشا - مذكرات - ص ١٦٣ .

(٢٩) ان ماتابع من حوادث سوف يبرهن على ان هذه الثقة لم تكن الا نتاج ظفر تكتيكي وكان الهدف منها استمالة العرب والمسلمين لتجنيدهم في الحملة العسكرية

على القناة ، وهناك فرضية أخرى ، قد تفسر مثل هذا السلوك اذ من الممكن ان يكون جمال باشا قد راوده سرا مشروع اقامة سلطنة مستقلة تحت حكمه على ان هذه الفرضية ليست أكيدة .

انظر : وجيه كوثراني - المصدر السابق - ص ٢٦٣ .

وساطع الحصري - يوم ميسلون - بيروت - ص ٤٤١ - ٤٤٢ .

(٣٠) جمال باشا - مذكرات ص ٢١٧ - ٢١٨ .

(٣١) وجيه كوثراني - المصدر السابق - ص ٢٦٢ .

(٣٢) جورج انطونيوس - المصدر السابق - ص ٢٣٥ .

سليمان موسى - المصدر السابق - ص ١٠٦ .

(٣٣) سليمان موسى : المصدر السابق - ص ١٠٧ .

نقلا عن عزيز بك ( رئيس استخبارات الجيش الرابع ) : سورية ولبنان في الحرب

العالمية - تعريب فؤاد الميداني - ص ١٢٨ .

(٣٤) يوسف الحكيم - المصدر السابق - ص ٢٢٤ .

(٣٥) ان جمال باشا أنشأ ديوان حرب عربي في عاليه على اثر وصوله الى سوريا سنة ١٩١٤

لمحاكمة المتهمين بالقضايا السياسية وغيرها وقد كان الديوان العربي يتألف من هيئتين :

هيئة تحقيق يرأسها ضابط اسمه صلاح الدين وهيئة قضاة يرأسها قائم مقام اسمه شكري

بك . ولا توجد هناك جلسات علنية ولا مرافعات ولا دفاع وانما كانت هيئة القضاة تسترشد

في جميع أعمالها باوامر جمال باشا .

(٣٦) جمال باشا : مذكرات ص ٢٣٣ .

وانظر جمال باشا : الايضاحات السياسية ( الاستانة ١٣٣٤ ) ص ٥ وما بعدها .

(٣٧) جمال باشا : مذكرات ص ٢٣٣ .

جمال باشا : ايضاحات - ص ٥٥ .

(٣٨) جمال باشا : مذكرات - ص ٢٢٤ .

وراجع ماجاء عن الشيخ أسعد الشقيري بصدد اعتقال فارس الخوري في :

حنا خباز وجورج حداد - فارس الخوري حياته وعصره - بيروت ١٩٥٢ - ص ٢٩-٣٠ .

(٣٩) محمد جابر صفا - تاريخ جبل عامل - بيروت - ص ٢١١ - ٢١٢ .

(٤٠) أمين سعيد - المصدر السابق - ص ٦٣ ، ص ٧٦ .

(٤١) المصدر السابق ، ص ٦٢ .

- (٤٢) روى اكرم زعيتر قصة حسن حماد في خمسة اعداد من جريدة ( الحياة ) البروتية ،  
حزيران ١٩٦٣ .
- انظر : سليمان موسى - المصدر السابق - ص ١٠٧ .
- (٤٣) أمين سعيد - المصدر السابق - ص ٦٣ .
- (٤٤) جمال باشا - مذكرات ص ٢٣٣ .
- (٤٥) مجلة المنار ، المجلد ٢٣ ، جزء ٢ ، القاهرة ١٩٢٢ ، ص ١٣٢ .
- (٤٦) جورج انطونيوس - المصدر السابق - ص ١٧٢ - ١٧٥ .
- (٤٧) أمين سعيد - المصدر السابق - ص ٧٦ - ٧٧ .
- (٤٨) نفس المصدر - ص ٧٧ .
- (٤٩) ان أعضاء اللامركزية والفتاة يتبادلان الرسائل بين مصر وسورية بواسطة البريد الفرنسي ، وقد كان من جملة امتيازات فرنسا ان تفتح مكاتب بريد مستقلة لها في مواني الدولة العثمانية مثل بيروت ويافا والاسكندرية وكان العرب يستغلون هذه المكاتب البريدية للافلات من رقابة السلطات العثمانية .
- انظر : سليمان موسى - المصدر السابق - ص ١٠٩ .
- (٥٠) أمين سعيد - المصدر السابق - ص ٦٦ .
- (٥١) Zeine, N : Arabe - Turkish Relations and the Emergence of arabe Nationalism, Beirut, 1958, pp. 129- 130.
- (٥٢) خيرية قاسمية - المصدر السابق - ص ٦٦ .
- (٥٣) نفس المصدر - ص ٦٩ .
- (٥٤) يوسف الحكيم - المصدر السابق - ص ٢٣٦ .
- (٥٥) أمين سعيد - المصدر السابق - ص ٦٨ .
- (٥٦) مما يستحق الذكر أن السيدة زوجة يوسف الهاني أقامت حفلة في منزلها عشية الليلة التي أعدم فيها زوجها لجمال باشا وحاشيته دعت اليها نساء الطبقة الراقية في بيروت وبعد انتهاء الحفلة طلبن العفو عن الهاني المعتقل فوعد بالاجابة الا انه أرسل فوراً امرًا بثنقه .
- انظر : يوسف الحكيم - المصدر السابق - ص ٢٣٦ .
- (٥٧) أمين سعيد - المصدر السابق - ص ٦٨ .
- (٥٨) نفس المصدر ص ٨٤/٨٣ .
- (٥٩) نفس المصدر ص ٨٥ .



- (٦٠) نفس المصدر ص ٨٥ .
- (٦١) نفس المصدر ص ٨٥ .
- (٦٢) نفس المصدر ص ٨٥ وانظر افاق عربية ، العدد ٩ آيار ١٩٧٦ - بغداد - ص ٦ .
- (٦٣) نفس المصدر ص ٨٦ .
- (٦٤) محمود صالح منسي - حركة اليقظة العربية في الشرق الاسيوي ، القاهرة ١٩٧٥ ، ص ٢٦٧ .
- محمد أنيس : الدولة العثمانية والمشرق العربي - ص ٢٧٨ .
- (٦٥) أصدر جمال باشا ( كتب ) بعد اعدام هؤلاء سماه ( ايضاحات ) ومن البديهي ان ايضاحات جمال هذه ، بما احتوته من صور فوتوغرافية عن الاعترافات والوثائق المنوه عنها ، لم تكن كافية لتبرير موقفه :
- انظر : سليمان موسى - المصدر السابق - ص ١٢٠ .
- ويوسف الحكيم - المصدر السابق - ص ٢٤٢ .
- (٦٦) انظر نص البيان الرسمي الذي أصدره جمال باشا في ختام القضية والمنشور في صحف سورية في ٧ ميس ١٩١٦ في :
- جمال باشا مذكرات جمال باشا - ص ٢٦٦ .
- محمد طاهر العمري - المصدر السابق - ص ١٨٩ .
- (٦٧) جمال باشا - مذكرات - ص ٢٦٧ .
- وانظر :

George Haddad, Fifty years of Modern Syria and a Lebanon  
( Beirut, 1950 ) , pp. 48 - 57.

- (٦٨) انظر نص البلاغ الذي أصدره جمال باشا في ختام قضية عالية في :
- أمين سعيد - المصدر السابق - ص ٧٢ .
- ومحمد طاهر العمري - المصدر السابق - ص ١٩١ .
- (٦٩) أمين سعيد - المصدر السابق - ص ٧٣ .
- ومحمد طاهر العمري - المصدر السابق - ص ١٩٢ .
- (٧٠) أمين سعيد - المصدر السابق - ص ٧٣ .
- (٧١) خيرية قاسمية - المصدر السابق - ص ٢٣ .
- (٧٢) جمال باشا - ايضاحات - ص ٥٣/٥٢ .
- (٧٣) المصدر نفسه - ص ٥٧ .
- (٧٤) ساطع الحصري ، مجلة العربي ، العدد ٣٠ آيار ١٩٦١ .
- نقلا عن مذكرات الجنرال علي فؤاد المطبوعة باللغة التركية سنة ١٩٥٤ وعنوانها :
- « خطرات سوريا خلال الحرب العالمية الاولى » .
- وانظر : سليمان موسى - المصدر السابق - ص ١١٦/١١٥ .
- ٣٩٥ -

- (٧٥) أمين سعيد - المصدر السابق - ص ٨٧/٨٦ .
- (٧٦) نفس المصدر - ص ٨٧ .
- (٧٧) نفس المصدر - ص ٨٨ وافاق عربية ، العدد ٩ ايار ١٩٧٦ ، بغداد - ص ٦ .
- (٧٨) نفس المصدر - ص ٨٩ .
- (٧٩) نفس المصدر - ص ٨٩ .
- (٨٠) نفس المصدر - ص ٨٩ وانظر محمد عمارة - العروبة في العصر الحديث . القاهرة ١٩٦٧ ، ص ٣٤٢ .
- (٨١) نفس المصدر - ص ٨٩ .
- (٨٢) نفس المصدر - ص ٩٠ .
- (٨٣) محمد عمارة - المصدر السابق - ص ٣٤٢ .
- (٨٤) المصدر نفسه - ص ٣٤٢ .
- (٨٥) أمين سعيد - المصدر السابق - ص ١٢ .
- (٨٦) المصدر السابق - ص ٩٢ .
- (٨٧) سليمان موسى - ص ١١٨ نقلا عن كتاب فالح رفقي أتابي ، جبل الزيتون الذي نشر باللغة التركية عام ١٩٣٥ . (مجلة العربي العدد ٣٠ ايار ١٩٦١) .
- (٨٨) سليمان موسى - المصدر السابق - ص ١١٩ .
- (٨٩) محمود كامل : الدولة العربية الكبرى ، مصر ١٩٦٦ - ص ٤٢٦ .
- (٩٠) جورج انطونيوس - المصدر السابق - ص ٣٤٥ .
- (٩١) Zeine, N : Arab - Turkish Relations, p. 132.
- وانظر : خيرية قاسمية - المصدر السابق - ص ٢٤ .
- (٩٢) خيرية قاسمية - المصدر السابق - ص ٢٤ .
- (٩٣) جورج انطونيوس - المصدر السابق - ص ٢٣٦/٢٣٧ .
- ومحمود صالح منسي - المصدر السابق - ص ٢٦٦ .
- (٩٤) جورج انطونيوس - المصدر السابق - ص ٢٣٦/٢٣٧ .
- ومصطفى طلاس - المصدر السابق - ص ١١٨ .
- (٩٥) خيرية قاسمية - المصدر السابق - ص ٢٤ .
- (٩٦) وجيه كوثراني - المصدر السابق - ص ٢٧١ - ٢٨٥ .
- وسليمان موسى - المصدر السابق - ص ١٢٨ .

- (٩٧) جورج انطونيوس - المصدر السابق - ص ٢٤٣ .  
وعبد الكريم محمود غرايبه - مقدمة تاريخ العرب الحديث ١٥٠٠ - ١٩١٨ . دمشق  
١٩٦٠ - ص ٣٣٤ .
- (٩٨) الجنرال جلوب : بريطانيا والعرب ص ١٦٠ .
- (٩٩) مصطفى طلاس - المصدر السابق - ص ٢١٧ .
- رفعة العسلي - كفاح سورية ج١ ، دمشق ١٩٣٧ ، ص ٣٠ .
- (١٠٠) جمال باشا : مذكرات - ص ٣٨٩ .
- وسليمان موسى - المصدر السابق - ص ٢٦٨ وما بعدها .
- (١٠١) أمين سعيد - الثورة العربية الكبرى ج٢ ص ٢٦/٢٧ .
- (١٠٢) نور الدين حاطوم - محاضرات عن حركة القومية العربية . القاهرة ١٩٦٧ . ص ٤٣  
وحسين فوزي النجار - الشرف العربي بين حربيين . القاهرة ص ٢٥ .
- (١٠٣) نور الدين حاطوم - المصدر السابق - ص ٤٣ .
- وانظر عبد الكريم محمود غرايبه - المصدر السابق - ص ٣٣٥ .
- (١٠٤) جمال باشا - مذكرات - ص ٣٨٨ .
- (١٠٥) يوسف الحكيم - المصدر السابق - ص ٢٨٤/٢٨٣ .

## أثر الخالف الرباعي في الإصلاحات الإدارية المقترحة لسورية

### الدكتور قيصر فرح

( جامعة منسوتا )

كما يلاحظ من الارشيف الدبلوماسي للدول الاوربية الكبرى وللدولة العثمانية كان تعيين خسرو باشا وزيرا أعلى في صيف عام ١٨٣٩ من قبل السلطان عبد المجيد دليلا على سياسة متشددة اتبعتها الباب العالي تجاه محمد علي حاكم مصر وسوريا . كان الوزير الجديد عدوا لدودا لكل من محمد علي والضابط فوزي باشا الذي ارتد مع الاسطول العثماني الى مصر ، وبتشجيع من خسرو باشا لم يعر السلطان أذنا صاغية لمطالب محمد علي في ضم سوريا اليه وطرده خسرو ، ذلك على الرغم مما حدث في غضون شهر واحد من فقدان الاسطول والمعركة الكبيرة في نذب وموت السلطان محمد الثاني قبل وصول أخبار الهزيمة اليه . كان القبول بضم سوريا الى محمد علي تحت ضغط تلك الظروف معناه القبول بتمزيق الامبراطورية العثمانية .

لم يكن لحكومة السلطان المنهكة عسكريا أي حول أو قوة ، ولم يكن أمامها من اختيار سوى طلب المساعدة من أعداء محمد علي الاوربيين . رفضت الوزارات الثلاث في كل من النمسا وبروسيا كما رفض الفيكونت بالمرستون وزير خارجية بريطانيا التصديق على تدخل بلادهم العسكري تأييدا للحكومة العثمانية الا بعد أن تعطي الاخيرة موافقتها على بعض الشروط ويأتي في مقدمة هذه الشروط قيام الحكومة العثمانية باصلاحات ادارية في سورية . ويمكننا رؤية هذا واضحا في المراسيم الامبراطورية وعلى وجه الخصوص مرسوم كلخانة الذي صدر في الثالث من شهر تشرين الثاني عام ١٨٣٩ .

وافق السلطان على هذا الشرط بشكل علني في خطاب وجهه الى الامة والاعيان وأعضاء الحكومة في الثامن من آذار عام ١٨٤٠ . كما وافقت حكومته أيضا على استشارة حكومات حلفائها حول تفاصيل الاصلاحات التي سيقام بها . وبسبب ما يتمتع به مترنيخ من تقدير لدى السلطان

قام بترجمة هذا البحث الى العربية الانسة ندى العقاد .

ووزرائه فان آراءه سوف تعطى أذنا صاغية طالما انها في صالح الدولة العليا .

استطاع وزير الخارجية رشيد باشا استنباط توصيات من قبل الدول الصديقة ( الدول المتحابة ) وقام مترنيخ من جانبه بنقل توصياته الى رشيد باشا حول تحسينات ادارية وضعها في صيغة عامة كانت هذه التوصيات موازية بشكل كبير للشروط التي تضمنها خط شريف كلخانة . وعلى وجه التحديد نصح مترنيخ حكومة السلطان باحترام حقوق السوريين التقليدية وامتيازاتهم وعدم التدخل في شؤونهم الدينية وتجنب أي تمييز في معاملة الطوائف المختلفة هناك .

قام السفير البروسي بنقل توصيات حكومته الى الحكومة العثمانية ، ودعت هذه التوصيات الى سن قوانين تحمي حقوق المسيحيين أيضا . أما الملحق الروسي تيتوف فقد نقل الى الحكومة العثمانية تعليمات مفصلة وصلته من القيصر نسلرود وكانت هذه التعليمات تعكس حرص القيصر على خير السوريين وصالحهم . حث تيتون الباب العالي على التعقل بشكل خاص في تعيين المسؤولين الاداريين وعلى التصرف السريع لاعادة بناء النظام الضريبي بهدف التخلص من الضرائب الباهظة وغير المنتظمة ومن الظلم الناشيء عن التوزيع غير العادل في الضرائب . سعى تيتوف كذلك الى حماية مسيحيي القدس والى عدم تجنيد اللبنانيين للخدمة في القوات النظامية .

### تورط الدول الكبرى في الشؤون السورية :

وافقت الدول التي كان يعتبرها الباب العالي دولا صديقة على تنسيق تعاملها مع حكومة السلطان ، وفرض السفير البريطاني نفسه بشكل تدريجي كمتحدث رسمي باسم الجماعة ، الا ان صوت مترنيخ الاتي من مكاتب الدول الكبرى ظل الصوت المسموع في استنبول وكانت آراؤه المحافظة تتفق مع آراء بريطانيا ومع آراء السلطان على حد سواء .

ترعمت بريطانيا عسكريا وسياسيا الحركة المطالبة في اوساط الحلفاء باعادة سوريا الى السلطان على أساس أن تجري اصلاحات ادارية أساسية تتماشى مع ما جاء في مقررات خط كلخانة بالنسبة لهذا الجزء

من الإمبراطورية ، كان ينظر الى تهدئة الوضع في لبنان والى الاستقرار الإداري على انهما عنصران جوهريان في عملية الإصلاح بمجملها . وبشكل مماثل كان وزراء الباب العالي يبدون اهتمامهم في الوصول الى مثل هذه الإصلاحات وحتى انهم كانوا على أتم الاستعداد لاجراء مشاورات مع حلفائهم حول كيفية الشروع بها .

أوفدت الحكومة العثمانية الى سوريا أشخاصا بارزين من أمثال ريتشارد وود وجكمس بهدف بحث الحالة هناك عن قرب ووضع توصيات محددة من أجل الإصلاح ، بعدئذ نرى أن الباب العالي منح أعلى المناصب الإدارية في سوريا الى الافراد الذين تعاونوا مع مثل هؤلاء خلال الحملات العسكرية التي شنت ضد قوات محمد علي . أشارت التحقيقات الى ان الخطوات اللازمة لاجراء تحسينات ادارية بالمعنى الواسع تستلزم : اعادة تنظيم الولايات السورية واعادة النظر في الانظمة الضريبية بغية القضاء على المظالم ، اعادة جبل لبنان الى شكل من أشكال الحكم الذاتي، ايجاد أساليب فعالة في مجال الشرطة واقرار الحقوق والامتيازات ليتمتع بها جميع الافراد بغض النظر عن انتماءاتهم الطائفية .

### الاحوال الادارية السائدة :

اشتكى السوريون أكثر مما اشتكوا من الضرائب غير العادلة ومن الابتزاز ومن فقدان الامن الداخلي ، أما المسيحيون منهم فقد كانوا يشعرون بان القوانين السائدة لم تكن تنصفهم .

وبالفعل كانت الضرائب والرسوم خلال الحكم المصري ذات طابع ابتزازي وكانت تشكل المصدر الرئيسي لعدم الرضا المتزايد . اعتقد الباب العالي انه كان بالامكان اصلاح النظام بأكمله فيما لو تم التغلب على العقبات التي تقف حائلا دون توفير الهدوء والاستقرار ، ومن هنا منح المشير صلاحيات محددة للاشراف على اعادة تنظيم الطابعية (قوى الشرطة) كما تم تعيين قبجي باشي ليكون مسؤولا عن تنفيذ ذلك .

وصل ريتشار وود الى المنطقة موفدا من قبل الباب العالي لدراسة الحالة القائمة ولوضع توصيات محددة بشأن التحسينات المقترحة . وفي السابع عشر من نيسان عاد ريتشارد الى استنبول من سوريا وقدم تفاصيل عن تحقيقاته التي كانت فيما بعد القاعدة الاساسية للتحسينات الادارية

ركز وود في تحقيقاته على المساوىء المتمثلة في انتشار الرشوة وفي اهمال القوات العثمانية في سوريا من ناحية المال والمؤن ، كما أشار الى اللامبالاة في معاملة السكان الذين ليس لهم حول أو قوة في متابعة شؤونهم الادارية ، كما ركز على العملاء الاجانب المؤيدين والمتعاطفين مع محمد علي والذين كانوا يعملون على ايجاد ما يثبت ان بريطانيا مخطئة في اعتقادها بان محمد علي غير محبوب من السوريين .

سيطرت على البلاد حالة من فقدان النظام العام : سكان المدن طلقاء لا يخضعون لاي سيطرة . القبائل البدوية تنهب وتسلب الفلاحين وتسرق أغنامهم ومواشيهم ، تحريض علني على الفتنة في حوران ، حاكم دمشق يهاجم مدينة زحلة في لبنان ، وما الى ذلك من احداث ومن فوضى .

شعر وود بضرورة العمل العاجل لتلافي هذا الوضع فما كان منه الا ان اقترح على حكومة السلطان اتخاذ خطوات تبرهن فيها على اهتمامها بمشاكل السوريين وعلى استعدادها للقيام بدور العادل ، والا فان أول بادرة عدم رضا ستكون بداية انتفاضة عامة . وفي هذا السبات ، اقترح أحد الوجهاء السوريين عزل العديد من المسؤولين عن مناصبهم التسي تولوها منذ أيام المصريين ، بينما وافق البعض الاخر مع وود على ان مساعدة الحكومة الاقليمية للتجار المحليين سوف تخفف من اعتمادهم على الحكام الرئيسيين من أجل ازالة اسباب شكوايهم المشروعة . وفي حقيقة الامر ، لو أدى هؤلاء المسؤولون واجباتهم بشكل اكثر حكمة لكان السوريون أقل رغبة في دعوة العملاء الاجانب من أجل الوصول الى العدالة . وقد شعر وود أيضا بأن هناك فائض في عدد الموظفين في سوريا وانهم يشكلون عبأ ثقيل على الخزينة المستنزفة .

بعد شهور من التأخير والتأجيل أعلن والي صيدا في شهر نيسان وقبل اجتماع الاعيان والحكام عن بنود خط شريف هاميون . كانت هذه البنود تنص على تطبيق التنظيمات الخيرية في سورية وتبشر بعهد جديد يسوده الحكم العادل المبني على احترام الحقوق والامتيازات . تسلم زعيم كل ملة نسخة مكتوبة عن الفرمان . وتلقى زعماء الجبل والامير الكبير دعوة استمعوا خلالها الى نص الفرمان . أما الاخبار السارة التي تلقاها القناصل الاوربيين كانت تتعلق بالمعاهدة التجارية الموقعة في السادس عشر من آب ١٨٣٨ والتي نصت على احترام الامتيازات للدول الصديقة . ولدى اعلان التوصيات الخاصة بذلك من قبل الوالي والدفتر دار في كل من صيدا

ودمشق ومن قبل رؤساء الملل الاربع ، أصدر الباب العالي تعليمات تلغي استخدام الرشوة وتدعو الى تخفيض الضرائب .

لم يستفد العثمانيون من المكافآت والتنازلات التي قدموها ، أما الشكاوى المتكررة فقد كان مردها سوء الحكم في الماضي وفقدان مستحکم للثقة مع نزوع الى التشكك الذي كان يقضي باستمرار حتى على الثقة غير الكبيرة التي كان يتمتع بها السلطان ، أما الوعود بتوفير السلام والرفاهية والامن لجميع الملل فانها لم تر الضوء .

### حجم الاصلاحات :

أجرى وزراء السلطان مشاورات حول توصيات الدول الصديقة ووافقوا على الالتزام بمراسيم كلخانة التي تحترم حقوق الملل في سوريا . واصدر الباب العالي تعليمات محددة الى المسؤولين في سوريا يدعو فيها كل منهم الى اجراء اصلاحات ادارية في ولايته بهدف اعطاء السكان نصيبهم في تقرير شؤونهم الخاصة وفي تأسيس هيئات معينة مثل المجلس والديوان في كل ولاية ، وكانت هذه التعليمات تنطبق على امارة لبنان بقدر مماثل .

اعادت حكومة السلطان تنظيم الولايات الاربع السابقة بحيث أصبحت ثلاث ولايات أو ( بشالك ) . وعلى أساس هذا التنظيم يتمتع كل من الوالي والدفتردار بصلاحيات متساوية . ويرفع كل منهما تقارير الى مجلس الوزراء أو يدعى بـ « الوكالة » .

أما الاستثناء الجديد والحاسم فكان الحاق امارة لبنان بولاية صيدا بعد أن كان الامير مسؤولا في السابق أمام حكومة السلطان في استنبول مباشرة . كذلك ألحقت ولاية طرابلس بولاية دمشق ونقل مجلس الولاية من عكا الى بيروت مع بقاء مقر الخزينة هناك ، أما بالنسبة لولاية حلب فلم تجر هناك أي تغييرات .

أبدى والي ودفتردار كل من الاقاليم المذكورة تعاطفهما مع فكرة الاصلاح رغم اختلافهم في بعض الاحيان حول تفاصيل هذا الاصلاح . حل محمد سليم باشا واليا على صيدا عوضا عن محمد عزت وأصبح أيضا مشيرا للقوات المسلحة في عربستان عندما تولى الاخير منصب كبير الوزراء . أما في دمشق فكان اختيار نسيب باشا ، الذي كان يعرف بتحفظه ، واليا لدمشق اختيارا موقفا .



وتلبية لطلب القيصر الروسي عين طيار باشا مسؤولاً عن سنجق غزة والقدس وسمح لرجال الدين اليونان بارتداء ثيابهم الدينية خارج الكنيسة كما حصلت الملة اليهودية على حماية رسمية لحقوقها من الامتيازات المبكرة التي حصلت عليها الملة المسيحية حصول البطريرك ميثودياس من الملة اليونانية الاورثوذكسية على كخيا يمثله أمام الباب العالي واعتبر أعضاء كنيسته أتباعاً للسلطان . ونتيجة لوساطة ريتشارد وود تحسنت العلاقات بين وزراء الباب العالي والبطريرك الماروني الذي قدموا اليه هداياهم ووعدوه باحترام امتيازات ملته التقليدية وبالإضافة لمنحه وكيل يمثله أمام الباب العالي ، أصبح البطريرك الماروني مسؤولاً أمام الوالي ومدير ماليته بدلاً من مسؤوليته السابقة أمام أمير الجبل . قال وود بعد نجاحه في منح البطريرك وكيلاً يمثله أمام السلطنة : « أليس من الأفضل للبطريرك الماروني الاتصال المباشر مع السلطنة العليا بدلاً من الاتصال غير المباشر الذي يتم عادة عن طريق ممثلي الدول الأجنبية ؟ »

وفي دمشق ، دعا نسيب باشا الى عقد جلسة خاصة للمجلس بهدف تهدئة المخاوف التي كانت تعترى البعض من أن نسيب باشا يقف ضد بنود التنظيمات الخيرية المؤيدة لحقوق الملل المسيحية وفي ذلك الاجتماع أعلن نسيب باشا أمام الاعيان والوجهاء تأييده لحقوق الملل الواردة في التنظيمات كما أعلن عدم التمييز في اللباس وعن معاملة متساوية للجميع أمام القانون والتأمين على الحياة والممتلكات سواءاً في البيت أو الشارع ، وسماع الشكاوى المشروعة وحلها بشكل منصف من قبل قضاة الصلح المسؤولين عن فض النزاعات . كان البطريرك ميثودياس اول المدافعين عن الوالي وذلك في عريضة قدمها الى السلطان واستغل فيها أيضاً الفرصة لتجديد ولاء أعضاء كنيسته .

وفي مجال العمل الفعلي ، كان على الممثلين القنصلين للدول الصديقة تنسيق نشاطاتهم ومساعدة المسؤولين العثمانيين في تولي مسؤولياتهم . ولكن سرعان ما تبدد ذلك الرأي القائل بإمكانية قيام المسؤولين الاجانب والاداريين العثمانيين غير المتمرسين بعمل مشترك يحلون فيه المشكلات المستعصية والمتأصلة . كان على ممثلي الدول الكبرى حماية مصالح بلادهم القومية وتعزيزها ، لذا بقي التنسيق بين هؤلاء الممثلين ظاهرياً وسطحياً ، وما أن مضى وقت قصير حتى صعد الى السطح تنافس فرنسي بريطاني جاء وليدة استياء فرنسا من الوجود البريطاني في المنطقة .

## المصالح المتضاربة للدول الكبرى :

تمتع الفرنسيون لوقت طويل بدور قوي لعبوه في شؤون لبنان الداخلية بوضعهم الحماية المعترف بهم للمصالح الكاثوليكية بشكل عام والمارونية بشكل خاص . وقد أحرز الفرنسيون نفوذاً أوسع ومقاماً أعلى خلال فترة حكم الأمير بشير الثاني وإدارة محمد علي في سوريا .

كانت حرب ١٨٤٠ وما انتهت إليه سبباً في إبراز بريطانيا فجأة على أنها نصيرة العدالة من أجل الجميع ، وكان وصول كويزو إلى منصب وزير في باريس يعود إلى عواطفه تجاه الإنكليز . وبالرغم من أن رغبة كويزو كمواطن فرنسي لا تقل عن رغبة سابقه تيرس في التأكيد على مكانة فرنسا المرموقة في الشرق إلا أن كويزو فشل في إقناع الحزب الكليريكالي المتعصب .

في الوقت الذي عانى فيه الدور الفرنسي من كسوف مؤقت ، قامت النمسا متمثلة بمتريخ بمحاولة دعم الكاثوليك أمام الباب العالي . وقام متريخ في الفترة القصيرة التي تلت استعادة سوريا من قبل السلطان قام بالعمل طبقاً لتوصيات انترناسيو ستورمر ، وأصدر تعليمات تنص على قيام النمسا بدور الحامي للمصالح المسيحية مع أقل قدر ممكن من التدخل الخارجي في شؤون لبنان الداخلية . كذلك دعا إلى الإقلال من التصريحات التي لا تهدف لها سوى إثارة مشاعر سكان الجبل وتفويت فرص توفير الاستقرار والأمن .

في نفس الوقت ، كتب متريخ إلى البطريرك الماروني طالباً منه باسم الإمبراطور أن يعلن وملتته عن طاعتهم للسلطان العثماني وأن يلتزموا الهدوء إلى وقت يمكن فيه الحصول على ضمانات كافية ، وطلب منه بشكل خاص تجنب أي اضطرابات لا ينتج عنها إلا الحاق الأذى « بالحرية التي حصلوا عليها حديثاً بعد ما عانوا طويلاً من الاضطهاد » . وتكشف الرسالة أيضاً عن هبة مالية ضخمة مقدمة من « إمبراطور النمسا وشعبها » إلى مسيحيي لبنان الذين تكبدوا الخسائر الكبيرة في أثناء الانتفاضة ضد الحكم المصري .

أما نسلرود الذي شارك النمسا قلقها حول وضع الكثير من المسيحيين في سوريا في أعقاب أحداث العام الفائت ، فقد أصدر تعليمات إلى القائم بالأعمال تيتوف شملت على وجهات نظر حكومة القيصر فيما يخص التغييرات المقترحة لحماية الحقوق الطائفية في إدارة الولايات السورية .

ومن ناحية أخرى ، ترددت بريطانيا في البداية في تقديم تصريح علني بالنيابة عن المسيحيين في سوريا واكتفت بالتأكيد على اجراءات ادارية جديدة تضمن حكما عادلا لجميع الطوائف . ولكون بريطانيا مستشارا رئيسيا لحكومة السلطان ونصيرا جديدا للامبراطورية العثمانية ، فانها لم تختار الطريق العلني في تخصيص اي فريق باهتمامها الخاص ويبدو هذا جليا في موقف بونسونبي الذي كان على وشك اعلان نفسه وحكومته حماة لمصالح المسيحيين في سوريا الا انه لم يقم بذلك بحجة عدم توفر معلومات كافية تفيده في مسعاه .

وفي لندن ، حالف النجاح السفير النمساوي بارتون نيومان حيث فشل ستورمر طوال شتاء وربيع عام ١٨٤١ ، وبعد جهد تمكن هذا السفير من اقناع بالمرستون لاعلان سياسة تدعم المسيحيين ، وكان رد الفعل لكل من بييل وابردين سريعا ومشجعا « لايجاد ادارة جديدة للمسيحيين في سوريا » ومؤيدا لما قد تبديه الامبراطورية من تحفظات .

حفظت فرنسا لنفسها خط الرجعة من خلال التصريحات الرسمية الموالية للمسيحيين في سوريا وساعدها في ذلك النجاح الذي حظي به الحلفاء والذي ساهم به العملاء الفرنسيون بشكل غير مباشر . قبل عام كانت فرنسا تقول مزهوة « يمكننا القول حقا بأن البحر المتوسط بأكمله سيصبح عما قريب بحيرة فرنسية ، رغم انه بالتأكيد مامن دولة كبيرة ترغب في أن ترى ذلك حقيقة قائمة » .

حظي الفرنسيون بنفوذ كبير في الجبل اقتصر عليهم وحدهم ، ولكن حين ساء طالعهم فجأة وجدوا أنفسهم يلعبون في سوريا دورا ثانويا بالنسبة لاقرائهم البريطانيين .

من المغامرات التي قام بها الفرنسيون مغامرة قام بها الاستراتيجيون الفرنسيون وذلك حين أيد قسم منهم محمد علي بشكل رسمي بينما قام القسم الاخر بتأييد المعارضة في سوريا واعتقد الفرنسيون خطأ أن جيش ابراهيم باشا لا يقهر وأنه سيتغلب على القوات العثمانية الموحدة مجتمعة .

في الوقت الذي استنفذ فيه الفرنسيون طاقتهم السياسية في استنبول وفي مباني السفارات الاوربية في سياق دعمهم لمحمد علي ، اهلوا من جانب اخر مصالح اللبنانيين الساخطين « والمقاتلين الجسورين » في كل الاحوال ، كان الفرنسيون يعتقدون بإمكانية التاريخ قائلا « من بين

جميع أقاليم الامبراطورية العثمانية ، تعتبر سوريا دون جدال أسهلها فصلا عن الامبراطورية دون أن يتسبب ذلك بأي اجحاف بالسلطان العثماني » .

أثبتت أحداث ١٨٤٠ للفرنسيين مدى أهمية لبنان الاستراتيجية بالنسبة لسوريا وبالنسبة للمنطقة بأسرها التي يشكل لبنان مفتاحها السياسي . كان الفرنسيون مستأثرون من الوجود البريطاني ومرتابون من تورط النمسا المتزايد في شؤون الطائفة الكاثوليكية ، رغم أن البطريك والاساقفة المارونيون كانوا في السابق قد تقدموا بطلب في هذا الصدد . بالإضافة الى هذا ، كان للنمسا بموجب بنود معاهدة كارلوتيز ١٦٩٩ حقا في ابداء رأيها في الشؤون الكاثوليكية ، ومع ذلك فقد كانت مقتنعة بعدم ممارسة هذا الحق . ومع أن الرد لم يكن مفقودا بين مترنيخ وبالمستون ، كان التعاون الانكليزي النمساوي يشكل عنصرا جوهريا لممارسة دور فعال في الشؤون العثمانية وان يكن هذا التعاون متميزا بطابع معادي للفرنسيين الى حد ما ، وما كانت الحملة التي شنت ضد محمد علي الا نتيجة لهذا الاعتبار السياسي . قامت الدولتين الكبيرتين بعمل جماعي عسكري خلال الحملة وبعدها في داخل وخارج سوريا ، حتى أن السردنيين جربوا حظهم مع الطوائف الكاثوليكية حين كانوا يحاولون الاستفادة من الفراغ الذي كان يتركه الفرنسيون في بعض الاحيان . وفي فرنسا ذاتها ، لم يثق المحافظون المتصلبون بعودة بوريه الى سوريا ، ودعوا الى استبداله واخرين من المسؤولين القنصليين في عكا وصيدا والقدس واللاذقية بمسؤولين اخرين أكثر كفاً وأجدر بالثقة .

من جهة اخرى، عمدت فرنسا الى تحسين منطقة نصيرات ذات الموقع الاستراتيجي الهام والتي تقع شمال المنطقة المارونية وذلك بهدف التعويض عن موقفها الضعيف في لبنان ولدعم نفوذها هناك . كان كويزو بدوره وبضغط من حزبه مستعدا لتبني أي دور يكون أكثر فعالية بالنسبة لفرنسا يظهرها على انها نصيرة المصالح الكاثوليكية التي تكمن في الاستقلال النهائي لسوريا تحت حماية فرنسية . أما فترة حكم محمد علي فكانت تقيم على انها مفيدة في وضع حد للتعصب الاسلامي وفي اعطاء حقوق المسيحيين دفعة الى الامام .

لم يخف تصميم العملاء الانكليز في سوريا على مواجهة التحركات الغريبة هناك وعلى جعل عنصر المبادرة دوما في أيديهم بهدف زيادة « النفوذ البريطاني » في المنطقة ولمنع أي نفوذ آخر فرنسي كان أو روسي من أن يحل

محلّه . في البداية تمتع هؤلاء العملاء بامتيازات ملحوظة نأخذ منها على سبيل المثال الامتياز الكبير الذي كانوا يتمتعون به في استنبول بالاضافة الى أن آراء ريتشارد وود كانت مسموعة فعليا من قبل الباشا والبطيريك على حد سواء . وكذلك الامر في لبنان حيث لم يكن أمير لبنان « يتردد في التعبير عن اخلاصه الكامل لبريطانيا » . في أثناء الحرب وفي الفترة التي تلتها مباشرة بذل العملاء الانكليز جهودا كبيرة لدعم الرؤساء الاقطاعيين المسيحيين منهم أو الدروز بعد اطلاق سراحهم من الاعتقال المصري . بالاضافة الى ذلك فقد كانوا متحمسين جدا للوصول الى الهدوء والاستقرار الاداري في سوريا وجعلوا هذا المطلب نصب أعينهم دوما كأساس هام لتحقيق أهدافهم .

كانت مصالح فرنسا السياسية تنحصر في سوريا وفي تقوية الكاثوليك هناك أما مصالح بريطانيا فكانت أبعد من ذلك : لقد أرادت بريطانيا أن تحمي طرق الاتصال المؤدية الى الخليج العربي ومن ثم الى الهند ، وكان هذا الهدف يحتم تحقيق مطلب الاستقرار في سوريا الذي لا يتحقق بدوره الا بالقضاء على التذمر الناشئ عن المساواة الادارية دون اقتصار ذلك على المسيحيين أو المسلمين أو الدروز أو البدو أو حتى على السلطات العثمانية . بدأ العملاء الانكليز بتنفيذ تعهداتهم الضخمة دون وعي منهم في البدء بالانقسام القائم في المجتمع السوري . ورغم أن مافعلوه كان ينقصه التعقل في بعض الاحيان الا أن طابع الحماس الكبير كان يغلب عليه .

أما الخطورة التي كان يمثلها وود على المصالح الفرنسية فقد كانت تكمن في ايمانه الراسخ بقدرة بريطانيا على كسب المارونيين الى جانبها . قال وزير اسباني واسع الدهاء قبل أربع سنوات من ذلك التاريخ : « أن أهداف السياسة البريطانية واسعة جدا بحيث لا يمكنها من القيام بدور الحامي لاي من الطوائف » ، ويقدم هذا القول تفسيرا للاتهامات التي وجهتها فرنسا الى بريطانيا وتقوم على اتهام بريطانيا بالبحث عن طريق لحماية المسيحيين وحتى لحماية الطائفة اليهودية التي وعدت بريطانيا بمساعدتها لتأسيس « مملكة اسرائيلية في يهوذا » . وفيما بعد أوضح الاب ارسانوس الذي لعب دورا كبيرا في الانتفاضة ضد محمد علي أن اليهود لم يتوقفوا عن مساعدة عملاء القناصل الانكليز حتى بعد عودة الطائفة المارونية الى الحماية الفرنسية .

أما روسيا ، فلم يكن لها مصلحة مباشرة في سوريا وكانت تعرف مسبقاً بأن المنطقة ستبقى ساحة للنزاع الانكليزي - الفرنسي لسنين قادمة ، الا أن اهتمامها الوحيد بالمنطقة كان يكمن في تقوية علاقاتها مع الكنيسة الارثوذكسية واتباعها وفي الدفاع عن مصالحهم ، حصلت روسيا بمقتضى شروط معاهدة أدرنة ( ١٨٢٩ ) على اعتراف الباب العالي بحمايتها للكنائس اليونانية والارمنية وعلى هذا فقد التقت سياسة القيصر الروسي مع سياسة الامبراطور العثماني لان سياسة القيصر كانت مبنية على الواقع وبعيدة عن التفكير بنشر نفوذ روسيا في هذا الجزء من الامبراطورية العثمانية .

والاكثر من ذلك فقد كانت روسيا ملتزمة بالدفاع عن مصالح السلطان في سوريا حسب ماورد في حنطار سكلهسي ، وبهذا ضمنت روسيا الابتعاد عن الورطة التي وقعت فيها كل من فرنسا وبريطانيا وتمتعت بوضع مريح يمكنها من الاستفادة من امتيازات تحصل عليها في سوريا لدعم مصالح سياستها في روملي ، وهكذا أصبح العملاء الروس في سوريا أصدقاء للسلطات العثمانية المحافظة . من جهة أخرى وافق الروس على محاولات تلك السلطات في اقتلاع آثار النظام الاقطاعي الذي أبقي البلاد في حالة فوضى كان البريطانيون متورطون في الدفاع عنها .

كما أيد الروس الجهود العثمانية التي كانت تبذل في سبيل القضاء على الطائفية التي طالما استغلها الفرنسيون منذ أن حصلوا لأول مرة على امتيازات تساعدهم في ابطال حجج الاوروبيين في التدخل بالشؤون الداخلية للبلاد .

كانت الدبلوماسية الروسية تهدف الى دعم وضع العثمانيين في سوريا من جهة ، والى اضعاف الوضع الفرنسي والبريطاني من جهة اخرى لان ذلك كان يعني تقوية لنفوذهم في المنطقة . كان المسؤولون الروس في استنبول وبيروت حذرين في تفاديهم لاي عداء قد ينشب مع المسؤولين العثمانيين في حين فشل البريطانيون والفرنسيون في تفادي وقوع مثل هذا العداء .

كان الفضل في نجاح سياسة روسيا في سوريا يعود الى القنصل العام والمخطط والمنفذ لهذه السياسة قسطنطين ميخائيلوفيتش بازيللي وهو من أصل يوناني فاناروتي ، ورغم ثقافته وجنسيته الروسية بقي

بازيلي مثالا رائعا وحيا للرجل الشرقي . في الحقيقة كان مجرد ذكر اسم بازيلي يثير مشاعر مختلفة من الذعر والغضب وعدم الثقة بين الاوساط الانغلو اميركية في سوريا ، وبقي هذا الوضع سائدا لفترة لاتقل عن عقدين من الزمان . لقد برهن بازيلي على انه حجر عثرة في وجه أي تقدم تحرز به البروتستانتية هناك ، خاصة بعد ان اصبح شركاؤه في الدين هدفا لنشاطات البعثات التبشيرية بعد فشلها في تحويل اليهود والدروز الى الدين المسيحي .

كان بازيلي يحظى بدعم السلطات العثمانية . أولا لان الطائفة الارثوذكسية كانت قد وافقت على موقف العثمانيين في الاصلاح ولو مرغمة ، وثانيا لان مصالح السلطات كانت تستوجب مثل هذا الدعم . وعلى هذا كان الكاثوليك والانجليكان والكالفينيون ينظرون الى بازيلي على انه « العميل الداهية الذي أثبت أن روسيا تعرف كيف تطرد المبشرين الاجانب من سوريا » .

لقد دافعت روسيا حقا عن مصالح الارثوذكس ، الا انها لم تحاول استعمال هذه الطائفة قاعدة تنطلق منها نحو اطماعها السياسية كما فعل الفرنسيون مع الكاثوليك ، وخاصة بعد فشل المبشرين الاميركان في خلق قاعدة بروتستانتية .

كانت روسيا أقدر على توفير الحماية لمن احتموا بها واقدر على الاحتفاظ بمكانتها أمام العثمانيين بنفس الوقت ، كذلك كان الروس يتمتعون بامتياز خاص في سوريا في مجال التجارة : فمعاهدة التجارة لاتلزم التجار الروس الا بدفع ٣٪ من الرسوم الجمركية ، بينما كان على التجار الاوربيين دفع نسبة لاتقل عن ١٢٪ .

أما بالنسبة لبروسيا فلم يكن لها أية مصالح سياسية هامة تسعى وراءها في سوريا كما هو الحال بالنسبة للنمسا وروسيا ، الا انها تمتعت برأي يسمع في القنصليات في استنبول فيما يخص الاصلاحات في سورية بوصفها عضوا في التحالف ضد مصر واحد الموقعين على ميثاق عام ١٨٤٠ الذي جعل منها طرفا من أطراف النزاع . ورغم هذا الامتياز كانت بروسيا قانعة بتأدية أي دور ثانوي تمليه عليها بريطانيا ، كما كانت بروسيا تسعى بخطا حثيثة لتحقيق هدف أوحد وهو تأسيس ابرشية بروتستانتية في القدس ، ومع هذا فقد تركت المبادرة لتنفيذ ذلك الى

مثيلتها البروتستانتية بريطانيا . حول موقف بروسيا في ذلك الوقت قال الدبلوماسي الاسباني لوبه دو كوردوبه عام ١٨٤٤ في موقفها حيال أي قضية معينة تختار بروسيا الموقف الذي تظنه ملائما لها : انها لاتنبذ انصارها فيما لو أرادوا تنحيها جانبا ، وغالبا ماتنتهي محاولات تحقيق النفوذ البروسي بسبب ذلك الى الفشل . انها ترغب في تقديم الحماية ولكن ما من أحد يرغب في طلب مثل هذه الحماية سوى البروتستانت واليهود . وبناء على هذا بقيت في جزء كبير من الدور الذي لعبته مجرد « الدليل » بينما كانت بريطانيا العظمى هي « الرأس » .

### الجدال حول الجبل :

كانت تقف في وجه عملية الاصلاح صعوبات كبيرة تتمثل في الاضطرابات المالية وتنظيم الشرطة والتناحر بين الاحزاب ، الا ان اعادة تنظيم اماره لبنان الكبير كانت من أصعب هذه المشكلات على الاطلاق .

كان حصول السلطات العثمانية في اماره لبنان على ثقة ودعم الاحزاب المتنافسة هناك يشكل شرطا أساسيا في عملية الاصلاح ، الا أن جميع الجهود التي بذلت في سبيل تحقيق هذا الشرط لم تنقل الا مردودا ضعيفا . وهنا نستشهد بقول القنصل مورني في حديث مع بلمرستون قال فيه : « لو ترك الاتراك بمفردهم . . فلن يكون بإمكانهم حكم البلاد طالما أن السكان لا يكون لهم أي خوف أو احترام . ورغم تدخل المسؤولين الاوروبيين فيما بعد في استنبول وبيروت في المساعدة لوضع تفاصيل وجزئيات القرارات الاصلاحية بقيت مهمة العثمانيين مهمة صعبة ، والتمن الذي اضطروا لدفعه مقابل المساعدة الاوروبية العسكرية عام ١٨٤٠ ثمنا باهظا : لقد رهنت السلطات العثمانية حرية اتخاذ القرارات آنذاك لتصبح كلية بيد القوى الصديقة .

كان اختيار الامير بشير الثالث أميرا على اماره لبنان اختيارا انكليزيا محضا . سعى الامير الجديد الى تعزيز علاقاته مع الباب العالي عن طريق تعيين كخيا يمثله أمامه وشجعه في ذلك وود على اساس ان مثل هذا العمل سوف يمنح الامير أذنا صاغية من قبل السلطات يقتصر من خلاله مراحل الرجوع الى والي ودفتر دار صيدا ، وكذلك يجنبه احتمال عزل نفسه في الجبل . ومن جانب آخر يشجع المسؤولين الكبار في الولاية على



اتخاذ مواقف معتدلة وعلى التصرف بحذر خشية التعرض لمواقف يمثلون فيها مباشرة أمام الجهات العليا .

لم يكن المسؤولون في السلطنة راغبين في تعيين بشير الثالث في منصب الإمارة ، وأما الاكليروس الماروني فقد قبل بامارته مع الإبقاء على تحفظات كبيرة تجاهه وكان المارونيون على استعداد لتأييده بشكل كامل فقط الى الحد الذي يكون معه الامير بشير مستعدا لتطبيق وتنفيذ القرارات التي اتخذها الامير السابق والتي يلعب المارونيون بموجبها دورا هاما في المناقشات السياسية . أما أغلبية الزعماء الاقطاعيين في كلا الطائفتين المسيحية والدرزية فقد عارضت تعيينه بشدة بحجة عدم مقدرته على التمييز الصحيح والرجوع الى المنطق في تعامله معهم .

نجح الامير الجديد في اظهار شجاعته في الميدان الا أنه لم يظهر الا القليل من القوة السياسية والشخصية في مجابهته للصعوبات التي اعترضته .

ففي منتصف شهر آذار عام ١٨٤١ مثلا عاد الى لبنان جميع الزعماء الذين نفاهم الامير السابق الى مصر وطالبوا باستعادة ممتلكاتهم الخاصة والاقطاعية في لبنان . سمح الباب ، تحت تأثير وساطة بعض العملاء أمثال وود وجكمش ، للزعماء المتعاونين مثل الجنبلاطيون والعماديون وأبو نكد والخازن بان يستردوا حقوقهم وامتيازاتهم الاقطاعية وكان هذا السماح أحد الاسباب الرئيسية التي أدت الى اشارات التمرد والتي يكون الباب العالي بذلك قد لعب دورا هاما فيها .

كان الامير في مواقفه غير مستعد لتحمل بروز أي شهابي جديد وكان على تصادم مع الزعماء اللبنانيين بسبب غطرسته من جهة ومحاولاته في ضمان الدعم الماروني الاكليريكي من جهة أخرى . وعلى سبيل المثال . حرض الامير مستأجري املاك آل العماد وتلحوق على رفض دفع الرسوم الاقطاعية التي كان يأخذها زعمائهم ، وشجع أيضا سكان دير القمر على عزل زعمائهم من آل أبو نكد وتفرد بعدئذ بعد توحيد مواقف الاتجاهيين الاقطاعيين المتنافسين اليزبكي والجنبلاطي دون مساعدة تذكر من قبل رجال الدين المارونيين .

وفي الوقت الذي كانت فيه السلطات تسعى جاهدة لكسب ثقة أتباعها من غير المسلمين جاءت الاوضاع غير المستقرة للجبل لتزيد الامور

تعقيدا ، ومع ذلك تمكن رئيس المجلس والاعضاء الاثنا عشر الممثلون لكبرى الطوائف اللبنانية من متابعة النظر بالقضايا المدنية والجنائية بشكل شبه ناجح تقريبا .

جابهت السلطات العثمانية مشكلة أخرى وهي مشكلة توزيع المكافآت ، ففي عملية حث الزعماء على التمرد ضد محمد علي وعد عملاء الباب ، وبالتحديد ريتشارد وود ، وعدوا هؤلاء الزعماء بدفع مبالغ نقدية طائلة مقابل الخدمات التي طلب منهم تأديتها . تراوح المبلغ الاجمالي الموعود به بين ( ٢٤١ الى ٢٤٨ ) ألف قرش ، وكان هذا المبلغ بمثابة التزام فعلي أمام خزينة مستنزفة في الولايات السورية ومركز يعاني من عدم الاكتفاء . ظل تحديد الافراد الذين يستحقون المكافأة والمبلغ الذي سيصرف لكل منهم عرضة للمماطلة لمدة سنة كاملة وظل التساؤل يدور حول مطالب سكان جونية المشروعة في التعويض عن الاضرار التي لحقت ببساتينهم حين جرى انزال لقوات الحلفاء في تلك المنطقة أثناء تمرد عام ١٨٤٠ . أما المكافآت التي استطاع الباب العالي منحها دون اثاره أي سخط فكانت تلك التي منحها الى ضباط الدول الكبرى الاوروبية الذين اشتركوا في الحملة ضد محمد علي .

رغم كون شرط التعديل المالي شرطا أساسيا لتحقيق الاستقرار والهدوء في الجبل ظهر انه في نفس الوقت يشكل حجر عثرة في الطريق الى تحقيق هذا الهدف . في وقت مبكر من شهر أيار بعث الصدر الاعظم اشعارا الى ناظر المالية اعتمد فيه على تقارير وردت اليه من صيدا قال فيه أن سكان ( جبل الدروز ) غير راضين عن نظام الضرائب الحالي وان الدفتر دار ناشد مجلس الولاية للاحكام العدلية كي ينظر في الموضوع . وفي هذا المجال ، تسلم ريتشارد وود عندما كان في استانبول رسائل مستعجلة من المترجمين القنصليين تيموني وميسك حثاه فيها على خفض الضرائب والا « صعب التحكم بزمام السيطرة على سكان الجبل » .

وصلت حدة الوضع المتأزم الذي كان يتطلب عملا سريعا الى الذروة حين دعا الوالي حكومة الامارة الى الاعتراف القانوني بالنظام الموروث عن ادارة محمد علي وذلك دون أن يتلقى أي توجيهات خاصة بهذا الشأن . بعث بونسونبي عن طريق السكرتير الاول أليسون اشعارا الى الباب العالي يعلمه فيه أن السبب الرئيسي في تمرد السكان على المصريين يعود الى

الضرائب الباهظة المفروضة عليهم وأشار الى أن في تخفيف هذه الضرائب مايشجع السوريين على اظهار حسن نواياهم . حين شعر الباب بضرورة العمل السريع لحل هذه المشكلة أوفد ، وذلك حسب توصيات ناظر المالية شعيب باشا ، محققا خاصا الى المنطقة وهو سعيد أفندي ، أولا ليدرس الوضع الضريبي عن كثب وثانيا ليضمن جميع الضرائب المستحقة . وقد رافقه في مهمته الدقيقة هذه عدد من المستشارين .

إضافة الى مشكلة تقليص الضرائب ، كان يشكل موضوع الرسوم أهمية حيوية بالنسبة لسكان الجبل . تسبب احتكار حكومة محمد علي لانتاج الحرير وتسويقه في ارتفاع نسبة الرسوم الجمركية بشكل تعسفي . كانت الرسوم قد فرضت ولم تنزل تفرض في ذلك الوقت على استيراد الحبوب برا وبحرا من المناطق المجاورة عن طريق موانئ طرابلس ويافا وعكا وطرطوس . كانت الرسوم المرتفعة تشكل عبئا ثقيلا ليس على السكان فقط بل أيضا على التجار الاوروبيين وخاصة بعد ازدياد الطلب على الحرير في أوروبا فقد كانت النسبة تبلغ ( ١٢ ٪ ) على الحرير و ( ٩ ٪ ) على التجارة الداخلية . كانت بريطانيا بوصفها أحد الموقعين على معاهدة التجارة لعام ١٩٣٨ ، ملزمة بدفع نسبة عالية من الرسوم الجمركية في حين لم تكن دول أخرى مثل روسيا و نابولي ملزمة بدفع مثل هذه النسب العالية من الرسوم ، فالنسب التي تدفعها هذه الدول محددة من قبل حكوماتها وهي ضئيلة بحيث أنها تتراوح بين ( ٣ - ٦ ٪ ) فقط وكان لابد أن ينتج عن هذا الارتفاع في الرسوم تقليص في حجم واردات المنطقة من السلع البريطانية . ظهرت الدلائل عندئذ لتشير الى أنه في أثناء حكم ادارة بشير الثاني كان هناك تساهل في قضية الرسوم حيث اقتصر على الحرير فقط . وحتى في أثناء الحكم المصري لم تكن الرسوم الجمركية المفروضة على التجارة الداخلية تتعدى ( ٣ ٪ ) بالإضافة بل وكانت مقتصرة على بعض المنتجات فقط .

عارض ماكان يدعى « بالحزب الفرنسي » آنذاك فرض الرسوم العالية وأيده في ذلك البريطانيون ، مما دفع بالباب العالي الذي خضع وقتها لضغوط داخلية وخارجية الى اصدار مراسيم تقضي بتخفيض هذه الرسوم . كذلك دعا سليم في ٢٤ من تموز مدراء المالية والمسؤولين الماليين في الولايات الى اجتماع تعلن فيه نسب ضريبة جديدة ثقل وسطيا بنسبة تتراوح بين ( ١٠ - ٣٣ ٪ ) عن السابق . في نهاية شهر أيار وتلبية لامر صادر عن الوالي عقد الزعماء الاقطاعيون والمطارنة وأعيان الطوائف الكبرى اجتماعا في عينتاب بهدف التوصل الى وضع قانوني ضريبي لمنطقة الجبل .

حضر الاجتماع حوالي ( ٤٠٠ - ٥٠٠ ) شخص ، شكل المسيحيون منهم قلة . وقد ضغط رجال الدين المارونيون على أتباعهم كيلا يشاركوا في هذا الاجتماع ولم يكن هذا الضغط ناشيء فقط عن معارضتهم للشؤون المالية فقط بل للشؤون السياسية أيضا . كان في حضور الزعماء لهذا الاجتماع ما يدعم مصالحهم ، فعلى سبيل المثال حصلت كسروان على اعفاء كامل من الضرائب الاميرية لمدة ثلاث سنوات تعويضا لها عن الخسائر التي تكبدتها نتيجة موقف زعامتها المناوئ للمصريين أثناء الانتفاضة ضدهم . حددت الضريبة الاميرية على الجبل بمبلغ ٣٥٠٠ كيس طبقا لما أوصى به الباب العالي وكان هذا يعني تخفيضا كبيرا بالمقارنة مع الضرائب التي كانت مفروضة من قبل المصريين والتي لم تكن تقل عن ٦٤٨٨ كيس . ورغم كل هذه التغييرات لم تتمخض الاجتماعات المتتالية عن اتفاق كامل ربما لان الاكليروس الماروني لم يكن ليرغب في نجاحها ولان الدروز لم يكونوا منصاعين لادارة الامير الجديد .

وافق المجتمعون على أن بعض الضرائب باهظة جدا وعلى الاثر قدم الزعماء عريضة الى الصدر الاعظم باسم « مواطني جبل لبنان » وفيها دعوا الى الغاء عدد من الضرائب . أما السبب في رفض البطريرك الماروني السماح لممثلي ملته بحضور الاجتماعات فكان يعود الى خشيته من ان تنجح الادارة الجديدة في استقطابهم وكانت هذه الادارة حسب التنظيم الجديد قد ألحقت جبل لبنان بولاية صيدا . صرح الزعماء الدروز بدورهم عن استعدادهم لدفع الضرائب المفروضة بشرط أن يقوم أحد زعمائهم أو أي حاكم مسلم بمهام حكمهم وبعثوا عريضة الى السلطان تتضمن مطلبهم هذا .

كان للزعماء الاقطاعيين لكلا الطائفتين المسيحية والدرزية مصالح مشتركة في حماية انتماءاتهم الطائفية وهذا ماجعل البطريرك الماروني ينظر بعين الشك الى الزعماء المارونيين . اقترح الزعماء ايجاد ضريبة اجمالية تتألف من كل الضرائب القانونية التي تدفع منها النفقات الادارية لمنطقة الجبل مع احالة الميزانية الى الحكومة المركزية . كان الغرض من وراء هذا الاقتراح ضمان عدم تدخل اداري الولاية في شؤون الجبل الادارية وبالتالي يكون في عزل الامير عن الوالي والدفتردار ماليا ما يدفع به الى الاعتراف وحتى ضمان امتيازاتهم الاقطاعية التقليدية خاصة وانهم كانوا ينظرون الى حكم المقاطعات على أنه الطريق الامثل لجباية الضرائب . رفض

الامير والوالي هذا الاقتراح وفضل ممثل الباب العالي الفتى مصطفى باشا الذهاب الى الصيد بدل حضور تلك الجلسات المملة . وفي محاولة اعادة فتح الطريق المسدود أمام الاجتماعات أرسل رشيد باشا ، وقد كان حاكما لعكا ، ليساعد سليم في هذه المهمة . مر أسبوعان ولم تظهر هناك أية نتائج ايجابية وأخيرا أخبر سليم روز بأن صبره قد نفذ وأنه مستعد لاستعمال القوة لترويض هؤلاء الجبليين المتعنتين . قرر « روز » و « مور » زيارة البطريك الماروني في تلك الفترة بالذات ، وتمت الزيارة في وقت مبكر من شهر آب بعد أن كان الزعماء المارونيون قد اجتمعوا في اليوم السابع من هذا الشهر وقرروا اهمال توجيهات الوالي والدفتر دار التي كانت تقضي بالنظر جديا في البنية الضريبية المقترحة .

حاول هذان الانكليزيان ، « مور » و « روز » ، اقناع البطريك بتحاشي وضع طائفته في وضع التحدي المباشر للمرسوم الامبراطوري ، وأكد البطريك من جانبه تمسكه بموقفه من مشكلة الضرائب ويقضي هذا الموقف بما يلي : .

أولا ، تخفيض الرسوم على الحرير من ( ١٢ - ٣٪ ) ، ثانيا ، دفع ( ١٠٠٠ ) كيس الى الخزينة عوضا عن ( ١٢٠٠ ) كيس كرسوم اميرية .

اما فيما يخص شؤون الجبل ، دافع البطريك عن مقاطعته لاجتماعات عينتاب بحجة الخلافات السائدة بين سكان الجبل والسلطات من جهة وبين الدروز والمارونيين من جهة أخرى . خرج روز من اجتماعه مع البطريك وهو مقتنع تماما بان الاخير مستعد لحسم الامر عسكريا مع السلطات . وكتب مور تقريرا من جانبه حول « رغبة كل من الامير والبطريك الماروني في تجنب مثل هذا التصادم على الاقل اذا تم التوصل الى ملحق ضريبي يقومان بعد اصداره بكبح روح العداوة التي يظهرها الدروز .

في الوقت الذي اتخذ فيه المارونيون موقف المناهض للسلطات ، وجد منافسوهم الدروز ، رغم أنهم بقدر مماثل لم يكونوا راضين عن التدابير المقترحة ، انه من السياسة بمكان لعب دور التابع المطيع الذي لا يطيع مراسيم السلطان فحسب بل يقبل بحكم اسلامي مباشر على الجبل . كتب مور الى بلمرستون حول الموقف الماروني قائلا : « لقد أثبت المارونيون من خلال تصرفاتهم ضعفا كبيرا وفقدانا للبصيرة » .

كان الشك يتبادر الى أذهان البريطانيين حول الدور الذي قد يكون لعبه الفرنسيون في التعنت الذي أظهره الزعماء البطريرك ، بالإضافة الى ان للتجار الانكليز مصلحة كبرى في انتاج الحرير وتسويقه وان أي تخفيض في الرسوم كان ولا بد أن يكون في صالحهم . بينما كان البطريرك يؤكد على احترام طائفته وثقتها بالمساعدة التي يقدمها المسؤولون الانكليز ، كان أحد كبار المطارنة وهو المطران « طوبياعون » مواليا للفرنسيين ومناوئا للدروز في مواقفه وكانت آرائه تتمتع بثقل كبير لدى البطريرك ورجال الاكليروس المارون . تبادل العملاء الفرنسيون مع شركائهم من التجار الموارنة وبعض الدروز الرأي حول اتخاذ موقف صارم فيما يخص موضوع تخفيض الرسوم . لم يكن بإمكان البريطانيين اتخاذ موقف قوي يشابه موقف منافسيهم هذا رغم استفادتهم المحققة من هذا التخفيض وكان هذا يعود الى طبيعة علاقتهم مع الباب العالي ، فما كان منهم الا أن أيّدوا الوالي بالاجماع على سلوك فرنسا ، وسعى الوالي بدوره الى تشويه سمعة المارونيين عندما أكد على تأييد الانكليز للملحق الضريبي المقترح من قبل الباب العالي .

أوفد الباب العالي الى بيروت ريتشارد وود في أوائل شهر آب ليقوم بإزالة العقبات التي كانت تقف حائلا في طريق الوصول الى حل في المنطقة . وصل وود الى بيروت في ٢٨ من آب وبجعبته صلاحيات تخوله لعقد التزامات باسم حكومة السلطان . وبعد وصوله مباشرة أرسل وود طالبا من الزعماء المجتمعين في عينتاب القدوم للاجتماع به في بيروت . وفي الاجتماع معهم أخبرهم بأن عليهم ارسال ( ٣٥٠٠ ) كيس دراهم الى الخزينة ، وكان هذا المبلغ قد اتفق عليه سابقا ، على أن يأخذوا بالمقابل ( ٢٤٠٠ ) كيس وافق عليها السلطان ليتم صرفها في دفع رواتب الموظفين . وفي اجتماع بيروت هذا أوضح لهم وود أن السلطان لن يوافق على أي شروط تجعل من جبل لبنان مديرية أو متصرفية من خلال السماح لهم بدفع رواتب موظفيهم مباشرة لانه لايرضى في أن تتساوى مكانته مع مكانة مصر .

وفيما يلي مقتطفات من الرسالة التي بعثها وود في الاول من ايلول الى البطريرك لما لهذه الرسالة من دور رئيسي في حل المشكلة ، يقول فيها :

« ... لقد أوفدت من قبل السفراء بهدف الوصول الى تدابير تؤدي الى احلال الهدوء والسلام ... لقد لاقت التنازلات السخية التي قدمتها حكومة السلطان رضا كبيرا من قبل السفراء الذين لم يتنبأوا بمثل هذا العطاء والكرم الذي يستحق شكر وعرفان سكان جبل لبنان ... أما بالنسبة للمعارضة التي تبدو انها تثير أسفي فعلا ... من المؤكد انه لايمكن القول بوجود مصالح غير مشروعة لنا مع مسيحيي سوريا وخاصة الامة المارونية ... لقد أثرت حول هذا الموضوع شكوك من الصعب التغلب عليها ... يحق للباب العالي أن يتحدى السفراء الاوروبيين ويسألهم ان كان هناك أي مكان في الامبراطورية كان قدمنح مثل هذه التنازلات السخية . ليس في مقدوري أن أطلب أي تنازلات أخرى من الباب كما في حال طلبي هذا لن تنظر الدول الكبرى الى عملي هذا على أنه ملائم بالنظر الى الاهتمام الكبير الذي تبديه هذه الدول ومعها حكومة السلطان بخير السوريين وصالحهم . »

أنهى وود نداءه بدعوة البطريك الى اصدار تعليمات الى الزعماء المارونيين ، الذين كانوا على وشك الاجتماع في عينتاب مع بعض النواب الاخرين ، يدعوهم الى الاعلان عن قبولهم بالعرض السخي الذي تقدم به الباب « والا فاني سأعلن عدم مقدرتي على الحصول على تنازلات أخرى غير التي حصلت عليها للتو ، اني استهلكت طاقتي المتواضعة الى أقصى درجة ممكنة . » .

عندما اجتمع الزعماء ثانية في الثاني من أيلول كانوا لايزالون مصرين على تخفيض النفقات الادارية وعلى اعادة تنظيم الموازنة لضمان أنفسهم ضد ما اسموه « جشع الامير » . علاوة على ذلك لم يكن الاقطاعيون مستعدون للموافقة على أي ملحق لا يتضمن السماح لهم بممارسة حقهم الاقطاعي في جمع الضرائب وتخفيض الرسوم الجمركية التي يدفعونها .

اعترف وود بنفسه « باستحالة القضاء على الحق الاقطاعي في الاموال الضريبية المالية منها أو السلعية » وكان البطريك الماروني يبدي قلقه حول أوضاع أتباعه المستأجرين لاملاك الزعماء الاقطاعيين الدرروز والذين كانوا يعاملون كبقية الفلاحين ويتحملون عبء المدفوعات الاميرية على كاهلهم . وفي نطاق البحث عن حل للمشكلة ، اقترح الامير حيدر اسماعيل أبولام أن يتخلى الزعماء عن امتياز العفو المعطى لهم وأن يساهموا في دفع الضرائب الميرية عوضا عن ترك الفلاحين يدفعون وحدهم المبالغ

كاملة وبتنازل من الباب « يصبح من المناسب آنذاك أن يدفعوا ( ٥ ٪ )  
عن عائدات مقاطعاتهم تحت اسم اجرة تحصيل أو اجرة كالميا بحيث يصل  
العائد العام الى مبلغ / ٨٠٠ / جنيه تضيف اليه الحكومة مبلغ / ١٢٠٠ /  
جنيه ويقسم المبلغ الناتج وهو / ٢٠٠٠ / جنيه على الزعماء الاقطاعيين  
بشرط ألا يطلبوا زيادات من أتباعهم . ومقابل هذا التنازل يتخلى الزعماء  
وعلى رأسهم الامير ذاته طوعيا عن امتيازاتهم في الاعفاءات الضريبية «  
مما لا شك فيه ان هذا سيقفل وبشكل ملحوظ من النسبة التي يدفعها  
كل فرد .

وافق الباب العالي على تخفيض الرسوم المترتبة على الحبوب والحرير  
في سوريا وذلك تلبية لنداء وجهه الاب ريلو رئيس الفئة اليسوعية في  
سوريا وصديق المسؤولين الانكليز والعثمانيين فيها ، وفي نفس الوقت  
أبدى الباب استعداداه لتحديد ضريبة الحرير على أساس ثابت يبلغ / ١٠٠ /  
قرش عن كل أوقة ( ٢٨٨ ليبرة ) عوضا عن / ١٣٠ / شرقة حرير .

اعتبر معظم الزعماء هذه التنازلات عادلة وسخية ، لكن الفئة  
الاكبرية برئاسة المطران طوبيا استمرت في المعارضة وكذلك الامر بالنسبة  
الى بعض الزعماء المارونيين . ذهب وود الى جازير واجتمع مباشرة مع  
البطيريك في السادس من ذلك الشهر وقدم اليه تقريرا شمل محاضر  
الجلسات موضحا فيه التنازلات التي قدمها الباب والتي حسب ما قال  
« سوف يجري تعريف أوروبا بها » . كما أوضح وود الى البطيريك وللمطران  
طوبيا بشكل لابس فيه انه « في حالة برهان السوريين من خلال سلوك  
عشوائى على أنهم غير جديرين بالاهتمام الذي حظوا به وبالتضحيات التي  
قدمها لهم الباب ، فانهم ولا بد سيتعرضون لخطر فقدان تعاطف الموفدين  
الاوروبيين وأن مثل هذا فقدان ستصعب استعادته في المستقبل . كما  
أنهم سيفقدون ثقة حاكمهم الاعلى الذي وضعهم في منزلة يجب أن يعتبروا  
أنفسهم معها أفضل المقربين اليه . وهذه حقيقة يعترف بها هو شخصيا .

كان الشك ينتاب وود باحتمال قيام العملاء الفرنسيون بالاشارة  
على طوبيا لعرقلة أي تسوية قد تنعكس آثارها الايجابية على منافسيهم  
الانكليز ، ولذا أوضح وود الى المطران أن حكومة جلالة الملكة وحكومة  
السلطان لاتقران مثل هذه المناورات . وسعى البطيريك الى الاقلال من  
أهمية دور الفرنسيين عندما أكد على ثقة طائفته بالانكليز والنمساويين  
وأصر على قوله السابق بانه مستعد للتخلي عن الحماية الفرنسية تخليا



كاملا وقال ان المواليين للافرنسيين من أتباعه « لايزيد عددهم عن اثنين أو ثلاثة وأن مثل هذا العدد الصغير ليس جديرا بالذكر أو الاهتمام » .

في سؤال لوود حول الضمانات التي كان على استعداد لتقديمها الى الدرور أجاب بانه « سيضمن لهم الادارة الخاصة اذا استطاع البطيريك أن يضمها للمارونيين الذين هم في الوقت الراهن أكثر الطائفتين فوضى وعدم استقرار . »

انتهى هذا اللقاء الهام ببيان واضح أصدره وود ، قال فيه :

« ان بريطانيا العظمى مخلصه وجادة في موقفها تجاه رفاهية الامبراطورية التركية وأنها لتنظر بعين الاسى الى أي اخلال بالامن تسببه فئة من أتباع السلطان دون أي باعث أو مبرر معقول . »

بعد أسبوع من المماطلة وعن طريق الهدايا والمكافآت الموعودة استطاع وود أن يوجد حلا لمشكلة الضرائب باصدار وثيقة وافق عليها المجتمعون في عينتاب وتقتضي باقتطاع مبلغ /٢١٠٠/ كيس لتسديد نفقات الجبل الادارية وارسال مبلغ /١٤٠٠/ كيس الى الخزينة في عكا . ونصت فقرات أخرى على اعفاء السكان من كل الرسوم الضريبية المفروضة على استيراد الحبوب والرز من الولايات المجاورة ، كما حددت هذه الوثيقة رواتب الموظفين على اختلاف مراكزهم .

اصدر الوالي سليم والدفتردار ادهم « بيورلديا » مشتركا تصبح هذه التدابير بموجبه تدابير قانونية بالاضافة الى الضرائب الميرية العائدة الى تاريخ ١٣ آذار ١٨٤١ أي الى بداية السنة المالية . أخبر وود الموفدين الذين أبدوا تحفظا بهذا الشأن قائلا « ان عائدات سوريا لاتغطي مصاريف الادارة فيها » ولتخفيض هذه النفقات « سيجد الباب العالي نفسه مضطرا لتخفيض قواته في هذا الجزء من الامبراطورية » . أما المشكلة المالية الوحيدة التي بقيت معلقة فكانت قضية التعويض عن الخسائر التي تكبدتها منطقة جونية أثناء الانزال العسكري لقوات الحلفاء . وكانت القضية الثانية المثيرة للجدل تتعلق بانشاء ديوان في الجبل يدعى « ديوان المشورة » فقد كان وود صاحب هذه الفكرة قد اقترح على الامير في أوائل شهر شباط انشاء مجلس استشاري للجبل يمثل جميع الطوائف على اختلافها كي يساعده على القيام بمسؤولياته ، كذلك اقترح تعيين عشرين ممثلا عنه يوزعون على جميع الارحاء ويتم اختيارهم على أساس أمانتهم وحبهم

لبلدتهم واخلاصهم للباب العالي الذي يسعى دوما الى تحقيق الرفاهية والسعادة لاتباع السلطان . علاوة على ذلك ضغط وود على الامير كي يعين أربعة قضاة يأخذون رواتب معينة وهم : قاضي للمسلمين وآخر للدروز وثالث للمسيحيين ورابع للمتاولة .

لم يعلن عن انشاء المجلس رسميا الا في ٢٢ أيار ١٨٤١ ، وورد هذا الاعلان في بيورلدى أصدره سليم وبلغه الى الامير والاعيان في الجبل بعد تسلمه فرمانا امبراطوريا بهذا الصدد . حدد فرمان طبيعة المجلس دون ذكر للطريقة التي سيتم بها انتقاء أعضائه وموظفيه . اختلفت طبيعة عضوية هذا المجلس بشكل طفيف عما كان أوصى به وود ، بخلاف وظائف المجلس التي كانت مطابقة تماما لتوصيات وود . كان على المجلس بحث وحل الخلافات بين السكان بالاضافة الى اعطاء المشورة الى الامير حول القضايا الوطنية سواء كانت ذات طبيعة ادارية أو مدنية فقد كان من الكافي لها أن تكون ذات أهمية ما حتى تعرض على المجلس لاخذ المشورة فيها .

أثار الاعلان عن تأسيس المجلس رد فعل معتدل من قبل الاقطاعيين ورجال الدين . كانت المنطقة آنذاك تحكم من قبل زعماء اقطاعيين وهذا ما دعا السكان الى الشعور بأن الاشخاص الذين سيعينون لتمثيلهم سيكونون نفس الاشخاص الذين يرتكبون في حقهم المظالم . وبدا لهم أن الاسر الاقطاعية في المجلس ستكون وسيلة للحد من صلاحية الامير مع الشك في بنية ومهام هذه الهيئة الجديدة . وهكذا نرى أن الاعلان عن انشاء المجلس لم يقم الا باثارة الشكوك والحسد بين الطوائف الكبرى . ومثالا على ذلك طالب المارونيون بنسب أكبر من المثلين في المجلس طالما أن تعدادهم يفوق تعداد الطائفة الدرزية ، وأصر الدروز بدورهم على التمثيل المتساوي والا فلن يكون هناك مجلس على الاطلاق . وبهذا وجد العثمانيون الذين في الاصل اشتروا فكرة المجلس من وود لتخفيف حدة النزاع بين الطائفتين أن عليهم الان مواجهة نزاع من نوع جديد .

كانت معارضة الدروز موجهة لا للفكرة بحد ذاتها بل الى الوضع السياسي القائم : كان بشير الثالث في نظرهم شخصا غير مرغوب فيه ولكن البطيريك الماروني كان يدافع عنه مهددا بتسليح أتباعه اذا دعت الحاجة الى صدام مسلح معهم . أما الامير بشير الثالث فكان كسابقيه يتبع سياسة استخدام الاكليروس الماروني كهراوة يلوح بها فوق رؤوس الدروز ، وكانت ثقة الدروز بسكرتيره بشاره الخوري الصالح حتى أدنى

من ثقتهم بالامير نفسه . ومما زاد شكوك الدروز تهديد الامير لهم علانية بتجريدهم من الامتيازات والممتلكات الاقطاعية بل والاسوأ من ذلك تهديده بالحاقهم بالبطيركية المارونية .

خشي وود أن يتابع الباشوات بمفردهم مهمة تأسيس وبناء المجلس على شكل يتلاءم مع أهدافهم الشخصية فيما لو استمر النواب المجتمعين في عينتاب في معارضتهم للمجلس ، لهذا السبب هدد وود الزعماء المتمردين بأنه سيوجه نداء الى فلاحهم وخلصته الى فلاحى البقاع يدعوهم الى الاجتماع معه ويوضح لهم الفوائد التي يمكن أن يجنوها من انشاء المجلس ، ومن ثم يحصل على مساعدة هؤلاء الفلاحين لاتخاذ الاجراءات المناسبة دون الالتفات الى هؤلاء الزعماء ومعارضتهم . ومن جهة أخرى هدد وود البطيرك المتعنت باستخدام الصلاحيات المطلقة الممنوحة اليه من قبل الباب في حال عدم تعاونه لتأسيس المجلس .

كان وود معروفا بنفوذه الكبير لدى حكومة السلطان ولدى القادة العسكريين وفي مواجهة حزم « وود » الاخير لم ير الاعيان في الجبل مفرا من الاجتماع في انطلياس والموافقة رغم أنهم على القبول بالمجلس وباقتراحات أخرى حول الادارة في سوريا مقدمة من قبل السلطان .

ولكن بعد فترة ترينا الاحداث كيف فشلت الاجراءات الادارية المقدمة من قبل ممثلي الدول الكبرى ومن قبل السلطان في سد الهوة وفض العداة الذي انفجر على الساحة السورية بعد أشهر قليلة تلت .

## الأمير عبد القادر الجزائري في السنوات الأولى من إقامته بدمشق

( ١٨٥٥ - ١٨٦٠ )

### الدكتور عبد الجليل التميمي

( الجامعة التونسية )

ان أهمية وقيمة حركة الامير عبد القادر (١) في العقدين الرابع والخامس من القرن الماضي في الجزائر كان موضوع دراسات عديدة (٢) غير أنه من الغريب أن نلاحظ أن عددا ضئيلا جدا قد اهتم باقامة الامير في المشرق ، ماعدا تدخله الحاسم في احداث سوريا سنة ١٨٦٠ . ودراستنا السريعة هاته ، تهدف أولا الى القاء أضواء جديدة على اقامة الامير بدمشق خلال الاربع سنوات الاولى ثم ثانيا سنحاول أن نشرح خلفية تدخل الامير في احداث سوريا سنة ١٨٦٠ .

نعلم أن الامير عبد القادر الذي لم يتجاوز سنه الاربعين قد أوقف صراعه وكفاحه ضد الفرنسيين بعقد معاهدة استسلام سنة ١٨٤٧ وقد درست العوامل والاسباب التي أدت الى هذه المعاهدة التي نص أحد بنودها على أن السلطة الفرنسية قد قبلت السماح للامير باختيار نقلته الى أحد البلدين الاسلاميين سورية أو مصر . الا أن الحكومة الفرنسية لم تحترم هذا البند وفرضت على الامير اقامة جبرية في مدينة بو ( Pau ) بادىء الامر ثم في امبواز ( Amboise ) ثانيا . وقد استمر وضعه كذلك حتى تقلد نابليون الثالث ( Napoléon III ) السلطة في فرنسا . وقد قبل الامبراطور اطلاق سراح الامير واختيرت مدينة بروسه ، عاصمة العثمانيين الاولى ، كمقر اقامة الامير في مرحلة أولى سنة ١٨٥٢ لتنتهي في خريف ١٨٥٥ بنقلته الى دمشق التي استقر بها الامير حتى وفاته .

وعلى المؤرخ اليوم أن يميز بين فترتين في حياة الامير عبد القادر تبدأ أولاهما من كفاحه في بايلك وهران الى عقد معاهدته الثالثة والاخيرة سنة ١٨٤٧ ، أما الثانية فتبدأ من اقامته بسوريا انطلاقا من سنة ١٨٥٥ . وعلى ضوء ذلك ، فقد وجب عدم الخلط أصلا بين مميزات هاتين الفترتين واللتين تختلفان عن بعضهما من جميع الوجوه .

لقد أحيط الامير أثناء اقامته بفرنسا وخاصة بامبواز بكثير من

العناية والرعاية والتقدير من طرف الحكومة الفرنسية والمسؤولين والجنرالات ورجال الكنيسة وكثير من سادات المجتمع الفرنسي الراقى . وقد كان جميعهم معجبين ومادحين لشجاعة الامير وصبره على الاسر وتواضعه ، وهذا ما مكن الامير من خلق صداقات دائمة ، وأنه من المعقول جدا ان مثل هذه الاتصالات وتبادل الآراء قد أدت بالامير أن ينظر للفرنسيين وفرنسا نظرة جديدة وهم الذين كانوا أعداء ألداء له لفترة طويلة . ألم يكتب الامير : « . . . وجميع ما قصدناه وظنناه في الفرنسيين من الخير والاحسان والاحترام فعلوه معنا وزادوا فوق ماظنناه فنحن اليوم ملوك على الحقيقة ، فقد أنزلونا في منزل سلطانهم في قصر يحار فيه الطرف ويقصر دونه الوصف وفرش وطية ومآكل شهية وملابس بهية مع التعظيم التام من الكبير والصغير والخاص والعام . . . » (٢) . على أن مستوى الحياة الذي كان عليه الامير أثناء اقامته وكثرة صداقاته التي عملت على اطلاق سراحه ، قد جعلته أكثر حساسية ووعيا للتيارات والمذاهب التي كانت أوروبا مسرحا لها ودفعته بدون شك ، الى فهمها وادراكها ، وهذا ما يفسر مدى التقارب النسبي والمعقول لفرنسا وللحضارة الفرنسية (٤) . ألم يعنون الجنرال أزان كتابه عن حياة الامير عبد القادر : من التعصب الاسلامي الى الوطنية الفرنسية ؟ (٥) .

لنتناول الآن بداية اقامة الامير بدمشق التي وصلها في خريف ١٨٥٥ . ان تحول الامير الى دمشق ، بعد اقامته القصيرة ببروسه ، لم يتم الا بعد أن حصل للسلطات الفرنسية ، اليقين الكامل ان الامير لن يقوم بأي نشاط سياسي معاد لفرنسا وأنه أصبح ، واقعا وحقيقة ، رجل الثقة وكلمة الشرف .

وقد عمل الجزائريون المقيمون حديثا بدمشق على اشاعة خصال الامير ، من كونه رجلا شريفا ومجاهدا ومدافعا عن عنيذا عن الهوية العربية - الاسلامية بالجزائر وقد ضمن ذلك للامير هبة وتقدير الدمشقيين الكبير وحيث كانوا يعبرون له عن ذلك غالبا ، وهذا هو السبب الذي جعلهم يخصصونه باستقبال حار يوم دخوله دمشق وقد ذكر الامير ذلك : « قد فرح بنا أهل البلد وخرجوا كلهم للقيانا الرجال والنساء » (٦) وأيضا : « لقد استقبلني الدمشقيون أحسن استقبال ، وقد عدوا يوم دخولي مدينتهم ، كيوم عيد : فالرجال والنساء قد تسابقوا أمامي . . . » (٧) .

ان المجتمع الدمشقي الذي كان حريصا دوما على التركيز على طابعه العربي - الاسلامي أمام السلطة العثمانية العاجزة عن حسن ادارة البلاد ، قد وجد في شخصية الامير مناسبة ذهبية للتعبير عن تعلقه بهذه المبادئ والدفاع عنها ، وهذا ما يعكس أن وجود شخصية الامير بدمشق من شأنه ان يعزز لديها هذا الشعور ويمنحها مزيدا من الدعم الادبي والمعنوي .

ومن جهة أخرى فان المتتبع لحياة الامير عبد القادر بدمشق سوف يثير انتباهه تكالب الامير على اقتناء الدور والاراضي الفلاحية والحصول على المال مهما كانت الوسائل المتبعة في ذلك . ففي البداية أقرت الحكومة الفرنسية منح الامير راتبا سنويا بما قدره ١٥.٠٠٠ فرنك فرنسي ، وقد بلغ مع السنين الى مبلغ ٣٠.٠٠٠ فرنك فرنسي كما يرى بعض المؤرخين ، وهو مبلغ خيالي للغاية (٨) . وعندما قرر الامير أن يقوم ببعض الاصلاحات على الدارين اللتين سلمتهما له الادارة العثمانية بعد أن قامت بتأنيثهما (٩) ، ألح الامير لدى وزير خارجية فرنسا والسفير الفرنسي باستانبول للقيام بتدخلات لدى الحكومة العثمانية « في تمليك الدارين لانهما محتاجان الى الاصلاح والزيادة ولايمكننا اصلاحهم ( كذا ) قبل الملك » (١٠) . كما ألح أيضا على السفير نفسه للحصول ، من الحكومة العثمانية على مبلغ مالي ، وقد قدمت الدولة العثمانية : « يتسلم مبلغ قدره ألف بورصة أي خمس الاف قرش أو ١٠.٠٠٠ فرنك . وقد سلمت الاوامر الوزارية لاتمام هذا الموضوع ويبدو ان الامير قد سعد بها كثيرا ، خاصة وأن هذا المبلغ يمثل ثلاث مرات المبلغ الذي قرر أن يشتري به مسكنا » (١١) .

وعلى الرغم من الراتب الضخم والهدايا الجانبية ، فان الامير كثيرا ما يتظاهر بالفقر ، والا فبماذا يفسر التجاؤه الى خديوي مصر وطلب مساعدته وقد جاء في رسالته : « ان الله أنعم علي بعشرة اولاد ولازم عليه التدبير فيما يعيشون فيه بعد موتي والموت أقرب من كل قريب والاولاد صغار ولاراحم لهم الا الله وهنا حوش فيه أشجار وأراضي زراعة أردت شراءه وما عندي قيمته وبلغني من بعض الثقات أن سعيد باشا مصر فعل مع بعض الاشراف والعلماء خيرا ويتمنى فعل الخير معنا فأردت اكاثبه وأطلب منه ثمن الحوش ولنا حقوق في بيت مال المسلمين . . . » (٢١) .

كما طلب الامير أيضا ، وكلما سنحت الفرصة ، الى نابوليون الثالث بمده بمزيد من المال ، نظرا لزواج ابنه محي الدين وابنته آمنة ، فقد كتب الى صديقه الكولونيل بواسنى ( Boissonnet ) يستشيريه في طلب المساعدة من نابوليون : « هو أننا أردنا تزويج ولدكم محيي الدين وابنتكم آمنة وماعندنا الكفاية في ذلك فهل يحسب عندكم ، اننا نطلب من السلطان نابوليون الاعانة في ذلك ( كذا ) أم لا » (١٣) .

وعندما طلب اليه صديقه الحاج أحمد بن الجيلاني مده بالمساعدة رد عليه الامير بقوله : « ومن عجائب الانفاق انه جاء الينا كتابكم هذا في وقت ضيق كبير لم يمر علينا مثله من اتساع المصاريف اللازمة والكلف المتوالية وكثرة المتعلقين بنا من فقراء المهاجرين وغيرهم ... » (١٤) .

كما كتب الى مصطفى خزندار الوزير الاكبر التونسي في مارس ١٨٥٧ مخبرا اياه أن له « قرابة من جهة الام هاجروا الى تونس وهم من الاشراف العلماء الفقراء فنطلب من سيادتكم أن تشملهم رحمتكم وعنايتكم كما هي عادتكم وتنظرون لهم أرضا يعيشون بزراعتها .. » (١٥) .

لاشك أن الامير قام بمساعدة الجزائريين الفقراء ، غير أنه كان أيضا : « يتنز منه المال ، والمبالغ كبيرة ، من طرف حاشيته الجشعة والطامعة والتي تستغله بافراط وبدون حياء » (١٦) ، وانه بالنتيجة ، لم يفغل ، أي وسيلة للحصول على المال والعقارات ، وسيكون مفيدا لو أن أحد الباحثين الدمشقيين يقوم لنا بدراسة مستوعبة لحصر مختلف الملكيات العقارية للامير بدمشق في هذه الفترة ، مع العلم أن ابنه محمد قد خلف لنا نصا لا يمكن لاحد أن ينكر قيمته عندما استعرض أملاك الامير العقارية : « ثم اشترى على التوالي سبع دور أخرى جعل احداهن ، منزلا لاضيفه ومن يقصده من أصحاب الحوائج . وعدة دور في محلة العمارة البرانية جعل بعضها : جنينة مقابلة للدور ، وبين الدور والجنينة ، نهر بردى . واشترى مزرعة « دير بحدل » بارض الفوطة ، وهو بستان نضر ، وعمر به حوشا . واشترى أرضا أخرى ، في قرية أشرفية صحنايا . ثم اشترى حوش « البويضية » وباعه . واشترى قرية « قرحتا » ومزرعة « بلاس » وعمر فيها حوشا . واشترى الطاحونة المشهورة بالاحدى عشرية وخان الصعب ، في العمارة . وأرضابوادي قرية دمر ، ابنتى فيها قصرا لمصيفه ، ولما أتم بناءه دعا اليه العلماء والاعيان ، وصنع لهم وليمة ... » (١٧) . هل بعد هذا النص من شك في هذا الموضوع ؟ .

ومن جهة أخرى ماذا كان الوضع السياسي والقانوني للامير بدمشق؟ لقد كان الامير يعتقد أن تحوله الى دمشق يعني تمتعه بحريته المطلقة في تنقلاته وزياراته القريبة والبعيدة ، وعلى العكس من ذلك كانت الحكومة الفرنسية قد عينت المترجم بولاد ( Bullad ) الذي رافق الامير منذ اقامته بامبواز ، ليشرف على مراقبته بدمشق ، ذلك أن شكوك وتخوفات الحكومة الفرنسية مازالت قائمة ، ومن جهة أخرى كان عدد الجزائريين الكبير المقيمين بدمشق ثم الهيجان السياسي ووجود تكتلات وصراعات بين جميع الاجناس الذين عجز القائمون العثمانيون الضعفاء على تبني سياسة بناء واعية ، تشكل كلها مجموعة من العوامل المقلقة بالنسبة لفرنسا .

وعندما قرر الامير بمفرده ودون أن يخبر القنصلية الفرنسية ولا بولاد لزيارة بيت القدس ، عارضت القنصلية هذا المشروع وحسب رأيها وجب الحصول مسبقا على رخصة من حكومة الامبراطور : « ان الامير عبد القادر مخطيء ولاشك عندما يظن أنه باستطاعته التفتيح عن باشالك دمشق . . . ان السيد القنصل قد أخبر الامير ، وقد قمت أيضا بشرح ذلك للامير ، أنه لا يستطيع أن يغادر باشالك دمشق قبل أن تأذن له في ذلك حكومة الامبراطور وان واجبه ان لا يطلب ولا يلح في ذلك ، وهذا لمصلحته الخاصة ، ويبدو أن الامير قد أدرك ذلك نهائيا . . . » (١٨) .

وقد فوجيء الامير تماما بهذا الموقف وأزعجه كثيرا . وقد صرحت حاشية الامير : « انه بعد وصول الامير بقليل الى دمشق ، بعث برسالة الى الامبراطور الفرنسي يطلب رخصة لزيارة قبر الرسول . الا أن الامبراطور الذي كان يخشى أن يكون وراء هذا المشروع بعض الخلفيات السياسية ، رفض الاستجابة لذلك . . . » (١٨مكرر) . وقد أحس الامير أنه مازال في الواقع والحقيقة سجيناً . ومع هذا عندما تحصل على اذن بالتحول الى بيت القدس ، أذن بولاد أيضا بمرافقته . ولما وصل بيت القدس رفض ، رغم الحاح بولاد للقيام بزيارة مجاملة للقنصل الفرنسي بها السيد باريار ( Barrière ) (١٩) ، وهذا ما يترجم مدى التوتر الشديد الذي كان يميز علاقات الامير بالقنصلية الفرنسية بدمشق وبالمترجم بولاد . وبعد ذلك بقليل عندما خطط الامير بكامل الجراءة القيام بزيارة لضواحي طبرية ، أعلمته القنصلية الفرنسية : « أن أبسط قواعد الذوق السليم تمنعه حتى من التفكير ، اذا مانسي ، أن تعليمات الحكومة القطعية تعارض مغادرته لدمشق وهذا قبل أن يطلب مسبقا اذنا في ذلك ويحصل



عليه . . . « (٢٠) . وانطلاقاً من هذه الفترة الزمنية ساءت علاقات الامير مع القنصلية وأصبح كل منهما يبدي ارتياحه وحذره من الاخر ، وقد أحس الامير بعواقب ذلك عليه ، فقد طلب بادية الامر تسريح بولاد الذي أصبح يبدي تجاهه التحرز وعدم الثقة والبرودة . وقد قبل مطلبه في أواخر ١٨٥٧ (٢١) . وقد اضطر الامير الى تقليل اتصالاته بالقنصلية وخلال الثلاث سنوات المقبلة ، مكتفياً فقط بتحرير بعض الرسائل أثناء عدد من المناسبات المحددة ، الى نابليون الثالث وبعض وزرائه .

أما السلطات الفرنسية فانها مازالت تستريب من الامير وهذا ما تعكسه رسالة وزير الحربية الذي وجه تعليماته القطعية بهذا الشأن : « من الآن فصاعداً ستصبح مراقبة عبد القادر في عهدة قنصلية الامبراطور بدمشق والتي طلبت منها أن تبلغني بدقة كل ما يصلها عن عبد القادر وكذلك عن بقية الجزائريين المقيمين أو المارين بسوريا ، من معلومات يمكن أن تهم وزارتنا أو وزارة الخارجية . . » (٢٢) .

ان جو الريبة والشك الذي ساد الطرفين كان وراء صمت القنصلية الفرنسية عن الامير ، وبالفعل فانه لا يوجد أي تقرير ذي بال وذو قيمة اعلامية من قنصلية فرنسا عن الامير انطلاقاً من هذه الفترة ، وحتى التأليف التي كتبت ، فانها لا تعرض لهذه الفترة مطلقاً ، وقد اكتفى بالحديث عن مطالعات الامير واجتماعاته ذات الطابع الديني الصرف والتي أصبحت مركز اهتمامه ، وورعه وتأثيره على المغاربة وعلى شبان دمشق الذين باشرنا حلقات اجتماعاته الدينية . فمعرفة واطلاع الامير على الشريعة الاسلامية وماضيه المشرق وثروته المادية المدهشة من شأنها أن تخلق له بعض المشاكل والغيرة من طرف أعيان المدينة ، ومع هذا فلم يسجل أي حدث سياسي أو غيره من شأنه أن يعكر عليه نظام الحياة الذي فرض عليه خلال الاربع سنوات الاولى من اقامته بدمشق .

هناك عامل آخر قد ساهم بدور حاسم في التجاء الامير الى الدراسة والتأمل والانزواء ويتمثل في تلك الشائعات الكاذبة التي أذيعت حول احتمال رجوعه الى المسرح السياسي الجزائري . وقد تبودلت التقارير حول هذا الموضوع بين الحاكم الفرنسي العام بالجزائر ووزير الحربية ووزير الخارجية وقنصلية فرنسا بدمشق وقد طالبت هذه التقارير بتشديد المراقبة على نشاط الامير ، وقد كتب الحاكم الفرنسي بالجزائر الجنرال مارتنبري ( Martimprey ) الى الوزير المكلف بالجزائر

والمستعمرات مايلي : « لقد اقتنعت ، عن طريق كل الأدلة التي جمعتها منذ أشهر ، ان الامير عبد القادر له نوايا القيام بدور ، غير انني لا أفكر أنه أبدى رغبة في الدخول الى المسرح السياسي بالجزائر ، بل أعتقد أن الامير درس وضعية الشرق المضطربة ، وامكانية التمتع بمكانة بفضل قوة ذكائه ونشاطه ومهارته هذا فضلا عن دعمه من طرف رفقائه البواسل والمخلصين ، ولاشك أيضا أن الهجرة التي عملت على ارسالهم اليه من الجزائر قد اختارتهم لذلك وهم من الرجال الاقوياء الذين انتدبتهم القبائل المقاتلة وعادة من الاغنياء الذين أخذوا ما يملكونه . وقد تمكنت من تقدير حكم ذلك هذه الايام ، بواسطة سكان الخيام التي انتصبت بباب عزون فوق أرصفة التحصينات منتظرين يوم رحيلهم . . . » (٢٣) .

ومع هذا فان هذه الشائعات التي اذيعت منذ قدوم الامير على دمشق ، قد جعلت بولاد يدعو الامير : « أن يكون متيقظا جدا في المستقبل وهذا على الرغم من اخلاص أهدافه ووفاء مشاعره ووعوده . . . » (٢٤)

ان الوضع السياسي العام في الجزائر وفي سوريا ثم واقعية الامير ووضوح رأيه وعلى الخصوص وفاءه المطلق لكلمة الشرف التي قطعها على نفسه امام نابليون الثالث بعدم محاربة فرنسا ، لا تؤيد الرأي القائل بأن الامير يعمل للرجوع الى الجزائر . ولاشك أيضا أن عديد الرسائل التي وجهها الى اصدقائه واعضاده السابقين وعدد من الشخصيات ذوي المكانة ، وذات محتوى غير سياسي ، جعلت المكاتب العربية (الفرنسية) (Bureaux Arabes) حرة في اعطائها التحليل الذي تريده . ومن جهة أخرى كان جزء من المواطنين الذي تألم وقاسى من النظام السياسي الاستعماري ، يؤمل الالتحاق بزعيمة بالشرق والعيش في أمن وراحة وسط المسلمين كما كان يعتقد . ألم تطلب الطريقة الرحمانية من أنصارها ومن الفلاحين الموسرين مغادرة الجزائر والالتحاق بالامير (٢٥)؟ . ولاشك أن الاهالي في ذلك كانوا يظنون ببساطة ، ان الامير سوف يبني دولة اسلامية بسورية ما دام الامر مستحيلا تحقيقه في بلاده .

ولكن الامير الذي انسحب تماما من المسرح السياسي ويعيش : « حياة فاخرة يتقاسمها من خصوصيته والنزعة الاميرية » (٢٦) ، لم يكن يفكر في أي مشروع من هذا القبيل ، وعلى العكس من ذلك ، ترى أنه نتيجة للحدود الضيقة جدا لحرية وجو التوتر السائد بينه وبين السلطة الفرنسية ، فان الامير كان مجبرا على تحويل اهتمامه الى تربية أبنائه

وتقديم مساعداته للفقراء والاشراف بالتعاون مع خليفته السابق ابن سالم ، على نشاط فلاحى (٢٧) وأخيرا فان الامير كان يفضل الانزواء .

هل يعتبر الامير نفسه مأمورا للسياسة الفرنسية بسوريا خلال هاته الفترة كما يذهب الى ذلك مرسل امرى في دراسته السابقة الذكر (٢٨)؟ لانملك ولاحجة واحدة على اثبات هذا الرأي ، بل نستطيع أن نؤكد أنه على ضوء التحليل الذي قدمناه ننفي تماما هاته الفرضية ، غير المدعمة ، وهذا حتى تدخل الامير في أحداث دمشق سنة ١٨٦٠ .

ودون أن نتوقف على تعقد المشكل السوري ومضاعفاته فان الامير لا يستطيع أن يبقى مكتوف اليدين أمام مذابح المسيحيين والمسلمين . فبعد أن قدم نصائحه لاستتباب الامن ، دعا الزعماء المسلمين الى التعقل والتسامح والعفو وحاول أيضا التأثير على العلماء وكبار البلد لاطفاء غائلة الهيجان وقد نبههم : « لا تفتروا ، فان أوروبا لا يمكن لها أن تكون عديمة الاحساس للمآسى التي تلحقونها بالمسيحيين . اعملوا رأيكم وفكروا ، ولا تقوموا بحركة من شأنها اقامة أسقف ، مستقبلا ، في جامعكم الكبير ، جامع الاموي والذي كان سابقا كنيسة مسيحية » (٢٩) . الا أن الامير بعد أن عاين ، وسط هذه المأساة ، ان الوضعية كانت خطيرة جدا للمجموعتين المسيحية والاسلامية على حد سواء وتتطلب رد فعل سريع ، انبرى الامير ، الورع والتقى والمؤمن ، للقيام بتدخل شجاع وحميد لانقاذ المسيحيين . ونحن نعلم أن الامير كان محاطا بفريق من الجزائريين المخلصين والمطيعين له (٣٠) . وقد اختار الامير منهم حوالي ألف وتحول من تلقاء نفسه لزيارة قنصل فرنسا بدمشق لانوس (Lanusse) طالبا منه مده : « بالمال الكافي وتسليح ألف جزائري . وبادىء الامر ( الكلمة للقنصل لانوس ) ترددت باعطاء الاذن للامير لاخذ هذا الاجراء الخطير جدا ، وذلك لعدم اعتقادي كثيرا للخطر الحقيقي . لكن اليوم أراني مضطرا للتراجع في رأيي الاول ، فالخطر لايب فيه ، وعليه فقد أذنت للامير أن يقوم بكل التكاليف التي يراها ضرورية ، موصيا اياه ، بالسرية والحذر المطلق ... » (٣١)

وعلى ضوء ذلك نشط الامير مع رفقائه الجزائريين الشجعان ، وبدون كلل خلال بضعة أيام على انقاذ عدة آلاف من المسيحيين واقرار الامن والنظام ووضع حد لهذا التيار الانتحاري . ولم يتم له ذلك الا بفضل حزمه وايمانه وتسامحه . ان هذا الموقف البطولي الذي رددته جميع

صحف أوروبا في أول صفحاتها ، قد أخرج الأمير من الصمت والعزلة اللتين ضربتا حوله . أما حالة الشك والريبة فقد انقلبت الى تقدير كبير لحركته الانسانية .

لقد أفاد هذا التدخل الأمير شخصيا للقضاء ، وبشكل غير مؤمل ، على حالة التوتر والشك اللذين لازماه وأثرا فيه كثيرا خلال الأربع سنوات الأولى من اقامته . ونتيجة لذلك أخذت صورة جديدة للامير تنتشر في أوروبا وكل التآليف التي ظهرت فيما بعد قد مجدت الجانب الانساني للامير وتسامحه وسعة نظره وطيبة أخلاقه وعلى الاخص وفاءه لوعده الشرف الذي قطعه على نفسه لنابوليون بعدم محاربة فرنسا ، وهذا على الرغم من المصاعب الجمة التي عرفتھا الجزائر خلال العشرية السادسة من القرن التاسع عشر . والذي يؤكد هذا الاتجاه ، أننا لانعرف ولاوثيقة واحدة صادرة عن الامير تشجع الحركات الانتفاضية ببلاده أو على الأقل التعبير عن مساندته المعنوية لعدد من الزعماء الجزائريين الذين أبلوا البلاء الحسن حتى آخر رمق من حياتهم . بل ان الامير ذهب ، لاحترام وعده حتى الى التنكر لابنه محيي الدين الذي تحول سرا الى الجزائر لانقاذ البلاد من فرنسا المغلوبة على أمرها سنة ١٨٧٠ (٣٢) .

وقد تهاطلت على الامير الاوسمة والنياشين من عدد كبير من رؤساء الدول الاوروبية وعلى الخصوص من نابوليون الثالث الذي وشحه وسام الشرف الفرنسي الاول (٣٣) . وحتى الجزائريين الذين ساهموا في ارجاع الامن الى نصابه ، فقد أهدى اليهم بعض الاوسمة والمكافآت المالية (٣٤) . ومع هذا لم تتمتع ولاشخصية عربية - اسلامية بمثل هذه الحظوة والاهتمام والرعاية لدى معظم المسؤولين والمنظمات الاوروبية وقد مدحت كثيرا فضائل الامير وافكاره وتسامحه وقيمه وهذا ما استوجب بعد قليل انضمام الامير عن اقتناع منه ، الى منظمة البنائين الاحرار ( Franc-maçonnerie ) ( ٣٥ ) .

واذا كان الامير يعتبر أحد الشخصيات المغربية الكبيرة وأصبح بحق رمزا وطنيا حتى حين معاهدة استسلامه سنة ١٨٤٧ ، وهذا بفضل اشعاعه وعمله الداخلي وكفاحه المستميت لانقاذ بلاده من حاكم أجنبي ، فانه والحق يقال أصبح بعد هذه الفترة الزمنية شخصية أخرى ذات معطيات جديدة وانه في رأينا قد ضحى ، دون شك ، بسمو هذا الماضي المشرف كما فقد منه الكثير بسبب صمته الكامل الذي لازمه حتى مماته .

وقد عرف الامير ، انطلاقا من سنة ١٨٦٠ في الغرب وفي فرنسا على الخصوص ، قمة انتصاره . وقد اكتشفه الاوربيون من جديد وبدأت فترة التنويه بخصاله الحميدة وهي التي جلبت اليه المزيد من التقدير والاحترام نتيجة تدخله في أحداث دمشق كما اكتشف المؤرخون أيضا ماضيه كمجاهد وطني قبل ذلك (٢٦) .

### الوثيقة رقم ١

الحمد لله وحده اللهم صل على سيدنا محمد وآل سيدنا محمد (٢٧)  
من عبد القادر بن محيي الدين - كان الله له ولاخوته آمين -  
الى أخي سيدي محمد ابن أحمد البوحميدي (٢٨)  
السلام عليك ورحمة الله وبركاته

وبعد فاننا نسأل عن أحوالك ونرجوا ( كذا ) أن تكون في نعمة مثلنا فاننا في نعم لانحصوها ( كذا ) وخيرات لانستقصوها ( كذا ) وحصل لنا من صفاء الوقت والبسط وانشراح الصدر ما لا تقدر قدره ولا نكيف أمره . نسأل الله أن تكون كذلك . وحمد الله واجب علينا لاسيما حين جرت علينا المقادير باللطف والرافة وسيق كل منا لما قدر له وعليه محفوف بالعناية فاننا لو حاولنا غير ما نحن فيه واستظهر ( كذا ) بالجن والانس والملائكة ما كان غير ما هو كائن فلتطب أنفسنا ونعلم يقينا أننا في عافية فانها غير محصورة فيما صورته صورتها والحق تعالى انما أذن لعباده في الاسباب وجعل لهم الكسب وصورة الاختيار قبل ظهور مراده . أما بعد قضائه وقدره فليس لهم الا تلقف مواقع القدر شريعة وحقيقة واراوتهم غير ارادة الله قريبة من الكفر أو هي الكفر ومراد الحق تعالى ان يتعرف لنا في كل شيء حتى لاتجهله في شيء . اللهم أشعرنا لطفك حيث ما أقمنا حتى نكون بك ولك وأنه تعالى أوجب ما أراده (كذا) فينا مثل ما أوجبه فيما أراده منا فكما يجب علينا قبول هذا يجب قبول ذلك وان عيالك وأولادك في خير ويصلك كتابهم مع هذا الكتاب واننا وقت التاريخ أطلب وزير الحرب

يجمعهم معنا وان لا يخيب ظننا ولا يرد كلمتنا ان شاء الله فكن على هناء  
منهم في القراءة وغيرها مثل أنفسنا واذا تسرحنا الى الشرق ان شاء  
الله نطلب تسريحهم وذهابهم الى الشرق وان تسريحنا قريب ان شاء  
الله فان الجينرال دولا مورسيار (٢٩) من عظماء الدولة وهو حبيبنا حارص  
( كذا ) على تعجيل تسريحنا وما أقعدنا هذه الايام الا ما كتبه الله لنا  
من الماء والطعام فاننا في ايام الدولة السابقة حين وصلنا الى أطلون  
واسترحنا من تعب البحر وعزموا على سفرنا وأخروا في أهبة السفر  
وقع ما وقع من التبديل . ولما جلس في دار الامارة من جاء بعدهم كاتبوني  
وقالوا لي انك عندنا في ضيافة الاكرام . وقد وقع هذا التبديل فاقبل  
عذرنا في تأخير سفرك حتى يستقيم أمر الدولة ونسرحك لبر الاسلام وقد  
استقامت أمورهم وصلحت أحوالهم فتسريحنا قريب بحول الله وقوته  
وجميع ما قصدناه وظنناه في الفرنضيص من الخير والاحسان والاحترام  
فعلوه معنا وزادوا فوق ما ظنناه فنحن اليوم ملوك على الحقيقة فقد  
انزلونا في منزل سلطانهم في قصر يحار فيه الطرف ويقصر دونه الوصف  
وفرش وطية وماكل شهية وملابس بهية مع التعظيم التام من الكبير  
والصغير والخاص والعام ورفقتنا ما بين تال وذاكر ومارس ومتعلم صار  
الشهر عندهم كالיום وتيقنوا بحسن اختيار الله لهم . وقد بلغنا ان  
لك وجها عند السلطان وفقه الله للخير واعانه عليه واحكمه على يديه .  
وهذا دعاؤنا له اليوم وامس وغدا ونعذره في حقنا ونستغفر الله في حقه  
فاني ما ابرئ نفسي وستبلى السرائر وتجزا ( كذا ) كل نفس بما تسعى  
فان كان ما بلغنا حق ( كذا ) فاسع في تسريح ابننا الصادق فان والده قد  
احترق صدره وعيل صبره وسرى لنا ذلك جميعا وما كان يخطر ببالنا ان  
السلطان يبقيه لهذا الوقت والامر لله وعليك السلام من الوالدة ومن محمد  
وامه ومن السيد الحاج مصطفى بن التهامي ومن السيد قدور بن محيي  
الدين ومن قار محمد ومن محمد بن البشير وبعض من جاء معنا الى  
افرانصة مفتربا معنا كمحمد بن الخير وعلى قريب يقع لهم التخير بين  
المحيي عندنا وبين التسريح أينما أرادوا وقد خبرنا أنك شممت كافورة  
ومسكة فبالرفاء والبنين والكيس ولا تكثرث بالحداثات وسلم تسلم  
وتسترح وهو جنة الدنيا واني أعلم أن أهم شيء عندك قراءة الاولاد فكن  
مستريح القلب منهم بعد جمعهم معنا ان شاء الله ولا تنسانا عند ضريح  
الدرياق المجرب مولانا ادريس وعند غيره من أهل أحياء وأمواتا وفي عاشر  
ذي القعدة الحرام عام ١٢٦٤ (٤٠) .

## الوثيقة رقم ٢

الحمد لله (٤١)

السيادة العلية سيادة المعظم الاشرف الاكرم الوزير الاعظم كونت ولفسكى السلام عليكم أما بعد فنخبر سعادتكم أننا وصلنا دمشق الشام وحصل لنا سرور عظيم واشتغلنا بالدعاء لكم والسعادة الدائمة والخيرات اللازمة وأن السيد توفنل (٤٢) وقف علينا وقوفا جميلا بسبب وصيتكم له جزاكم الله عنا خيرا وباشا الشام فتش على دار تكفي عيالنا فلم يجد ، فعين لنا دارين متلاصقتين فترجوا ( كذا ) أمركم المطاع لباشا دور (٤٣) يكلمهم في تمليك الدارين لانهما محتاجان الى الاصلاح والزيادة ولايمكننا اصلاحهم قبل الملك ونطلب من الله تعالى يبارك لكم في هذا ( كذا ) العام الجديد ويعطيكم فيه الذي تفرحون به دائما سرمدا والسلام من شاكر احسانكم عبد القادر بن محيي الدين منتصف ربيع الثاني ١٢٧٢ .

## الوثيقة رقم ٣

الحمد لله (٤٤)

سعادة الحبيب اللبيب السيد الجنرال دوماس السلام عليكم أما بعد فانه يلزم الانسان اذا أراد أمرا أن يشاور صديقه العاقل وانى أشاوركم في أمر وهو ان الله تعالى ( كذا ) أنعم علي بعشرة أولاد ولازم عليه التدبير فيما يعيشون فيه بعد موتي والموت أقرب من كل قريب والأولاد صفار ولأراحم لهم الا الله وهنا حوش فيه أشجار وأراضي زراعة أردت شراءه وماعندي قيمته وبلغني من بعض الناس الثقات أن سعيد باشا مصر فعل مع بعض الاشراف والعلماء خيرا ويتمنى فعل الخير معنا فأردت أكتبه وأطلب منه ثمن الحوش ولنا حقوق في بيت مال المسلمين فان كان لأبأس بذلك ( كذا ) من جانب الدولة الفرنسية فأخبرني وأنا منتظر لجوابكم .

والسلام من المحب الداعي لكم بكل خير عبد القادر بن محيي الدين  
غرة ربيع الثاني ١٢٧٣ (٤٥) .

## الوثيقة رقم ٤

الحمد لله (٤٦)

سعادة المحب الكامل والصديق الفاضل السيد البارون الكرونيل

أبوسنه(٤٧) جعل الله سعادتم دائمة خيراتكم ملازمة أما بعد السلام والسؤال عن أحوالكم وعن الأهل والأولاد فاننا بخير وعافية نطلب الله لكم العافية الدائمة ونخبر سعادتم اننا كنا طلبنا من السيد الشاذلي كتاب القوانين سابقا وأخبرنا انه انتسخه لنا فالمأمول من محبتكم أن تطلبوا الكتاب منه وترسلوه لنا فاننا محتاجون اليه ونعرض عليكم أمرا ونرجوا ( كذا ) منكم أن تشيروا علينا بما يظهر لكم صوابه وهو اننا أردنا تزويج ولدكم محيي الدين وابنتكم آمنة وما عندنا الكفاية في ذلك فهل يحسب عندكم اننا نطلب من السلطان نابليون الاعانة في ذلك أم لا . فأشر علينا بما تراه صوابا وهل الكتابة الى الوزير أم الى السلطان ان ظهر لكم صوابها ونخبركم انه ولد لنا بعد فراقكم ثلاثة أولاد سمنا ( كذا ) واحدا عبد الله والآخر أبابكر والآخر علي وولد لولدكم محمد بنينة سمينها عايشة ونرجوا ( كذا ) جوابكم والسلام من عبد القادر بن محيي الدين . منتصف شوال؟ (٤٨) .

### الوثيقة رقم ٥

الحمد لله وحده(٤٩)

محبتنا وأعز الناس الينا الفاضل المكرم الحاج أحمد بن الجيلاني أمنكم الله ورعاكم ومن كل سوء حماكم وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته وبعد فقد وصلنا مكتوبكم مخبرا بما أنتم عليه من ضيق العيش وكثرة الدين ، فلقد والله ساءنا حالكم وهالنا أمركم ولا حول ولا قوة الا بالله . ومن عجائب الاتفاق انه جاء الينا كتابكم هذا في وقت ضيق كبير لم يمر علينا مثله من اتساع المصاريف اللازمة والكلف المتوالية وكثرة المتعلقين بنا من فقراء المهاجرين وغيرهم . وقبل التاريخ بأيام جاء أمر من حضرة الدولة الفخيمة بالترغيب في اعانة أهل وطن الجزائر لما هم عليه من ضيق الحال وغلاء الاسعار في هذه السنة كما لا يخفى فهانحن ننظر في ذلك ولا يسعنا الا الاجابة الى ماندبت اليه وبعد الفراغ من هذه التكاليف ننظر من أمرك على حسب الوقت ان شاء الله .

عبد القادر

( يلي ذلك الختم )

### الوثيقة رقم ٦

الحمد لله(٥٠) اللهم صل وسلم على رحمة العالمين محمد واله وصحبه



السيادة العلية أدام الله توفيقها وجعل العز والاقبال على الدوام رفيقها ولا حط لها من المجد رواقا ولا أذوى لها دوحة ولا أوراقا سيادة السيد مصطفى خزن دار ( كذا ) ( ٥١ ) أما بعد السلام عليكم فان لي قرابة من جهة الام هاجروا الى تونس وهم من الاشراف العلماء الفقراء فنطلب من سيادتكم ان تشملهم رحمتكم وعنايتكم كما هي عادتكم وتنظرون لهم أرضا يتعيشون بزراعتها ويستقرون بها كساير الرعايا ولكم الاجر والشكر من الداعي لكم بالخير ولساير امراء الملة المحمدية عبد القادر بن محيي الدين الحسنى سلخ رجب ١٢٧٣ ( ٥٢ ) .

### الوثيقة رقم ٧

ايا سابقا بالذي لم يجبل (٥٢) بفكري ولم يبدي لي في خطاب  
 كذا فلنكن نعم الاكرمين تفاجي بلا منية وطلاب  
 ولم ار أعظم من نعمة أتتني ولم تكن لي في حساب  
 سأشكرها ما دامت بي حياة وأذكرها ذكر وقت الشباب

يا من أمر بالعدل والانصاف المتصفة بهما ذاته العلية ونهى عن الجور والاعتساف وهما شعار النفوس السفلية ادم ( كذا ) السعود والاسعاد لجلالته من جعلته رحمة للعباد تاج الملوك وواسطة عقد السلوك من تزينت بانشاد مدائحه المثاني والمثالث السلطان نابليون الثالث وأطل ( كذا ) حياته فيما يرضيك ويزيده حضوة لديك وبعد ،

فيعرض غريق الاحسان وقصير اللسان عن شكر الايادي التي بالغدو والرواح غوادي ، أنني لست بمستحق أكثر مما أنا حاصل عليه من الخير المتزايد الذي أجله انني معدود صديق لتلك الحضرة وموادد ولكن المكارم الباذخة والهمة الشامخة احبت لي كما هي شيمتها الغرا تشريفا خصوصا في حياة الجزا فمئحتني علامات التشرية وأشفعت انعاماتها بنور على نور كالبحر يقذف للقريب جواهر كرما ويبعث للبعيد سحائب فأي لسان يستطيع أن يترجم عن عظمة هذا الاحسان وأي قرطاس يسع شكر هذا الصنيع العلي الشأن وهذا الداعي مافعل الا ماهو واجب بالشريعة المحمدية عليه ومتأكد بالطبيعة الانسانية لديه . ومن فعل هذا الفعل الشنيع ليس له من الاسلام لا الاسم ولا يعرف الثواب من الاثم ، ومع هذا فاني أشكر الله تعالى حيث أجرى على يدي فعلا أرضى جلالتم

وزادني محبة عندكم وهذا الفعل في الحقيقة فعلكم لانه لولا جلالتم ما وجدت  
انا بالشام ندفع بعض ظلم الظلام ولذا قال لي بعض الناس ان الله  
تعالى اطلع السلطان نابليون الثالث على هذه الحادثة قبل وقوعها فلذا  
اعدكم لها بالشام حصنا للظالمين وقمعا للظلام ولا أستريب أن السريرة  
الملوكية زادها الله نورا وأودعها طول المدا ( كذا ) سرورا تتحقق ، ان  
صداقتي أكيدة وعهودي وثيقة ونحن مقيمون على وضيعة ( كذا ) الدعاء  
والشكر سرا وعلانية مدة العمر ولو أهلكت نفسي وأولادي وطارفي وتلاذي  
ماوفيت باللازم على من شكر انعاماتكم وادام الله اسعادكم في ١٣ ربيع  
الاول ١٢٧٧ (٥٤) .

المخلص الداعي  
**عبد القادر بن محيي الدين**  
امضاء الامير ثم ختمه

### الوثيقة رقم ٨

من التقرير الذي أرسله القنصل الفرنسي لانوس الى وزير الخارجية  
بتاريخ ١٨٦٠/١٠/٣١ وحيث طلب فيها اهداء بعض الاوسمة : (٥٥)

» ... بالاتفاق مع الامير وضعت اللائحة المرفقة وهي تتركب من  
ثلاثة قوائم وتشتمل على ٦١ اسما . على أن الجزائريين الذين يقطنون  
دمشق هم في الغالب من ذوي اليسر ، واذا أخذنا بالاعتبار سلوكهم  
الانساني ، فاننا نسجل أنهم لم يحدوا لحظة عن الطريق السوي وهذا  
خلافاً للمواطنين المسلمين ( الدمشقيين ) الذين لم ينفكوا خلال نصف شهر  
عن نهب المنازل المهجورة ..

### القائمة الاولى : وتستحق أوسمة

- 
- |  |  |
|--|--|
| ١ - الابن الاكبر للامير سيدي ٢ - سيدي قدور<br>محمد | ٣ - سيدي مصطفى بن محيي<br>( أخو الامير ) |
|--|--|
-

## القائمة الثانية : ويدفع لها مال

١ - شريف بن سالم	١٠ - الشريف الطيب العربي ١٩ - الحاج محمد بلخير
٢ - محمد بن فريقة ( ابن عم )	١١ - الشيخ عبد الرحمن ٢٠ - قارة محمد
( الامير )	١٢ - الشيخ الطيب عبد ٢١ - بركات
٣ - الحسن بو طالب	الرحمن ٢٢ - الحاج مصطفى عوافي
٤ - الشيخ أحمد بن الشريف ١٣	الشيخ العربي ٢٣ - مسعود عوافي
٥ - الشيخ المختار	١٤ - الشيخ علي عمارة ٢٤ - الحاج محمد قليب
٦ - الشيخ بن عثمان	١٥ - الشيخ أحمد القادر ٢٥ - محمد بن محمد
٧ - أبو زيد اغا	١٦ - الشيخ سعيد بن محمد ٢٦ - حمادى
٨ - بن بشير اغا	١٧ - الشيخ علي سريح
٩ - الحبيب بن مهدي	١٨ - السيد مصطفى

## القائمة الثالثة : ويدفع لها مال

١ - أحمد بن مكى	١٢ - أحمد دراجي ٢٣ - السعيد بشر
٢ - أحمد بن الماهي	١٣ - الطيب بن الشيخ المبارك ٢٤ - الهادي بن محمد
٣ - بن عمى ؟	١٤ - قاسم بن عمارة اغا ٢٥ - عبد القادر بن رابح
٤ - علي قرمان	١٥ - محمد بن الحاج ٢٦ - أحمد حلحال
٥ - السعداوي	١٦ - بلقاسم بن عبد الرحمن ٢٧ - عبد القادر بسابع ؟
٦ - محمد بن عابد	١٧ - الشريك بن محيي الدين ٢٨ - محمد بن أفول
٧ - قارة العمري	١٨ - الطاهر بن فقيه ٢٩ - محمد بن العابد
٨ - محمد اغا بليدي	١٩ - الشيخ سعد فقيه ٣٠ - محمد بلكير
٩ - نشيم اغا	٢٠ - محمد بن مزيان ٣١ - التوهامي
١٠ - سالم بن سيف اغا	٢١ - سعيد بن العربي ٣٢ - محمد بن المكى
١١ - الشيخ أحمد الفلاني	٢٢ - سعيد بن يفلأوي

## الهدايا للسوريين

- ١ - صالح اغا مهاني ( من المجلس الاكبر )
- ٢ - محمود افندي حمزة
- ٣ - سعيد اغا نوري
- ٤ - السيد سعيد القوتلي (٥٦)
- ٥ - شريف بن سالم

الوثيقة رقم ٩

الحمد لله وحده (٥٧)

أيها السادة المحترمين ( كذا ) رؤساء وأعضاء الجمعية الفخيمة  
الفرنماسوبية الموقرين حفظهم الله تعالى

بعد ابلاغ حضراتكم أكمل شوق وأوفر اعتبار صادر عن خلوص  
قلبي . أقول انني بينما أنا أتغزل بما سلف من أقوالكم الفخيمة وأتأمل  
كيف أن صانع العالم العظيم لا يمنح لعباده انعاماته جميعها دفعة واحدة  
بل شيئاً فشيئاً لتدوم لذاته ( كذا ) البشر ويتواصل الشكر غير منقطع  
نحوه تعالى ، حظيت بكتاب حضراتكم الكريم الصادر عن محبة غير  
مشكوك بها مع الزهرة الكلية السمو التي تفوق بطيها الرمزي رايحة

الحمد لله وحده  
أيها السادة المحمدية رؤساء وأعضاء الجمعية الفخيمة التي حفظهم الله  
بعد ابلاغ حضراتكم أكمل شوق وأوفر اعتبار صادر عن خلوص قلبي . أقول انني بينما أنا أتغزل بما سلف من أقوالكم الفخيمة وأتأمل  
كيف أن صانع العالم العظيم لا يمنح لعباده انعاماته جميعها دفعة واحدة بل شيئاً فشيئاً لتدوم لذاته ( كذا ) البشر ويتواصل الشكر غير منقطع  
نحوه تعالى ، حظيت بكتاب حضراتكم الكريم الصادر عن محبة غير مشكوك بها مع الزهرة الكلية السمو التي تفوق بطيها الرمزي رايحة  
الجميلة التي جامعة لرضاها المحسن وشتاتها . فخصت بحضرتكم على سرور ربما لا يدرك . اولاً لسرور ديني بها از  
احسنت زاتي من الكشف كنوز العالم . وثانياً لمصادفتي ورودها ما كنت أتأمل في احسانه الخالق سبحانه  
وتعالى دون من الذي يرفون حضرتكم من اتحاد أفكاركم الخليل لا احسبه الا لطفه من انعامه  
الخالق الفعدي بها بوضوح هفوية بعد شفاعة نعمة الله المحمد على ذلك ولي كمال مسعود وسرور اذ اقلتم  
حتى ذلك لانني أؤكد واحقق ان مسرتكم حسن وانظاركم مستقيمة . ليس بشهادة اعدل من بيلكم بحسب  
عند ما سمعتم اني باخواني في بشرية ومساعدتي لهم عند تلك العدة البرية . وای شرفي يدرك محبة  
الانسان الانسانية وهل ازالتم تجرد محبة فينا نكون زواردين قوم حاشا . ان المحبة هي لكل الوهد والذ  
الملك فوجب بحسب كل . ما كان افرح بجمعكم الفايقة الكمال كباقي هذه الغايات بلدي ثم اهل رفوتي اوله  
انها بار ممنونتي بحضرتكم على ما افعدتموني . من هذا الاسم المبارك الذي حصل عليه بدون استحقاق ( ان  
اذا كان لسعد محبتتي بجمعكم وميلتي نحوكم لافرادكم واجمالكم لان قيمة عندي افضل من المناج الذي كان يندسه  
به لا كندسه فيلظن الردي وذلك قبلته فبرح وتوقير فائق المحبة . ثانياً اكون رغبتي محققه عند حضراتكم  
باقتبال اخوتيه المحبة واشترآك الراي بصوم ترتيباً بكم العظيمه لانني مستعد ان اكون خيرها وصفي  
ورفقتي عبورها والارنباط بها ساكون على ما اوصفونيته حضراتكم من الاسامات محافظاً جداً واحسب  
فاني سعيداً متى ذهب واحد من محالكم الفيورين بنوع اوفس مما يظفونه بي . ثالثاً لندوم من كذا نصاعداً  
مراجل العباد بينما غير منقطعه لانني مستعد لكلا ينظر باعترافكم المحبت ككلا تبقيته متى قوانين  
محبتكم بل سروري فيا عرفتني اجواد لا اعام هفوتي . فقل مع تكريم ممنونتي بجمعكم في كل ان  
ومكان وتبليغ الراي وتوقير المحرم اخوتيتكم في محباتكم كذا بديع والرفق بكم سرور من اهدى  
١٥

الورد الغالي التحية وبإشارة عدلها ومساواتها وأخويتها حكمت ( كذا )  
أرسطوطاليس الجامعة لاصناف المحاسن واشتاتها . فحصلت مخلصكم  
على سرور ربما لا يدرك ، أولا لسروريتي بها اذا احتسبت ذاتي كمن  
اكتشف كنوز العالم . وثانيا لمصادفت ( كذا ) ورودها ماكنت أتأمله في  
احسانات الخلق سبحانه وتعالى لان الامر الذي ترغبونه حضرتكم من اتحاد  
أفكاري مع أفكاركم الجليل ( كذا ) لأحتسبه الا نعمة من انعامات الخالق  
افتقرني بها موهبة خصوصية بغير مشقة بتة فله الحمد على ذلك ولي  
كمال السعد والسرور اذا قبلتم مني ذلك لانني أتأكد وأحقق أن مسراتكم  
حسنة وأفكاركم مستقيمة . ليس بشهادة أعدل من ميلكم نحوي عندما  
سمعتكم اكرائي باخواني في البشرية ومساعدتي لهم عند تلك القومة البربرية .  
وأى شرف يفوق محبة الانسان الانسانية وهل اذا لم تجد ( كذا ) المحبة  
فيما نكون ذووا ( كذا ) دين قويم حاشا . ان المحبة الاساس الوحيد  
والله اله الكل فيجب نحب ( كذا ) الكل . فالآن أقدم لجمعيتكم الفايقة  
الكمال كتابي هذا لغايات ثلاث هم ( كذا ) أجل مرغوبي أولهم ( كذا )  
اظهار ممنونيتي لحضراتكم على ما افتقدتموني به من هذا الوسم المبارك  
الذي حصلت عليه بدون استحقاق ( الا اذا كان لسو محبتي لجمعيتكم  
وميلي الخصوصي لافرادكم واجمالكم ) لان قيمته عندي أفضل من التاج  
الذي كان يتزين به الاسكندر ابن فيلفوس الرومي ولذلك قبلته بفرح  
وتوقير فايق الحد . ثانيا لتكون رغبتني محققة عند حضراتكم باقتبال  
أخوية المحبة واشتراك الرأي بعموم ترتيباتكم العظيمة لاني مستعد أن  
أكون غيورا بها ومتى عرفتموني عهدوها والارتباط بها سأكون على ما  
افهمتموني حضراتكم من الاساسات محافظا جدا واحتسب ذاتي سعيدا  
متى وجدت واحدا من عمالكم الغيورين بنوع أوفر مما تظنونه بي . ثالثا  
لتدوم من الان فصاعدا وسایل الوداد بيننا غير منقطعة لاني مستعد لكما  
( كذا ) يخطر بآرائكم الحميدة مكملها كلما تبتغيه مني قوانين محبتكم بكل  
سرور غب معرفتي مايلزمي اجراه ( كذا ) لاتمام مقصودي . هذا مع  
تكرير ممنونيتي لجمعيتكم في كل آن ومكان وتبليغ اكرامي وتوقيري لعموم  
أخويتكم من الجهات الاربع والله تعالى يحفظكم مسرورين آمين .

في ١٥ آب ١٢٧٧ (٥٨)

**المحب المخلص السيد عبد القادر**

بن محيي الدين ( ثم ختمه )

## الوثيقة رقم ١٠

من دمشق الشام (٥٩) في ١٠ آب ١٨٦٤

الى جناب الاجلاء الكرام حضرات لوج هنري الرابع الفخام حفظ  
الله تعالى وجودهم وبلغهم أقصى مرادهم آمين . نحب اهداء حضراتكم  
أشواق ( كذا ) لامزيد عليها وتحيات فوادية سنية لاتعداد لها مقرونة  
بالسؤال عن خواطركم الجليلة الفخيمة أبدى ( كذا ) لقد وصلني كتابكم  
العزيز عندي وفرحت به كما فرحت بالتهنئة الصادرة من ذوات اجلاء واني  
عرفت أن أساس هذه الجمعية الشريفة هو جلب النفع لعباد الله تعالى  
ودفع الضر عنهم والسلوك على مقتضى الانسانية والاخوة البشرية وهذا  
مراد الله تعالى من جميع عبادته وأمر بذلك على السنة رسله مهنتاً لمن  
عرف هذه الحكمة العظيمة وعمل بمقتضاها واني ارى نفسي سعيدة حيث  
أكون ممن قام بهذا الشرف العزيز وهانا أنتظر لافاداتكم العظيمة النفع  
لتكون ضوعاً ومرشداً لي أتوصل بها الى اتمام المقصد العظيم الذي قصدته  
باندراسي باخويتكم المحبوبة الذي أسأل الله تعالى أن يشيد أركانها ويكون  
حافظاً لها وحامياً ومن صميم القلب أهدي حضراتكم أوفر التحية  
راجيا عدم براحي من البال المنير والسلام في البدء والختام .

١ جمادى الاولى ١٢٨١ (٦٠)

المخلص عبد القادر بن محيي الدين  
الحسني

## الوثيقة رقم ١١

الحمد لله وحده (٦١)

أيها السادات الاجلة والهدات ( كذا ) الادلة جمعية الفرسمون  
خصوصاً المفضل المقدم في خلوة هنري الرابع أنه وصلني كتابكم وشوقني  
خطابكم ولا أقدر أصف ما حصل عندي من السرور بوروده واني أجيبكم  
باختصار حسب ترجمة المترجم لمكتوبكم وما أدري هل الترجمة موافقة  
لمرادكم أم لا ؟ .

أما قولكم ماهو الواجب على الانسان لحق الله فجوابه أنه يجب على  
الانسان أن يعظم الله تعالى ويحبه ويسعى فيما يرضيه ويقرب اليه  
ويتخلق باخلاقه تعالى مثل الرحمة والمغفرة والستر والعطاء والعلم والعدل  
واللطف وأمثالها وان يقتدى به في أفعاله ويجد في تنفيذ ارادته ويسلم



لامره ويرضى باحكامه ويصبر لبلائه انه لا يقدر على رفع ما وضع غيره تعالى وان يتحقق أن كل نعمة هو فيها هي منه تعالى وحده لا شريك له في خلقها .  
 واما قولكم ما هو الواجب على الانسانية لحق أقرانه . فجوابه انه يجب عليه نصحهم بارشادهم الى مصالح دنياهم وأخراهم وعونهم على ذلك بتعليم الجاهل وتنبيه الغافل والذب عنهم وعن اعراضهم وتوقير كبيرهم ورحمة صغيرهم وقضاء حوائجهم وترك حسدهم وجلب النفع اليهم ودفع الضر عنهم وجميع الشرائع تدور على أصليين الاول تعظيم أمر الله والثاني الشفقة على خلق الله تعالى ويجب عليه مع هذا ان يرا ( كذا ) نفوسهم ونفسه من أصل واحد وانه لا فرق بين نفسه ونفوسهم الا باختلاف الملابس والمظاهر لان النفس الكلية المنبعثة عن الروح كانبعاث حواء من ادم اصل نفوس الكل وهو مادة لاتعدد والتعدد انما هو في ملابسها التي تظهر بها وصورها التي تتجلى بها وذلك ان الاجسام بيوت مظلمة وأقطار سوداء فاذا غشيتها أنوار النفس الكلية أضاءت واشرقت بالانوار المفاضة منها كالاماكن اذا غشيتها نور الشمس أضاءت ونور الشمس واحد لاتعدد فيه وقرص الشمس واحد وهو ذاتها غير أن نور الشمس لما صدر عنها أضاءت الاماكن المتعددة به فتعدد بتعددتها فالتعدد من جهة الاماكن لا من جهة النور على ما هو عليه لا يتغير والشمس كذلك والنور الذي بالشام غير النور الذي بافرانسا ضرورة فليس النفس واحدة في مظاهرها فالتعدد للمظاهر لا للظاهر كما ظهرت مراتب العدد وتعددت بالواحد من الاحاد والعشرات والمئات والالوف لان كل مرتبة من مراتب العدد ليست غير الواحد الظاهر بها لان الاثنين مثلا ليس الا واحدا وواحدا اجتماعا فحصل الاثنان فليس فيه سوى الواحد المتكرر وكذا سائر مراتب الاعداد الى غير نهاية فمراتب الاعداد كلها تفاضل لحوال الواحد وهي كثيرة وهو واحد .

مثال آخر : النفس الكلية مثل مركز الدائرة والنفوس الجزئية مثل الدائرة والدائرة كلها خطوط ونقط متصلة بعضها ببعض فنقطة مركز الدائرة تقابل كل نقطة من نقط الدائرة بكلها وبكل نقطة من نقط الدائرة هي عين نقطة المركز باعتبار انفرادها ومقابلتها اياها فهي محيطة بكل نقطة من هذا الوجه ولهذا صح للانسان أن يحب ذاته في غيره .

وأما قولكم ما الواجب على الانسان نحو نفسه فالجواب انه يجب عليه أن يزكيها ويطهرها من كل رذيلة ويزينها باكتساب كل فضيلة والفضائل وان كانت كثيرة فهي ترجع الى اربعة أصول فاذا حصلت هذه



الاصول واعتدلت حصلت جميع الفضائل . وهي قوة العلم وقوة الغضب وقوة الشهوة وقوة العدل بين هذه الثلاثة :

\* أما قوة العلم فاعتدالها وصلاحتها في أن تصير بحيث يحصل بها درك الفرق بين الصدق والكذب في الاقوال ، وبين الحق والباطل في الاعتقادات وبين الجميل والقبيح في الافعال . فاذا اعتدلت قوة العلم حصلت منها ثمرة الحكمة ، فالحكمة رأس الفضائل .

\* وأما قوة الغضب فاعتدالها هو أن يصير انقباضها وانبساطها على حد ما تقتضيه الحكمة .

\* وكذلك الشهوة اعتدالها هو ان تكون تحت اشارة الحكمة اعني اشارة العقل والشرع .

\* وأما قوة العدل فهو ضبط الشهوة والغضب تحت اشارة العقل والشرع فاعتدال القوة الغضبية هو المعبر عنه بالشجاعة فاذا زادت على الاعتدال سميت تهورا واذا نقصت عن الاعتدال سميت جبنا وضعفا وكلاهما مذموم . واعتدال القوة الشهوانية هو المعبر عنه بالعفة ، فاذا زادت على الاعتدال سميت شرها وتكالبا واذا نقصت سميت جمودا وكلاهما مذموم . واعتدال قوة العلم هو المعبر عنه بالحكمة فاذا زادت على الاعتدال وصار صاحبها يستعملها في اخداع الناس والمكر بهم سميت خبثا ومكرا ، وان نقصت سميت جهلا وكلاهما مذموم . وأما العدل فهو حالة وقوة يسوس بها الغضب والشهوة ويحملها على مقتضى الحكمة .

ويجب عليه مع هذا نحو نفسه ان يراعي حق الجسم الذي هو من عالم الكون والفساد فانه يطالبه بأنواع المحسوسات من الطعام والمشرب والملبس والمنكح لان الجسم لم يخلق عبثا لغير فائدة ولا قرنت النفس بتدبيره لامر باطل ولان النفس لما تعلق بتدبير الجسم غمرتها ظلمة الطبيعة فاحتاجت الى الحواس لتكتسب بها العلوم والمعارف فلا بد من السعي فيما يصلح الجسم واستعمال الاشياء التي جعلها الله سببا لبقاء هذا الجسم وحواسه ، فان اهمال الجسم بالكلية وتعريضه للهلاك من اكبر الخطايا وفيه اعتراض لخالفه ومضاددة لحكمته تعالى .

أما عدم موت النفس فهو مما تطابقت عليه العقول والشرع المنقول لان الموت فساد واضمحلال والفساد انما هو صفات الاجسام فان تخلع

صورة وتلبس أخرى مثل الماء اذا صار هواء والهواء اذا صار ماء والنبات اذا صار ترابا والتراب اذا صار نباتا . وأما الشيء الذي ليس بجسم ولا هو محتاج في بقائه الى جسم فلا يتصور فسادة والنفس ما هي جسم ولا عرض ولا تتجزى ( كذا ) ولا تتحيز ولا هي في جهة ولا في مكان ولا توصف بشيء من أوصاف الاجسام ولا تدرك بشيء من الحواس ولا يتوصل الى معرفتها بشيء سواها فهي المعالم والمعلوم والعلم لا تباين في شيء من ذلك اذ التباين من صفات الاجسام والنفس جوهر روحاني غير مركب وما ليس بمركب لا يموت ولا يفنى . فالنفس لا تفنى والروحاني لا يدخل تحت الزمان وما لا يدخل تحت الزمان لا يتغير فالنفس لا تتغير .

\* وأما كون جميع أجناس البشر متساوون ( كذا ) أمام الله فجوابه أما من جهة وجودهم وحقيقتهم التي هم بها بشر فقد قدمت انهم متساوون في ذلك وان حقيقتهم واحدة وان تعددت ملابس تلك الحقيقة وصورها واسماؤها مثل الحقيقة البياضية في الثوب والجوهر والكاغد والدقيق والسمن فان البياض حقيقة واحدة ظهرت في الكاغد ظهورها في الجوهر من غير أن يتصف البياض بأنه جزء منه فيه . وكذا العودية في الخشب والمنبر والتابوت والكرسي ونحو ذلك من الحقائق . وأما كون جميع أجناس البشر متساوون ( كذا ) أمام الله بالنسبة الى رضاه وفضبه فلا - اذ العقول والشرائع قاضية بأنه لا يتساوى الامام الصادق والخائن الكاذب ولا يكون صاحب الرذائل مساويا لصاحب الفضائل ولا يكون الذي يغصب أحوال الضعفاء والفقراء والايتام ويتلف نفوسهم مثل الذي يواسيهم بماله ويسعى في حياتهم فلا تتساوى النفوس أمام الله في المجازات ( كذا ) لان النفوس على أربع مراتب : الاولى النفوس الفائزة بالمطالب العقلية من معرفة الصانع والوقوف على حقائق الاشياء بحسب الطاقة البشرية ، ثانياها : النفوس التي ترسم فيها المطالب ولا اضدادها وهم في سعة من رحمة الله ومرتبتهم أحط . ثالثها : النفوس الجاهلة التي ارتسمت فيها اضداد المطالب الحقبة المطالبة لما في نفس الامر لکن ( كذا ) لا تكون راسخة فيها بل تزول بسبب من الاسباب فيحصل لها ما حصل لمن قبلهم من الرحمة . رابعها : النفوس الشقية وهم الذين انتقشت

نفوسهم بالصور المضادة للأمور الحقّة وتكون راسخة لا تزول بسبب من  
الاسباب ونفوس هذه المرتبة هالكة ونسبة النفوس المختلفة الى النفس  
الكلية كنسبة ولات ( كذا ) الامصار الى الامام الاعظم . ولذلك يثابون اذا  
عدلوا في الرعايا ويعاقبون اذا جاروا وهذا مثال للنفوس المولات ( كذا )  
على الاجسام الادمية الحاكمة على الحواس من قبل النفس الكلية التي هي  
نفس النفوس والعقاب والثواب وقت عزل الامام لهاؤلاء ( كذا ) الحكام  
بالموت ومع هذا فان النفوس لشرفها تلحقها رحمة الله بعد نفوذ ( كذا )  
الغضب الالهي فيمن أراد الله عقابه فالنفوس والا شقيت بدخول النار  
فهو كما تشقى في الدنيا بالامراض والعلل والهموم وتزول عنها فان ذلك  
غير مؤثر في شرفها اذا كانت من العالم الاشراف فان الله يعاملها بما يقتضيه  
شرفها . فكما ان الاصل يجمعها كذلك الرحمة تجمعها وتصير النفوس  
كلها الى خير ونعيم .

قولكم كيف تفهمون ابراء التحمل والاخوية انا نعلم ان الله تعالى ما  
خلق هذا الخلق عبثا لغير شيء لانه حكيم لا يعمل شيئا لغير فائدة ولا  
خلقهم ليأكلوا ويشربوا ويتمتعوا ويعمروا دار الدنيا فقط لانه لو خلقهم  
لهذا لا غير ما نقلهم عن هذه الدار ولأبقاهم في الدنيا دائما . فلا شك أنه  
خلقهم لامر آخر هو المقصود بالذات وما سواه وسائل اليه فالمقصود من  
خلق الله هذا الخلق هو أن يعرفوه بصفاته التي دلت عليها مصنوعاته فان  
كل مصنوع لا بد ان يكون لصانعه صفة العلم بالشيء المصنوع وأن تكون  
له قدرة على صنعه وان يكون حيا لان العلم والقدرة لا تكون لمن لا حياة  
له فاذا عرفوه بصفاته وكمالاته لزمهم أن يذلوا ويخضعوا له والخضوع  
هو العبادة والعبادة تكون بالقلوب بالعلوم والمعارف وبالابدان وبالاموال  
كالصدقات والخلق كلهم عابدون لله ومريدون التقرب اليه ، ولاكن ( كذا )  
منهم من اهتدى واصاب المقصود ومنهم من ضل وأخطأ المقصود لان الله  
تعالى موصوف بالصفات المتضادة فهو المنعم وهو المنتقم وهو المذل وهو  
المعز وهو المعطي وهو المانع وهو المذل وهو المهدي ( كذا ) الى غير ذلك  
من الاضداد ولا تبقى صفة من صفاته معطلة من غير أن يظهر في العالم  
اثرها .

فلا شك ان في العالم من ضل وأخطأ الصواب وفي العالم من اهتدى  
وأصاب الصواب . وكما أن في العالم عزيز وذليل وغني وفقير ومنعم عليه  
ومتنعم منه ونحو ذلك وان كل العالم عابد لله وخاضع له بمعنى انه يجري

في افعاله على ارادة الله به فكل شىء في الوجود مطيع لله من هذا الوجه ،  
 والملل والديانات لا تتناها ( كذا ) لكثرتها ولكن اصولها عشرة : وهم الكفار  
 والطبايعيون والفلاسفة والشنوية والمجوس والدهرية والبراهمة واليهود  
 والنصارى والمسلمون فمدار الجميع على هذه العشرة ملل . وما ثم طائفة  
 من هذه الطوائف الا وقد خلق الله منها ناسا للجنة وناسا للنار لان الكفار  
 في الزمان المتقدم من النواحي التي لم تصل اليها دعوة الرسول في ذلك  
 الوقت منقسمون بين عامل خير جزاؤه عند الله الجنة وعامل شر جزاؤه  
 عند الله النار وكذلك أهل الكتب من اليهود والنصارى والمسلمين ، فالخير  
 قبل نزول الشرائع وارسال الرسل ما قبلته القلوب وأحبته النفوس  
 واستلذت به الارواح ، وبعد ارسال الرسل ونزول الشرائع ما أمر الله  
 به عباده بواسطة الرسل . والشرايع قبل ارسال الرسل ونزول الشرائع ما  
 مجته القلوب وكرهته النفوس وتألمت به الارواح . وبعد ارسال الرسل  
 ما نهى الله عنه عباده بواسطة الرسول . وذلك ان كمال حال الانسان في  
 ان يعرف الحق لذاته ويعرف الخير للعمل به . اعني أن تصير قوته النظرية  
 كاملة بحيث تتجلى منها صور الاشياء وحقائقها تجليا كاملا مبرءا ( كذا )  
 عن الخطأ والزلل ، وان تصير قوته العملية كاملة بحيث يحصل لصاحبها  
 ملكة يقتدر بها على الاعمال الخيرية الصالحة . والمراد من الاعمال الخيرية  
 الاحوال التي توجب النفرة عن العادات البدنية وتوجب الرغبة في عالم  
 الروحانيات . فلا سعادة للانسان الا بالوصول الى هاتين الجاليتين .  
 والناس ينقسمون الى ثلاثة أقسام : أحدها الذين يكونون ناقصين في هذه  
 المعارف وهذه الاعمال ، وهم عامة الخلق وجمهورهم . ثانيها الذين يكونون  
 كاملين في هذين المقامين الا أنهم لا يقدرون على علاج الناقصين وهم الحكماء  
 ( كذا ) ثالثها الذين يكونون كاملين في هذين المقامين ويقدرون على معالجة  
 الناقصين ويمكنهم السعي في نقل الناقصين من حضيض النقصان الى  
 أوج الكمال وهاؤلاء ( كذا ) هم الرسل . فيلزم الانسان ان يعرف أولا الحق  
 والصدق في الاعتقادات ما هو وان الصواب في الاعمال ما هو ، فاذا عرف  
 ذلك ثم رءا ( كذا ) انسانا يدعو الخلق الى الحق ورءا ( كذا ) أثرا قويا  
 لقوله في صدق الخلق من الباطل الى الحق عرف أنه رسول صادق واجب  
 الاتباع . والرسل لا يأتون قط بشىء يخالف العقول السليمة ولاكن ( كذا )  
 ربما يأتون بشىء لا تصل العقول الى ادراكه فاذا بينه الرسول أدركته  
 العقول واستحسنته . وذلك لان طور الرسالة فوق طور العقل ، كما أن

طور سن التمييز فوق طور سن الصبا فاجراء التحمل هو أن لا يتعرض لصاحب دين ويجبر على ترك دينه ونقض اعتقاده بالسيف والقهر .  
وجميع الشرائع الحققة جاءت بهذا سواء دين الاسلام وغيره . والجهال من المسلمين وغيرهم يظنون ان المسلمين اذا الاسلام فهو خطأ فان شريعة الاسلام لا تجبر احدا على ترك دينه ولاكن ( كذا ) يجب على من عرف الحق في الاعتقاد والصواب في الاعمال ورءا ( كذا ) مخطأ ضال ( كذا ) عن الصواب أن يرده برفق وسياسة ويبين له الطريق بالبراهين والادلة التي تدركها العقول وهذا من باب جلب النفع ودفع الضر عن الاخوان بل هو أعظمها . وأما الوصية فما فهمت المراد بها فترجوكم الاعلام بذلك .  
والفقراء عندنا كثيرون والذي يلتفت اليهم كاد ان يكون معدوما . ونحن والحمد لله فاعلون معهم غاية طاقتنا والسلام .

منتصف ربيع الثاني

**الفقير الى مولاه . . . . عبد القادر  
بن محيي الدين . . .**

## حواشي

- (١) قدمت هذه الدراسة بادىء الامر في المؤتمر الدولي الثاني لبلاد الشام (١٥١٦-١٩٣٩) المنعقد بدمشق من ٢٧ نوفمبر الى ٣ ديسمبر ١٩٧٨ . غير ان اكتشافنا لوثناسق جديدة جعلنا نعيد كتابة بعض فقراتها من جديد لتقدم باللغة الفرنسية في مؤتمر الاسبوع العالمي للدراسات المتوسطة والحديثة للبحر الابيض المتوسط المنعقد في معهد الدراسات الافريقية والشرقية بجامعة كاليري بصرانيا ( ايطاليا ) . ولايقوتنا ان تقدم شكرنا الى الاستاذ محمد المنوني الذي مكننا من احدى رسائل الامير من وثائق الخزانة الملكية بالرباط وادارة المكتبة الوطنية بالجزائر التي اتاحت له الفرصة لدراسة بعض الوثائق المتعلقة بالامير وكذلك الاستاذ زافيسي ياكونو ( Xavier Yacono ) الذي مدنا بنسخ من رسائل الامير لدى انتمائه الى البنائين الاحرار ( Franc-Maçonnerie ) واليهم جميعا تقديرنا وشكرنا .
- (٢) Paul Azan, L'Emir Abdelkader ( 1808 - 1883 ), Du fanatisme musulman au patriotisme français Paris, 1925, p. 240.
- يذكر أن قائمة البيبلوغرافيا التي أقامها بليفار ( Playfair ) سنة ١٨٨٦ والتي تضم ٧٧٦٣ مابين كتاب ونشرية أو مقال ، كان أكثر من ألف منها قد تناول الامير . ولاشك ان هاته النسبة التي تمثل ٧/١ قد تضاعفت بعد ذلك لتصبح خاصة بعد الاستقلال بكميات مهولة جدا لاتخضع للحصر .
- (٣) دار الخزانة الملكية بالرباط ، مخطوط رقم ٢٨٤٧ ، المكتبة الزيدانية . رسالة من الامير الى سيدي محمد بن أحمد البوحميدي بتاريخ ١٠ ذي القعدة ١٢٦٤ ( ١٨٤٨/١٠/٨ ) . راجع نص هذه الرسالة الوثيقة رقم ١ المنشورة أسفل هذه الدراسة .
- (٤) انظر مجموع الرسائل وعددها ١٤٢ ، والتي نشرناها :
- « Lettres inédites de l'Emir Abdelkader », in Revue d'Histoire Maghrebine, n° 10-11, p. 159-201, et n° 12, pp. 308-343, Tunis, 1978.
- (٥) الجنرال ازان ، نفس المصدر .
- (٦) راجع دراستنا ، نفس المصدر ، رسالة رقم ١٠٤ ، ص ٣٢٠ .
- (٧) المصدر نفسه ، رسالة رقم ١١٠ ، ص ٣٢٢ . انظر أيضا :
- شارل هنري تشرشل ، حياة الامير عبد القادر ، ترجمة وتقديم أبو القاسم سعد الله ، تونس ، ١٩٧٤ ، ص ٢٧٧ ، يذكر : « أنه لم يدخل دمشق عربي على هذا النحو منذ صلاح الدين الايوبي » .

(٨) لاعطاء فكرة تقريبية لما يتقاضاه الامير في ذلك الوقت بالقيمة الحالية اليوم ، وحسب ما ذكره زميلنا جون لوي مياج ( Jean Louis Miège ) في محاضرة عن البحارة الايطاليين من ان راتب صياد المرجان السنوي ، سنة ١٨٦٣ بلغ ٢٥٠ فرنكا فرنسيا ومعنى هذا ان الامير كان يتقاضى ٦٠٠ مرة قدر صياد المرجان اذا كان راتبه ١٥٠.٠٠٠ و ١٢٠.٠٠٠ مرة اذا كان راتبه السنوي ٣٠٠.٠٠٠ فرنكا فرنسيا .  
ولتقريب هذا المبلغ الى اذهاننا اليوم وعلى ضوء المناقشة التي أجريتها مع زميلنا الاستاذ مياج ، فانه وجب ضرب ذلك المبلغ ب ١٠٠٠ للحصول على قيمة تقريبية ، ويكون لدينا بذلك :

$$١٥٠.٠٠٠ \times ١٠٠٠ = ١٥٠.٠٠٠.٠٠٠ \text{ أو}$$

$٣٠٠.٠٠٠ \times ١٠٠٠ = ٣٠٠.٠٠٠.٠٠٠$  وهذا يعني ان الامير كان يتقاضى ١٥٠ مليون فرنك فرنسي قديم أي ١٢ مليون كل شهر اذا كان راتبه السنوي ١٥٠.٠٠٠ ألف أو ٢٤ مليون فرنك فرنسي قديم اذا كان راتبه ٣٠٠.٠٠٠ .

(٩) كانت الحكومة العثمانية قد وعدت الامير بشراء منزل له ببروسة : « واستقراره بها بطريقة لائقة . وبعد تدخلات عديدة من طرف البارون روسو ، قنصل فرنسا قامت الدولة العثمانية بانجاز هذا الوعد ، وقد قام القنصل حتى بتأثيث جزء من هذا البيت » راجع لذلك :  
Commandant Pichon, Abdelkader, sa jeunesse, p. 144, Paris, S. d.

A. E., Turquie, Damas, 1855-1856, n° 3, 1853-1855

(١٠)

ارشيف الخارجية الفرنسية بباريس ، راجع نص الرسالة باللغة العربية ، الوثيقة رقم ٢ ، المنشورة اثر هذه الدراسة .

A. E., Turquie, Damas, Vol. 5.

(١١)

تقرير القنصل الفرنسي بدمشق ماكس أوتراي ( Max Outrey ) الى وزير الخارجية الفرنسية بتاريخ ١٠/١١/١٨٥٧ .

(١٢) أرشيف الغرفة التجارية بمرسيليا .

Archives de la Chambre de Commerce de Marseille, A.C.C.M., L. XI.21.

الكنش السادس . توجد هذه الرسالة باللغة العربية ، هذا وكنا قد نشرناها باللغة الفرنسية في دراستنا السالفة الذكر ، نفس المصدر ، الرسالة رقم ١٣١ ، ص ٣٢٩ ، راجع نص هذه الرسالة كامل باللغة العربية ، الوثيقة رقم ٣ ، المنشورة اثر هذه الدراسة .

وقد نبه القنصل الفرنسي بدمشق الامير ، على اثر طلب هذه المساعدة من خديوي سعيد انه « وجب عليه عدم التظاهر بالتشكي من الرواتب التي يتحصل عليها من فرنسا ،

وأنه على العكس من ذلك وجب التصريح عاليا ، بسخاء وكرم الامبراطور نابوليون .  
ونظرا لسهولة فهم هذه الملاحظة ، فإنها قد احترمت بامانة . ويؤسفني ان أضيف الى  
هذا ، ان الامير مازال ينتظر نتيجة مسعاه لامتلاك ارض ذات قيمة بضواحي دمشق » .  
راجع هذا التقرير :

A. E., Turquie, Damas, Vol. 3, 1853-1855 :

تقرير موجه الى وزير الخارجية الفرنسية بتاريخ ١٤/١٢/١٨٥٥ .

(١٣) المكتبة الوطنية بالجزائر ، ملف الامير عبد القادر ، بدون ترقيم ، راجع النص الكامل  
لوثيقة رقم ٤ المنشورة اثر هاته الدراسة .

(١٤) المصدر نفسه ، راجع النص الكامل للوثيقة رقم ٥ المنشورة اثر هاته الدراسة .

(١٥) ارشيف الدولة التونسية ، ملف رقم ٩٢٩ ، وثيقة رقم ٧ . راجع النص الكامل لهذه  
الرسالة الوثيقة رقم ٦ المنشورة اثر هذه الدراسة .

A. E., Turquie, Damas, Vol. 4.

(١٦)

تقرير من بولاد ( Bullad ) الى وزارته بتاريخ ٣٠/٨/١٨٥٧ ، راجع هذا التقرير  
الذي نشرنا نصه الفرنسي في دراستنا السابقة الذكر ، التقرير رقم ٢ ، ص ٣٤٠ .  
راجع أيضا رسالة القنصل ماكس أوتراي الى وزير الخارجية الفرنسية بتاريخ  
١٠/١٠/١٨٥٦ وحيث ذكر : « ان الامير من جهته أظهر كثيرا من الكبرياء ، وأنه والحق  
يقال لا يعرف كيف يتصرف في المداخل التي يتمتع بها . ان الامير يعيش بتقتير  
ويستعمل كل مداخله لارضاء شهوات حرمه الذي سيطر كليا كما يبدو على كل  
ملكاته » .

(١٧) الامير محمد بن عبد القادر الجزائري ، تحفة الزاهر في تاريخ الامير عبد القادر ، شرح  
وتعليق الدكتور ممدوح حقي ، ص ٦٢٢ ، دار البقطة العربية للتأليف والترجمة  
والنشر ، بيروت ، ١٩٦٤ ، الطبعة الثانية .

A. E., Turquie, Damas, Vol. 4.

(١٨)

راجع دراستنا ، نفس المصدر ، المجلة التاريخية المغربية، عدد ١٢ ، القسم الفرنسي،  
ص ٣٢٦ - ٣٢٨ .

(١٨ مكرر)

B. Poujoulat, La vérité sur la Syrie et l'expédition française, Paris,  
1861, p. 436.

A. E., Turquie, Damas, Vol. 4.

(١٩)

لقد كتب بولاد بشأن ذلك الى وزارته : « لقد بينت للامير خطأ موقفه، وعندما استعملت



كل صيغ الاقناع بحديثي له كصديق ، ثم كمستشار وهذا لفائدته الشخصية، لاحظت له مدى الاثر السيء الذي سيسببه عناده الذي هو في غير محله » .  
A. E., Turquie, Damas , Vol. 4. (٢٠)

تقرير بولاد بتاريخ ١٨٥٧/٥/٢٤ .  
Marcel Emerit , « La crise syrienne et l'expansion économique Française en 1860 », in Revue Historique, 1952, p. 216.

كان يعتقد أن هذا المترجم الذي انتدب من فرق الجيش الافريقية ، قد استدعى لوضع حد لمرافقته الامير في سنة ١٨٥٥ ، والصحيح أن ذلك تم ابتداء من شهر سبتمبر ١٨٥٧ .

A. E., Turquie, Damas, Vol. 5. (٢٢)

رسالة بتاريخ ١٨٥٧/١٠/٧ .

(٢٣) المصدر نفسه ، الدفتر رقم ٥ ، رسالة بتاريخ ١٨٦٠/٦/١٣ .

(٢٤) المصدر نفسه ، ملف رقم ٤ ، رسالة بتاريخ ١٨٥٧/٢/١٢ .

Marcel Emerit, op. cit., p. 215. (٢٥)

P. de la Gorce, Histoire du Second Empire, t. III, p. 322, Paris, 1895 (٢٦)

Marcel Emerit, op. cit. (٢٧)

(٢٨) المصدر نفسه .

Poujoulot, op. cit., pp. 428-429. (٢٩)

انظر أيضا ، ص ٤٣٦ من المصدر نفسه ، جواب العلماء والشيوخ على دعوة الامير هاته : « اننا لانسمع أقوالكم ، فهي بالنسبة الينا ، مشبوها فيها . وانك بعد ان أسلمت بلادكم الى الفرنسيين ، تريدون أيضا أن تسلموا بلادنا ... » .

(٣٠) يشرح مرسال أمري في دراسته السابقة الذكر ، ص ٢١٥ ان هؤلاء الجزائريين قد وصلوا دمشق باذن من الامير وان وزير الحربية الفرنسية قد سمح بتجنيد زمالة متركبة من ١٠٠٠ الى ١٢٠٠ من القبائل . راجع عكس هذه النظرية الدراسة التالية :  
Charles-Robert Ageron, « Abdelkader souverain d'un Royaume arabe d'Orient », in Revue de l'Occident Musulman et de la Méditerranée, numéro spécial, Aix, 1970, pp. 15 - 30.

رسالة بتاريخ ١٨٦٠/٦/١٩ . قارن أيضا :

Mairie d'aire, Abdelkader Quelques documentes nouveaux lus et approuvés par l'officier en mission auprès de l'Emir, Amiens, 1900, p. 209.

يذكر أن : « الامير توجه بالقول للانوس : لقد ذكرت لي : أين يوجد علم فرنسا ،

فهناك فرنسا ! فاحمل معك اذن علمك وثبتته على منزلي وليصبح منزل عبد القادر هو فرنسا . أما ( لانوس ) فقد اندهش لهذه الفكرة التي قبلها وفي الحال كان العلم المثلث يخفق فوق منزل عبد القادر » .

(٣٢) راجع بشأن هذا الموضوع دراستنا : « سياسة الباب العالي تجاه انتفاضة شرق الجزائر سنة ١٨٧١ » في كتابنا : بحوث ووثائق في التاريخ المغربي ، تونس ، الجزائر وليبيا من ١٨١٦ الى ١٨٧١ ، ص ١٠٣ ، وعلى الخصوص رسالة الامير الموجهة الى قنصل فرنسا بطرابلس يطلبه السعي الى ارجاع ابنه الى دمشق .  
راجع أيضا :

Dr F. Arnoulet, « Evénements en Tunisie durant les troubles Algériens de 1871 », in Etudes d'Histoire contemporaine tunisienne, 1846-1871 in, Institut d'Histoire d'Outre-Mer, n° 5, Aix, mars 1973.

(٣٣) وقد رد الامير برسالة شكر لنابليون . راجع الوثيقة رقم ٧ ، المنشورة اثر هاتاه الدراسة .

(٣٤) راجع الوثيقة رقم ٨ المنشورة اثر هاتاه الدراسة والتي أثبتنا فيها قوائم الاشخاص الذين شملتهم هذه الاكرامات والاوزمة والمكافات .

(٣٥) راجع دراسة الاستاذ زافيي ياكونو حول خلفيات انضمام الامير الى هذه المنظمة .  
Xavier Yacono, « Abdelkader, franc-maçon », in, Humanisme, numéro spécial, Histoire Maçonnique, n° 57, mai-juin, 1966, pp. 5-37.

ان قارىء هذه الدراسة العلمية والتي حرصت على استعراض الواجه التاريخية بهذا الموضوع ، لن يعتره أي شك في اقتناع الامير باهمية المبادئ الانسانية لهذه المنظمة . الم يقل الامير ص ٢٨ ، من نفس هذه الدراسة : « اني أعتبر ( منظمة ) البنائين الاحرار كأول مؤسسة في العالم . وفي رأبي ان كل رجل لا يجاهر بالعقيدة البنائية ، يعد رجلا ناقصا وأؤمل يوما أن أرى فيه انتشار مبادئ الفرنسماسونية في العالم . ويومئذ فان كل شعوب العالم ستعيش في سلام وأخوة .. »

اننا نشكر جزيل الشكر الاستاذ زافيي ياكونو عندما تفضل ومكنا من ارسال نسخ الرسائل التي حررها الامير الى هاتاه المنظمة ، وهي تنشر لأول مرة باللغة العربية ، الوثائق رقم ٩ و ١٠ و ١١ ، المنشورة اثر هاتاه الدراسة .

(٣٦) ان هدف المؤرخ الاسمى هو قبل كل شيء الصدع بارائه المستمدة من الوثائق التاريخية المجردة وعدم التراجع للاعلان عنها ، مهما كانت مرارتها وصعوبتها واستحالة قبولها . والواقع ان تصورنا التاريخي لمختلف الشخصيات المغربية خلال العصر الحديث والمعاصر

كان من عمل المدرسة التاريخية الفرنسية . فقد ورثنا عنها احترام وتقديس البعض في حين تم تشويه وطمس وتحقير البعض الآخر . والمدرسة التاريخية المغربية يجب عليها أن تتصدى لهذا العمل وتفرض رؤيتها الموضوعية بفضل نزاهتها وتحريها المطلق وتسلحها بالمنهج الاكاديمي التاريخي والمبني على قواعد ثابتة معروفة .

واننا لنأمل أن يركز على اظهار عشرات من الشخصيات الجزائرية كانت قد لعبت دورا مشرفا في العهد الاستعماري وأبت الا أن تقدم الموت على الحياة رافضة كل مساومة من أجل القيم التي تدافع عنها . وعلى الخصوص شخصية الحاج أحمد باي التي نعتبرها من أعظم الشخصيات الاصلية خلال العصر الحديث وليس فقط بالنسبة للمغرب العربي بل العالم العربي ، راجع لذلك كتابنا الجديد .

Le Beylik de Constantine et Hadj Ahmed Bey 1830 - 1837, publication de la Revue d'Histoire Maghrebine, Vol. 1, 303 p. + 24 planches, Tunis, 1978.

وكذلك الاعلام التالية : بوشوشة وناصر بن شهرة وفاطمة نسومر والحداد وغيرهم كثير . هل نأمل ان تثير هذه الدراسة المتواضعة شيئا من النقاش والجدل حول معطياتها وسأكون سعيدا لو انبرى غيري من الباحثين والمؤرخين على نفي أو تأكيد حقائقها ومواصلة البحث الذي يعتبر أول مبدأ للعاملين المخلصين لا الداعين والمهرجين وأصحاب الوطنيات الاقليمية . كما نأمل أيضا الرجوع الى شخصية الامير لنلقي عليها مزيدا من الاضواء وهذا على ضوء ماكشفتناه من وثائق جديدة .

(٣٧) نشر اذن هاته الوثائق التي كنا قد عثرنا عليها في عدد من دور الوثائق المغربية والاوربية، مؤملين أن تساعد المؤرخين في استجلاء الصورة الحقيقية لشخصية الامير وبعد استفادتنا منها في دراستنا أبقينا على النص كما هو ، تاركين دوما اصطلاح ( كذا ) لكل الجمل أو الكلمات التي كتبت خطأ في الاصل . ومن جهة أخرى لم نعمل على اثبات النصوص الفتوغرافية لكل وثيقة ، وهذا ما لانقدر عليه ، الا أننا أثبتنا اثنين منها ، مع الملاحظة اننا مستعدون في كل لحظة لتمكين الباحثين الذين يرغبون في الحصول على نسخ أصلية منها .

(٣٨) دار الخزانة الملكية بالرباط ، مخطوط رقم ٢٨٤٧ ، المكتبة الزيدانية .

De Iomoricrière

(٣٩)

١٨٤٧/١٢/١٨ (٤٠)

A. E., Turquie, Damas, n° 3, 1855 - 1856

(٤١)

رسالة من الامير الى وزير خارجية فرنسا بتاريخ ١٨٥٥/١٢/٢٦ .

- ( Thouvenel ) هو سفير فرنسا بالباب العالي (٤٢)
- (٤٣) من الكلمة الفرنسية *Ambassadeur* أي السفير .
- Archives de la Chambre de Commerce de Marseille, L. XI. 21, Cahier (٤٤)  
No. 6
- رسالة من الامير الى الجنرال دوماس ( Damas ) ، كما ارسل الامير نفس هذا  
المحتوى الى صديقه اسماعيل اربان ( Ismail Urbain ) راجع الرسائلين في  
الاصل المخطوط ص ١٩ و ٢٠ .
- (٤٥) ١٨٥٦/١١/٣٠ .
- (٤٦) المكتبة الوطنية بالجزائر ، ملف وثائق الامير عبد القادر ، بدون ترقيم .
- Colonel Boissonnet (٤٧)
- (٤٨) تاريخ السنة غير مذكور .
- (٤٩) المصدر نفسه ، دون ترقيم ، ودون تاريخ .
- (٥٠) ارشيف الدولة التونسية ، ملف رقم ٩٢٩ ، وثيقة رقم ٧ .
- (٥١) الوزير الاكبر التونسي يومئذ .
- (٥٢) ما بين ١٦ و ٢٦ مارس ١٨٥٧ .
- A. E., Turquie, Damas, n° 6, 1860 - 1861 (٥٣)
- رسالة من الامير الى نابوليون الثالث بعد اهداء هذا الاخير وسام الشرف الفرنسي  
الاكبر للامير .
- (٥٤) ١٨٦٠/٩/٢٩ .
- A. E., Turquie, Damas, n° 6, 1860-1861 (٥٥)
- (٥٦) لقد عثرنا على الرسالة التالية والتي وجهها الامير الى مصطفى خزندار ، الوزير الاكبر  
التونسي طالبا منه اهداء وسام الدولة التونسية من الصنف الثاني لسعيد القوتلي :  
الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم  
ان احق ماسطرته سوابق الافلام في ميادين الطروس وحاكته دقائق الافهام من المعاني  
التي تبتهجج بها النفوس رفع سلام تتحملة نسمات الصباء عاطرة الاردان ودعاء ترفعه  
الاكف بعد صدوره عن الجناب الى الملك المنان ببقاء حضرة مظهر الكرام التي اقامت  
له في الرقاب بلاد اشرف اباد صاحب المجد المؤئل الذي أعجز كل طالب ومرتاد فاضل  
الدهر بلامنازع وواحد العصر بغير مدافع سيادة الوزير الاكبر وامير الامراء الاشهر محبنا  
السيد مصطفى ذي الخلق الاعطر حرس الله ذاته العلية وجمل الوجود بطلعته البهية  
اما بعد فالذي ألقه على المسامع الكريمة وأنهيه الى الحضرة السنوية الفخمية ان  
بعض افاضل دمشق الشام وأحد أعيانها الكرام اسمه سعيد أفندي القوتلي كان

مند قدمنا الشام أقبل علينا اقبال محب صادق وتكفل بخدمتنا تكفل لبيب حاذق فالقينا اليه قياد أمورنا وقلدناه تنفيذ جميع شؤوننا وجعلناه لساننا في مخاطبة الوزراء والحكام وذريعتنا فيما يتعلق بمن يؤمنا من خاص وعام فسار في ذلك سير ناصح وجرى فيه جري ظافر وناجح ومن كمال احسانكم ووقور أفضالكم وامتنانكم ان تشرفوه بنيشان الدولة الصادقية السامية من الرتبة الثانية مطابقة لغيركم من الدول العظام والملوك الفخام فالدولة العلية انعمت عليه بالرتبة والنيشان وكذا دولة فرانس ودولة ايران وليكن احسانكم اليه وانعامكم عليه كاحسانكم لصدقه في خدمتنا ووفاء به في بصيحتنا واننا نعلم أنكم تحبون الاحسان الى من يحسن اليها ومجازاة من يخدمنا اعطاء لمحتنا حقها ولودتنا مستحقها فان محب الحبيب حبيب كما ان القريب قريب ووطننا في السيادة جميل ودمتم محفوظين وبعين رعاية الله ملحوظين والسلام الداعي المخلص عبد القادر الحسيني ( يلي ذلك ختم الامير ) في ٦ جمادى الثانية ١٨٩٠ ( ١٨٧٢/٨/١٢ ) . راجع هذه الوثيقة ب : ارشيف الدولة التونسية، ملف ٩٢٩ ، وثيقة رقم ٨٩ . والذي نستنتجه من ذكر سعيد القوتلي في كلا الوثيقتين اللتين حررتا بعد ١٢ سنة ، ان سعيد القوتلي قد لعب ، ولاشك دورا كبيرا في نوعية العلاقات الاجتماعية والفكرية والعلمية والسياسية التي كانت للامير . وهل من باحث يدرس المجتمع الدمشقي والامير عبد القادر في هذه الفترة ؟

(٥٧) هذه الوثيقة اعارني اياه الاستاذ ياكونو ، كما سبق الاشارة اليه ، ويبدو من دراسة الاستاذ انه اطلع عليها من الطبيب مالتات ( Dr. Malthète ) المقيم بباريس . راجع

الشكل رقم ١ .

(٥٨) ٢٦ فيفري ١٨٦١ .

(٥٩) نفس الوثيقة تحصلنا عليها من الاستاذ ياكونو ، وهو بدوره تحصل عليها من الحكيم مالتات .

(٦٠) ٢ اكتوبر ١٨٦٤ .

(٦١) تحصلنا على هاته الوثيقة من الاستاذ ياكونو ، وهي عبارة عن أجوبة الامير لجملة الاسئلة التي طرحتها عليه لوج هنري الرابع Loge Henri IV ، وقد حرصنا على نشر النص العربي لهاته الوثائق لانها تعكس جانبا أساسيا من تفكير وسلوك الامير بالشرق ، وانه واجب علينا القاء الاضواء على هذا الجانب الذي لم يجرؤ أحد الاهتمام به حتى يومنا هذا ، راجع الشكل رقم ٢ للصفحة الثالثة لرد الامير .

# قضية الحدود بين فلسطين ومصر

( ١٨٤٠ - ١٩١٧ )

وأثرها في جذور الصراع العربي الصهيوني  
دراسة وثائقية

دكتورة خيرية قاسمية

جامعة دمشق

تشير عدة مصادر عربية الى وثيقة تعرف باسم تقرير لجنة كامبل بانرمان ( نسبة الى السير كامبل بانرمان H. Campbell - Bannermen ) رئيس وزراء بريطانيا في عهد حكومة حزب الاحرار ( ١٩٠٥ - ١٩٠٧ ) في معرض الحديث عن الارتباط القديم بين مصالح الاستعمار والصهيونية . وتتلخص فكرتها في أن خبراء الاستعمار في بريطانيا والدول الاستعمارية الكبرى تدارسوا الخطر المهدد للاستعمار في المنطقة العربية وأوصوا للتغلب عليه بضرورة العمل على فصل الجزء الافريقي من هذه المنطقة عن جزئها الاسيوي ، وذلك باقامة حاجز بشري غريب في منطقة الجسر البري الذي يربط آسية وافريقيا بحيث يشكل في هذه المنطقة وعلى مقربة من قناة السويس قوة صديقة للاستعمار وعدوة للشعب العربي ساكن تلك المنطقة . والتقرير بحد ذاته خطير ، ولكن الذين يشيرون اليه من الكتاب العرب لايفصحون بوضوح عن مكان وجوده وكيفية أماكن الاطلاع عليه ، كذلك فان المراجع الاجنبية عن تاريخ القضية الفلسطينية أو الاستعمار البريطاني في منطقة الشرق العربي لاتشير الى هذا التقرير من بعيد أو قريب ، وعلى هذا فمن غير الممكن حتى هذه اللحظة الحكم بوجود التقرير أو عدمه بشكل حازم . لذلك لو ثبتت صحة هذه الوثيقة ففكرتها ليست جديدة كليا .

وهذا ما وجه البحث باتجاه تتبع تاريخي لقضية التقليد الطويل الذي يربط تحقيق الاماني الصهيونية بمقدرات الامبراطورية البريطانية في الشرق العربي وبالذات في منطقة الحدود المصرية الفلسطينية منذ

أن أصبحت المنطقة القريبة من السويس خلال القرن التاسع عشر الطريق الرئيسية للمواصلات بين بريطانيا وامبراطوريتها الشرقية ، وأخذت السياسة البريطانية تسعى بشتى الوسائل لحماية ذلك الطريق وابعاد أي نفوذ أوروبي آخر ، ووجد بذلك نوع من الانسجام المسبق بين مخططات السياسة الاستعمارية البريطانية ونوايا الاستيطان الصهيوني في فلسطين قبل أن يصل كامل بانرمان الى الوزارة .

تعود قضية الحدود بين مصر وفلسطين ، أو على الاصح بين الولايات التركية في بلاد الشام والاراضي المصرية في سيناء ، في العصر الحديث ، الى عهد محمد علي حين أجبرته القوى الدولية على التراجع عن بلاد الشام وتقررت حدود مصر في معاهدة لندن ١٨٤٠ وأبلغت الى محمد علي بفرمان التولية ١٨٤١ من السلطان محمود الثاني حيث ثبته على ولاية مصر بالحدود المرسومة على الخريطة الملحقة بالفرمان . ولا يعرف بالضبط ماهي الحدود المرسومة على تلك الخريطة ، اذ لم يوقف لها على أثر لافي مصر ولا في الاستانة ، ولكن المعروف أن شبه جزيرة سيناء كانت كلها ملحقة بولاية مصر من نقطة تبدأ شرقي العريش وتمتد على شكل خط مستقيم نحو الجنوب الشرقي لتضم بعض النقاط المحصنة في بلاد الحجاز على الساحل الشرقي من البحر الاحمر كقلعة العقبة وضبة والمويلح والوجه ، « لانها كانت تتولى ادارتها كلها وتحميها بعساكرها قبل الفرمان المذكور وذلك بغرض تأمين طريق الحج المصري » (١) . وكان لموقع سيناء والمناطق الواقعة على طرفيها أهمية كبرى . فهي تعتبر حلقة الوصل بين قارتي آسية وافريقيا ، تخترقها طرق مصر الى بلاد الشام وجزيرة العرب ، وعرفت مصر منذ القديم أهمية سيناء الاستراتيجية لكونها حصنا طبيعيا وممرا للجيوش الزاحفة ، وقد وضعتها تحت السلطة العسكرية وأنشأت فيها القلاع والحصون وأمدتها بالجنود لحماية حدودها الشرقية (٢) .

وبسبب وجود سيناء والمناطق الواقعة على طرفيها على طريق الهند فقد اكتسبت أهمية دولية ، وكانت حملة نابليون الى مصر بداية الصراع الدولي الحديث في هذه المنطقة . وهو في حلمه بمسيره عبر آسية نحو الهند لبناء امبراطورية شرقية وضرب المصالح البريطانية وجه نداء يدعو فيه اليهود في آسيا وافريقيا « للالتفاف حول رايته من أجل اعادة مملكة القدس القديمة » (٣) ولم يكن ذلك الا لان توطين اليهود في فلسطين قد أصبح يلعب دورا كبيرا في أمور السياسة الدولية العملية حتى قبل

أن توجد الحركة الصهيونية السياسية . وتكشف رسالة كتبها يهودي فرنسي عام ١٧٩٨ عن مدى الدعم الذي يمكن أن يقدمه اليهود للفرنسيين في الشرق لو تحقق انشاء وطن يهودي في المنطقة بقوله « . . ان عددنا يبلغ /٦/ ملايين في أقطار العالم . وفي حوزتنا ثروات طائلة . . فيجب أن نتوزع بكل مالدينا من وسائل لاستعادة بلادنا . . أما البلاد التي ننوي قبولها بالاتفاق مع فرنسا فهي اقليم الوجه البحري في مصر مع حفظ منطقة واسعة المدى يمتد خطها من عكا الى البحر الميت ومن جنوب هذا البحر الى البحر الاحمر ، فهذا المركز الملائم يجعلنا بواسطة سير الملاحاة الاتية من البحر الاحمر قابضين على ناحية تجارة الهند وبلاد العرب وافريقيا الجنوبية والشمالية واثيوبيا والحبشة ، ثم أن مجاورة حلب ودمشق لنا تسهل تجارتنا ، وموقع بلادنا على البحر المتوسط يمكننا من اقامة المواصلات بسهولة مع فرنسا واسبانيا » (٤) .

وقد تلاشى المشروع بمعارك عكا وأبي قير ، الا أن بريطانيا تحققت من أهمية هذه المنطقة بالنسبة لامبراطوريتها الشرقية ، فسعت بشتى الوسائل لابعاد أي نفوذ آخر عن تلك المنطقة بحجة حماية الطريق الذي تسلكه مصالحها الى الهند ، وهذا مادفعها الى مساندة الدولة العثمانية حين أحست بخطر جديد لمصالحها في الشرق مع ظهور قوة محمد علي .

أصبحت قضية الاشراف البريطاني على تلك المنطقة أمرا حيويا ، ووجدت بعض الدوائر البريطانية أن الحل هو ايجاد خطة لابعاد فلسطين من دائرة نفوذ أية قوة مهددة سواء من مصر أو خارجها ووضعها تحت الاشراف البريطاني نظرا لاهمية موقع فلسطين بالنسبة للمنطقة . . وقد عالج عدد من الكتاب والساسة البريطانيين ، من غيراليهود ، مسألة التوطين اليهودي كوسيلة لتحكم بريطانية في المسألة الشرقية وحماية طريق الهند ، وهذا مادفع بريطانيا الى أن تتبنى الفكرة الصهيونية قبل أن تتبناها أية منظمة صهيونية .

ومن أجل هذا الهدف دعمت بريطانيا مشاريع مونتفيوري Montefiore اليهودي البريطاني ، في مفاوضاته الاولى مع ابراهيم باشا من أجل استيطان زراعي في فلسطين (٥) . واتخذت دور حامية اليهود فسي الامبراطورية العثمانية - وفي فلسطين بالذات - تماما كما تدعى فرنسا حماية الكنيسة الكاثوليكية وروسيا الكنيسة الارثوذكسية ومن أجل هذا الهدف أنشأت قنصليتها في القدس ١٨٣٩ (٦) . ويظهر من تعليمات لورد



بالمرستون (Palmerston) وزير الخارجية الى الممثلين البريطانيين في الشرق ١٨٣٩ لتشجيع حماية اليهود وجهوده لاقتناع السلطات العثمانية أن الاستيطان اليهودي في فلسطين انما هو لفائدتهم ، تصميم على أن يحول بين محمد علي وبين سيادته على الشام ومصر معا ، اذ من موقع القوة هذا يمكن لمحمد علي التقدم نحو الطرق الداخلية في ممتلكات الدولة العثمانية الاسيوية .

ومع تأزم المسألة الشرقية الناجمة عن توسع محمد علي أرسل بالمرستون تعليماته الى سفيره في الاستانة ١١ أغسطس - آب ١٨٤٠ - يوم نزول القوات البريطانية بيروت - « أنه لو عاد اليهود ( الى فلسطين ) بموافقة السلطان سيكون ذلك كبحا لاية مشاريع خطرة في المستقبل من محمد علي أو خلفائه (٧) » . ولذلك ليس من الغريب بعد عودة فلسطين الى السلطان أن يشير قريب بالمرستون لورد شافستيري في مذكرة ( سبتمبر ١٨٤٠ ) الى أن « توطين اليهود بضمنان من الدول الاربع هو جزء من تسوية القضية السورية يحمل السلم والازدهار لكل البلاد التي تقع بين الفرات والبحر المتوسط (٨) . وأجمعت مشاريع بريطانية أخرى على أن التوطين اليهودي ضروري من أجل تحكم بريطانية في الشرق وكحل عملي للمسألة الشرقية (٩) . أهمها ما اقترحه الكولونيل تشرشل في الستينات لتوطين اليهود في فلسطين لان فلسطين هي جغرافيا وتاريخيا ضرورة محتمة لمصر وكلاهما يجب أن يرتبطا ببريطانيا (١٠) .

ولعب صندوق الاكتشاف الفلسطيني Palestine Exploration Fund الذي أنشئ عام ١٨٦٥ في بريطانيا دورا كبيرا في تأكيد هذه الصلة العملية خلاف النصف الثاني من القرن التاسع عشر . ومع أنه انطلق من فكرة دينية يهدف دراسة كل ما يتعلق بالارض المقدسة ، الا ان حقول نشاطاته قد تعدت المسألة الدينية العلمية ، فاجتماعات جمعية الصندوق غالبا ما كانت تشير الى فكرة « عودة اليهود » كما أن أعماله قد شجعت بطريقة غير مباشرة عملية الاستيطان اليهودي لانها قدمت صورة مفصلة عن فلسطين بكل جوانبها الجغرافية والاثرية والاقتصادية ، ثم ان معظم الذين قاموا بالبعثات والاكتشافات وتولوا عمليات الحفر والمسح ووضع الخرائط كانوا ضباطا في وزارة الحربية البريطانية من سلاح الهندسة الملكية بالذات ، بالاضافة الى رجال الانار والمستشرقين والعاملين في دوائر المخابرات البريطانية .

بعد شق قناة السويس ١٨٦٩ ازدادت أهمية المنطقة التي تقع شرق القناة ، ويدعى الكاتب اليهودي ليفي أبو عسل (١١) « أنه إذا كان الشعب اليهودي لم يجن أي ثمرة من هذا المشروع الذي تمخضت عنه قرائحهم الحاضرة ، وجعلته في حيز الوجود أموالهم الوافرة . فانه من المسلم به اجماعا في عالم السياسة أنه كان التوطئة الاولى التي نجمت عنها بوادر تصريح بلفور الذي ألقيت بذوره قبل الحرب العظمى بل أكثر » .

وشهدت السبعينات فترة نشطة من الاهتمام بفلسطين لما تولى دزرائيلي ( لورد بيكونسفيلد ) ( B. Disraeli ( Earl of Beaconsfield ) رئاسة الوزارة البريطانية . صحيح أن دزرائيلي لم يحقق شيئا له علاقة مباشرة بفلسطين حين قام بتسيير سياسة أوروية حيال المسألة الشرقية في مؤتمر برلين عام ١٨٧٨ ، وهذا ما عرضه الى نقد صحيفة السيكتاتور ( Spectator ) التي علقت بقولها « لو أن دزرائيلي حرر الارض المقدسة وأعاد اليهود الى فلسطين بدلا من الاهتمام بالروملي و افغانستان ربما مات ديكتاتوراً » (١٢) . ولكن دزرائيلي شجع ودعم جهود بريطاني آخر من الذين شاركوه عطفه على اليهود والدور الذي يمكن أن تلعبه بريطانيا في سياسة الشرق عن طريقهم .

كان لورنس اوليفنت ( ١٨٢٨ - ١٨٨٨ ) Lourece Oliphant صحفيا وعضو برلمان قام برحلات الى الشرق بعد توقيع معاهدة برلين ١٨٧٨ حين دخلت المسألة الشرقية مرحلة جديدة ، ورأى أن مشكلة الشرق ستتركز في المستقبل في تلك المنطقة التي تحرس طريق المتوسط عن المحيط الهندي بسبب خطر تهديد روسيا بالتقدم نحو البحر الاحمر عن طريق العقبة مما يخول لها الاشراف السياسي على كل الشرق (١٢) ، فوضع مشروعا يضمن حل المشكلة وينمي موارد الامبراطورية العثمانية بانشاء شركة لاستيطان المناطق الغنية وغير المأهولة في الدولة العثمانية ، وأوصلته استنتاجاته ونتائج تحرياته الى أن مكان الاستيطان هو الجانب الشرقي للاردن في النهاية العلوية للبحر الميت ( أرض جلعاد ) التي أثبتت تحريات صندوق الاكتشافات الفلسطيني أنه يتمتع بامكانيات كبيرة وان الشعب الذي سيدعى لاستيطان هذا المكان هو الشعب اليهودي من أوروبا الشرقية . وفي دعوته التي بناها على عوامل دينية وعاطفية تكمن أمور سياسية واستراتيجية ، دعم مشروعه لورد بيكونسفيلد (دزرائيلي) (١٤) وكتب سنة ١٨٨٠ « ان الاحداث السياسية في الشرق قد أخذت تتجه نحو

فلسطين وخاصة ولايات شرقي الأردن بسبب توسطها الجغرافي بين الاماكن المقدسة قرب الحدود الروسية من الجانب الاسيوي وبين المتوسط والبحر الاحمر وبين سورية ومصر ، ولها قيمة استراتيجية وسياسية . ومن الواضح أن اليوم ليس ببعيد حين سيتحقق تهديد المصالح البريطانية بسبب أننا فوتنا فرصة الاهتمام بالامور التي يمكن أن تحدث في المستقبل (١٥) » .

وفشلت مفاوضات أوليفنت الدبلوماسية في الاستانة ورفضت السلطات ادخال عنصر جديد في المسألة الشرقية بفتح ولاياتها الاسيوية ، وخاصة هذا البلد المقدس ، للهجرة اليهودية الجماعية . وقد أشارت صحيفة المؤيد المصرية ( للشيخ علي يوسف ) في ٥ نوفمبر تشرين ثاني ١٨٩١ أنه « بعد أن تحققت الدولة من أخطار هجرة اليهود الروس . . طلبت من سفير إنجلترا أن يمنع نزولهم في السفن الانجليزية متى أرادوا دخول أراضي عثمانية . . المنع . . قاصر على العائلات التي تقصد السكن والاقامة فقط . . . » . وكانت المرامي البعيدة وراء تلك المخططات هي التي دفعت السلطات العثمانية الى وضع قيود أمام هجرة يهودية جماعية ، وألجأت السلطان عبد الحميد « الى فصل سنجق القدس عن ولاية دمشق وجعله متصرفية ملحقة بالباب العالي مباشرة » (١٦) .

زاد تعقيد الموقف نتيجة احتلال بريطانيا لمصر ١٨٨٢ . فقد أعطاهما ذلك اهتماما أكثر بفلسطين وزاد قلقها في الحصول على دولة صديقة على جانبي الطريق نحو الهند ، هذا القلق هو الذي أدى الى اهتمام متعاطف مع الهجرة اليهودية من أوروبا الشرقية الى فلسطين في أوائل الثمانينات وتشجيع جمعيات احياء صهيون ( Chibbatt zion ) ، في توجيهها الى فلسطين وانشاء المستوطنات اليهودية الاولى بين ١٨٨٢ - ١٨٨٤ .

وكانت العقبات التي وضعتها السلطات العثمانية في وجه الاستيطان في فلسطين هي التي أدت بالسلطات البريطانية في مصر الى العطف على مشروع فردي لاستيطان يهودي في منطقة تشرف عليها بريطانيا قرب فلسطين . يرتبط هذا المشروع باسم بول فريدمان ( Paul Friedmann ) الذي عرفته جريدة المؤيد في ٩ شباط/فبراير ١٨٩٢ « انه يهودي ألماني عقد العزيمة على تشييد مملكة اسرائيلية في الاراضي المقدسة . . ووجد من ثروته وثروة كثير من أفراد بني اسرائيل عضدا قوياً فيه الامل . . وخاصة بعد ما حل بقومه وبني مذهبه في الروسية . . » وقد وصل فريدمان مصر

١٨٩٠ وقابل بعض المسؤولين ، وعلى رأسهم السير افلين بارنج ( Sir. E. Baring ) لورد كرومرفيما بعد ) . وفاتهم في موضوع الاستيطان اليهودي في بقعة على السواحل الشرقية لخليج العقبة ( المعروفة بارض مدين ) (١٧) ، ودلت عودته بعد سنتين على أنه لم يمانع في ماطلب . وكان قد اشترى يختا بخاريا أسماه ( اسرائيل ) حمل عليه ذخائر ومدافع وعددا من العلماء والمهندسين والكيماويين والجغرافيين وثلاثين عائلة من اليهود المهاجرين ، وعددت جريدة ( الحقيقة ) في ٥ شباط فبراير ١٨٩٢ « وهي الجريدة التي كانت تنطق باسم يهود الاسكندرية » أسماء بعض الذين رافقوا فريدمان : البارون سبيح ، المهندس تيل ، مولر ، نيح والكيماوي فرست .

وقصد فريدمان جزيرة العرب قرب جهة الطور عند مكان يسمى ( شرما ) ونصب لجماعته الخيام في واد قرب مدين التي أراد أن يتخذها عاصمة مملكته الجديدة ، وأخذ يتفقد المنطقة لشراء أرض ولقي صعوبات من الاهالي الذين « لم يصدقوا ماكان يخدمهم من أنه يريد الإقامة في جوارهم دون أن يحل بهم أدنى أذى أو يلحقهم أقل ضرر خصوصا عندما شاهدوا عنايته بتسليح من معه من المهاجرين الفتيون بالبنادق الحربية والمدافع والأسلحة البيضاء(١٨) » ومع ذلك فقد تمكن من شراء أرض جهة المويلح مع ان قوانين الدولة العثمانية لا تبيع أرض للاجانب في شبه جزيرة العرب(١٩) . فاشتكى وفد من الاهالي الى السلطات المحتلة في مصر دون فائدة . فلجأوا الى والي الحجاز العثماني الذي أمر الجند العثمانيين باحتلال قلعة المويلح وما جاورها على اعتبار انها من أملاك الدولة العثمانية ولما تقابلوا مع فريدمان وجماعته في جهة ضبه ذكر للقائد العثماني انه « ستتعمر لها برخصة من الحكومة المصرية وله الحق أن يمنعه من الإقامة بها وأنه مستعد للحرب(٢٠) » .

وأرسلت وزارة الحربية المصرية عددا من الجنود المصريين الى ضبه والتقت بالقوة العثمانية وكاد يحدث خلاف في منطقة الحدود الفاصلة بين مصر والدولة العثمانية ، التي لم تكن قد حددت تحديدا قاطعا منذ فرمان التولية الذي أصدره السلطان محمد الثاني الى محمد علي ١٨٤١ ، وبدأت الاتصالات بين مصر والاسكندرية ولندن لحل المشكلة . وذهبت جريدة المؤيد في ٩ شباط/فبراير ١٨٩٢ الى حد تنبيه الحكومة العثمانية الى اجراءات فريدمان « الالمانى الجاسوس الذي لم يكن قصده

الا اغتيال البلاد وليس الاستعمار » ، وردت بأن فريدمان « هو اسرايلى الماني لا يريد الاستعمار فقط بتلك الجهة بل يريد تأسيس مملكة اسرايلىة في أرض بني اسراييل الاولى . . . وأنه مستصحب معه ثياب الملك ومهيبء رسوم وألقاب الدولة » .

وما يؤكده صلة مشروع فريدمان باطماع التوسع الصهيونى هو ما ذكرته الموسوعة اليهودية حول هذا المشروع الذى لم يستمر أكثر من شهرين لخشية السلطات فى مصر من اثاره المشاكل مع الاتراك الذين عسكر جندهم فى مكان قريب . وقد كان المشروع السبب المباشر لنشوب نزاع الحدود بين مصر والدولة العثمانية عام ١٨٩٢ اذ أن الحدود الفاصلة بين الاراضى المصرية وسائر الولايات العثمانية لم تكن قد حددت تحديدا قاطعا منذ عام ١٨٤١ . وقد أثار مشروع فريدمان الشكوك فى ذهن السلطان بان اليهود المتوطنين خارج حدود السلطنة سوف يستخدمون هذا المكان كنقطة انطلاق نحو فلسطين وانشاء دولة يهودية . وهذا ما عبرت عنه جريدة المؤيد فى ٢٤ نيسان/ابريل ١٨٩٢ بأن الرأى فى الاستانة قد اتجه على عدم ترك شيء لمصر خارج حدودها الاصلية « خشية أن تكون هذه الجهات يوما ما محلا لنفوذ غير وطنى ولااسلامى فيه . . . ولاسيما وأن خليج العقبة من المهدات الى بلاد فلسطين . »

وقد جرت المباحثات بين المندوب العثماني فى مصر والمسؤولين لاجراج الاراضى التى تقع بين العقبة والوجه على البحر الاحمر وضمها الى ولاية الحجاز ، لكن لم يتوصل الى اتفاق ، حتى وردت أنباء من الاستانة بان فرمان تولية الخديوي عباس يختلف عن فرمان الذى صدر بتولية والده توفيق اذ يخرج شبه جزيرة سيناء كلها عن حدود مصر ويلحقها بولاية الحجاز . وأعلم سفير بريطانيا فى الاستانة دولته بفحوى فرمان واثار معتمد بريطانيا فى مصر السير افلين بارنج ( لورد كرومر فيما بعد ) اعتراضات بحجة أنه « لايجوز تغيير شيء فى فرمانات التى تحكم بعلاقات الباب العالى ومصر بلا مصادقة حكومة جلالة الملك » (٢١) وأشار على الخديوي بتأخير قراءة فرمان واعادة المفاوضة مع الدولة العثمانية وبحجة انه يدافع عن « حقوق الاسرة الخديوية وكمال مصر » . والحقيقة انه كان يجد فى الادعاء العثماني بمد حدود الولايات العثمانية وسيلة لحمل الخطوط الاستراتيجية العثمانية الى السويس على ضفاف القنال فى متناول ضربة سهلة لمصر (٢٢) .

وقد تقرر نتيجة الضغط البريطاني أن لا يحصل تغيير في فرمان بحيث يخول الخديوي « الخديوية المصرية المحدودة بالحدود القديمة . . مع الاراضي المنضمة اليها . . » (٢٣) ووردت برقية من الصدر الاعظم بايضاح معنى فرمان حول سيناء اذ « ستبقى الحالة الحاضرة على ماهي عليه وتدير الخديوية اموره كما كانت تديرها في أيام ( جدكم ) اسماعيل باشا ( ووالدكم ) محمد توفيق » . أما الاراضي التي تقع بين العقبة والوجه فقد ضمت الى ولاية الحجاز نظرا لانها لم تعد في طريق المحمل الشريف المصري . وقيد فرمان صلاحيات الخديوي فيما يتعلق بالامتيازات التي أعطيت لمصر والتي هي جزء من حقوق الدولة العثمانية . « فلا يجوز لاي سبب أو وسيلة ترك هذه الامتيازات جميعها أو بعضها أو ترك قطعة أرض من الاراضي المصرية للغير مطلقا (٢٤) . وأصبح معروفا أن الحد الفاصل بين سيناء والولايات العثمانية هو « خط يمتد من نقطة شرقي العريش يتجه جنوبا بشرق حتى ينتهي الى قلعة العقبة على خليج العقبة فما وقع غربي هذا الخط تكون ادارته منوطة بالخديوية المصرية (٢٥) . وظل كرومر يعتبر مسألة الحدود بين مصر والولايات العثمانية في فلسطين قضية معلقة ، وهذا يفسر الموقف الذي اتخذه حين أثرت مشكلة الحدود أثناء بحث امكانيات مشروع استيطان يهودي جديد في تلك المنطقة الواقعة بين البحر الابيض المتوسط وخليجي العقبة والسويس .

وكان الاهتمام البريطاني بحركة الاستيطان اليهودي قد دخل في السنوات الاخيرة من القرن التاسع عشر مرحلة هامة وفعالة وذلك بعد ظهور صهيونية جديدة في أواخر القرن التاسع عشر في غرب أوروبا ، كانت أكثر أطماعا من الصهيونية الاولى في شرق أوروبا التي بدأت « باحياء صهيون » . وقد فكرت الصهيونية الجديدة باساليب سياسية للحصول على فلسطين بدلا من الاستيطان البطيء ، واقتربت باسم هرتزل بكتابه ( دراسة اليهود ) وبالمنظمة الصهيونية التي نشأت بعد المؤتمر الصهيوني الاول في بال عام ١٨٩٧ .

ورغم ذلك فان القيود العثمانية كانت تعوق الحل الصهيوني للمشكلة اليهودية ، ويبدو أن هرتزل قد يئس من تغيير وجهة نظر السلطان وتبين المصاعب التي تقف في طريق برنامج بال وفكر لو أن اليهود استطاعوا الحصول على حقوق يهودية في أي مكان في العالم ، فان هذا يحملهم الى منتصف الطريق نحو فلسطين . وتطلع هرتزل نحو

بريطانيا لدعم مشاريعه وهو في هذا كان يتحول الى بلد قد أعد الرأي العام فيه مسبقا .

ونبعت فكرة هرتزل من أن بريطانيا - مع كونها لا تسيطر على فلسطين - إلا أنها على الأقل تشرف على بلاد أخرى في الجوار القريب ، وباغلاق أبواب فلسطين الامامية ( بعد فشل مساعيه مع الدولة العثمانية و ألمانيا ) يمكنه ايجاد باب جانبي يتيح للصهيونيين الاستيطان في هذا الجوار القريب على أمل أن يكون خطوة تمهيدية نحو فلسطين وفي الوقت المناسب ملحقا مفيدا ، وكان ما يدفعه الى تقديم اقتراحاته هو ضمان موافقة أنصاره الذين عارضوا فكرة الاستيطان اليهودي في بلاد بعيدة ورحبوا بها في البلاد المتاخمة ، ثم ثقته بموافقة الحكومة البريطانية نظرا لان النفوذ البريطاني في الجانب الشرقي من البحر المتوسط يمكن أن يقوى باستيطان الشعب اليهودي عند نقطة التقاء مصالح بريطانيا المصرية والهندوفارسية .

وكان هرتزل يفكر - بعد استبعاد مشروع قبرص - في مكان يقع في منتصف الطريق يسميه فلسطين المصرية أو بمعنى آخر الجانب المصري من الحدود التركية المصرية في جزيرة سيناء ، وما كان في ذهنه هو منطقة العريش بالذات (٢٦) . وتركت حجج هرتزل انطبعا عميقا في نفس تشمبرلن ( J. Chamberlain ) وزير المستعمرات ولم يعارض مبدئيا فكرة اقامة مستعمرة يهودية مستقلة في الجانب الجنوبي الشرقي من المتوسط . وقد رأى تشمبرلن « . . ان مستوطنة يهودية في سيناء يمكن أن تثبت أداة نافعة لمد النفوذ البريطاني الى فلسطين عندما يحين الوقت المناسب لتجزئة الامبراطورية العثمانية » . ورفع هرتزل مذكرة بمقترحاته الى لانسدون ( Lansdowne ) وزير الخارجية البريطانية في ٢٤ تشرين اول ( اكتوبر ) ١٩٠٢ لحل المسألة اليهودية في شرق أوروبا والرغبة بايجاد مكان لتهجير اليهود الى المناطق الخالية من السكان في جنوب شرقي المتوسط ( العريش وسيناء ) والتي تقع تحت نفوذ بريطانيا . وسيكون لها مقابل ذلك « ولا عشرة ملايين يهودي يعملون من أجل عظمتها وسيطرتها على الصعيدين السياسي والاقتصادي » . وكان قبول لانسدون للمشروع مشروطا بموافقة كرومر . وقد أخذ هرتزل وعدا من تشمبرلن أنهم سيتقاسمون مصير الممتلكات البريطانية ولكن حين سأل تشمبرلن عن مصير مستوطناتهم اليهودية في فلسطين ( لو نجحوا في اقامتها ) في حالة

تقلص النفوذ البريطاني في هذه المنطقة نتيجة لتقديم المصالح الألمانية والفرنسية والروسية في آسيا ، أجاب هرتزل « أعتقد أن حظنا سيكون أفضل . . سوف نستخدم كدولة فاصلة ولن نحصل على ذلك من حسن نية الدول الكبرى بل من تنافسها وحين تتوطد أقدامنا في العرش تحت لواء الحكم البريطاني فستقع فلسطين من ثم تحت دائرة النفوذ البريطاني» .

وبعد هذه الموافقة المبدئية على المشروع دارت مراسلات ومحادثات بين هرتزل ومبعوثيه من جهة وبين كرومر والحكومة المصرية من جهة أخرى وكانت وزارة الخارجية البريطانية الوسيط في هذه المفاوضات . وفي رسالة هرتزل الى ( لانسدون ) في ١٢ تشرين ثاني/نوفمبر ١٩٠٢ أشار الى تلك المحاولة الفردية التي جرت منذ سنوات قليلة لإنشاء مستوطنة يهودية في شبه جزيرة سيناء والتي انتهت بالفشل وأثارت المصاعب أمام الحكومة المصرية ( يقصد بها محاولة فريدمان ) ، وبين أن محادثات جرنبرج ( Greenberg ) ( مبعوث هرتزل ) مع كرومر وبطرس باشا غالي قد شرحت الملابس التي أحاطت بهذه المستوطنة وفشلها المحتم .

وانتقل هرتزل بعد ذلك الى تفاصيل المشروع : ستمنح الحكومة المصرية الامتياز المطلوب وعلى أساسه يقترح انشاء مستوطنة وشركة استيطان يسميها « الشركة الشرقية اليهودية » برأسمال تقريبي ٥/ ملايين استرليني تتولى عملية الاستيطان ، وقبل البدء بالاستيطان الفعلي تأتي هيئة من المختصين الفنيين والمهندسين الزراعيين لاعداد المنطقة ( من بناء طرق وموانئ . . الخ ) ثم تبدأ الهجرة ببطء وبشكل منظم ودقيق لاختيار دعامة صحيحة من ( الطلائع ) ، وسيتم الاستيطان طبقا لاحداث أساليب العلم والتجربة ، ولن تقتصر الهجرة على يهود أوروبا الشرقية الباحثين عن العمل فقط ، بل سيعمد أصحاب رؤوس الاموال الى اقامة مشاريع في أرض هم على ثقة من التمتع بشمار عملهم فيها ، ومن الضروري كخطوة تمهيدية لارسال اللجنة للحصول على موافقة حكومة جلالتهم والحكومة المصرية بمستشاريها الانجليز على الخطة العامة ، وعند الحصول على امتياز أولي سيباشر بالعمل فورا .

وكان كرومر يتعاطف تماما مع الاقتراح وفي رسالته الجوابية الى وزارة الخارجية في ٢٩ تشرين ثاني / نوفمبر ١٩٠٢ لم يجد أي اعتراض سياسي لاقامة هذه المستعمرة ولكنه أراد تقديم بعض الايضاحات حول



ظروف معينة تحيط بالمشروع رأى أن يتم التفاهم عليها مسبقا حتى لا يصاب المشروع بالفشل .

الامر الاول : ان الحكومتين المصرية والتركية لم تتفقا بعد على الحدود بين العريش ورأس خليج العقبة وربما قد يمضي وقت طويل قبل أن يسوى هذا النزاع ولذلك يرى كرومر « انه من المرغوب فيه في حالة انشاء مثل هذه المستوطنة اليهودية أن توضع كليا غربي الخط الذي تدعيه الحكومة العثمانية وليس الذي يدعيه المصريون وذلك في صالح اليهود أنفسهم ومن أجل تجنب حدوث المشاكل مع السلطات العثمانية .

الامر الثاني : أن لا يرسل المسؤولون عن الحركة الصهيونية بعثة كبيرة الى المنطقة بل يكتفى باثنين أو ثلاثة من ذوي الكفاءة قادرين على اعطاء رأيهم بإمكانية نجاح المشروع أو عدمه . ويمكن أن يتكون أعضاء اللجنة من ثلاثة أشخاص : الاول له صلة بالحركة الصهيونية يستطيع أن يقرر حاجات المستوطنين وخبر بالامور الزراعية وخاصة قضايا الري ويفضل أن لا يكون يهوديا ، وشخص ثالث له معرفة باللغة والمكان ويقترح أن يكون براملى ( S. Bramly ) الذي يعمل حاليا في حكومة السودان وتولى عملية مسح معظم سيناء .

الامر الثالث : يتعلق بالشروط التي ترغب الحكومة المصرية فرضها قبل اعطاء أي امتياز « . . يمكن ان يمنح الاعفاء من الضرائب لاي أرض يجري زراعتها لعدة سنوات ، ومن الضروري تنظيم قوة خاصة لحفظ الامن بين المواطنين أنفسهم وحمايتهم من البدو . . ومن المحتمل أن تطلب الحكومة المصرية من زعماء الحركة الصهيونية تأمين دفع مبلغ سنوي كاف لتغطية تكاليف القوة وتكاليف أية مؤسسة ادارية ضرورية . . »

واعترض كرومر على ضمان حقوق المستوطنين بقوله « من الضروري ان يخضع المستوطنون للقانون المصري بشكل كامل وان لا يتمتعوا بحقوق تتجاوز الحقوق التي يتمتع بها سكان البلاد الذين هم رعايا عثمانيون . ومع أن كرومر لم يكن من الداعين لالغاء هذه الامتيازات الا أنه يرى من جهة أخرى أن الاصلاح الداخلي قد تعثر في العشرين سنة الماضية بسبب هذه الامتيازات . والحل الوحيد الممكن في نظره هو « أن يتخلى هؤلاء المستوطنون عن جنسيتهم الاجنبية ليصبحوا رعايا عثمانيين ، علما بانهم

في ظل الاحتلال البريطاني في مصر سيجدون من السلطات المصرية ، وفي كل الظروف المعاملة العادلة غير المنحازة التي يجدونها من قناصلهم » .  
وفي رسالة هرتزل الى لانسدون في ٦ كانون ثاني/يناير ١٩٠٣ رحب بكل التوضيحات التي عرضها كرومر ولكنه يستبق الخبراء الذين أشار اليهم كرومر بقوله : « .. مهما كان رأي الخبراء بشأن الاستيطان العادي غير مشجع ، فان ذلك لن يؤدي بنا الى اليأس في تحقيق المشروع ، لان الاستيطان الذي نتطلع له يأخذ بعين الاعتبار الظروف الحاضرة ويختلف عن أي مشروع استيطان عادي ... فاليهود الذين نرغب بايجاد مستوطنة لهم .. أمامهم خيار بين الإبادة البطيئة أو السريعة في مواطنهم ، وبين الصراع من أجل الخلاص .. ومع ان امريكا وبريطانية تبدوان الان الملجأ الوحيد عمليا الذي لا يزال مفتوحا للشعب اليهودي الا أن الرأي العام فيهما يميل للحد من الفرص المتاحة امام الشعب اليهودي وهو ما يدفع اليهود للقبول بأي بلد لايفيد منها المهاجرون العاديون .. بشرط أن يتوفر فيه عاملان ، العامل الاول : أن يتمكن الرجل الابيض من العيش فيه ، ومن المعروف ان اليهود بإمكانهم التكيف بسرعة مع كل اقليم ، والعامل الثاني : ان يكون للادارة في المستوطنة المقترحة ، رغم خضوعها التام لقوانين البلاد ، ( مناخ يهودي ) يضمن لليهود الحرية والامن والعدالة . وبرأي هرتزل أن العامل الثاني هو الالهة الان « الرأسمال والعمل بإمكانهما تحويل فقر البلاد من حيث الامكانيات الطبيعية في الوقت الحاضر الى بلاد مأهولة وجذابة .. ان الحرية والامن مقدر لهما ان يضيفا على مستوطنة المستقبل الجاذبية المغرية للمستوطنين ، والتي قد تعجز عن تقديمها لهم الفوائد الزراعية والاقتصادية الاخرى .. »

وينهي هرتزل رسالته الى لانسدون بثقته بان « حكمة الحكومة المصرية بالمشاركة مع جهودنا الخاصة ستتوصل الى ابتكار صيغة للميثاق الذي سيضمن للمستوطنين عدم تعرضهم من جديد لخطر الاضطهاد أو التشرذم بعد ان يكونوا قد حولوا بعرق جبينهم منطقة هي في تقدير كرومر الان ، ليست أفضل من صحراء .

وقد شرعت لجنة الخبراء تحرياتها في ١١ شباط/فبراير ١٩٠٣ بدءا من القنطرة انتهت في آذار/مارس في السويس ورفعت الى وزارة الخارجية البريطانية في ٢٦ آذار/مارس تقريرا مفصلا باللغتين الفرنسية والانجليزية تحت عنوان « تقرير اللجنة المكلفة بالتحقيق في امكانية انشاء مستوطنات

للاوربيين في المناطق الواقعة تحت سيادة مصرية ، شرقي قناة وخليج السويس » وتناول التقرير الموضوعات الرئيسية التالية : السكان الحياة النباتية ، التربة ، المعادن ، الوقود ، المياه ، الامور الصحية ، المناخ . . . وموضوعات أخرى جانبية . وقد جاء التقرير مخيبا لامال هرتزل ، وعلق في مذكراته (٢٧) وهو ينعي المشروع ، بأنه كان يفضل ان يحذف الجزء الاول من تقرير اللجنة الذي ينص على ان اللجنة ترى « في الظروف الحاضرة ان البلد غير ملائمة تماما لمستوطنين أوروبيين . . » وان يبقى الجزء الثاني من التقرير الذي جاء فيه أن « مالمسه أعضاء اللجنة في المنطقة بالإضافة الى تجربتهم الشخصية يدفعهم الى الجزم بانه حيث تتوفر الموارد المائية فان أحوال التربة والصحة والمناخ لهذه المنطقة الصحراوية قادرة على استيعاب عدد لا بأس به من السكان . »

ومع أن كرومر منذ البداية يتعاطف مع الاقتراح ، الا أنه في رسالته الى لانسدون في ١٤ أيار/مايو ١٩٠٣ حصر المسألة كلها بقضية المياه التي هي الضرورة الماسة لتحويل المناطق الصحراوية الى أراض صالحة للزراعة وتوفير ذلك يتطلب نفقات كبيرة ، وليست الحكومة المصرية ، برأيه ، على استعداد للتفكير بهذا الاقتراح لانها لا تعتبر انه يحوي أي عنصر ممكن للنجاح . ولذلك نصح بالتخلي عن المشروع تماما ووضع حد لامال هرتزل - بانتهاء المفاوضات .

وقد كشف كرومر في هذه الرسالة انه منذ البداية واجه قدرا كبيرا من المعارضة وانه بذل جهدا كبيرا كي يحظى هرتزل وأعوانه باذن صاغية لدى المسؤولين في مصر ولا يرجع كرومر المعارضة المصرية الى حقد معاد لليهود بل الى ان المسؤولين المصريين وكذلك جميع المسؤولين البريطانيين في مصر ، ليست لديهم ثقة بامكانية نجاح المشروع لذا هم لا يرغبون الالتزام بمشروع محكوم عليه بالفشل . وقد يثير هذا المشروع برأي كرومر حملة من الانتقاد ضد الحكومة المصرية « حين يثبت ان الاموال قد بددت هدرا » وقد أورد كرومر حججا أخرى تقدم بها الوزراء المصريون في معارضتهم للمشروع « اذ أن آلية الحكم في هذا البلد بالغة التعقيد ، ويصعب التكهن بالنتائج . . لو نفذت خطط هرتزل فمن المحتمل ان تزداد التعقيدات الحالية اذا سمح باستيطان مجتمع ( له صفة عالمية ) في سيناء باهداف سياسية معلنة . . وهذا على الاقل لا يتفق مع مصالح السلطان صاحب السيادة في مصر » . بعثت وزارة الخارجية البريطانية اعتذارها الى هرتزل في ١ حزيران/ يونيو ١٩٠٣ بسبب رفض الحكومة المصرية النظر بمشروع مستوطنة

يهودية في سيناء وبررت الوزارة موقف كرومر الذي بذل أقصى جهده منذ بداية المفاوضات لاسماع وجهة نظر هرتزل وغيره ، الى اقتناع كرومر « بأنه لا يمكن العمل على تنفيذ رغباتك ، دون أن تمارس حكومة جلالته ضغطا أكثر قوة مما يمكن أن تبرره ظروف القضية » .

وشرح وايزمان في مذكراته (٢٨) فيما بعد ان السبب الوحيد المسؤول عن فشل مشروع العريش ، ليس الحكومة البريطانية التي قدمت كل التسهيلات الممكنة للحركة الصهيونية للقيام بتحريراتها في المنطقة ولكن « . . . القائمين على قيادة الحركة الصهيونية في ذلك الوقت كانوا يفضلون التخلي عن كل مشروع لا يمكن من القيام باستيطان واسع قادر على حل مشكلة الشعب اليهودي ، ولم تكتف اللجنة بشريط الارض الضيق عبر شاطئ فلسطين الجنوبي التي يمكن انشاء مستوطنات فيه لتوفر المياه الجوفية ، لان ذلك بداية متواضعة لاتلاءم وتصوراتها ، لذلك كان على اللجنة ان تغطي بتحريراتها صحراء سيناء كلها التي لاتصلح للاستيطان دون ان تتوفر فيها المياه ، لذا فقد استبعد المشروع كليا ، ولم تجر أية محاولة للبحث تفصيلا في امكانيات الشريط الضيق الذي تتوفر فيه امكانيات الاستيطان . » ويرى وايزمان ان ذلك يعد خطأ جسيما وان الحكمة كانت تقضي قبول المشروع لتوطيد اقدام الصهيونية في هذا الجزء الجنوبي الذي يتصل بفلسطين جغرافيا ويمكن الصهيونيين من توسيع أعمالهم الاستيطانية مع الزمن وينتهي الى القول « . . . ربما كان مصير فلسطين الحالي قد تغير لو اننا ركزنا حينذاك على بداية متواضعة على شاطئ فلسطين الجنوبي » .

فشلت مفاوضات العريش في تقديم نتائج محسوسة ولكن الحكومة البريطانية ظلت تنظر الى الحركة الصهيونية كعامل هام في سياستها في الشرق الادنى يمكن أن يحسب حسابها عند اللزوم . وكان كرومر من أكثر سياسيين بريطانيا في الشرق الادنى اهتماما بكل ما يتضمنه ويستلزمه الاشراف البريطاني على مصر وعلى قناة السويس ولذلك كان حرصه على عدم اثاره شبهات الدولة العثمانية في منطقة الحدود خشية أن تتخذ موقفا عدائيا ، ونظر بقلق الى مشروع الدولة العثمانية بعد سكة حديد بين عمان والعقبة ، يمكن العثمانيين من نقل الجنود بسرعة وبسهولة الى ثغر ليس بينه وبين السويس الا مسيرة يومين أو ثلاثة ، وهذا مادعا كرومر الى أن يكتب في تقريره عن مصر والسودان عام ١٩٠٥ « ان انظار

الحكومة المصرية اتجهت حديثا الى الاهتمام بشؤون شبه جزيرة سيناء وكانت قد أهملت منذ أعوام لاسباب مختلفة(٢٩) واتخذ خطوات معينة لتقوية مركز بريطانيا هناك فعين الكولونيل براملي مفتشا لسيناء عام ١٩٠٥ ( وكان الكولونيل براملي أحد الاشخاص الثلاثة الذين رشحهم كرومر لعضوية لجنة التحقيق في امكانيات مشروع العريش الصهيوني .

وشرع براملي في اجراء اصلاح اداري ، وقد نبهت جريدة اللواء ( لسان حال الحزب الوطني لمصطفى كامل ) في ٩ كانون اول/ديسمبر ١٩٠٥ الى هذه السياسة الجديدة ، وان الحكومة الحالية او بالاحرى المحتلين يعدون الصحراء لاعمال حربية مهمة ، ووجدت في ذلك دليلا على أن سلطات الاحتلال بعد انتهائها من اخضاع السودان قد وجهت اهتمامها لبلاد العرب ولكن ليس من جهة الكويت بل من جهة طور سيناء . . والله أعلم بمآل هذه الاعمال » . وبعث والي الحجاز الى الاستانة خبر هذه التحركات ، وارسلت بعد ذلك قوات مصرية لاحتلال مراكز معينة داخل سيناء بما فيها طابه على الشاطئ الغربي لخليج العقبة ولكن وجدت قوات تركية قد احتلتها مسبقا في ١٧ شباط/فبراير ١٩٠٦ وجرت مفاوضات بين الحكومة المصرية والاستانة وتمسكت الحكومة العثمانية ، بجانب اصرارها على البقاء في طابه لانها جزء من سنجق العقبة الذي يتبع الدولة العثمانية ، الى أن حدود سيناء يجب أن تمتد من رفح الى السويس ومن السويس الى العقبة واصرت الحكومة المصرية على أن تكون برقية ٨ نيسان/ابريل ١٨٩٢ أساسا لاي تسوية ، بينما اصرت الاستانة على أن تفسير البرقية هو مسألة تهم فقط الحكومة العثمانية(٣٠) .

ولجأت السلطات في مصر الى القيام باستعدادات وتحركات عسكرية في منطقة الحدود وعلى السواحل ، قابلتها الحكومة العثمانية بامداد النقط الحربية على الحدود بقوات جديدة ، واخرقت قوة عسكرية منطقة رفح وأزالت عمودي الحدود من مكانهما ( والعمودان قديمان احدهما في أرض الحكومة المصرية والثاني في أرض الحكومة العثمانية نقش على الاول اسم الخديوي وتاريخ وصوله لمنطقة رفح ) وتقدمت في أراضي مصر مسافة واقامت نقطا عسكرية ، وذكرت المقطم في ٧ نيسان/ابريل ١٩٠٦ ان الحكومة المصرية عملت ذلك من رسالة نشرها مكاتبها في العريش ، بينما ذكرت الاهرام فيما بعد في ١٩ كانون ثاني/يناير ١٩١٧ ان الذي

كشفت حادثة تغيير الحدود الفاصلة بين مصر وفلسطين هو نائب القنصل البريطاني في غزة اسكندر كنزفيتش A. Knesevitch الذي كلف رسمياً بمراقبة تحركات العثمانيين في المنطقة ( وقد ثبت بعد سنوات قليلة ان نائب القنصل البريطاني في غزة كان يعمل وكيلاً لجمعيات صهيونية لشراء أراضٍ في مناطق العريش ورفع (٢١) .

وبلغت قضية الخلاف مرحلة خطيرة فأوعزت الحكومة البريطانية الى سفيرها في الأستانة رفع إنذار الى الباب العالي في ٣ أيار/مايو ١٩٠٦ باجابة مطالب حكومته خلال عشرة أيام وتتلخص باحتلال طابه وعودة الجنود العثمانيين من رفح الى حدودهم واعادة عمودي الحدود الى مكانهما ، ودل الإنذار ان بريطانيا مصممة على استخدام القوة اذا لم تجب الى مطالبها ، وايد سفير فرنسا وروسيا في الأستانة السفير البريطاني كما أعلنت ألمانيا عدم تعاضدها للدولة العثمانية في هذه المشكلة .

وعرضت القضية برمتها على لجنة الدفاع عن الامبراطورية  
( C. I. D. ) Committee of Imperial Defence ( ٢٢ ) .

وهي جهاز استشاري بريطاني يضم أعضاء الوزارة وخبراء في الجيش والبحرية ويتولى رئاستها حسب تنظيمها الداخلي رئيس الوزراء الذي كان السير كامبل باثرمان من حزب الاحرار كما اشير سابقاً ، ولم تكن المشكلة امتلاك طابه بالذات كما دلت مناقشات لجنة الدفاع في الامبراطورية ، بل أن يصبح خليج العقبة « بحرة مغلقة » يتحكم بها الاتراك ويزيد احتمالات هجوم تركي على الحدود ، وحثت اللجنة في أساليب الضغط العسكري أو البحري الذي يمكن ان يطبق على الدولة العثمانية في حالة رفض الجلاء عن المنطقة المصرية ، وكان من بينها قطع طريق الامدادات التركية عن اليمن التي قد يؤدي الى نشوب ثورة في الحجاز أو سورية وبراى اللجنة « ان مدينة عكا تبدو الوحيدة بين جميع المدن الساحلية في الشرق الملائمة للاحتلال كاجراء فعال ، هذا لوصحت الاسطورة التركية التي تربط مصر عكا بمصير السلطنة (٢٣) .

وشددت الصحف البريطانية الى انه من الخطأ والخطر القول ان شبه جزيرة سيناء لا قيمة لها فهي منطقة كحاجز بين مصر وتركيا ووجود الجنود العثمانيين فيها يعتبر خطراً مهدداً لقناة السويس في

المستقبل ، كما يشد عضد الحزب المعارض في مصر (٢٤) واعترف وزير الخارجية البريطاني أمام مجلس العموم ان المنطقة التي تدعيها الحكومة التركية أبعد من طابه وماجاورها وتمتد الى كل شبه جزيرة سيناء (٢٥) . كما بين نائب وزير الخارجية ان السبب الرئيسي لاحتلال مصر سنة ١٨٨٢ انما يعود الى القلق الذي كان ضاربا في البلاد . مما هدد قناة السويس بالخطر ، ومن غير المعقول كما يرى « انه بعد ٢٤ سنة من تدخلنا لحماية القناة من خطر يأتي بصورة رئيسية من الغرب ان نفرض الطرف عن أخطار مماثلة من الجانب الشرقي لهذا الممر المائي (٢٦) .

وقبل أن ينقضي أجل البلاغ ببضع ساعات أصدرت الدولة العثمانية أوامرها برجوع جنودها عن طابة وعن كل النقط المحدودة من الاملاك المصرية (٢٧) . واتفق الباب العالي وبريطانية على تحديد التخوم الفاصلة بين سيناء والولايات العثمانية بواسطة لجنة مشتركة من الطرفين ووقعت اتفاقية حدود سيناء في أول تشرين اول ١٩٠٦ ، وتبدأ من رفح على ساحل المتوسط وتمتد جنوبا بشرق الى نقطة تبعد ثلاثة أميال عن قلعة العقبة غربا على محاذاة ساحل خليج العقبة (٢٨) . وقد ذكرت الاهرام في عددها الصادر في ١٩ كانون الثاني/يناير ١٩١٧ ان اعادة الاعمدة الى مكانها في رفح قد تم بارشاد قنصل غزة كنزفيتش وحضور قائممقامي غزة وبئر سبع .

وبرأي المصادر الصهيونية ان بريطانيا قد قامت بمفارقة غريبة بتوسيع مصر التي لم يكن لها فيها احتلال دائم على حساب فلسطين التي كان مقدرها لها ان تحكمها ولو لم تتدخل في سنة ١٩٠٦ لكان الجزء الاكبر من سيناء داخل منطقة الانتداب (٢٩) .

لقد وضع هذا الحادث مشكلة الحدود في ضوء جديد ، وأمام لجنة الدفاع عن الامبراطورية أعيد النظر في كل المسألة الاستراتيجية حول مشكلة الدفاع عن مصر والقناة .

والواقع ان الاعتقاد الثابت الذي ظل يسيطر على الدوائر العسكرية البريطانية فترة طويلة قبل الحرب العالمية الاولى ان مصر جزيرة محمية بقوة بحرية وانه لن يحدث هجوم خطير ضد القناة من فلسطين لمصاعب اختراق سيناء ولنقص الخطوط الحديدية العثمانية وبدأ هذا الاعتقاد يتزعزع بعد مشكلة حدود مصر الشرقية سنة ١٩٠٦ .

واثيرت احتمالات غزو ناجح خلال العشر سنوات التالية عبر سورية وجزيرة سيناء بقوة كبيرة في حالة القيام لخلاف جديد بين بريطانية والدولة العثمانية وانضمام المانيا الى الاخيرة في تحالف سري أو علني ، لان مصالحتها في الشرق الادنى والاوسط معادية لبريطانية(٤٠) ودلت المذكرات التي قدمت الى اللجنة ان عبور سيناء ليس مستحيلا ، اذ يمكن بواسطة التطور المادي الحديث أن توضع القوات التركية قرب القناة مع بقاء مواصلاتها مفتوحة مع مناطق امتداداتها ، حتى ان كرومر نفسه ، الذي كان لايجزم باحتمال غزو تركي في الوقت الحاضر بمساندة المانيا بسبب الاوضاع الداخلية العامة في تركيا ، لم يستبعد فكرة اجتياز سيناء(٤١) .

وقد دلت النتائج التي توصلت اليها لجنة الدفاع عن الامبراطورية في ١٦ تشرين اول/اكتوبر ١٩٠٦ على استبعاد احتمال غزو تركي على نطاق واسع من الشرق لعدم توفر شروط نجاحه عند الاتراك في ذلك الوقت ، ولصعوبة الاعتماد على موارد سورية ومايمكن ان تسببه العناصر المناوئة فيها من مشاكل في حالة انزال قوات بريطانية في حيفا الى جانب ما تتمتع به قناة السويس من فوائد دفاعية كبرى(٤٢) الا أن هذا الحادث مع مارافقه من مناقشات ، قد أبرز عدة اعتبارات هامة : ان بناء خط حديدي عبر الصحراء أصبح الان امكانية عملية ، وان الاحتلال العسكري لسيناء أما من الدولة التي تملك مصر أو الدولة التي تملك فلسطين أصبح أيضا من الامكانيات العملية ، ثم ان الصحراء ببساطة ، لايمكن أن تعتبر بعد الان دفاعا ملائما عن مصر ، وحين استقال كرومر سنة ١٩٠٧ كانت كل الادلة تشير الى انه اعتبر مشكلة الدفاع عن مصر والقناة قد تبدلت(٤٣) .

وعاد التفكير ثانية باحياء المشروع الذي عرض على هرتزل لانشاء مستوطنة يهودية في الجزء الشمالي من جزيرة سيناء قرب الحدود التركية ، في المنطقة التي كانت مشار نزاع متواصل بين السلطات العثمانية والحكومة المصرية ، وفي حين كان مشروع هرتزل قد تم الاعداد له والاشراف عليه عن طريق وزارة الخارجية البريطانية والسلطات البريطانية في مصر يبدو ان المحاولات المتأخرة التي تولتها شركات استيطان يهودية لم يؤخذ بها رأي وزارة الخارجية قبل الشروع بها ، وان كان نائب القنصل البريطاني في غزة كنزفيتش A. Knesevitch قد عمل وكيلا لعمليات الشراء باسم شركات الاستيطان اليهودية وكانت السلطات البريطانية في مصر



كذلك الهيئات القنصلية في القدس على علم بهذه التحركات منذ أن بدأ التفكير فيها ١٩٠٨ وأصبحت موضوع مراسلات عديدة ومعقدة بين القدس والامستانة والقاهرة ولندن .

أول اشارة رفعت الى وزارة الخارجية البريطانية بشأن هذه المحاولة تضمنتها رسالة بعث بها جورست E. Gorst المعتمد البريطاني في مصر ، في ١ كانون الثاني/ يناير سنة ١٩١١ (٤٤) في وزارة الخارجية بأمر مقابلة قام بها مندوب عن جمعية الاستيطان اليهودية Jewish Colonisation Society عرض فكرة احياء مشروع هرتزل القديم بانشاء مستوطنة يهودية في الجزء الشمالي من جزيرة سيناء قرب الحدود التركية ، وينظر جورست ان هذه الفكرة تبدو غير مرغوب فيها لعدة أسباب :

« فالمصريون ينفرون من ايجاد مستوطنة يهودية على اطراف الحدود التركية التي ستؤدي بالتأكيد الى تعقيدات وكذلك فان الارض المنوي اقامة المستوطنة عليها هي بنظر البدو مناطق للرعي خاصة بهم ، ومن المحتم ان ينشب قتال مستمر بين الطرفين ومع الزمن سيتدفق اليهود نحو المدن المصرية ويزيدون عدد العاملين بالربا غير المرغوب فيهم ، وكل مايشاه جورست ان يفتح اليهود وزارة الخارجية حول هذا الموضوع نظرا لانهم شعب كثير الالاحاح » لذا يطلب القاء دلو من الماء البارد على هذا المشروع » .

ويبدو ان المعتمدية البريطانية في القاهرة قد ابلغت كذلك السفارة البريطانية في الامستانة بالموضوع مع الاشارة الى أن نائب القنصل البريطاني في غزة كنفيتش هو الذي يتولى عمليات شراء الاراضي في المنطقة المصرية بين العريش ورفع لمصلحة منظمة الاستيطان اليهودية ، وطلبت اتخاذ الاجراءات لمنع نشاط كنفيتش حتى لا يبدو انه يتمتع بموافقة حكومة جلالتة ، لذلك قام لوثر السفير البريطاني في الامستانة بابلاغ القنصل البريطاني في القدس ( ساتو ) Satow في برقية في ١٦ نيسان/ابريل ١٩١١ (٤٥) بتفاصيل القضية التي يعتبرانها تؤثر على العلاقات مع السلطات العثمانية من جهة ومع العرب المصريين وان المشروع غير مرغوب الاستمرار فيه ، ومن المحتمل أن يعطي انطبعا كاذبا ان المشروع يتمتع بدعم حكومة جلالتة » .

وبعث لوثر رسالة مفصلة الى اللورد غراي Grey وزير الخارجية

في ٢٤ نيسان/ابريل ١٩١١ (٤٦) مشيرا الى ماورد في التيمس في ٧ نيسان/ابريل (٤٧) عن ان منظمة استيطان يهودية قد حصلت على مساحة ١٠٠٠٠ ر.٠ هكتار على امتداد رفح في منطقة العريش ، وانه من غير المرغوب فيه تماما ان موظفا في الهيئة القنصلية البريطانية يعمل مباشرة كوكيل لشركة استيطان بدون اذن « وكان القنصل البريطاني في القدس ( ساتو ) يؤكد كل عمل يقوم به كنزفيتش في المنطقة ويثق بحسن نواياه لما يقدمه من خدمات الى الرعايا البريطانيين في أماكن أخرى ونظرا لعلاقاته الحسنة مع السلطات المحلية . وتأثيره عليهم اذ هو القنصل الاجنبي الوحيد الممثل في المدينة ، والمهم في نظره هو وجوده في غزة التي تبعد ٤ ساعات عن الحدود التركية المصرية بحيث يخوله مركزه ارسال معلومات أولية عن أية حوادث يمكن أن تجري هناك .

وقد بعث ساتو في ٢٧ نيسان/ابريل ١٩١١ رسالة الى لوثر ضمنها كل ماتلقاه من معلومات حول بداية عمليات الشراء التي تعود على عام ١٩٠٨ فقد جرت اتصالات بين كنزفيتش وشركة الانجلو الفلسطينية لتطوير الاراضي : Anglo Palestine Development Company

(وهي شركة يهودية مقرها يافا وغالبية أعضائها من التبعة البريطانية) من أجل الحصول على أرض في رفح في المنطقة المصرية لإنشاء مستوطنة زراعية ، وبعثت الجمعية فرمكين Frumkin ( وهو من التبعة البريطانية وأحد سكرتيري الشركة) الى غزة ومعه رسالة توصية الى كنزفيتش كي يقدم له كل مساعدة ممكنة ، ونصحته كنزفيتش بالتوجه الى العريش لعرض الامر على بيميش Beamish مفتش جزيرة سيناء ، الذي رفع الامر بدوره الى السردار وفي ٨ آب/أغسطس ١٩٠٨ بعث ( بيمش بك ) الى ( فرمكين ) رسالة رسمية لم يعترض فيها على العمل شرط ان يرغب المواطنون بالبيع ، وعادت الشركة الى مفاتحة كنزفيتش لمساعدتها على شراء الارض بعمولة مئوية مرتفعة لكل دونم .

وظلت المراسلات مستمرة منذ عام ١٩٠٨ حتى بداية ١٩١١ الى ان تم توقيع عقد بين كنزفيتش وستة أشخاص يمثلون الشركة . وبموجبه يشتري الاول أرضا مساحتها ٥٠٠٠٠ دونم في رفح على مسافة كيلو متر من عمود الحدود العسكري وقد تم حتى تاريخ ارسال ساتو التقرير شراء ١٠٠٠٠ دونم ولم يتم شراء أرض لمصلحة هذه الشركة في الجانب التركي من الحدود . وقد برر كنزفيتش عمله بأنه نوع من عمل تجاري

وانه لم يستخدم صفته القنصلية للتأثير على بيع الاراضي اذ انها قد تمت في الجانب المصري حيث لا مركز رسمي له . ولكن معرفته الشخصية بالمواطنين قد افادت مفاوضاته وباعتقاده انه نظرا لان معظم اليهود المهتمين بانشاء المستوطنة المقترحة كانوا من التبعية البريطانية فهو انما يدعم المصالح البريطانية . . . » .

ولم يخف كنفيتش أمر المشروع بل أشار له باعتزاز في تقاريره التجارية حين كتب عام ١٩٠٨ بان الامل الوحيد للتطوير هنا هو قدوم الاوربيون ومعهم اساليب الزراعة الاوروبية، ولكنه يقول « ان الاوضاع غير المستقرة للحكومة تمنعني من عقد الصفقة ، على كل حال لا زال آمل بتأمين الارض في المستقبل » وأشار الى المشروع ثانية في تقريره عام ١٩٠٩ . . . قدم الى غزة بعض أعضاء الشركة اليهودية البريطانية التي كانت ترسلني خلال ١٩٠٨ - ١٩٠٩ بشأن الاستيطان في منطقة رفح على الحدود التركية المصرية وتوجهوا الى رفح مع مهندسيهم ، وقد أحبوا المكان وهم يرغبون بتأسيس مستوطنة باعتقادي انه يمكن في المستقبل تأسيس مستوطنة بريطانية هناك » .

ويستنتج أحد موظفي الدائرة الشرقية في وزارة الخارجية البريطانية بانه لم يكن لدى السردار اعتراض بشرط أن يرغب المواطنون بالبيع ، وهذا قد يعود الى انه يتكلم من وجهة نظر عسكرية وربما لم يستشر المعتمدية بذلك وان كنفيتش كان يتصرف بصفة شخصية وربما لم يكن يعرف الاعتراضات السياسية التي تكتنف طلب شركة الاستيطان اليهودية مثل هذه الرقعة الواسعة من الارض على الحدود المصرية التركية .

وقد رأت وزارة الخارجية البريطانية ان تستطلع رأي السلطات في مصر فبعثت نسخة من التقرير الى تشيتام M. Cheetham ( وكييل المعتمد البريطاني ) وفي رسالة الاخير الى غراي (٤٨) في ١٧ حزيران/يونيو ١٩١١ أوضح الموقف في مصر من عمليات الشراء مبينا قبل كل شيء الصفة العامة لجزيرة سيناء التي يسكنها فقط عرب رحل لا يخضعون تماما للنظم الادارية المصرية ، بل الى حد بعيد طبقا للعادات القبلية ويديرها موظفون انجليز يتبعون وزارة الحربية المصرية ، وهذا الوضع يبدو مرضيا الى حد كبير في الوقت الحاضر ، الا أن هجرة يهود روسيا أو غيرهم مهما كانت أعدادهم سيثير بلا شك مشاكل قد تكون مؤسفة جدا ، وبالإضافة الى هذه الاعتبارات هناك صعوبة حصول المستوطنين اليهود على أرض

لها حقوق ملكية واضحة لان هذه الحقوق في سيناء تعتمد على العرف ويصعب بالتالي تحديدها ومع ان الحكومة المصرية هي التي لها حق الملكية الا أنها قد منحت السكان هناك حقوقا عرفية للرعي والزراعة ولا تترى الحكومة المصرية أي داع لوضع حق ملكيتها موضع التنفيذ في الوضع الحاضر ، أي طالما ان الارض يشغلها عرب منحوا حق استخدامها لعدة أجيال ولا يتبع ذلك ان تبقى الحكومة المصرية حقوقها معلقة لو جرت محاولة لانشاء مستوطنة أجنبية ، وهي ليست على استعداد في الوقت الحاضر للتخلي عن هذه الحقوق نظرا لما قد يثار من قضايا صعبة ومعقدة .

ويكشف تشيتام في رسالته ان محاولة شراء أراض لاستيطان مهاجرين يهود في المنطقة المجاورة لرفح قد جرت قبل عام ١٩١١ ولم يبلغ عنها في حينها ، وتمت الصفقات الاولى منذ النصف الاول لعام ١٩١٠ ، رغم تحذير السلطات المصرية للكلاء الذين تولوا المفاوضات من الاخطار التي قد يتعرض لها موكلوهم بسبب عدم ضمان حقوق الملكية وقد جرت مراسلات بين المعتمدية البريطانية في مصر وفرمكين ممثل ( الشركة البريطانية لتطوير الاراضي في فلسطين ) الذي سعى للحصول على اذن من الحكومة المصرية - لانشاء مستوطنة يهودية في المناطق غير المأهولة بين رفح والعريش ، وابلغ فعلا أنه لا توجد أراض غير مأهولة في تلك المنطقة ولذلك لا يمكن قبول اقتراحاته .

وقد أشار تشيتام في رسالته بانه كانت هناك منظمة أخرى للاستيطان اليهودي باسم المنظمة العامة للاستيطان اليهودي .

General Jewish Colonising Organisation

يتولاها عدد من اليهود الالمان برئاسة الفرد نوسيج (٤٩) A. Nossig كانت تفكر في نفس المنطقة ضمن مشروع واسع يشمل الشرق كله ، وقد رفع نوسيج في ٢٩ كانون أول/ديسمبر ١٩١٠ رسالة باسم المنظمة الى وزارة الحربية المصرية يبين فيها ان منظمته تتألف من أعضاء أغنياء وذوي نفوذ من الطوائف اليهودية في أوروبا وان هدفها شراء أراض لاستيطان اليهود الروس ، بدوافع انسانية بحتة طالبا تزويده بمعلومات حول قضية حقوق الملكية في الاجزاء الشمالية الشرقية في سيناء ، وكان جواب المعتمدية كما يذكر تيشتام تكرارا للاعتراضات التي ذكرها سابقا .

ويضيف تشيتام انه لما علم في نيسان/ابريل ١٩١١ بأن نائب القنصل في غزة يتفاوض لاجراء عمليات شراء باسم جمعيات استيطان يهودية ،

وحتى لا يدل عمله على موافقة الحكومة البريطانية على برامج تلك الجمعيات، طلب من السفير البريطاني في الاستانة ان يعمل ما في وسعه لاجباط نشاطات كنزفيتش ، ويؤكد تشيتام ان صفقة الشراء التي أشير اليها وهي ( ١٠٠٠ هكتار ) لم تنفذ بعد ، ولكن الاخبار التي بلغته مؤخرا تشير الى استمرار عمليات الشراء على نطاق محدود مع كل ماواجهه المسترون من تعقيدات . ويشير تشيتام الى أن المشروع المقترح بادخال المستوطنين اليهود لم ترحب به الصحافة المصرية المحلية ويضيف « ان المستوطنات اليهودية الزراعية قد تؤدي الى هجرة نحو الدلتا فيزيدون عدد العاملين بالربا من الاجانب الذين يكسبون معيشتهم على حساب الفلاحين » من أجل ذلك ولعدم الرغبة بادخال عناصر جديدة نحو سيناء في وضعها الحالي ، حث تشيتام وزارة الخارجية لتوجيه تعليماتها الى القنصل البريطاني في القدس كي يستخدم كل السبل الممكنة لوضع حد لاعمال وكلاء الجمعيات اليهودية في محاولتهم انشاء مستوطنات في المنطقة المصرية التي تحاذي الحدود التركية .

وبعد اطلاع وزارة الخارجية البريطانية على هذا التقرير بعثت بتعليماتها الى السفارة البريطانية في الاستانة التي تولت ابلاغها الى القنصل البريطاني في القدس في ١٧ تموز/ يوليو ١٩١١ (٥٠) وفي ٢٣ آب/ أغسطس ١٩١١ ذكر القنصل البريطاني في القدس في رسالته الى لوثر السفير البريطاني في الاستانة (٥١) بان عمليات الشراء قد توقفت تماما ، ولكنه أبدى تعاطفا على موقف كنزفيتش . ويشرح القنصل كيف تعاقد كنزفيتش وشريكان آخران ( أحدهما فرنسي التبعية والاخربريطاني التبعية ) مع شركة تطوير الاراضي لشراء ٥٠٠٠٠ دونم من الارض مع مساحة كبيرة من الاراضي الرملية ، ولو فشلوا في اتمام البيع عليهم أن يدفعوا غرامة ١٠٠٠٠ فرنك ولم يتم الى الان سوى شراء ٢٥ - ٣٠ ألف دونم من الارض وحوالي ٢٥ ألف دونم من المساحات الرملية وقد تم اقتراض مبلغ ٦٠٠٠٠ فرنك من كنزفيتش لتنفيذ الشراء وكتبت الصكوك باسمه واسم شريكه .

ولو رفضت الحكومة المصرية السماح بنقل الصكوك من اسمه الى اسم الشركة في يافا سيتعرض هو وشريكاه لخسارة فادحة . ويذكر القنصل البريطاني انه قد نصحه للتوجه الى بلدة (نخل) ومقابلة باركربيك، حاكم سيناء لطلب الاذن بنقل صكوك الارض ، ويقترح القنصل أخيرا بان

على الحكومة المصرية الان أن تسمح باتمام عملية النقل أو التعويض على  
كنز فيتش وشركائه .

وانحصرت مطالعات المسؤولين في وزارة الخارجية البريطانية على  
هذا التقرير حول نقطتين : هل كان تصرف كنز فيتش سيئا أم لا ؟ وهل  
يستحق التعويض ؟ بعض الآراء كانت ترى انه لا يستحق التعويض ، وحتى  
لو أن تحذيرات لوثر قد جاءت متأخرة بعد انتهاء عملية البيع كان الاجدر  
به أن يعرف منذ الصفقات الاولى معارضة الحكومة المصرية أما غالبية الآراء  
فلم توقع اللوم على كنز فيتش لانه تلقى على ما يبدو اذنا من السردار وان  
الصفقة كانت مفتوحة وعلنية ، واستقر الرأي أخيرا على أن يرسل غراي  
رسالة الى تشيتام في ١٨ ايلول/سبتمبر ١٩١١ (٥٢) بانه يتفق في الرأي مع  
القنصل البريطاني في القدس بان كنز فيتش قد تصرف بحسن نية  
معتقدا بان الحكومة المصرية لم يكن لديها اعتراض على العملية .

ولم تتلق وزارة الخارجية البريطانية ردا من مصر على قضية  
التعويض ، وبدأ وكان عمليات الشراء قد توقفت طبقا للتعليمات السابقة  
التي أرسلت الى القنصل البريطاني في القدس .

وتوقفت المراسلات حول الموضوع عدة شهور لتعود فتجدد  
في ١٧ حزيران / يونيو ١٩١٢ حين أرسل القنصل البريطاني الجديد في  
القدس مكريغور Mc Gregor برقية الى السفير البريطاني في الاستانة  
( مارلنغ ) Marling تفيد بان القنصل في غزة قد تلقى تعليمات من  
ستاك بك Stack .أمدير المخابرات في الحكومة المصرية لمقابلته  
( بيميش بك ) في العريش في ٢٠ حزيران/يونيو لمسألة تتعلق بالاراضي  
التي يتولى شراؤها كنز فيتش ، وكانت وجهة نظر القنصل انه من غير  
المرغوب فيه ان يتلقى القنصل تعليمات مباشرة من موظفين مصريين .  
وقد بعث ( مارلينغ ) اثر ذلك برقية الى كتشنر Kitchener  
( المعتمد البريطاني الجديد ) في ١٨ حزيران يونيو يستوضح الامر ،  
ونفت برقية كتشنر ( بنفس اليوم ) خبر ارسال ستاك أي تعليمات  
الى كنز فيتش كما وان ( بيميش ) موجود حاليا في الطرف الجنوبي من  
سيناء ولكن كتشنر لا يستبعد أن تكون جرت مراسلات شخصية بين  
حاكم سيناء وكنز فيتش الذي تولى عمليات شراء ( غير شرعية ) لاراضي  
تتبع الحكومة من بعض المواطنين . ولذلك رأت السلطات المحلية وجوب  
استدعاء كنز فيتش ، وابلغ مارلنغ ( مكريغور ) برقيا في ١٩ حزيران/

يونيو (٥٢) بانه يتعذر عليه الموافقة على منح اجازة الى كنزفيتش بشأن هذه المسألة مالم يقتنع القنصل ان هدف كنزفيتش الوحيد هو وضع حد لمشروع البيع كاملة .

ويبدو ان كنزفيتش ظل يلح على طلب اجازة تفتيشية للتوجه الى الحدود المصرية لامر يتعلق بعمليات شراء الارض ، وعاد مكريغور في رسالته الى السفارة البريطانية في الاستانة ١ آب/اغسطس ١٩١٢ (٥٤) يجدد الطلب مؤكدا ان كنزفيتش مازال يعمل على شراء أرض استيطان يهودية وهو أمر يثير حيرة القنصلية في القدس بشأن الموقف الواجب اتخاذه حيال هذه الصفقات وخاصة انه لم يصل بعد جواب رسالة ساتو ٢٣ آب/اغسطس ١٩١١ التي يظهر فيها الاخير تعاطفه مع موقف كنزفيتش وحقه بطلب التعويض في حالة تمسك الحكومة المصرية باعتراضها على مشاريع الاستيطان ، ولم يبد القنصل الجديد نفس القدر من التعاطف وكان برأيه ان موقف السفارة في الاستانة سيكون أفضل مما هو عليه الان لو انها ناصرت آراء الحكومة المصرية وذلك باعطاء تعليماتها الى القنصل البريطاني لاتخاذ كل مايلزم لوقف شراء الاراضي لليهود وكان مكريغور يعرف وجود تعليمات سابقة الى القنصلية ، الا انه يشعر ان تنفيذ هذه التعليمات يواجه صعوبة بالغة لانها تعني الامتناع عن مساعدة اليهود المتمتعين بالحماية البريطانية .

وأبلغت قنصلية القدس كنزفيتش بصورة شخصية ان البيع لايزال مستمرا بطريقة سرية ، وحذرته بضرورة التيقظ ، وامتنعت السفارة البريطانية في الاستانة عن اعطاء الاذن لكنزفيتش بمغادرة المنطقة من أجل قضية شراء الاراضي ( التي دعاها كتشنر بانها عملية غير شرعية ) مالم تتأكد السفارة مسبقا ان هدف كنزفيتش هو وضع حد نهائي لعملية الشراء (٥٥) .

وأبلغت وزارة الخارجية بالتطورات الاخيرة في ١٤ آب/اغسطس ١٩١٢ في رسالة بعث بها مارلنغ (٥٦) مستفسرا عن رد القاهرة فيما يتعلق بالتعويض على كنزفيتش نظرا لحسن نيته ولذلك بعث لورد غراي وزير الخارجية في ٢٦ آب/اغسطس ١٩١٢ الى مصر (٥٧) لحث السلطات البريطانية فيها على ارسال رد على رسالته ١٨ ايلول / سبتمبر ١٩١١ ويعترض فيها على تقييم لورد كتشنر لتصرف كنزفيتش .

وكان على السلطات البريطانية في القاهرة أن توضح ماالتبس من الامور في هذه القضية ونظرا لغياب كتشنر المعتمد البريطاني ( في ذلك الحين ، فقد تولى تشيتام ( وكيل المعتمد ) التوضيح في رسالة غير رسمية في ١٤ ايلول/سبتمبر ١٩١٢ (٥٨) وشرح تشيتام انه لايتفق في الرأي مع القنصل البريطاني في القدس بشأن حسن نية كنزفيتش الذي بناه على الرسالة التي تلقاها فرمکن ( ٨ آب/اغسطس ١٩٠٨ ) من بيميش ( مفتش سيناء ) ما اذا انه قد ذكر نصف الرسالة وأهمل الجزء الاخر وفيها يحذر بيميش من « مواجهة صعوبة قصوى في شراء أرض ذات حقوق ملكية واضحة لانزاع عليها ويرى تشيتام ان كنزفيتش بهذا التصرف يتهم بطمس الحقيقة ، ورغم التحذيرات المتوالية التي أرسلت الى كنزفيتش مباشرة لتنيه عن مشروعه فقد استمر بشراء الارض معتمدا على نفوذه القوي الذي أمل باستخدامه للتغلب على الصعوبات التي تمنع السلطات المصرية من تملك وكلائه الاراضي التي يمكن شراؤها .

وأوضحت رسالة كتشنر الى وزير الخارجية في ١٣ تشرين أول/ اكتوبر ١٩١٢ (٥٩) بعض النقاط الغامضة اذ ان كنزفيتش يدعي انه اشترى الاراضي بناء على تعليمات من فرمکن وان هذا الاخير قد اعتمد على رسالة من بيميش تشير الى ان الشراء ليس مستحيلا وان كانت تحيط به صعوبة بالغة لعدم توفر حقوق ملكية واضحة للاراضي ان هذا سيعرقل تنفيذ المشروع ، ولذا فان فرمكين ، كما يرى كتشنر بشرائه اراضي في سيناء في مثل هذه الظروف انما كان يتصرف على مسؤوليته الشخصية ، وان تقدير فرمكين لصعوبة الموقف قد تبين في خطوته التالية لانه بعد مرور سنتين ( ٩ نيسان/ابريل ١٩١٠ ) قد رفع مذكرة الى جورست - سلف كتشنر - يلخص فيه مشروع الاستيطان ويطلب المساعدة لتنفيذه ، وكان جواب جورست سلبيا ومقتضبا ومع ذلك فقد أجرى فرمكين قبل نهاية ١٩١٠ عدة صفقات لشراء اراضي قرب الحدود التركية ، وبناء على ذلك فان كتشنر لا يوافق على الرأي القائل بان الحكومة المصرية لم يكن لديها اعتراض على العملية .

وعاد كتشنر ليؤكد من جديد الاعتراضات التي أوردها تشيتام في رسالة سابقة ١٧ حزيران/يونيو ١٩١١ حول الظروف الخاصة السائدة في سيناء مضيفا الى ذلك بان السلطات في مصر ليست مستعدة لضمان حياة وملكية مستوطنين غرباء في العرق والدين قد ينجحون في التغلغل



عنوة بين السكان المواطنين من العرب ( والبدو ) وليس باستطاعة الحكومة المصرية في مثل هذه الظروف ان تتصل من كل مسؤولية حتى ولو كان هؤلاء المستوطنون من الرعايا البريطانيين . يضاف الى ذلك ان كتشنر يعرف ان الحكومة المصرية كانت قد رفضت سابقا أي فكرة للاستيطان في سيناء ويشير الى ان كنزفيتش كان في القاهرة في أوائل الصيف وقابله موضعا انه قام بحسن نية « بشراء أراض معظمها كثبان رملية وقد أوضح له كتشنر بانه لا بد قد خبر بنفسه ( أي كنزفيتش ) نظرا لانه عاش فترة طويلة بجوار الحدود المصرية - ان مثل هذه الاراضي غير المأهولة تخص الحكومة ، سواء في ظل القانون المصري أو التركي وشراؤها انما هو استثمار غير سليم لاموال موكلية .

واتفقت آراء الدائرة الشرقية في وزارة الخارجية البريطانية مع رأي كتشنر ، وتقرر ضرورة سحب ماورد في رسالة وزير الخارجية ١٨ ايلول/سبتمبر ١٩١١ بعدم لوم كنزفيتش والتعويض عليه لانه فعلا لا يستحق أي تعويض وأبلغت الاطراف المعنية بآراء وزارة الخارجية حول هذا الامر (٦٠) .

لقد كانت الدوافع الرئيسية التي تكمن وراء اعتراض السلطات في مصر على حصول كنزفيتش وشركائه على اراض من اجل اغراض الاستيطان قرب الحدود المصرية التركية ، انما خشية أن يؤثر ذلك على علاقات الحكومة البريطانية مع السلطات العثمانية من جهة ومع القوى المحلية في مصر من جهة أخرى . ولم تمنع هذه الحقائق منظمات الاستيطان اليهودية عن اتباع أساليب جديدة لاتمام عمليات الشراء .

وعن طريق ثرية انجليزية تقيم في القدس اسمها ( مس بالمير ) وصفها مكريغور في رسالته الى السفارة البريطانية في الاستانة في ٢٠ تشرين ثاني/نوفمبر ١٩١٢ (٦١) « بأنها ساذجة التفكير نوعا ما وقعت تماما تحت تأثير يهودي ذو سمعة مشبوهة اسمه فينجولد Feingold (٦٢) يبدو أنه تم له الاشراف التام على أمورها » ، بحث كنزفيتش وشركاؤه عن حماية القنصلية البريطانية لمؤسسة « شركة شراء الاراضي في فلسطين » .  
Palestine Land Purchase Company

التي يزمعون تأسيسها لشراء اراض في المنطقة المجاورة للعريش ورفع ، وقد ابلغت مس بالمير القنصل البريطاني أن الشركاء هم سليم أيوب

( من التبعية العثمانية وهو قنصل ايران في القدس ومدير البنك التجاري  
Banque Commerciale de Palestine  
الفلسطيني ) .

وعموش Amush يهودي فرنسي يقيم في غزة ، وكنزفيتش ( وكيل  
القنصل البريطاني في غزة ) ويبدو أن الاخيرين كانا قد اشترى ارضا  
بمساحة / ١٦٠٠٠ / دونم تقع بين المنطقة المصرية والمنطقة التركية ،  
وعزما الحصول على / ١٨٠٠٠ / دونم أخرى ، وقد وافق سليم أيوب أن  
يساهم بـ / ١٢ / ألف فرنك في المؤسسة ، بينما تعهدت مس بالمير اقراض  
المبالغ الاضافية الاخرى .

ان الهدف النهائي لهذه المعاملات كما يرى مكريغور ، هو نقل  
الارض المذكورة الى مؤسسة الاستيطان اليهودية المعروفة باسم « شركة  
تطوير الاراضي الانجلو فلسطينية » Anglo-Palestine Development Company  
ودخول ( مس بالمير ) شريكا يضمن للشركة بالاضافة الى المساعدة المالية ،  
حماية القنصلية البريطانية في قضية نقل حقوق الملكية ، وكانت النية  
ان تؤسس الشركة وتسجل في القاهرة ، على ان يقام لها فرع في القدس  
تحت الحماية البريطانية ، وحاول القنصل كما ورد في رسالته السابقة -  
أن يقنعها بالتخلي عن المخاطرة بنقودها في عملية مزعجة وغير مربحة ،  
وأوضح لها أن تأسيس الشركة في مصر يجب أن يخضع للشروط القانونية  
الموجودة في ذلك البلد ، ولايتبع بالضرورة أن تقدم القنصلية الحماية  
لفرع الشركة في القدس . ونجح أخيرا ، كما جاء في رسالته الى السفارة  
البريطانية في الاستانة ٢٢ تشرين ثاني/نوفمبر ١٩١٢ (٦٣) ، الى اقناع مس  
بالمير بالتخلي عن فكرتها في الانضمام الى الشركة .

توقفت عمليات الشراء رسميا ولايعرف الى أي مدى صحة ماشرته  
جريدة ( الحقيقة ) اليهودية التي تصدر في القدس بالانجليزية في ٣١  
شباط/فبراير ١٩١٣ ، نقلا عن وكيل اراضي وصاحب بنك مشهور في  
القدس بأنه نجح في شراء اراض من الحكومة البريطانية مساحتها  
/ ١٢٥٠٠ / هكتار من الاراضي المجاورة لرفح والعريش وأنه تم نقلها  
الى جمعية صهيونية جديدة تعرف باسم (اغوداث يسرائيل) Agudath Yisrael  
ودعم قوله - كما تقول الصحيفة - باظهار صكوك التملك التي منحتها  
الحكومة المصرية وأقرها الخديوي وكتشتر على التوالي . وقد تساءلت  
الجريدة « لو أن ارميا الذي كره مصر كثيرا ، قد عاش الى هذه السنوات ،

هل سينظر بارتياح لاقامة اليهود ( المؤقتة ) في مصر بدلا من فلسطين « ،  
وتجيب « بأن أرميا اشار الى مصر في ظل حكم فرعون وليس مصر في ظل  
حكم عباس الثاني وجورج الخامس .. » .

ونقلت الصحف العربية ( فلسطين في يافا والمقتبس في دمشق  
في ٨ نيسان/ابريل ١٩١٣ عن جريدة ( الاجيشن غازيت ) مقابلة قام  
بها أحد المحررين مع العازار بن يهودا ( صاحب جريدة هادر في القدس )  
وهو لغوي يهودي ، وسأله عن مسألة المستعمرة التي يشاع أن جمعية  
صهيونية تريد انشاءها في رفح « وشرح ابن يهودا « بأن الحكومة المصرية  
قد أقامت بعض الصعوبات في سبيل انشاء هذه المستعمرة أولا لانها  
لاتعترف بصحة فراغ هذه الاراضي لعدم وجود مايثبت ملكيتها في أيدي  
البدو الذين يقطنونها ، وثانيا لانها لاتريد من الوجة العسكرية أن  
تسمح لجماعات من الروس والالمان الاسرائيليين أن يؤسسوا لهم  
مستوطنات في أهم نقطة على الحدود بين مصر وفلسطين وثالثا لان هناك  
مشكلة ادارية وهي أن شبه جزيرة سيناء ورفح من ضمنها تابعة لحكومة  
السودان » .

ولكن ماهو مؤكد أن فكرة انشاء مستوطنة على الجانب المصري من  
الحدود قد تخلى عنها واقتصرت محاولات الشراء على الجانب التركي  
من الحدود .

ولم يكن الموقف البريطاني من عمليات الشراء يعني توقف الاهتمام  
بالمصالح البريطانية على الحدود التركية المصرية ، فقد أثرت مجددا  
مسألة الدفاع عن الحدود الشرقية لمصر نتيجة لتغير الاوضاع في الدولة  
العثمانية بعد تراجعها كقوة عسكرية اثر الحرب الطرابلسية ١٩١١  
وحروب البلقان ١٩١٢/١٩١٣ ، واستبعدت السلطات العسكرية في  
انجلترا احتمال قيام الدولة العثمانية بعمليات هجومية ضد مصر عبر  
شبه جزيرة سيناء(٦٤) ولم يوافق كتشنر - المعتمد البريطاني في مصر ،  
على انقاص القوة العسكرية في مصر ، اذ برأيه أن عودة القوات المنهزمة  
المتلثة بالعداء المرير للاوروبيين بعد انتهاء الحرب البلقانية سيكون مصدر  
قلق للسلطات في مصر(٦٥) . وبرأي السفارة البريطانية في الاستانة « أن  
الفعاليات العسكرية الفائزة لدى الترك سوف تبحث عن مجال جديد  
في مناطق جنوب سورية والحدود المصرية .. وخاصة أن القلق الخطير  
في العالم العربي الذي يبدو محتملا سوف يعمل كمتنفس لمثل هذه

الفعاليات (٦٦) . . . وعبر لورد جراى وزير الخارجية عن رايه الى وزارة  
الحربية في ١٤ آذار/مارس ١٩١٣ بقوله « . . . ان طاقة تركيا المتبقية  
قد تتحرك نحو اتجاهات أخرى . . . وقد تدفع جنوبا عندما لا تشغلها  
مشاكلها السابقة في أوربة » (٦٧) .

ويفسر هذا زيادة الاحتمام البريطاني بما كان يحدث في فلسطين  
نتيجة للهزائم التركية ، وسعت الاجهزة البريطانية ترويج الدعاية القائلة  
بأن أحسن بديل للحكم العثماني في هذا الجزء من العالم هو امتداد الحدود  
المصرية الى حدودها القديمة في عكا . وكان هذا الرأي ينتشر قبلا بين  
اليهود الا أن الدعاية البريطانية حاولت نشره بين سائر الاوساط ، ولعب  
نائب الفنصل البريطاني في غزة (٦٨) لوجوده قرب الحدود المصرية التركية  
ولعلاقاته الوثيقة بالاهاالي ، دورا كبيرا بنقل أخبار منطقتة ومنطقة بئر  
سبع ورغبة القبائل البدوية هناك في الالتحاق بمصر (٦٩) ، وكان كتشنر قد  
عبر في رسالته الى كنزفيتش في شباط/فبراير ١٩١٢ عن شكره لما قدمه  
من خدمات لحكومته حول التحركات التركية الاخيرة - أثناء الحرب  
الطرابلسية - في المناطق المجاورة لسيناء ، وعبر كنزفيتش في جوابه عن  
شعوره بأنه قد أدى واجبه تجاه حكومة جلالته (٧٠) .

ونظرا لان فرنسا كانت قبل الحرب العالمية الاولى تعتبر صاحبة  
الادعاء الاول في سورية وأنها البديل الوحيد للحكم العثماني في سورية ،  
فقد بدأت الصحافة الفرنسية توجه اتهامها بوجود تأمر بريطاني على  
سورية لاحتلالها وأن مصر مصدر هذا التآمر (٧١) وانكر كتشنر في  
رسالته الى غراى في ٨ كانون اول/ديسمبر ١٩١٢ (٧٢) هذا الاتهام مع  
تأكيدة على وجود شعور موالي لبريطانية في سورية . واعلن بوانكاريه  
R. Poincaré رئيس وزراء فرنسا أمام البرلمان الفرنسي في كانون أول/  
ديسمبر ١٩١٢ موقف بريطانية في نفي تهمة التآمر على سورية ، ورأت  
الصحف الفرنسية بأن ذلك اعتراف من بريطانية بالمصالح الفرنسية (٧٣) .

وهكذا فان دوائر الخارجية البريطانية قد قبلت قبل الحرب  
العالمية الاولى بالرأي القائل بأن سورية هي منطقة نفوذ سياسي فرنسي ،  
الا أن السؤال الوحيد الباقي والذي يهم المصالح البريطانية الحيوية  
هو أين يرسم الحد الجنوبي ( لسورية الفرنسية ) في المستقبل ؟ أو  
بعبارة أخرى ماهو مصير الجزء الجنوبي من الشاطيء الذي يحمل الاسم  
التاريخي لفلسطين ؟ واكتسب الرأي القائل بأنه في حالة تجزؤ الامبراطورية

العثمانية يجب بذل الجهد لفصل سورية الجنوبية حتى مينائي حيفا وعكا وتشكيل كيان منفصل تحت النفوذ البريطاني ، اكتسب هذا الرأي تأييدا في دوائر معينة في مصر وانجلترا ، ومن المعروف أنه قد رسخت في ذهن لورد كتشنر ( المعتمد البريطاني في مصر ) منذ ايلول/ سبتمبر ١٩١١ وحتى اندلاع الحرب هذه الفترة وعمل على نشرها في الدوائر الرسمية قبل الحرب (٧٤) . وكان اهتمام كتشنر بالشرق قد بدأ منذ عمله مع صندوق الاكتشاف الفلسطيني Palestine Exploration Fund ومشاركته في البعثات الاستطلاعية التي قام بها الصندوق ، وقد تولى مع الليفنتنت كوندر Conder عملية مسح معظم فلسطين بين ١٨٧٢ - ١٨٧٨ ، كما شارك في عمليات مسح في منطقة شرق الاردن وفي شبه جزيرة سيناء حتى وادي عربه ، وقد أتم العمل الاخير بعد /٤٠/ سنة لحساب الصندوق وبتخطيط من كتشنر وبايعاز من وزارة الحربية مهندس بريطاني آخر ( لعب دورا هاما في مسرح العمليات الشرقية في الحرب الاولى ) وهو الكابتن نيوكومب Newcomb ١٩١٣ - ١٩١٤ وعمل معه عالما آثار كانا يعملان في بعثة للمتحف البريطاني للتنقيب في تركيا ، هما لورنس T. E. Lawrence وولسي Woolley قبل أشهر قليلة من اعلان الحرب (٧٥) .

وتمكنت البعثة من مسح صحراء سيناء في المثلث بين بئر السبع والعقبة - وادي عربة وعدلت نتائج تحرياتهما الى حد كبير الفكرة السائدة بأن نقص المياه ومصاعب النقل تمنع أي هجوم خطير من فلسطين ، كما أن المعلومات التي قدمتها البعثة عن الصفات الطبيعية ووصف الاماكن ومواقع المياه مع الصور التوضيحية والمخططات كانت ذات قيمة كبرى بعد نشوب الحرب حين توجهت الانظار في شمال سيناء . ولم ينشر ( صندوق الاكتشاف الفلسطيني ) هذه الدراسة والخرائط التوضيحية الملحقة بها في حينه بناء على طلب وزارة الحربية التي رأت « أنه من غير المرغوب أن تصل الى عدو يمكن أن يجعل هذا البلد قاعدة للهجوم على مصر » . ونشر البحث تحت عنوان ( صحراء التيه ) بعد احتلال القدس ١٩١٧ .

ولما تفجرت الحرب وانضمت تركيا الى دول الوسط لم تكن بريطانيا على استعداد لاحتلال الجزء الجنوبي من فلسطين والدفاع عن مصر من جهة حدودها الشرقية ، فتخلت لفترة عن الجزء الاكبر من

سيناء للقوات التركية وقنعت بصد الهجمات عن القناة ، وفي الايام الاولى من شباط/فبراير ١٩١٥ تقدم جيش تركي قوامه /٢٠٠٠٠/ مقاتل نحو منطقة القناة وهاجم عدة مواقع وأمكن رده بسهولة ، ولكن مجيء الجيش التركي كان درسا موضوعيا للاستراتيجية البريطانية بالنسبة للخطر الذي يهدد مصر والقناة من عدو يحتل فلسطين . وهذا أكد حقيقة هامة هو أن أي انتصار بريطاني في الحرب سوف يستلزم مد مواقع سيناء المتقدمة الى داخل فلسطين .

وفي مقال بعنوان The Partition of Asia Minor نشر في مجلة Fortnight

Review في نيسان / ابريل ١٩١٥ الح كاتبه J. B. Firth

على فكرة أن « أية حكومة بريطانية لا يمكنها أن تدعي عبء الحماية على فلسطين الا لضرورة عسكرية » . ونقل هذا المقال جابوتنسكي Jabotinsky ( الصحفي الصهيوني ) عام ١٩١٦ (٧٦) في محاولته اثاره اهتمام بريطانيا بفلسطين استراتيجيا بحجة الدفاع عن القناة ومصر وذلك لكسب دعمها للقضية الصهيونية ، يمضي المقال قائلا لا يمكن للصحراء ان تكون حدا حصينا ولكن يمكن ان تكون شيئا مخيفا .. انما خط قناة السويس هو أكثر سهولة من حيث الدفاع عن أي حد آخر يمكن أن يرسم بينه وبين فلسطين وسوريا .. » . ويورد الكاتب رأي صحفي أجنبي شهد اشتباكات السويس شباط/فبراير ١٩١٥ ووجد أنها غنية بالعبر .. . اذ قال : « .. أخشى انكم في انجلترا تخطون بين أمرين الدفاع عن مصر والدفاع عن قناة السويس ، الاول أكثر أمنا ولكن ليس بسبب الصحراء ، فالصحراء لم تمنع العدو من الاقتراب ، انما الذي حمى مصر هو القناة التي هي حاجز حصين ، انما يجب أن نعتبرها فقط وسيلة دفاع ، ولكن القناة بحد ذاتها ثروة يجدر حمايتها ، فهي السبب الوحيد الذي اختارت انجلترا من أجله الاحتفاظ بمصر ، وقيمتها بالنسبة لانجلترا هي اعظم منها بالنسبة لمصر ، والان تعاملون القناة ببساطة وكأنها خندق أمامي أو مخفر متقدم للقلعة المصرية ، على اعتقاد أن أي عدو يملك فلسطين يصعب عليه التقدم نحو مصر .. ولكن الا يحتمل أن يعطل القناة في أثناء المعارك ، ان هذا سهل .. الا انه من المؤكد أن الاتراك ليس في متناول أيديهم كل الوسائل اللازمة لتخريب القناة ولكن لو أصبحت فلسطين في المستقبل قاعدة لدولة كبرى مجهزة بوسائل فنية حديثة ، فلا شك أن المسألة ستختلف تماما ، ولو تساءلنا لماذا تختارون القناة كخط دفاع أول بدلا من اقامته على حدود مصر بين العريش والعقبة ؟

الجواب على ذلك هو الصحراء ، لان المدافعين عن مصر لو لاقوا العدو في العريش ستكون الصحراء وراء ظهورهم وسيعانون من البعد عن قاعدتهم ومن بطء خدمات النقل ونقص المياه فالصحراء قد تحميك قليلا لو كانت امامك ولكنها تقتلك وراء مواقعك ، بينما يكون وراء عدوك مباشرة بلاد مأهولة تزوده بالرجال والمؤن . . الاستنتاج الوحيد المنطقي : ان قيمة الصحراء سلبية نوعا ما ، ولا يمكن تأمين الدفاع المناسب للقناة الا ان تضع بين هذا الشريط الثمين من الماء وأي عدو في المستقبل شريطا من الارض يجمع ميزتين : أن يسمح لعمليات واسعة النطاق ويكون مزروعا ومأهولا وملائما كي يشكل خلفية مناسبة لتجهيز الجيش بكل مستلزماته . . ان فلسطين بالنسبة للقناة تماما كما هي طنجة بالنسبة لجبل طارق .

يلق جابوتنسكي على رسالة الصحفي بقوله « كانت بريطانيا تتجنب دوما أن يكون لها حدود برية مشتركة مع الدول العسكرية ، وهذا من الناحية العملية سياسة حكيمة لان البحر خط حدود مثالي لايسمح لاي تجاوز ولكن نظرا لان الحدود بين مصر وسوريا هي حدود برية فلا جدوى من جعلها صحراء ، لان الصحراء وحدها دون سائر الحدود الممكنة يمكن تجاوزها وعلى الاغلب بسهولة ، لان هناك اندفاع مستمر من المناطق الصحراوية نحو المناطق المتحضرة ، لذا فان عامل الحضارة يؤمن حدودا تفصل أي جدار من الحراب » (٧٧) .

لقد تحققت بريطانيا بعد كل هذه الاعتبارات ونتيجة للمراحل الاولى للحرب أهمية فلسطين الاستراتيجية ، والخطر على مصر والقناة من عدو يحتل مصر ، وان الضرورة العسكرية تحتم مد حدود سيناء ، وهذا ما شرحه هربرت صموئيل H. Samuel وكان وزيرا في وزارة اسكويت Asquith في مذكرته الى وزير الخارجية لورد غراي ( ٩ تشرين ثاني/نوفمبر ١٩١٤ ) بانه « . . لو قدر لفلسطين أن تحظى بمصير جديد فان بريطانيا هي صاحبة الشأن الاول بما لها من مصالح استراتيجية هامة في المنطقة . . وعلى حكومتنا أن تولي عنايتها الجدية موضوع من سيخلف الاتراك في السيطرة على فلسطين البلد الذي يتاخم قناة السويس » (٧٨) .

الا أن جميع الاطراف المشتركة بالحرب كانت تهتم أيضا بمستقبل فلسطين كجزء من موضوع مستقبل الامبراطورية العثمانية في آسيا ،

ولكن بالنسبة لبريطانيا - المسؤولة عن أمن مصر - فكان لها مصلحة تقليدية الاهتمام بفلسطين زادت الظروف الاستراتيجية الناجمة عن الحرب أهمية وخاصة حين أصبحت فلسطين هي المنطقة التي يجب ان توجه منها بريطانيا الضربة الاخيرة للدولة العثمانية لخراجها من الحرب .

ومن أجل تنفيذ خطة سياسية عسكرية لحصول بريطانيا على فلسطين ، بحيث يكون لها الاشراف المنفرد عليها ، أخذت تتحرك ببطء ، فأخرجت فلسطين أولا من دائرة نفوذ فرنسا وهذا ماأوصت به لجنة داخلية عينتها وزارة الخارجية برئاسة موريس دوبونزين M. de Bunsen عام ١٩١٥ لوضع صيغة سياسية لمستقبل الامبراطورية العثمانية في آسيا « بأن يعترف بفلسطين كبلد يكون مصيرها موضوع مفاوضات خاصة تهم جميع الدول المتحاربة والحيادية » (٧٩) . وفي اتفاقية سايكس بيكو ١٩١٦ وافقت بريطانيا على وضع فلسطين تحت الاشراف الدولي - عدا خليج عكا وحيفا - تمهيدا لنقلها الى منطقة النفوذ البريطاني .

ولما قامت القوات التركية بهجوم غير ناجح صيف عام ١٩١٦ على القناة أصبح أمرا منذرا بأن أحسن طريقة لتأمين القناة ضد أي هجوم هو حمل هذا الموقع المتقدم حتى الجليل . وهذا الاعتبار هو الذي أثر على القرار الذي اتخذته الوزارة البريطانية في خريف ١٩١٦ بمهاجمة الجيوش التركية في فلسطين ( وكان الاتفاق مع الحسين قد انتهى واعلنت الثورة العربية ) . وفي كانون أول/يناير ١٩١٧ اجتازت ( الحملة المصرية البريطانية ) الحدود المصرية التركية السابقة  
Egyptian Expeditionary Force

في رفح لتنقل الحرب ضد الدولة العثمانية نحو آسيا ، واصبحت فلسطين مرة أخرى في التاريخ أرض معركة لونها الجسر الطبيعي بين آسيا وافريقية ورفضت القوات البريطانية أن يشاركها في احتلال فلسطين قوات أخرى من الحلفاء بما فيهم قوات الثورة العربية ، في وقت سمحت فيه لفيلق يهودي بالالتحاق بالحملة البريطانية . كما تعاونت مع شبكة تجسس صهيوني (٨٠) .

ونتيجة لضرورات الحرب توجهت بريطانيا نحو تعزيز حركة كانت موجودة مسبقا تحت يدها وهي الحركة الصهيونية ، لوجود تقليد طويل من الاهتمام البريطاني بالصهيونية لم تخلقه الحرب بل أعطته اتجاهها جديدا . وكذلك رأت الزعامة الصهيونية أن تحقيق مطامعها في فلسطين أصبح أقرب الى الواقع .



واستغل الصهيونيون الفكرة التي تبناها الساسة البريطانيون والرأي العام باحتمال حدوث تغير في العلاقات بين مصر وفلسطين في نهاية الحرب كي يحاولوا اثارة الاهتمام البريطاني بالاستيطان اليهودي في فلسطين ، وأمني الصهيونية بمستقبل فلسطين ، ذلك البلد الذي يجاور مصر ( المحمية البريطانية ) وأوضح هربرت صموئيل في مذكرته الى غراي في ٩ تشرين ثاني / نوفمبر ١٩١٤ ( المشار اليها سابقا ) ان « الفرصة قد سنحت لتنفيذ أمني الشعب اليهودي واعادة انشاء دولة يهودية . وأعتقد أن النفوذ البريطاني سيقوم بدور هام في تأسيس مثل هذه الدولة لان وضع فلسطين الجغرافي وقربها من مصر يجعل صداقتها البريطانية أمرا له أهميته للامبراطورية البريطانية » (٨١) . وكتب وايزمان عن مساعيه لدى الدوائر البريطانية : « لقد أشرنا طويلا على البريطانيين ، وأعدتها مرارا في مقابلتي مع لورد روبرت سيسل R. Cecil وكيل وزارة الخارجية . . ان فلسطين اليهودية ستكون حامية لبريطانية وخاصة فيما يتعلق بقناة السويس » (٨٢) وفي رسالة الى محرر المانشستر غارديان ( صحيفة حزب الاحرار ذات النفوذ ) في ١٢ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩١٤ قال « لو أن فلسطين وضعت داخل نطاق النفوذ البريطاني ، ولو أن بريطانيا شجعت الاستيطان اليهودي هناك كمحمية بريطانية فسيكون لها خلال عشرين أو ثلاثين سنة ستة ملايين يهودي ، وربما أكثر ، لتطوير البلد واعادة الحضارة ، ويكونون حراسا فعالين لقناة السويس » (٨٣) .

وفي مذكرة في ٨ كانون ثاني/يناير ١٩١٥ كتب نورمان بنتويتش N. Bentwich وهو صهيوني بريطاني كان المستشار البريطاني في وزارة العدلية في مصر حينذاك (٨٤) الى أحد أصدقائه في وزارة الخارجية البريطانية لفت نظره الى أمني اليهود القومية في فلسطين وما يمكن أن يحققه الوجود الصهيوني بها من فوائد للمصلحة البريطانية في مصر بسبب الارتباط الاقتصادي والسياسي القديم بين البلدين ، وفي مؤتمر عقد في ١٤ نيسان/ابريل ١٩١٥ في لندن طرح ممثلوا الصهيونيين على المنظمات اليهودية الاخرى المسألة على النحو التالي (٨٥) « . . الان فرصة فريدة للحصول على فلسطين . . لانه لو انتصر الحلفاء في الحرب فالامبراطورية التركية ستتجزأ . . وستنزع فلسطين من الاتراك وهناك احتمال كبير ان تقع بيد انجلترا . . التي يمكن أن تقدم لليهود فرصة خلق وتطوير ( كومنولث يهودي ) كبير في فلسطين . لذا فعلى اليهود الا يضعوا هذه الفرصة

الفريدة . ان الصهيونية قررت حل المشكلة اليهودية والقضية الفلسطينية  
الان مرة واحدة والى الابد » .

وحت سوكولوف N. Sokolow أحد زعماء الصهيونيين - في  
مذكرته الى وزارة الخارجية ١٢ نيسان/ابريل ١٩١٦ (٨٦) «بأن تتبنى الحكومة  
البريطانية حماية الاماني الصهيونية في فلسطين . . لان اقامة ( كومونولث )  
يهودي في فلسطين بحماية انجلترا سيشكل جدارا فاصلا بين السكان  
العرب في آسيا وشمال افريقيا ، وهذا ليس بذي أهمية ضئيلة لدولة  
في حوزتها رعايا عرب . . والعنصر اليهودي ، بادخاله الحضارة الاوروبية  
كفيل بأن يساهم بنهضة وتقوية شعوب وولايات المنطقة طبقا لاهداف  
بريطانية » .

وبدأت دوائر صحفية في بريطانيا تنشر فكرة أن الاستيطان اليهودي  
في فلسطين سيكون له فوائد استراتيجية وقيمة سياسية للامبراطورية  
البريطانية . ومن هؤلاء سايدبوتام Sidebotham وهو المحرر والناقد  
العسكري في المانشستر جارديان ، وأصبح مسؤولا بالتعاون مع مجموعة  
من المنشستر جارديان لنشر هذه الفكرة ، ومن الحجج التي قدمها  
سايدبوتام في المانشستر جارديان « . . ان قناة السويس الشريان الحيوي  
لمواصلاتنا مع الهند . . لا يمكن أن يتم الدفاع عنها بصورة كافية على  
الضفتين . . ان الصهيونية في القدس يمكن أن تمنع نزوح هذا الهجوم  
التركي . . ويشير سايدبوتام الى أن هذه الحجة لم تكن جديدة فقبل  
شق القناة ، حين كانت لاتزال فكرة خيالية ، كتب ميتفورد Mitford  
عام ١٨٤٥ . . أن ايجاد أمة يهودية في فلسطين . . سيحدد أمورنا في  
الشرق . . ويضعنا في موقف يمكننا من أن نرد أي انتهاك لحدودنا . . وأن  
نرهب أعداءنا وعند الضرورة نرد تقدمهم » (٨٧) .

وقام سايدبوتام واصدقاؤه الصهيونيون في منشستر ( من يهود  
وبريطانيين ) بوضع مذكرة تتضمن اثاره الدعم البريطاني للصهيونية على  
أسس سياسية وعسكرية الى جانب الاسس الانسانية ، ورفعت الى  
وزارة الخارجية في ربيع ١٩١٦ (٨٨) ونتيجة لمساعي صهيوني منشستر وضع  
كتاب باسم الصهيونية ومستقبل اليهود . Zionism and the Future of Jews  
اشترك بتحريره عدد كبير من الصهيونيين غايته كما جاء في مقدمة وايزمان

للكتاب : « ان يضع بين أيدي الساسة الانجليز كتابا صغيرا حول معنى ومنجزات الصهيونية » .

ويذكر وايزمان في مذكراته (٨٩) « ان جزءا كبيرا من نجاح الكتاب يعود الى العرض الذي كتبه كرومر للكتاب ونشره في جريدة Spectator ومع ان كرومر لا يوضح بشكل كامل علاقة المسألة اليهودية بالمصالح البريطانية ، الا أنه كان لدى الصهيونيين الاعتقاد بأن لورد كرومر كان من أول السياسيين البريطانيين في تقدير أهميتها ، نظرا للوضع الجديد الذي خلقته الحرب بالنسبة لمصر ، والربط بين هذا الوضع وبين فلسطين اليهودية ( وان هذه العلاقة لم تكن جديدة بل تعود الى عام ١٩٠٢ ) . وقد انهى كرومر عرضه للكتاب « . . بأن الصهيونية ستصبح بسرعة أمرا عظيما . . وان السياسيين سيكونون قادرين قبل انقضاء فترة طويلة على التخلص من فكرة انها حلم خيالي لفئة من الحالمين » .

وتشكلت في الأشهر الأخيرة من عام ١٩١٦ في منشتر ومع تقدم القوات البريطانية في فلسطين جمعية باسم British Palestine Committee هدفها ترسيخ الترابط بين افكار ومصالح الصهيونية والسياسة البريطانية وبدأت باصدار مجلة اسبوعية باسم Palestine كانت تخدم المصالح اليهودية المقترحة تحت ستار خدمة مصالح الامة البريطانية وقد جاء في العدد الاول منها في ٢٦ كانون ثاني/يناير ١٩١٧ أن أسس سياسة وبرنامج الجمعية تقوم على مبادئ ثلاث :

الصحراء ليست أحسن حصن لمصر والقناة - العطف على الاماني الصهيونية - امكانية ربط تحقيق الاماني الصهيونية بمقدرات الامبراطورية البريطانية .

وقد جمع سايد بوتام كل هذه الافكار وبوجهة نظر أوسع مما كان ممكنا في مجلة Palestine في كتاب شامل باسم :

England and Palestine, Essays Towards the Restoration of the Jewish state. London, 1918.

هدفه ان يثبت الى أي حد تتسق فكرة الدولة اليهودية في فلسطين مع مصالح الامبراطورية البريطانية (٩٠) وهو يرجع هذا الترابط الى الوقت الذي نادى فيه نابليون باعادة الشعب اليهودي الى فلسطين كأحد عناصر مطمحه الشرقي ، ثم الى الآراء الانجليزية في القرن التاسع عشر التي كانت

تحت على توطين اليهود كدعم للسياسة البريطانية الشرقية . والمؤلف يرى أن الدبلوماسية البريطانية قد وقعت في اخطاء خلال السنوات السابقة حين تمسكت بالرأي التقليدي السلمي للحفاظ على تماسك تركيا ( مع أنها خرقت مرارا هذه السياسة التقليدية ) وفسحت بذلك المجال للنفوذ الالماني في الاستانة . وهو يرى أن الحرب وتدخل تركيا يستدعي تغيرا كاملا حيال الشرق في اوساط الخارجية البريطانية التي لا تزال تستبد بها العقلية التقليدية القديمة . وماتوصل اليه « أن مصر هي أهم مصلحة لنا في الشرق .. ومعنى ذلك أن فلسطين هي أهم مصلحة لنا .. لان فلسطين الآن وكما كانت دوما مفتاح مصر . ولذلك فان مشكلة الدفاع عن مصر ، والتي تدعى ( بكعب أخيل ) الامبراطورية البريطانية البحرية ، ذات مكانة فريدة في النظام الاستعماري الامبريالي البريطاني .. ولو جاءت الحرب التالية وحدودنا الحالية دون تغيير . فان العدو ( سواء كان الاتراك أو من يخلفهم ) سيكون وراءه بلد ذو مواصلات جيدة ومخزون هائل من المواد اللازمة لعبور الصحراء بين فلسطين وقناة السويس . ومهما اتخذنا من ترتيبات سواء تمسكنا بحدود مصر السياسية ، وحاربنا وظهرنا متجه الى الصحراء ، أو لو تركنا الحد السياسي وتنازلنا عن كل اقاليمنا في الجانب الفلسطيني من الصحراء ( وهو ما اقترحته تركيا وقت منازعات ١٩٠٦ ) وتفهقرنا الى خط القنال فالاعتراضات خطيرة في كلا الحالتين » .

ووصل المؤلف الى النتيجة التالية : « لا يوجد حتى الان نظام فعال للدفاع عن مواصلاتنا مع الشرق على خط القناة ، والحكمة الاستراتيجية توجب التقدم الى ما وراء ذلك الخط وتشكيل حصن متقدم امام الصحراء للدفاع عن أهم نقطة حيوية حساسة في نظامنا الامبريالي كله .. كل شيء يشير الى أن تلال يهودا هي الحامية الحقيقية لمصر ضد أي هجوم من سوريا .. » ويتساءل المؤلف : « .. كيف يمكن توسيع حدودنا دون أن نثقل أعباءنا العسكرية » ، الجواب على ذلك « عمل يشبه تجربتنا في الهند .. التي تتمتع في احد حدودها الشمالية الغربية المعرضة للهجوم بدولة حاجزة ( افغانستان ) ولو وسعنا حدود مصر الشرقية لاستطعنا أن نكسب الدولة الحاجزة المثالية من اجل دفاع افضل ولكنه أخف عبئا على مصر .. هذه الدولة الحاجزة في جنوب سوريا يمكن أن تقوم بعمل فعال تماما كما في الهند .. وتزيل كثيرا من الاعتراضات حول زيادة أعبائنا العسكرية » .

ينتقل المؤلف بعد ذلك الى نقطة هامة وخطرة « أن المستعمرين  
الوحيدين الذين يمكن أن يوجدوا في فلسطين ليشكلوا دولة كهذه وليكونوا  
الضمانة الاكيدة لسلامة مصر وحماية القناة هم اليهود .. لان الشعب  
الوحيد في هذه البلاد الذي لديه ارتباط عاطفي بأرض فلسطين هم الشعب  
اليهودي .. وهو قادر على انشاء دومنيون جديد على ساحل البحر  
المتوسط يرتبط بالعمل الامبريالي منذ البداية ويكون موقعا عسكريا قويا  
للسيطرة البريطانية في شرقي المتوسط .. ويشكل حماية ضد الشرق  
الغريب .. وكوسيط بيننا وبينه .. وحضارة تتميز عن حضارتنا ولكنها  
مشربة بأفكارنا السياسية وتتسق معنا في مرحلة التطور السياسي وتبدأ  
حياتها كاملة تدين بالولاء لهذا البلد » (٩١) وينتهي المؤلف الى فكرة :  
« أنه بدون دولة حامية لن تكون فلسطين اليهودية قوية لدرجة تستطيع  
أن تقاوم جيرانها الاقوياء .. وستصبح كدول البلقان مخلب الالعب  
الدبلوماسية للمستشارين الاوربيين كما انها لن تستطيع بوصفها دولة  
مستقلة أن تقيم شروط حياة اقتصادية صحيحة .. في حين انها لو  
كانت تحت حماية قوية .. ستكون آمنة من هذه العوائق .. ومكانة  
بريطانيا في فلسطين تجعلها الحامية المثالية لفلسطين الجديدة .. » (٩٢) .

لقد وصل هذا التقليد الطويل للاهتمام والعطف البريطانيين ذروته  
بتصريح بلفور ونقلت منشورات المنظمة الصهيونية بعد صدور تصريح  
بلفور رأي الصحافة البريطانية (٩٣) . فذكرت ايفنغ ستاندرد  
Evening Standard « أن المصالح البريطانية كانت قد أوضحت دوما  
ان لا بد من قيام دولة حاضرة بين مصر وبين حكومة تركية معادية ، ويظهر  
ان الصهيونية قدمت هذا الحل » ، وذكرت المانشستر غارديان « أن  
فلسطين لها أهميتها الخاصة بالنسبة لبريطانيا لانها لو كانت بيد دولة  
معادية فقد تجعل ، كما دلت تجربتنا في هذه الحرب ، قاعدة ينظم منها  
هجوم بري على مصر . فمصالحنا في فلسطين هي أن لانسمح لاي دولة  
قد تصبح معادية بالتركيز في فلسطين » . وذكرت مجلة ( فلسطين )  
Palestine في محاولة لرسم حدود فلسطين في المستقبل « ان فلسطين  
ستشكل في الحقيقة حصنا هائلا لحدود مصر ستنقذها من كل متاعبها ..  
لذلك لو قدمت الاجزاء الجنوبية من فلسطين التي هي بيد مصر الان الى  
الحكومة الجديدة ( تقصد الدولة اليهودية ) ستكون رمزا للخدمات  
التي تقدمها فلسطين من أجل الدفاع عن مصر » (٩٤) .

ومع أن الامبراطورية العثمانية قد زالت من الوجود بعد الحرب ، وهزمت ألمانيا كقوة أوروبية كبرى ، وساهم العرب كشركاء في نصر الحلفاء ، وزال التهديد الألماني التركي لمصر من الشرق ، ظلت بريطانية تدعم الوجود الصهيوني في مؤتمر السلام . وكانت فلسطين من حصتها كدولة منتدبة واشترط صك الانتداب تنفيذ تصريح بلفور . لم يكن ذلك الا لوجود خطر واحد يهدد المصالح البريطانية التي تحوم حول قناة السويس الطريق البحرية التي تؤدي الى الهند ، عبر عنه كاتب عربي في عام ١٩١٩ بقوله « . . فان حسب سياسيو انكلترا ان امكانية اتحاد الامم الناطقة بالضاد الساكنة لشرقي القناة سيهدد سلامتها فانهم برأي كاتب هذه السطور يؤسسون ولاية يهودية لتفصل بين العالم العربي وتحمي القناة » (٩٥) .

## الحواشي

- (١) جريدة المؤيد ، القاهرة ، ٢٤ نيسان/ابريل ١٨٩٢ .
- (٢) نعوم شقير ، تاريخ سيناء القديم والحديث وجغرافيتها ، مصر ١٩١٦ ص ٥٦١ .
- (٣) Wolf, L, Notes on the Diplomatic History of the Jewish Question, London, 1919, P, 104.
- (٤) ايلي ليفي أبو عسل ، يقظة العالم اليهودي ، القاهرة ١٩٣٤ ص ٩٩ .
- (٥) المصدر السابق ، ص ١٤٦ - ١٥١ .
- (٦) حول مراسلات القنصلية البريطانية في القدس أنظر :  
Hyamson, A., The British Consulate in Jerusalem, in relation to the  
Jews in Palestine 1838 — 1914 , London : 1939 — 1941  
( Two Vols) .
- F. O. 78/392. (٧)
- Bentwich, N, England in Palestine, London 1932 (٨)  
نص المذكرة في كتاب ،
- (٩) تفاصيل هذه المشاريع في كتاب :  
Sokolow, N., History of Zionism, Vol. I. London 1919, pp. 138 ff.
- Wolf, L., op. cit., pp. 119 — 121. (١٠)
- (١١) مصدر سابق ، ص ١١ - ١٢ .
- (١٢) نقلت التعليق مجلة Palestine في ٢٦ يناير ١٩١٧ وهي مجلة صهيونية صدرت في  
منشستر خلال الحرب العالمية الاولى باسم جمعية فلسطين البريطانية :  
« British Palestine Committee ».
- Oliphant, L., The land of Gilead, London, 1880, P. 519. (١٣)
- Oliphant. M., Memoir of the Life of L. Oliphant, London : 1892, p. 250. (١٤)
- The Land of Gelead (١٥)  
من مقدمة كتاب :
- (١٦) أشار الى ذلك هو غارت في مذكرة له أثناء الحرب العالمية الاولى تحت عنوان :  
« Syrian Polittical Situation since 1800 », F. O., 882/17
- وكان هو غارت D. G. Hogarth عالم الآثار البريطاني ، أحد المتخصصين في قضايا  
الشرق الاوسط خلال الحرب العالمية الاولى .
- (١٧) نشر فريدمان قصة هذه المغامرة في كتابه :  
Das Land Madian, Berlin, 1891,  
The Jewish Encyclopaedia, Vol. V. 1903, P. 519.  
انظر كذلك :

- (١٨) المؤيد ، ١٨٩٢/٢/٩ .
- (١٩) المقطم ، ١٩٠٦/٥/٢ .
- (٢٠) المؤيد ، ١٨٩٢/٢/٩ .
- (٢١) المقطم ، ١٨٩٢/٤/١٦ .
- (٢٢) Palestine, Feb., 15, 1917, p. 31.
- (٢٣) المقطم ، ١٨٩٢/٤/١٤ .
- (٢٤) المؤيد ، ١٨٩٢/٤/١٧ .
- (٢٥) المقطم ، ١٩٠٦/٥/٣ .
- (٢٦) حول تفاصيل مشروع سيناء والعريش يمكن مراجعة F. O. 78/5497 وهو الملف المتعلق بالهجرة اليهودية الى فلسطين ١٨٩٩ - ١٩٠٥ وكذلك مذكرات هرتسول Pati, R., ( ed. ), op. cit., Vol. IV pp. 1363 — 1474.
- (٢٧) Patai, R., ( ed. ) op. cit. Vol. IV, p. 1450.
- (٢٨) Weizmann, C., Irial and Error, London, 1950, ( 4 th edihion ) pp. 120 — 121.
- (٢٩) الاهرام ، ١٩١٤/١/٢٢ . الاشارة الى التقرير ورد في الاهرام بعد عدة سنوات .
- (٣٠) المقطم ، ١٩١٧/١/١٢ أشارت المقطم الى الحادث خلال عمليات الحرب العالمية الاولى . Parliamentary Debates, House of Commons : May 1906, Col. 977.
- (٣١) (٣٢) أوراق هذه اللجنة ، التي تعرف اختصارا باسم C. I. D مصنفة في دار الوثائق العامة في لندن Public Record office تحت رمز C. A. 3/38 Cab/38/11 May 9, 1906.
- (٣٣) (٣٤) مقالات اللواء والمؤيد في النصف الاول من مايو ١٩٠٦ نقلا عن الصحف الاجنبية . Parliamentary Debates, May 1 , 1906 , Col, 403.
- (٣٥) Ibid., May 7 , 1906 , Col. 919.
- (٣٦) (٣٧) المؤيد ، ١٢ مايو ١٩٠٦ .
- (٣٨) المقطم ، ١٦ مايو ١٩٠٦ .
- (٣٩) Bentwich, op. cit., Cab/38/12 July 16, 23, 24, 1906.
- (٤٠) Ibid., July 24, 1906.
- (٤١) Ibid., Oct. 16, 1906.
- (٤٢) Palestine, Feb. 8, p. 22.
- (٤٣)



- F. O. 371/1110/ 20623179. (٤٤)
- F. O. 195/2377. (٤٥)
- F. O. 371/1245/16048/9103. (٤٦)
- (٤٧) كانت التيمس قد نقلت الخبر عن جويش كرونكل كما يلي « ان منظمة استيطان يهودية قد حصلت على مساحة ١٠٠٠٠ هكتار في رفح في منطقة العريش لانشاء مستوطنة وتحت اشراف المنظمة تمت عمليات التحري للمنطقة ووجد أنها تلائم بشكل انتاج الفواكه والعنب والزيتون وغيرها . . ويقال أن موارد المياه كافية وأن العرب قد قاموا بتجارب ناجحة في المنطقة المجاورة وستوضع المستوطنة المقترحة ضمن مساحة عرضت على هرتزل ١٩٠٣ من قبل الحكومة المصرية بايعاز من السلطات البريطانية ومساحة الارض التي كانت متاحة للاستيطان وقتها لم توجد كبيرة الى حد يكفي الاستيطان على مقياس واسع . وفي أيام التوراة رفح كانت تشكل جزءا من فلسطين » .
- F. O. 371/1245/24740/9103. (٤٨)
- (٤٩) منظمة قام بها عدد من اليهود الالمان معتمدين على ماتمتع به المانيا من نفوذ في الاوساط الاتحادية وعلى حاجة الدولة العثمانية الى رؤوس الاموال اليهودية لتغطية العجز المتكرر في ميزانيتها فقدمت مشروعا للهجرة اليهودية يفرق الشرق بأكمله عرضت بصيغة غير مؤذية ، ان لم تكن مغرية ، للتغلب على الشكوك والاعتراضات التركية بدعوة اليهود للمجيء الى الدولة العثمانية والعمل في الاراضي غير المزروعة لتطوير امكانيات البلاد وثرواتها الطبيعية وذلك أسس أول تحالف مع الدولة العثمانية تقدم فيه هي الارض ويقدم اليهود المال والادمغة ( من رسالة لوثر الى جراي في ٣١ آب/اغسطس ١٩١١ ) .
- F. O. 195/2377. (٥٠)
- F. O. 371/1245/35593/9103. (٥١)
- F. O. 424/229. (٥٢)
- F. O. 371/1509/34856. (٥٣)
- (٥٤) من رسالة مارلنغ ( السفير الجديد في الاستانة ) الى غراي في ١٤ آب / أغسطس ١٩١٢
- F. O. 371/1509/34856
- F. O. 195/2437. (٥٥) من رسالة مارلنغ الى مكريغور في ١٤ آب/اغسطس ١٩١٢
- F. O. 371/1509/34856. (٥٦) هذه الرسالة ضمن رسالة غراي الى كتشنر
- Ibid. (٥٧)
- Ibid. (٥٨)
- F. O. 371/1509/43934/34856. (٥٩)

- (٦٠) رسالة غراي الى السفارة البريطانية في الاستانة ٢٨ تشرين اول/اكتوبر ١٩١٢ ، وقد  
f. o. 195/2432  
رفعت الملاحظات الى القدس في ٨ تشرين ثاني/نوفمبر ١٩١٨  
F. O. 371/1509/52363 (٦١)
- (٦٢) كان فينچولد يرأس تحرير جريدة الحقيقة The Truth اليهودية التي تصدر في  
القدس بالانجليزية ، وصاحبة امتيازها مسز بالمير ، وكذلك كان يرأس تحرير صحيفة  
عبرية أخرى ( هامث ) Haemeth  
F. O. 371/1509/52363. (٦٣)
- (٦٤) رسالة وزارة الحربية الى وزارة الخارجية ٢٧ شباط/فبراير ١٩١٣  
F. O. 159/2452/1124  
Ibid. (٦٥) من كتشنر الى الخارجية ١٥ آذار/مارس ١٩١٣ .  
Ibid. (٦٦) من الاستانة الى الخارجية ١٦ آذار/مارس ١٩١٣  
Ibid. (٦٧)  
(٦٨) رسالة من نائب القنصل البريطاني في يافا الى القدس في ٨ تشرين ثاني نوفمبر ١٩١٢ .  
F. O. 159/2446.  
(٦٩) من رسالة القنصل البريطاني في القدس الى الاستانة ٢٧/نيسان/ابريل ١٩١١ .  
F. O. 371/1245/9103.  
F. O. 159/2391 (٧٠)  
F. O. 424/235/10263. (٧١)  
F. O. 424/233. 10240 (٧٢)  
F. O. 424/235/10263. (٧٣)
- Kedourie, E., England and the Middle East, Destruction of the Ottoman  
Lmpine, 1914 — 1921, London, 1956, pp. 33 — 34. (٧٤)
- Palestine Exploration fund, Quarterly, July 1914, pp. 128 — 132 (٧٥)  
Jabtinsky, F., Turkey and the war, London, 1916, pp. 203 — 209. (٧٦)  
Ibid. pp. 208 — 209. (٧٧)  
Samuel, H, Memoir, London, 1949. (٧٨)  
Kedourie, Ibid., P. 33 (٧٩)
- (٨٠) تعاونت القوات البريطانية من أجل تلقي المعلومات عن وضع الجيش التركي في فلسطين  
مع شبكة تجسس صهيونية عرفت باسم عصابة نيلي ( Nili ) كان مركزها بلدة  
عتليت الساحلية ورئيسها هارون ارونسون . وقد لجأ بعد كشف أمره الى مصر  
والتحق بالمكتب العربي بالقاهرة Arab Bureau الجهاز البريطاني الذي أدار المخابرات

- العسكرية البريطانية في الشرق العربي خلال فترة الحرب ويمكن مراجعة أوراق المكتب  
العربي في دار الوثائق البريطانية تحت هذا الرقم F. O. 882 .
- Samuel, Op. cit. (٨١)
- Weizmann, op. cit., p. 120. (٨٢)
- Ibid., p. 191 F. O. 371/2482/8366 (٨٣)
- (٨٤) وقد التحق بنتويتش فيما بعد بقوات الحملة المصرية بقيادة النبي ، وألف كتابه  
Palestine of the Jews في تلك الفترة ، وكما يذكر في مقدمته أنه كتبه « في فترات  
الراحة في حياة المعسكرات صيف ١٩١٧ » أثناء الانتظار على أبواب فلسطين « والكتاب لم  
ينشر الا عام ١٩١٩ .
- F. O. 371/2488/51705 F. O. 371/2482/8366 (٨٥)
- F. O. 371/2817/42608. (٨٦)
- Simon I., and Stein, L., (eds. ) (٨٧) ورد المقال في كتاب
- Awakening Palesting, London, 1929. p. 259.
- Ibid., p. 258. (٨٨)
- Wizmann, op. cit., p. 120. (٨٩)
- Palestine, Nov. 11, 1918. (٩٠) من مراجعة للكتاب في العدد
- Sidebothem, England and Palestine, London, 1918, pp. 186 — 193. (٩١)
- Ibid., p. 244. (٩٢)
- Zionist Organisation Pamphlets, London, 1918. (٩٣)
- Palestine, Nov. 9, 1918, p. 109 (٩٤)
- (٩٥) حنا صلاح ، فلسطين وتجديد حمايتها ، نشر الجمعية الفلسطينية لمقاومة الصهيونية في  
نيويورك ١٩١٩ ، ص ١٤١ .

## الاتجاهات الوحدوية عند العاملين في أوائل القرن العشرين

الدكتور محمد مخزوم

( الجامعة اللبنانية )

يعتبر تاريخ بلاد الشام الاجتماعي منذ القرن العاشر للميلاد الى عهدنا الحاضر ، فترة عنيدة في النضال ضد كل حركات الاستيطان التي باشرها الاوربيون وتجسدت تارة في الحركة الصليبية المسلحة وتارة أخرى في حركة التبشير المسالمة في ظاهرها بعد ان تحطمت قوتهم العسكرية . كما برزت حركة النضال هذه أشد فعالية في مقاومة حركة التتريك التي لبست ثوب الدين واتخذت شعار « أخوة العقيدة الدينية » سلاحاً لها في كبت الشعور القومي . ثم ضد الاستعمار بجميع أشكاله سواء المباشر أو غير المباشر طيلة العصور الحديثة . وان مانشده اليوم في منطقة بلاد الشام من نضال مستميت حول تثبيت الحق العربي الفلسطيني في العودة وحق الحياة لهو أعظم شاهد على تراث هذه المنطقة النضالي .

### لماذا عن التاريخ العمالي ؟

سؤال يطرح نفسه اليوم باصرار وعناد شديدين كما طرح نفسه في أوائل العشرينات من هذا القرن . فالعاملون الذين ينسب اليهم جبل عامل كلهم من بني عاملة بن سبأ الذين هاجروا من اليمن ونزلوا في هذا المكان بعد السيل العرم الذي أصاب تلك المنطقة . وجبل عامل يقع في جنوب الجمهورية اللبنانية التي يشكل قلبها النابض من الناحيتين البشرية والعقدية ، ويمتد حتى حدود فلسطين ليضم قسماً من شمالها حتى بحيرة الحولة ، كما يحاذي في امتداده السكاني أطراف الجولان فهو أبداً عيناً على فلسطين وعيناً على الجولان .

يمتاز العاملون بعاداتهم وتقاليدهم التي مازالوا يحافظون عليها كالكرم وحسن الجوار واکرام الضيف . أما ألقاظهم اللغوية فتعتبر أقرب الى اللغة الفصحى منها الى العامية على الرغم مما طرأ عليها من تبديل . كما امتلك العاملون سليقة الشعر والنظم (١) ، فنبغ منهم الكثير من كبار العلماء والشعراء والفقهاء مما لايسمح مجال البحث بذكرهم .

وعلى الرغم مما أصاب العاملين من اضطهادات واسعة بشقاء متواصل في عهد المماليك ، فان الاتراك الذين ورثوهم في الحكم كانوا أندادا لهم أيضا لكونهم حملوا لواء الدعوة العربية ضدهم . وكانوا مع كل محاولة انفصالية يقوم بها العرب ضد تركيا . فتمثلوا في جميع المؤتمرات السرية التي عقدت لهذه الغاية . فبعد انتصار روسيا على الدولة العثمانية سنة ١٨٧٧ ، عقد في دمشق مؤتمرا سوريا اشترك فيه كل من السيد محمد الامين العاملي والحاج علي عسيران والشيخ علي الحر وغيرهم من كبار رواد الحركة العربية في أواخر القرن التاسع عشر . واختار المؤتمر عبد القادر الجزائري أميرا على سورية . « وكان المفتي العاملي السيد محمد الامين المار ذكره متطرفا في عروبتة مجاهرا لفكرته السياسية يحرض العاملين على الثورة ، ويراسل الامير الجزائري في دمشق بصراحة تامة ويكتب على غلاف رسائله « دمشق دار الامارة » بالقلم العريض . واتصل الخبر بالوالي التركي فنفى السيد الامين الى طرابلس الشام » (٢) . وبعد أن خلع السلطان عبد الحميد الذي كان متشددا ضد العرب تألفت الجمعيات السرية ونشطت الدعوة الى الانفصال فكان العاملون أول من انسحب من جمعية الاتحاد والترقي « وأبرقوا للصحف والهيئات الاتحادية المركزية . »

أما عندما اجتمع المؤتمر العربي في باريس بعد تأليف جمعية الاصلاح في بيروت كان للعاملين لائحة في جملة ما وضع من لوائح الاصلاح « وكنا في النبطية ثلاثة نفر وهم الشيخ أحمد رضا والشيخ سليمان ظاهر وواضع الرسالة محمد جابر (نكوّن) شبه جمعية سياسية تنظم القصائد والمقطوعات في مظالم الترك ونبث بين الشعب العاملي فكرة الانتفاض على الحكومة ومناواتها والمطالبة باصلاح جبل عامل واعطائه الحكم الذاتي على طريقة اللامركزية » (٣) .

ولما انشغلت تركيا في غمار الحرب العالمية الاولى ، اغتنم الاحرار العرب هذه الفرصة ونشطوا للعمل على ايقاظ الحركة العربية . فاوفدت جمعية الثورة العربية التي اتحدت مع جمعية اللامركزية الى جبل عامل الشهيد عبد الكريم الخليل الذي عمل على تأليف فرع للجمعية في صيدا ، وقد تألف فرع آخر لها في النبطية من « الشيخ أحمد رضا والشيخ سليمان ظاهر ومنشيء هذه الرسالة محمد جابر في ٢٦ تشرين الاول سنة ١٩١٤ » (٤) . وعندما اكتشف جمال باشا ، قائد الجيش

الرابع ، أمر الجمعية ونشاطها العربي احوال جميع أعضائها التي المحاكمة . فكان منهم عدد كبير من العاملين نذكر منهم : الحاج نجيب بكار ، وحسين اليوسف ، ومحمد بزى ، ومراد غلميه ، واسكندر شديد ، ونصر عوده من بلدة مرجعيون ، والشيخ عبد الكريم الزين ، والشيخ أحمد رضا ، والشيخ سليمان ظاهر ، ومحمد جابر ( كاتب المخطوطة ) ومحمد الحاج علي ، ويوسف الحاج علي من النبطية . والحاج عبد الله يحيى الخليل والحاج اسماعيل خليل من صور . ورغم محاولات التهديد فقد رفض الكثير من الذين استدعوا للشهادة الادلاء بمعلومات تدين نشاط الجمعية ضد الاتراك « ومما يجب التنويه به ولايجوز اغفاله ان ثلاثة نفر من الشهود امتنعوا من الشهادة علينا برغم التهديد والوعيد وهم راشد بك عسيران والشيخ عارف الزين والشيخ محي الدين عسيران والاولان عرضا نفسيهما للخطر وتحملا الارهاق والاذى » (٥) .

فقد بات العاملون منذ ولادة الثورة العربية بقيادة الشريف الحسين يعتقدون الامال على هذه الثورة التي طالما تطلعوا اليها بمشاعرهم وأحاسيسهم وشكلوا الفرق الوطنية المقاتلة لمناهضة الحكم التركي في منطقتهم وقد اشتدت ثورتهم بعد أن تشكلت الحكومة العربية في دمشق . ووردت برقية من الامير سعيد الجزائري الى محمود بك الفضل في النبطية يخبره بتشكيل الحكومة ويفوض اليه ادارة الاحكام في النبطية ومايتبعها باسم الحكومة العربية « بناء على انسحاب الحكومة التركية قد تأسست الحكومة العربية الهاشمية على دعائم الشرف ، طمنوا العموم . وعليكم أن تعلنوا الحكومة باسم الحكومة العربية » (٦) كما أرسل الملك فيصل ملك العراق حينئذ السيد ايليا الخوري في ٢٠ ذي الحجة ١٣٣٤ هـ رسالة الى كامل الاسعد يستحثه فيها على مهاجمة السواحل وطرد الاتراك منها . وعندما جاء كامل الاسعد الى النبطية واجتمع بالاعيان فيها وتلى عليهم الرسالة صفقوا لها ابتهاجا وسرورا . وعندما توج فيصل ملكا على سورية ذهب وفد عاملي بتفويض من أهل البلاد اشترك فيه السيد محسن الامين كبير علماء الشيعة في جبل عامل للقيام بمهمة التهئة (٧) ويذكر قدرتي قلعجي ان الشيخ عبد الحسين صادق أحد علماء الشيعة البارزين أيضا عند زيارته للامير فيصل خاطبه قائلا : « انني باسم جبل عامل أبايعك على الموت (٨) » .

## مرحلة الاحتلال الفرنسي :

بعد أن تبين للحلفاء بان العاملين مصممون بكل عزيمتهم على المضي في دعم الحكومة العربية وتأييدها ، عينوا ضابطا فرنسيا يدعى ( فيجيل ) لادارة حكومة صيدا وملحقاتها للعمل على تحويل الولاء نحو فرنسا بدل الحكومة العربية . ولما كانت وفود جبل عامل تتوالى على النبطية لاقامة اجتماع فيها أرسل فيجيل عندها قوة عسكرية للنبطية في ١١ تشرين الاول ١٩١٨ نشرت اعلانا في الساحة العامة جاء فيه « باسم القائد العام لجيوش الحلفاء الثلاثة انكلترا وفرنسا والشرفاء يمنع الاجتماع العام والمظاهرات السياسية من أي نوع كانت ومن خالف ذلك عد مسؤولا ومستهدفا للجزاء » (٩) .

وهكذا أخذ العاملون منذ اليوم الاول للسيطرة الفرنسية على مناطقهم يشعرون بان الحلفاء يبيتون أمرا ضدهم وضد مصيرهم لانفرادهم بادارة البلاد وملاحقة الوطنيين الذين يجاهرون بفكرهم الوحدوي . فازداد الشعور بالسخط وعمت الفوضى في المنطقة وتشكلت العصابات الوطنية لمقاومة الاحتلال الفرنسي . وتجلى موقف العاملين بالاشتراك في المؤتمر السوري الذي عقد في ٢ تموز سنة ١٩١٩ وتالف من أعداد متساوية من المندوبين الذين يمثلون كل أجزاء سورية ، وكان الوفد العمالي الى المؤتمر يضم مراد غلمية عن مسيحيي مرجعيون (١٠) . وفعلا أكدت قرارات المؤتمر السوري على استقلال ووحدة سورية ، التي تضم لبنان وسورية وفلسطين وان يكون الامير فيصل ملكا عليها (١١) .

وهكذا اشتد وهج الاتجاه الوحدوي مع سوريا ، بعد اعلان الانتداب في جميع أنحاء لبنان (١٢) وخاصة في منطقة جبل عامل الذي يرتبط ببلاد الشام بروابط متينة تعزز هذا الاتجاه عند أبنائه . ومع اشتداد ضغط الفرنسيين على اللبنانيين للقبول بصيغة الانتداب والمطالبة باستقلال لبنان خارج نطاق نفوذ الامير فيصل (١٣) ازدادت حركات الوطنيين ضد الفرنسيين وتشكلت العصابات ضد الجيش الفرنسي . فعمد الفرنسيون عندها الى تشجيع تيام عصابات السلب والنهب مع التشجيع انها من تدبير الحكومة العربية بدمشق ، مما أدى الى سيطرة جو من القلق والخوف ودفع بالكثيرين الى ترك قراهم ودورهم في جبل عامل (١٤) .

ازاء الاستياء العام من تصرفات الفرنسيين ضد الاحرار في جبل عامل ، دعي أعيان البلاد والعلماء والمفكرين وزعماء المقاومة الوطنية الى عقد مؤتمر عام بالقرب من منطقة النبطية في وادي الحجير ( مجرى نهر يقع على بعد خمسة عشر ميلا من النبطية لجهة الجنوب ) لتحديد موقف الزعماء من الوحدة مع سورية .

وفي ٢٤ نيسان ١٩٢٠ حضر المدعوون الى مكان المؤتمر حيث تجمعت الوفود الشعبية من كل مكان . ولما كان تجمع الحجير قد ضم عناصر كثيرة من زعماء العصابات الوطنية كصادق الحمزة وادهم خنجر ، فان المؤتمر قد عقد في جو من العداء للفرنسيين (١٥) . كما ان مكان انعقاد المؤتمر في وسط منطقة جبل عامل وفي مكان محايد بالنسبة ( للزعماء ) بعيدا عن سلطة الفرنسيين يشير ايضا الى أهمية القرار الذي سيتخذ ضد فرنسا . وفعلا أصدر المجتمعون قرارا بالاجماع ملخصه :

— ان المؤتمرين قرروا بالاجماع انضمامهم للوحدة السورية والمناداة بجلالة الملك فيصل ملكا على سوريا ، ورفض الدخول تحت حماية أو انتداب الفرنسيين «(١٦)» .

وانفض الاجتماع بعد أن انتخب السيد عبد الحسين نور الدين والسيد عبد الحسين شرف الدين للسفر الى دمشق لرفع القرار للحكومة السورية .

ومع أن قرار المؤتمر لم يكن موجها ضد المسيحيين في منطقة جبل عامل ، ولو كانت نقطة ضعفه عدم اشراكهم فيه ، الا ان ما حدث بعد المؤتمر من الشغب كان ولاشك مدسوسا على الفكر الوطني . اذ ان بعض المنتفعين لدى الحاكم الفرنسي اثاروا بدافع من الفرنسيين بان المؤتمر عقد للتنكيل بالمسيحيين وأخذوا يحرضون القرى المسيحية في جنوب جبل عامل لمناوأة الشيعة حتى يستطيع بعدها الفرنسيون التدخل وتثبيت انتدابهم تحت هذا الغطاء . وعلى الرغم من بعض الاحداث الاليمة التي حصلت بعد مؤتمر وادي الحجير الا ان العصابات الوطنية التي لم يسجل لنا تاريخها اية حادثة في هذا الشأن ، قد شرعت في مقاومة الجنود الفرنسيين في جميع المناطق « ثم هاجموا في ٨ كانون الثاني ١٩٢٠ عساكر المحتلين في جديدة مرجعيون . ففر سكانها المسيحيون الى النبطية فلاقاهم أهلها بالترحاب وأقاموا أشهرا على الرحب والسعة



حتى هدأت الاحوال فعادوا شاكرين ونشروا بلاغا في صحف بيروت  
يعرب عن ارتياحهم من عطف الاهلين مدة اقامتهم في النبطية « (١٧) » .

اذن لم يرفض العاملون قيام « دولة لبنان الكبير » الا لكونها ستارا  
للاحتلال الفرنسي ورغم ان الفرنسيين كثيرا ما لوحوا لهم بدولة الطوائف  
التي يشكلون فيها نسبة كبيرة ، الا ان نزعتهم القومية الصميمة جعلتهم  
يتجاوزون الفكرة الدينية الضيقة . ولهذا فاننا لانملك الان من وثائق  
للبحث في تاريخ جبل عامل الاجتماعي كجزء من بلاد الشام ، أكثر جدية  
من عشرات الالوف من الشهداء التي سقطت وماتزال تسقط في سبيل  
القضية .

## الحواشي

- (١) الامين السيد محسن : خطط الشام . تحقيق السيد حسن الامين . الجزء الاول ص ٥٣ . مطبعة الانصاف . ١٩٦١ . بيروت .
- (٢) جابر محمد . ال صفا : صفحات من تاريخ جبل عامل الحديث . ص ١٢ مخطوط محررة بتاريخ كانون الاول ١٩٣٤ .
- (٣) نفس المصدر : ص ١٥ .
- (٤) نفس المصدر : ص ١٧ .
- (٥) نفس المصدر : ص ٢٧ .
- (٦) نفس المصدر : ص ٣٠ .
- (٧) الامين السيد محسن : سيرته ص ٩٣ بقلمه وأقلام آخرين . تحقيق السيد حسن الامين مطبعة العرفان ١٩٥٧ صيدا .
- (٨) قلعي قدري : جيل الفداء ص ٣٠٠ . دار الكاتب العربي دون تاريخ .
- (٩) جابر محمد ال صفا : المرجع المذكور ص ٣٢ .
- (١٠) قلعي قدري : المرجع المذكور ص ٣٠٥ .
- ١١ انطونيوس جورج : يقظة العرب ص ٥٩٦ . ترجمة ناصر الدين الاسد - احسان عباس . دار العلم للملايين . بيروت ١٩٦٦ .
- (١٢) ضاهر مسعود : تاريخ لبنان الاجتماعي ص ٢٦١ وما بعدها . دار الفارابي بيروت ١٩٧٤
- (١٣) قدورة زاهية : تاريخ العرب الحديث ص ٣٠٤ . دار النهضة العربية الطبعة الثانية . بيروت ١٩٧١ .
- (١٤) رضا أحمد : مجلة العرفان . مجلد ٣٣ ص ٢٥٢ . وجريدة البشير عدد ٦٣ . نيسان ١٩٢٠ . أما عن مدى فاعلية العصابات وقدرتها على تصدي الفرق الفرنسية انظر أمين سعيد الثورة العربية الكبرى في عدة أمكنة .
- (١٥) جابر منذر : مؤتمر الحجر . ص ٥٨ . رسالة كفاءة غير منشورة . الجامعة اللبنانية كلية التربية ١٩٧٣ .
- (١٦) جابر محمد آل صفا : المزج المذكور ص ٣٥ .
- (١٧) نفس المصدر ص ٣٧ : انظر كوثراني وجيه . الاتجاهات الاجتماعية السياسية في جبل لبنان والمشرق العربي ص ٣٣٨ . معهد الانماء العربي بيروت ١٩٧٦ .

# تحركات العامرين في دمشق وحلب

في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر  
الدكتور عبد الله حنا  
( دمشق )

## أولا - شرائح العامة الرئيسية

تحركات العامة الدمشقية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ظاهرة بارزة في تاريخ ذلك العصر . ولا تزال الابحاث الخاصة بتحريك العامة قليلة نسبيا ، على الرغم من ان رواة احداث ذلك العصر أولوا تحركات العامة اهتماما خاصا ، لانها شغلت حيزا من حياتهم وتفكيرهم .

ان المقصود بالعامة في هذه الدراسة الفئات الاجتماعية التالية (١)

**الحرفيون** : وهم عماد العامة وروحها ، وهم بمنزلة عمال الصناعة بالنسبة الى الطبقة العاملة في عصر الرأسمالية . وعلى الرغم من وجود تناقضات بين شرائح الحرفيين المختلفة : المعلمون ، الصناع ، الاجراء ، الا انهم كونوا ، على العموم كتلة متحدة وقفت للدفاع عن مصالح الحرفة ومصالح أفرادها ومقاومة ظلم الحكام وتعسفهم . والحرفيون مثلوا الجانب الايجابي الثوري للعامة وجناحها التقدمي الاكثر وعيا في ذلك الحين .

**الخدم** وكانوا رقيقا وأحرارا عملوا في قصور الحكام والاغنياء وتكونت لديهم أخلاق الخدم المعروفة . ولهذا لم يكونوا كشريحة ، فئة ثورية متماسكة ذات شأن .

الجند والمقصود هنا الجند المتحدرة من دمشق ، وليس الجند الاغراب المرتزقة ، الذين وقفوا دائما الى جانب الخاصة واضطهدوا العامة وكانوا الساعد الايمن للحكام . أما الجند الدمشقيون الذين يرجعون بأصولهم الاجتماعية الى العامة ، فلم يكن وضعهم المعاشي متميزا عن العوام . ونجد لديهم طبيعتين مختلفتين . فهم بصفتهن من العامة وقفوا أحيانا الى جانبها وشدوا أزرها في صراعها مع الخاصة . ولكنهم كثيرا ما أيدوا وقمعوا تحركات العامة لقاء اجور تقاضوها ثمن خدمتهم ودفاعهم عن النظام الاقطاعي الشرقي السائد .

**الباعة** وهي تلك الفئة من العامة التي تتولى بيع المواد الاستهلاكية الضرورية لحياة الناس اليومية . وهم بحكم عملهم على تماس مع المستهلكين من جهة ومع التجار والحرفيين من جهة أخرى . فهم مستثمرون من الاعلى ويسعون لاستثمار الادنى منهم من جهة أخرى . وهذا مما خلق لديهم مواقف متناقضة غير ثابتة .

**التجار** ويضعهم البعض بسبب ثروتهم في صف الخاصة ، في حين يعتبرهم الآخرون من العامة . والواقع ان التجار يؤلفون فئة خاصة متميزة تتصل بالحكام وتسعى لكسب حمايتهم وتأمين عملية التبادل التجاري وضمان الربح على حساب العامة . ولكنهم من جهة ثانية أيدوا بعض تحركات العامة ، التي كانت تهدف الى تطوير الاقتصاد أو الخلاص من تعسف الحكام الموجه أحيانا ضد التجار و ثرواتهم .

وللتجار أصناف : فمنهم من يتاجر بالمنتجات المحلية وكان معظمهم من المسلمين ، ومنهم من اهتم بالتجارة الخارجية ، وبخاصة في حلب ، وكان معظمهم من المسيحيين العرب أو المستعربين . وقام عدد من التجار بتخزين البضائع واحتكارها وتحقيق الأرباح الباهظة . وكثيرا ما ثارت العامة على هؤلاء في أيام الجوع والازمات .

وقد مثلت الفئات التجارية ذات العلاقة الوثيقة مع الإنتاج الحرفي والمتطلعة الى اقامة بعض الصناعات ، بداية التفكير البورجوازي الناقم على النظام الاقطاعي . وسنرى أن أحد الاسباب ، التي أخرت نمو التطور البورجوازي ، بعد ظهور البذرة البورجوازية في الوسط التجاري المسيحي ، وعدم تمكن هذا الوسط من قيادة العامة المسلمة . وما جرى كان العكس اذ استطاعت الفئات الرجعية تحريك العناصر المتخلفة من العامة المسلمة ضد طلائع التطور البورجوازي المتمركزة في الاوساط المسيحية .

**العامة الرثة** وهي تقابل في المصطلح الماركسي البروليتاريا الرثة . وتألفت من : اللصوص ، المجرمين ، الشحادين ، المومسين والمومسات ، المتسكعين في أزقة المدن وساحاتها ، الغرباء العاطلين عن العمل ، المهرجين ، الراقصات . . . الخ وهؤلاء هم نتاج المجتمع الاقطاعي المتفسخ واحدى ثماره المرة .

وقد تمكن الحكام من شراء شرائح من العامة الرثة واستخدامها ضد أبناء جلدتها من العامة أو ضد حاكم آخر في منطقة أخرى . وكثيرا ما انتقلت شرائح العامة الرثة من منطقة الى أخرى عارضة خدماتها كمرتزقة لمن يدفع الثمن . وهكذا كانت العامة الرثة احد عناصر الثورة المضادة لتحركات العامة . ومع انها شاركت في كثير من الاحيان في تحركات العامة ، الا ان ضررها كان أكثر من نفعها .

أضرت العامة الرثة التحركات الجماهيرية في النواحي التالية :

- عدم انضباطها وفوضويتها أثناء التحرك .
- ميلها للسلب والنهب والتخريب بسبب وبدون سبب .
- الخروج عن أهداف التحرك ومراميه واتباع سياسة عشوائية مدمرة .
- صرف مسار التحرك عن وجهته الصحيحة وتحويل معدنه الاجتماعي أو المطليبي الى تحرك غوغائي أو طائفي ، ضد الاقلية المسيحية ، لصالح الطبقة الحاكمة الاقطاعية .
- عدم الصمود أثناء القتال والتراجع بسرعة وخلق بلبلة في صفوف العامة .
- اعطاء المبرر لوصف تحرك العامة ، ذي المضمون الاجتماعي والسياسي ، باللصوصية والزعرنة والفجور أو التعصب المذهبي .
- اخافة فئات واسعة من العامة ودفعها الى مقاومة التحرك أو الوقوف على الحياد .

هذه هي الشرائح الرئيسية للعامة في دمشق وحلب ويقابلها الخاصة، التي يمكن فرزها الى فئتين عليا ودنيا . ولم تكن الفئة العليا من الخاصة بسبب نظام العزل والمصادرة مستقرة ماديا ونفسيا . فالوالي والمتسلم والدفتردار وقائد الانكشارية وغيرهم من كبار الموظفين كانوا مهديين دائما بالعزل والمصادرة . ولهذا فهم لم ينعموا بالاستقرار والهدوء وسيطر عليهم الخوف والقلق والتوتر العصبي ، فاندفعوا وراء البطش وابتزاز الاموال والتنعيم بالحياة ما أمكنهم ذلك . أما الفئة الدنيا من الخاصة ، العاملة تحت أمره سلطة الولاية فلم يكن وضعها خيرا من أسيادها

المؤقتين . وكانت هذه الفئة تتفنن في عرض خدماتها على كل حاكم جديد فتنجح في المحافظة على « سلطتها » أحيانا ويطالها سيف العزل والمصادرة أحيانا أخرى .

## ثانيا - الحياة الفكرية للعامة :

### ١ - العوامل المؤثرة في الحياة الفكرية :

تأثر المناخ الفكري والنفسي ومستوى ثقافة العامة الدمشقية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بجملة عوامل رئيسية وأخرى ثانوية أهمها :

أ - نظام ملكية الارض ، التابعة في معظمها للدولة أي للسلطان وولاته والجهاز الاقطاعي الحاكم . ان نظام الاقطاعية الشرقية (٢) هذا المتميز بعدم وجود طبقة اقطاعية ترث الاملاك وتورثها ، وخضوع هذه الطبقة الاقطاعية المقيمة في المدن الى سيف المصادرة ، الذي يلاحقها بعد اقالتها من منصبها خلق جوا اخلاقيا معيننا لدى الفئات العليا اتسم بالحذر والرياء والخديعة والكذب والغدر وحك المؤامرات . . . الخ .

وقد أدى عدم وجود طبقة اقطاعية مستقرة لفترة من الزمن ، الى ظهور وانبعث جملة ظاهرات طبعت المدن العربية العثمانية بطابع خاص وأثرت في طبقات العامة والخاصة بما فيها القوى العسكرية حامية النظام . كما أثر تواجد القوى الاقطاعية الدائم في المدن الى جانب سكان المدن وفوق رأسهم ، اثر في اصباغ لون خاص على المناخ الفكري للسكان المكتوين يوميا بنار الارهاب العسكري الاقطاعي الشرقي وشروبه وآثامه .

ب - الصناعات الحرفية المبنية على العمل اليدوي وتنظيم الحرفيين في طوائف ذات تسلسل هرمي (٣) ، أسهم الى حد كبير ، في بلورة المناخ الفكري للعامة المؤلفة بمعظمها من طوائف الحرفيين . فكان لكل طائفة حرفية تقاليدھا وعاداتها الخاصة وسلوكها المعروف . وقد أسهم الوضع الاجتماعي والاقتصادي للحرفيين في دفعهم للانتظام في الطرق الصوفية ، التي عرفت ازدهارا ملحوظا في هذه الفترة . والازدهار المقصود هنا هو كثرة المنضوين تحت لواء الطرق ، وليس بمعنى التفتح الفكري . فكانت كل طائفة حرفية تربط نفسها بولي أو طريقة صوفية وتساهم في احياء حفلاتها الدينية . وقد تميز الجو الفكري الصوفي بالتزمت والتخلف ، وهو

في الواقع نتاج الركود الاقتصادي وبقاء المدن العربية العثمانية تعيش حياة ساكنة راكدة فقيرة في تطورها وحيويتها فقر النظام الاقطاعي الشرقي العثماني في الوقت الذي لم تستطع النواة البورجوازية من التطور والانطلاق . ولهذا بقيت الطرق الصوفية تشرح وتمرح مسيطرة على أذهان الجماهير ، على الرغم من صيحات حركة الاصلاح الديني الاسلامي في أواخر القرن التاسع عشر ، ذات المحتوى البورجوازي .

ج - العلاقات التجارية المتسمة بتبادل المواد الخام ، التي انتزعتها الطبقة الاقطاعية الحاكمة من منتجها كريع عيني ، بسلع الترف والابهة المستوردة من البلدان الاجنبية لتغذية عجرفة الباشاوات العثمانيين وسد حاجات حرمهم وحشمهم الى البذخ والترف وكل أمر ليس له صلة بالانتاج الحقيقي .

ومع أن التجارة الداخلية وتبادل السلع بين المدن والقرى أخذ يتطور في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، الا أن تطوره تراوح في مكانه ولم يؤد حتى نهاية القرن التاسع عشر الى تطور يخلق البذور الصالحة لنمو الرأسمالية والانتاج الصناعي . أي ان الانتاج البضاعي البسيط تراوح في مكانه ولم يتطور باتجاه الانتاج البضاعي الرأسمالي (٤) .

د - التراث وما يضم في ثناياه من عناصر ثورية نيرة واخرى رجعية متزمتة . وقد قاد التخلف الاقتصادي والركود الفكري الى قيام « رجال الثقافة » المتخلفين ، الذين لجؤوا الى الجوانب السلبية الرجعية المتزمتة من التراث والاعتماد عليها لتبرير الاستثمار الاقطاعي العثماني وتخدير العامة وصرفها عن النضال الثوري ضد مستثمريها . ومع أن مسيرات الطرق الصوفية اصطدمت في كثير من الاحيان مع الطبقة الحاكمة عندما كانت مصالح الحرفيين معرضة للخطر الداهم ، الا أن الطرق الصوفية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر لم تؤد دورا ثوريا عارما ، كما كان الامر عند نشوء بعض هذه الطرق . وفي أواخر القرن التاسع عشر لجأت الطبقة الحاكمة العثمانية الى استغلال الطرق الصوفية ووضعها في خدمتها والسيطرة عن طريقها على الجماهير واخضاعها فكريا لنفوذها . فالصوفية ، التي كانت في كثير من الاحيان احتجاجا على النظام الاقطاعي الشرقي القائم ، أخذت تتحول أحيانا الى أداة في يد هذا النظام لعرقلة التطور البرجوازي والمحافظة على التخلف والتحجر واصباغ صفة الديمومة عليهما .

هـ - أثر الفكر البورجوازي الاوربي تأثيرا واضحا في العناصر البورجوازية الناشئة في الشرق العثماني(٥) . ومع أن تأثيره كان واضحا وجليا في المثقفين المستنيرين المسيحيين ، الا ان هؤلاء لم يكن بإمكانهم ان يغزوا قلوب العامة ، بأكثريتها المسلمة ، وسيطروا على تفكيرها . واقتضى الامر فترة من الزمن الى أن شرع المثقفون المستنيرون المسلمون في الربع الاخير من القرن التاسع عشر في حمل بعض ألوية التطور البورجوازي مستعينين في مقارعة الرجعية الفكرية والسياسية بالرجوع الى الجوانب الثورية التقدمية من التراث والدعوة الى نبذ الجوانب السلبية أو الجامدة ، التي تكرر التخلف الاقطاعي وتحد من التطور البورجوازي .

وقد اتهم رجال التنوير بدمشق بالوهابية(٦) أحيانا وبالماسونية التي دخلت دمشق سنة ١٨٦٤(٧) ، أحيانا أخرى . والوهابية من جهة والماسونية من جهة أخرى كانتا الملاذ الفكري للمثقفين البورجوازيين في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين .

عندما أطل التطور البورجوازي برأسه على المدن العربية العثمانية الشامية كان منذ ولادته مهيب الجناح ، بسبب ضعف القوى المنتجة ، ولان حملة لواء هذا التطور تألفوا في البدء من الفئات التجارية المسيحية ، التي لم يكن بإمكانها التصدي للطرق الصوفية الاسلامية والوقوف أمام سيلها الجارف .. لماذا ؟ .. لان كل محاولة بورجوازية لمقارعة الاقطاعية ورد فيها الفكري « الطرق الصوفية » ، بمضمونها المتخلف المتزمت ، اتهمت بأنها هجوم من المسيحية على الاسلام .. ولم تبدأ المقاومة البورجوازية الجديدة للفكر الاقطاعي ، الا عندما شرعت قوى التنوير الاسلامي المتمثلة بجمال الدين الافغاني والشيخ محمد عبده ورشيد رضا بمقاومة الفكر الديني السائد والدعوة الى الرجوع الى الينابيع الاولى : أي الى القرآن الكريم وعهد الصحابة الاولين . وقد لاقى هذا التيار مقاومة عنيفة من الرجعية المتزمتة .

## ٢ - الطرق الصوفية والعامة :

يظهر مما تقدم ان الفكر السائد بين العامة حتى القرن التاسع عشر، وبالتحديد حتى مجيء الحملة المصرية ، كان الفكر الصوفي بتياراته المتخلفة الجامدة المتلازمة مع النظام الاقطاعي العثماني . وبعد الحملة المصرية ونتيجة عوامل متعددة أخذ الفكر البورجوازي يشق له طريقا بين



الفئات المثقفة المستنيرة في الاوساط المسيحية أولا والاسلامية فيما بعد .  
ولا بد لمن يطمح في فهم تحركات العامة من الفوص في محيط أفكارها  
وعاداتها وأخلاقها ونفسياتها حتى يتسنى له الاحاطة بكل ماكان يتجاذبها  
أو يعتمل في صدرها . ويأتي في طليعة ذلك معالجة الطرق الصوفية ،  
التي كانت بمثابة أحزاب العامة ومجالها الاساسي في التنفيس عن كربتها  
والهرب من همومها وتجاوز أحزانها . وأفكار الصوفية هذه دفعت العامة  
الى الثورة والتمرد أحيانا والى الخضوع والاستسلام أحيانا أخرى .

ولا يتسع المجال هنا للدخول في بحث الصوفية وطرقها ولكن لا بد  
من القول أن معظم الطرق الصوفية كان لها أتباع ومريدون يقل عددهم  
أو يكثر حسب الظروف . ومن أشهر الطرق الصوفية المنتشرة في دمشق  
وحلب (٨) :

- ١ - البكتاشية ، التي انتشرت بين الانكشارية .
- ٢ - المولوية، المشهورة بحفلاتها الدينية على أنغام الموسيقى والرقص .
- ٣ - النقشبندية ، ذات الاصل الهندي ، وقد نشطت في نهاية القرن  
التاسع عشر في طبع تعاليمها وأورادها (٩) .
- ٤ - الرفاعية ، التي لمعت مع وصول أحد مشايخها ، أبو الهدى  
الصيادي الى قصر السلطان عبد الحميد ، العدو اللدود لحركة التحرر  
الوطني العربية ولحركة التجديد الاسلامي ، وقام بنشر عدد من الكتب  
الموضحة والمفسرة للطريقة الرفاعية (١٠) .
- ٥ - الجيلانية أو القادرية ولا تزال صور صاحبها تباع حتى الان في  
المكتبات الشعبية وعلى أرصفة الطرق بدليل بقاء نفوذها حتى الان .
- ٦ - البدوية ولم تكن منتشرة انتشارا واسعا في بلاد الشام كما  
هو شأنها في مصر .
- ٧ - الدسوقية ولم يكن انتشارها واسعا .
- ٨ - السعدية أو الجباوية وقد نبتت ، بعكس الطرق الاخرى ،  
في دمشق على يد أحد قطاع الطرق وعرفت زاويته في حي الميدان (١١) .
- ٩ - الشاذلية وأصلها من تونس انتشرت في بلاد الشام على يد  
علي الترشيحي ، الذي تمكن أحد أتباعه من نشر طريقته في حلب سنة  
١٢٨٥ هـ (١٢) .

١٠ - الرشيدية وموطنها في مصر ولها اتباع في بلاد الشام . ويروي فخري البارودي عن ذكريات طفولته في سنة ١٨٩٦ ، ان الشيخ محمد الدندراوي ، شيخ مشايخ الطريقة الرشيدية قدم من مصر الى دمشق . فجرت له استقبالات عظيمة أينما حل . ويروي البارودي انه كان يستقبل الناس ورجله ممدودة أمام جميع الناس ولم ينهض لاحد من زائريه ، حتى ولا للقائمقام ( رأس السلطة التنفيذية في المنطقة المعنية دوما ) . وفي مساء أحد أيام عام ١٨٩٦ أقيمت حفلة ذكر ، ثم راح الناس يقبلون يد الشيخ الدندراوي ويمرون بها على وجوههم ورؤوسهم (١٣) .

كانت كل طريقة تعتبر نفسها أقرب الطرق وأسهلها على المريء للوصول الى درجات التوحيد . وتسعى لاصباغ لون من الشرعية على نشاطها وتدعي نسبة مؤسسها الى بيت الرسول أو الى الصحابة . وكثر التنافس بين الطرق الى درجة ان أبا الهدى الصيادي كبير مشايخ الرفاعية في أواخر القرن التاسع عشر كتب ، متبرما ومعبرا عن استيائه من كثرة محترفي الطرق ، مايلي (١٤) :

« وقد نرى في زماننا الرجل الذي لاتعرف له قبيلة بل ولم تشتهر له قط بالاحوال العالية فضيلة يكتسي بمرط من ديباج ويطيل الشعر ويلبس التاج ويدعي القبطية والغوثية ويرفع نفسه من حضيض أوساخه الدنيوية الى مقام النيابة المقدسة المحمدية ولم يخف من سوء الخاتمة بل ويتدرج فيدعي النسب النبوي الطاهر » .

ان من يطالع كتب تراجم تلك الفترة يجد أن « أعيان العصر » المعترف بهم من العامة هم مشايخ الطرق وأصحاب الكرامات . كما نرى تفصيلا مسهبا في تراجم المجاذيب وكرامات المغفلين والمخرفين (١٥) . وأصدق وصف لذلك العصر ما كتبه الشيخ المستنير محمد بهجت البيطار اذ قال : « انه عصر جمود على القديم وتلقي الاقوال بالتسليم من دون تمحيص للصحيح من السقيم (١٦) » .

وقد أفردنا في مخطوطنا ، الذي سيطبع قريبا عن تحركات العامة ، فصلا خاصا عن « أعيان العصر » نظرا لعلاقة هؤلاء بتحركات العامة . فهم من العامة أو على صلة وثيقة بها ولهم سلطان التأثير عليها . وفهم ايدولوجية « أعيان العصر » وتصرفاتهم وسلوكهم تؤدي الى فهم نفسية العامة ومزاجها وبعض أخلاقها وادراك تحركاتها وتلملاتها .

هؤلاء الاعيان اشتهروا بالخوارق أو عرفوا بالجدب ، وهم خلفاء الاولياء وينالون اكرام الناس ، أو هم اولياء تزار قبورهم ، وبعضهم كان فقيرا وآخرون كانوا تجاراً أو معلمي حرف ، ووصف البعض بأنهم علماء يلمون ببعض مبادئ الحساب ويدرسون الفقه والتفسير والنحو والتجويد والعروض والصرف وفن العرائض وتقسيم الموارث والطب وندر من عمل منهم في السياسة .

في ذلك الجو الفكري السقيم كان من الطبيعي « ان تقل » - كما قال القساطلي سنة ١٨٧٩ «بضاعة المعارف لرواج بضاعة السيوف والعصي»(١٧) . وفيما عدا بعض مدارس الارساليات الضئيلة والمقتصرة ، على العموم ، على أبناء الميسورين من المسيحيين ، فان فرص التعليم المحدودة اقتضت على الجوامع والزوايا والخوانق والكتاتيب .

ومع أن عدد المدارس في دمشق وحلب بلغ ٣٠٠ مدرسة ، الا أن « الجهل قضى على تلك المدارس وأكل المتولون أوقافها فخربت » كما استحلوا أموال المدارس والمعابد « و « استقل بعض أرباب النفوذ بالاقواق »(١٨) .

وتعويضاً عن المدارس المندثرة قامت الكتاتيب(١٩) التي أشرف عليها مشايخ الكتاب وهم أناس أقرب الى الامية منهم الى المتعلمين ، وكانت وظيفتهم الاساسية تعليم الاطفال قراءة القرآن بأجر زهيد .

أما الزوايا ، التي كثرت مع كثرة الطرق الصوفية وكانت مركزاً لاقامة الاذكار والخوانق والرباطات والتكايا ، فلم تلامس من المعرفة الا جوانبها السطحية . وندر ان درس كتاب ذو قيمة فيها . واذا درس كتاب فيها ، كما جرى تدريس كتاب « الشفاء » لابن سينا في تكية السلطان سليم ، فلن يطول أمر هذا التدريس(٢٠) اذ سرعان ما يعم الظلام والتجهيل بسرعة غريبة .

في خضم هذا المحيط الفكري المظلم أخذت خيوط فجر حركة التنوير تلوح في الافق حاملة مشعل النهضة وباعثة بعض الجوانب الحية من التراث ومن هؤلاء الشيخ طاهر الجزائري(٢١) من دمشق وعبد الرحمن الكواكبي(٢٢) من حلب وعدد من المتنورين المسيحيين(٢٣) .

### ٣ - روحانيات العامة :

روحانيات العامة غزيرة وبحاجة الى دراسة مستقلة . والهدف من الاشارة اليها هنا هو الاسهام في القاء ضوء اوضح على الجو الروحي السائد في صفوف العامة مما يساعد على فهم تحركاتها وهياكلها من جهة أو ركودها واستكانتها من جهة أخرى . وروحانيات العامة مرآة صادقة للمجتمع الاقطاعي الشرقي المتخلف في الشرق ، الذي لم تتمكن قواه الثورية من نقله الى مجتمع متطور كما جرى في الغرب . ولهذا فان هذه الروحانيات عكست في آن واحد الجوانب المتخلفة الخائفة للمجتمع الاقطاعي الشرقي العثماني من جهة والتيارات الثورية المعتملة في قلب ذلك المجتمع من جهة أخرى .

ان العلاقة تبدو وثيقة هنا بين التأثيرات المتبادلة للبنيتين التحتية ( العلاقات الاقتصادية الاجتماعية ) والفوقية ( الفكر والايديولوجيا ) . وقد تكيفت روحانيات العامة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، شأنها شأن الايديولوجيا ، مع ضرورات المجتمع الراكد الخامل والمتصف بقمع الفئة المستثمرة للمنتجين الحقيقيين .

مثل نشاط الفئة العليا من رجال الدين ايديولوجية عصور الانحطاط في المجتمع الاقطاعي الشرقي . وكانت هذه الفئة تلجأ الى تليفيق الخرافات والاساطير والبركات واقامة المزارات والاضرحة لكي تبتز أكثر مايمكن من المال . وقد لاقى نشاط هذه الفئة نجاحا باهرا . أما الفئات الفقيرة من رجال الدين ، التي انحدرت من الفلاحين أو عامة المدن ، فانها كانت أقرب الى حياة الجماهير ، وتعاطفت معها وامدت حركة العامة بالمنظرين الفكريين لتحركاتها(٢٤) . وكوّن هؤلاء جزءا من المعارضة الثورية للاقطاعية الشرقية ، التي اتخذت شكل الصوفية أو الزندقة الواضحة أو المستترة أو العصيان المسلح حسب الظروف والاحوال .

ولهذا فان الاطلاع على روحانيات العامة يكشف لنا الوجهين المتناقضين للمجتمع الاقطاعي الشرقي : وجه المستغلين والمستغلين . وكثيرا ما اختلطت الاوجه وامتزجت الصور لدى انعكاسها في روحانيات العامة ، التي نحن بصدددها .

ان البنية الاقتصادية الاجتماعية الراكدة المتخلفة أفرزت روحانيات متخلفة في الشكل والمضمون . ومع اهمال العلوم شاع الجهل بين الناس

وعششت السداجة في رؤوس العامة والخاصة وبدأت في ضعف التعليل  
لظواهر الطبيعة والمجتمع .

ومع ان روحانيات العامة وتسلياتها رمت عموما الى تخدير العامة  
واخضاعها لمستثمريها ، الا أنها أدت الى تخفيف وطأة الطبيعة القاسية  
والمجتمع الساكن . ومن خلال هذا المنظار يمكن فهم كثير من روحانيات  
العامة وأهمها :

- ١ - مراسم الازكار (٢٥) . . . ٢ - الخلوة واستحضار الجن (٢٦) . .
- ٣ - الاوراد (٢٧) . . . ٤ - الاساطير (٢٨) . . . ٥ - الجو الروحي السائد في  
الايواسط المسيحية (٢٩) . . . ٦ - تسليية العامة وفروسياتها (٣٠) . . .
- ٧ - الحمامات وقصصها (٣١) . . . ٨ - السيران والمرأة (٣٢) . . .
- ٩ - السممر ومكافحة الجراد (٣٣) . . . ١٠ - نموذج لكرامات أحد  
المشايخ (٣٤) .

### ثالثا - تحركات العامة الدمشقية ١٧٠٠ - ١٨٣٠ :

#### ١ - القوى العسكرية :

تواجدت في دمشق ثلاث طوائف رئيسية للعسكر لها علاقة بتحركات  
العامة هي (٣٥) :

١ - القابي قول ، وهم انكشارية الدولة ندر ان اتصلوا بالاهالي  
وكانوا على العموم غرباء يقيمون في قلعة دمشق .

٢ - الانكشارية اليرلية او المحلية وهم من أبناء الشام انضم اليهم  
عدد من أهل الحرف والصناعات للاستفادة من امتيازات الانكشارية .  
وأقام هؤلاء في حي الميدان جنوب دمشق وبعضهم سكن حي ساروجة  
القريب من القلعة . وبسبب هذا الواقع حملت الانكشارية المحلية  
( ينكجيرية أو اليرلية ) صفتين متناقضتين :

آ - ان أفراد الانكشارية المحلية بصفتهم جنودا في دولة اقطاعية  
عسكرية حملوا في ثناياهم حب السيطرة والاستثمار واضطهاد الاخرين .  
وعاثوا في الارض فسادا . كما سرت اليهم عدوى الاستعلاء والاستبداد  
والطفغان . وكانوا على أهل دمشق وفلاحيتها واينما حلوا شؤما وبلاء وشرا  
مستطيرا .

ب - ولكنهم وبسبب ارتباطهم رحميا واقتصاديا بالسكان المحليين وخوفا على امتيازاتهم المهددة من ممثلي السلطة المركزية ، وقفوا الى جانب سكان المدينة في كثير من المحن لمقاومة القابي قول أو الوالي أو الجند الخاص . ونرى بأنهم وقفوا الى جانب العامة ، عندما كانوا ضعفاء أو مهتدين بطوائف الجند الاخرى . ولكنهم سرعان ما يتنمردون على أبناء جلدتهم وينقلبون على حلفائهم المحليين عندما يعقد لهم النصر على منافسيهم . وكان على العامة أن تأخذ هذا الواقع بالحسبان .

٣ - الجند الخاص وهم أخلاط من المرتزقة استخدمهم الولاة لمقاومة القابي قول أحيانا والانكشارية المحلية أحيانا أخرى ، وكذلك لحراسة الحج الشامي .

## ٢ - تحركات العامة من ١٧٠٠ الى ١٧٤٣ :

اتصفت تحركات العامة في النصف الاول من القرن الثامن عشر بكثرتها وتعددتها وعفويتها وسرعة انطفائها . ولاشك ان كثيرا منها لم يصلنا ، بسبب قلة التدوين وفقدان السجلات الرسمية وسيادة الظلام في كل مكان من ربوع الشام . ولايمكننا هنا سرد الوقائع التفصيلية لتلك التحركات وانما سنكتفي بالايجاز .

١ - عام ١٧٠٧ م قاومت العامة بقيادة العلماء سياسة الوالي في فرض الاموال على الاهالي . وأخيرا تمكن الوالي من التغلب على تحرك العامة بفرقة القابي قول (٢٦) .

٢ - عام ١٧١٦ تمرد الاهالي على دفع الضرائب المجحفة (٢٧) .

٣ - تحرك عام ١١٣٦ هـ - ١٧٢٥ م ويرجع المؤرخ المعاصر للاحداث ابن جمعة أسبابه الى « الظلم الشديد وكثرة العوانية » (٢٨) ، الذين يعينون الوالي وهو عثمان باشا أبو طوق على ظلمه ، والى كثرة الضرائب المفروضة على الدكاكين . وقد دفع هذا الظلم أصحاب الطريقة الصوفية الشيبانية ( التونسية ) لمقاومة الظالمين . و « قام » حسب تعبير ابن جمعة « ساداتنا وقادتنا وموالينا الكرام ، دام الله تعالى النفع بهم وقبضوا على العوانية فمنهم من قتل ومنهم من صلب » (٢٩) . وبقيت دمشق ثلاثة أشهر في يد الثائرين حتى مجيء اسماعيل باشا العظم في آذار ١٧٢٥ .

٤ - احتكر اسماعيل باشا العظم بيع المواد الغذائية وبخاصة اللحوم فتململ الاهالي وتحالف الاشراف ، الذين يدعون الانتساب الى فاطمة الزهراء والامام علي ، والانكشارية ضد القابي قول . واغلقت البلد احتجاجا وهاجمت العامة المحكمة مما اضطر السلطة الى اطلاق سراح المعتقلين والغاء العقوبات المفروضة (٤٠) .

٥ - تحرك عام ١٧٣٩ ضد الوالي حسين باشا البستنجي . وكان السبب المباشر للانتفاضة ابطال حسين باشا لبعض الاحتفالات الصوفية « كتهليلة الاموي الشريف والمولد الشريف » (٤١) . وعندما نهضت مشايخ الطرق محتجة سارت العامة الناقمة وراءهم وأيدتهم الانكشارية اليرلية الراقبة في استعادة نفوذها (٤٢) . وكانت نتيجة التحرك اضطرار الوالي ومرتزقته لمغادرة دمشق ، التي أمست في يد الانكشارية اليرلية . ولكن هؤلاء سرعان ماعاثوا في الارض فسادا فنقمت عليهم العامة وتمكن الوالي الجديد من كسر شوكتهم .

٦ - تحرك العامة عام ١٧٤١ ضد حلف الانكشارية اليرلية مع تجار الحبوب وأصحاب المطاحن والمخابز والوالي سليمان باشا . هاجمت العامة الافران فخاف الوالي وتراجع وارسل يشدد على الطحانة والخبازة ويهددهم . كما اضطر للتخفيف من نقمة العامة بالغائه بعض المظالم على أصحاب الحرف والصنائع والحارات . وتودد الى العلماء واسترضى الفقراء بعد ما رأى قوتهم (٤٣) .

### ٣ - تحركات العامة أيام أسعد باشا العظم ١٧٤٣ - ١٧٥٧ :

قدم أسعد باشا الى دمشق من حماة بعد أن جمع منها ثروة طائلة . وفي بداية ولايته تمكن أسعد باشا من تصفية القوى المتواجدة في دمشق وهي : الانكشارية اليرلية والدفتر دار ( المحاسب ) فتحي والعامة وذلك بضرها ببعضها البعض .

١ - عندما تظاهرت العامة بسبب قلة الخبز وغلاء الاسعار عام ١٧٤٥ وهاجمت سرايا الحكومة أعلن أسعد باشا ان المسؤول عن ذلك هو القاضي فاتجهت النقمة ضده وادت المعركة الى ضعف القاضي (٤٤) .

٢ - معارك بين مرتزقة أسعد باشا من الدالاتية والانكشارية اليرلية أدت الى انهزام اليرلية . ثم تمكن من القضاء على فتحي الدفتردار بعد

ان استرضى أهل النفوذ بدمشق بقسم من أموال الدفتر دار المصادرة (٤٥)، وأخيرا شرع في جمع الثروة بمختلف الوسائل عن طريق الضرائب والقتل والسلب والمصادرة وأخذ الرشوة وعن طريق تجارة الحبوب واحتكارها (٤٦).

٣ - تحركت العامة سنة ١٧٤٧ ضد الغلاء وضد احتكار الحبوب وبيعها بأسعار مرتفعة لصالح أسعد باشا وشيخ الطحانة وبائعي القمح . ويقول البديري المعاصر للاحداث بأنه « ضاق الامر على الفقراء والمساكين . وكان كل من تحرك من العامة ربطوه بحبل طويل ، وجروه اما الى العذاب واما الى القتل وسلب المال والعرض . والامر لله العلي الكبير (٤٧) . ومع ان موسم ١٧٤٨ كان جيدا . ومع ذلك « كثر الغلاء وزاد البلاء ... وبنات الهوى دائرات بالليل والنهار ، والناس في كرب عظيم » (٤٨) .

٤ - في أوائل صيف ١٧٤٨ تظاهرت العامة ونهبت بعض الافران وفرضت سعرا معتدلا للخبز و « فرحت » كما يقول البديري « أهل البلد كثيرا ، فزينت البلد (٤٩) » .

#### ٤ - تحركات العامة ١٧٥٧ - ١٨٣٠ :

١ - بعد ذهاب اسعد باشا ١٧٥٧ عاثت الانكشارية المحلية في الارض فسادا وايدها في نهبها للعامة الفئات العليا من العامة . وعند دخول الوالي الجديد حسين باشا اغتنمت العامة الفرصة وطالبت بمكافحة الغلاء والضرب على أيدي رؤساء الانكشارية البرلية والقضاء على جورهم . وعندما جاءت الافندية والاعيان ( وهم الفئات العليا من العامة لتهنئة الباشا بمنصبه الجديد اعترضتهم العامة ، كما يذكر البديري المعاصر للاحداث ، « بالصراخ والضجيج وصاحوا عليهم وقالوا: ارجعوا لابارك الله فيكم ، أنتم منافقون وتعينوا الحكام على ظلم الفقراء المساكين ، وأكثروا من سبهم وشتهم ورجموهم بالاحجار » (٥٠) .

وقد أجبرت تظاهرة العامة الوالي الجديد على التزلف الى الرعية ، ولكن لفترة قصيرة . فبعد أن نزل سعر الخبز الى ثلاث مصارى ، سرعان ما « اشتغل بالظلم كاسلافه » وعادت الاسعار الى سابق عهدها (٥١) .

٢ - اتبعت المقاومة العامية أحيانا أسلوب المقاومة السلبية في الاوقات، الذي تعذر فيها الكفاح مواجهة . فعندما أراد الوالي عبد الله باشا صرف عملة ذهبية مفسوشة بالقوة امتنع الاهالي و « سكرت البلد واختفت



الرعية الاسلام والنصارى جمعة زمان ولاأحد يخرج خارج باب داره الى أن طلع الباشا للدورة «(٥٢)» ، أي ذهب لجمع الضرائب من منطقة عجلون وشمالى فلسطين .

٣ - عام ١٧٧٧ تحركت عامة النصارى الدمشقية احتجاجا على جور بطيريركهم دانيال . وكان هذا البطيريرك معروفا ببخله وحبه لجمع المال . وأعظم من كل هذا هو « أنه يدين دراهم بالفائدة » وتألفت الجمعيات لمقاومة البطيريرك المرابي واستمر النزاع مدة سنتين حتى « جرى الصلح » بين النصارى وبطيريركهم (٥٢) .

٤ - تحرك سنة ١٧٨٨ عندما اعتدى عسكر الوالى ابراهيم باشا الدالاتي على أهالي دمشق فاشتعلت نيران الاضطرابات ، وآل الامر الى الاقتتال بين أهالي دمشق وجند الوالى وانتصار العامة مما أجبر الوالى على الانسحاب الى حماة وتجميع قواه ومهاجمة دمشق من الجنوب حيث تفل الاشجار . وبعد قتال شديد فى شوارع الميدان تمكن الوالى من استعادة دمشق ثانية(٥٤) .

٥ - عندما توجه نابليون من مصر باتجاه فلسطين كانت دمشق تحت حكم الوالى الجديد ، الذي سعى لتهدئة الامور دون جدوى . فالهياج يتعاضم والغلاء يزداد والاشاعات عن الحملة الفرنسية تنشر الذعر والخوف والحذر فى كل مكان . وهاجت العامة « وكاد يصير فتنة عظيمة » . وكان الوالى يستعد خارج دمشق للتوجه لقتال نابليون . ويقول المؤرخ الشطي أن الاهالي أخرجوا كل تركي غريب . واستمر الامر مضطربا ودمشق بدون سلطة الى عاشر شعبان سنة ١٢١٢ ، عندما حضر من جهة عكا رسول من طرف الجزائر يعلن ان منصب دمشق توجه الى سيده الجزائر . وقد أدى ذلك الى هدوء الحالة وانصراف الناس الى أعمالهم ، لما عهدوه من شدة بأس الجزائر وحبه لسفك الدماء(٥٥) .

وعندما حاصر نابليون عكا ( ١٨ آذار - ٢٠ أيار ١٧٩٩ ) ، « فلت الحكم بالشام وبرها » - حسب تعبير ميخائيل الدمشقي - « حتى ما عاد أمان لاعلى عرض ولا على مال . وقاس النصارى أتعابا كثيرة . وكانت البيوت تنهب ويصير أضرارا كثيرة ولكن عناية الله أدركت بوقته » . . فقد برز فى هذا الجو المضطرب المتصف بغياب السلطة برز أحد قادة العامة « أبو حمزى » ، الذي تعاون مع محمد عقيل شيخ كاربانعى

الخردة ( جراجة ) . واستطاع « أبو حمزي » « ضبط البلد » نسبيا وتهدئة الامور في وقت اختلط فيه الحابل بالنابل والشام بدون حاكم . ومع الاسف فان معلوماتنا عن أبي حمزة شحيحة ، ولانعلم ماهي مطامحه ؟ ومدى قوته ونفوذه ؟ . وماهي علاقته بتحركات العامة السابقة ؟ . وجل ما نعلمه ان الصدر الاعظم يوسف ضيا ، الذي حضر الى الشام ومصر لمقاتلة نابليون « قتل أبو حمزي وبعض أناس بقساوة » ، ويأسف المؤرخ مخائيل الدمشقي على هذا القتل قائلا « ما كان يحسن ذلك لانهم همدوا شرورا كثير (٥٦) » .

٦ - عندما وصل سنة ١٨٠٤ الى دمشق خبر موت أحمد باشا الجزائر والي عكا ودمشق في آن واحد لم تصدق الناس خبر موته بسبب كثرة مظالمه والرغبة التي بعثها في قلوب الناس . وبعد أن تأكد الناس في دمشق من موت الجزائر في عكا استلم البلد القاضي ، وهاج الناس وماجوا وشرعوا في قتل أعوان الجزائر وكل من ساعد على الظلم وابتزاز الاموال . وعندما قصدت العامة المتسلم (نائب الوالي) كنج أحمد هرب وتحصن في القلعة . فحاصرت العامة القلعة ، التي أطلقت منها قذائف المدافع مما أدى الى حرق عدد من البيوت والدكاكين . وجرت مفاوضات بين العامة الثائرة . والوالي المحاصر في القلعة لم تؤد الى نتيجة و « صار الحال مكربا » ، وبقيت الامور سائبة حتى مجيء الوالي الجديد في أواخر ١٨٠٤ (٥٧) .

٧ - أثناء حكم يوسف باشا ١٢٢٢هـ/١٨٠٧ م حصل كرب شديد من شدة المظالم مما دفع العلماء ، وهم على الغالب لسان حال العامة ، أن يحتجوا لدى الوالي عن هذه المظالم قائلين انها تنافي مذهب الاسلام . وبعد نقاش عنيف اضطر للتراجع وأمر بطرد أحد أعوانه ، الشيخ الكردي ، الذي كان كبش الفداء واعتبر مسؤولا عن المظالم . ويكتب مخائيل الدمشقي تعقيبا على نتائج ماجرى ان الناس اطمأنت « وارتفع الشلش ومشى الذيب والغنم سواء ولا أحد تعدى على أحد . مسلم نصراني يهودي كل في حرите وماعاد ( الوالي - ع.ج ) قبل وشاية من أحد . وتفيرت الاحوال فصارت بأحسن حال ولاسيما أهل القرايا ( الفلاحون - ع.ج ) رفع عنهم الحوادث والتعدي » (٥٨) .

والواقع أن استجابة الوالي السريعة لمطالب زعماء العامة لم يكن مرده الخوف من ثورة العامة فحسب ، بل التودد أيضا الى العامة

والفلاحين على أثر تحرك الوهابيين ووصول خيولهم الى مشارف ولاية الشام ، وكذلك استفحال خلافه مع والي صيدا (٥٩) .

## ه - أهداف وأشكال ونتائج تحركات العامة ومحتواها العام في عملية التطور الاجتماعي :

- تأثرت تحركات العامة في دمشق بالمستوى المدني لتطور القوى المنتجة .

- سيادة الانتاج اليدوي الصغير والبسيط ، وبطء تطور العلاقات القائمة على تبادل البضائع بالنقود أثر ، بالاضافة الى طبيعة الحكم الاقطاعي الشرقي العثماني ، في أشكال وأهداف انتفاضات العامة في مركز ولاية بعيدة عن العاصمة .

- لم توجه انتفاضات العامة سهامها مباشرة الى السلطة المركزية في استنبول ، بل وجهت نار غضبها الى ممثلي السلطة الاقطاعية في الولاية .

- سرعة قيام التحرك وسرعة خموده واتصاف معظم التحركات بالعموية وعدم التنظيم والفردية . وهذه الظواهر انعكاس لمستوى القوى المنتجة .

- قامت التحركات بسبب : وطأة الضرائب ، ارتفاع الاسعار ، احتكار المواد الغذائية أو قتلها ، تعسف رجال السلطة الاقطاعية الشرقية العثمانية .

- اشتراك الفرق الصوفية علنا في كثير من التحركات . وهنا بدا واضحا الارتباط العميق بين فرق الصوفية والعامة ، وبخاصة جناحها الثوري الممثل في الحرف وكانت فرق الصوفية بمثابة الاحزاب السياسية للعامة ، حيث امتزج في بوتقة واحدة النضال الاجتماعي والسياسي والديني .

- تأرجح الفئات العليا من العامة واستعدادها للتفاهم مع رجال السلطة الاقطاعية الشرقية العثمانية ، في حين كانت الفئات الدنيا من العامة أكثر اندفاعا وراديكالية . وكثيرا ما أجبرت الفئات العليا على الغاء الصفقات واجراء المساومات مع السلطة الاقطاعية .

- بقاء العامة في معظم الاحيان على الحياد عندما تنشب المعارك

بين قوى السلطة الاقطاعية المختلفة العسكرية والمدنية ، على اقتسام  
الغنائم .

– تحالف العامة مع احدى قوى السلطة لضرب القوى الاخرى  
الاكثر عدوانية وشرا وتعسفا وظلما . وهذا الوضع كان يخلق جوا  
جديدا وتحالفات جديدة .

– سعي عدد من الحكام للتزلف الى العامة وكسب رضاها ، وبخاصة  
عندما يكون هؤلاء الحكام ضعفاء أو هم في صراع مع خصومهم داخل  
الولاية أو خارجها .

– استخدمت العامة في كثير من الاحيان المقاومة السلبية ، عند  
تعذر اندلاع المقاومة العلنية المكشوفة .

– ردة الفعل ضد أعوان الولاة الظالمين كانت عنيفة وتناسبت مع  
عنف الظلم وشدته .

– لم تكن ثمة حركات زندقة ( هرطقة حسب التعبير الغربي ) ذات  
شأن في هذه الفترة . ويرجع سبب ذلك الى عاملين رئيسيين :

آ – كان الجو الديني المتمثل في الفرق الصوفية وطقوسها مؤيدا  
في معظمه لتحرك العامة ضد الطبقة الحاكمة العليا . ولم يكن رجال  
الدين ، كما هو الامر في أوروبا الوسيطة ، واقفين بصورة مكشوفة الى  
جانب السلطة الاقطاعية .

ب – لم يكن ثمة وجود ملحوظ للقوى الاجتماعية الجديدة بسبب  
ركود المجتمع . فالطبقات أو الفئات الاجتماعية الجديدة ، التي تغلف  
مطالبها الاجتماعية والسياسية بغلاف ديني لم تكن حتى منتصف القرن  
التاسع عشر قد ظهرت بعد .

– انفصال المدينة عن الريف وعدم مشاركة الفلاحين في انتفاضات  
المدينة وهذا أمر طبيعي في ذلك العصر . وكانت أخبار اضطهاد الولاة أو  
ممثلهم للفلاحين تصل الى المدينة عن طريق الجند العائد من عملية عصر  
الفلاحين أو قمع انتفاضاتهم . وما كان أمام العامة في هذه الحالة الا  
الدعاء بالفرج من تلك الكربة .

#### رابعا – ثورة ايلول ١٨٣١ :

١ – مقدمات الثورة ان ابادة فرق الانكشارية في استنبول في

حزيران ١٨٢٦ وتأسيس جيش حديث تطلب فرض ضرائب جديدة على الولايات وعندما أعلن والي دمشق عبد الرؤوف باشا فرض ضريبة جديدة اسمها الصليان على « الدكاكين والمخازن والمغالق » هاج أهالي دمشق وأغلقت حوانيتهم احتجاجا وأخذوا يتجمعون في باب الجابية . ثم قام مشايخ الطرق الصوفية باخراج السيارة وما يرافقها من طقوس صوفية أو التوجه الى السرايا للطلب من الوالي رفع ضريبة الصليان . وعندما اقتربت العامة من السرايا اطلقت مرتزقة الوالي من المواصلة والكراتكة ( من الموصل وكركوك ) النار فقتلت اثني عشر رجلا من المتظاهرين ، مما زاد في غضبة الاهالي وهياجهم (٦٠) . وهنا تحرك « اغاوات الميدان » زعماء الانكشارية المحلية المؤيدين للعامة والمعادين للجند المرتزقة الغربية ، وأقاموا برئاسة أبو عرابي الشوملي حاجزا بالقرب من قهوة السوق استعدادا للقتال وبدأت طلّاع العامة تهاجم بيوت المرتزقة وتفتك بمن فيها و « استمرت البلد مخبوظة ثلاثة أيام » (٦١) ، مما أجبر الوالي على التراجع فاعلن الغاء ضريبة الصليان فاطمأن الناس وفتحت الدكاكين ، ولكن المناوشات مع الجنود المرتزقة ( المواصلة والكراتكة ) استمرت حتى اضطر هؤلاء الى مغادرة دمشق ، « وراقت البلد » (٦٢) ، التي أمست في يد العامة وقادتها واغاوات الانكشارية المحلية ( اليرلية ) .

وعلى اثر هذه الاحداث أسندت في عام ١٨٣١ ولاية دمشق الى سليم باشا ، الصدر الاعظم مبيد الانكشارية والسياسي اللامع في استنبول بهدف القضاء على عصيان دمشق بأهون السبل ، وعلى الرغم من محاولة سليم باشا بث الرعب في نفوس الاهالي ، الا أن الجو السائد في المدينة جعل مهمته عسيرة في فرض الضريبة الجديدة والسيطرة على المدينة .

٢ - مؤتمر الربوة (٦٣) : تظاهر أعيان البلد بالموافقة على دفع الضريبة الجديدة ولكنهم في الواقع عقدوا مؤتمرا سرّيا في الربوة بظاهر دمشق تحت ستار السيران و « تحالفوا على الطلاق ووضعوا يدهم على السيف والمصحف بأنهم يكونوا رأيا واحدا وحالا واحدة وكلمتهم وصليان لايمشوا ولو ذهبوا ( هلكوا ) على آخرهم » .

لقد كان مؤتمر الربوة الشعبي حلغا سرّيا بين قادة العامة من جهة

وآغاوات ( زعماء ) الانكشارية المحلية من جهة أخرى . أما الوالي سليم باشا فظن أن البلد دانت له فأعلن فرض الضريبة من جديد .

### ٣ - حرب الشوارع والتاريس • والاستيلاء على السرايا والقلعة :

ما أن بدأت عملية تخمين الدكاكين والمخازن حتى توتر الجو « وضاجت العالم » ، وقام أهالي العمارة في عصر يوم الجمعة ١٥ ايلول ١٨٣١ بضرب الموظفين المكلفين بتسجيل أسماء دافعي الضريبة (٦٤) . وسرعان ما حمل أهالي العمارة السلاح وتبعهم أهل العقيبة والصالحية وبدأت المناوشات وحرب الشوارع بين جنود الوالي والأهالي طوال ليل الجمعة - السبت وما أن أطل يوم السبت في ١٦ ايلول ١٨٣١ ، حتى « أصبحت البلد كلها بالسلاح الكامل » . وفي حي الميدان والشاغور أحرز الثائرون نصرا ملحوظا في حرب الشوارع وتقدموا باتجاه مركز المدينة وأقاموا التاريس في الدرويشية على بعد ٥٠٠ متر من سرايا الوالي (٦٥) .

مساء السبت تمكن جنود الوالي من احتلال حي القنوات القريب من السرايا والمعروف بشراه . ولكن النجيدات القادمة من الشاغور والميدان تمكنت من تحرير القنوات وتطوير الهجوم باتجاه السرايا والدواليك المحيطة بها . وبعد معارك دامية تمكن الثائرون من احتلال السرايا والنار تندلع فيها ، في الوقت الذي هرب فيه الوالي وجنوده باتجاه السروجية تاركين « الخيل والخراج والمتاع » ، الذي نهبته العامة مع سائر المؤن والذخائر والتحف والاموال والاثاث الموجود في السرايا ، معبرة بذلك عن حقدنا الدفين تجاه مركز الاستثمار والطفيان .

التجأ قسم من العسكر الهارب ( ١٥٠٠ عسكري ) الى جامع المعلق وخان الدالاتية وحاصروا فيهما وبعد قتال ضار استمر ستة أيام استسلم العسكر في ٢٢ ايلول ١٨٣١ الى « أولاد البلد » الثائرين . وهنا انصب حقد العامة الثائرة على جباة الضرائب من أنصار الوالي ، الذين أبعدوا عن بكرة أبيهم .

أما الوالي وقسم آخر من العسكر ١٥٠٠ عسكري ، فالتجأ الى القلعة وأخذ يقذف القنابل من مدافعها على المدينة . استمر حصار القلعة أربعين يوما « وصار الحكم بيد أولاد البلد في وقت الحصار واغاوات البلد استقاموا في بيت البكري يتعاطون الاحكام » ، ويقودون معركة حصار القلعة ومحاولة الاستيلاء عليها .

وعلى الرغم من انعدام السلطة الرسمية واستفحال أمر الفوضى في جو الحصار فان العامة الثائرة لم يبد منها أي أثر للتعصب ضد النصارى . وأكبر شاهد على ذلك رواية المؤرخ المسيحي المعاصر للاحداث صاحب كتاب « مذكرات تاريخية » ، قال : « واما بطيريك الروم ( متوديوس ) فلم يعمل عليه أحد ثقلة ( ازعاج ) بل جميع اغاوات البلد توصي فيه وفي النصارى » . ولم يرهق من النصارى الا المعمارية والنحاتين ، الذين أجبروا على بناء المتاريس ، الا من رشى منهم قادة الثورة فتخلص من هذا العمل الشاق والخطر .

وقد فشلت عدة محاولات لاحتلال القلعة ، في الوقت ، الذي نفذت فيه أيضا ذخيرة المحاصرين بامرة الوالي . وهذا مما دفع الطرفين للتفاوض على أساس الا يفدر أحد الطرفين بالآخر . وفي مساء ٢٥ تشرين الاول ١٨٣١ استسلم الوالي الى أعيان البلد . وعندما انتشر خبر الاستسلام في صباح ٢٦ تشرين الاول عم الفرح الناس « وراقت البلد وانفكت المتاريس وفتحت الخلق دكاكينها » ، بعد حصار وكفاح استمر أربعين يوما .

{ — الحكومة الوطنية الشامية : على الرغم من أن مقتل الوالي وحاشيته بعد يومين من استسلامه بعث الرعب في قلوب الناس ، الا أن الاطمئنان سرعان ما عاد بعد أن ألف الثائرون حكومة وطنية شامية كان لاهل الميدان ، معقل الانكشارية اليرية ، اليد الطولى فيها . وجرى الحكم « باسم الشرع حسبما رسم اغاوات البلد (٦٦) » . ومع ان مخائيل الدمشقي يذكر قيام « ديوان الاعيان والافندية » الا أن الحكم أمسى فعلا في يد الانكشارية المحلية ، التي بات وشيكا خطر تحولها الى فئة باغية ، تضطهد بني جلدتها وحلفاء الامس من العامة .

كانت أولى اجراءات الحكومة الشامية الوطنية تحصين دمشق ودعوة الفلاحين في قرى الغوطة لحمل السلاح والوقوف الى جانب المدينة لصد الهجوم العثماني المرتقب . وقد حملت هذه الدعوة معنى اجتماعيا عميقا دل على تكون حلف من حرفيي المدينة وتجارها من جهة والفلاحين من جهة أخرى ضد الدولة الاقطاعية العثمانية . . ولكن الظروف الاجتماعية والاقتصادية ومن ثم الفكرية لم تكن ناضجة ليؤتي هذا الحلف ثماره ويحقق ما أنجزته الثورات البورجوازية المبكرة في أوروبا . يضاف الى

ذلك خضوع بلاد الشام الى سلطة أجنبية اقطاعية لديها امكانات واسعة للقضاء على أي تحرك وطني أو اجتماعي .

الاعيان هم قادة الانكشارية المحلية والافندية هم القاضي والمفتي ونقيب الاشراف وغيرهم من أصحاب المناصب الدينية .

### ه - العودة المهزوزة للسلطة العثمانية :

أثناء فترة حكم الحكومة الشامية كثرت الشائعات حول موقف السلطان من ثورة أهالي دمشق . وأخذت الحركة التجارية في الركود . كما شرعت العائلات الميسورة تغادر دمشق الى الضواحي . وكان من الطبيعي أن ترتفع الاسعار بعد احتكار التجار للحبوب . وبدأت العامة تشعر بالضيق من الغلاء أولا ومن تصرفات بعض أغوات الانكشارية اليرلية الحاكمة ثانيا . « وفيما الناس في هذه الافكار المكدره » وصل في ١٥ تشرين الثاني ١٨٣١ فرمان السلطان بالعفو عن أهالي دمشق وتعيين وال ومتسلم جديدين (١٧) .

عقد الوالي الجديد لدى وصوله ديوانا ضم أعيان البلد واخبرهم : « ان مولانا السلطان سامحكم بدم سليم باشا وفي ماله وحريق السرايا ومراده أن الفقير يعيش والحاج يمشي ولايصير ثقلة ( ضرر ) على الرعية وأصحاب العرض وتكلم معهم على الفلا الحاصل على الخبز » . وكان واضحا ان الوالي يريد كسب العامة الى جانبه ضد الانكشارية اليرلية ، التي أخذت تحتكر قوت الشعب وتبيعه بأسعار غالية . كما ان تحركات ابراهيم باشا كانت تقلق السلطان وواليه وهم بحاجة الى رضاء الاهالي عنهم .

في هذه الاثناء كانت الازمة التموينية تزداد استفحالا مما دفع الصناعية ( عمال الحرف ) للتظاهر ضد غلاء الاسعار ، في وقت احتكر اغوات اليرلية الغلال وانقطعت دمشق عن المناطق الاخرى وبدا واضحا ان موسم الحج سيكون ضعيفا هذا العام . وأخذ الازدحام على الافران يزداد وجرت أكثر من خمسين عملية خطف للخبز من الافران والازقة (١٨) . وفي هذه الاثناء أخذت أخبار الحملة المصرية تصل مشوهة ومتناقضة الى دمشق مما أدى الى تغيير مجرى الاحداث .



## ٦ - موقع ثورة ايلول التاريخي :

ان الموقع التاريخي لثورة ايلول ينبع من الظروف الاقتصادية الاجتماعية ، التي اندلعت الثورة في احشائها . فخلافا لما كان عليه الحال في أوروبا الاقطاعية ، فان رجال السلطة الاقطاعية العثمانية تواجدوا في قلب المدينة وعاشوا الى جانب سكانها يستثمرونهم مباشرة كما يستثمرون الفلاحين في الريف . ونجم عن ذلك احتكاك مباشر تحول في كثير من الاحيان الى صدام بين الحرفيين ( الوجه الاخر للنظام الاقطاعي ) وبين السلطة الاقطاعية المتمثلة بالوالي ونائبه ( المتسلم ) ، ودفتر داره ( المسؤول عن المالية ) وحاشيتهم والقوى العسكرية الاقطاعية الانكشارية بفرقتها المتصارعة والمتخاصمة .

ان اقامة هذه القوى في قلب المدينة واستثمارها الوحشي لسكانها عرقل عملية تطور الحرف الى المايناكتورات والرأسمالية المبكرة ، وحد من استقلال المؤسسات الحرفية وضيق الخناق على التنظيمات الحرفية الطامعة في الاستقلال وحرية التحرك الاقتصادي والراغبة في الخلاص من سيف المصادرة والضرائب المرهقة ومختلف أساليب الابتزاز و «البص» المعروفة آنذاك .

وقد منع أسلوب الانتاج الاقطاعي الشرقي العثماني هذا من تراكم الاموال في جيوب التجار ومنعهم من استثمار أموالهم في مشاريع جديدة وقضى على روح الابداع لدى الحرفيين وعرقل بالتالي عملية انتاش البذور الرأسمالية ونموها .

وفي الوقت ، الذي كانت المدن الاوروبية ، وبخاصة الغربية ، تثور ضد الاقطاعية وفيما بعد ضد البورجوازية ، كانت المدن الشرقية العثمانية تعيش حياة مغايرة تماما لما جرى في الغرب ، على الرغم من الصراع الناشب احيانا بين السلطة الاقطاعية والحرفيين ، كما جرى في ثورة ايلول ١٨٣١ . وقد ادى جشع السلطة الاقطاعية العثمانية واستنزافها للفائض المادي لدى الحرفيين والتجار الى منع هؤلاء من التمتع بثمرات أرباحهم أو أرباحهم وتوسيع أعمالهم ، والى دفعهم للعيش عيشة ظاهرها التقشف والفقر والابتعاد عن كل مظهر من مظاهر النعيم والرفاه خوفا من سيف المصادرة المسلط على رقابهم ، أو تحسبا من اللصوص بسبب فقدان الامن . فهم كانوا يعلمون علم اليقين أن أرباحهم ، اذا اظهروها ، ستذهب

عن طريق الضرائب والمصادرة والابتزاز الى جيوب موظفي الدولة الاقطاعية وهذا مما خلق عندهم ميلا فطريا لمقاومة السلطة الاقطاعية على الرغم من انهم جزء متمم لها . وهم اذا ثاروا لا يثورون ضد قمة السلطة الاقطاعية القابعة في استنبول ، بل يثورون ضد ممثلي هذه السلطة في الولايات .

هذا ما نراه في موقف القوى الثائرة في دمشق عام ١٨٣١ . فهي بعد ان حشدت قواتها وعبأتها لملاقاة الجيش القادم من الشمال من استنبول أو حلب للانتقام من الثائرين ، سرعان ما اعلنت ولاءها للسلطة المركزية بمجرد عفو هذه السلطة عن الثوار وتغاضيها عن تمردهم . وكان زعماء الثورة قد بعثوا في اليوم الثاني للثورة برسالة الى السلطان يبررون فيها قيامهم ضد الوالي للدفاع عن عرضهم ودمهم ويطلبون ارسال والي جديد « لاجل أن يحكم فينا » حسب تعبير الرسالة « حكم المولى على العبيد » (٦٩) .

هذا التناقض بين موقف ثائر وموقف خاضع هو حصيلة النظام الحربي المتم للنظام الاقطاعي من جهة والمتناقض معه من جهة أخرى . وقد انعكس هذا الموقف المتناقض في سياسة الفرق الصوفية ، التي أيدت الثورة من جهة وكانت تدعو للخضوع للسلطان من جهة أخرى . والصوفية مع فرقها كانت ، كما ذكرنا ، احد وجوه التنظيم الفكري للحرفيين والتجار وفق معطيات ذلك العصر ومنطلقاته الاجتماعية والفكرية .

ومن أجل ضمان النجاح للمقاومة الفعالة الناجحة ضد السلطة الاقطاعية في مركز ولاية الشام - دمشق - سعت التنظيمات الحرفية للاستفادة من الصراع الدائر بين مراكز القوى في الولاية وجذب القوى الناقمة الى جانبها ، وهي قوى الانكشارية المحلية ( اليرلية ) . وهذا مما اكسب الثورة زخما عسكريا مدريا تمكنت بفضلها من الاستيلاء على السراي ومحاصرة القلعة واحتلالها وتشكيل حكومة محلية . ولكن تأييد الانكشارية المحلية للثورة حمل بين جنباوته بذور الضعف والتفكك . لماذا ؟ . لان هذه العناصر العسكرية ، التي اعتادت على السلب والنهب والابتزاز ومشاركة السلطة الاقطاعية الحكم سرعان ما فككت قوى الثورة وبعثت الفساد والفوضى في الصفوف ، وبخاصة بعد انتصار الثورة ، وبعد ان شرعت هذه القوى في استثمار السكان كما كان الامر في السابق .

بسبب تلك الظروف وتخلف القوى المنتجة لم يكن لدى الحكومة الوطنية الشامية المشكلة بعد انتصار الثورة اهداف واضحة ولم تضع أي خطة للعمل . وكان من الطبيعي بسبب سيطرة الانكشارية المحلية عليها ، ألا تختلف في ممارساتها عن الحكم الاقطاعي الشرقي العثماني السائد . ويعود أحد أسباب ذلك أن القوى الاجتماعية الثائرة من الحرفيين لم تثر ضد النظام الاقطاعي كنظام ، فهي الوجه الآخر لذلك النظام ، بل ثارت ضد الظلم والتعسف اللاحق بها من السلطة الاقطاعية وسعيها لتخفيف وطأة الاستثمار الاقطاعي عن كاهلها وجعلها تشارك في جزء من الحياة السياسية بما يخدم وضعها الاقتصادي ويصون كرامتها من التعديات . وهذا ما يفسر سرعة ثورتها ضد الضريبة الجديدة المفروضة عليها .

من جهة أخرى لم يكن لدى ثائري دمشق عام ١٨٣١ نزعة قومية تسعى لاستقلال العرب عن الحكم العثماني . فمفهوم العروبة لم يكن له آنذاك أثر في نفوس الثائرين . ومعلوم ان حركة النهضة العربية ، التي انبعثت في لبنان في منتصف القرن التاسع عشر لم تصل دمشق الا في مستهل القرن العشرين .

وقصارى القول لم تحمل ثورة ايلول ١٨٣١ بين جنباتها اهدافا قومية تسعى لاستقلال العرب عن الحكم العثماني ، على الرغم من وجود النزعة المحلية العادية . كما لم يكن للثورة اهداف اجتماعية ترمي الى تغيير النظام الاقطاعي الشرقي واستبداله بنظام آخر ، لان القوى الاجتماعية ( البورجوازية الساعية لمثل هذا الهدف ، لم تكن قد وجدت بعد في قلب ذلك المجتمع . ومع ذلك فان ثورة ايلول هزت أركان المجتمع الاقطاعي في بلاد الشام دون ان تؤدي الى تصدعه . ويعود سبب ذلك الى موقف القوى الثائرة من الحرفيين والانكشارية المحلية الشامية ، التي كانت احدي افرازات النظام الاقطاعي . وقد أدى تراجع السلطة المركزية في إستنبول وعفوها عن الثائرين الى اجهاض الثورة وخضوع سكان دمشق خضوعا اسميا مهزوزا للسلطة المركزية .

ولم يكن بالامكان معرفة نتائج ذلك ، لان حملة ابراهيم باشا على سورية عام ١٨٣٢ طمست النتائج المترتبة على ثورة ايلول ومهدت السبيل أمام حملة ابراهيم باشا لاحتلال بلاد الشام دون عناء يذكر .

## خامسا - حملة ابراهيم باشا والعامرة

عندما وصلت أخبار تقدم ابراهيم باشا باتجاه دمشق « هاجت الشام » وعقد اغاوات الانكشارية المحلية عدة اجتماعات مع الوالي قرروا على أثرها المقاومة . وشرعت الحارات بالاستعداد للحرب . وسارت « العراضات » في أحياء المدينة معرضة على القتال (٧٠) .

وصل ابراهيم باشا الى ضواحي دمشق ( سهل كوكب ) في ١٤ محرم ١٢٤٧ الموافق ١ حزيران ١٨٣٢ ، بجنوده النظامية المدربة على احدث الاسلحة والآخذة بأساليب الحرب البورجوازية الحديثة وبرفقتها اعداد كبيرة من بدو الهنادي . وطلعت القوى العسكرية في دمشق لمقاتلة جيش ابراهيم باشا ظانة انها ستلاقي جيش احد الولاة العثمانيين العاديين . ولكن نظرة القوى العسكرية الشامية سرعان ما تغيرت عندما شاهدت المدافع المرتبة والنظام المستتب و « انقطعت قلوبهم » من الخوف ، وسرعان ما لاذوا بالفرار بعد اصطدام بسيط وبعد ان « قتل من اهالي البلدة عشرة أنفس » أحدهم « لحام دكانه في باب البريد حلبي اسمه سعود رجل أشبه مشهور بالمرجلة » (٧١) .

في ٢ حزيران ١٨٣٢ دخل ابراهيم باشا دمشق بعد ان فر منها أركان الولاية من العثمانيين . وقبل ان يتجه ابراهيم باشا نحو الشمال سعى للسيطرة النفسية والادارية على السكان (٧٢) . واولى اهتماما خاصا للامن . فوزع المخافر على حارات دمشق ومنع الناس من حمل السلاح . واختفت عمليات النهب والسلب ، التي كثرت أيام ثورة ايلول ١٨٣١ وما بعدها . وقام الحكم المصري بتقليل أظافر قادة ثورة ايلول ١٨٣١ واعتقال عدد من العامة ممن نشطوا أيام الثورة وارسلهم الى سجن عكا ونظمت عمليات البيع والشراء وقضايا الحسبة . كما انتظمت عملية جمع الضرائب بصورة لم تعهدها الشام من قبل ، فالحقت الضرر بالبعض وصفق لها البعض الآخر . علاوة على ذلك ابطل ابراهيم باشا المصادرة واصلح القضاء على النمط البورجوازي الافرنسي وساوى بين الجميع أمام القانون ورفع عن المسيحيين قيود المجتمع الاقطاعي الشرقي الحرفي المفروضة عليهم . وشهدت دمشق ايضا امورا لم تكن تعهدها من قبل .

١ - فرض الجندية الاجبارية ، ٢ - مجيء قناصل الدول الاجنبية ،

٣ - دخول العاب البهلوان وتنظيم بيع الخمر (٧٣) .

اضطرت الظروف الدولية محمد علي باشا الى التراجع عن مشاريعه الواسعة والانسحاب مكرها من بلاد الشام . وخوفا على مؤخره جيشه قام ابراهيم باشا عند انسحابه من دمشق بقتل علي آغا الخزناكتبي وعدد من الاعيان (٧٤) خوفا من ثورتهم وقضى بذلك على زعماء ثورة ايلول ١٨٣١ وامسى الجو مهيبا لدخول العثمانيين وبقائهم دون مقاومة تذكر لمدة من الزمن بعد ان فقدت العامة قيادتها من جهة ، وبعد ان هزتها احداث السنوات الاخيرة من الحكم المصري وما رافقها من تطورات جديدة وانفتاح على العالم الغربي البورجوازي ، واهتزاز قضية الولاء « للدولة العلية » وسلطانها .

صدعت حملة ابراهيم باشا اوصال المجتمع الاقطاعي الحرفي وخلخلت جذوره واسهمت في بداية نقله من مجتمع تسوده علاقات الاقطاعية الشرقية الى مجتمع يحمل بعض البذور البورجوازية .

وجاءت الاصلاحات الفوقية الصادرة عن السلطة العثمانية والمتمثلة بخطط شريف كلخانة ١٨٣٩ أولا والخط الهمايوني ١٨٥٦ ثانيا لتنسف الغطاء الشرعي القانوني للاستبداد الشرقي ولتفسح المجال امام القوى الجديدة المستنيرة لكي تنطلق وتتححر معتمدة على هذا الاساس الشرعي للتصدي لبعض أسباب التخلف والتأخر .

## سادسا - الخلفيات الاجتماعية والسياسية لفتنة ١٨٦٠ في دمشق

### ١ - هدوء العامة ( ١٨٤٠ - ١٨٦٠ ) وأسبابه :

عاشت دمشق في هذه الفترة الواقعة بين خروج المصريين ١٨٤٠ واحداث ١٨٦٠ فترة ركود نسبي هدأت فيه الى حد بعيد تحركات العامة ، التي بلغت أوجها في ثورة ايلول ١٨٣٠ . ويعود سبب ذلك الى جملة عوامل أهمها :

١ - ادت ثورة ايلول ١٨٣٠ الى انهك الجماهير وتعبها .

٢ - قضاء الحكم المصري على عدد من قادة العامة وزوال القوى العسكرية المتصارعة .

٣ - التغيرات العميقة ، التي زرعا الحكم المصري في سائر مناحي الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية .

٤ - ازدياد ارتباط ولاية الشام بالسوق الاقتصادية الرأسمالية ،  
وبداية ظهور العلاقات الاقتصادية الجديدة والانتقال من الاقتصاد الطبيعي  
ومبادلة سلعة سلعة الى المبادلة الجديدة : سلعة - نقود - سلعة .

٥ - تصدع العلاقات الاقطاعية الشرقية السائدة ، وسعي الطبقة  
الرجعية المستفيدة من هذه العلاقات الى استخدام وسائل جديدة هدفها  
المحافظة على جوهر الاستثمار الاقطاعي بوجه جديد .

٦ - بداية تكون طبقة بورجوازية جديدة ظهرت في لبنان والساحل  
وامتدت بالتدريج الى الداخل . وبسبب عوامل مختلفة تألف ، في البدء ،  
القسم الاكبر من هذه الطبقة البورجوازية الجديدة من المسيحيين ،  
وسيكون لذلك تأثيره الواضح في احداث ١٨٦٠ .

٧ - عمق التحركات الفلاحية ، التي اشتعلت في المنطقة وبخاصة في  
جبل لبنان .

٨ - بداية ظهور عصر التنوير وهو ما عرف باسم «النهضة العربية» ،  
التي حمل لواءها تلك العناصر البورجوازية في لبنان والساحل ثم انتقلت  
حركة النهضة الى الداخل وطرقت أبواب دمشق طرقا خفيفا ضعيفا .

٩ - ضعف الحكم العثماني على اثر الضربات العديدة التي تلقاها في  
البلقان وسورية واستفحال حدة الازمات الداخلية ، التي نخرته ،  
وتصاعد تدخل الدول الاوروبية في الدولة العثمانية .

١٠ - رافق هذا الضعف سعي السلطة المركزية الى تدعيم ركائزها  
عن طريق الاستفادة مما زرعه الحكم المصري في بلاد الشام ، وحكم هذه  
البلاد حكما مركزيا بعد القضاء على حكم الباشاوات المتنفذين سابقا .

## ٢ - الاسباب العميقة لفتنة ١٨٦٠ :

١ - ساوى الحكم المصري ( ١٨٣٢ - ١٨٤٠ ) بين جميع الطوائف  
واشرك النصارى في الادارة وكانت لهم كلمة نافذة في ذلك العهد (٧٥) .  
وعندما عاد الحكم العثماني الاقطاعي محاولا اعادة المساواة بين الطوائف لم  
يكن بالامكان الرجوع الى الوراء من جهة ، كما لم يكن من المحتمل تقبل  
المساواة بصورة تامة ، فحدث التخلخل في المجتمع ، وطفا التوتر على  
السطح ولم يكن بحاجة الا الى عود ثقب لاشعال نار الفتنة . وجاءت

الإصلاحات العثمانية سنة ١٨٥٦ لتساوي المسيحيين بالمسلمين في عدة أمور منها اللباس والوقوف أمام المحاكم وغيرها .

ويذكر معاصر الأحداث أبو السعود الحسيبي ان المساواة بين المسيحيين والمسلمين أدت الى الاصطدامات المختلفة « وصار اذا تشاجر نصراني مع مسلم مثل ما يقول له المسلم يقول النصراني وأزود » (٧٦) .

٢ - ادخل الحكم المصري بعض الإصلاحات البورجوازية الى بلاد الشام . ولكن هذه الإصلاحات لم تقم على أرضية اجتماعية تستند اليها . فالنظام الاقطاعي الشرقي وتابعه النظام الحرفي بقيا سائدين . وعلى الرغم من تصدع هذا النظام ، إلا أنه بقي قويا ما فيه الكفاية لعرقلة تطور العلاقات السلعية - النقدية ( الرأسمالية ) . وكان أغنياء أهل الذمة هم نواة الطبقة البورجوازية الناشئة . ولهذا فان الصراع بين البورجوازية الناشئة الضعيفة المهيضة الجناح المؤلفة عموما من التجار المسيحيين (٧٧) وبين الاقطاعية الشرقية المؤلفة من الطبقة الحاكمة العسكرية والمدنية السنية اتخذ شكلا طائفا ادى الى المذبحة المشهورة ضد المسيحيين .

٣ - لم يكن الصراع بين البورجوازية الناشئة والاقطاعية مقتصر على بلاد الشام بل امتد الى سائر انحاء الدولة العثمانية وبخاصة العاصمة استنبول . . وهناك على أثر حرب القرم ( ١٨٥٤ - ١٨٥٦ ) ، وبعد تدخل الدول الاوروبية اصدر السلطان في شباط ١٨٥٦ «الخط الهمايوني» ، الذي ضمن حرية حركة الرأسمال الاجنبي في الدولة العثمانية وسن بعض القوانين لصالح البورجوازية الناشئة . كما دعا الى المساواة بين رعايا السلطان على اختلاف طوائفهم ونحلهم وقضى بأخذ الجنود من الطوائف المسيحية (٧٨) .

وقد لاقى « الخط الهمايوني » معارضة قوية من القوى الرجعية في العاصمة والولايات وسعت لقبه في مهده أو عرقلته تنفيذه . ويمكننا القول ان احداث ١٨٦٠ في دمشق هي حصيلة الصراع بين القوى الرجعية المتمثلة في أجهزة الدولة القديمة وما يلحق بها من تقاليد وعادات بالية ، تقوم على أرضية العلاقات الاقطاعية المتصدعة وبين القوى التقدمية الناشئة المتمثلة للتطلع البورجوازي ، التي اجهضت تطورها الهجمات المتلاحقة للرجعية دون ان تقضي عليها .

### ٣ - الرجعية العثمانية تشعل الفتيل :

في صيف ١٨٥٩ أسندت ولاية الشام الى أحمد عزت باشا ، الذي انتمى الى الرجعية العسكرية والمدنية الناقمة على حركة الاصلاح والساعية لقبرها في مهدها . وصل احمد باشا الى دمشق والتحرك الفلاحي في جبل لبنان يهز أركان العلاقات الاقطاعية فيه ، منذرا بولادة العلاقات البورجوازية المبكرة . ولكن الصراع الفلاحي الاقطاعي في جبل لبنان سرعان ما تحول بجهود الرجعية المحلية والعثمانية وتدخل الدول الاجنبية ، الى صراع طائفي بين الموارنة والدروز (٧٩) . وأخذت اخبار هذا الصراع تصل تباعا الى دمشق . ورأت الرجعية المحلية في احداث لبنان مادة مناسبة لتهيج الخواطر ضد المسيحيين ، باعتبار انهم نواة التطور البورجوازي المقبل ، الذي ضمن له الخط الهمايوني لعام ١٨٥٦ حق الحياة . وكانت الثروات المتوفرة لدى التجار والحرفيين الميسورين المسيحيين (٨٠) تستثير أيضا لعاب الرجعية المحلية والفئات المتخلفة اجتماعيا من العامة والخاضعة فكريا لسيطرة الرجعية المحلية المدنية .

ولم يكن بإمكان القوى الاسلامية التقية النيرة المهتدية بانوار صفاء العقيدة وتسامحها ، أو التي تحمل بين جوانحها بذور التطور البورجوازي (٨١) وستكون فيما بعد الرافد لتيار الاصلاح ، الذي دعا له جمال الدين الافغاني ومحمد عبده ، لم يكن بإمكان هذه القوى وقف العاصفة المدمرة .

لقد لعب الوالي دورا هاما في تهيئة العامة نفسيا ودفع الاقسام المتخلفة منها في اتجاه رجعي لا انساني عن طريق اثارها باساليب لا مجال لذكرها هنا ، ومن ثم دفعها لمهاجمة الحي المسيحي ، بعد ان سيطرت عليها مشاعر طاغية مدمرة لا تفكر بالعواقب وتتجرد عن انسانيته لفترة ما ، طالما هي خاضعة لذلك التأثير النفسي . المعين والروح الجماعية (٨٢) .

في ٩ تموز ١٨٦٠ اندفعت الجموع ، المعبأة نفسيا ، خلال شهر حزيران وأوائل تموز ، باتجاه الحي المسيحي في شرقي المدينة (٨٣) . وعندما رأت قوى الشر ان القتل والنهب والحرق في يومي ٩ و ١٠ تموز بقي محدودا افتعلوا الاحداث واستطاعوا اثارة اعداد اضافية من العامة فارتفع عدد القتلى من ١١ الى ١٦ تموز ١٨٦٠ ، واندلعت النيران في معظم البيوت . وبدأ نهب أثاث البيوت ومحتوياتها ومالها . وقد أدت



الفتنة الى مقتل حوالي خمسة آلاف انسان وحرق ٧٠٠٠ بيت كما قدر المال المنهوب حوالي ٨٠٠ الف كيس (٨٤) .

كان من الممكن ان يرتفع عدد الضحايا الى اكثر من ذلك ولكن جهود القوى الاسلامية النيرة (٨٥) واستبسالها في الدفاع عن المسيحيين وتعريض نفسها للمخاطر من اجل حمايتها جعل الخسائر تقف عند هذا الحد .

ولولا مخافة الاطالة لاتينا بعدد من البراهين للدلالة على أن هجوم « جهلة المسلمين » (٨٦) على الحي المسيحي في دمشق ونهبه وحرقه وقتل اعداد ضخمة من سكانه ليس مرده صراع مسلم - مسيحي ، بل هو نتيجة دوافع اجتماعية سياسية وثقافية واقتصادية اشرنا الى بعضها .

#### ٤ - نتائج الفتنة على العامة :

على اثر احداث لبنان ودمشق وصل وزير خارجية الدولة العثمانية فؤاد باشا مخولا بصلاحيات استثنائية وسلطات غير محدودة بغية سحب البساط من تحت اقدام الحملة الفرنسية وعدم اعطائها الذريعة للبقاء في بيروت والتفغل في سورية الداخلية وبمعنى آخر كان على فؤاد باشا ان يسوي الامور ويهدىء الاحوال حتى لا يتقدم الفرنسيون باتجاه دمشق (٨٧) .

وصل فؤاد باشا الى دمشق في ٢٩ تموز ونظم فور وصوله حملة اعدام جماعية فقتل في دمشق ١١١ شخصا رميا بالرصاص وشنق ٥٦ آخرا وحكم بالاشغال الشاقة على ١٨٦ شخصا وارسل الى السجون والمنافي خارج دمشق حوالي الف شخص . وبعدها ساق الى الجندية الاجبارية حوالي ثلاثة آلاف شاب دمشقي . وجعل بدل الخدمة العسكرية مئتي ليرة ذهبية لمن يرغب . وفي الوقت نفسه قامت السلطة العثمانية بجمع الاموال من دمشق للتعويض على المنكوبين ، وتمكنت من جباية مئات الالوف من الليرات الذهبية غرامة من اهل دمشق لبناء الحي المحروق . ويقول محمد كرد علي انه لم يصل الى من أريد معاونتهم من المنكوبين النصارى اكثر من ربع المبلغ ، وضاع الربع الثاني في النفقات ، واختلس عمال الحكومة الربع الثالث ، واصاب صيارفة اليهود الربع الرابع (٨٨) . ويقول احسيبي المعاصر للاحداث « ان المسلمين الذين كلفوا بجمع المال جمعوا اكثر مما طلب منهم والبلد خربت » (٨٩) .

من هذا الواقع يمكن معرفة الخاسر والرابح من احداث دمشق

١٨٦٠ ؟ ..

ان المستفيدين من الاحداث هم موظفو الدولة العثمانية ومعهم صيارفة اليهود في ولاية الشام . وبالمقابل تلقت دمشق والحركة الشعبية فيها ضربة قاسية بسبب اعدام عدد من ابنائها ونفي زعمائها وسوق الشباب الى الجندية وابعادهم عن دمشق . كما انهكت المجازر ، وما تبعها من عقوبات عامة الناس واخرت قيام الحركة العربية المناهضة للاتراك عشرات السنين . « وربحت الدولة من كل هذا تذليل الرعية واخضاع الزعماء وارباب المقاطعات » (٩٠) . كما وجهت هذه الاحداث ضربة موجعة للتطور البورجوازي في دمشق سواء في الاوساط المسيحية ام المسلمة . فقد خسرت دمشق الوفا من البيوت المسيحية ، التي هاجرت الى بيروت وقبرص ومصر واستوطنت هناك دائما (٩١) . وادى ذلك الى خسارة النواة البورجوازية الدمشقية ، وبقاء دمشق خاضعة ، لفترة اخرى من الزمن ، للعلاقات الاقطاعية الشرقية (٩٢) واستسلمت القوى المسلمة المتنورة ، التي لم تستطع اثناء الاحداث ايقاف المجازر ، الى القوى الاقطاعية الرجعية أو اضطرت للهرب من دمشق والالتجاء الى مصر .

لقد كلفت احداث ١٨٦٠ دمشق والحركة الشعبية فيها ثمنا غاليا . وكانت نصرا واضحا للقوى الرجعية في استنبول ودمشق على قوى التقدم الاجتماعي المثلة في الفئات الوسطى ذات الملامح البورجوازية الناشئة . وهذا مما ادى الى تأخر حركة النهضة العربية في دمشق حتى مستهل القرن العشرين . ولم تتمكن الحركة الوطنية العربية في دمشق من الوقوف على رجليها الا بعد انهيار الدولة العثمانية عام ١٩١٨ . أما قبل ذلك وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر فقد وقع عبء النهضة العربية الحديثة على كاهل المثقفين المستنيرين في جبل لبنان وبيروت ، الذين وضعوا أسس حركة البعث القومي في بلاد الشام (٩٣) .

وما ان انهارت الدولة العثمانية عام ١٩١٨ ، وتحررت العامة من العبودية الفكرية للسلطان ، رأس السلطة الاقطاعية الشرقية العثمانية ، حتى هبت العامة من جديد للنضال تحت قيادة البورجوازية الوطنية الصاعدة ضد الاحتلال الافرنسي (٩٤) مستلهمة تقاليد الثورية السابقة في النضال ضد الاستعباد والاستغلال والظلم .

## الحواشي

- (١) ان المصادر التي اخذ منها الباحث الوقائع والحقائق ، التي توصل بفضلها الى الاستنتاجات المذكورة حول الفئات الاجتماعية للعامة ، سترد تباعا في هوامش البحث.
- (٢) راجع في هذا المجال : حنا عبد الله « القضية الزراعية والحركات الفلاحية في سوريا ولبنان ( ١٨٢٠ - ١٩٢٠ ) القسم الاول دار الفارابي - بيروت ١٩٧٥ .
- (٣) حول الحرف انظر : حنا عبد الله « الحركة العمالية في سورية ولبنان ١٩٠٠ - ١٩٤٥ » دار دمشق - دمشق ١٩٧٣ . الفصل الاول من الباب الاول والفصل الاول من الباب الرابع .
- (٤) المصدر السابق .
- (٥) راجع : حوراني البرت : « الفكر العربي في عصر النهضة ١٩٧٨ - ١٩٣٩ » بيروت بلا تاريخ . خوري رثيف : « الفكر العربي الحديث ، أثر الثورة الفرنسية في توجيهه السياسي والاجتماعي » - بيروت ١٩٤٣ ، حنا عبد الله « الاتجاهات الفكرية في سوريا ولبنان ١٩٢٠ - ١٩٤٥ » - دار التقدم العربي - دمشق ١٩٧٣ .
- (٦) البارودي فخري : « مذكرات البارودي » دمشق ١٩٥١ ، ج ١ ، ص ٥٨ .
- (٧) قساطلي نعمان : « كتاب الروضة الفناء في دمشق الفيحاء » بيروت ١٨٧٩ ص ٩٢ .
- (٨) حول موضوع الصوفية وطرقها راجع : فروخ عمر « تاريخ الفكر العربي الى ابن خلدون » بيروت ١٩٦٦ . الزركلي خير الدين : الاعلام ... العوا عادل : « التصوف في الفكر الفلسفي في مائة سنة » بيروت ١٩٦٢ . ص ٢٩٨ وما يليها مع ذكر مؤلفات المتصوفة . . صباغ ليلي : « المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني » - دمشق ١٩٧٣ . ص ١٨٤ . حاضر العالم الاسلامي : تأليف لوثرروب ستودارد ترجمة عجاج نويهض . وفيه فصول وتعليقات للامير شكيب ارسلان القاهرة ١٣٥٢ هـ المجلد ٢ ... كرد علي محمد : « خطط الشام » الجزء السادس . الشطي محمد جميل : « أعيان دمشق في القرن الثالث عشر ونصف القرن الرابع عشر » المكتب الاسلامي دمشق ١٩٤٦ . مردم بك خليل : « أعيان القرن الثالث عشر » دمشق . دائرة المعارف الاسلامية .
- (٩) جمعت رسائل خالد النقشبندي ، ناشر الطريقة في بلاد الشام ، في كتاب سمي « ربعية الواجد في مكتوبات مولانا خالد » وقد أعيد طبعه اكثر من مرة دون الاشارة

الى مكان الطبع وزمانه . كما قام « مولانا الشيخ محمد أمين الكردي بنشر كتاب «الاجابة الربانية» ، الذي اهتم بنشر آداب الذكر النقشبندي وبيان اشتغال اللطائف الخمس والنفي والاثبات وبيان ختم الخواجكان والامام الرباني وفي دمشق نشر عثمان نوري سنة ١٣٣٣ هـ / ١٩١٢ م كنز الطالبين ، مع ورد سيدنا شاه نقشبند البخاري » وثمة كتب أخرى طبعت في الحبانية ومطبعة الطرائف .

(١٠) هذه الكتب هي : ١ - « كتاب الطريقة الرفاعية ، تأليف الوارث النبوي ...

السيد محمد أبو الهدى افندي ثم الرفاعي الصيادي لازال ينسخ سواد الجهل بيض الايادي أمين » . مصر ١٣٢٥ . ٢٠٠ - كتاب « العناية الربانية في ملخص الطريقة الرفاعية » اصطنبول ( ٣٠ ) . ٣٠٠ - طريق الصواب في الصلاة على النبي . استانبول ١٣٠٢ ، ٤ - كتاب ذخيرة المعاد في ذكر السادة بني الصياد .

(١١) يذكر البيطار عبد الرزاق في كتابه : « حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر » دمشق ١٩٦١ . ص ٥٩٢ ، ان الناس كانت تقصد الزاوية السعدية للاستشفاء من سائر البلدان ، كما ورد اسم هذه الزاوية في كتاب البديري اكثر من مرة .

(١٢) الغزي كامل : « نهر الذهب في تاريخ حلب » حلب ١٩٢٢ . ج ١ ، ص ٨٩ ،

(١٣) البارودي ٠٠٠ ص ١٨ .

(١٤) الصيادي محمد ابو الهدى : « الطريقة الرفاعية » مصر ١٣٢٥ ، ص ١٧ .

(١٥) هذه كلمات مجلة المجمع العلمي العربي ، ١٩٢٣ ، ص ٢٠٦ .

(١٦) وذلك في المقدمة ، التي وضعها لكتاب عبد الرزاق البيطار : « حلية البشر » .

(١٧) القساطلي ٠٠٠ ص ٨٧ .

(١٨) كرد علي محمد : « خطط الشام » - دمشق ١٩٢٨ ج ٦ ص ١٦٥ .

(١٩) اقرأ وصفا حيا شيقا عن الكتاتيب في البارودي ٠٠٠ ص ١٠ .

(٢٠) كرد علي ٠٠٠ ص ٨٩ .

(٢١) من خيرة ما اؤلف حول الشيخ طاهر الجزائري كتاب : تنوير البصائر بسيرة

الشيخ طاهر ، لمحمد سعيد الباني طبع في مطبعة الحكومة العربية السورية دمشق -

١٩٢٠ وانظر أيضا كرد علي محمد : « كنوز الاجداد » دمشق ١٩٥٠ ص ٥ - ٤٦ .

القاسمي ظافر : « جمال الدين القاسمي » دمشق ١٩٦٥ ص ١٣١ وما يليها .

(٢٢) ثمة مؤلفات كثيرة كتبت عن حياة الكواكبي ومن خيرتها ما كتبه قدرتي قلعجي

( ١٩٦٣ ) ومحمد عمارة ( ١٩٧٢ ) ومنير موسى ( ١٩٧٣ ) . ويبقى كتاب الكواكبي

« طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد » مصر ١٩٣١ ، وعدة طبعات أخرى خير

مصدر عن صاحبه .

(٢٣) عبر المستنيرون المسيحيون عن تطلعات الفكر البورجوازي بصورة أبكر وأوضح ومن هؤلاء رزق الله حسون وفرنسيس المراه وجيرائيل الدلال .

(٢٤) هذا ما سنراه في الصفات التالية .

(٢٥) راجع حولها : احمد حلمي العلاف : « دمشق في مطلع القرن العشرين » دمشق ١٩٧٦ . ص ١٢٤ - ١٢٩ . وكذلك وصف : نوفل فردينان : « أولياء حلب في منظومة

الشيخ محمد ابي الوفاء الرفاعي » ( ١٧٦٥ - ١٨٤٧ ) .

وفي مخطوط « بلوغ المنى في تراجم اهل الفنا » لجامعه محمد بن احمد الكنجي ( المكتبة الظاهرية رقم ٦٧٦ ) تراجع لستة وعشرين مغنيا ، عاشوا في أوائل القرن الثامن عشر ، منهم المؤذن والمنشد في الاذكار ، والمغني على الآلات ، ويتضمن المخطوط اشعارا معظمها لكبار التصوفة ، وقد ادت تلك الالوان الثقافية - على الرغم من تخلفها ، دورا هاما في تسليية العامة والترويح عن نفسها ونسيان همومها ومشكلاتها المزمنة .

(٢٦) توتل . ص ٤٤ - ٤٥ .

(٢٧) ان خضوع الانسان خضوعا شبيه تام للطبيعة وعواملها دفعه للبحث عن غذاء روحي يفرج كربته ويشحذ عزيمته ويلطف جو الحياة السقيمة المحيطة به . وقامت الاوراد وهي عبارة عن تسابيح تحمي حافظها من نأبات الدهر بهذا الدور .

(٢٨) انظر كتاب : دهمان محمد احمد : « جبل قاسيون » دمشق ١٣٦٥ - ١٩٤٦ .

والحصني محمد اديب : « منتخبات التواريخ لدمشق » ج ٣ . دمشق ١٩٢٧ .

ولا شك ان خسارة دمشق لمركزها السياسي دفع بعض اهلها لاضفاء القدسية عليها فسرعان ما صارت رابع الاماكن المقدسة بعد مكة والمدينة والقدس . ومخطوط ابن عبد الرزاق الدمشقي المتوفى سنة ١١٠٣ بعنوان « حقائق الانعام في فضائل الشام » ( المكتبة الظاهرية رقم عام ٧٣ ) ، مكرس لتبيان فضائل الشام اعتمادا على التراث . وقد فسر المؤلف كثيرا من الآيات القرآنية والاحاديث النبوية بما يدعم مواقع دمشق الروحية والاقتصادية والسياسية .

(٢٩) قبل منتصف القرن التاسع عشر ، وقبل اتصال بعض الاوساط المسيحية باوروبا

البورجوازية ، لم يختلف الجو الروحي السائد لدى المسيحيين عنه لدى المسلمين : فالمجتمع الاقطاعي الشرقي ورديفه المجتمع الحرفي اغرز « فكرا متخلفا جامدا مهترنا » بين الجميع . ويخطيء من يظن ان الاوساط المسيحية لم تكن تعتقد بالاساطير والخرافات والاهام .

حول هذا الموضوع انظر : المشرق نيسان حزيران ١٩٣٨ ، ص ٢٤٦ . و ١ ك ا  
١٩٣٨ ، ص ٤٨ وبريك مخائيل الدمشقي : « تاريخ الشام ١٧٢٠ - ١٧٨٢ »  
أعني بتعليق حواشيه مع ملحق جزيل الفائدة للخوري قسطنطين الباشا المخلصي .  
مطبعة القديس بولس في حريصا لبنان ١٩٣٠ نقلا عن النسخة الموجودة في برلين  
تحت رقم ١٩٧٨٦ ص ٢٣ ، ص ٢٢ ، ص ٢٧ .

(٣٠) حول هذا الموضوع انظر الفلاف ... ص ١٢٩ - ١٣٢ . البارودي .. ص ٤٦ .  
كرد علي الخطط ج ١ ، ص ٢٧٩ . مذكرات جرجي زيدان ، نشرها د. صلاح الدين  
المنجد . بيروت ١٩٦٨ ص ٢٠

(٣١) جمع هذه القصص : كيال منير : « الحمامات الدمشقية وتقاليدها » دمشق ١٩٦٤  
ص ٢٢٣ .

(٣٢) اشار البديري في مذكراته في منتصف القرن الثامن عشر الى السيران اكثر من مرة  
ووصف السرور الذي يعم المشاركين فيه . انظر ايضا : البارودي .. ص ٤٤ بريك  
... ص ٦٣ المشرق نيسان حزيران ١٩٣٨ ، ص ٢٥٦ . المشرق كانون الثاني اذار  
١٩٣٩ ص ٥٥ قساطلي ... ص ٨٧ .

(٣٣) ان المدة اللازمة لجلب ماء السممر من عين بين أصفهان وشيراز ووضعه في الاماكن  
المرتفعة لكي يجذب طير السممر ويفتك بالجراد ، كانت تبعث في العامة المضطربة  
الخائفة من اضرار الجراد ، الامل في الخلاص من هذه الآفة الطبيعية ، وتحثهم الى  
جمعه ودفنه أو احراقه .

انظر في هذا المجال مقدمة عبد الكريم احمد عزت لكتاب البديري ص ٧٣ نقلا عن  
المرادي ج ٣ ص ٢١٤ والغزي ج ٣ ص ١٣٠ . اقرأ وصفا مفصلا حول كيفية جلب  
ماء السممر الى حلب سنة ١٦٤٣ في كتاب : « نخبة من سفرة البطريرك مكارسوس  
الحلبي بقلم ولده الشماس بولس ، عني بنشرها الخوري قسطنطين الباشا حريصا  
١٩١٢ ، ص ١٥ ، والبديري ص ٩ و ٩٣ .

(٣٤) هو الشيخ أرسلان ومسجده معروف في ظاهر دمشق . وقد أشار الى كرامات الشيخ  
رسلان ابن عبد الرزاق الدمشقي في مخطوطة : « حدايق الانعام في فضائل الشام »  
المكتبة الظاهرية بدمشق بعنوان : عام ٧٣ ص ١٨٠ - ١٨٢ .

(٣٥) راجع حول القوى العسكرية بحثا مفصلا في : رافق عبد الكريم « بلاد الشام ومصر  
من الفتح العثماني الى حملة نابليون بونابرت » ( ١٦١٥ - ١٧٩٧ ) دمشق ١٩٦٧ .  
ص ٦٩ - ٧٨ .

- (٣٦) المصدر نفسه ، ص ٢٢ نقلا عن المرادي ج ١ ٢٢٤ .
- (٣٧) المصدر نفسه ، ص ١٢١ .
- (٣٨) ابن جمعة المقار : « الباشات والقضاة » نشره صلاح الدين المنجد . دمشق ١٩٤٩ .
- ص ٦٠ .
- (٣٩) المصدر نفسه ، ص ٦١ وفي بريك تفصيل واف حول هذا التحرك ... ص ٤
- (٤٠) رافق ... ص ٣١٣ نقلا عن القاري ص ٧٧٠ .
- (٤١) ابن جمعة ... ص ٦٦ .
- (٤٢) رافق ... ص ٣٢٤ .
- (٤٣) البديري أحمد : حوادث دمشق اليومية ١١٥٤ - ١١٧٥ ، و ١٧٤١ - ١٧٦٢ م  
تقحها الشيخ محمد سعيد القاسمي وقف على تحقيقها ونشرها دكتور احمد عزت  
عبد الكريم . القاهرة ١٩٥٩ . ص ٤١ .
- (٤٤) المصدر نفسه ، ص ٦٤ .
- (٤٥) المصدر نفسه ، ص ٩٦ .. القاري ص ٧٩ .
- (٤٦) في البديري وصف شيق ومضمون طبقي للطبيعة الاستثمارية لاسعد باشا .
- (٤٧) البديري .. ص ٩٨ .
- (٤٨) المصدر نفسه ، ص ١٢٦ .
- (٤٩) المصدر نفسه ، ص ١٢٩ .
- (٥٠) المصدر نفسه ، ص ١٩٧ .
- (٥١) المصدر نفسه .
- (٥٢) بريك ... ص ٥٣ .
- (٥٣) المصدر نفسه ، ص ١٧ .
- (٥٤) الشطي ... ص ٢٥ القاري ... ص ٨٦ .
- (٥٥) الشطي ... ص ٢٧ .
- (٥٦) تاريخ حوادث الشام ولبنان من سنة ١١٩٧ الى سنة ١٢٥٧ هـ ( ١٧٨٢ - ١٨٤١ م ) .  
عني بنشره وتعليق حواشيه ووضع فهارسه الاب لويس معلوف اليسوعي بيروت  
١٩١٢ اما مؤلف الكتاب فهو ميخائيل الدمشقي الذي كان من موظفي الحكومة في  
دمشق . وسنشير الى هذا الكتاب باسم « الدمشقي » ص ١٠ .
- (٥٧) الدمشقي .. ص ١٦ والشطي ... ص ٢٧ .
- (٥٨) الدمشقي ... ص ١٨ .
- (٥٩) الحصري ساطع : « البلاد العربية والدولة العثمانية » بيروت ١٩٦٥ . ص ٦٥ .
- (٦٠) البيطار ... ص ١٢٤٣ . الشطي ... ص ٣٠١ .

(٦١) « مذكرات تاريخية » تتضمن ثورة دمشق والحريق الكبير فيها وقدم ابراهيم باشا الى الشام وحروبه فيها مع الدولة العثمانية وثورات فلسطين والدروز وأحوال حكومته فيها الى أن خرج منها ورجع الى مصر وعادت اليها تركيا . بقلم أحد كتاب الحكومة الدمشقيين . عني بنشرها وتعليق حواشيها الخوري قسطنطين الباشا المخلصي . عن نسخة مكتبة الكلية الاميركانية في بيروت مطبعة القديس بولس في حريصا ( لبنان ) بدون تاريخ الطبع ص ٤ .

(٦٢) المصدر نفسه .

(٦٣) في « مذكرات تاريخية » تفاصيل وافية عن مؤتمر الربوة .

(٦٤) الدمشقي ... ص ٥٠ .

(٦٥) مذكرات تاريخية ... ص ٩ والوقائع اللاحقة للثورة مأخوذة من المصدر نفسه .

(٦٦) مخائيل الدمشقي ص ٥٢ .

(٦٧) الوقائع التالية مأخوذة من « مذكرات تاريخية » .

(٦٨) المصدر نفسه .

(٦٩) المصدر نفسه ، ص ٥٣ .

(٧٠) البيطار ... ص ٣٢٠ .

(٧١) مذكرات تاريخية ... ص ٥٤ .

(٧٢) مذكرات تاريخية ... ص ٥٧ .

(٧٣) المصدر نفسه ، ص ٦١ .

(٧٤) المصدر نفسه ، ص ٦٥ .

(٧٥) « حسر اللثام عن نكبات الشام » لمؤلف مجهول . مصر ١٨٩٥ . ص ٣٨ .

(٧٦) الحسيبي محمد أبو سعود : « حادثة دمشق سنة ١٨٦٠ » مخطوط في المكتبة

الظاهرية بدمشق تحت رقم ( عام ٤٦٦٨ ) ، ص ٦ . وقد نشر المخطوط بتحقيق

كمال الصليبي في مجلة الابحاث ( تصدرها الجامعة الاميركية في بيروت ) في العدد

٢١ ( ١٩٦٨ ) والعدد ٢٢ ( ١ - ٢ - ١٩٦٩ ) .

(٧٧) يشير الحسيبي الى ... علاقة النصارى مع الافرنج في تجارة الحنطة والشعير وسائر

الحبوب والسمن والصوف والقطن وسائر ( سائر ) ما يلزم الفرنج وخصوصا

الفرنسيين ص ٧ .

(٧٨) لوتسكي : تاريخ « الاقطار العربية الحديث » موسكو ١٩٧١ ص ٢٣ .

(٧٩) انظر حول هذا الموضوع : سميليا نسكايا : « الحركات الفلاحية في لبنان » (النصف

الاول من القرن التاسع عشر ) تعريب عدنان جاموس . بيروت - دمشق ١٩٧٢ وكذلك

كتابنا القضية الزراعية والحركات الفلاحية في سورية ولبنان ( ١٨٢٠ - ١٩٢٠ ) .

الباب الرابع ، الفصل الاول .



- (٨٠) خير دليل على منزلة الفئات العليا من المسيحيين اقتصاديا واجتماعيا في دمشق ما ذكره شاهد عيان معاصر للاحداث حول غنى مسيحيي دمشق . فهم « مهذبون بالصنائع والآداب الحميدة ولطف الاخلاق وحسن العشرة وكثرة العلوم الامر الذي لا يمكن نجاحه بدون غنى وافر وعقار ثابت . ثم متاجرهم وتجارتهم في البلاد السورية وافريقية والاناضول والاسنانة واوروبا » حسر اللثام .. ص ١٣ .
- (٨١) انظر في هذا المجال ما كتبه البيطار وما رواه الحسيني وكردعلي فيما بعد وكذلك المؤرخين المسيحيين امثال صاحب كتاب « حسر اللثام » وغيرهم .
- (٨٢) انظر تفاصيل الاحداث في : البيطار ... ص ٨٢٠ الحسيني ... ص ٤ حسر اللثام ... ص ٢٢٦ - ٢٣٣ نبذة مختصرة في حوادث لبنان وسورية لاحد كهنة الارمن ، شاهد عياني . نشرها الاب لويس شيخو اليسوعي . بيروت ١٩٢٧ . ص ٢٤ - ٢٦ .
- (٨٣) يصف الحسيني ذلك بقوله : « وصارت الاشقياء ترد الى حارة نصارى دمشق الشام للنهب والقتل والحرق والسبي والعياذ بالله » ص ١٠ .
- (٨٤) نبذة مختصرة ... ص ٣ حسر اللثام .. ص ٣٥ م .
- (٨٥) مثل الامير عبد القادر الجزائري ورجاله المغاربة . والقوى المتنورة في حي الميدان مثل صالح آغا المهاياني وعمر آغا العابد والعلامة الشيخ عبد الفني الفنيمي الميداني وسليم آغا المهاياني كبير الميدان . ومن العلماء الشيخ سليم العطار ومسلم الكزبري وآل حمزة . انظر حسر اللثام ... ص ٢٣٤ . نبذة مختصرة ص ٣١ . كما ان قراءة ما كتبه الشيخ عبد الرزاق البيطار من الميدان وهو معاصر للاحداث خير دليل على ذلك .
- (٨٦) هذا تعبير الشيخ البيطار ص ٢٦٣ وكذلك كرد علي في كتابه « دمشق مدينة السحر والشعر » مصر بلا تاريخ ص ٤٢ . وقد فشلت محاولات مد الفتنة الى ريف دمشق بفضل القوى الاسلامية النقية وهذا ما تحقق منه المؤلف بنفسه في كل من صحنايا ودير عطية .
- (٨٧) لوتسكي ... ص ٣٨ .
- (٨٨) كرد علي ... ص ٤٢ - ٤٣ .
- (٨٩) الحسيني ... ص ١٣ .
- (٩٠) كرد علي ... ص ٤٣ .
- (٩١) المصدر نفسه .

- (٩٢) انظر حول تطور دمشق ب ١٨٦٠ قساطلي ... ص ٩٢ - ٩٣ .
- (٩٣) راجع في هذا المجال : حنا عبد الله : « الحركة القومية في سورية ١٨٥٠ - ١٩٢٠ »  
اطروحة بالالمانية . لايبزغ ١٩٦٥ .
- (٩٤) راجع حول نمو الحركة الوطنية وتطورها بعد ١٩١٨ : حنا عبد الله « القضية  
الزراعية والحركات الفلاحية في سورية ولبنان ( ١٩٢٠ - ١٩٤٥ ) » القسم الثاني .  
بيروت دار الفارابي ١٩٧٨ . وكذلك حنا عبد الله « الحركة العمالية في سورية ولبنان  
١٩٠٠ - ١٩٤٥ » دار دمشق - دمشق ١٩٧٢ .

## مشاريع السيطرة والتجزئة في بلاد الشام

من خلال أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية ( ١٩١٥ - ١٩٢٠ )  
الدكتور وجيه كوثراني  
( الجامعة اللبنانية )

### مبررات منهجية لاختيار نوع معين من الوثائق :

يركز التاريخ الدبلوماسي الذي يتناول هذا الموضوع من زاوية « العلاقات الدولية » ، على الاتفاقيات والمعاهدات وقرارات المؤتمرات الدولية الكبرى : كاتفاقية سايكس بيكو ووعده بلفور ، ومؤتمر سان ريمو الخ . . وذلك انطلاقاً من كون هذه الصيغ ، مشاريع حاسمة على طريق فرض السيطرة والتجزئة التي حملتها الدول الكبرى الاستعمارية آنذاك .

بيد ان نصوص هذه الصيغ والتي نشرت منذ زمن وتناولتها كتب تاريخية كثيرة بالتعليق والتحليل تكتفي بإبراز الجانب « الدبلوماسي » في موقف الدول الكبرى . أما الجوانب الأخرى المكونة في الأساس لهذا الموقف ، وهي جوانب ترتبط من جهة بمصالح القوى الاجتماعية داخل هذه الدول والفعاليات الاقتصادية فيها ، ومن جهة أخرى بالتركيب البشري والبنية الاجتماعية للبلاد التي هي هدف لسياسة التجزئة والسيطرة ، فنصوص وثائقية أخرى تبرزها . . نصوص قد تبدو في الظاهر أقل أهمية من تلك التي تحمل « القرارات الكبرى » ، ولكنها في الواقع تشكل بعناصرها وموادها الجزئية والصغيرة المغمورة ، خلفية وقاعدة « القرار السياسي الكبير » .

ومن خلال دراستنا لوثائق الخارجية الفرنسية المجموعة في مجلدات موزعة على أبواب :

— Turki - Guerre 1914 - 1918

— Levant, Série, E, Liban - Syrie 1919 - 1929

توقفنا عند بعض الوثائق التي تبرز هذه الجوانب المغمورة . وهذه الوثائق كثيرة ومتنوعة من حيث الموضوعات : ( اقتصادية واجتماعية

وعسكرية وسياسية ) ، ومختلفة المصادر : خبراء وعلماء وأساتذة جامعات أرسلوا في بعثات لدراسة وضع البلاد « عيانيا » ( مثلا Huvelin أستاذ في القانون في جامعة ليون ) ، عملاء ومخبرون وقناصل وأجهزة خاصة بجمع المعلومات Service des Renseignements مذكرات رجال أعمال وغرف تجارة ، مراسلات وبرقيات سرية ( بالشفيرة ) حلت رموزها ، تبودلت بين كبار المسؤولين الفرنسيين . الخ .

وفي رأينا ان هذا النوع من الوثائق يملك دلالة تهمنا من زاويتين :

أولا : من زاوية غنى هذه الوثائق بعناصر ومواد التاريخ الفعلي وهي مواد تساعد على كشف مصالح القوى والفئات والطوائف وأهمية المناطق والمرافىء والاسواق ، من وجهة نظر الاستعمار الفرنسي آنذاك ، وتساعد بالتالي على فهم المخططات السياسية والبرامج التي أعدت أو طبق بعضها في بلاد الشام في مطلع القرن العشرين .

ثانيا : من زاوية الدلالة على ان انتصار الاستعمار الفرنسي في مشاريع سيطرته وتجزئته لبلاد الشام لم يكن مجرد انتصار « آلة عسكرية متطورة » أو نتيجة « حيل دبلوماسية » أو خداع فحسب ، بل ان ثمة خلفية للتحرك الفرنسي الدبلوماسي والعسكري نكتشفها من خلال وثائق هي أشبه بتقارير « علمية » فهي تحمل معرفة « عيانية » بالوضع الداخلي للبلاد . لذلك نكاد نقول ان « علما » خاصا بالامبريالية تجند له وسائل البحث في التاريخ وعلم الاجتماع والاقتصاد والانتربولوجيا . . تقدمه تلك التقارير منهجا وموضوعا .

والموضوعات تتمحور حول المسائل التالية : كيف نتعامل مع سورية ؟ مع اقتصادها ؟ مع واقعها الجغرافي والبشري ؟ مع تركيبها الاجتماعي ؟ مادورها في اطار دوائر النفوذ في آسيا وافريقيا ؟ هل نخلق سورية « موحدة » أم « مجزأة ؟ » . الخ . .

أسئلة يطرحها الجانب الفرنسي في مرحلة تقسيم الامبراطورية العثمانية ، وبدء النهوض القومي في الشرق ، ويجهد الخبراء والدبلوماسيون والاقتصاديون الفرنسيون في ايجاد الاجوبة على ذلك من موقع مصلحة الرأسمالية الفرنسية التوسعية آنذاك ومصلحة الدولة « الكولونيالية » العسكرية التي تحمل وتحمي هذا المشروع التوسعي .

اذن بدافع هذا الاهتمام المزدوج بوثائق وزارة الخارجية الفرنسية ( الاهتمام بمعرفة واقع تاريخنا ومعرفة كيف تعامل الاستعمال الفرنسي مع هذا الواقع وكيف فهمه وحوره ) قمنا بمتابعة دراسة هذه الوثائق واخترنا منها تلك التي تطرح هذه الموضوعات التي أشرنا لبعضها .

وإذا كان المجال لا يتسع لتقديم عرض مفصل عنها جميعا . نكتفي بعرض نماذج منها ، مختارين موضوع تجزئة سوريا ووحدتها من زاوية السيطرة الفرنسية في سنوات الحرب العالمية الاولى ، وسنوات المرحلة الانتقالية ( ١٩١٨ - ١٩٢٠ ) .

### وحدة « سورية الطبيعية » في منظور رجال الاعمال الفرنسيين :

في الوقت الذي كانت تجرى فيه المحادثات بين روسيا وبريطانيا وفرنسا عام ١٩١٥ ، والتي أسفرت في العام التالي عن الاتفاقية المعروفة بـ « سايكس - بيكو » تسربت أخبار الى الاوساط الاقتصادية الفرنسية مفادها أن فرنسا مستعدة للتنازل عن قسم من « حقها » في السيطرة على كامل سورية ، لمصلحة حليفها بريطانيا . وكان من شأن هذه الاخبار التي تسربت عن المحادثات أن تثير ضجة في الاوساط الاقتصادية الفرنسية ولاسيما في غرفتي تجارة ليون ومرسيليا .

لذلك تبادر غرفة تجارة ليون في ٧ حزيران ١٩١٥ الى رفع مذكرة الى وزير الخارجية الفرنسية<sup>(١)</sup> تبدي فيها « قلقها » على مصير سورية ، « بمناسبة » تقسيم تركيا ، وتؤكد « أمانها » في سلخ « سورية » موحدة عن الامبراطورية العثمانية والحاقها كاملة بالنفوذ الفرنسي . واذ تشدد المذكرة على « وحدة سورية الطبيعية » تنطلق بشكل أساسي من تعيين اطار وحدود رقعة المصالح الاقتصادية الفرنسية في الشرق . هذه « الرقعة » هي « سورية » كما يعرفها تجارنا والتي يطالبون بها لفرنسا بصورة غير قابلة للجدال وهي تمتد من طوروس الى مصر وتشتمل على كيليكية ، كما على فلسطين . »

هذا ماتطالب به بصورة قاطعة رسالة غرفة تجارة ليون ، وهي على عكس تصور « لجنة الشؤون السورية » للحدود لاتستثني « الاسكندرون » ، بل تمد الحدود حتى أقدام جبال طوروس بحيث تشمل سهول « أضنة » الخصبة والتي اشتهرت بزراعة القطن .

وأما المصالح الاقتصادية الفرنسية التي تبرر ذلك ، فتعبر عنها

رسالة غرفة ليون كما يلي : ان سورية بلد منتج للحريير ، وهذا يعني انها جزء من سوق ليون الكبير الذي أصبح بدوره منذ فتح قنال السويس أهم مركز للعالم للمواد الحريرية . ان سورية تصدر لنا حوالي ٥٠٠ ألف كيلو من الحرير سنويا ، أي مايعادل في السنة العادية ٢٥ مليوناً من الفرنكات . هذا ولم يكتف مواطنونا باستيراد المنتوجات التي يعدها أهل البلاد ، بل بادروا بانفسهم الى انشاء « حلالات » في لبنان ، كما ان عمليات شراء الشرائق التي تتطلب رساميل كبيرة كانت تؤمن بواسطتهم ، انهم يعرفون جيداً مراكز الانتاج والاراضي الزراعية ولديهم علاقات شخصية مع أهالي البلاد . « (٢) .

بيد أن رسالة غرفة ليون بتركيزها على انتاج الحرير لاتستطيع أن تبرر « اقتصاديا » مطلبها في سلخ سورية « كاملة » « Integrale » عن الامبراطورية العثمانية ورسم هذه الحدود الواسعة لها ( من طوروس حتى مصر ، ومن الفرات حتى البحر ) فانتاج الحرير يتركز زراعة وصناعة ، وتصريفاً على شريط ساحلي ، وبصورة خاصة في جبل لبنان وبيروت . لذلك تتكامل خطى الرأسمالية الفرنسية في مطالبتها الحكومة الفرنسية في السيطرة على سورية « كاملة » و « طبيعية » من خلال تحرك غرفة تجارة مرسيليا ، وذلك بعد أسابيع من رفع مذكرة غرفة تجارة ليون . فمرسيليا المرفأ الفرنسي المتوسطي هو الذي كان يصدر ويستقبل من والى المشرق . . وتجار مرسيليا أقدر على معرفة قيمة مناطق « سورية » من الناحية التجارية : ( الاسواق والمدن ، المرافئ ، المواصلات ) وبالتالي على تبرير المطلب وفق اتساع المصالح الفرنسية ومنطق تواجدتها وامكاناتها انمائياً (٣) .

تحدد رسالة غرفة تجارة مرسيليا مطلبها بالصيغة التالية : « ان سورية الكاملة Intégrale هي التي تمتد شمالاً من جبال طوروس ( Taurus ) والجبال المقابلة لها ( Anti - Taurus ) الى خط ينطلق جنوباً من العريش على المتوسط ويتجه نحو مرفأ العقبة في نهاية خليج العقبة الذي هو عبارة عن لسان بحري في البحر الاحمر . ومن الفرات شرقاً حتى البحر غرباً . .

« ولايمكننا في الواقع ان نرضى كما كان الامر في وقت معين ، بسورية التي تقتصر على رقعة ساحلية تمتد من اللاذقية الى غزة والسى وادي العاصي والاردن . انما يجب ان تضم سورية حتماً كل ولاية حلب

مع مرفأ الاسكندرون التابع لها وكذلك كل ولاية أضنة في حدودها الادارية الحالية . وبدون شك فان فلسطين وولايتي بيروت ( مع لبنان ) وسورية ( دمشق ) لايمكن التفاوضي عنها . . . » .

وبعد أن تعرض الرسالة في مذكرتها الملحقة « القيمة الاقتصادية لسورية » : ( أسواقها ، وأراضيها الزراعية ومرافئها وتجاريتها ) تخلص الى القول : « وبما ان بريطانيا تسعى الى الاستيلاء على بلاد مابسين النهرين وبما انها تعترف بحقوقنا في سورية ، فمن المؤكد انه بإمكاننا الاستناد - بغض النظر عن كل الاعتبارات التاريخية والاخلاقية التي تؤكدها عليها الرسالة - الى الحجج الدامغة للمصالح الحالية والممكنة التي تعرضها المذكرة . . » .

لكن « أماني » رجال الاقتصاد كانت تصطدم بحدود امكانات الدولة الفرنسية وحدود مشاركتها في الحرب لاسيما من ناحية الجبهة الشرقية . فغلبة الدور العسكري البريطاني من ناحية العراق ومن ناحية السويس ، كانت تفرض تقسيما لمناطق النفوذ في بلاد الشام يأخذ بعين الاعتبار حسابات بريطانيا الاقتصادية والاستراتيجية في الشمال الشرقي ( الموصل ) والجنوب ( فلسطين ) ، وهذا ما عبرت عنه - على كل حال - صيغة سايكس بيكو المعروفة ووعود بريطانيا الى الشريف حسين ، وترجمه الصراع الدبلوماسي ( البريطاني - الفرنسي بعد الحرب ) (٤) فالمشاريع التي انتجتها الحرب لم تكن أبدا في حجم الامال الفرنسية التي عقلت في مرحلة ما قبل الحرب . أو في المرحلة التي « نبهت » فيها غرفتا تجارة ليون ومرسيليا الحكومة وطالبتها بسورية « كاملة » .

وبانتهاء الحرب ، تعود غرفة تجارة ليون على الفور - وكان خبر اتفاقية سايكس - بيكو قد شاع - لترفع في ٢٥ تشرين الاول ١٩١٨ رسالة الى وزير الخارجية تذكره برسالتها الاولى المقدمة في ٧ حزيران ١٩١٥ (٥) وتعترض فيها الان على اتفاقية ١٩١٦ . تقول : « ان حصة فرنسا في سوريا تبدو مختلفة كليا عن تلك التي حق لنا أن نأمل بها . لقد انحسرت الان الى شريط ساحلي بسيط ، فلم يعد لسورية تلك السمة الجغرافية التي عرفناها قبل الحرب . لقد حذف منها ثلاث مناطق مهمة : حلب ، الموصل ، دمشق . وهي مناطق سيقام عليها امارات

عربية ، بل أكثر من ذلك ، ان انكلترا تحتفظ لنفسها بمرفأء عكا وحيفا  
بينما يعلن مرفأ الاسكندرون مرفأ حراً . . . »

وتضيف رسالة غرفة تجارة ليون : « اذن من الناحية الاقتصادية  
تقلصت سورية كثيرا فلم يعد لها سوى مرفآن : طرابلس وبيروت .  
وبالمقابل فان حيفا التي هي الان رأس خط حديدي واسع المجرى يمكن  
أن تصبح خلال بضع سنوات نهاية شبكة تمتد من الهند الى المتوسط  
فتستقطب كل حركة تجارة الداخل . وبذلك تكون اذن أفضل من  
بيروت التي هي نهاية لخط طوله ٩٦ كلم ويتخلله ٣٥ كلم « سلسلة أسنان »  
( à crémaillère ) ومن ناحية نفوذنا التاريخي في الشرق ، فان منح دمشق  
الى امارة عربية يعدل كليا السمة التقليدية لسورية ، فبهذا لا تعود الا  
بلدا منفوخا من الاعلى ( يقصد الشريط الساحلي ) وغارقة فيما عدا ذلك  
في المجهول . ذلك انه من يستطيع ان يعرف من سيكون الامراء العرب  
الذين سيحكمون دمشق ؟ بأي شكل ولمصلحة من سيستثمرون هذا  
« الامتياز الديني » المرتبط بمدن الاسلام ؟ أكل هذه الحواضر المقدسة :  
دمشق ، بغداد ، القاهرة مكة ، والتي كانت سابقا مراكز للخلفاء الاقوياء ،  
ينبغي أن تعطى لانكلترا ؟ أليست فرنسا هي أيضا قوة اسلامية ؟ ومصر  
مستعمراتنا في شمالي افريقيا الا يتوقف الى حد ما على الحالة الفكرية  
التي تهيمن في المشرق ؟ » .

بناء على هذه الاسباب ، تطالب غرفة تجارة ليون باعادة النظر  
في بنود اتفاقية ١٩١٦ . والمبرر الظرفي « أن أحداثا عدلت الموقف .  
فمن جهة ، زوال روسيا القيصرية ، ومن جهة ثانية دخول دولة عظمى  
هي الولايات المتحدة الاميركية الحرب .

وتكرر رسالة غرفة تجارة ليون ، تذكيرها برسالة ١٩١٥ ،  
وبمطالب الفرنسيين المقيمين وذوي المصالح في سورية : « والذين تستحق  
تجربتهم ومعرفتهم ببلاد الشرق أن تؤخذوا بعين الاعتبار ، والذي يطلبه  
هؤلاء كشيء أساسي لمصالحنا ونفوذنا ان تمنح دمشق وحلب واستطرادا  
الموصل الى منطقة النفوذ المخصصة لفرنسا » . (٦) .

وهذه الافكار يستعيدها بشكل أوضح تقرير كتبه الرئيس العام  
للبعثة اليسوعية في سورية الذي عاش فترة طويلة في البلاد . والتقرير  
يلحق برسالة مؤرخة في ٣٠ تشرين الاول ١٩١٨ ، موجهة من رئيس



مجلس الوزراء ووزير الحربية الى وزير الخارجية (٧) بهدف الاطلاع عليه والاستفادة منه :

يقدم التقرير ثلاث اعتراضات على اتفاقية ١٩١٦ :

أولاً : بالنسبة لدمشق ، الموصل ، حلب ، يشير التقرير « أن هذه الاراضي هي اراض سورية وان فصلها عن هذه البلاد ولدمجها في دولة سيكون مركزها السياسي في مكة ، هو فصل اعتباطي » .

ثانياً : ان التخلي عن مرافئ حيفا وعكا لبريطانيا واعتبار مرفأ الاسكندرون مرفأ حراً . . . . . » يحرم فرنسا من المنفذ الطبيعي لتجارة أكثر من نصف أملاكها . ذلك أن حركة التجارة ستختار طريق دمشق - حيفا مفضلة اياها على خط دمشق - بيروت . وهذا الاختيار سيفرض نفسه بصورة أكبر عندما تصبح حيفا في غضون وقت قصير رأس خط حديدي يربط ما بين الهند والمتوسط . وينتج أيضاً عن فتح مرفأ الاسكندرون بصورة حرة أن تخسر فرنسا امكانية الاستفادة من رسوم أي ترانزيت في شمالي سورية » .

ثالثاً : اعتراض ثالث ربما يكون أكثر خطورة وهو ناتج عن كون دمشق ستفصل عن سورية لتضم الى كونفدرالية عربية ، بذلك تفقد فرنسا امكانية الاستفادة من احدى المدن الاسلامية المقدسة . وبالمقابل ، فان روابط انكليزية من شأنها ان تشد هذه الكونفدرالية الى انكلترا . بذلك تكون حليفتنا قد وضعت يدها على مدن الاسلام الثالث : مكة ، دمشق ، القاهرة . ولن نكون حينها مبالغين اذا شددنا على مخاطر النتائج المتأتية عن هذا الوضع . فمن تلك المراكز التي تستأثر باحترام كل مسلم أن تنشأ تيارات أفكار ، وشعارات لانستطيع ان نمارس عليها أية رقابة . ويمكن أن يمتد تأثيرها الى شتى أنحاء امبراطوريتنا الاسلامية . اذن ليس في التخلي عن دمشق خسارة فحسب لممتلكاتنا الاسيوية ، بل أيضاً خطر هام على توازن ممتلكاتنا في شمالي افريقيا .

وبعد صراع دبلوماسي حاد بين الدولتين استخدمت فيه الصراعات المحلية في المنطقة ومن بينها الاتجاهات السياسية والوفود (٨) ، أسفر الصراع عن اتفاق ١٥ أيلول ١٩١٩ المعروف والذي شكل التمهيد لمقررات مؤتمر سان ريمو . فمقابل جلاء الجيش البريطاني عن سورية وكيليكية

واستبدال هذه القوى بجنود فرنسيين . نال الانكليز من الفرنسيين  
المكاسب الاتية : (٩)

- عدم المطالبة بادخال ولاية الموصل ضمن الحدود السورية .
  - عدم المنازعة في تقرير مصير فلسطين ، أي أن تكون لبريطانيا .
  - عدم المنازعة في وضع العراق تحت الانتداب البريطاني .
  - ابقاء مقاطعة شرق الاردن تحت الاحتلال البريطاني .
- بهذا الاتفاق تحددت ضمنا الخطوط العامة « لسورية الفرنسية » .  
ولكي تثبت هذه الهيمنة الفرنسية كان لابد من امرين :

- ١ - ضرب الحركة العربية في دمشق وازاحة فيصل واثبات ان  
لاجدوى من تطبيق اتفاق فيصل - كليمنصو .
- ٢ - تنظيم سورية تنظيما يضمن السيطرة عليها عبر مشاريع  
الكونفدرالية والتجزئة .

ومن الملاحظ أن الامر الاول درس درسا مستفيضا في العديد من  
الكتب الوثائقية والعامية . أما الامر الثاني فلم يدرس على حد علمنا دراسة  
وافية .

وعلى كل استوقفنا عدد كبير من الوثائق حول هذا الموضوع منها  
دراسات وتقارير ذات طابع سوسيولوجي يعود بعضها الى ما قبل الحرب ،  
ومنها أيضا مراسلات سرية تمت بين المسؤولين ، لاسيما غور وويلران في  
المرحلة الاولى من تنظيم الانتداب على سورية . وقد ارتكزت المشاريع  
الإدارية السياسية التي حملتها المراسلات الى حد كبير على التقارير  
والدراسات السوسيولوجية الوصفية .

### **الدبلوماسية الفرنسية في فهمها « للتركيب الطائفي والاقوامي »**

#### **وتعاملها مع خصوصياته**

كثيرة هي الوثائق والتقارير والكتب التي تحدثت عن العلاقة  
التاريخية بين فرنسا من جهة وبين مسيحيي الشرق من الكاثوليك  
والموارنة ، من جهة ثانية . وبين أيدينا وثائق متنوعة تبرز أشكالاً مختلفة  
من هذه العلاقة في مطالع القرن العشرين والتي تدور بمجملها حول  
تأمين الحماية « عبر الوصاية » أو الاحتلال أو التدخل ... الخ ... بينما  
هي قليلة جدا الوثائق التي تكشف أشكال فهم الدبلوماسية الفرنسية

للطوائف الأخرى ، لاسيما تلك التي اعتبرت في نظر الدولة العثمانية ، تارة من ضمن « الإسلام » وتارة منشقة عنه : أمثال العلويين والدروز والشيعية . وفي المرحلة التي ندرس ، بدأت الدبلوماسية الفرنسية في تصديها للمشروع الإنكليزي المرتكز على « توحيد » المنطقة « إسلاميا » في إطار « خلافة » أو « دولة » عربية ، تبحث عن مرتكزات أخرى لها - كما رأينا - غير مسيحية . وفي هذا الخط نلاحظ بداية اهتمام « بخصوصيات » هذه الطوائف : خصائصها الدينية ، عباداتها ، تنظيمها الاجتماعي أو زعاماتها . . . مع البحث عن أشكال « تحالفات » تلتقي فيها مصالح الطرفين : فرنسا من جهة والزعامات المحلية لهذه الطوائف من جهة ثانية .

### مشروع علاقة بالشيعية وبزعيمهم « كامل بك الإسعد » :

نقرأ في مجال هذا الاهتمام الفرنسي بالطوائف الأخرى وزعمائها رسالة بعث بها مدير قنصلية فرنسا العامة في بيروت ( Coulondre ) الى الرئيس « Poincaré » في ١٤ تشرين الأول ١٩١٢ يطرح فيها مشروع صلات بين كامل بك الإسعد زعيم « متاولة » بلاد بشارة « والقنصلية العامة » بمناسبة الحملة الانتخابية التي قام بها هذا الأخير لانتخابه عضوا في مجلس « المبعوثان » وحاجته لدعم مسيحي المنطقة .

يقول القنصل : « ان افتتاح المرحلة الانتخابية قدمت لي الفرصة لعقد صلات مع أحد أهم النافذين في طائفة المتاولة ، كامل بك الإسعد ، ولكسبه ، كما آمل الى جانب فرنسا . هذه الشخصية تتمتع في منطقة بلاد بشارة التي تمتد بين صيدا ، مرجعيون ، وحيفا ، والتي يشكل المتاولة أغلبية سكانها ، بشهرة هائلة فكامل بك الإسعد يحكم كسيد مطاع على حوالي ٢٠ ألف نفس ، يطبق القانون في البلاد ، يثبت الامن أو يخل به اذا أراد ذلك ، وينضوي تحت حمايته ، مقابل غرامة « شريفه » ، كل من يسكن في منطقتة . وقد أبدى دائما بعض الليبرالية والموقف المتفهم حيال المسيحيين . وقد أكسبته طبيعة مشاعره تجاههم تعاطفهم معه .

« ومنذ ثلاثة أسابيع تقريبا ، أعلمت بواسطة الدكتور الفرد خوري ان كامل بك الإسعد أبدى رغبته في اقامة علاقات مع القنصلية العامة . فهو لكونه مرشحا للانتخابات التشريعية القادمة اعتبر بدون شك ان دعمنا

يضمن له مساندة الاكليروس الماروني « والملكي » في المنطقة مما يزيد في عدد الاكثرية المؤيدة له .

« ان فرصة كسب تعاطف هذه الشخصية النافذة ينبغي الاستفادة منها . لذلك طلبت الى مطارنة المنطقة الا يلتزموا حياله قبل ان يتلقوا رأيا من قبلنا ، وفي الوقت نفسه جعلت الزعيم المتوالي يعرف ان القنصلية تكن له ودا ورغبة في استقباله صديقا . وبعد أيام قليلة تلقيت زيارة اخيه وأبناء عمه الذين اعتذروا عن قريبهم الذي اضطر أن يبقى بعيدا عن بيروت بسبب مهمات الحملة الانتخابية وقدموا لي كامل اخلاصه . وبعد طول تبادل في اللياقات والاداب الشرقية وضعت السؤال على أرضه الحقيقية وصرحت لمحدثي اني أثق بكلامهم وصدقه ، بنفس القدر الذي يعبر عن توافق عواطفهم مع مصالحهم التي اعترفوا بها دون صعوبة . وقد برهنت لهم ان فرنسا مدعوة ان تلعب دورا أكثر أهمية وأكثر اتساعا في سورية وأكدت لهم ضمان صداقتنا ومساعدتنا دون شرط مبادلتنا بذلك . واني اتشرف بارسال رسالة كامل بك الاسعد التي بعثها لي بعد هذه المقابلة . واني سابدل جهدي في كسب صداقته التي يمكن أن تكون لعدة وجوه مفيدة لنا . لقد طلبت من المطارنة الذين تملك القنصلية بعض التأثير عليهم أن يدعموا ترشيحه . واقترح أيضا انه عندما تصل قطع بحرية حربية فرنسية الى شواطئ سورية ينبغي اغتنام الفرصة للقيام بزيارة رسمية له بصحبة القائد .

« ان تقرب كامل الاسعد من فرنسا لهو أمر ثمين وذو معنى . فهو يحقق لنا نموا ملحوظا في النفوذ الفرنسي في منطقة كانت حتى هذا الحين بعيدة تماما عن تأثيرنا ، كذلك يحقق لنا مساندة حوالي ٧٠٠٠ محارب في وقت الحاجة . وهو يدل فضلا عن ذلك ان نفوذ فرنسا لا يضعف في سورية » (١٠) .

هل نستنتج أن ثمة تحالفا قد قام بين الزعامة الشيعية المتمثلة آنذاك بصورة أساسية بكامل الاسعد والسياسة الفرنسية في المنطقة ؟ في الواقع لا يمكن التسرع بهذا الاستنتاج اعتمادا على هذه الوثيقة وحدها فتقرير القنصلية الفرنسية يعكس بالدرجة الاولى خطة الدبلوماسية الفرنسية في أن توجد لنفسها حلفاء لها الى جانب الموارد والكاتوليك ، من الطوائف الاخرى . وان حاجة كامل الاسعد آنذاك لتأييد السكان المسيحيين ، في مرجعون على وجه الخصوص في معركته الانتخابية لعضوية

المجلس العثماني حدث به الى هذا التقرب نحو القنصلية الفرنسية . وهذه الحاجة لاتترجم الا موقفاً آنيا لايملك أية قاعدة اجتماعية واقتصادية شيعية . بمعنى ان الطائفة الشيعية كانت تعيش آنذاك في مجموعات قروية زراعية معزولة ومغلقة نسبياً ولاتنتفتح الا عبر قصبات كانت تشكل بدورها محطات وأسواق غير واسعة ( دائرة من القرى المتمحورة حول قصبة : النبطية مثلاً وسوقها الاسبوعي ) . اذن لايمكن مقارنة الشيعة بالموارنة الذين دخلوا منذ بداية القرن التاسع عشر وبالتحديد منذ منتصفه ، في علاقات سوف تسيطر عليه الرساميل الفرنسية ، والذين انخرطوا في أشكال « محلية » خاصة من التقليد أو الاخذ عن الثقافة الاوروبية . . . فضلا عن أشكال « الحماية » الفرنسية التي مورست لاسيما بدءاً من ١٨٦٠ في اطار نظام المتصرفية . لهذا فان المراهنة التي تبديها القنصلية على استقطاب كامل الاسعد في ظرف معين وعلى استقطاب قاعدته الشعبية الفلاحية التي يمكن أن تفرز ( ٧٠٠٠ محارب ) . ليست الا مبالغة لاترتكز الى أي فهم واقعي للعلاقة التحالفية مع كامل الاسعد في ظرف الانتخابات . وهذه الملاحظة تقودنا الى التنبيه الى مسألة : الصراعات المحلية بين الزعامات العائلية في جبل عامل آنذاك . هذه الصراعات هي التي دفعت بكامل الاسعد ان يلجأ عام ١٩١٢ الى التقرب من القنصلية الفرنسية ، والى ان يلجأ أيضاً الى جمال باشا ( ١٩١٤ - ١٩١٥ ) لاضعاف رضا الصلح والحد من صعود عبد الكريم الخليل ، قطبي حركة الاصلاح (١١) وكذلك الى مبايعة فيصل في مؤتمر الحجير (١٢) ، وأخيراً الى قبول صيغة لبنان الكبير بعد ان حكمت عليه السلطات الفرنسية ووضعت يدها على أملاكه اثر حملة « نيجر » وممارسة « السلطة » المحلية بنفس مضامينها الاجتماعية في صيغة « البرلمان » اللبناني فيما بعد .

اذن المسألة هي مسألة تمثيل « سلطة مركزية » قوية يستمد منها الشرعية والقوة لممارسة « سلطة محلية » على القواعد والعلاقات الاجتماعية السائدة نفسها . ( أشكال الاستثمار الزراعي بالمحاصصة والمرابطة - اقامة أحلاف وتوازنات عائلية ، مشاركة السلطة المركزية في ضبط الامن وتحقيق الاستقرار . . . )

وبالفعل هذا ماتنبهت له الدبلوماسية الفرنسية بعد الحرب : الاستفادة من انزال الطوائف والجماعات « الاقوامية » في مناطقها

وتماسك علاقاتها الاجتماعية الداخلية ، من جهة وتوظيف الصراعات « السلطوية » الداخلية مابين العشائر والعائلات ، وحتى مابين «بيوتات» الزعامة العشائرية الواحدة من جهة ثانية ، توظيفها في اقامة « سلطات محلية » ممثلة « للسلطة المركزية » أي سلطة الانتداب الفرنسي « المفوضية العليا » .

ولهذا نلاحظ انه في فترة ما بعد الحرب تدفقت التقارير التي تحمل مسحا اجتماعيا للطوائف وعاداتها وطقوسها والخلافات المذهبية والاجتماعية الدقيقة القائمة بينها ، الى وزارة الخارجية الفرنسية .

### تقرير عن « المتأولة » والجركس

نقرأ الآن على سبيل المثال تقريراً عن « الشيعة الامامية » والجركس رفعه « قائد جيوش الشرق » الى رئيس مجلس الوزراء ووزير الحربية . وهذا الاخير احواله بدوره الى وزير الخارجية بتاريخ ١٤ تشرين الثاني ١٩١٩ بداعي استخدامه « لاغراض مفيدة » . (١٢)

ويعلق وزير الحربية على بعض النتائج التي يتوصل لها الجنرال Hamelin من خلال الملاحظات التي جمعت عن الجركس ، ما يلي : « ونخلص الى نتائج مهمة وهي ان الجركس يشكلون جماعات قابلة لتقديم عون مهم وجدي لنا حين تطرح مهمة تشكل « قوات الفرسان » من « المحليين » هذه الجماعات تكن لنا مشاعر صداقة . ولذلك علينا ان نوجد دعماً لنا في وسطها يكون جاهزاً حين ندعى للتدخل فيما بعد في المنطقة الشرقية » .

بيد ان القسم المتعلق بالشيعة ( ويسمىهم التقرير بالمتأولة Les METWALIS ) فانه يقدم عناصر غنية وتفصيلية في وصف حياة هذه الطائفة . والذي نلاحظ ان الوصف يجهد ان يكتشف بشكل أساسي الفروقات المذهبية القائمة بين هذه الطائفة من جهة والسنة من جهة ثانية . بعد ان يقدم التقرير نبذة سريعة ومشوشة عن أصل الشيعة وتطورهم التاريخي يعرض لعدددهم وتوزعهم في انحاء سورية ، وفق تقديرات يشك في صحتها :

– في ولاية دمشق : في ضواحي حمص وحماه يوجد حوالي عشرة قرى تضم حوالي ٧٠٠ شخص .

- في مدينة دمشق يوجد حوالي ٧٠٠٠ - ٨٠٠٠ نفس . ويقطنون حيا محايدا يسمية السنة : « حارة الرافضة » .

- في قضاء بعلبك يقدر عددهم بحوالي ٢٥٠٠٠ .
- في الهرميل : ٥٠٠٠ .
- في الكورة : ٧٠ .
- في كسروان : في ٤٢ قرية تحوي على ٣٨٠٠ نفس .
- في المتن : في ٥ قرى تحوي على ٧٠٠ .
- في الشوف : ٥ قرى ٦٠٠ .
- في جزين : ١٨ قرية ١٥٠٠ .
- في زحلة : ١ قرية ٥٠ .

#### - في ولاية بيروت :

- قضاء صيدا وقراه : ٥٩٢٦ ذكور ٦٥٤٥ اناث
- قضاء صور وقراه : ١١٥١٠ ذكور ١٢٢٩٥ اناث
- قضاء مرجعيون وقراه : ١٨٠٨٢ ذكور ١٧٤٠١ اناث

المجموع ٧١٧٥٩

ويورد التقرير ايضا الارقام الرسمية التي اعتمدها الحكومة العثمانية بناء على احصاء ١٨٨٧ وهي كما يلي :

- في ولاية دمشق ١٠٠٠٠٠
- في ولاية بيروت ٤٣٣٧٢
- في متصرفية لبنان ٤٢١٢

« ومنذ ذلك التاريخ ادمجت ولايتا بيروت ودمشق « المتاولة » مع

السنة واعتبرتهم مسلمين » .

ويجهد التقرير بعد ذلك ان يوجد الفروقات التي تميزهم عن الاسلام السني ، ( الرسمي ) من حيث التقاليد ، الدين العبادات ، الزواج والارث : « ويعتبر المتاولة انفسهم انهم المسلمون الحقيقيون ، وهم يبغضون السنة وهؤلاء يحتقرون المتاولة ويفضلون التعاطي مع المسيحيين على التعاطي معهم » .

ويشير التقرير الى ظاهرة اساسية من ظواهر استقلاليتهم : « ان الاحترام الذي يكنه المتاولة لمجتهدتهم ، وعلمائهم ، كبير جدا . فهم

يطيعونهم بصورة عمياء رغم قوانين السلطات العثمانية التي اخضعت قضاياهم الى القاضي السني او المحاكم المدنية . وهم يحسمون دائما خلافاتهم لدى « المجتهد » ... » فهم يعتبرون ان القضاة المعينين من قبل السلطان غير شرعيين . ان السلاطين اغتصبوا السلطة فقراراتهم غير معتبرة ...

« والحكم الشرعي لا يمكن ان يكون الا من قبل مجتهد معروف ومزكى من زعيم علمائهم » ( المرجع الاعلى ) .

ويقدم التقرير جدولا يقابل فيه الخلافات القائمة بين السنة والشيعة في عدة امور :

من طريقة الصلاة واوقاتها ، الى الصيام ، الى تحريم أكل بعض الحيوانات ، الى طريقة الوضوء ، الى الموقف من مسألة الخلافة واحقية علي ، الى شعائر عاشوراء ...

ويقف أيضا عند تقليد « الخيرة » التي يلجأ اليها الشيعة لاختيار أمر أو موقف أو مشروع ...

وإذا كان التقرير « السوسيوغرافي » هذا عن الشيعة لا يخلص الى نتائج سياسية مباشرة حول اشكال التعامل الفرنسي معهم ، فان التركيز على « خصوصية » الشيعة في مسألة الموقف من السلطة المركزية الاسلامية : ( السلطان مفتصب لحق الخلافة ، أحكام قضاة السلطة غير شرعية ... الخ ... ) يوصل الى موقف سياسي ترجمه الكولونيل « نيجر » في حملته سنة ١٩٢٠ على جبل عامل لتصفية « العصابات » المدعومة من حكومة دمشق آنذاك ... فقد حاول هذا الاخير أن يفك التحالف بين بعض « متثقي الشيعة من جهة وبين الحركة الفيصلية من جهة ثانية ، باعتبار ان هذه الاخيرة « حركة سنية » ... » .

### دراسة عن الدروز :

في ١٨ تشرين الاول ١٩٢١ يرسل الجنرال غورو الى رئيس مجلس الوزراء ووزير الخارجية رسالة يضمنها دراسة عن جبل الدروز صادرة عن « قسم الاستخبارات في المفوضية العليا » (١٤) ويعتبر ان هذه الدراسة تحمل الموقف الفرنسي المناسب من « أحد مظاهر المسألة السورية الاقل شهرة ألا وهو النزعة الاقليمية الذاتية ( Particularisme ) لدى بعض التجمعات الاثنية والدينية » .



والدراسة تتناول الدروز من ناحية « خصوصيتهم المذهبية » وتنظيمهم الاجتماعي ... وتنطلق من « اختلافهم » عن المسلمين لتفترح حلا لهذا « المظهر من مظاهر المسألة السورية » وهو تأمين « الاستقلال الاداري السياسي » لهذه الطائفة من جبل الدروز اثر انتفاضتهم الاولى عام ١٩٢٠ .

تقول الدراسة : « يكون الدروز طائفة دينية منشقة عن الاسلام . وربما ينحدرون من سكان سورية الاصليين ... »

وتشير الدراسة الى مبدأ التقية المتبع لدى الدروز باعتبارهم من أصول شيعية : « والدروز منون بحق ، فهم يتبعون نصيحة مؤسس دينهم : ( اتبعوا كل امة اقوى من امتكم ، وحافظوا علي داخل قلوبكم ) . لذلك فعندما يحتكون بطوائف اخرى اقوى من طائفتهم كالمسلمين أو المسيحيين ، فانهم يتظاهرون بالتسليم ببعض معتقداتهم ، وهكذا مثلا يرددون بكل طيبة خاطر الشهادتين : « لا اله الا الله ومحمد رسول الله » .

وتشدد الدراسة على اختلافهم عن المسلمين : « ومع ذلك يجب ألا نقع في الخطأ : فخلافاً لما اوصي به لغايات سياسية ، فان الدروز لا ينتمون الى الاسلام . والدليل القاطع على ذلك يعطيه المسلمون انفسهم الذي يعتبرون شهادتهم عند أحد « القضاة » غير مقبولة ضد أحد المسلمين ، ويكفرونهم » .

وتتابع الدراسة تحليل موقع جبل الدروز باعتباره « مفتاح دولة دمشق » ، والحائز على الموارد المائية لسهل حوران ، ومعقل ( الديانة ) الدرزية . وتشدد على « الحياة القبلية المنغلقة واشكال التكتلات العائلية المستقلة عن بعضها البعض لدى الدروز ، وفي حالات التصدي « للعدو الخارجي » ، أشكال الاتحاد « الذي يتمثل في مجلس ممثلي القرى » الذي هو « برلمان المناسبات » .

ويضيف التقرير : « ان جبل الدروز هو قبيلة حقيقية منغلقة على دخول كل الافكار الاوروبية مهما كان نوعها . وهو يعيش حتى الآن في ظل نظام شبه اقطاعي ذي أسس ديمقراطية . انه شبه تكتل عائلات مستقلة عن بعضها البعض ولا تخضع لزعيم واحد . ولا وجود فيه لاسياد ولا لاتباع . ويمتد اتباع كل عائلة أبعد فابعد حتى انهم يضمون بضع ضياع تقريبا . أما نفوذ كل زعيم فيتوقف على الظروف الحالية وعلى

الهيمنة المؤقتة والغنى فلا يكرسه شيء واضح ولا القاب مرموقة ولا مناصب رسمية . وليس فوق هؤلاء الزعماء وتلك العائلات أي جهاز أو سلطة عليا . ويضطرم بين هذه العائلات الف نزاع حالما يتعلق الامر بمصلحة ما - وهذا هو العرف المتبع بين الجماعات الشرقية التي من جهة أخرى ، تعطي مثلا في الاتحاد الوثيق ضد العدو الخارجي . ويجتمع مجلس ممثل للقرى في بعض الحالات : ( الحرب ، المصلحة العامة للطائفة ) ، ويصدر قرارات ليعمل بها . الا انه لا يوجد في موازات برلمان « المناسب » هذا ، الذي يمكن ان نتصور بسهولة امكانيات عمله أي جهاز حكومي معروف وذلك في النطاق التنفيذي » . (١٥)

### دراسة عن العلويين :

في ٢ كانون الاول ١٩٢١ ، قدم الكولونيل « نيجر » Nieger في « جمعية الجغرافيا » ( Société de Géographie ) محاضرة تحدث فيها عن العلويين والاسماعيلية والتنظيم الاداري للبلاد ، وعن أسباب انتفاضة العلويين عام ١٩٢٠ ، والوضع الاقتصادي في المنطقة .

وكانت محاضرتة قد ارتكزت الى عدد من الوثائق جمعها عندما كان يشغل منصب حاكم بلاد العلويين ، واستفاد منها لدراسة جغرافية البلاد ، وسوسولوجية السكان وتاريخ العلويين وقد نشرت « مجلة العالم الاسلامي » (Revue du monde Musulman) (١٦) هذه الوثائق مع تعليق تناول موضوع « تهدئة البلاد التي قام بها الفرنسيون » (١٧) .

وتوزعت الوثائق التي جمعها « نيجر » والتي ارتكزت اليها اساس عملية « التهدئة » وتنظيم البلاد اداريا الموضوعات التالية :

- لائحة بأسماء عشائر العلويين ، وأسماء زعمائهم مع خريطة تشير الى المراكز الاساسية لمواطن ومراكز ٣٢ عشيرة منهم .

- لائحة عن صور طبيعية وبشرية تحمل تعليقات حول خصائص التضاريس - النماذج البشرية - والآثار التاريخية .

- تحليل لسبع مخطوطات « علوية » تحمل معطيات الادب الخاص بالطائفة والتي تؤمن لمختلف عشائر السكان تلاحمها « الوطني » والتاريخي .

- دراسة مختصرة عن فولكلور « العلويين » .

## دراسة عن القبائل البدوية :

ومن الدراسات التي قام بها الخبراء الفرنسيون في اطار فهمهم التركيب الاجتماعي لسورية دراسة وضعها المهندس Achard عضو بعثة Huvelin عام ١٩١٩ ، رئيس « مكتب الزراعة » في المفوضية العليا فيما بعد عن القبائل البدوية في سورية ، وقد شكلت هذه الدراسة جزءا من دراسة اقتصادية اشمل بعنوان « تربية الاغنام في سورية وكيليكية » (١٨)

وقد ارتكز Achard في دراسته للقبائل على المعلومات التي جمعها « قسم الاستخبارات السياسية والعسكرية في المفوضية العليا » والتي ساعدت بدورها على اعتماد صيغ معينة في التعامل الفرنسي مع القبائل البدوية كما سنرى على لسان الرئيس Millerand .

تتحدث دراسة Achard عن مجموعتين من القبائل في سورية : قبائل « العنزة » وقبائل « الشمر » .

وقبائل « العنزة » - وهي الالهة ، تحتل معظم الجزء الغربي من الصحراء السورية ، على ضفتي نهر الفرات من جرابلس حتى شمال الخابور وتصل حتى الهضاب الشمالية - الغربية لنجد ، كما ان قسما منها يصل كربلاء على بعد ٩٠ كلم من بغداد . وتنقسم هذه القبائل الى ثلاثة فروع .

١ - « عنزة العراق » في وادي الفرات ، وأماكن ارتحالها تقع بين كربلاء وشمال الخابور . وفي الربيع تحتل منخفضا على بعد ٦٠ كلم غربي الفرات ( في العراق ) وفي الصيف تعود الى الفرات حيث تجتمع في وادي حوران .

٢ - « عنزة حلب » ومناطق ترحالها تقع بين حلب ودير الزور . . . وهي أكثر تجمعاتهم اثارا « للشغب » وتتعاطى تربية الابل وعمليات النقل بواسطة القوافل . . .

وفي عامي ١٩١٩ - ١٩٢٠ استطاع فيصل أن يستقطب بعض تجمعات قبائل العنزة حيث قدمت سهل حمص - حماه مع ١٢٠.٠٠٠ رأس من الاغنام و ٣٠.٠٠٠ من الابل .

٣ - الرولة : أو « عنزة الجنوب » وهي أقوى قبائل عنزة ، وكانت آخر القادمين من أطراف الصحراء الى أراضي سورية ( تركت الجزيرة

العربية في أواخر القرن الثامن عشر ) ، وتخضع لشيخها نوري باشا  
الشعلان ومناطق ترحالها تقع بين النبك ( شمالي شرقي دمشق ) في  
الشمال الى جبل الدروز . ومن ناحية الشرق لا تتعدى جبل ( Amoud )  
ومنابع « وادي حوران » وفي الصيف تحتل المراعي الواقعة جنوبي  
دمشق .

أما قبائل « الشمر » فتقطن شرقي المنطقة التي تجوبها قبائل  
« عنزة » كما ان فرعا منها يحتل جبل « الشمر » شمالي - غربي نجد ،  
وفرعا آخر منطقة ما بين النهرين بين الفرات ودجلة وتصل أحيانا حتى  
بغداد ، وشرقا تصل هذه القبائل حتى نهر الخابور ، وشمالا لا تتخطى  
خط سكة بغداد ( رأس العين في الموصل ) .

وتجوب المنطقة نفسها قبائل أخرى أقل أهمية تدفع ضريبة الحماية  
لقبائل « الشمر » .

هذه بعض نماذج من تقارير دراسات وضعها خبراء فرنسيون بناء  
على معلومات جمعها « قسم الاستخبارات » في المفوضية العليا الفرنسية ،  
واستخدمت في أبحاث ذات طابع « أكاديمي » واذ لا يتسع المجال هنا  
لبحثها بحثا مستقلا في هذا الاطار ، أوردنا بعض عناوينها ونقاطها  
استدلالا على المنهج الذي سارت عليه الدبلوماسية الفرنسية . فهذه  
الاخيرة أولت أهمية للدراسات الانتولوجية والانتروبولوجية وعليها اعتمدت  
في مشاريعها الادارية والسياسية بغية تنظيم الانتداب في سورية .

### المشاريع الادارية - السياسية لتنظيم الانتداب في سورية

( ١٩١٩ - ١٩٢٠ )

الاستغناء عن فيصل وتشجيع الانقسامات في وجه « وحدة السلطة

القومية » :

نقرأ بتاريخ ٢٩ كانون الاول ١٩١٩ . برقية سرية بعث بها  
الجنرال غورو الى رئيس مجلس الوزراء ووزير الخارجية (١٩) يعرض  
فيها الموقف الذي ينبغي اتخاذه من حكومة فيصل ، فيرى ان ثمة  
ضرورة لتصفيتها ، كي تتأمن السيطرة الفرنسية على سورية ، بعد الاتفاق  
الانكليزي - الفرنسي ، بشكل كامل . وتدور برقيته حول عوامل الضعف  
الذاتية في حكومة فيصل وحركته ، وحول « مخاطرها » الناتجة عن  
منطلقاتها « القومية » و « التوحيدية » على مصالح فرنسا .

يقول :

« لقد بلغني المقدم كوس Cousse انه قيل في حديث جرى عند

الامير زيد بأن فيصل قد قال بأن مستشارين فرنسيين يتمتعون بسلطة تنفيذية سيعينون في دمشق ، غير ان لبنان سيفصل كليا عن سورية .

« بالمقابل ، عبر الامير عن الامل بأن يكون للمنطقة العربية ( . . . ) منفذ الى البحر ، وان يطلب لبنان ، المطمان بوجود المستشارين الفرنسيين ، الحاقه بالدولة السورية . كما عبر الامير عن الامل بأن تلحق الموصل وفلسطين بالدولة السورية واستوضح المقدم كوس بشأن المفاوضات التي تجريها الحكومة الفرنسية ، لاجل هذه الغاية .

ويعلق الجنرال غورو على هذه الاهداف مراهنا على تناقضها مع سياسة بعض « وجهاء » المدن السورية :

« ان اهداف الشريفين هذه التي تحول في حال تحقيقها دون اجراء التنظيم السوري الموافق لمصلحتنا ، هي في تناقض تام مع الاستعدادات التي أبدتها وفود قادمة من مختلف نواحي المنطقة الشرقية نفسها . ان بعض وجهاء حماة ، القادمين الى بيروت تحت ستار الترحيب بالامير فيصل ، الذي أعلن عن وصوله منذ عدة أيام ، فقد أعلنوا بأنهم لا يحتاجون الى هذا الغريب ( للاتفاق ) مع فرنسا ، التي أعربوا عن استعدادهم للتفاهم معها مباشرة . حتى انهم قد طلبوا مني تعيين ضابط ارتباط .

« ولقد اكدوا أيضا ان المظاهرات المناهضة لفرنسا ، التي جرت في ( المدن ) الداخلية الكبرى ، كانت فقط حصيلة اعمال الرشوة والضغط التي مارستها الحكومة الشريفة . كما أعلنت لي تصريحات مماثلة من قبل بعض وجهاء دمشق الذين رغبوا في ان تحصل مدينتهم على مساعدة واشراف فرنسا ، بدون وساطة فيصل .

ويكمل غورو مركزا على أهمية « الخصوصيات » الاقليمية والطائفية في ضرب « الوحدة القومية » :

« انني ابلغكم هذه الوقائع لاطهر لكم كيف تتضح حقيقة الوضع هنا منذ ان حرم ذهاب الانكليز الحكومة الشريفة من الدعم الذي وطد نفوذها شكليا في كل المناطق الداخلية . فالجماعات التي أغرتها ، لفترة ما ، النزعة القومية المتصلبة الممثلة بالشريف ، لا ترى الآن مبررا لخضوعها لفيصل بعد ان قبل هذا الاخير التعاون مع فرنسا ، وهو الامر الذي طالما رفضه بشكل واضح للغاية . ان بعض المتطرفين يتبرأون من فيصل

باعتباره خائناً ، ولا يرى الباقون حاجة اليه لاقامة سياسة التقرب مع فرنسا . يضاف الى ذلك ، ان سكان المناطق الداخلية المسالين قد خابت آمالهم من الاضطراب الذي احدثته التحريصات الشريفة ، التي ولدت في عدد كبير من المناطق أوضاعاً فوضوية أتاحت أعمال نهب ، لم تكن القومية المناهضة لفرنسا ، التي ليس لها سوى القليل من الانصار ، غير ذريعة لها . كل ذلك يدفع وجهاء كل مدينة الى أن يستلهموا فقط « النزعة الاقليمية الذاتية » Particularisme التي هي واقع هذا البلد ، لمحاولة استمالة فرنسا دون المرور بسلطة تبدو لهم عديمة الجدوى .

« ان انقسامات سورية ، التي ينبغي ان تساعدنا على تنظيم البلاد بشكل عملي وملائم لسلطتنا ، هي الآن ذات فائدة كبيرة لنا من أجل احتواء الحركة المنظمة ضدنا . وسيكون من المؤسف ، في الوقت الحاضر والمستقبل ، طمس هذه الانقسامات في وحدة السلطة الشريفة التي تجسد ، بنظر السكان ، العداء ضدنا ، والتي لا ترى في التفاهم معنا سوى وسيلة مؤقتة تناقض المبادئ التي قامت عليها .

ويطلب غورو اخيراً من الحكومة الفرنسية الا تتساهل في التعامل مع فيصل لان من شأن ذلك انقاذه : « انني اشدد على هذه الوقائع ( . . . ) كي لا تمنحوا الامير فيصل شيئاً لا تكون المصالح الدولية قد أملتة بشكل صارم . ففي سورية نفسها ، تتضاءل السلطة التي يمثلها شيئاً فشيئاً . وان أنصاره والمستفيدين منه لا يتوقعون دعمها ، أو احياءها ، الا من خلال العهد الذي ستقطعه فرنسا لفيصل . انهم يلحون كي استقبل الامير هذه المرة في منزلي ببيروت ، حيث لا يزال ضيفاً عند أحد الوجهاء المسلمين ، وذلك من أجل احاطته بنوع من الرعاية . ان سورية نفسها لا تفرض علينا أي تنازل ( . . . ) للحكومة الشريفة التي لم تعد بالنسبة اليها ، بسبب الفرص التي يتيحها لنا هذا البلد ، سوى عديمة المنفعة ، لا بل مضرة » .

هذا وقبيل ميسلون ، وفي سياق تنفيذ مخطط تصفية الحكومة العربية في دمشق ، تبدأ الاوساط الدبلوماسية الفرنسية بالتفكير في الاشكال « المناسبة » للسيطرة على سورية في أقل ما يمكن من الكلفة المادية والعسكرية ، واكثر ما يمكن من « الفعالية » (٢٠) .

ونقرأ حول هذا المخطط تقريراً مهماً لـاحد الدبلوماسيين الفرنسيين يطرح جملة من الأفكار الخطيرة حول منهج تجزئة سورية دون أن يعيق ذلك وحدة المصالح الفرنسية ، وحول كيفية الارتكاز الى قواعد اجتماعية وسياسية محلية - وأشكال الضبط « الفعالة » من جهة والتي تجنب المواجهات الحادة والمباشرة مع الجيش الفرنسي من جهة ثانية .

وإذا كانت وحدة الاحداث قد سارت بشكل مختلف للاحتتمالات التي يحملها التقرير ، بسبب السيطرة القمعية المباشرة لسلطة الانتداب وبسبب مقاومة قطاعات واسعة من المجتمع السوري لهذه السيطرة وهي الوجهة التي نشأت فيها ونمت قوى حركة « الاستقلال الوطني » في سورية ما بين الحربين ، فإنه مع ذلك يبقى للتقرير أهمية في أنه يمثل في طرحه ومضمونه احتمالاً ومنهجاً في تعامل الامبريالية مع خصائص مجتمعية كتلك التي يتميز بها مجتمع بلاد الشام ( طوائف واقوام وعلاقات عشائرية ومذهبية مللية ) .

ينطلق التقرير من ضرورة عدم المراهنة على زيادة القوات العسكرية الفرنسية في سورية بعد وصول غورو اليها . . . « فخلال بضعة شهور سيكون لدينا بدون شك القوة وسنتمكن من تمتين وضعنا . ولكن لن يكون ذلك الا وضعا مؤقتنا . . . .

« اذن ينبغي منذ الآن ان نتصور نظاماً لسورية يعقب نظام الاحتلال ويسمح لنا بالمحافظة على وضعنا بوسائل عسكرية مخفضة . ومن الضروري ايضاً ان يفهم عملنا العسكري هذا لدى أهل البلاد بان له هدفاً محدداً ، حيث لا يبدو انقاص قواتنا فيما بعد كمؤشر عجز .

وهكذا ففي حين تبدو قوتنا العسكرية من الخفض لدرجة لا تسمح بفرض أنفسنا بالقوة ، يجب ان تبرز وسائلنا على العكس كافية جداً لتثمين ارادتنا ونوايانا بين سكان قلما اعتمدوا على أنفسهم ولن تلبث الذهنية السلبية وتقاليد المعارضة ان تساهم في تجزئتهم .

« وبعبداً عن ان تتخذ هيئاتنا السياسية والادارية حيال أهل البلاد مسؤولية مباشرة ، ينبغي ان تحتل موقعا حيادياً محتفظة بدور الحكم . وهكذا بالنسبة لقواتنا العسكرية . فيجب ان تبقى على هامش المصاعب الجارية ، قوة احتياط .

« وفي الوقت الحاضر نمر بتجربة وهي ان السكان يلحون في دعوتنا

للتدخل في نزاعاتهم الداخلية ، لن يلبثوا ان ينتقدوا تدخلنا اذا طال حتى ولو ترجم هذا التدخل بالنسبة لهم منافع واشكال ترقى أكيدة » .  
ويضيف صاحب التقرير :

« وقد سئل مؤخرا وبشأن احداث صور الاخيرة المطران خوري . رئيس الوفد اللبناني ، في باريس عن الطرق التي سمحت للاتراك ان يثبتوا النظام بوسائل محددة جدا ، فأجاب المطران ، كما سبق ان قال ذلك للجنرال غورو بأن السلطات التركية اکتفت بتحقيق التوازن بين عناصر السكان ، وبأقل ما يمكن من التدخل في مصالحهم الخاصة ( . . . )  
ويقترح صاحب التقرير :

« ينبغي أن يكون هناك واجهة محلية متماسكة نستطيع أن نتحرك خلفها دون مسؤولية مباشرة . وفي الحدود والظروف التي نحكم فيها ان نحركنا مفيد .

« انه من الضروري والملح اذن ان يؤمن للبلاد هيئات سياسية خاصة بها ، وان تقوم سلطات محلية تتحمل المسؤولية على التوامام الناس .  
لقد استبعدت امكانية ان تحكم اسرة عربية في سورية موحدة ، ويبدو ان لاخطر من أن نترك لمختلف التجمعات « الاقوامية » ( الاثنية ) ، ان تشكل بنفسها أو بمساعدتنا اطار استقلالها الوطنية ( autonom ies nationales ) .

« على ان كل المسائل التي قد تؤثر بصورة مباشرة على مصالحنا الاقتصادية ( استثمار سلك الحديد ، العملة ، الجمارك ، العدالة عندما يكون الاجانب هم المعنيين ) يكون محتفظ بها لنا . ومن الطبيعي ان يكون كل تنظيم عسكري ممنوعا ، وثمة تحذير قاطع معين بأن كل اضطراب أو خلل بالامن يجمع بقسوة من قبل قواتنا .

« ولعله من المفيد ان نترك لبعض السكان الذين يطلبون منذ الآن نصائحنا المجال ليمروا بتجربة قصيرة تثبت عجزهم في ان يديروا انفسهم وحدهم ، وبعدها لا بد ان يصبح تدخلنا الضمني اكثر اعتبارا .

« ان وسائل عملنا السياسي ( المفوضية العليا ، الجهاز الاداري والتقني ) وعملنا العسكري ( حوالي ١٥٠ كتيبة تكفي ) ، تكتسب مزيدا من هبة السلطة اذا لم تتدخل يوميا وبصورة مباشرة في حياة البلاد .



ثم ان مشاركة مستشارينا الاداريين والتقنيين ينبغي ان ينظر لها من قبل السكان لا كواقع مفروض عليهم ولكن كجميل مقدم لهم .

« وهكذا بتركنا لاهل البلاد الوظائف التي يمكن أن يكونوا قادرين على القيام بها نتجنب ان نرى العناصر « المستغربة » ( Occidentabiés ) والاكثر خطورة ، تنخرط في تحركات قومية سنكون - كما هو حال الانكليز في مصر - عزلا حيالها .

« أما بالنسبة لعناصرنا العسكرية المجردة من كل وظيفة ادارية فان احتكاكهم اليومي مع السكان ينقص من سلطتها . لذلك يكون مفيدا تجميعها لتشكل أداة قوة ضاربة تستخدم في ظروف غير عادية ، وفي هذه الحالة تكون حركتها من القوة بحيث لا تقبل أية مقاومة ، ثم ان دركا من أهل البلاد يمكن ان يؤمنوا النظام في الظروف العادية . ويوفروا على القوات الفرنسية امكانية الانتقاص من هيبتها نتيجة العمليات البوليسية الكثيرة والبسيطة .

ان الكتائب العسكرية الفرنسية . يمكن ان تتجمع على اساس اثنين أو ثلاثة مع بضعة مدافع ، على اطراف المراكز المدنية الكبرى في مراكز تقاطع سكك الحديد . وبعد تجريد السكان من السلاح الذي يمكن ان ينفذ خلال هذا الصيف يصبح بمقدور مجموعات الكتائب هذه من السلاح الذي يمكن ان ينفذ خلال هذا الصيف يصبح بمقدور مجموعات الكتائب هذه ان تقوم بعمليات من شأنها ان تحطم اية مقاومة .

وهكذا من خلال تحركنا السياسي المرن ، والمتقدم والقادر على ان يضرب بقوة عند الضرورة ، ومن خلال تجنبنا أي خلط بين الاجهزة والمهمات نستطيع أن نؤكد ان وجود البديل المحدد سيجعل السوريين - الاقل استعدادا - لا يترددون في اختيارهم .

« وتبقى المشكلة الرئيسية اذن هو في تشكيل هيئات سياسية من أهل البلاد ، لا لان هذه الاخيرة تدعو لها تصريحات الحلفاء ومنصوص عنها في مبادئ الانتداب فحسب ، بل لانها ضرورية لتطور سياستنا في الشرق .

وفي البلاد التي كانت سابقا جزءا من الامبراطورية العثمانية ( والظاهرة نفسها تمثل في مقدونيا ) أدى التعارض التاريخي المزمع بين

مفهومى الدولة والامة الى نمو العقلية الفوضوية وكتب على السكان بعجزهم الا أن يشكلوا تجمعات صغيرة « أقوامية » ( Ethniques ) أو اقليمية . وهذا الواقع مناسب لنا لانه يجعل من تعميم المعارضة أمرا صعبا في البلاد ، ولكن من جهة أخرى ان تفتيتا أكبر يمكن ان يضعنا في وضع يتساوى في الاربك .

لذلك من المناسب اذن ان ندفع بجدية لدراسة التجمعات « الاقوامية » المهياة لتشكل الاستقلالات الاقليمية الاولى . وان الميسو « دي كاي » ( De Caix ) الذي نوه بأهمية المسألة يقدم دون شك لهذا الموضوع معلومات وثائقية غنية وافكارا دقيقة . كما انه يمكن ان نستفيد من وجود بعض الوجهاء اللبنانيين في باريس كي يطلب منهم تحديد وجهات نظرهم . . . .

وهكذا لكي نمارس عملنا ينبغي لسورية ان تنظم .

وكي نتجنب تشكل سورية موحدة من فوق ، من الملح ان تبدأ سورية فدرالية بالتشكل من تحت . « .

ما هو رأي ده كاي مستشار المفوضية العليا في سورية ؟

يستبعد ده كاي صيغة « الملكية الموحدة » ويقترح « تجزئة فدرالية » لسورية . وهذا الرأي تحمله رسالة لـ ( Le Caix ) اقتطع منها النص التالي الذي ضم الى أرشيف وزارة الخارجية بعنوان : « فدرالية سورية » ( ٢١ ) .

« في الوقت الحاضر نلاحظ ان الافكار جد عائمة وفي جزء كبير من الاوساط الاسلامية تسود فكرة انه من الضروري ان نجعل على سورية ملكا يحقق وحدة البلاد . وحسب رأيي أعتقد ان ذلك سيكون تدبرا رديئا ، له مبرره فقط في حال اضطرارنا ان نرد على منافسينا الذين خلقوا تجمعات عربية ، باللجوء الى خلق قومية بشكل ملكي .

« ومهما يكن من أمر ، فان شخصا مثل كرد علي ، وزير الثقافة في دمشق ، وهو رجل ذكي ، يرغب مخلصا بالاعتماد علينا كي نساهم في تطوير الثقافة العربية ، وان آخرين حدثوني عن ضرورة ان نقيم ملكا على سورية .

«وهنا نذكر ان لدينا مرشحين كثيرا تكلموا عنهما ( Damad Nabi Bey ) ( ٢٢ ) الذي يقيم في بيروت ، وهو « شاب لطيف » ( un aimable Garçon )

يحمل لقب « سمو » دون ابهة كبيرة ونحن لا يضيرنا في منحه هذا اللقب ، وهناك أيضا الامير سعيد ، حفيد الامير عبد القادر وهو رجل غير صلب . وقد قام كل من هذين الشخصين بدعاية انتخابية للعرش ، بيد ان الجنرال غورو أوقفها . وفي الوسط المسيحي ، وبالتحديد في تجمع حبيب باشا السعد ، الرئيس السابق لمجلس ادارة لبنان ، تتدفق أموال من سوريي مصر وربما من عائلة لطف الله التي ترغب الآن وبعد ان جمعت ثروة طائلة بكسب بعض النفوذ للعائلة .

ويعلق De Caix على هذا « اللفظ » الذي يسود الاوساط السياسية المحلية : « كل هذا ليس جديا ، غير انه يترتب عليه بعض المساوىء ، لانه يحدث في اوساط الشعب حالة من الارتباك في وقت لم تستقر فيه بعد مجمل اوضاع الشرق . وهذا يشكل بدوره سببا اضافيا لتوجيه الافكار نحو السياسة الفدرالية . واني لو لم اكن مسؤولا بالنيابة لطلبت رسميا من الحكومة الاذن في تنفيذ ذلك في اول مناسبة ، ولسعت من أجل هذا . واني لا اعتقد ان مثل هذا التدبير من شأنه ان يبعث الارتياح لدى قسم كبير من وجهاء البلاد ، ان لم يكن لدى كل السكان الذين لازالوا غرباء عن أية حياة سياسية » ...

### حوار ميلران - غورو

بيد ان النقاش الفني في موضوع تجزئة سورية من زاوية مصلحة الانتداب الفرنسي . تقدمه بصورة مباشرة البرقيات السرية المتبادلة بين الرئيس Millerand والجنرال غورو ما بين ٦ و ٢٣ آب ١٩٢٠ (٢٣) . أي في الفترة التي اعدت فيها مشاريع اعلان « الدول السورية » هذا النقاش الذي يدور بين غورو وميلران ، يقدم مادة غنية تساعد على فهم أشكال التعامل الاستعماري مع البنى الاجتماعية والسكانية لسورية وكيفية استخدام خصوصيات هذه الاخيرة من موقع السيطرة . وهو موقع له مصلحة في تجسيم هذه الخصوصيات وتضخيمها لاستخدامها في مخطط سياسة السيطرة على البلاد .

### وجهة نظر ميلران :

- في ٦ آب ١٩٢٠ يرسل الرئيس Millerand الى المفوض السامي الفرنسي برقية سرية موسعة تحمل عنوان : « مخطط لتنظيم الانتداب الفرنسي في سورية » .

يورد أولاً « الأسباب » التي من أجلها صفت تجربة حكومة فيصل وتخلي عن اتفاق فيصل - كليمنصو ، السابق - فيقول : « ان خرافة حكم « شريفي » تحت اشرافنا لم تصمد امام التجارب الواقعية . فلقد فرض تلك التجربة علينا الواقع التنظيمي الناتج عن الاحتلال والسياسة الانكليزيين .

بيد انه تبين بسرعة ان خضوع سورية لسلطة مصطنعة تتمثل بملكية شريفية غريبة عن طموحات البلاد والانقسامات التقليدية فيها لا يمكن ان يستمر الا باستبعادنا .

ثم ان الناس يتحملون بنفاذ صبر الملكية القومية ، بل الملكية العسكرية التي بدأت تنغرس في سورية « بفوضويتها » و « تجنيدها الاجباري » وسياستها الاقتصادية المعتمدة على القروض ، مما يتعارض مع تقاليدنا الديمقراطية .

ويقترح Millerand ، صيغة بديلة « للملكية القومية » كما يلي :  
« ان النظام الذي يستجيب بصورة افضل لمصالح سورية ومصالحنا ايضا هو سلسلة دول مستقلة جمهورية الشكل ،  
( une série d'autonomies à forme républicaine )

تتناسب مع تنوع الاعراف والديانات والحضارات ،  
وتتحد في فدرالية تحت السلطة العليا للمفوض السامي ممثل الدولة المنتدبة . وبذلك لا تكون الوحدة وحدة ادارة مركزية بل وحدة اقتصادية ( جمركية ومالية ) .

كيف يتم انشاء هذه السلسلة من الدويلات أو « الاستقلالات » الادارية ؟ ..

يستعرض Millerand الاشكال التالية من الاستقلالات التي يمكن ان تشكل أجزاء من « الفدرالية السورية » المقترحة أو وحدات مستقلة عنها .  
يبدأ أولاً « بالبلاد التركية والكردية » :

يقول : « قبل كل شيء لا يمكننا ان ندخل في هذه الفدرالية مباشرة اراض تركية ( عينتاب ، بيرهجك ، وكلس Killis ) ، ولا اراض كردية ( شرق الفرات مع أورفة وماردين ) ، وهي مناطق تقع في الشمال والشمال الشرقي وتفتقد الى أية رابطة قومية مع سورية . فهذه البلاد التركية

لا يمكن السيطرة عليها الا بالقوة بانتظار اللحظة التي تقبل فيها تركيا حدودها الجنوبية . وقد يكون من الممكن ولكي نتجنب اقامة ادارة عسكرية مباشرة تسليم الحكم لمدة من الزمن لباشا تركي تجري مراقبته بصورة دقيقة . والشئ نفسه يمكن ان يحصل بالنسبة للبلاد الكردية ، ففور حدوث العمليات العسكرية المعادية التي يقوم بها القوميون الاتراك يمكن ان تسلم البلاد الى « زعماء محليين » اذكر منهم بصورة خاصة « محمد بك » زعيم قبيلة ال Milli المقيمة في ( Veau cheir ) .

وينبغي أيضا تعديل رسم الحدود كي لا تقسم قبيلة ال Milli الى قسمين . ( ... ) . ان مثل هذا الوفاق مع الاكراد ، وتوطين عناصر كلدانية واشورية على طول خط سكة الحديد في شرقي الفرات ، يضعانا في وضع سياسي مثالي حيال الكردستان .

ويخلص Millerand الى القول : « ان تنظيم الاراضي التركية والكردية ، متبوعا بتنظيم حلب وجرابلس ، على اساس صيغة التهدئة السياسية لمنطقة عينتاب وصيغة التغفل الحذر في منطقة شرقي الفرات ، يسمح لنا بالتقرير عما اذا كان يجب توجيه هذه المناطق نحو نظام مستقل أو دمجها مع الاتحاد السوري . ومهما يكن ، يجب في الوقت الحاضر اقامة تمييز واضح بين هذه المناطق والبلاد السورية » .

**ثانيا : بالنسبة للقبائل العربية .** وينتقل Millerand الى اقتراح صيغة للتعامل مع القبائل البدوية العربية ، فيقول : « ان الوفاق مع القبائل البدوية التي تنتشر شرقي المدن الاربع من الشمال الى الجنوب لا يطرح مشاكل حقيقية . فهذه القبائل ليس لديها تعاطف مع النظام الحجازي ، وتبدو انها مستعدة للتفاهم معنا . وبما انه ليس لدينا أية نية للتدخل في شؤونها أو ممارسة سلطتنا على الصحراء التي تفصل سورية عن بلاد ما بين النهرين ، سهل ان ننظم علاقتنا بها عن طريق « التكليف » ( Investiture ) وان نعالج بدون الحاح او تسلط ما نطلبه منهم ، الا وهو الامن على اطراف المدن الاربع وفتح طرق الصحراء أمام التجارة . وهنا نذكر ان الخدمات التي يمكن ان يقدمها لهم ضباط الارتباط المعينون بالقرب منهم والهدايا والاعتبارات التي تقدم لهم ، من شأنها ان تضمن العلاقات الجيدة التي تؤمن مصلحة الجميع . وبالنسبة للضريبة البسيطة التي يمكن ان تجبى في المدن الداخلية على تجارة الاغنام .

وهي الثروة الحقيقية الوحيدة للبدو فمن غير الممكن أن تلقى المعارضة » .  
**ثالثا بالنسبة للبنان :** وينتقل Millerand الى وضع لبنان ،  
أثر الحركة المطالبة بالاستقلالية التي قادتها يومذاك البطريركية المارونية ،  
فيؤكد على ضرورة « استقلاله » عن الكونفدرالية السورية ، لفترة من  
الزمن وتوسيعه باتجاه الساحل ، والبقاع وعاكار والجنوب .

يقول : « كان لبنان قد أكد بصورة قاطعة رغبته في الاستقلال  
الكامل تحت الانتداب الفرنسي . فهو اعتقادا انه اكثر ثقافة وانطلاقا من  
موقف الحذر من الاكثرية المسلحة في المنطقة لا يرغب بالدخول مباشرة  
في الاتحاد السوري Confederation Syrienne . لذلك قد ينتج بعض  
المساوىء من جراء فرض ارادتنا على الشعور اللبناني . فمن خلال  
الواقعية ومن خلال نجاح الرقابة الفرنسية على الاتحاد السوري يمكننا  
ضمنا ان نقود لبنان للارتباط به » .

ويستدرك الرئيس Millerand ، فيذكر المحاذير التي قد تنتج عن  
ضم لبنان الى « الاتحاد السوري » بالنسبة لمصالح فرنسا فيقول :  
« بيد انه ليس لدينا الآن مصلحة في هذا الدمج . فلبنان يقدم اكبر عدد  
في حجم الهجرة السورية ، وهؤلاء المهاجرون يقدمون أنفسهم كجزء  
من رعايا ممثلينا في الخارج . وبذلك يصبح لبنان عنصرا ممتازا من عناصر  
نفوذ وتوسع تجارة بلادنا . ومن هنا تبقى لنا مصلحة في « فرنسة »  
السكان المسيحيين بأكبر قدر وتحويلهم نحو الخارج .

« وعلى العكس فانه في حال تحول الطموحات اللبنانية نحو داخل  
سورية فان هذه الطموحات ستسوق حتما الى تقديم موظفين لسكان اقل  
تقدما ، وبذلك نخاطر بخلق اشكال من المقاومة ويجعل السياسة الفرنسية  
أكثر صعوبة . ونكون عندها قد أضعنا العنصر اللبناني الموالي لنا ،  
وجازفنا بعملنا في بقية المناطق السورية الاخرى .

« اذن تقتضي مهمتنا « فرنسة » لبنان بأكبر قدر ممكن . ومن أجل  
هذا ينبغي ان تقوم سلطة فرنسية مهمة وتمثيلية ، تتمتع باستقلالية  
واسعة ، تبقى في بيروت ولبنان حتى ولو جعل مركز المفاوضات العليا في  
مكان آخر .

« وهناك شرط أساسي آخر : تكوين لبنان - كبير بالحاق البقاع  
( أي السهل الضروري لحياة الجبل ) وجبل عكار ( أي شمالي السلسلة

الجبليّة حيث أكثر سكانها من المسيحيين ) حتى النهر الكبير عازلين بذلك طرابلس المركز السني . ويبدو أنه من الصعب ان لا ندمج بلبنان . . . وذلك بالرغم من اعتراضات الموارنة - سنجد صيدا ، اي المسلمين المتأولة الشيعة سكان بلاد صور وصيدا الذين لا يمكن ان نتركهم معزولين بين لبنان وبين المستعمرات الصهيونية التي تجتاح شمالي فلسطين . فأقل ما يمكن : ان يربط سنجد صيدا بلبنان بشكل فدرالي مع بعض الاستقلالية » .

ويتابع Millerand « اما بشأن مسألة المرافىء فلا يبدو انها ستطرح بالنسبة لنا مشكلة . ففي ظل نظام الاتحاد الجمركي يمارس لبنان تجارته بحرية . ثم ان نظام «المدن المستلحقات المستقلة» ( Régime de Municipale ) يتناسب تماما مع وضع طرابلس . وهي مركز اسلامي سني لا يرغب في الالتحاق ببلاد مسيحية . اما بالنسبة لبيروت فنظرا لكونها مدينة مهمة ومكتظة فانها لا يمكن ان تكون الا عاصمة لبنان . بيد ان ذلك يؤدي الى مجازفة : هي ابتلاعها للبنان ، وي طرح محذورا هو معارضة سكانها لهذا الاجراء . وعلى كل حال ، في الحالة التي نقرر فيها ربط بيروت بلبنان : ينبغي لبيروت ان تحتفظ باستقلالية بلدية ومالية Municipaleet budjétaire

#### رابعا : الكونفدرالية السورية :

بعد هذا العرض الذي يقدمه Millerand بشأن اوضاع المناطق التي يعتبرها ذات طابع « خاص » ينتقل الى تنظيم المناطق التي يرشحها « كوحدات » « للكونفدرالية السورية » المقترحة .

يقول : « يمكن ان نتصور منذ الآن ثماني مجموعات مستقلة ( Groupes autonomes ) هي من الشمال الى الجنوب : سنجد الاسكندرون ، مستلحقة ( Municipale ) حلب ، مجموعة النصيرية ( Ansarieh ) ، مستلحقة حمص ، مستلحقة طرابلس ، مستلحقة دمشق ، وأخيرا حوران . وتتضمن هذه الاخيرة مجموعتين : الدروز والمسلمين .

ويرى Millerand ان تنظيم هذه المجموعات يختلف باختلاف أوجه عديدة « ناتجة بالنسبة للبعض عن الموقع الجغرافي ، وبالنسبة للبعض الآخر عن تمركز المصالح ، وبالنسبة لآخرين ، عن كونهم تجمع ديني متماسك . »

ويضيف : « بما أننا نقبل بمبدأ الاستقلالية الواسعة « للكائونات » تفقد العوائق التي يثيرها الاختلاف ما بين المجموعات من حيث الثقافة ، أو المساحة ، أو السكان أو الثروة ، من أهميتها . والتعداد الذي قدمناه على كل حال للمجموعات لا يدعي انه نهائي : لكنه يخيل أنه يتضمن المجموعات المتشكلة عفويا هكذا ، في بلاد تفتقد الى التقليد السياسي والرأي العام كما انها اعتادت على تلقي كل شيء من السلطة . اذن يجب ان تكون سياستنا مرنة جدا : ان نشكل « مجموعة » حيث هي موجودة . وان نقبل بأن يكون لكل « مجموعة » تنظيمها الخاص الذي يناسبها » .

ويستعرض Millerand بشيء من التفصيل الخطوط العامة لتنظيم هذه « المجموعات » :

**بالنسبة لسنجق الاسكندرون :** يقول : « ينقسم سكانه على أساس الدين ، والتابعة القومية ( Notiovalité ) بحيث نجد أتراكا وأكرادا وجركسا ، وعربا علويين ، و ١٥ ألف أرمني أيضا . لذلك ننظم فيه كما هو بالنسبة للبنان هيئة تمثل مختلف المجموعات الطائفية . وقد يغير استيطان الجاليات الذي سيتكاثر بسبب زراعة القطن نسبة هذه المجموعات الى بعضها » .

**وبالنسبة للعلويين :** « المقيمين في المنطقة الساحلية الجبلية والذين يتكلمون جميعا اللغة العربية ، فيشكلون - يتابع Millerand - جماعة دينية مرتبطة نظريا بالاسلام ، لكنها في الواقع منفصلة عنه تماما - ويجب ألا تدمج بالمسلمين » (٢٤) .

**أما بالنسبة للمدن الخمس :** ( حلب ، حماه ، حمص ، طرابلس ، دمشق ) : « فتشكل كل واحدة منها في رأي Millerand مركز جذب لمنطقة محيطة ، ويمكن أن تشكل بالتالي « كانتونا » أو « Municipie » مستقلة . وأما السكان فهم مسلمون سنيون ، يطمحون الى حكم انفسهم بأنفسهم ، ويحترمون سلطة العائلات « النبيلة » ( Patriciennes ) التي تملك أراضي الريف والتي يمكن ان يتشكل منها في كل مدينة « مجلس أعيان » ( Conseil de Notables ) تحت اشراف حاكم سوري يختار من قبلنا . وفيما بعد يمكن ان ندرس المسألة الزراعية ، وكيف يساعد الفلاحين على الوصول الى ملكية الارض التي يزرعونها . »

**وأما بالنسبة لهوران :** « فانه يضم الدروز في الجبل والمسلمين



السنين في المسطحات . ولهؤلاء زعمائهم الاقطاعيون الذين ينبغي علينا ان نستخدمهم ونحسن وضعهم . »

ويكتفي Millerand بطرح المسألة بصيغة السؤال : « يجب أن نترك لجبل الدروز استقلالته أو أن نضمه الى حوران ؟ تلك مسألة ينبغي حلها عن طريق التجربة . » (٢٥) .

### أشكال التنظيم الاداري والرقابة المركزية :

وينتقل Millerand الى الاشكال التنظيمية التي من شأنها ان « تضبط » هذه « الاجزاء » المقترحة تحت سلطة واحدة تتمثل بالادارة الفرنسية .

يقول : « لتكوين وحدة سورية ، تستجيب للرأي العام الدولي ولرغبة القطاع المتقدم من الرأي العام المحلي ، ثمة مجال لخلق رابط فدرالي بين مختلف هذه الكيانات المستقلة ، هذا الرابط يتمثل بالمفوضية العليا ممثلة الدولة المنتدبة . وتكون هي الجهاز التنفيذي لاتهيمن عليها أية سلطة محلية ( ... ) .

« والى جانب ذلك ، يستحسن في الوقت نفسه . انشاء جهاز فدرالي سوري او مجلس دول Conseil des Etats يكون له في البداية صلاحية استشارية بحيث يجري التداول فيه حول المصالح الاقتصادية المشتركة . وهذا المجلس لا ينتخبه الشعب في المرحلة الاولى ، بل يعين بواسطة حكومات مختلف المجموعات المستقلة وعلى اساس عدد متساو من الممثلين عن كل مجموعة » . ( ... ) .

ويستبعد Millerand مؤقتا مفهوم النظام البرلماني والاتجاهات الديمقراطية لدى مثقفي المدن فيقول : « انه ( أي النظام البرلماني ) لا يستجيب لاي حقيقة في الظرف الراهن من تطور التربية العامة للبلاد . والدولة المنتدبة تعتبر ان الهدف من تنظيم سورية هو ان ينطبق هذا التنظيم واقعا على مصلحة جماهير السكان ، لا على مصلحة الجماعات المسيية . »

ثم ينتقل Millerand الى شرح توزيع الصلاحيات والمهام في الكونفدرالية المقترحة فيقول :

« وسيكون لكل مجموعة ميزانيتها المحلية تغذيها الضرائب المباشرة ،

وتستخدم الاموال للانفاق على الخدمات المحلية والاشغال ذات المصلحة المحلية ( ويعلق Millerand : وهكذا يرى السكان ان الضرائب التي يدفعونها تكرر مباشرة لاحتياجاتهم الخاصة ) .

ويتابع : « سيكون هناك ( جندرمة ) يعاونهم ما يلزم من موظفين فرنسيين . وسيمثل المفوضية العليا في كل كانتون أو « مستلحقة » مستشار مشرف ، يساعده معاون وعدد من الافراد وفق أهمية المجموعة . وبالإمكان مد كل مجموعة بتقنيين في الامور المالية والاشغال العامة والتعليم على ان تخضع الاجهزة التقنية المحلية التي يعمل فيها أهل البلاد لمراقبة الاجهزة المختصة في المفوضية العليا .

« وسيكون من صلاحية هذه الاخيرة الاشراف على بعض المصالح ذات الطابع العام :

سكك الحديد ، المرافىء ، الجمارك ، القضاء ، الفرق العسكرية السورية ( في حال ارتأينا ضرورة تشكيل قوة عسكرية من أهالي البلاد غير رجال الجندرمة المحليين ) . وسيوضع تحت تصرفها ميزانية فدرالية تغذيها الجمارك والضرائب غير المباشرة . أما فائض هذه الايرادات فسيسد عجز الميزانيات المحلية وميزانية لبنان بما يتناسب مع عدد السكان . وستشكل الجمارك بشكل اساسي ميزانية الايرادات . أما ميزانية النفقات فتشكلها الاشغال العامة ( سكك الحديد والطرق ذات المنفعة العامة ) .

وفي مسألة ضبط الامن الداخلي يقترح Millerand ما يلي : ستؤازر رجال البوليس قوات محلية صغيرة مطعمة بفرنسيين . وتساندها في الحالات الخطيرة فرق فرنسية سوف يخفض عددها الى عشرين الف رجل يتمركزون خارج المدن في معسكرات مجهزة بصورة رائعة كما كانت تجهز قديما الفيالق الرومانية .

« وسيؤمن وحدة القضاء محكمة قضاء أعلى تحسم في الخلافات القضائية كما في الخلافات ما بين كانتون وآخر ( . . . ) » .

وينهي Millerand برقياته المتتالية الى غورو « بطرح مسألة دقيقة » هي اختيار عاصمة الكونفدرالية السورية ، والمراكز الاساسية الاخرى التي تناسب الجواز الكبرى في سورية . يقول في ذلك : « ان بيروت تناسب ان تكون مقرا لمحكمة القضاء الاعلى ( Haute Cour ) حيث يهيمن العنصر الفرنسي . كذلك ، فانها تصلح لان تكون مركزا اقتصاديا للعلاقات مع الخارج . »

ويحتار Millerand بين الحواضر الثلاث لاختيار عاصمة للكونفدرالية . يقول : « بين دمشق ، حلب ، وبيروت يصعب الاختيار . وعلى كل حال وبما انه لن يكون هناك ادارة سياسية مركزية لايعود اختيار العاصمة أمرا حاسما .

ويمكن بناء عليه ، اعتماد حل مزيج : تكون حلب مقر المفوضية العليا . وبيروت مقر محكمة القضاء الاعلى ، وأما دمشق فانها لما كانت دائما مركزا ثقافيا اسلاميا فقد نجعلها مقرا لجامعة ؟ ذلك انه يبقى دائما أن نحذر من خطر أن تتحول دمشق الى مركز ديني للمعارضة » .

### وجهة نظر الجنرال غورو :

هذه المسائل التي يعرضها الرئيس Millerand في « مخططه » شكلت موضوعات للنقاش عبر برقيات متتالية بعث بها الجنرال غورو كرد على اقتراحات الرئيس الفرنسي بين ١٣ و ٢٠ آب (٢٦) .

### في مسألة لبنان والمدن التي ينبغي أن تضم اليه :

يبدأ غورو برقياته التي يرد بها على مخطط ميلران ، بطرح مسألة لبنان (٢٧) والمناطق والمدن التي ينبغي أن تضم اليه . ويشير أولا الى طرابلس فلا يوافق على رأي Millerand في جعلها « كانتونا » أو « مستلحقة » مستقلة بل يرى في أن تضم الى لبنان في اطار مشروع دولة لبنان-الكبير .

ويورد في برقيته الاسباب الموجبة لذلك :

يقول « منذ بضعة شهور ارتؤي هنا أيضا في أن يجعل من طرابلس « مستلحقة مستقلة » وهذا الرأي كان قد أعلن أمام تجمع سني وقد نال استحسانه . وكان من شأن ذلك أن يغوى في حينه لاسيما أمام ضعف وسائل عملنا في سورية . وفي وقت كان نفوذ الامير فيصل في ذروته .

« بالإضافة الى ذلك كان مطلب استقلالية طرابلس الشام هو مطلب أنصار الامير فيصل ، على اعتبار ان ذلك قد يسمح ضمنا بالارتباط بدمشق . وكانت فكرة الحاق طرابلس بلبنان تثير آنذاك أيضا شكوك المسلمين لانه يلغي كل فرصة للارتباط بمملكة دمشق التي تأمل بدورها في أن تكون طرابلس منفذها على البحر . »

ويفسر غورو موقف De Cain الذي أوحى للحكومة الفرنسية بهذه الفكرة فيقول : « انها ذكرى تلك الفترة التي سمحت للسيد De Cain أن يقول لسعادتك ان طرابلس الشام لا ترغب بالالتحاق ببلبنان الكبير . لكن اختفاء الامير قد عدل كليا شكل المسألة . وبصورة خاصة أنقص حماس وأهمية هذه المطالب . ان مسلمي طرابلس الشام يقبلون اليوم طوعا الارتباط ببلبنان الكبير على أن يحافظوا على استقلال اداري من السهل ان نضمنه لهم . »

« يكفي أن تشكل مدينة طرابلس - الشام بحد ذاتها مجموعة ادارية مستقلة في محافظة هي مركزها وتتألف من الاقضية التالية : عكار ، زغرتا ، البترون » . ويضيف غورو « يعني ذلك على وجه الاجمال تطبيق مبدأ المستلحقة المستقلة Municipe outonome على القاعدة ذاتها التي تتصورها الحكومة ، ولكن في اطار لبنان الكبير لافي اطار تبعيتها المباشرة للدولة الفدرالية السورية . »

ويستمر غورو في برقيات المتابعة التي تحمل تاريخ ١٣ آب ١٩٢٠ ، عرض الاضرار التي تنتج عن اقتراح الرئيس Millerand في جعل طرابلس مستلحقة في فدرالية سورية ، فيقول : « ان المفهوم الذي يتصوره سعادتك يترتب عليه ضرر كبير وهو اننا نجازف بأن تمارس سورية الداخلية على التجمع ( الطرابلسي ) تأثيرا دينيا وسياسيا تأثيرا تندفع نحوه على كل حال نزعات هذا التجمع ، وهي نزعات ينبغي صونا لمصالحنا تجنبها » . وبالمقابل يعرض الجنرال غورو حسنات ضم طرابلس وملحقاتها الى لبنان فيقول : « ينبغي ألا ننسى أيضا أن المدينة ومنطقتها عامة تشتمل على تجمعات مهمة من الارثوذكس والموارنة بحيث ان الحاق المدينة مع أراضي عكا وحمص التابعة لسنجق طرابلس - بلبنان ، يترجم نفسه بمد هذه الدولة بحوالي ٦٧ ألف مسيحي مقابل ٥٧ ألف مسلم سني . »

« ومن جهة أخرى من الواجب أن نغطي بصورة أكيدة للدولة اللبنانية والتي ترتبط مصالحها بصورة لا تقبل الفصل بمصالحنا ، أكبر قدر ممكن من الامتداد والقوة المنسجمين مع الضرورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتي لا يتعارض أي منها مع ضم طرابلس الشام الى لبنان . »

« ومن وجهة نظر اقتصادية ان ضمها الى لبنان لن يمنعنا من أن نؤمن لسورية الداخلية عبر سهل عكار والخط الحديدي لحمص ، منفذا

طبيعيا على البحر . ان ما منعنا عن ذلك سابقا اعتبارات سياسية زالت مع زوال فيصل . وأرى من جهة أخرى أيضا انه من المستحسن ان نجعل من بيروت عاصمة لدولة لبنان الكبير . وهنا أضف رأيي الى رأيكم في تصوركم الاستقلالية البلدية Autonomie municipale الواسعة التي ينبغي أن تعطى لبيروت » .

ويقترح غورو أن تكون بيروت مقر المفاوضات العليا الفرنسية . « فدمشق مستبعدة للأسباب التي ذكرتها الحكومة ، وحلب غير مقبولة من الناحية الهندسية بسبب ضعف مواصلاتها مع الساحل فهي لا تتصل بالاسكندرون الا عبر ١٠٠ كلم من الطرقات الجبلية ، وبيروت الا عبر ٥٠٠ كلم من الخطوط الحديدية ..

وينهي غورو برقيته المؤرخة في ١٣ آب بما يلي : « اني أطلب اليوم من سعادتكم بشكل خاص وملح أن تسمحوا لي وفق الشروط المذكورة آنفا باعلان قيام لبنان الكبير في وقت قريب جدا وجعل بيروت عاصمته وطرابلس الشام ملحقة به .

« ان هذه الترضية التي نقدمها لاصدقائنا اللبنانيين (٢٨) سيكون لها بالضرورة نفع كبير ، اذ ستسمح لنا ان نتقدم نحو تقسيم أفضل لوسائل عملنا وذلك بالغاء ( المنطقة الغربية ) التي لم يعد لها مبرر وجود تحت الانتداب منذ دخولنا الى دمشق ...

« اني عازم في أن تكون بداية العمليات حذف المنطقة الغربية واعلان دولة لبنان الكبير في ١٥ آب . » .

وفي ١٩ آب يرسل غورو سلسلة برقيات (٢٩) يلح فيها على فكرة ضرورة اعلان دولة لبنان الكبير ، اذ يقول : « ان العرائض والمظاهرات تتضاعف معبرة عن الرغبات الشعبية ذات الطابع الملح والعام والتي تؤيد قيام دولة لبنان الكبير . وكما سبق وذكرت لسعادتكم فان اعلان لبنان الكبير كان يجب أن يتم في بيروت بتاريخ ١٥ آب وبحضور وفود عن كل مناطق الجبل ... لهذه الاسباب ولكل الاسباب التي عرضتها في برقياتي السابقة التي وجهتها الى الوزارة ، وجدت انه من المستحيل تأخير الاعلان المنتظر ... لذا عدت فحددت يوم الاثنين ٢٣ آب ليكون موعد اعلان لبنان الكبير ... » .

ويتابع غورو مشيرا الى مشروع فصل ولاية حلب عن دولة دمشق  
بعد هذا التاريخ فيقول :

« لقد أخرجت الى مابعد هذا التاريخ موعد سفري الى حلب الذي  
أصبح ضروريا وسيشتمل على اعلان انفصال ولاية حلب عن دولة  
دمشق . وهذا أول تقسيم كبير ارتأته الحكومة على حساب دولة  
فيصل القديمة ... »

« واني أطلب موافقة سعادتكم وتأييدكم لي في انجاز مهمتي  
وتنظيم البلد الذي ينتظر الكل هنا نجاحه ... »

كما يصر الجنرال غورو على أن يتلقى جوابا مؤيدا لبرقيته رقم  
١٥٧٧ ، التي يطرح فيها ضرورة اعلان لبنان الكبير يضم بيروت ،  
وطرابلس وعكار وصيدا وصور ومرجعيون .

### **موقف غورو من صيغة التجزئة التي يطرحها Millerand وصيغة علاقة لبنان بالداخل السوري :**

بينما كان Millerand يقترح تعددية واسعة في تجزئة سورية الى  
كيانات يتم ضمها في اتحاد كونفدرالي أو فدرالي واحد ، وبينما كان  
يرى أيضا ضرورة اعطاء لبنان استقلالية مرحلية خارج هذا الاطار  
الفدرالي ، كان الجنرال غورو يرى ضرورة قيام تجزئة محدودة لسورية  
وضرورة أن تقوم فدرالية سورية - لبنانية أو أن يدمج لبنان بالكونفدرالية  
السورية (٢٠) .

هذا الموقف تحمله برقيات المرسله الى الرئيس Millerand  
بتاريخ ٢٠ آب والتي تحمل الارقام ١٦٣١ - ٣٦ (٢١) .

يقول : « .. اني أعتقد أننا اذا أردنا اليوم طرح الاستقلال التام  
للبنان جبال الكونفدرالية المجاورة فان أهمية مصالح الطرفين المشتركة  
من وجهة النظر الاقتصادية ، سوف تقود حتما الى اتحاد لبناني سوري  
يترجم نفسه أخيرا باندماج شبه كامل للبنان في الكونفدرالية . » وبشأن  
عدد الكيانات السياسية التي يقترحها Millerand في سورية فيجب  
غورو :

« أما فيما يتعلق بتقسيم هذه الكونفدرالية الى ثماني أو تسع  
مجموعات ، فان ذلك يترتب عليه نتائج خطيرة . فمن وجهة النظر

السياسية بشكل عام . قد يخدم هذا التدبير فكرة الوحدة بدل أن يقضي عليها وذلك ان انشاء مجموعات صغيرة لاتستطيع تأمين وجودها بنفسها، يجعلها تتكاثف وتتقارب بدافع الاحساس المشترك بوحدة المصالح . «  
ويقترح غورو بالمقابل أن تنحصر التجزئة في ثلاث أو أربع دول .  
يقول :

« وعلى العكس فانه من السهل الابقاء على التوازن بين ثلاث أو أربع دول كبيرة ، يتيح لها وضعها أن تكفي نفسها بنفسها ، ويساعدنا عند الحاجة على تأليب بعضها على بعضها الاخر . وهذا واقع حساس تبدو بوادره بين دمشق وحلب .

ويناقش غورو أخيرا النتائج التي تترتب على مشروع تقسيم Millerand بشأن تضخم جهاز الادارة والموظفين الذي يقتضيه تعدد الدويلات .. والذي سيؤدي الى « عراقيل جمة سوف تواجه ادارة الشبؤون المالية وادارة الميزانيات المتعددة لكل هذه المجموعات الصغيرة التي قد يعتبر نظامها كما لو انه تراجع عن التقسيم التركي بصيغة الولايات الواسعة » .

ويطلب غورو اعادة النظر « بمخطط » الرئيس Millerand في هذا الشأن .

### ردود الرئيس Millerand على ملاحظات غورو :

وفي ٢٣ آب ١٩٢٠ يرسل الرئيس Millerand مجموعة من البرقيات المتتالية (٢٢) جوابا على برقيات الجنرال غورو السابقة .

بالنسبة لعدد الدويلات المقترح انشاؤها يترك الرئيس Millerand للجنرال غورو أمر تحديد العدد مبديا بعض الملاحظات العامة وطارح بعض الاستفسارات والاستيضاحات والتحفظات .

يقول : « لن أستطيع أن أحدد لك نهائيا عدد المجموعات المستقلة التي يجب انشاؤها منذ اليوم بشكل مؤقت . كما ان ذلك يرتبط بالظروف الراهنة التي بامكانك تقديرها حيث أنت . الا اني أحرص على ابداء الملاحظات العامة التالية :

١ - ان النظام الفدرالي الذي لدينا أكثر من مبرر لانشائه في سورية قد يفقد الكثير من واقعيته ومرونته اذا ما قصرنا عدد الدول

الى اثنين أو ثلاث خارج لبنان ، والذي علينا الا نستعجل دخوله في الكونفدرالية السورية الا اذا أيد ذلك بوضوح أعيان لبنان الذين مازالوا يعارضون ذلك حتى اليوم .

٢ - ان الحذر من تقليص عدد دول الكونفدرالية الى ثلاث يتأتى من ان هذه الدول وبسبب اتساعها النسبي تصبح أقل انقيادا - الا في حال ايجاد جهاز مراقبة دقيق جدا - من مجموعات مؤطرة في مدن مستقلة وكانتونات *Groupes municipaux et cantonaux* . ثم ان الدول الكبيرة يمكن أن تشكل اطارا لتحرك سياسي تقوم به مجموعات سورية تتهياً لذلك . وهذا أمر يستبعد أن يحصل في اطار مجموعات متباينة نضع على رأسها « مجالس أعيان » يعينوا من قبلنا تعيينا بانتظار القوانين الدستورية السورية التي سيكون لدينا من أجل وضعها مهلة سنتين أو ثلاث .

وانه لمن الضروري هنا أن توضحوا لي الطريقة التي تعتقدون انه من خلالها يمكن التعبير عن الإرادة الشعبية . ذلك انه ينبغي أن نكون حذرين جدا حيال هذا الامر حتى لانذهب عكس اتجاه المبادئ الدولية » .

٣ - وفي النقطة الثالثة يرد *Millerand* على وجهة نظر غورو القائلة « بأن جهاز الادارة الفرنسي يتطلب في اطار دول قليلة وواسعة ، عتادا ونفقات أقل من الجهاز الذي يتطلبه تعدد هذه الدول وكثرتها فيقول : « لاظن مهما كانت الحسابات النظرية للميزانيات ، ان الجهاز الفرنسي للادارة الذي ينبغي ارساله الى الدول الكبيرة والمعقدة نسبيا ، يتطلب عمليا أقل عددا من الموظفين ونفقات أدنى من تلك التي تستوجبها ادارة المجموعات المستقلة الاقل تعقيدا والتي تقاسم ساحة الارض نفسها .

٤ - ويبيد الرئيس *Millerand* تحفظا على صيغة الحاق القبائل العربية البدوية بدولتي دمشق وحلب : فيقول : « ان صيغة الحاق القبائل البدوية العربية التي علينا احترام استقلالها ، بدولتي حلب ودمشق ليست أفضل من صيغة اخضاع هذه القبائل لدائرة خاصة *Service speciale* من دوائر المفوضية العليا حيث تنتدب هذه المفوضية ضباط - اتصال بشيوخ القبائل . هذا في حين ان الحاق القبائل بهذه الدول ينزع الى زيادة تعقيدها ولايجعل فيها مجموعات مرتكرة الى ( وحدة ذاتية على صعيدي المصلحة والتنظيم ) . » .

٥ - ويستفسر *Millerand* عن اختلاف صيغ التعابير التي



يستخدمها الجنرال غورو بخصوص دولتي حلب ودمشق وأراضي النصرية  
Territoire فيتساءل : « هل يعكس ذلك فكرة التفاوت بين أعضاء  
الكونفدرالية ؟ » ..

ويرى : « ان تتمتع المجموعات مهما اختلفت في مساحة أرضها  
وتركيبتها الداخلي بوضع تساوي في عضوية الكونفدرالية وممثليها الدائمين .

٦ - ويبيدي أيضا تحفظه على صيغة الحاق طرابلس وبيروت ببلبنان .  
فيقول : « ان دمج طرابلس وبيروت ببلبنان لايعود بفائدة أكيدة لاعلى هذه  
المدن ولا على لبنان بحد ذاته . ومن المستحسن أن نخصص فترة تجربة  
تحتفظ خلالها طرابلس ( وضاحتها المسلمة ) ، وكذلك بيروت ،  
باستقلالية ادارية ومالية واسعة الى أن نرى كيفية تفاعل هذه العناصر  
مع بعضها البعض .

٧ - والشيء نفسه بالنسبة لاحاق جبل الدروز بحكومة دمشق .  
فقد ارتأينا سابقا استقلالية في اطار لقاءات تمت مع زعماء الدروز ،  
لاسيما في آذار ١٩١٩ .

٨ - وعلى وجه الاجمال أعتقد انه من المرغوب به ان نتدبر الامور  
بالشكل التالي : حتى ولو ان تصفية التجربة الشريفة قادتنا أولا لخلق  
دول واسعة يجب أن نحتفظ خلال تشكيل الاستقلالات الواسعة المحلية  
بامكانية ان نقيم فيما بعد كونفدرالية بعناصر أكثر تعددية .

انه من المستحيل أن يكون لدينا منذ الان ، ولم يمض على وجودنا  
في داخل سورية سوى بضعة أيام ، تصور محدود نهائي للنظام الذي  
ينبغي أن نعطيه لسورية .

« بدون شك اننا ملزمون بخلق هيئة قادرة على العمل بصورة  
مباشرة ، ولكن دون ان نترك لانفسنا الانحباس نهائيا فيما يمكن ان يكون  
حلا ظرفيا . بل ينبغي أن نترك لانفسنا الانحباس نهائيا فيما يمكن أن  
يكون حلا ظرفيا . بل ينبغي أن نترك لهذا الحل تعددية في الاشكال  
ومرونة تسمحان بادخال كل الرتوش ( التعديلات ) التي تقتضيها  
التجربة .

« وانه بالتحديد ولهذا الغرض بالذات ارتأت القرارات التي وزعت  
بموجبها الانتدابات مهلة ثلاث سنوات لاعداد دساتير للبلاد .

« ومن المناسب أن نأخذ بعين الاعتبار في اجراءاتنا التنظيمية وفي تصريحاتنا وجود هذه المهلة . فالتنظيم الحالي لا يمكن أن يكون الا مؤقتا ولا يمكن ان تكون قاعدته خلق ثلاث دول كبيرة بقيادة عسكرية : يجب الا يغيب عن نظرنا انه لا يمكن الاستمرار بنظام الاحتلال وانه نعرض أنفسنا لانتقادات خطيرة اذا ما حاولنا أن نمده .

فضلا عن ان نظام الاحتلال هذا ، أكثر تعرضا للمواجهة وأقل مرونة من الرقابة المدنية .

« أرجو أن تطلعني على أي اجراء أو تصريح قبل تنفيذه . الا في الحالة التي تتطلب قرارا عاجلا . وانه من الافضل في هذه المرحلة من التنظيم أن تكون وجهات نظرنا متناسقة لباوسطة برقيات مستعجلة وانما بواسطة تقارير ممنهجة وموسعة ترسل بالبريد ويمكن ان تدرس بتمعن في باريس من قبل الوزارة .

#### **ملاحظة :**

هذا العرض الوثائقي الذي يقدم الى المؤتمر هو جزء من مشروع أبحاث تتناول موضوع : بلاد الشام : المجتمع الاقتصاد والسياسة الفرنسية في مطلع القرن العشرين .

## الحواشي

- (١) أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية : تركيا - الحرب ، مجلد ٨٦٩ ، ص ٢٨  
La Chambre de Commerce de Lyon à Monsieur le Ministre des Affaires  
Etrangères. Lyon, le 7 Juin 1915.
- (٢) المصدر نفسه .  
Lettre à Monsieur le Ministre des Affaires Etrangères sur la question  
(٣) de la Syrie, suivie d'une note sur la valeur économique de ce Pays,  
Marseille, le 26 Juiller 1915.
- نمة نسخة موجودة في أرشيف المكتبة الشرقية - جامعة القديس يوسف - بيروت .
- (٤) هذا الجانب معالج في دراسة موثقة بصورة غنية : « الصراع الدولي في الشرق الاوسط  
وولادة دولتي سورية ولبنان » زين نور الدين زين ، بيروت ١٩٧١ . واذا كنا لانقف  
عند المشاريع التي برزت خلال الحرب ( سايكس - بيكو ، بلفور ، مراسلات حسين -  
مكماهون ) فلان وثائق هذه المشاريع نشرت ودرست في كتب كثيرة . ولاداعي لتردادها  
هنا . ذلك اننا توخينا من خلال هذه الدراسة الوثائقية ، استخدام « الوثائق »  
الجديدة أو التي لم تستخدم جيدا بعد من قبل الباحثين .
- (٥) أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية :  
Serie E - Levant 1918 - 1929 Syrie - Liban Vol 3, P. 192 - 193.
- (٦) المصدر نفسه .
- (٧) أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية : المصدر نفسه ، مجلد ٣ ، ص : ٢٧٦ - ٢٧٨ .
- (٨) لانرى لزاما ان نتوسع في هذه النقطة وقد عالجنها في كتابنا : الاتجاهات الاجتماعية -  
السياسية في جبل لبنان والشرق العربي . الفصل السابع ، ص ٢٩٥ - ٣٥٤ .
- (٩) حسن الحكيم - الوثائق التاريخية ، ١٩٧٤ ص ٦١ .
- (١٠) أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية - تركيا مجلد ١١٧ . ص ٣٠ - ٣٢ .  
Turquie. Vol. 117, p. 30 - 32.  
Consulot Général de France en Syrie, Beyrouth le 14 Octobre 1912.
- (١١) محمد جابر آل صفا : تاريخ جبل عامل ص ٢١٤ - ٤١٥ . راجع أيضا : « مذكرات  
جمال باشا » . ص ٢٢٤ - ٢٢٥ .

- (١٢) المصدر نفسه ، ص ٢٢٦ .
- Serie E. Levant : Syrie-Liban, Vol. 19. (١٣) أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية :  
Le Président du Conseil, Ministre de la Guerre à Monsieur Le ministr  
des Affaires Etrangères. 14 Nov. 1919.
- Serie E. Levant, Vol 127. (١٤) أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية :  
عالية ١٨ تشرين الاول ١٩٢١ .
- (١٥) المصدر نفسه .
- Revue du monde Musulman, t. xLIX, Mars 1922 P. 1 - 6 (١٦)
- Ibidem (١٧)
- Le Pays des Alouties راجع أيضا  
Jacques Weulersse, Paris 1940 pp. - 122 - 199.
- في موضوع مبررات انشاء « دولة العلويين » في السياسة الفرنسية .  
Notes sur l'élevage des moutons en Syrie et en Cilicie Beyrouth 1921 (١٨)  
ثمة مختصر لبعض نقاط هذه الدراسة في  
Supplément à l'Asie Française :  
No. Juin 1922 ( Bibliographie ) P. 98.  
Service des Renseignements politiques et militaires du Haut  
Commissariat.
- (١٩) أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية :  
Serie E - Levant, Syrie - Liban Vol 20, P 226 - 233.  
بيروت في ٢٩ كانون الاول ١٩١٩ . الساعة ٥.٢٣ و ٥ د .  
تاريخ الاستلام باريس : ٣١ كانون الاول ١٩١٩ . الساعة ٤ ..  
(٢٠) أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية .
- Serie E - Levant, Syrie - Liban, Vol. 29, Rapport 30 Mai 1920, P. 27 - 29.  
Série E - Levant, Syrie - Liban, Vol 126 , P 39 - 40 « Fédération (٢١)  
syrienne 3 23 Novembre 1920.
- (٢٢) ورد الاسم هكذا في النص الفرنسي . والارجح أن يكون المقصود هو الداماد أحمد  
نامي الشركسي الذي عينه المفوض السامي الفرنسي « جوفنيل » رئيسا لدولة سورية  
في ٢٦ نيسان ١٩٢٦ ، وعندما وجد أعراضا من قبل العناصر الوطنية لتشكيل الحكومة  
اثر الانتفاضة الوطنية .  
راجع نجيب الارمنازي . سوريا من الاحتلال حتى الجلاء . ص : ٦٠ .

(٢٣) أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية .

Serie E - Levant, Syri - Liban Vol 125, P. 193 - 233.

(٢٤) راجع حول موقف الادارة الفرنسية في اللاذقية : تقرير Nieger وتحليل الباحث  
Le Pays des Alaouites, pp 119 - 121 j. weulersse  
الفرنسي

(٢٥) راجع دراسة عن الدروز يرسلها غورو الى وزارة الخارجية الفرنسية ، تلخص التدابير  
التي اتخذتها المفوضية العليا الفرنسية حيال وضع الدروز ، وأشكال فهمها لهذه  
Serie E - Levant : Vol 127 المسألة : أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية :

(٢٦) أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية

Serie E - Levant, Syrie - Liban Vol 125 p. 207

(٢٧) برقيات تحمل تاريخ ١٣ آب ، والارقام ١٥٧٧ - ٨٤ .

(٢٨) هذه الافكار التي يعرضها غورو في برقياته الى الرئيس ميران ، تستعيدنا مذكرة  
مبعوث البطريرك الماروني بشأن حدود لبنان . وتضع « الدائرة الفرنسية لعصبة  
الامم » نسخة عن هذه المذكرة لدى ادارة الشؤون السياسية والتجارية « تحمل تاريخ  
برقية الجنرال غورو ( ١٣ آب ١٩٢٠ ) . .  
Vol 125 , P 216 - 218  
نفس المصدر :

(٢٩) نفس المصدر ، أرقام ١٦٢٣ ، ١٦٢٤ .

(٣٠) راجع نص مشروع دراسة وضعتها وزارة الخارجية الفرنسية حول تشكيل « مجلس  
فدرالي لسورية ولبنان » أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية :  
Serie E - Levant, Syrie - Liban, Vol 126. P. 97 - 100.

Vol, pp - 221 - 229.

(٣١) أرشيف وزارة الخارجية . .

Vol 125. P. 230 - 234, Paris le 23 Août 1920.

(٣٢) المصدر السابق .

## سِاطِعُ الْحَصْرِيِّ «مُتَشَفِّفٌ» الْعُثْمَانِيُّ

### الدكتور أحمد كوران

( جامعة حاجي تبه بانقرة )

كان اعلان الدستور في ٢٤ تموز ١٩٠٨ قد أثار موجة عارمة من البشر والحماس في جميع أرجاء الامبراطورية العثمانية . ويومئذ كان « ساطع الحصري » شابا في مقتبل العمر يدعو الى التحرر الفكري فشارك مواطنيه مشاعر التفاؤل التي أعقبت سقوط نظام عبد الحميد المستبد .

ولقد ولد في صنعاء ( اليمن ) عام ١٨٨٠ لاب كان يعمل موظفا في دوائر الدولة وينتمي الى أصل عربي سوري واسمه « محمد هلال أفندي الحصري » . وتلقى « ساطع » تحصيله الابتدائي في مدارس دينية تردد عليها بمختلف الاقاليم العربية والاناضولية التابعة للدولة العثمانية وحيث عين والده قاضيا في المحاكم النظامية . ثم تلقى تعليمه الثانوي والعالي في المدرسة « الملكية » في استنبول . وكانت هذه المؤسسة تعد طلابها لممارسة وظائف الدولة العثمانية فتخرج منها « ساطع » عام ١٩٠٠ كما تخرج منها - قبله بربع سنوات - أخوه الاكبر « بديع نوري » الذي لقي حتفه غيلة في عام ١٩١٣ عندما كان يعمل « متصرفا » في لواء البصرة . وآثر « ساطع بك » سلك التعليم على السلك الاداري فأسند اليه تدريس العلوم الطبيعية بثانوية « جانينا » في قضاء « الروملي » . واهتم اهتماما بالغا بالعلوم الصحيحة وقام بتصنيف كتب مدرسية في علم الحيوان والزراعة . أصدرها في عام ١٩٠٥ واستخدمتها المدارس الثانوية الرسمية زمنا طويلا . لكنه سرعان ماخاب ظنه بمهنة التعليم نظرا لتدخل الحكومة في شؤون المدارس ، فعين في وظيفة « قائمقام » في « رادوفستا » من ولاية « كوزوفا » عام ١٩٠٥ . وبعد سنتين نقل الى « فلورينا » من ولاية « مناستير » وهي آنئذ أحد المراكز الهامة التي نشط فيها حزب « تركيا الفتاة » المناهض لحكم عبد الحميد . فاتصل بجماعة « الاتحاد والترقي »

\* قام بترجمة هذا البحث الى العربية الدكتور بدر الدين قاسم الرفاعي .

المؤلفة من الضباط الاحرار بالجيش العثماني . ولكن مالبت السياسة أن خيبت رجاءه فقرر العودة الى التعليم وعقد العزم على بناء مجتمع عثماني جديد يرجو تحقيقه عن طريق التربية .

وفي ايلول من عام ١٩٠٨ تولى ادارة دارالمعلمين الابتدائية في استنبول بتأييد من أصدقائه في حزب « تركيا الفتاة » . وفي نيسان من العام التالي أسندت اليه ادارة دار المعلمين العليا وكلف باعادة تنظيم تلك المؤسسة . فلم يأل جهدا في اصلاحها مقتديا بالنموذج الفرنسي الذي اطلع عليه اطلاعا وافيا . وماهي الا فترة وجيزة حتى تسنى له انشاء جهاز تعليمي مؤهل واجراء تعديل واسع في الخطة الدراسية . فصارت تدرس للمرة الاولى الموسيقى والتربية المدنية والتمارين التطبيقية وصار الطلاب يقبلون كمنتسبين « داخليين » . وأنشئت ، بالاضافة الى ذلك ، مدرسة للتطبيقات وتم اعداد الرحلات العلمية والزيارات المدرسية المنتظمة كما وضعت المخابر والمكتبة تحت تصرف الطلاب وألقيت المحاضرات في أصول التعليم استدرাকা للثغرات في تأهيل المعلمين القائمين على عملهم .

هذا وقد حرر « ساطع بك » كتابا في « فن التربية » يقع في مجلدين ، صدر الجزء الاول منه عام ١٩٠٩ فكان أول بحث تربوي ينشر في الامبراطورية العثمانية ويتناول كيفية انشاء الفرد جسما وفكرا ووجدانا ، استنادا الى نظريات علماء النفس والتربية - وكان معظمهم من الفرنسيين . وفي العام ذاته باشر أيضا باصدار مجلة تربوية عنوانها « التعليم الابتدائي » وأخذ يبعث الى وزارة التربية بتقاريره التي أودعها ثمرة آرائه ومشاريعه الاصلاحية . وقد نشرت هذه التقارير عام ١٩١٠ . ولنذكر مثلا تقريره المؤرخ في حزيران ١٩٠٩ الذي اقترح فيه التوسع في انشاء دور المعلمين بالاقاليم وتقريره المؤرخ في كانون الثاني ١٩١٠ الذي يعالج قضية التعليم الابتدائي والثانوي . وفي غضون ذلك أتيح له القيام برحلات دراسية الى أوروبا بين عامي ١٩١٠ - ١٩١١ اطلع خلالها على المؤسسات العلمية في فرنسا وبلجيكا وسويسرا . واستمر في عمله مديرا لدار المعلمين حتى تموز من عام ١٩١٢ . اذ ذلك تقدم باستقالته في أعقاب خلاف في الرأي نشب بينه وبين الوزير « أمر الله أفندي » . فتولى من عام ١٩١٢ - ١٩١٤ ادارة « دارالثقافة » التي أنشأتها جمعية « خيرية » لتربية اليتامى وفي عام ١٩١٥ أسس مدرسة خاصة أسماها « دار التربية » .

والى جانب عمله الاداري واصل « ساطع بك » نشاطه الوافر في التعليم والتأليف والقاء المحاضرات . فقد تبوأ منبر التدريس في المدرسة « الملكية » خلال العام الدراسي ١٩٠٨ - ١٩٠٩ وراح يحاضر في علم « الاتنوغرافيا » ثم نشر أماليه في عام ١٩١١ بعنوان « علم الاقوام » فكان أول كتاب من نوعه يصدر في الدولة العثمانية . وله أيضا محاضرات أخرى في مختلف معاهد استنمبول العامة والخاصة ولاسيما الجامعة . وفي عام ١٩١٣ طبعت تلك المحاضرات على شكل كراسات وعنوانها « في خدمة الوطن » و « اليابان » و « الرجاء والمثابرة » . كما أسهم بنصيب وافر في تحرير الصحيفة اليومية « تانين » و « اجتهاد » وفي مجلتي « المعلم » و « التربية » اللتين أشرف على تأسيسهما عام ١٩١٢ . وعلى مر الزمن اكتسبت أبحاثه التربوية طابعا أكثر شمولاً من ذي قبل وراحت تعالج المسائل الثقافية والاجتماعية . وكانت الامبراطورية العثمانية قد منيت بهزيمة في حروب البلقان بين عامي ١٩١٢ - ١٩١٣ . وترتب على تلك الهزيمة سلخ ولاية « الروملي » مما حدا به الى الاهتمام بالقضايا الملحة التي كانت تتهدد مصير الدولة بالذات . آنئذ توزع رجال الفكر العثمانيون الى اتجاهات ثلاثة : الاتجاه العثماني والاتجاه الاسلامي والاتجاه التركي . وتأثرت هذه التيارات جميعا . وبخاصة التيار العثماني - بالنزعة الى التجديد وادخال المدنية الغربية . فأصدر الامير « صباح الدين بك » كراسا عنوانه : « كيف يمكن انقاذ تركيا ؟ » دعا فيه الى الاخذ بمبدأ اللامركزية السياسية . ويعد هذا السؤال تعبيرا واضحا عن القلق الذي يساور جميع المثقفين العثمانيين .

كان « ساطع بك » يدين بالولاء التام للنزعة العثمانية . بيد ان ميله الفردي الذي اقتبسه من تعاليم « هربرت سبنسر » قد دفعه الى مساندة الروح العلمانية فاراد - على غرار صديقه الشاعر « توفيق فكرت » - اقامة صرح الاخلاق على أساس الوجدان الفردي بغض النظر عن تعاليم الدين . وحفزه وطنيته الصادقة الى دراسة التطور التاريخي للقوميات في العالم في محاضراته التي أودعها كراسته المسماة « في خدمة الوطن » . فهو يرى ان وحدة اللغة والعرق هي التي تكوّن قاعدة القومية الالمانية بينما اعتمدت القومية الفرنسية على تصور التاريخ المشترك ومفهوم الدولة . ولقد آمن « ساطع بك » بوجود « الامة العثمانية » وعمادها الدين الاسلامي وتاريخ الدولة العثمانية . وبذلك يتضح لنا انه كان أوفى الى النموذج الفرنسي في دعوته الى تنمية الشعور القومي وانه



اعتبر الامبراطورية العثمانية دولة متعددة القوميات فلا بد للعثمانيين على حد قوله من « انشاء مفهوم الوطن على أساس الدولة والتاريخ بصرف النظر عن اللغة والعرق » . بل انه أوصى المعلمين أن يبثوا في نفس الناشئة حب الوطن « العثماني » بتلقيهم التاريخ والجغرافيا .

وهناك كثير من المؤلفين الاتراك - وفي مقدمتهم « نافع عطوف قانصو » - الذين أصابوا بقولهم « ان « ساطع بك » كان مشبعا بروح « التنظيمات » . فقد دعا الى التجديد على النسق الغربي وكان ضليعا بالثقافة الفرنسية فلا غرو ان يدافع عن الاصلاحات التي نهض بها « رشيد باشا » واعوانه منذ عام ١٨٤٠ . على ان نزعتة التحريرية لم تحل بينه وبين الاعجاب بحركة التجديد اليابانية التي قامت عنوة وباسلوب أقرب الى القسر والاكراه .

ولقد حرص حرصا شديدا على تفادي كل نقد يمكن أن يوجه الى أحاديثه وابحاثه من قبل أصحاب النزعة الاسلامية ، لكنه ناهض الايديولوجية التركية المناهضة صريحة ورأى أن من واجب التربية العثمانية أن تتصدى « لتنمية الفرد عقلا وجسما على نحو متناسق ومتوازن » مما جعله يدخل في نزاع مع المفكر الاجتماعي « ضياء غولاب » صاحب النزعة التركية والذي كان يترسم خطأ العالم الفرنسي « دركهايم » . واندلعت الشرارة الاولى من النظرية التي جاء بها « أمر الله أفندي » ومفادها : انه يجدر بكل اصلاح تربوي ان ينطلق من التعليم العالي بدلا من التعليم الابتدائي . وأخذ « غولاب » بالنظرية المذكورة بينما وقف منها « ساطع بك » موقفا معارضا . وبدأ الجدل بين المفكرين الكبارين في عام ١٩١٥ في المجلات الدورية واستؤنف في عام ١٩١٧ . وسرعان ما تحول الى نقاش واسع حول الطابع النوعي الذي ينبغي للتربية العثمانية ان تطبع به . فدعا « غولاب » الى نمط من التربية يستوحي النزعة التركية في حين صرح « ساطع بك » ان تلقين القومية التركية للناشئة قد ينذر بالقضاء على الوحدة العثمانية . ودار النقاش في جوهره حول « التعارض بين النزعة الفردية المستلهمة من « سبنسر » والنزعة الجماعية المستلهمة من « دوركهايم » على حد قول « نيازي برکه » في كتابه « تطور الروح العلمانية في تركيا » .

وظل « ساطع بك » حتى اللحظة الاخيرة مواليا للدولة العثمانية فكان بمعزل عن القومية العربية التي تفجرت في عام ١٩١٦ واستمر ينشر

أبحاثه باللغة التركية حتى انهيار الامبراطورية في تشرين الاول من عام ١٩١٨ . وقتئذ قرر الالتزام بالقضية العربية وغادر استنبول قاصدا سورية في حزيران ١٩١٩ بل انه غير لقبه وصار يسمى «ساطع الحصري» . كان ذلك فاتحة عهد جديد في حياته الى أن وافته المنية في عام ١٩٦٨ .

وأصبح لزاما عليه . بعدما اعتنق القضية العربية ، ان يوفق بين أفكاره وبين مقتضيات القومية العربية . فتقلصت نزعتة الفردية في سبيل انشاء المثل الاعلى الجماعي وأضحت وحدة اللغة والتاريخ العنصر الاساسي في نظريته القومية . وعاد في الواقع الى آراء « ضياء غولاب » زميله القديم وخصمه .

أما بالنسبة اليينا ، نحن معشر الاتراك ، فان « ساطع بك » يبقى في نظرنا مدير دار المعلمين الذي أسهم في رفع شأن المعلم في قطرنا باعتباره عضوا في مهنة شريفة . ولقد كرمه « حلمي ضياء الكور » بقوله « كان « ساطع بك » من الاوائل الذين عمدوا الى النقاش الجاد الموضوعي على غرار الكتاب الغربيين » .

# تَعَاوُلُ الْمَفَاهِيمِ السِّيَاسِيَّةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ الْفَرَنِّيَّةِ

في القرن التاسع عشر

اسهام في دراسة الوعي السياسي في بلاد الشام\*

الدكتور فريتز شتيتبات

( جامعة برلين )

من البدهي أن نقول ان المجتمع في العصور الوسطى - سواء في الشرق أم في الغرب - قد تميز بتأثير الدين في جميع مجالات الحياة . ولكي نستخدم مصطلحات العلوم الاجتماعية نقول ان جميع القرارات المتعلقة بالمجتمع كانت تتخذ بالرجوع الى المفاهيم والقيم الدينية . وعلى النقيض ، فان من المميزات الرئيسة للعصر الحديث هي أن القرارات غدت تتخذ بشكل متزايد ضمن اطار لاديني من الاسانيد ، وأن الاطار الديني يفقد باستمرار أهميته . وعندما استخدم عبارة « دنيوي » لوصف الحالة الجديدة فاني لأرغب تضمينها بالضرورة رفض الدين . لان الانسان ربما يقبل القيم الدينية كمبادئ هادية لضميره في حين يدرك أن الدين لم يعد يجيب بالسرعة الكافية أو الوضوح الكافي على القضايا اليومية التي يواجهها في مجالات عديدة من مجالات الحياة . وبالتالي يجد نفسه مضطرا للتوجه نحو مصادر أخرى من مصادر الهداية لكي يتخذ قراره . والواقع أن الانسان المعاصر يحاول بوضع حد فاصل بين ماهو ديني وماهو لاديني أن يحمي قناعاته الدينية . وهكذا فهم أن الدنيوية تختلف عن العلمانية Laïcism التي كانت تعني موقفا ايديولوجيا وليس وظيفيا يتضمن رفض تأثير الدين على السياسة والشؤون العامة بوجه عام .

ورغم قولي انه من البدهي أن القرارات المتعلقة بالمجتمع كانت تتخذ في العصور الوسطى ضمن اطار ديني من الاسانيد ، لأعتقد أن هذا القول صحيح تماما ، فهو على الاقل مبالغة . ويمكن الإشارة ، من غير غوص في المشكلة ، كمثال الى أنه في المجتمع الاسلامي حيث يسود

\* قام بترجمة هذا البحث الى العربية الدكتور محمد منير صلاحي الاصبحي .

القانون الديني المنزل من عند الاله وحيث كانت الشريعة سائدة بلاشك ، كانت هناك دائما مجالات في الحياة الاجتماعية تحكمها العادات أو تشريعات السلطات اللادينية . وربما كان الناس يشعرون بانهم يتخذون قراراتهم ضمن اطار معتقداتهم الدينية ، ولاأنكر أن هذا الشعور وهذا الوعي ذو أهمية كبيرة . ومع ذلك كانوا يتصرفون الى حد كبير على أساس من المبادئ الدنيوية .

ولقد عمل العلماء الاتقياء أنفسهم ، بطريقة ما ، على الفصل بين المجالات الدينية والدنيوية في الحياة ، وأدركوا منذ مطلع التاريخ الاسلامي أن الدول التي يعيشون تحت سيادتها لاتتطابق مع مفهومهم للدولة المثالية التي يجب أن تجسد مجتمع المؤمنين « الامة » والتي يجب أن يكون على رأسها خليفة رسول الله « الخليفة » . فحاولوا سد الفجوة الموجودة بين العقيدة والواقع بالاقبال من الشروط المطلوبة للاعتراف بشرعية الخليفة ، وبالقبول بإمكان تعيينه من قبل أسلافه ، وبمنحه الاعتراف به كخليفة حتى وان وقع تحت وصاية مفتصب . . . الخ . وفي النهاية تم الاعتراف بشكل عام تقريبا بان الخلفاء الاربعة الاوائل كانوا خلفاء حقيقيين للرسول ( ص ) وأن جميع مدعي هذا اللقب من بعدهم لم يكونوا سوى حكام دنيويين . واستنادا الى هذا المفهوم أصبحت وحدة الامة مضمونة بفاعلية الشريعة وممثلة بحمايتها العلماء . وبالتالي لم يعد ضروريا تحديد هوية الامة بأية دولة معينة .

ويبدو أن هذه على أية حال هي وجهة نظر علماء بلاد الشام في مطلع القرن التاسع عشر بما في ذلك الذين ينتمون الى مدرسة القانون الرسمية للامبراطورية العثمانية(١) . وآخر خلاصة وافية كبيرة لهذه المدرسة هو « رد المختار » للعالم الدمشقي محمد أمين بن عابدين ( ١١٩٨ / ١٧٨٤ - ١٢٥٢ / ١٨٣٦ ) . ويحتوي هذا العمل على مديح للسلطان العثماني ، حشر في منتصفه بشكل مفاجيء ، قبل كتاب الجهاد(٢) المؤرخ في صفر سنة ١٢٤٨ - تموز ( يوليو ) سنة ١٨٣٢ . ويدل التاريخ على أنه كتب مباشرة بعد احتلال قوات محمد علي لدمشق في السادس عشر من تموز ( يوليو ) عام ١٨٣٢ ، ولابد من اعتباره بالتالي اعلانا بالولاء للسلطان في وقت يعتبر فيه مثل هذا الاعلان مجازفة خطيرة . ويصف ابن عابدين السلطان في كتابه هذا كخليفة الله في أرضه ، بيد أن انعام النظر في النص بشكل أدق يبين أن هذا الوصف لايتضمن اعترافا بالحاكم العثماني كخليفة بالمعنى الشرعي . ويستعمل ابن عابدين كغيره

من المؤلفين السابقين والذين يعتمد عليهم عبارة « خليفة » ومرادفتها كلمة « امام » بشكل متبادل مع عبارة « سلطان » (٢) . وهكذا فانه من الواضح ، طبقا لمفهوم العلماء ، أن كل حاكم يمكن أن يسمى « خليفة » . وواضحة أن منح السلطان هذا اللقب لايعني أنهم يعترفون به رئيسا شرعيا للمجتمع الاسلامي ولا اعترافا بالامبراطورية العثمانية تجسيدا لهذا المجتمع .

وينجلي هذا الرأي أكثر عندما نتفحص موقف العلماء تجاه الدولة ، فيما يتعلق بالضرائب مثلا . فالضرائب المبنية على الشريعة كانت فقط الزكاة والعشر والخراج ، ولكن الحكومات الاسلامية كانت دائما تجمع ضرائب اضافية تسمى بأسماء مختلفة مثل المكس والنائبة أو الجباية ، ولم تكن هذه الضرائب لتعتبر غير شرعية ان كانت تخدم المصلحة أي المصلحة العامة التي لم يكن لدى الحكومة أية ميزانية لها . بيد أن العلماء شعروا في أواخر العصور الوسطى أنه لم يعد هناك مبرر كهذا لمعظم الضرائب الخاصة وأنها لذلك ضرائب غير عادلة (٤) . ويمكن للمرء أن يرى كيف أن هذا الاستنتاج قد أثر على ضمير المحلفين . لم يكن العلماء الثوريون بطبعهم ، بل كانوا يميلون الى الصبر على الابتزازات غير العادلة متذرعين بمبدأ الضرورة الشرعي . ومع ذلك لم يستطيعوا اغفال حقيقة أن دفع ضريبة غير عادلة يساعد الظالم على اقتراف الظلم (٥) . لذلك كانت النتيجة التي خلصوا اليها هي أن من يستطيع تجنب دفع ضريبة جائرة بطريقة تضمن عدم جباية حصته من غيره فليفعل . وهذا هو الرأي أعلنه المحامي الحنفي الكبير السراخسي في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي ، والذي كرره ابن عابدين وابنه علاء الدين في كتاب مدرسي نشر عام ١٨٨٢ (٦) .

كان العلماء هم قادة الرأي العام الاسلامي ، وادراكنا لرفضهم مطابقة المجتمع الاسلامي مع الدولة القائمة أمر هام لتقويم التطورات السياسية فيما بعد تقويما صحيحا . فعندما طرحت الحكومة في استانبول في عهد السلطان عبد العزيز ( ١٨٦١ - ١٨٧٦ ) المذهب القائل بأن الحاكم العثماني لم يكن رئيس الامبراطورية العثمانية فحسب ، بل خليفة المسلمين كافة بالمعنى الشرعي للكلمة ، وعندما جعلت الاسلامية الشاملة في عهد السلطان عبد الحميد ( ١٨٧٦ - ١٩٠٩ ) السياسة العثمانية الرسمية التف حول هذه الفكرة كثير من المسلمين ومن بينهم عرب كثيرون .

ولكنهم بفعلهم هذا انما استجابوا لشعورهم بالتضامن الذي يوحد جميع الاعضاء في المجتمع الاسلامي ، وخاصة في مواجهة التهديد باخضاعهم لغير المسلمين ، ولم يكن دافعهم لذلك اعتقادهم بأن من واجبهم الديني اطاعة السلطان لكونه الرئيس الشرعي للمجتمع الاسلامي ، اذ أن مبدأ وحدة الدولة والدين في الاسلام ، والذي على أساسه يمكن أن يقوم مثل هذا الاعتقاد ، قد فقد واقعيته منذ زمن بعيد .

ان العلماء الذين ميزوا بين الدولة الاسلامية المثالية والدول التاريخية الحقيقية ، لم يفعلوا ذلك بالطبع بقصد تعزيز الدنيوية ( العلمانية ) ، بل التقوا مع التطور التاريخي عند نقطة أصبحت الفجوة بين المثالية الدينية والواقعية التاريخية واسعة جدا بحيث لا يمكن تجاهلها . أما في نقاط أخرى فقد تمسكوا بالتوجيهات الدينية ، وغدت احدى شكواهم ضد الحكومة العثمانية في القرن التاسع عشر هي أنها بدأت تسلك الخط الديني .

وأكثر ما يهمنى في هذه الدراسة من العوامل التي أثارت هذه الشكوى هو اشتراك غير المسلمين في الشؤون العامة . فبالرغم من أن الاسلام متميز بدرجة عالية من التسامح تجاه أهل الكتاب ( الذين يؤمنون بمعتقدات أخرى مبنية على الوحي الالهي ) فانه من الطبيعي أن يستثني المجتمع الاسلامي الذي يعتبر نفسه تجسيدا للاسلام أبناء الأديان الأخرى من أي موقع رسمي يؤثر على صنع القرار ؛ أما الملل الأخرى كالمجتمعات المسيحية واليهودية فكانت تتمتع بالحماية بموجب علاقة تعاقدية (الذمة) يمنحون بموجبها استقلالاً ذاتياً واسعاً في شؤون مجتمعاتهم ولكنهم لا يشاركون في الحكومة الاسلامية . لذلك من السهل فهم السبب الذي اعتبر من أجله قبول المسيحيين واليهود في المجالس الإدارية للأقاليم بدعة بفيضة أدخلت في ظل الاحتلال المصري لبلاد الشام في ثلاثينات القرن التاسع عشر . واستمرت هذه السياسة بعد عودة الحكم العثماني ، فقد أعلنت حكومة استانبول برنامجاً للإصلاح العام وعدت فيه مساواة الرعايا غير المسلمين في الحقوق وبدأت تنفيذ وعودها . وفي عام ١٨٧٦ أعلن أول دستور عثماني وكان المسيحيون واليهود من بين الذين انتخبوا أعضاء في أول برلمان . وكان هذا أهم الأمور قاطبة إذ ألقى الدستور على كل مندوب ، دون اعتبار للدين ، مهمة تمثيل كل الرعايا العثمانيين ( المادة ٧١ ) بالإضافة الى الاعلان بان جميع العثمانيين متساوون أمام القانون ،

ومتساوون في الحقوق والواجبات تجاه الدولة ( المادة ١٧ ) وأن دخولهم الوظائف العامة يعتمد على مدى استحقاق المواطن لتلك الوظيفة فحسب ( المادة ١٩ ) ؛ وبرغم اعلان الدستور أن دين الدولة هو الاسلام ( المادة ١١ ) وأعرب بتحديد أكثر من ذي قبل عن ادعاء السلطان بالخلافة ( المادتان ٣ ، ٤ ) ، فانه اعترف بوضوح بمبدأ مشاركة غير المسلمين في الحكومة على كافة المستويات .

وهكذا يبدو أن أهم عنصر من عناصر العلمانية ( الدنيوية ) ، ألا وهو اغفال الانتماء الديني عند اقرار عضوية أي شخص في الهيئة السياسية ، قد فرض على المجتمع الاسلامي التقليدي في البلاد العربية من الخارج . ومع ذلك ليس هذا القول صحيحا تماما ، اذ عندما ننعم النظر في تاريخ تلك الاجزاء من بلاد الشام حيث تتواجد أقليات دينية هامة ، يمكننا ملاحظة أن التعايش بين مختلف المجتمعات قد بدأ يتخذ الاشكال السياسية نتيجة للتطورات المحلية دونما أثر ظاهر للعوامل الخارجية .

أما جبل لبنان فلا بد من اعتباره حالة خاصة فسكانه مؤلفون من جماعات دينية مختلفة لا يشكل أيا منها أكثرية ، وفي حين كانت تتحدد الوحدات الاجتماعية الصغرى بانتماءاتها الدينية ، لم تكن البنية الاقطاعية العليا كذلك . والواقع أن الامارة اللبنانية التي تطورت بقيادة أسرة تنتمي الى الطائفة الدرزية التي يعتبرها المسلمون المتطرفون خارج الحضيرة الاسلامية ، قد عززت فصل المجتمع اللبناني عن المجتمعات المجاورة . فكان طبيعيا في هذا المجتمع أن يتعامل الاقطاعيون ( المقاطعية ) من الدروز والموارنة والملخية Melchite والشيعية مع بعضهم كأنداد متساويين .

وظهر في لبنان تطور جديد عندما بدأ سكان القرى يشكلون ، لاغراض سياسية ، وحدات رسمية تجاوزت المجتمعات الدينية . وأول وحدة نعلم عنها شيئا هي عامية أنتلياس ( Commiya of Antilyas )

التي تشكلت عام ١٨٢١ ، ويعود أصلها الى حركة احتجاج ضد ارتفاع الضرائب ، وشكلت بميثاق وقع عليه المقاطعية وممثلو القرى ( الوكلاء ) الذين لعبوا دورا هاما في اقامتها . وورد في نص الميثاق تأكيد على تعاون الدروز والمسيحيين (٨) . كما تم عقد ميثاق آخر بين الدروز والمسيحيين والشيعية ( المتأولة ) والسنة ( الاسلام ) في اطار « العامية » ضد الاحتلال

المصري وذلك عام ١٨٤٠ (٩) . وربما لم يكن التعاون بين هذه الطوائف عميقا ومتينا ولكن مجرد ذكر جميع الطوائف في وثائق رسمية يدل على أن مفهوما جديدا من التعامل بين الطوائف أصبح مقبولا .

ومثال أهم من كل الامثلة السابقة على التعاون الرسمي بين الطوائف هو الوثيقة التي حررت عام ١٨٥٤ ليس في لبنان هذه المرة ، بل في مدينة الناصرة الفلسطينية (١٠) . وعقد هذا الميثاق بين ممثلي ( وكلاء ) الطوائف التالية : المسلمين السنيين والمسيحيين الارثوذكس اليونان واللاتين والكاثوليك اليونان والبروتستانت في مدينة الناصرة وبعض القرى المجاورة . ولقد توصلت هذه الطوائف عندما تدهور الامن وتعرضوا للخطر الى ما أسموه بميثاق العمومة ومجتمع قرابة العصب الذي يتوجب على أعضائه أن يدفعوا ويأخذوا ضريبة الدم ( الدية ) التي تتوجب عليهم جميعا اذا مانشب بينهم وبين معتدين من الخارج ( من خارج حدود المنطقة التي يعيشون فيها ) . والعبارات المستخدمة في هذا الميثاق من أكثر العبارات أهمية ، فمجتمع قرابة العصب معروف في قانون الميراث الاسلامي ، والذي ترجمته ب « ميثاق العمومية » قد ذكر في الميثاق « عهد العمومية » أو « المعاممة » وهي كلمات لم أجدتها في أي مكان آخر ولكنها لا بد أن تكون مرادفة لعبارة « بنوة العم » وهو عقد يقيم قرابة اصطناعية بين قبيلتين يعتبر أعضاء كل قبيلة أعضاء القبيلة الاخرى كأبناء عمهم (١١) . وبالمناسبة ، فان من الجدير بالاهتمام أن نتفحص فيما اذا كانت عبارة « عامية » أو كما كانت تكتب باستمرار « علمية » والمشتقة من « عامة » بمعنى عامة الشعب يمكن أن تتضمن معنى « عم » شقيق الاب ، وكذلك الامر بالنسبة لعبارة « المعامة » . ولقد كتب الوثيقة قاضي المنطقة في الناصرة « النائب » محمد أمين الفاهوم ، وأودعت في دير الفرانسيسكان في الناصرة .

ويدل ميثاق الناصرة على أن مختلف المجتمعات الدينية في مدينة فلسطينية قد وجدت من الممكن أن تتوحد بطريقة رسمية من أجل هدف مشترك ، واستفادت بعملها هذا من الصيغ التي وجدوها في الشريعة الاسلامية وفي قانون العرف العشائري . ولم يلعب السنيون الذين يشكلون مجموعة كبيرة وان لم تكن أكثرية سكان الناصرة ، دور الاقلية في هذا الميثاق كما كان الحال في « عامية » لبنان لعام ١٨٤٠ ، بل انهم لعبوا دورا فعالا في الميثاق لدرجة أن القاضي الشرعي الرسمي قد



وضع الميثاق . وهكذا يبدو أنه لم يكن مستحيلا أن تتحرك المجتمعات الدينية المتنوعة ، ومن بينها المسلمون السنيون ، باتجاه تكوين مجتمع دنيوي ( علماني ) جديد ، حتى من خلال الصيغ الحضارية القائمة والمشتقة من الانظمة الشرعية التقليدية » .

وبالرغم من النقاط التي وردت حتى الان ظل من الحق القول بأن المسيحيين العرب أبدوا اهتماما أكبر بخلق مجتمع دنيوي ( علماني ) قبل المسلمين . فالمسيحيون العرب كانوا في المجتمع التقليدي أقلية منتقصة الحقوق ، لذلك من الطبيعي أن يكافحوا من أجل موقع أفضل . ومن الوسائل لتحقيق ذلك هي الاستفادة الكاملة من الاصلاحات العلمانية في دساتير الامبراطورية العثمانية ، أو حتى أبعد من ذلك ، عن طريق ربط أنفسهم بعملاء القوى الغربية التي كان نفوذهم يتزايد في المنطقة . ومن الواضح أن المسيحيين قد دفعوا الى هذا التصرف بأنانيتهم الطائفية دون أدنى اهتمام بمشاعر جيرانهم المسلمين ، أو بشكل أدق كانوا يهدفون الى التعويض عما كانوا يرونه اذلال قديم .

ولم يكن من المحتمل أن ييسر مثل هذا السلوك الطريق الى نظام اجتماعي يتجاوز الطوائف الدينية . بل على العكس ، خلق توترا داخليا بين الطوائف ، وكان ذلك من الاسباب التي أدت الى القلاقل السورية عام ١٨٦٠ . بيد أنه كان هناك مسيحيون آخرون استطاعوا أن يروا الاخطار التي ينطوي عليها مثل هذا السلوك وبدأوا يبحثون عن وسيلة أفضل لتغيير وضعهم . وكان لديهم بالاضافة الى الخوف من النزاع بين الطوائف دافعا اخر ؛ فقد لفت ألبير حوراني ( Albert Hourani )

الانتباه الى التكبير والاضطهاد الموجود بين المسيحيين العرب في القرن التاسع عشر (١٢) ، ولم يعد بعض خيرة المثقفين من بين الشباب المسيحيين براغبين في الخضوع الى السلطات الاكليركية ، وفي قبول الحواجز التي يفرضها النظام الطائفي ، فقاموا بتطوير الاهتمام باللغة العربية والادب العربي الذي يشتركون فيه مع المسلمين ، وبتطوير الوعي بانه من الممكن ايجاد روابط أخرى تربطهم بالمسلمين . كما أن الافكار الوطنية والقومية الاوربية ساهمت في زيادة الشوق الى ايجاد نظام اجتماعي لا يابه بالفروق الدينية ، وفي ايجاد أساس لمجتمع أوسع من المجتمع الديني ؛ بالاضافة الى اقامة الدولة العلمانية .

ومن الامثلة البارزة على هؤلاء المسيحيين العرب بطرس البستاني ( ١٨١٩ - ١٨٨٣ ) الذي نال لقب « معلم » المشرف . ولكونه ولد في أسرة مارونية أصبح في شبابه على احتكاك مع البعثات التبشيرية الامريكية ، ثم انقلب بروتستانتيا ، ولكنه فيما بعد انصرف عن أي موقف طائفي ضيق (١٣) . وساهم البستاني مساهمة كبيرة في احياء اللغة العربية والادب العربي . ولهذا الغرض قام بدور قيادي في تأسيس أول جمعية ثقافية اسمها « مجمع التهذيب » في أواخر عام ١٨٤٥ أو في مطلع عام ١٨٤٦ والتي لم تحصر عملها في البحوث اللغوية والادبية ، بل شملت أعماله موضوعات كموضوع تثقيف المرأة وموضوع الوطنية (١٤) . وسرعان ماغدت مثل هذه الجمعيات أمكنة لقاء هامة بين الجماعات الدينية المختلفة . وينطبق هذا الامر أيضا على « الجمعية العلمية السورية » التي أسست عام ١٨٥٧ (١٥) ، وعلى جمعية « العمدة الادبية لنشر الكتاب العربي » التي تأسست في مطلع عام ١٨٦٠ (١٦) ، وكان البستاني في كلاهما عضوا بارزا . ولكن أقوى دوافع النشاطات التي قام بها البستاني كانت القلاقل الطائفية التي وقعت في لبنان ودمشق في صيف عام ١٨٦٠ ، اذ قر المعلم نتيجة الصدمة العميقة التي تلقاها بسبب المذابح، أن يفعل شيئا يحدث أثرا على جماهير أوسع من جمهور أعضاء الدوائر الادبية . فشرع فور انتهاء العداوات ، وفي الوقت الذي مازالت فيه العواطف جياشة ، بنشر سلسلة من النشرات بعنوان « نفي سورية » التي يمكن أن تترجم بـ « ببوق سورية » أو « الاستنفار السوري » . وكان البستاني يخاطب بها أبناء الوطن ، وكان واضحا أنه لايعني مجتمعا ضيقا بالذات ، بل يعني شعب سورية كله بغض النظر عن أية طائفة . ونصح أبناء دينه المسيحيين الذين كانت تحميمهم في ذلك الحين القوات الاوربية ، ألايسعوا للانتقام من خصومهم ، كما حاول تطمين المسلمين والدروز بأن البريء لايشقى العقاب . ألم يشربوا جميعا من ماء واحد ويتنفسوا هواء واحدا ويتكلموا لغة واحدة ، ويتبعوا عادات واحدة ويشتركوا بمصالح واحدة ؟ فكلهم أخوة في الوطن ومايصيب أحدهم من خسارة يصيب الاخرين . وكان يؤمل أن التعاسة الحالية ستفتح عهدا جديدا من السلام والازدهار لسورية . واستخدم « المعلم » لغة الانجيل عندما كان يحث المسيحيين على محبة أعدائهم ، وذكر المسلمين بأن القرآن أمرهم بالخير ونهاهم عن الشر مؤكدا بهذا أن الاديان يجب أن تستخدم للتوفيق لا للتفريق .

ولايسع المرء عندما يقرأ كلماته الا أن يتأثر بالاخلاص والعقلانية اللتين لم تفقدا أهميتهما حتى يومنا هذا .

من الصعب الحكم على مدى تأثير « نفيير سورية » على الجمهور ، ولكنها لم تكن مخيبة لبطرس البستاني تماما ، اذ أنه قام بعد ثلاث سنوات في عام ١٨٦٣ بمبادرة أخرى بافتتاحه مدرسة لجميع الطوائف في بيروت أسماها « المدرسة الوطنية » . كما كانت قد أنشئت بضعة مدارس حكومية أثناء الاحتلال المصري ، وكانت الحكومة العثمانية قد بدأت بافتتاح سبع عشرة (١٧) مدرسة عام ١٨٥٤ . واتبعت هذه المدارس منهاجا يمكن اعتباره علمانيا ، ولكن من المشكوك فيه أن يكون الاطفال غير المسلمين قد ارتادوا هذه المدارس بأعداد تستحق الذكر . أما بقية المدارس الاخرى فكانت لهذه الطائفة الدينية أو تلك وان قبلت بعض التلاميذ من طائفة أخرى . لذلك ارتقى اعلان البستاني بان مدرسته لا ترتبط بأية طائفة وأنها مفتوحة للطلبة من جميع الاديان وانها ستعلمهم العيش معا بمحبة وانسجام مع التركيز على الانسانية والوطنية كمحور لمشاعرهم (١٨) ، ارتقى هذا الاعلان الى مرتبة الثورة . ورغم أنه لم يكن هناك أي بحث مفصل في هذا المجال ، فقد كانت مدرسته ناجحة بشكل واضح اذ استطاعت ان تجذب بضع مئات من الطلبة . وفي حين لانعلم عدد المسلمين من هؤلاء الطلاب الا أننا نعلم أنه كان بينهم من أصبحوا من ذوي النفوذ فيما بعد مثل عبد القادر القباني مؤسس صحيفة « ثمرات الفنون » ، ومحمد رشيد الدنا مؤسس صحيفة « بيروت » (١٩) ومحمود مناح الصلح (٢٠) الذي سنتحدث عنه أكثر فيما بعد .

ولا يبرهن هذا بوضوح على فعالية مشروع البستاني التربوي فحسب ، بل على تغير عام في المناخ الذهني أيضا . وبعد صدامات عام ١٨٦٠ بوضع سنين ، لم يعد المسلمون يجدون أي عقبة في ارسال أبنائهم الى مدارس يديرها مسيحيون على مبادئ وطنية . وأيدت السلطات العثمانية الاتجاه نحو الانسجام بين الطوائف اذ تأكدت أن هذا التطور يجرد القوى الاوربية من ذريعة التدخل في الشؤون السورية . والتحق مسؤولون أترك بالجمعية العلمية السورية التي أعيد احياؤها ، والتي أصبحت مرة أخرى ملتقى للعناصر من مختلف الاديان (٢١) . ومن جهة أخرى فان البستاني برغم كل وطنيته السورية فقد أظهر دائما أن الوطن السوري جزء من الامبراطورية العثمانية وأكد على ولائه للعثمانيين ،

مما جعل نشاطاته مقبولة لدى السلطات ولدى المسلمين السوريين الذين يشاركونه هذا الولاء .

ومع ذلك فقد زحفت ملاحظة جديدة الى الابحاث ، فمن بين المعالم البارزة التي كان يشترك فيها أبناء الوطن هي اللغة العربية والثقافة العربية ، فأصبح المجتمع الوطني بالتالي يتميز بالعروبة . وكتب البستاني عندما ادعى النقاد الاجانب اكتشافهم لجذور حوادث عام ١٨٦٠ في طبيعة العرب ، كتب قائلا : « لقد هاج بي الدم العربي » وانطلق يدافع عن جنسه (٢٢) . وقد اتخذ مسيحيون اخرون من هذا الوعي العرقي موقفا عدائيا تجاه الشعب الذي بدا لهم ولكل العرب مضطهدا ، ألا وهو الشعب التركي وكتب الان الشاعر المسيحي ابراهيم اليازجي قصيدته المشهورة التي دعا فيها العرب الى اليقظة وناشدهم أن يهبوا لقتال الاتراك . وأسس ابراهيم حوالي عام ١٨٧٦ مع بعض الشباب المسيحي « جمعية ثورية سرية » للنضال من أجل التخلص من السيطرة التركية (٢٣) .

ونجحت هذه الجمعية في تسجيل بعض المسلمين والدروز في عضويتها (٢٤) ، ثم حاولت كسب أتباع لقضيتها من خلال محفل ماسوني في بيروت . ولكن ، وفقا لما جاء في تقرير أحد المساهمين ، أنه رغم موافقة المسلمين والمسيحيين على مقارعة المظالم التركية والاستبداد التركي ، وعلى تأكيد عروبتهم والاصرار على مساواة العرب والاتراك في الحقوق ، فانهم لم يقدروا على التوصل الى تفاهم بشأن طرد الاتراك من سورية (٢٥) . فهل كان مسلموا سورية في ذلك غير مستعدين لترجمة الوطنية الى مفاهيم سياسية واقعية ؟ .

وكما رأينا أعلاه لم يكن المسلمون بالضرورة يشعرون بارتباطهم بالسلطان العثماني كواجب ديني كما يرتبطون بالخليفة الشرعي ، بيد أنه كان لديهم احساس بالتضامن الذي يوحدهم مع المسلمين الاتراك مما جعلهم راغبين عن مناهضة الحكم العثماني أكثر من المسيحيين . ومن جهة أخرى فقد ظهرت بعض المظالم التي خفت من عدم الرغبة هذه لديهم . وكانت المظالم على أية حال من نوعين متضادين : ففي حين كان بعض المسلمين يشعرون بأن الحكومة العثمانية لم تقم بالإصلاحات الكافية وهكذا قويت الامبراطورية ، كانت الاكثرية تشكو من أن الإصلاحات قد بلغت حدا أفستت معه التقاليد المقدسة ومنحت امتيازات كثيرة جدا للرعايا غير المسلمين . وقد وجد العرب من أصحاب

هذا الرأي حلفاء من ذات الرأي من الاتراك ولكن هذا لم يحل دائما دون اعلان ولائهم لحكومة استانبول . وفي عام ١٨٥٨ كتب القنصل البريطاني في حلب تقريرا عن حركة بين سكان شمال سورية العرب تتطلع الى الانفصال عن الامبراطورية العثمانية وتشكيل دولة عربية جديدة بزعامة شريف مكة (٢٦) . ورغم افتقار مثل هذا النبأ الى تأكيد بدلائل أخرى فان تطور الوضع الى حالة كالتي وضعها القنصل لم يكن بعيدا عن التصديق . ولم يكن ذلك الموقف بالتأكيد موفقا علمانيا على أية حال ، ولم يكن من المحتمل أن يؤدي الى تلاحم بين الطوائف في الصفوف العربية .

بيد أن الحالة في أواخر السبعينات من ذلك القرن كانت مختلفة ؛ فاذا ماكانت قوة الامبراطورية العثمانية قد بدأت بالانحدار منذ زمن طويل ، فانها لم تبد أكثر اقترابا من الانهيار كما بدت أثناء الحرب الروسية التركية لعام ( ١٨٧٧ - ١٨٧٨ ) ؛ إذ كانت القوات الروسية قد وصلت مشارف استانبول وارزوروم ( Erzurum ) في شرق الاناضول ، وكان يخشى أن تغتنم القوى الاوربية الاخرى فتغتصب بعض أجزاء الامبراطورية ، وعلى الاغلب الاقاليم العربية . ولمواجهة هذا التهديد بادر بعض الوجهاء المسلمين في سورية الى اقامة حركة مهلهلة بزعامة أحمد الصلح أحد أبناء أسرة سنية من صيدا والذي كان قد تسلم منصبا عاليا في الادارة العثمانية . وندين لهذه المعلومات لكتاب الفه عادل الصلح حفيد أحمد الصلح معتمدا في كتابته على ذكريات والده محمود مناح (٢٧) . وكانت الحركة تهدف الى استقلال سورية في حالة وقوع خطر الحاقها بقوة أوربية ، وان لم يقع ذلك الخطر فانها تكتفي بحكم ذاتي ضمن الامبراطورية العثمانية . وقد اقترح عبد القادر الجزائري الذي كان يقيم في دمشق كمنفي محترم جدا ليكون ملكا لهذه الدولة الجديدة .

وكان المساهمون المعروفون في هذه الحركة من وجهاء السنيين والشيعيين اللبنانيين ، ولكن يبدو أن عددا كبيرا من الزعماء المحليين في أجزاء أخرى من بلاد الشام قد انضموا اليهم ، ومن بين هؤلاء بعض الدروز والعلويين . وهكذا فان فشل الامبراطورية العثمانية في حماية رعاياها من السيطرة اللااسلامية قد دفع بالوجهاء التقليديين الى الانصراف عن الامبراطورية ، وبذلك ساهموا في انجاز درجة عالية من التعاون بين الطوائف ، على الاقل بين المجتمعات المنبثقة عن الاسلام . ولم يذكر

المساهمون المسيحيون في هذه الحركة . وعلى أية حال ، فقد تبادل الزعيم الماروني يوسف كرم والذي كان يقيم حينئذ في أوروبا عام ١٨٧٧ الرسائل مع عبد القادر حول مشروع سياسي ربما يناسب خطة الوجهاء (٢٨) .

وعندما انتهت الحرب الروسية التركية دون نتائج حاسمة استطاعت الحكومة العثمانية أن تعزز قوتها وتتخذ اجراءات ضد أعضاء هذه الحركة ، دون أن تعاقبهم عقابا صارما . وهناك دليل على أن أفكار الحركة قد عاشت في « جمعيات المقاصد الخيرية » التي شرع بتأسيسها عام ١٨٧٨ . ورغم أن هذه الجمعيات قد أصبحت في الحال ممثلة للاسلام السنني ، فان « الفكرة العربية » كانت تدفع بعض مؤسسيها ، وكانوا يهدفون بالاصل الى أن ينشئوا جمعياتهم على أساس وطني دون ربطها بطائفة ما وحدها (٢٩) .

وظهرت عام ١٨٨٠ في بيروت وصيدا ملصقات كتبت باليد تدعو العرب الى النهوض ضد الظلم التركي والى الكفاح من أجل الاستقلال الذاتي لسورية ، والاعتراف بالعربية لغة رسمية ، والى حرية الكلام واستخدام الجنود العرب لخدمة أوطانهم فقط (٣٠) . وأكبر الملصقات التي انتشرت على نطاق واسع قصيدة الشاعر المسيحي ابراهيم اليازجي والتي كانت تتوجه كذلك للجمهور المسلم بالتأكيد على أن الاتراك قد مسحوا الشريعة وسرقوا الخلافة من أصحابها العرب الشرعيين .

من هم مؤلفو هذه الاعلانات ؟ لقد بحث القنصل البريطاني الذي وجد الاعلانات هذا السؤال ، كما بحث فيما بعد على يد المؤرخين دون التوصل الى نتيجة مقنعة (٣١) . ومن الاحتمالات أن هذه الاعلانات قد وزعت من قبل « الجمعية الثورية السرية » التي شكلها قبل بضع سنين بعض الشبان المسيحيين . واحتمال آخر أن جمعيات المقاصد كانت مسؤولة عن ذلك . بالاضافة الى وجود شك منذ البداية أن مدحت باشا والي سورية التركي من نوفمبر ( تشرين ثاني ) ١٨٧٨ حتى آب ( اغسطس ) ١٨٨٠ كان متورطا في هذا العمل . اذ كان مدحت الطموح والذي أبعده السلطان عبد الحميد عن مركز القوة في استانبول يخطط للعودة اليها . ولهذا ، قيل انه أراد أن يحرك قلاقل في سورية يمكن ضبطها ليثبت للسلطان وللانجليز الذين كانوا مهتمين في تقوية الامبراطورية العثمانية حينذاك لتكون حصنا في وجه التوسع الروسي (٣٢) أنه لاغنى عنه كمصلح .

ليس من المستحيل أن يكون للوالي التركي يد في موضوع الملصقات هذه ، ولكن هذا لايعني أن الامر لاعلاقة له به بتطور التعكير السياسي

العربي وبتصرفاتهم بسبب ذلك . لا يستطيع مدحت أن يخلق جميع العناصر اللازمة لخطته ، ولكنه كان يستخدم العناصر المتوفرة . وربما يكون مفيدا بالطبع اذا ما استطعنا تحديد الدور الذي كان للجمعية السرية المسيحية ، أو لاعيان المقاصد المسلمين في هذا الامر بدقة . ومع ذلك لو لم نستطع تحقيق ذلك بسبب الافتقار الى الادلة فمن الممكن على الاقل ان نخلص الى نتيجة : ذلك ان الاحداث المثبتة آنذ يمكن فهمها اذا ما اعترفنا بوجود أرضية اشتركت فيها جميع الفئات والجماعات السالفة الذكر ، وغالبا بشكل متقاطع - ألا وهي : حركة الاعيان ، وجمعيات المقاصد ، وتلاميذ مدرسة بطرس البستاني الوطنية السابقين ، والجمعية السرية المسيحية .

لقد أبدى بعض المؤرخين ميلا الى التقليل من أهمية الاحداث التي نبعتها بالنسبة للنهضة القومية العربية . وانتقدوا فكرة أن الجمعية السرية المسيحية البيروتية قد نشرت بذور هذه القومية (٢٣) ، حتى انهم ادعوا أن تورط المسيحيين والمسلمين في الاثارة في عهد مدحت كان حدثا عارضا وليس تخطيطا وطنيا (٢٤) . وبقدر ما صدرت هذه التفسيرات عن علماء قاموا ببحوث جديده ومثمرة في الموضوع فانه لا يمكن استبعادها باستخفاف ، ومع ذلك لا أعتقد أنني أستطيع قبولها .

ويعود الخلاف ، الى حد كبير ، الى اختلاف التعريف . فالقومية لم تهبط من السماء ، ولم تؤسس بقرار في اجتماع . بل انها تنمو ببطء ومن أكثر من جذر . أما عند أية نقطة يمكن أن يسمى الاتجاه النامي قومية ، فذلك مفتوح للبحث . وبالتأكيد لم يكن لدى أي من الحركات المذكورة أعلاه تصورا قوميا واضحا ومفصلا تماما .

ومن جهة أخرى ، ليس كافيا أن نصف هذه الحركات بأنها عارضة ولا تتعلق بالتطورات المستمرة . وعلى ضوء ما قيل في هذه الدراسة يمكن أن يرى أثناء القرن التاسع عشر أن الشعب في الاقاليم العربية من الامبراطورية العثمانية قد لمسوا حاجة متزايدة لمجتمع علماني ، أحيانا بالبحث بفاعلية ونشاط عن السبل التي تلبى هذه الحاجة ، وأحيانا بان يتركوا أنفسهم يندفعون في مثل هذه السبل ومن الصعب أيضا انكار أن كل السبل قد اتجهت في النهاية الى نظام جديد لمجتمع يتجاوز الطوائف الدينية ، سواء كانت قائمة على أساس الوطن أو الامة .

## NOTES

- (1) See my article 'Kalifat, Dar al - Islam und die Loyalität der Araber zum Osmanischen Reich bei hanafitischen Juristen des 19. Jahrhunderts, in *Correspondance d'Orient* no. 11 ( Brussels 1970 ), pp. 443 - 462.
- (2) Edition of 1318/1900 - 1, vol. III, p. 222 f.
- (3) E. g., *Radd* vol. I, p. 564, - 13 : al - khalifa ay al - sultan al - azam; vol. IV, p. 323. - 4 : al - imam bi - mana al - wali. For other examples, see my article, p. 448.
- (4) *Radd* vol. II, p. 58 - 11. - 3.
- (5) *Radd* vol. II, p. 58, - 11, quoting Badi b. Abi Mansur.
- (6) *Radd* vol. II, p. 58, - 15 ff.; Ala al - Din b. Abidin : al - Hadiya al - alaiya li - talamidh al - makatib al - ibtidaiya, new edition by Muhammad Said al - Burhani ( Damascus 1963 ), p. 268.
- (7) Kamal S. Salibi : **The Modern History of Lebanon** ( London 1965 ), p. 10.
- (8) Text in **Awraq lubnaniya** vol. II ( 1956 ), pp. 510 - 513, and in Abd al - Aziz Sulaiman Nawwar : **Wathaiq asasiya min tarikh Lubnan al - hadith, 1517 - 1920** ( Beirut 1974 ), pp. 255 - 259. Cf. Tannus al - Shidyaq : **Kitab akhbar al - ayan fi Jabal Lubnan**, ed. Fuad Afram al - Bustani ( Beirut 1970 ), p. 401; Iliya F. Harik : **Politics and Change in a Traditional Society : Lebanon, 1711 - 1845** ( Princeton 1958 ), pp. 208 ff.
- (9) Text in Asad Rustum : al **Usul al - carabiya li - tarikh Suriya fi Ahd Muhammad Ali Basha** ( Beirut 1930 - 1934 ) vol. V, p. 100, and in Nawwar : op. cit., p. 322 f.
- (10) Text in Asad Mansur : **Tarikh al - Nasira ( Cairo 1924 )**, p. 86 f. See me article 'Ein « Contrat social » in einer palästinischen Stadt 1954, in **Die Welt des Islams** vol. XV ( 1974 ), pp. 233 - 246.



- (11) Joseph Chellod : *Le droit dans la société bédouine* ( Paris 1971 )  
passim. For other references, see my article, p. 237 n. 1.
- (12) **Arabic Thought in the Liberal Age** ( London 1962 ), pp. 96 f. 273 ff.
- (13) A. L. Tibawi : The American missionaries in Beirut and Butrus al -  
Bustani, in *St Antony's Papers* no. 16 ( London 1963 ), pp. 137 - 182.
- (14) Tibawi : op. cit., pp. 161, 164. The foundation date of 1847 and other  
names of the society are mentioned in Purji Zaydan : **Tarikh adab al -  
lugha al - arabiya** vol. IV ( Cairo 1937 ), p. 66; Louis Shaykhu :  
**al - Adab al - arabiya fil - qarn al - tasi ashar** vol. I ( Beirut 1924 ),  
p. 75; George Antonius : **The Arab Awakening** ( London 1938 ), p. 51 f.
- (15) Shaykhu : op. cit., p. 75 f.; Antonius : op. cit., p. 53 f.
- (16) Tibawi : op. cit., p. 168 f.
- (17) The first **rushdiya** school was established in Aleppo; see Abd al -  
Karim Gharayiba : **Suriya fil - qarn al - tasi ashar, 1840 - 1876** ( Cairo  
1961 - 62 ), p. 169. The date of 1278/1861 - 2 is given in Kamil b.  
Husain b. Mustafa Pali al - Ghazzi : **Nahr al - dhahab fi tarikh Halab**  
( Aleppo 1926 ) vol. I. p. 165 f.
- (18) **al - Jinan**, 15 January 1870, advertisement on the cover. News and  
advertisements in Bustani's journal **al - Jinan** are a useful source for  
the activities of the school. See also Tibawi : op. cit., pp. 171 f., 175ff.
- (19) Philippe de Tarrazi : **Tarikh al - sihafa al - arabiya** ( Beirut 1913 -  
1933 ) vol. II, pp. 100, 119.
- (20) Information from Mr. Adil al - Sulh.
- (21) Tarrazi : op. cit., vol. I, pp. 75 ff. , 134; Shaykhu : op. cit., vol : I, p.  
75 f.
- (22) **Nafir Suriya** no. 8.
- (23) Antonius : op. cit., pp. 79 ff. ; Zeine N. Zeine : **The Emergence of Arab  
Nationalism** ( Beirut 1966 ), pp. 59 ff.
- (24) Antonius : op. cit., p. 79.
- (25) Zeine : op. cit., p. 61 f.

- (26) Zeine : op. cit., p. 67 n. 1; A. L. Tibawi : **A Modern History of Syria** ( London 1969 ), p. 159.
- (27) **Sutur min al - risala** ( Beirut 1966 ). See my article ' Eine Bewegung unter den Notabeln Syriens 1877 - 78,' in **Zeitschrift der Deutschen Morgenländischen Gesellschaft**, Supplementa I ( 1969 ), pp. 631 - 649.
- (28) **Siman al Khazin : Yusuf Bek Karam fil - manfa** ( Tarabulus 1950 ), pp. 346 ff.
- (29) Yusuf Ibrahim Yazbak in **Awraq lubnaniya** vol. I ( 1955 ), pp. 54, 186, on the basis of recollections of Salim Ali Salam.
- (30) Facsimiles of the three preserved placards in Zeine : op. cit., pp. 171 ff. ; English translation in Tibawi : **History**, pp. 164 ff.
- (31) A résumé is given by Shimon Shamir : Midhat Pasha and the anti - Turkish agitation in Syria, in **Middle Eastern Studies** vol. 10 ( 1974 ), pp. 115 - 141.
- (32) Shamir : op. cit., p. 129.
- (33) Zeine : op. cit., p. 59.
- (34) Shamir : op. cit., p. 137.

## دور السوريين في ظهور الحركة القومية العربية وتطورها

١٩٠٨ - ١٩١٤ \*

الدكتور تاج السر أحمد مران

( جامعة الخرطوم )

يحاول هذا المقال أن يستقصي العلاقات السورية التركية في الفترة ١٩٠٨ - ١٩١٤ وأن يتتبع - بشكل موجز - دورها في أصل الحركة القومية العربية وتطورها . أدت ثورة تموز عام ١٩٠٨ الى وضع الامبراطورية العثمانية تحت حكم الاتراك الشباب . و في الخامس من تشرين الثاني عام ١٩١٤ دخلت الامبراطورية الحرب العالمية الاولى الى جانب ألمانيا ضد الحلفاء ، وكان دخولها خطوة أدت الى هزيمتها وتحطيمها تحطيما تاما . وخلال هذه الفترة الحيوية دخلت العلاقات التركية السورية مراحل مختلفة من التطور وبدأت في الظهور الحركة القومية العربية التي كان لها أثر بعيد .

كثيرا ما أدى استعمال كلمتي « سورية » و « سوريون » في معان مختلفة الى التشويش والارتباك ، لهذا كان تعريفهما أمرا هاما . تطلق كلمة « سورية » في أوسع مفاهيمها على البلاد الواقعة بين الشواطئ الشرقية للبحر المتوسط والصحارى العربية (١) . وبينما نجدها تمتد من جبال طوسان شمالا الى شبه جزيرة سيناء جنوبا نراها تخلو من حدود ثابتة في الشرق . فحدودها في هذه الجهة هي حدود الحضارة التي تذبذبت حسب سيطرة السكان البدو أو الحضرة . وعلى كل حال تعتبر الصحراء السورية الحد الشرقي بشكل عام . وتكون هذه المنطقة وحدة جغرافية قائمة بذاتها ويشار اليها دوما باسم سورية الجغرافية أو « بلاد الشام » . ويكون سكانها الى حد ما شعبا واحدا (٢) . وبعد الحرب العالمية الاولى أصبحت كلمة « سورية » تدل على الجزء الشمالي من هذه الوحدة الجغرافية . وهذا الاستعمال الذي يستثني فلسطين هو الاستعمال الفرنسي الدائم لكلمة « سورية » . وخلال الحكم العثماني كانت كلمة « سورية » تعني الاسم الرسمي لولاية دمشق التي عرفت قبل ذلك باسم

\* قام بترجمة هذا البحث الى العربية السيدة فلك وحيد دويدري .

ولاية الشام التي كانت تقع على الحدود الشرقية للبلاد ممتدة من أقصى الجنوب شمالا الى خط العرض ٣٥ ، ٢٥ . أما في الوقت الحاضر فكلمة « سورية » تعني الجمهورية العربية السورية الحالية .

أما « السوريون » الذين يشار اليهم في هذا المقال فهم سكان المنطقة التي عرفت بشكل عام باسم سورية الجغرافية . وقد ضمت هذه المنطقة ولايات حلب ودمشق ( أو سورية ) وبيروت ومنتصرفيات القدس ولبنان .

ومع أنه لا توجد احصائيات رسمية عن سكان هذه المنطقة الا أن التقديرات التقريبية تعطينا رقما ينقص عن ثلاثة ملايين بقليل (٢) . ويتوزع السكان على عدد من الفئات الدينية ، اذ ضم المسلمون السنة ومجموعة من الطوائف الشيعية ، بينما توزع المسيحيون على عدد من الكنائس المختلفة ، كما كانت هناك أقلية صغيرة من اليهود . وقد ألف المسلمون السنيون الغالبية العظمى من سكان سورية والى حد ما سيطروا سياسيا خلال الفترة مدار البحث . وقد قاد من أفصح عن نشاطه السياسي منهم الحركة العربية قبل الحرب العالمية الاولى . هذا لايعني أن المسيحيين لم يشاركوا في هذه الحركة بل - على العكس من ذلك - تركوا بصماتهم وبصمات اخوانهم من الاقليات الاجتماعية والدينية على الحركة العربية . لتلك الفترة ، الا أن نشاطهم ودورهم اتمم بانه نشاط ودور مجموعة من الاقلية وكان القوميون المسيحيون نشطين وفعالين في الحركة العربية التي كانت في طور التكون في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، أي في الفترة التي سبقت فترتنا وهي ١٩٠٨ - ١٩١٤ .

من الواضح اذن أن أية دراسة للعلاقات السورية التركية خلال هذه الفترة أو الفترة التي سبقتها يجب أن تهتم بشكل رئيسي بنشاطات وردود فعل مجموعة من الاقلية السورية المتنورة على سياسات مجموعة من النخبة التركية الشابّة . وتستعمل كلمة سوريين « متنورين » هنا لتعني مجموعة صغيرة من المسلمين والمسيحيين المثقفين الذين تلقوا تعليمهم في مدارس الدولة أو في مدارس أجنبية أو تبشيرية في سورية والذين اهتموا بشكل بارز بالامور السياسية للامبراطورية وبمصر بلدهم سورية . ومن الملاحظ ان الذين تزعموا الحركات كانوا ينتسبون الى عائلات بارزة كعائلة العظم والشمعة الدمشقيتين ، أو انحدروا في بعض الحالات من عائلات اقطاعية أو غنية ، وهذا الامر أكثر وضوحا بين

المسلمين منه بين المسيحيين ، كما أن ثقافتهم أكثر تقليدية . وقد قدر لكلا المجموعتين أن تترك آثارا مختلفة على تطور الحركة القومية العربية .

ومن الملاحظ أيضا أن معظم من شارك في الحركة القومية امتهن الصحافة والتحرير أو امتلك صحفا أو عمل في الكتابة أو كان صاحب مهنة علمية(٤) ، وعلى عكس الأثر الك الشباب قلما كانوا ضباطا في الجيش . وقد لعب الطلاب الذين تطلعوا لان يكونوا في المستقبل قادة للحركة القومية العربية دورا فعلا في نشر قضية هؤلاء القوميين . وعلى كل حال كان هناك عاملان جعلتا نشاطات هذه الصفوة من المسلمين والمسيحيين ذات أهمية حاسمة في تاريخ العلاقات السورية التركية وبالتالي في تاريخ القومية العربية . العامل الأول والأهم هو عدم وجود رأي سوري شعبي إذ كانت الجماهير الكبرى في حالة جهل مطبق تركها عاجزة عن أن تهتم بالنشاط السياسي في سورية وفي استانبول وقد أدى جهلها ولا مباليتها السياسية الى إعطاء الصفوة فرصة السيطرة على المسرح السياسي وبناء مواقع للزعامة لانفسها في الحركة القومية العربية النامية التي كانت قد بدأت تتشكل في الفترة ما بين ١٩٠٨ و ١٩١٤ . أما العامل الثاني الذي أعطى نشاطات تلك الصفوة السورية أهمية خاصة في الحركة القومية العربية فهو حقيقة أن جميع أفرادها كانوا يدركون تماما أنهم سوريون وعرب . وكان وعيهم العربي نتيجة حركة عامة لحياء شعور قومي بين عرب سورية اكتسح بيروت ولبنان في النصف الثاني من القرن التاسع عشر والسنوات الأولى من القرن العشرين . ويعطي معظم من كتب في موضوع نشوء الحركة القومية العربية أهمية خاصة لهذه الحركة التي كانت سورية الاصل والمنشأ لها .

اتخذت الحركة لنفسها مظهرا ثقافيا قبل أن نضجت لتصبح سياسة قومية . وفي مرحلتها الثقافية والسياسية شارك المسيحيون السوريون مع اخوانهم المسلمين . حقا لقد ادعى البعض أن الدعوة الى « قومية سورية تتخطى حدود الدين والطائفية وتستطيع تبعا لذلك ضم المسلمين العرب في سورية مع المسيحيين »(٥) كانت بشكل كلي من عمل مجموعة من القوميين المسيحيين العرب في سورية الذين استمروا في نشر قضيتهم خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر . ان ظهور مثل هذه الصورة من القومية كان شديد الارتباط بالحياء الثقافي العربي الذي كان يأخذ مجراه في ذلك الوقت في بيروت . وباستثناء حالات قليلة

كان الرواد الأوائل لهذا الأحياء الأدبي من المسيحيين الذين أظهروا ادراكا واضحا للثقافة العربية التي ادعوا احياءها(٦) . وقد كانوا فخورين بهذه الثقافة الامر الذي انعكس في كتاباتهم .

كان بطرس البستاني ( ١٨١٩ - ١٨٨٣ ) أحد الدعاة الأوائل لهذا الأحياء الأدبي (٧) ، ففي قاموسه « محيط المحيط » ( بيروت ١٨٨٠ ) ، وهو عمل جليل ، أشعار الى استعمال التعبيرات المختلفة للقومية العربية في هذه الفترة . وكان اهتمامه الاساسي هو ايقاظ العقل والقلب العربيين لادراك طريقة أفضل في الحياة ضمن اطار الامبراطورية العثمانية . وهو لم يدع أبدا الى تشكيل دولة عربية بل ساند الدعوة الى « العثمانية » كما بشر بالتسامح وبوجوب تجنب التعصب الديني واتخذ وعيه القومي مظهرا علمانيا اذ دعا في دوريته « الجنان » الى الاخوة بين المسلمين والمسيحيين في سورية .

انعكس الشعور القومي السياسي عند المسيحيين السوريين أيضا على شكل اخر تجلى في تأليف بعض الشبان المسيحيين في بيروت جمعية سرية عام ١٨٧٥ . وقد ذهبت هذه المجموعة - التي ربما كان لها صلات بمدحت باشا والي سورية آنئذ - الى حد بعيد في دعوتها بان علقت اللافتات على جدران بيروت عام ١٨٨٠ - ١٨٨١ مستنكرة الشرور الناجمة عن سوء الحكم التركي وداعية الشعب الى التخلص منه . ومع أن انطونيوس في كتابه « اليقظة العربية » يعطي هذه الجمعية أهمية كبرى الا أنها في الواقع كانت ذات أثر ضئيل(٨) .

حقا ان أمثال هذه الدعوة القومية كانت عديمة الجدوى وذلك بسبب اللامبالاة الاسلامية وانعدام التضامن . الا أن محاولة القوميين المسيحيين لتطوير قومية سورية علمانية تستند الى اللغة العربية والتراث الثقافي العربي الذي شارك فيه جميع العرب ، المسلمون منهم والمسيحيون ، قدر لها أن تكون ذات أهمية كبرى في تطوير مفهوم القومية العربية في مرحلة لاحقة ، اذ سعى القوميون المسيحيون في هذه المرحلة الى كسب تعاون المسلمين . لقد قام البستاني بمثل هذه المحاولة كما سعت اليها الجمعية السرية والشيخ ابراهيم اليازجي في قصيدته الشهيرة التي يدعو فيها العرب لان يتذكروا ماضيهم ويستيقظوا .

وفي هذه الظروف أيضا تبنى بعض القوميين اللبنانيين قومية خاصة

بهم كانت بشكل رئيسي انفصالية في طابعها . لقد حلموا ببلدان مستقل  
ذي حدود موسعة وتحت الحماية الفرنسية وذلك ليحرروا أنفسهم  
من السيطرة المسلمة سواء أكانت تابعة من تركية أو من اخوانهم  
المسلمين(٩) . لقد عاشت هذه القومية اللبنانية الى جانب الحركة  
العربية السورية الصاعدة وأثرت على تطورها الى حد ما .

ان مايمكن أن يجنيه القوميون المسلمون بمقاومتهم سلطانهم  
الخليفة لقليل ، اذ كان رباط الاسلام الذي يربطهم والجمهير المسلحة  
بالعرش العثماني قويا . ومع ذلك تقدم أحدهم وهو عبد الرحمن الكواكبي  
( ١٨٤٩ - ١٩٠٢ ) بنظرية أكثر علمانية وعرقية للقومية العربية .

وبكل وضوح ودون أي غموض نصب الكواكبي نفسه المدافع  
عن العرب ضد الاتراك(١٠) . على عكس الموقف الذي وقفه الشيخ رشيد  
رضا الذي دافع عن الاسلام العربي في مصلحة الاسلام ، ويعمله هذا  
أظهر تحيزا واضحا للعرب . وقد عبر عن آرائه السياسية والدينية  
في كتابيه « طبائع الاستبداد » و « أم القرى » . وباختصار اعتقد بان  
أحياء الاسلام يمكن أن يتم على أيدي العرب الذين يجب أن يُختار الخليفة  
منهم . وعلى مثل هذا الخليفة أن يقيم في مكة كرئيس روعي لاتحاد  
اسلامي ، ولايجوز له في أي حال من الاحوال أن يتمتع بسلطات زمنية(١١) .  
وقد هيأته أفكاره الراديكالية هذه لان يعتبر أول مفكر حقيقي بشر  
بالعروبة العلمانية الشاملة(١٢) .

وعلى كل حال لم يكن الكواكبي هو الذي طالب بامبراطورية عربية  
بل كان الداعي لها مسيحي سوري هو نجيب عازوري الذي أفصح  
عن آرائه السياسية في كتابه « يقظة الامة العربية » المنشور في باريس  
عام ١٩٠٥ . وكانت دعوته هذه أول دعوة علنية لفصل الاراضي العربية  
عن الامبراطورية العثمانية . ومن الجدير بالذكر أن عازوري هذا سحب  
آراءه علنا عندما عاد بعد ثورة عام ١٩٠٨ سعيا وراء انتخابه للبرلمان  
العثماني(١٣) .

وكانت الحركة التي دعت اليها حلقة الشيخ طاهر الجزائري هي  
العامل الاخر الذي لعب دورا في نمو الحركة القومية العربية السورية .  
أقام الشيخ طاهر الجزائري - وهو مهاجر جزائري - في سورية ، وكان  
رجل علم ، عمل الكثير من أجل تسهيل التعليم الخاص هناك ، وجعل

الكثيرين من الدمشقيين الشباب الذين تجمعوا حوله يدركون الماضي الادبي العظيم للعرب (١٤) . وكانت غالبية القوميين الدمشقيين المسلمين الذين ارتبطوا بالحركة السورية العربية في الفترة ١٩٠٨ - ١٩١٤ يرتادون مجلسه وحلقته ، ومن بين هؤلاء شخصيات بارزة مثل رافق العظم ومحمد كرد علي ومحج الدين الخطيب وشكري العسلي وعبد الحميد الزهراوي وغيرهم (١٥) .

ومن هذه الحركة برزت جمعية النهضة العربية التي كرس طاقاتها لدراسة اللغة العربية وآدابها (١٦) . وقد ادعت هذه الجمعية التي أسسها محج الدين الخطيب وغيره بانها قدمت مساهمة ملموسة للنهضة الادبية والقومية للسوريين العرب في الفترة التي سبقت عام ١٩٠٨ .

هذه هي خلفية المقاومة العربية ( التي كانت سورية بشكل رئيسي ) التي واجهها الاتراك الشباب في الفترة بين ١٩٠٨ و ١٩١٤ ، وهي خلفية من القومية السورية التي كانت آخذة في النمو والظهور . ان تأسيس الدستور العثماني في تموز من عام ١٩٠٨ واطلاق حرية القول والانتماء كانت العوامل الرئيسية التي تكمن خلف القوة والحيوية التي تميز بها الجدل العربي التركي . ومن هذا الحوار وبسببه برزت وتطورت وتشكلت حركة قومية عربية ذات حيوية ووضوح .

كان اعلان الدستور مفاجأة للجميع حتى للقادة الاتراك الشباب الذين لم يتوقعوا اذعان السلطان عبد الحميد المفاجيء . وقد انعكست هذه المفاجأة في موقف السلطات المحلية الحاكمة في سورية وغيرها من البلدان ، كما انعكست على الرعية المحكومة . وعلى كل حال لقي الدستور ترحابا في سورية وفي غيرها من الولايات العربية . وجرت انتخابات مجلس النواب ( المبعوثان ) بكل يسر واجتمع المجلس في السابع عشر من كانون الاول عام ١٩٠٨ . وباستثناء بعض الحوادث الصغيرة اتصفت فترة مابعد ١٩٠٨ وما قبل الثورة المضادة في نيسان ١٩٠٩ بحسن العلاقات وطيبها بين العرب والاتراك الشباب .

أما الفترة التالية ١٩٠٩ - ١٩١٢ فكانت أكثر حسما في تاريخ العلاقات بين الاتراك والعرب ، اذ تشير الى بدء النهاية لقرون أربعة من الحكم العثماني للاراضي العربية . فمن عام ١٩٠٩ حتى عام ١٩١١ سيطرت جمعية الاتحاد والترقي ، الجهاز السياسي للاتراك الشباب ،



سيطرة فعالة على الامبراطورية العثمانية . وقد أدت سياساتها القمعية والمركزية التي حاول القادة أن يفرضوها على شعوب رعايا الامبراطورية الى خلق الكثير من عدم الرضاء بين هذه الشعوب مما جعل البعض منهم يفتش عن بديل للحكم العثماني . وقد نبعت الشكاوى العربية ضد حكم الاتراك الشباب من متابعتهم لمثل هذه السياسات ، كما أدى فشل القادة العرب ، ومعظمهم من السوريين ، في ازالة هذه المظالم الى قيام حركة للاصلاح العام في الولايات العربية ، وهو اجراء أدى في نهاية المطاف الى حركة أوسع تطالب بنوع من الحكم اللامركزي . وفي كلا الحركتين لعب القوميون العرب في سورية دورا قياديا فريدا . وقد أدى رفض هذه الحركة ، السورية في كليتها ، الى ظهور اتجاهات انفصالية بين بعض هؤلاء القادة السوريين عشية الحرب العالمية الاولى والى فقدان الولايات العربية في آخر الامر .

بعد سحق ثورة نيسان المضادة وتنحية السلطان عبد الحميد عن العرش زادت جمعية الاتحاد والترقي من مسؤوليتها المباشرة في حكم الامبراطورية كما أخذت تثبت دعائم سلطتها(١٧) . ففي خريف ١٩٠٩ سيطر أعضاؤها على الجيش والوزارة والسلطان ومجلس النواب والصحافة . وكان هدفهم الرئيسي هو منع أي تفسخ آخر في حدود الامبراطورية بكل الوسائل الممكنة ، ولهذا لجأوا الى سياسة المركزية وأخذوا يؤكدون بعنف رابطة « العثمانية » على أنها رباط وحدة بين المجموعات العرقية المختلفة في الامبراطورية ، وبناء على ذلك أعلنوا « الحقوق المتساوية لجميع طبقات الرعايا العثمانيين و اخوة جميع القوميات تحت لواء العلم العثماني »(١٨) . وكانت هذه محاولة من جمعية الاتحاد والترقي لوقف انتشار القومية التي كانت واضحة المعالم بين رعاياها .

ومع أن القادة العرب والمجموعات القومية الاخرى رحبوا بمبدأ « العثمانية » الا أن تطبيقه كان مثار قلق كبير . ولما كان المبدأ مصطنعا لذا لم يستجب له ولاء الشعوب الذي ظل يتبلور حول العائلة والعشيرة والدين والقوميات النامية . وقد رأى القادب العرب ، السوريون منهم أكثر من غيرهم ، هذا التناقض فكانوا لذلك في شك من اخلاص الاتراك الشباب لمبدأهم . ومن ناحية أخرى استمر الاتراك الشباب في الدفاع عن ايمانهم بمفهوم « العثمانية » وفي اتهام أولئك الذين شكوا في كفايتها

بان لهم دوافع غير وطنية أو ميولا انفصالية . وهكذا تطور جو من الشك والغضب بين القادة العرب ( ومعظمهم من السوريين ) والاتراك الشباب خلال الفترة مابين عام ١٩٠٨ و عام ١٩١٤ . وكان كل جانب يشك في نيات الجانب الاخر خلال هذه الفترة ، اذ اعتقدت جمعية الاتحاد والترقي بان القادة العرب ذوو ميول انفصالية بينما شك القادة العرب في السياسات القومية للجمعية .

وقد ولد هذا الشك مادعته الصحافة السورية « بسوء التفاهم بين العرب وبعض المتطرفين في الجمعية » (١٩) . واعترف رفيق العظم بهذه الحقيقة في مقال نشره في جريدة « الاهرام » ، ودعا العرب والاتراك بان يتنبهوا لتفسيخ الامبراطورية العثمانية ويحتاطوا ضده بأن لا يلجأوا الى مبدأ القومية (٢٠) ، ولم تراوده ، شأنه في ذلك شأن القادة العرب الاخرين ، أية فكرة انفصال عن تلك الامبراطورية ، بل كان التأكيد دوما على الاصلاح ذي الطبيعة العامة والمحدودة : مثل تحسين الزراعة وتعبيد الطرق واصلاح بعض النواحي في نظام الضرائب وتشجيع اللغة العربية (٢١) . وعندما شكل رشيد ونخلة مطران بالتعاون مع بعض مواطنهم السوريين في باريس « الجمعية السورية » في تلك المدينة وأصدروا تصريحاً طالبوا فيه بالاستقلال الاداري في سورية سارع القادة السوريون ، المسلمون منهم والمسيحيون ، الى شجب هذه الدعوة على انها انفصالية تهدف الى تدمير الامبراطورية . وقد استقبل الاقتراح بصيحات الاستنكار والذم في جميع سورية (٢٢) .

استاء القوميون العرب في سورية الذين تبنا القضية العربية من الطريقة التي حاول بها الاتراك الشباب أن يطبقوا مبدأ « العثمانية » . وعلى سبيل المثال ، عندما حاولت حكومة الاتحاديين أن تجعل التركية - التي نص الدستور على أنها اللغة الرسمية الوحيدة في الدولة - وسيلة التعليم في جميع مدارس الدولة عارضت الصحافة العربية في سورية وفي غيرها هذه المحاولة المدبرة « لتتريك » العرب (٢٢) . وبدأ يتضح بالتدريج بان القومية التركية كانت تتصادم مع القومية العربية النامية ، ونتيجة لذلك استمر الاتراك والعرب في التباعدين بعضهما .

ولربما كانت الطريقة التي قاوم بها القادة العرب السياسة اللغوية للاتراك الشباب أوضح دليل على الحركة القومية العربية النامية . ولكي يخلقوا أمة عثمانية موحدة قرر الاتراك الشباب أن يكون لهم

نظام تعليمي موحد بان يجعلوا التركية لغة اجبارية في المدارس ووسيلة جميع المراسلات الرسمية . لقد أملوا بمثل هذه السياسة أن يخلقوا من رعاياهم غير المتجانسين « أمة ذات لغة واحدة » (٢٤) . الا أن العرب - الذين أظهروا دوما ارتباطا عاطفيا بلغتهم وبعجلوها لدرجة التقديس - هبوا للدفاع عنها . وكانت المشكلة اللغوية في الفترة ١٩٠٩ - ١٩١٢ النقطة التي ركزوا عليها في مقاومتهم لحكم الاتراك الشباب ، اذ رأى رشيد رضا وزملاؤه من القوميين العرب في سورية في هذه السياسة محاولة لقتل اللغة العربية « وتترك العرب » (٢٥) . وكان موقفه هذا نموذجا لكثير من القادة السوريين الذين كانوا على العموم متصلبين حول هذه القضية .

وعلى كل حال كان النزاع أكثر من مجرد خلاف حول اللغة ، كان كما ذكرنا اعلاه نزاعا بين قوميتين احدهما عربية والاخرى تركية . لقد أخطأ الاتحاديون عندما قللوا من شأن مدى الشعور القومي وعمقه في نفوس العرب وخاصة في سورية . وانعكس هذا الوعي في الصحافة العربية آنئذ . اذ أعلنت صحيفة « الحقيقة » البيروتية ( وهي دورية تصدر كل اسبوعين ) في مقالها الافتتاحي بان كبت لغة أمة هو بمثابة قتل لهذه الأمة (٢٦) . كما ان جريدة الاهرام حذرت الدولة من مغبة « الاساءة الى الشعور القومي » (٢٧) . ولا حاجة للقول بان أعلى الاصوات كانت تلك التي صدرت عن الكتاب السوريين والصحف السورية داعية الى مقاومة هذه السياسة اللغوية للاتراك الشباب ، وبذا تركزت القضية كلها حولهم في استانبول وسورية والقاهرة .

والى جانب مظلمة اللغة كانت هناك تدمرات متفرقة بان بعض الموظفين الاتراك الذين أرسلوا الى الولايات العربية كانوا غير قادرين على تكلم اللغة العربية (٢٨) . ان طلب موظفين ملمين بالعربية كان بمثابة طلب موظفين عرب نظرا لقلّة من ألم بالعربية من الاتراك . وكانت هذه محاولة أخرى من جانب العرب لمقاومة السياسات المركزية للاتراك الشباب ولبدء عودة الى الاجراءات اللامركزية التي ميزت الايام التي سبقت مجيء السلطان عبد الحميد الى السلطة .

وفي أثناء ذلك كان هناك شعور عام من الاستياء من العهد الدستوري الذي وعد بالكثير من الاصلاح ولم ينجز الا القليل منه . ومع أنه بقدوم الدستور الفت لجان عديدة في بيروت ودمشق وحلب وغيرها

من المدن السورية لبحث قضايا هامة من الإصلاح مثل التعليم والطرق والضرائب والامن العام الا أن تطبيق قرارات هذه اللجان اعاقته قلقة الاموال ، اذ كانت الحرب والصعوبات المالية قد أنهكت الدولة حتى باتت عاجزة عن أي اصلاح جدي . وهكذا كانت خيبة الامل كبيرة ونتائجها أكبر .

أما بشأن قضية أخرى هي الهجرة اليهودية الى فلسطين فلم يكن هناك من سبب يدعو الى تدمير القوميين العرب في سورية من الاثراك الشباب خلال الفترة ١٩٠٨ - ١٩١٤ . لقد أدرك القادة السوريون عامّة والفلسطينيون خاصة ادراكا تاما مخاطر الصهيونية على بلادهم ، وانعكس هذا في معلومات دقيقة رائعة عن طبيعة الصهيونية ومطامحها في فلسطين في المقالات العديدة التي ظهرت في الصحافة السورية آنئذ (٢٩) . وخلال عام ١٩١١ وعندما كانت حكومة الاتحاديين تواجه معارضة قوية لسياساتها في مجلس النواب أثار المندوبون السوريون المسألة الصهيونية عدة مرات ، وبحث مطولا في مناسبتين ، وكان المتكلمان الرئيسيان حول الموضوع هما شكري العسلي وروحي الخالدي ، اللذان اندرا الحكومة بان هدف الصهيونية الحقيقي في فلسطين هو انشاء دولة يهودية هناك ، وجلبا الادلة التي وزعاها على المندوبين لتأييد أقوالهما . وعلى كل حال أكد خليل بك ، وزير الداخلية آنئذ ، للمجلس بأن الحكومة تدرك هذا الخطر وستحتاط ضد تركيز المهاجرين اليهود في مكان واحد (٣٠) .

وواقع الامر هو أن الاثراك الشباب ساندوا القيود التي كان السلطان عبد الحميد قد فرضها على المهاجرين اليهود الى فلسطين ، وشكوا في الحركة الصهيونية كما شكوا في جميع الحركات القومية والانفصالية في الامبراطورية (٣١) . وعلى كل حال لم يتوقف العرب السوريون والفلسطينيون عن تذكير الدولة بمخاطر الهجرة اليهودية وتعاونوا في النضال ضد التهديد الصهيوني (٣٢) .

وفي هذه الاثناء استمرت المقاومة ضد الاتحاديين خلال الفترة ما بين عام ١٩١١ وعام ١٩١٢ بالنسبة لنواح أخرى في سياستهم . وكانت لهجة الصحافة العربية - التي استمرت في نقدها لسياسات الاثراك الشباب ضد العرب - معتدلة ولاانفصالية ، اذ لم يكن في المصلحة السياسية للعرب الانفصال عن الامبراطورية . وكانوا دوما يعملون جاهدين لان

يشتتوا للاتراك الشباب حسن مقاصدهم واخلاصهم للدولة العثمانية .  
ولما كانوا مدركين لتفوقهم العددي في الامبراطورية لذا ضغطوا باستمرار  
على الاتراك الشباب لان يطبقوا مبدأ التساوي الذي أعطاهم اياه الدستور .  
ونظرا لان تحقيق مثل هذا المطلب يعني اعطاء العرب وزنا كبيرا في ادارة  
الامبراطورية لذا رفض الاتراك الشباب قبوله .

من هذا يتبين أن الدافع للهيجان العربي كان اصلاح بعض المظالم  
الناجمة عن السياسات المركزية لحكم الاتراك الشباب ومن أجل ادخال  
الاصلاح العام في الولايات العربية . ولم يفكر القادة العرب بمطالب أكثر  
تطرفا وتحديدا - مثل الادارة اللامركزية للولايات العربية - الا عندما  
رفض الاتراك الشباب النظر بشكل جدي في مطالبهم . وهذه الدعوة  
الى اللامركزية هي الصفة الرئيسية للحركة العربية السورية في مرحلتها  
الثانية بعد عام ١٩١١ .

وهكذا كانت الحركة اللامركزية - وهي سورية بكاملها - تشكل  
أوج الهيجان لتأكيد حقوق العرب في الامبراطورية العثمانية . وبالإضافة  
الى ذلك كانت هناك محاولة أخرى دستورية قام بها القوميون العرب في سورية  
لمعارضة السياسات المركزية المناوئة للعرب التي تبناها الاتراك الشباب .  
وباستثناء استجابة تعاطفية للحركة في البصرة - والفضل فيها يعود الى  
مجهودات السيد طالب النقيب - ظلت الحركة سورية محضة .  
وبالإضافة الى ذلك اعتبرت مظهرا وبرهانا على المد القومي الصاعد بين  
الصفوة السورية . ولأول مرة في تاريخ سورية عمل المسلمون  
والمسيحيون جنبا الى جنب لهدف مشترك هو ادارة لامركزية لولاياتهم .  
وقد أدى شك الاتراك الشباب بالحركة ثم فشلها الى توسيع الشقة  
الاخذة في الاتساع بين السوريين وحكومتهم العثمانية . وعندما قمع  
الاتراك الحركة خاب فال السوريون ونتيجة لذلك بدأ بعضهم يفتش عن  
بدائل للحكم التركي .

تتبع جذور الحركة من أفكار الامير صباح الدين وهو أحد العثمانيين  
الليبراليين المنفيين في باريس الذي كان أول من نشر فكرة دولة عثمانية  
فيدرالية . وبالإضافة الى ذلك استمرت الاحزاب المعارضة - مثل  
عصبة الامير صباح الدين والاحرار من بعدها والاتحاد الليبرالي - في  
الدفاع عن الادارة اللامركزية كبديل للسياسات المركزية للاتحاديين .

وبعملهم هذا زودوا السوريين اللامركزيين بتقاليد يمكن الاستناد اليها وبمعادلة للتعبير عن عدم رضاهم عن الحكومة التي - حسب رأيهم - ظلت تتجاهل باستمرار الحقوق السياسية المشروعة للعرب فسي الامبراطورية . وهكذا يمكن اعتبار الحركة اللامركزية العربية - التي ظلت تتصاعد حتى وصلت القمة تحت تأثير الوضع السياسي في الامبراطورية خلال الفترة ١٩١١ - ١٩١٢ حركة مناوئة للاتحاديين بشكل رئيسي . كانت كلمة « اصلاح » تتردد كثيرا خلال النصف الثاني من عام ١٩١١ وجميع عام ١٩١٢ . والاصلاح الذي نادى به المجموعات العرقية في الامبراطورية العثمانية كان مجرد الادارة على اساس لامركزي . وقد صرح القادة السوريون العرب بانه لاسبيل لبقاء الامبراطورية على قيد الحياة الا بمثل هذا الاصلاح ، وببقائها حية يكمن المستقبل الباهر للعرب والترك على حد سواء(٢٢) . أضف الى ذلك أن بعض الاحداث - مثل هزيمة الامبراطورية أمام ايطاليا عام ١٩١١ وضياع ولاية طرابلس العربية ووقع الحرب البلقانية ( ١٩١٢ - ١٩١٣ ) والاشاعات حول الخطط الاوربية لتقسيم الامبراطورية - أعطت السوريين الداعين للاصلاح الدافع والحجة لبدء حركتهم لضمان استمرار الامبراطورية(٢٤) .

وفي القاهرة شكلت مجموعة من السوريين البارزين القاطنين في القاهرة حزب اللامركزية العثماني في وقت متأخر من عام ١٩١٢ وفي ذهنهم مثل هذه العوامل ، وحثوا مواطنيهم في بيروت أن يحذوا حذوهم . وكان هدفهم المصرح به هو تقوية الامبراطورية ضد الاخطار الداخلية والخارجية وذلك باللجوء الى شكل لامركزي من الحكم(٢٥) . ومع أنهم نشروا برامجهم وأعلنوا سعيهم لمتابعتها بوسائل دستورية مفتوحة الا أن الاتحاديين نظروا اليهم بعين الشك والريبة ، اذ اتهمهم كمال باشا الحاكم العسكري لسورية خلال الحرب العالمية الاولى في « ازاحات » ( Izahat ) بأن لهم أهدافاً سرية وانفصالية ، كما أن حكومة الاتحاديين رفضت أن تعترف بحزبهم . ورغم أن مؤسسي الحزب سمو حزبهم « حزبا عثمانيا » الا انهم في الحقيقة بقوا حزبا عربيا صرفا ، ولم ينضم اليه سوى العرب ولم تؤسس فروع له في غير البلاد العربية . ومن هنا تنبع أهمية هذا الحزب في تاريخ الحركة القومية العربية .

وبعد ذلك بقليل - ربما بتشجيع من السوريين اللامركزيين في القاهرة - تأسست « جمعية بيروت للاصلاح » . وقد تألفت من ٨٦

عضوا انتخبتهم المجالس « الملية » ( Millet Councils ) التي مثلت جميع الملل الدينية في تلك المدينة (٢٦) . شغل المصلحون البيروتيون أنفسهم بالدرجة الاولى بابتداع شكل من الادارة اللامركزية لولاية بيروت وحدها . وكانت دعوتهم اقليمية على عكس مادعت اليه مجموعة القاهرة . عقدوا أول اجتماع لهم في الثاني عشر من كانون الثاني عام ١٩١٣ وانتخبوا لجنة تنفيذية من ٢٤ عضوا اجتمعت عدة مرات لبحث جميع قضايا الاصلاح .

أما مشروعهم للاصلاح المكون من ١٥ مادة فمجرد صدى لاقتراحات كانت قد ظهرت ضمن برنامج حزب اللامركزية القاهري أو لجنة الاصلاح الرسمية التي كونها والي بيروت لبحث اصلاح ولايته . نصت المادة الاولى من مشروعهم على أن القضايا الخارجية لولاية بيروت والجيش والجمارك والاتصالات البريدية والسلكية والتشريع والضرائب يجب أن تكون في يد الدولة المركزية بينما توضع القضايا الداخلية تحت اشراف مجلس عام للولاية ذي سلطات واسعة . ونصت المادة ١٤ أن اللغة العربية هي اللغة الرسمية للولاية على أن تكون اللغة التركية اللغة الرسمية للبرلمان . ولربما كانت أبرز ناحية في المشروع جعلته يرقى الى الخيانة في أعين الاتحاديين الحاكمين هي انه نص على ضم مرشدين مراقبين أجنب الى دوائر الولاية المختلفة ذوي سلطات واسعة (٢٧) .

كانت الاستجابة في سورية معدومة أو قليلة جدا لحركة الاصلاح البيروتية التي اقتضت على تلك المدينة . لذا لم تجد السلطات التركية صعوبة في وضع حد لها ، اذ أصدرت أمرا أعلنت فيه جمعية الاصلاح البيروتية غير شرعية وأغلقت ناديها . وفي التاسع من نيسان عام ١٩١٣ اقتضت صفحات جميع صحف بيروت باستثناء صحيفتين على صورة عن الامر مجللة بالسواد (٢٨) . واحتجت الجمعية كما احتج اللامركزيون في القاهرة ولكن دون جدوى . وكانت وجهة نظر الحكومة هي أن القانون الذي نشر مؤخرا للولايات قد أعطاهم اجراءات واسعة من الادارة اللامركزية كافية للامبراطورية في الوقت الراهن . وهكذا رفض اللامركزيون السوريون القانون الجديد على أنه خطوة ثانية قام بها الاتحاديون لمزيد من المركزية (٢٩) .

أدى موقف الحكومة الى الشعور بالمرارة لدى المصلحين السوريين والى تصلب في مقاومتهم للحكم وفي موقفهم مما اعتبروه حقا لهم وإبرازا

لهويتهم ضمن الامبراطورية . وبدأ بعضهم يصرح بشكل واضح بآراء  
تعبر عن قومية عربية جلية المعالم . ومثال ذلك أن الدكتور عزة الجندي  
وهو لامركزي سوري بارز كتب احتجاجاً على اغلاق نادي الاصلاح وحذر  
أن على الاتراك أن يدركوا أن وحدة المسلمين والمسيحيين العرب هي  
حقيقة واقعة واطاف : « يربطنا اليوم رباط عربي لاننا عرب قبل أن  
نكون عثمانيين أو حتى مسلمين أو مسيحيين . اننا عرب حول كل  
القضايا : فالمسلم عربي قبل أن يكون مسلماً وكذلك الحال بالنسبة  
للمسيحي واليهودي ولجميع سكان سورية والبلاد العربية » (٤٠) .  
وتكررت الاشارات الاخرى الى الامة السورية أو الشعب السوري أو  
الامة العربية في الصحافة العربية والخطب التي ألقاها المصلحون (٤١) .  
وفي هذا الجو من التوتر المتزايد بين حكومة الاتحاديين من جهة والقادة  
السوريين والحركة العربية السريعة التطور من جهة ثانية عقد المؤتمر  
العربي السوري في باريس عام ١٩١٣ .

كان المؤتمر ( الذي أطلق عليه في أغلب الاحيان اسم المؤتمر العربي )  
آخر محاولة قام بها المصلحون السوريون للحصول على الحكم اللامركزي  
الذي هدفوا اليه . وكان فشله - ونتيجة لذلك خيبة أمل المصلحين في  
حكومتهم - عاملاً هاماً في ظهور ميول انفصالية في حركتهم القومية .

وبتشدد السلطات في بيروت انتقل مركز القلاقل من أجل الاصلاح  
الى باريس . وتبلورت أفكار المؤتمر في أذهان خمسة من السوريين  
المسلمين الذين كانوا يدرسون في باريس والذين ربما انضموا الى الجمعية  
العربية السرية المسماة « الفتاة » (٤٢) . وكان هدفهم المعلن عنه هو ضمان  
ادارة لامركزية للولايات العربية وبشكل خاص لسورية وذلك لابعاد  
المخططات الغربية ( الفرنسية منها بشكل خاص ) التي اعتقدوا أنها  
تهدد سورية . وأملاً كذلك بأن سورية ستترقى حضارياً باقامة حلقة اتصال  
لها بالحضارة والعلوم الغربية ونتيجة لذلك ستصبح الامة العربية قوية  
وسيعود ذلك بالقوة على الدولة العثمانية ككل (٤٣) .

ولكي يرسخ أعضاء المؤتمر قضيتهم في الاراضي العربية ويعطوها  
القوة قررت اللجنة التحضيرية للمؤتمر أن تنسب نفسها الى الحزب  
اللامركزي القاهري الذي صرح بأهداف مماثلة . ثم انتقلت اللجنة الى  
وضع خطة مسبقة لجدول أعمال واجراءات وقرارات المؤتمر . مثال ذلك



القول بان على المؤتمر أن يصل الى قرارات ايجابية ومواتية بخصوص الاعتراف بالحياة القومية للعرب ومعارضة الاحتلال الاجنبي لاراضيهم وادخال الاصلاحات على أساس اللامركزية الادارية في الولايات العربية .

تحول المؤتمر الذي قصد منه أن يكون عربيا الى تجمع سوري . وباستثناء عراقيين مقيمين في باريس كان أعضاؤه الاربعة والعشرون من السوريين الذين يمثلون المصلحين في سورية واستانبول والمهاجرين السوريين في باريس والامريكيتين(٤٤) . وكان تمثيل الولايات السورية في المؤتمر ضعيفا اذ لم تمثل فيه دمشق أو القدس أو حلب . لذا كانت معارضة الاتحاديين له على أنه غير ممثل للعرب وانه عقد في باريس معارضة صحيحة ، ولهذا حاولوا التقليل من أهميته .

وفي مشاورات الجلسات الاربع للمؤتمر الذي دام ستة أيام جرى التأكيد على الاصلاحات المستندة الى اللامركزية وهي الحقوق السياسية للعرب في الامبراطورية والمقاومة العربية لاي تدخل اجنبي في اراضيهم ورجبتهم في وحدة اراضي الامبراطورية شريطة أن تلبى طلباتهم المتمثلة في شكل لامركزي من الحكم . ولم يكن هناك أي ذكر للانفصال عن الامبراطورية ، ومع ذلك أظهرت الخطب التي ألقاها المشاركون في المؤتمر من العرب الشباب والنقاش الذي تبع ذلك الى أي مدى تطورت فكرة القومية العربية . لقد بدا واضحا أن العرب الشباب الذين كانوا يدرسون في الخارج والذين كانوا على صلة بالمبادئ الغربية صاغوا آراءهم في القومية حسب مفاهيم سياسية غربية حديثة . وعلى سبيل المثال رددت خطبة عبد الغني العريسي الشاب السوري الذي كان يدرس الحقوق في باريس صدى نظريات في العرق والقومية كانت شائعة في أوربا(٤٥) . ومما لا شك فيه أن مثل هذه المفاهيم التي عبر عنها أمثال هؤلاء السوريين في مناقشات المؤتمر كانت تمهد الطريق منذ عام ١٩١٣ لظهور مبدأ العروبة كما نراها اليوم .

وأخيرا اتخذ المؤتمر احد عشر قرارا وثلاثة ملاحق(٤٦) . وقد أكدت هذه القرارات مبادئ الحركة اللامركزية ونصت على أن تكون العربية اللغة الرسمية في الولايات العربية وان تقبل في البرلمان العثماني وأن تكون لغة التعليم في الاراضي العربية ، كما أكد على اقتراح استخدام المستشارين الاجانب وتوسيع سلطات المجالس المركزية للولايات . وتم

الاتفاق أن تكون جميع هذه القرارات « البرنامج السياسي لجميع  
العثمانيين العرب » .

كانت النتيجة المباشرة والانية للمؤتمر هي شهر عسل قصيرين حكومة  
الاتحاديين واللامركزيين السوريين ، وذلك لان الحكومة بعد أن فشلت  
في منع اجتماع المؤتمر قررت أن تتفاوض على تسوية مع المصلحين  
السوريين (٤٧) . وأعطت الصحافة العربية روايات متضاربة عن الاتفاقية ،  
الا انها اتفقت جميعا في تقرير لب الاتفاقية وهو الاعتراف بالحقوق  
السياسية للعرب في الدولة العثمانية والحاجة الى الاصلاحات في  
ولاياتهم على أساس اللامركزية الادارية . اغتبط المصلحون وسادت  
موجة من التفاؤل والسرور بيروت والقاهرة واستانبول . وكان هذا  
أوج شهر العسل السوري التركي ، لان المصلحين السوريين سرعان  
ماشلتهم الاختلافات الداخلية وأدركوا أن الحكومة غير راغبة في منحهم  
جميع الاصلاحات المنشودة . وقد ساهمت هذه الاوضاع في خلق جو من  
اليأس والمرارة كان الصفة المميزة للعلاقات السورية العربية مع الحكومة  
في الفترة التي سبقت اندلاع الحرب العالمية الاولى . ومما لاشك فيه ان  
اعتقال عزيز علي المصري في شباط عام ١٩١٤ (٤٨) أضاف الى خيبة أمل  
القادة العرب بالحكم الاتحادي ، كما أقنع المتطرفين بينهم أن البديل  
الوحيد هو الانفصال عن الامبراطورية . وكانت لامبالاة القادة السوريين  
بالنسبة لانتخابات نيسان ١٩١٤ مؤشرا لحالة الاكتئاب وخبية الامل  
السائدة . وفي هذه الخلفية تطورت العلاقات بين القادة العرب وحكومة  
الاتراك الشباب خلال سنوات الحرب .

وأخيرا أشعر بالرغبة في أن انهي مقالي هذا بوجهة نظر شخصية  
الا وهي انني اعتقد جازما بان أية دراسة للحركة القومية العربية في  
الفترة ما بين ١٩٠٨ و ١٩١٤ لابد وأن تكون دراسة للحركة العربية  
السورية . فالحركة العربية السورية ليست مجرد ممثل للحركة  
العربية الكاملة لفترة مابعد الحرب بل هي مرادف لها . لقد كون  
السوريون - بفضل تعليمهم الافضل الذي ساهم كثيرا في وعيهم القومي  
السياسي - الحركة القومية في الفترة ١٩٠٨ - ١٩١٤ وسيطروا عليها .  
هذا لايعني ان عربا اخرين لم يكونوا نشطين في تلك الحركة . لقد شاركوا  
بكل تأكيد الا ان مشاركتهم كانت عرضية ومتممة لمجهودات القوميين  
العرب في سورية . فالحجاز مثلا كان متخلفا ومشغولا بنزاعاته القبلية

المستمرة مما لم يمكنه من الاهتمام بالحركة العربية . لقد حكم الشريف حسين مكة كتابع مخلص للاتراك الشباب حتى مساء ثورته عام ١٩١٦ . أما ابن سعود وابن رشيد الشخصيتان الاخريان في الجزيرة العربية فكانا منهمكين في القضاء على بعضهما . واما اليمن فكان موطن القلق والثورات طيلة معظم هذه الفترة . وظل العراق بعيدا عن تيار الحركة العربية . ووقعت مصر تحت الاحتلال البريطاني وكانت هي الاخرى في صدد تطوير قوميتها المصرية الخاصة بها . أما الولايات العربية التي كونت جزءا من الامبراطورية العثمانية في شمالي افريقيا فاما انها وقعت تحت نير الاحتلال الاجنبي او كانت في طريقها الى ذلك . لذا يمكن القول ان كلمة « عربي » كما استعملت في الصحافة العربية آنذاك أشارت الى السوريين أكثر مما أشارت الى أية فئة أخرى من الناس (٤٩) .

## الحواشي

- (١) دليل سورية ( بما فيها فلسطين ) اعداد القسم الجغرافي السياسي لشعبة المخابرات البحرية ، الادميرالية لندن ص ٩ .  
A Handbook of Syria ( including Palestine )
- (٢) أ.هـ. حسني ، « سورية ولبنان ، مقال سياسي » ، لندن ، ١٩٤٥ ص ٤ .  
A. H. Housoni, Syria and Lebanon, a Poetical Essay; London, 1945.
- (٣) اللجنة العليا لحزب اللامركزية ، المؤتمر العربي الاول ، القاهرة عام ١٩١٣ ، ص ٨٦ - ٨٧ . وأيضا « المقطم » رقم ٥٨٨٠ تاريخ ١٩٠٨/٧/٣١ ، قارن هذا الرقم بالارقام التي وردت في مقال ي. دون E. Dawn وعنوانه «نشأة العروبة في سورية» في مجلة الشرق الاوسط ، مجلد ١٦ عام ١٩٦٢ ، ص ١٤٩ .
- (٤) أشهر هذه الصحف « الاهرام » و « المقطم » و « النار » و « الاقدام » ( وجميعها كانت تصدر في القاهرة والاسكندرية ) و « لسان الحال » و « المفيد » و « الاتحاد العثماني » و « الاصلاح » ( وكلها كانت تصدر في بيروت ) و « المقتبس » و « القبس » ( الدمشقية ) و « فلسطين » ( يافا ) و « الكرمل » ( حيفا ) و « الحضارة » و « كلمة الحق » ( استانبول ) وغيرها من الصحف في حلب الخ .
- (٥) ك. صليبي ، « تاريخ لبنان الحديث » ، لندن ١٩٦٥ ، ص ١٢٧ - ١٤٨ .  
K. Salibi, The Modern History of Lebanon, London, 1965.
- (٦) أ. حوراني ، « الفكر العربي في العصر الليبرالي ١٧٩٨ - ١٩٣٩ » ، اكسفورد ١٩٦٢ .  
A. Hourani, Arabic Thought in the Liberal Age 1798 - 1939, Oxford, 1962.
- (٧) س. ليفن ، « أربعة قوميين مسيحيين عرب » ، العالم الاسلامي ، نيسان ١٩٦٧ .  
S. Leven, « Four Christian Arab Nationalists », in Muslim World, April, 1967.
- (٨) ز. ن. زين ، « ظهور القومية العربية » ، بيروت ١٩٦٦ ، ص ٥٩ - ٦٣ .  
Z. N. Zein, The Emergence of Arab Nationalism, Beirut, 1966.
- (٩) من أجل تقرير موجز عن القومية اللبنانية في هذه الفترة انظر الفصل السابع من كتاب صليبي « تاريخ لبنان » ص ١٢٠ وكتاب حوراني « الفكر العربي » ص ٢٧٥ - ٢٧٦ .

(١٠) س. ج . حايم « القومية العربية ، مجموعة مختارة » ، مطبعة جامعة كاليفورنيا ،  
١٩٦٢ .

( S. G. Haim, Arab Nationalism - An Anthology, California U. Press,  
1962)

ومن أجل تفاصيل عن حياته وأفكاره انظر مقال حايم « العربي والكواكبي » في مجلة  
الشرق الحديث ( Orients Moderno ) مجلد ٣٤ ، رقم ٧ ، ١٩٥٤ .

(١١) س. حايم ، « القومية العربية » الانف الذكر ص ٢٦ - ٢٧ .

(١٢) نفس المرجع .

(١٣) من أجل أفكاره انظر كتاب الحوراني « الفكر العربي » ص ٢٧٧ - ٢٧٩ ، وكتاب  
حايم الانف الذكر ص ٢٩ - ٣٠ .

(١٤) الامير مصطفى الشهابي ، « القومية العربية » ، القاهرة ١٩٦١ ، ص ٤٩ - ٥٢ .

(١٥) محب الدين الخطيب ، « صراط الجيل » ( غير منشور ) ص ٧ - ٨ .

(١٦) غالبا ما أهمل الكتاب نشاطات هذه الجمعية . من أجل نشاطاتها انظر كتاب محب  
الدين الخطيب « الدكتور صلاح الدين القاسمي » ١٣٠٥ - ١٣٣٤ الخ ، القاهرة ،  
١٩٥٩ ، ص ٣ - ٦ ، انظر أيضا « صراط الجيل » ص ٩ - ١٨ .

(١٧) الخارجية البريطانية ( F. O. ) ٧٧٢/٣٧١ رقم ٢٨٧ ، من لوثر الى غراي

( Lowther to Grey ) ، بيرز ( Pera ) تاريخ ١٩٧٩/٤/٢٠ ، انظر أيضا

« تقويم وكاي » ( Takvimi Vekayi ) رقم ٢٠٠ تاريخ ١٩٠٩/٥/٥ .

(١٨) الخارجية البريطانية ١٢٤٩٩/٣٧١/١٩٧٩٥ ، مذكرة تاريخها ١٦/٥/١٩١١ .

(١٩) انظر على سبيل المثال « الاهرام » ، رقم ٩٤٢٢ ، تاريخ ١٥/٣/١٩٠٩ .

(٢٠) نفس المرجع الانف الذكر .

(٢١) « الاهرام » رقم ٩٨٨٤ ، تاريخ ٢٢/١/١٩٠٩ ، و « المنار » ، مجلد رقم ١٢ ، الجزء

الثاني تاريخ ٢٢/٣/١٩٠٩ .

(٢٢) « المقطم » ، رقم ٦٠٢٨ ، تاريخ ٢٧/١/١٩٠٩ .

(٢٣) « المقتبس » ( جريدة يومية ) ، رقم ٣٩٢ ، تاريخ ٩/٦/١٩١٠ ، و « الهلال » ، الجزء

الثالث ، كانون الاول ١٩٠٩ .

(٢٤) ي. بيرز ، اربعون عاما في القسطنطينية ص ٢٧١ .

( E. Pears, Forty Years in Constantinople )

(٢٥) « المنار » مجلد ١٢ ، الجزء السابع ، تاريخ ١٦/٨/١٩٠٩ .

(٢٦) « الحقيقة » ، رقم ٢٣٣ ، تاريخ ١١/٤/١٩١٠ .

- (٢٧) «الاهرام» ، رقم ٩٥٧٢ ، تاريخ ١٩٠٩/٩/٩ .
- (٢٨) «المقتبس» ( صحيفة يومية ) رقم ٦٩٥ ، تاريخ ١٩١١/٤/٢٠ وتاريخ ١٩١١/٦/٤ .
- (٢٩) من أشهر هذه الصحف « فلسطين » و « الكرمل » و « المفيد » و « المقتبس »
- و « الاهرام » و « الاقدام » . حرر جميعها أو امتلكها سوريون .
- (٣٠) جلسة ميسان ( Mebusan sitting ) رقم ٩٩ تاريخ ١٩١١/٥/١٦ ، زابت سرديسي
- ( Zabit Ceridesi ) الصفحات ٢٩٧٤ - ٣٠٠١ . انظر أيضا لسان الحال ، رقم ٦٦٤٩ ، تاريخ ١٩٧١/٥/٣١ .
- (٣١) مكليسي وكلا مزباتاسي ( Meclisi - Vukla Mazbatasi ) أرشيف داشوكالة
- ( Dashvekalet Arshivi ) استانبول رقم ١٤٥ .
- (٣٢) «المقتبس» ( صحيفة يومية ) ، رقم ٣١٩ ، تاريخ ١٩١٠/٣/١٦ ورقم ٣٢٩ تاريخ ١٩١٠/٣/٢٨ .
- (٣٣) «الاهرام» رقم ١٠٦٠٦ ، تاريخ ١٩١٣/١/٢١ ، و «المقطم» رقم ٧٣١١ ، تاريخ ١٩١٣/٤/٥ ، ورقم ٧٣٢١ تاريخ ١٩١٣/٤/٢٦ ، و «لسان الحال» رقم ٧١٣٩ ، تاريخ ١٩١٣/١/١١ .
- (٣٤) «المقطم» رقم ٧٣٠٢ ، تاريخ ١٩١٣/٤/٤ ، و «والاصلاح» رقم ١٤٢٤/٢٩ ، تاريخ ١٩١٣/٦/١٢ .
- (٣٥) «المنار» ، مجلد ١٦ ، الجزء الثالث ، تاريخ ١٩١٣/٣/٨ و «الاهرام» رقم ١٠٦٢٩ ، تاريخ ١٩١٣/٢/١٧ .
- (٣٦) من أجل قوائم بالاسماء التي تمثل كل مجموعة انظر «لسان الحال» رقم ٧١٤١ تاريخ ١٩١٣/١/١٤ و «مذكرات سليم علي سلام» ( غير مطبوعة ) ص ٨ تذييل .
- (٣٧) «المنار» مجلد ١٦ رقم ٧٢٠٧ ، تاريخ ١٩١٣/٤/٧ ، و «لسان الحال» رقم ٧١٥٥ ، تاريخ ١٩١٣/١/٣ .
- (٣٨) «لسان الحال» رقم ٧٢٠٧ ، تاريخ ١٩١٣/٤/٩ ، و «المفيد» رقم ١٢٤٨ ، تاريخ ١٩١٣/٤/٩ .
- (٣٩) «المقطم» رقم ٧٣٠٨ ، تاريخ ١٩١٣/٤/١١ .
- (٤٠) «الاهرام» رقم ١٠٦٨٢ ، تاريخ ١٩١٣/٤/٢٢ .
- (٤١) «المقطم» رقم ٧٣١١ ، تاريخ ١٩١٣/٤/١٥ ، ورقم ٧٣١٤ تاريخ ١٩١٣/٤/١٨ ، و «الاصلاح» رقم ١٣٩٧/٢ ، تاريخ ١٩١٣/٥/١٢ ( الخطاب الذي ألقاه عبد الحميد الزهراوي ) .
- (٤٢) «المؤتمر العربي الاول» ص ٤ ، «لسان الحال» رقم ٧٢٢٧ ، تاريخ ١٩١٣/٥/١ .
- (٤٣) «المؤتمر العربي الاول» ص ٥ .

- (٤٤) من أجل قائمة بالوفود انظر « المؤتمر العربي الاول » ص ١٤ - ١٦ ، و « الاصلاح »  
رقم ١٤٣٩/٤٤ تاريخ ١٩١٣/٧/١ .
- (٤٥) « المؤتمر العربي الاول » ص ٢٨ - ٣٨ .
- (٤٦) من أجل القرارات انظر المرجع نفسه ص ١١٣ - ١٢٠ .
- (٤٧) من أجل النص العربي والتركي للاتفاقية انظر « المنار » المجلد رقم ١٦ ، الجزء ٨ ،  
تاريخ ١٩١٣/٨/٢ .
- (٤٨) من أجل معلومات عن اعتقال عزيز انظر « الاصلاح » رقم ١٦٣٧/٢٤٢ ، تاريخ  
١٩١٤/٢/٢٥ و « المقطم » رقم ٧٥٦٩ تاريخ ١٩١٤/٢/١٨ . انطونيوس ( Antonius )  
ص ١١٨ - ١٢١ .
- (٤٩) ان نشاطات ومساهمات مجموعة أخرى من السوريين شملت الجالية السورية في  
استانبول والوفود والطلاب وأعضاء الجمعيات العربية العلنية والسرية لم تناقش في  
هذا المقال لانها كانت جزءا من دراسة لم يفرغ منها المؤلف بعد .

## العلاقات بين بلاد الشام والمغرب

الدكتور عبد العزيز بن عبد الله

( مركز التعريب بالمغرب )

ألقى الاستاذ عبد العزيز بن عبد الله مدير المكتب يوم ثاني محرم ١٣٩٩ الموافق ثاني كانون الثاني ( دجنبر ) ١٩٧٨ أمام المؤتمر الثاني لتاريخ الشام كلمة حيا فيها هذا الجمع العربي ، مشيدا بالفكرة النيرة التي استهدف فيها المؤتمر تأثيل أمجاد هذه الكتلة المتراصة التي هي بلاد الشام أرض الله .

ثم استطرد الاستاذ يقول :

« ان لأرض الشام لاكبر ضلع في خلق الكيان العربي الموصل من الخليج الى المحيط وقد كانت أرض الشام رأس ثلوث تتفرع أضلاعه بين البحر الابيض المتوسط والمحيط الاطلنطيكي والخليج العربي » .

« فاسألوا التاريخ عن شيد حاضرتي ( صور ) و ( جيل ) في الجنوب الشرقي لهذا الثلوث وعن أقام حاضرتي ( أوتيك ) ( Utique ) قرب تونس وليكسوس ( Lixus ) قرب العرائش من أرض المغرب الاقصى منذ القرن الحادي عشر قبل الميلاد !

سلوا عن أصل معالم الحضارة وأثل عروبة جبال ( التل ) و ( الريف ) و ( الاطلس ) في المغرب الكبير ممهدا لاشعاع نور الاسلام وانبثاق أول وحدة شهدت الانسانية اطرادها منذ فجر التاريخ في الشقين الشرقي والغربي لعالم يشكل اليوم عصب الكيان العربي المكين وقوامه الرصين !

ان لدخول اللغة العربية قصة طريفة بدأت أدوارها تتشكل منذ أوائل العصور الوسطى حيث انطلق التأثير الشرقي من جبال لبنان الى قرطاجنة ومنها الى الربوع المحاذية للمحيط الاطلنطيقي ، واذا اعتبرنا أن دخول الحميريين الى المغرب هو مجرد أسطورة وضرنا صفحا عن لوازمها القاضية بأن يكون قسم مهم من سكان الاطلس البربري قحطانيين ربما كانوا أعرق في العروبة من سواهم - فان الوجود القرطجني قد



فسح للغة البونية في أرباض تونس ثم في باقي أقطار المغرب الكبير آفاقا شاسعة تبلورت في وحدة مصطلحاتها مع العامية الدارجة في الشمال الافريقي . ويتجلى ذلك بصورة واضحة من الرخامة(١) التي كشفها الدكتور البرازيلي السيد الايزلونيتو وضمنها الجزء الاول من كتابه الانطروبولوجية وهي تحمل تاريخ ١٢٥ ق.م ( أي بعد أن استولى الرومان على قرطاجنة بنحو العشرين سنة ) حيث توجد عشرات الالفاظ والتراكيب مفرغة في قالب عربي مع تحريف لا يخفى حتى على غير الاختصاصيين في فقه اللغة وعلم الاشتقاق .

ففي الفقرة الاولى جملة حررت بالبونية هي :

« هنا أحنا بني كنعان فرنم حقرة حمل » يمكن أن نقلها الى عامية الشمال الافريقي وخاصة التونسية فنقول :

« هنا أحنا بني كنعان من فرانم حملنا الحقرة » ومعناها بالفصحى :

« هنا نحن بني كنعان من فرانم تحملنا الاحتقار » ففي هذه الفقرة وحدها سبع كلمات لا يوجد فيها أي دخيل وإنما هو انحراف بسيط عن الفصحى بسبب الاستعمال العامي المتداول ، على أن البونية قد بدأت تتسرب الى المغرب الاقصى مواكبة دخول القرطاجنيين الرسمي حوالي ٤٨٠ ق.م . وأكد القديس أغسطين ( St. Augustin ) أنها ظلت متغلغة في أنحاء البادية المغربية الى نهاية عهد الوندال أي الى عهد الفتح الاسلامي في حين اندرست لغة الرومان باندراس معالم الحضارة اللاتينية التي تطورت في نطاق محدود لم يتجاوز مثلثا تمتد حدوده من طنجة الى ويلي الى شالة ، عاشت جاليتها الرومانية في قفص مقفل ، بعيدة عن المحيط البربري الذي كان يلفها ، وقد اعترف بهذه الظاهرة مؤرخون طالما دعوا الى « غربية » البربر(٢) ولكنهم دهشوا أمام هذا التجاوب العميق الذي مهد المفاوز والاعوار البربرية أمام الفتح الاسلامي بانتشار « لغة قريبة من العربية »(٣) فكلمة قرطاج نفسها معناها قرية حداث أي القرية الحديثة صحفت الى قرتاش بتعطيش الجيم كما نطق بها الرومان وكذلك حنبعل ( Hannibal ) أصله حنى بعل أي نعمة الله وكان اسم أبيه هو هاملكار ( Hamilcar ) أي حامي القرية الذي حارب الرومان في صقلية .

نعم لقد انحدرت الى المغرب الكبير منذ أربعة آلاف سنة أفواج عربية انطلق بعضها من جنوب الجزيرة العربية مهد الحضارات منضما الى أرفاد الشام لنقل نواة الفكر العربي الى الاطلس العتيد حيث أجمع النسابون على أيادي الشاميين في تعريب المناطق المتبربرة بين قبائل «المصامدة» و ( و صنهاجة ) وسهول ( كتامة ) مما لم يعد مجال للشك في صحته اليوم ( رغم انكار ابن حزم وابن خلدون ) بعد الحفريات والكشوف التي أبرزت عروبة البربر بل وعراقة البربر في بحبوحة العرب العاربة .

وان المقوم الاساسي لحضارة المغرب الكبير منذ ثلاثة آلاف من السنين لهو تلك اللغة التي مازالت قائمة العماد ، موصولة الرفاد ، منطلقة من اللغة البونية التي ركز نواها في أرض ( افريقية ) أولا ثم في سواحل المحيط العرب الشاميون من بني كنعان الذين أقاموا في مرحلة ثانية مدينة ( قرطاج ) ( أي قرية حداث أو القرية الحديثة ) عام ٨١٤ قبل الميلاد ثم خلفوا أول مهاجر (٤) في أمريكا الجنوبية بعد جولة دامت ثلاث سنوات خلال مجاهل المحيط على أثر تهديم الرومان لقرطاج عام ١٤٦ ق.م . وقد عثر في ( البرازيل ) على كتابات حجرية تحمل تاريخ ١٢٥ ق.م مكتوب بلغة يونية في صيغ ليست غريبة على كل من أهل الشام وأهل المغرب اليوم بل هي من صميم لهجتهم العامية المشتركة التي احتضنتها حضارتها الاصلية وقد ظهرت دراسات خاصة بالانجليزي والاسباني تعزز هذه النظرة ، التي تشهد من جهة أخرى بان العرب هم الذين كشفوا القارة الامريكية قبل ( كريستوف كولومب ) بأزيد من ألف وخمسمائة سنة .

وقد أبى عرب الشام الاصلاء الا أن يربطوا الماضي السحيق بالحاضر العريق فعربوا مع اخوانهم أهل الاطلس (٥) ربوع الفردوس المفقود ( من الاندلس ) طوال ثمانية قرون كما أمدوا شقي أمريكا شمالا وجنوبا برجال المهاجر منذ عقود السنين يحملون من جديد مشعل العروبة بفكرها الخلاق وأصالتها المبدعة التي تشكل اليوم حصة جلى بين الادمغة النازحة الى ما وراء المحيط .

واننا لنذكر للشام أيضا احتضانها لاستمرارية هذه الاصاله العربية بتبنيها منذ أوائل عشرينات هذا القرن لتعريب شامل احتوى كل شعب العلوم وقطاعات التكنولوجيا في الجامعات السورية في حين لا يزال الوطن

العربي يتعثر الى اليوم في الاقتباس مما أقدمت عليه دمشق الشام منذ  
نصف قرن ويزيد !

لقد شعر الاستعمار الجديد منذ مطلع هذا القرن بعمق هذه  
الاصالة وعراقة هذه الاثالة في الشام المسلمة كمنطلق لتجميع الاشتات  
وتعزيز القوى فمزق الرابطة الاسلامية المكيئة الى وحدات للفت في عضد  
الاسلام وفسح المجال في بحبوحة الشرق العربي لجرثومة دخيلة اكتسحت  
المربع من أرض فلسطين وثالث الحرمين !

وقد التقت كتائب الاطلس مع جحافل العروبة من جديد اسهاما في  
تحرير مشارف ( الجولان ) معقل الابطال من يعرب وقحطان حيث بادر  
جلالة الحسن الثاني ملك المغرب بحشد كتائب العرب .

انني لاحيي في هذا اليوم الميمون غرة العام الهجري الجديد هذا  
التجمع الرائع للاشادة بالشام الاصيل موئل العروبة وأمل انبعث الاسلام  
ووحدة المسلمين !

## الحواشي

- (١) راجع مجلة « تقويم المنصور » للاستاذ توفيق المدني ( عام ١٣٤٣ هـ ) حيث نشر صورة للرخامة وكذلك بحثا حول كشف الفينيقيين للبرازيل قبل ٢٧٥٠ سنة من تاريخ كشفها المعروف وكتابا حول وصول الفينيقيين الى كولومبيا لابراهيم هاجر صدر بالاسبانية في بونس - ايريس بالارجنتين ( مجلة المعرفة عدد ١٠ - دمشق ) .
- (٢) مثل Gautier مؤلف العصور الفامضة في تاريخ المغرب .  
وعادات واعراف المسلمين .  
وذلك خلافا لما ذكره أبو سالم العياشي في رحلته ( ج ١ ص ٥٣ ) من أنه « لاعربية في المغرب قبل الاسلام اتفاقا » .
- (٣) افريقيا الشمالية - كوتبي ( ص ١٤٨ ) .
- (٤) يقال المهاجر من هاجر لامهجر من هجر ولذلك ينبغي أن نسمي العرب المغتربين في أمريكا مثلا برجال المهاجر لابررجال المهجر .
- (٥) ذكر الشريف الادريسي أن الشاميين نزلوا من الاندلس في ( البيرة ) وأن أهل الاردن نزلوا في ( مالقة ) وأن أهل فلسطين نزلوا في ( شذونة ) وأن أهل حمص نزلوا في ( اشيلية ) وأن أهل قنسرين سكنوا ( جيان ) وأن أهل مصر كانوا في بيجة ومرسية ( الحلل السندسية لشكيب أرسلان ج ١ ص ٤٠ ) .

## الحياة العلمية في بلاد الشام في القرن الثالث عشر الهجري

من خلال (( حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر )) للشيخ عبد الرزاق البيطار  
الدكتور أحمد طرين\*  
( جامعة دمشق )

### تمهيد :

شهد القرن الثالث عشر الهجري ( ١٢٠١ - ١٣٠٠ هـ ) الذي يقابل الفترة ما بين ( ١٧٨٦ - ١٨٨٢ ) في التاريخ الميلادي ، عصر الثورة الفرنسية و نابليون ، والحملة الفرنسية على مصر وبلاد الشام ، كما شهد حملة ابراهيم باشا بن محمد علي باشا على بلاد الشام ، ومعها الافكار السياسية الحديثة التي هزت أركان السلطنة العثمانية وأسهمت في انهيار أدوات الحكم الموروثة الاقطاعية والعسكرية . وبرغم ان الحكم المصري لم يدم سوى تسع سنوات ، فقد أحدث افتتاح المدارس الابتدائية والثانوية على النسق المصري ، يقظة في التعليم ولاسيما بين العرب المسلمين ، أتيح لطلبة المدارس من خلاله الاطلاع على قيم ومقاييس جديدة في المدارس والكتب المدرسية . وبعد انسحاب ابراهيم باشا من بلاد الشام ظل تأثير النظام التعليمي المصري يتفاعل في أذهان الناس ويدفعهم الى تأسيس المدارس . وخطت الدولة العثمانية في الاربعينات من القرن التاسع عشر خطوات واسعة نحو تنفيذ اصلاح أحوال الدولة وتأمين رعاياها ( على اختلاف قومياتهم وأديانهم ) على أرواحهم واعراضهم وأموالهم . وجرت محاولة لانشاء النظام النيابي ، فتأسس مجلس للدولة يضم نوابا من مختلف النواحي ، لمناقشة الموضوعات المطروحة عليه . وألغي نظام الالتزام في جباية الضرائب ، وأعيد تنظيم الجيش ، وأدخل التجنيد الاجباري ووضعت أسس لنظام قضائي جديد يقوم على سن تشريعات جنائية وتجارية ومدنية . وأنشئت وزارة المعارف و صدر قانون اصلاح التعليم ، وبموجبه تكفلت الدولة بالاشراف على التعليم والانفاق عليه ، بعد أن كان يشرف عليه العلماء من رجال الدين ، وتدبر نفقاته من الهيئات والجمعيات الخيرية الاهلية . ولم يكن للدولة قبل صدور مراسيم التنظيمات تدخل مباشر في مدارس بلاد الشام وانحاء الدولة عامة الا في توجيه بعض

---

(\*) أستاذ ورئيس قسم التاريخ في كلية الاداب بجامعة دمشق ، أمين سر المؤتمر

الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام .

مناصب التدريس المتقدم على نفر من العلماء . لقد سجل عهد التنظيمات بداية التقدم والنهوض في الدولة العثمانية من الوجة الحكومية والادارية ومن وجهة الشؤون الثقافية والتعليمية . وشملت بلاد الشام ثلاث ولايات هي دمشق وحلب وبيروت وسنجقين هما جبل لبنان والقدس الشريف . بيد أن التنظيمات لم تطبق عمليا بشكل تام ، ويرى ساطع الحصري « أن التنظيمات لم تغير تغييرا يذكر مواقف كل من المسيحيين والمسلمين في البلاد العربية نحو الدولة العثمانية : ظل المسلمون يعتبرون الدولة دولتهم ويستسلمون لحكمها لكونها دولة الخلافة الاسلامية . وظل المسيحيون يشعرون بأنها غريبة عنهم لأنها تعتبرهم رعايا ، ويتوجهون نحو الدول الاوربية لأنها تحميهم في كثير من المناسبات حتى أنها تقدم لهم بعض المساعدات »\* .

على أن مشاعر الاستنارة المحدودة التي راودت بعض الازهان في بلاد الشام ، وان لم تستطع أن تمنع أحداث الستين المؤسفة ، ولكن عقابيل هذه الاحداث نفسها هي التي أوجدت شعورا متزايدا بالحاجة الى التسامح ونبد الجهل والتعصب .

وحين قدم مدحت باشا ( أبو الدستور ) واليا على دمشق الشام ، تجمع حوله نفر من الاصلاحيين المستنيرين ، فعملوا معه لتشكل ( الجمعية الخيرية ) التي كان لها الفضل في تأسيس مدارس عديدة في مركز الولاية وحواضرها ، وفي جمع التراث العلمي المخطوط من خزائن العائلات الشامية المختلفة ، وانشاء المكتبة الظاهرية بدمشق ( ١٨٧٨ ) ولامراء في أن هذا التقدم الذي تحقق قد أسهم في وضع بلاد الشام على طريق نهضة علمية حديثة تسائر متطلبات الحياة المتطورة المعاصرة . وبرغم الطغيان الحميدي فقد توسع التعليم ، وانشى عدد من المدارس الثانوية والعالية ، وتأسس مكتب للطب بدمشق عام ١٩٠٣ . وبينما كانت المعارضة السرية لحكم عبد الحميد تتمثل بجمعية الاتحاد والترقي ، وتوجه نحو تبني القومية التركية الطورانية ، كان نفر مثقف مستنير من القوميين العرب في بلاد الشام يقف مستنكرا ومعارضاً ذلك ، ومناديا باللامركزية وبالاستقلال . وكان منهم المشاركون في المؤتمر العربي الاول بباريس ( ١٩١٣ ) وشهداء أيار ( ١٩١٦ ) وجمع كبير من طلائع الثورة العربية المتجهة نحو دمشق ( ١٩١٨ ) .

---

\* انظر ساطع الحصري « البلاد العربية والدولة العثمانية » بيروت ١٩٦٠ الطبعة

## المؤلف :

المؤلف هو الشيخ عبد الرزاق بن حسن البيطار الدمشقي . ولد في دمشق سنة ١٢٥٣ هـ ، « وغب التمييز تعلم القراءة والكتابة ثم حفظ القرآن الكريم وجوده . . ثم حفظ المتون في مبادئ العلوم على والده العلامة الشيخ حسن البيطار ، وبعد وفاة والده قرأ على شقيقه الأكبر أمين فتوى دمشق الشيخ محمد فقه أبي حنيفة يوم كان مفتيها العلامة السيد محمود حمزة . وأخذ عن شقيقه الثاني العلامة الشيخ عبد الغني علم القراءات . ثم لازم دروس العلامة الشيخ محمد الطنطاوي فأكمل عليه العلوم العربية والشرعية ، وتوسع في المعقول والمنقول وأخذ عنه علم الميقات والفلك والحساب . ثم صحب العارف بالله الامير عبد القادر الجزائري فقرأ عليه جملة من الحقائق وأعظمها الفتوحات المكية » (١) .

ويوضح الشيخ محمد بهجة البيطار سبط المؤلف ومحقق تاريخه أن عصر جده الذي تلقى فيه دروسه الشرعية كان « عصر جمود على القديم ، وتلقي الاقوال بالتسليم من دون تمحيص للصحيح من السقيم ، فاستمر فقيدا على طريقة معاصريه متأثرا بها الى مابعد الخمسين . . ثم ألهمه الله تعالى الاخذ من الكتاب والسنة وعدم قبول رأي أحد من دون حجة كما كان على ذلك سلف الامة . . . فصار يأخذ الاحكام بالدلائل ، ويقبل قول الحق من أي قائل ويصدع به ولا يخاف في الله لومة لائم » (٢) .

ويشرح المؤلف موضوع تاريخه ودوافع تأليفه وطريقته في المقدمة بقوله : « وقد كنت معروفا بجمع لآلئ السادة والاعيان ، مشغوفا بالتقاط آثارهم المزرية بعقود الجمان حتى رقت من أخبارهم أوراقا شتى ، بيد أنني اذا أردت الوقوع على مراد منها لأجتمع به حتى وحتى . فعن لي أن أجمعها في كتاب تعذب مطالعته وتقرب على الطالب مراجعته ، وأن أقصر الوطر على ترجمة أعيان القرن الثالث عشر ، لان الامين المحبي رحمه الله ترجم أهل القرن الحادي ، كما أن القرن الثاني قد ترجمه المرادي ، فأردت أن أتطفل عليهما بديوان يكون لكتابيهما ذبلا . . وشرعت في كتابة هذا الكتاب . . ووسمته وسميته بعدما أتممته وأنهيته ( حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر ) . . محافظة على احياء ذكر هؤلاء السادة الافاضل ،

(١) « حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر » ونشر اليه فيما يلي بكلمة ( الحلية )

أو ( حلية البشر ) نشر مجمع اللغة العربية بدمشق ( ١٩٦١ - ١٩٦٤ ) ، في ثلاثة أجزاء

ج ١ ص ٩ من المدخل

(٢) المصدر نفسه ص ٩ - ١١ من المدخل

والقادة (٢) الحائزين لاعلا الشمائل والفضائل ، وخوفا من ضياعهم بلا خبر  
ولاخبر .. ورأيت أن أرتبه على حروف المعجم .. » .

### الكتاب :

تبلغ تأليف المؤلف بضعة عشر كتابا بعضها ديني وأكثرها أدبي ،  
وأكبرها تاريخه في رجال القرن الثالث عشر ، ويقع في نحو ١٨٠٠ صفحة ،  
كتبه المؤلف « في أدوار من عهود شبابه وكهولته وشيخوخته » ، وترجم  
فيه أيضا لبضعة رجال من القرن الرابع عشر وهم أحياء .. وترك الكتابة  
والتصحيح فيه قبل وفاته بأكثر من عشر سنين .. وأذن المؤلف لحفيده  
باختصار كتابه فاختصره في ثلاثة مجلدات ، ولغة الكتاب جزلة متينة ،  
وأسلوبه مسجع مشحون بالفاظ المجاملة والتقريظ بدرجة ملحوظة . توفي  
المؤلف سنة ١٣٣٥ هـ (٤) .

ويمتاز الكتاب بأن ترجم علماء وأعيان بلاد الشام والبلدان العربية  
والاسلامية مشرقا ومغربا . وكانت نظرة المؤلف شمولية انتظمت العالم  
العربي والاسلامي . لقد ترجم أعيان المجتمع وعلماءه في مختلف حواضر  
الشام ، ويلاحظ أنه قصر نفسه في الترجمة على رجال المجتمع من  
السنة\* . ولم يترجم الا لامرأتين\*\* - كما ترجم العلماء والاعيان في  
حواضر العراق والحجاز واليمن ومصر وحضرموت وتونس والجزائر  
ومراكش . وعرض لتراجم مشاهير العلماء في فارس وخراسان وكردستان  
وافغانستان والهند وقبرس والبوسنة . وترجم بعض الشخصيات الهامة  
التي كان لها دور سياسي أو علمي بارز في الآستانة عاصمة السلطنة  
العثمانية أو ( دار السعادة ) كما يسميها المؤلف ، أو في مختلف حواضرها .  
والحق أن ( البيطار ) قدم في كتابه القيم ألفا وستمائة وست عشرة  
سيرة وترجمة ، منها بضع وعشرون لعدد من السلاطين ( محمود الثاني  
ومصطفى الرابع وعبد المجيد وعبد العزيز وعبد الحميد ومحمد رشاد )

(٣) المصدر نفسه ص ٤ - ٦ من الكتاب

(٤) المصدر نفسه ص ٣ من المدخل ، ص ١٩ - ٢٠ من المدخل . أما تأليفه الدينية  
فمنها ( المنة في العمل بالكتاب والسنة ) ، و ( المباحث الفرر في حكم الصور ) ، و  
( اللمة في الاقتداء حال التشهد من صلاة الجمعة ) وشرح العقيدة الاسلامية للعلامة محمود  
أفندي حمزة ...

\* ولذا تظل صورة الحياة العلمية في بلاد الشام ناقصة دون الرجوع الى كتب علماء  
وأعيان الشيعة ، والى كتب علماء وأعيان المسيحية .

\*\* الاولى هي رقية بنت ابراهيم السعدي ، تزوجت بصاحب التاريخ وتوفيت سنة  
١٣١٧ هـ ، والثانية مريم ابنة محمد العقاد ولدت في حلب سنة ١١٥٦ وأثنى عليها الخليل  
المرادي صاحب الدرر وشهد بعلمها وفضلها ( انظر حلية البشر ٢/٦٣٥ و ٣/٥١٦ )



وباشوات دمشق وعكا وبغداد ، وخديويي مصر وامام اليمن وأمير نجد  
ووزير سلطان المغرب . . . ويبدو من خلال تراجمه وتاريخه أنه كان ورعا  
محافظة يتحرى الدقة والامانة جهد طاقته فيما يروي .

فالمؤلف وهو يترجم شخصيات عصره ، يذكر نبذة عن حياة المترجم  
الثقافية والعلمية منذ سن التمييز حتى الوفاة مستعرضا شيوخ المترجم  
ومواد التدريس التي أخذها عن كل منهم ، اضافة الى أهم التأليف التي  
صنفها المترجم أو ألفها . وقد ركز كتاب الحلية جل اهتمامه على  
الذين برعوا في العلوم الدينية واللغوية ، واتقنوا اللغات الثلاث العربية  
والتركية والفارسية ، فضلا عن التفقه في ميادين العلوم العقلية والاحاطة  
بالمعارف العامة المختلفة من حساب وهندسة وفلك وطب وعلم مياه  
وسواها . . .

وإذا قال قائل ان نتاج هذا القرن قد اتسم معظمه بالتعليق والتحشية  
والتلخيص والتهذيب ، ولم يتميز بالجدة والابتكار ، نقول صحيح ، ولكن  
ظروف الحياة المضطربة المسورة التي عاش فيها هؤلاء العلماء تجعلنا نتقبل  
هذا النتاج الذي لا يمكن أن يظهر الا في محيط علمي تملؤه تقاليد المعرفة  
العلمية الاصلية ، ويتلمس طريقه الى التحرر والانطلاق لتحطيم طوق  
العزلة الذي فرضته السلطنة العثمانية على بلدانها . وبرغم قساوة  
ظروف محيط هؤلاء العلماء ، فان بعضهم تأثر بتسلل الافكار والعلوم  
والمناهج الحديثة الواردة الى البلاد ، ولكن لم تشكل جهودهم تيارا  
أصيلا وانما جدولا رافدا فعل فعله في بناء نهضة البلاد العلمية التي شهدتها  
بلاد الشام منذ الربع الاخير من القرن التاسع عشر وكان روادها تلك  
الصفوة العاملة وسط غالبية ران عليها الجمود والجهل وانعدام الحوافز  
وفقدان أدوات ومقومات المعرفة العلمية والفكر المتحرر ، وذلك بالقياس  
الى أوروبا التي مرت بثورات علمية وتجارية وصناعية وفكرية منذ القرن  
السادس عشر الميلادي . لقد عمل هؤلاء الرواد في ظروف سياسية  
 واجتماعية وثقافية صعبة أهمها تحول الدولة بموجب التنظيمات نحو  
اللغة التركية وقد جرى ذلك في النصف الثاني من القرن الثالث عشر ، أي في عهد  
أخذت فيه اللغة العربية تفرض نفسها في ميادين الفكر والتعليم والتأليف .  
والى جانب الاحداث السياسية البارزة التي تناولها مؤلف ( الحلية )  
بمناسبة ترجمة سلطان أو وزير أو وال والتي يمكن استخدامها من نحو  
ما في تشييد التاريخ السياسي ، فالحلية تشتمل على كثير من القيم  
الاجتماعية والخلقية من خلال حديثها عن رجال القرن وعلمائه ، وتصور  
بذلك المثل والقيم التي يكبرها المجتمع أو يحقرها . من ذلك مثلا : « . . . وكان

قليل الكلام بما لا يفيد وبحرا زاخرا لكل مستمعيه مستزيد ، مع طبع هين وأخلاق مرضية وفكر صائب وأوصاف عليية وذهن متوقد وحاضرة جيدة» . وعن آخر : « شهم شجاع جميل المعاشرة ، يغلب عليه الميل الى الطاعة والمروءة والحماسة والتباعد عن الرذائل ، ولم يشتهر عنه أنه في مدة نياباته ارتشى من أحد » . وعن ثالث : « كان له مخالطة كثيرة مع الاهالي مع عدم الترفع عما لا يليق بمقامه العالي ، من حضوره محلات الاجتماع ، للنزهة والسماع ، فكان الناس يعيب ( يعيبون ) عليه ذلك لشرفه وسيادته ، وهو لا يلتفت الى تأنيب ولا الى ملام ، تقديمها لجانب سروره على جلالته » . وعن رابع : « وكان كثيرا ما يقرأ من كتب الوعظ في جامع بني أمية في التركية والعربية ، غير أنه كان يغلب عليه الخفة والطيش ، فلذلك لم يكن له ثبات على حالة واحدة . فلو مدح انسانا في وقت بغاية المدح ، لم يكن وقت مذمته بعيدا ! » وعن خامس : « واشتهر بأنه جسور لا يخشى في قولة الحق حاكما ولا وزيرا » (١) .

ان أبرز ماتضمنه ( الحلية ) هو تراجم العلماء والعاملين ضمن المؤسسة الدينية الشرعية من مدرسين وقضاة ونواب قضاة ومفتين وأمناء فتوي ونقباء الاشراف ، وناظري مدارس وأوقاف ومساجد وخطباء وأئمة ومؤذنين وسواهم ، وبما أن رتبة العلم أعلى الرتب في المجتمع الشامي ، فقد شكل هؤلاء العلماء الصفوة المختارة ذات السلطان الادبي والمعنوي ، فالحكام يخطبون ودّها والناس يحفظون مكانتها ، سواء أكان العلماء من أهالي المدينة أو القطر ، أو كانوا مارين وافدين من بلدان العالم العربي والاسلامي . لقد ظل الترابط الثقافي قويا بين علماء العرب في المشرق والمغرب ، وتشهد تراجم ( الحلية ) أن الرحلة للحج أو لطلب العلم كانت تغذيه وتشد في أزره . ومعلوم أن غالبية قوافل الحج كان يتوقف أنفار منها لآمد قصير أو طويل في الحواضر العربية التي تقع على طريق الحج ، بغية القاء المواعظ والدروس في مساجدها ومدارسها ، أو أخذ العلوم والاجازات عن شيوخها . وقد استطاع علماء القرن باتصالهم العلمي المستمر بعضهم ببعض ، أن يحافظوا على المجتمع العربي متماسكا ، في عصر كان التدهور الاقتصادي ، والفوضى السياسية والادارية من أبرز خصائصه . فمعاهد التعليم والمدرسون كانوا يقومون بواجب اجتماعي في المقام الاول ، برغم كل ما يقال عن تدني المستوى العلمي وتابعيته ، وثمة شواهد متعددة على هذا الترابط العلمي والاتصال الثقافي نلمسها في التأليف والتصانيف التي كان يتعاون لآكمالها عدة علماء من أقطار مختلفة ، فيكتب كل منهم في ماهو واقف عليه من شؤون موضوعه أو تراجم قطره .

ونحن نعلم أن كثيرا من أعلام ( حلية البشر ) في بلاد الشام كانوا يقصدون الاستانة لا لتلقي العلم بل للتدريس والوعظ وشغل مناصب ادارية وقضائية وعلمية مرموقة .

ومن مئات تراجم العلماء في ( الحلية ) اقتصرنا على من عرف منهم بتأليفه وتصانيفه في علوم عصره اللغوية والشرعية والعقلية والعامية . ولم نعرض لمن قصر نفسه على الوعظ أو المشاركة في علم أو فن أو كان له ولع بجمع نواذر الكتب الا اذا كان له أثر ملحوظ ، اجتنابا للاطالة على غير ماجدوى . وبما ان الحديث عن الحياة العلمية في بلاد الشام لا يستقيم بدون التنويه بجهود النابهين من هؤلاء الذين انتفع بهم خلق كثير ، وكان لهم مكانتهم الاجتماعية والعلمية بين الناس ، ولذلك اکتفينا بكلمة قصيرة عن أبرزهم أثرا وأبعدهم صيتا ، مسجلين أهم ماورد في تراجمهم بالحلية ، وخاصة من تصدر منهم لتدريس الحديث تحت قبة النسر في جامع بني أمية بدمشق ، في شهور رجب وشعبان ورمضان من كل عام (٢) . ويتضح من استعراض هذه التراجم أن النشاط التدريسي كان يجري في المساجد في المقام الاول وكان يستعان على دراسة القرآن والحديث ، وهما أصلا الشريعة الإسلامية ، بعلوم الآلة ، وهي الصرف والمنطق والمعاني والبيان والفقه والمنطق . وتشكل هذه العلوم بمجموعها مصادر الثقافة الإسلامية للقرن الثالث عشر الهجري وماقبله . اضافة الى علم الهيئة والفلک الذي يتصل بمعرفة مواقيت الصلاة والصوم . وهناك أيضا حلقات الدرس التي كانت تعقد خارج نطاق المساجد والمدارس ، في المجالس الخاصة والعامية ، الى جانب بيوت العلماء .

وأسلوب التدريس يوصف بأنه تردد الطلبة على الشيخ ، فيقرأون عليه ماشتهر به من معارف وفنون ، ويدرسون عليه أشهر المتون مع حواشيها وشروحاتها . . على طريقة الامالي ، بحيث يملئ الشيخ على الطلبة ما لديه من ملاحظات واستطرادات على المتن أو الحاشية أو الشرح ، ويسجل الطلبة ما يقول حرفيا أو مافي معناه . من ذلك مثلا ان الشيخ جمال الدين القاسمي المؤلف الديني العصري قرأ على الشيخ عبد الرزاق البيطار « رسالة في الفلك » وكان ينسخها دروسا بخطه ، ويكتب على هامشها تقرير الاستاذ بنصه « (٢) . وجدير بالذكر ان العلم ظل غالبا يتركز في أسر معروفة ، يتوارث مناصبه في التدريس والوعظ ، الابن عن ابيه وأحيانا الاخ عن أخيه كتقليد استمر العمل به من السابق . وتتأكد القيمة التاريخية لحلية البشر كمصدر هام للتاريخ العلمي والثقافي في القرن الثالث عشر الهجري من كونها تذكر بشيء من التفصيل عمدة

التأليف والتصانيف والمتون والحواشي والملخصات والشروح . . . التي كان يجري تدريسها في القرن المذكور ، كما تورد أسماء الكثير من المدارس التي ازدهرت بالمعرفة العلمية والثقافة الإسلامية آنذاك .

وفيما يلي أهم كتب التدريس :

في التجويد والقراءات : الشاطبية في القراءات السبع للشاطبي ، ابن القاصح\* شرح الشاطبية، القراءات العشر والرائية لمحمد بن الجزري . . في النحو والصرف وعلوم العربية : الالفية وشروحها ، الاجرومية ، وشرح مغني اللبيب ، حاشية العصام ، شرح قطر الندى ، شرح التلخيص ، مختصر المعاني والبيان ، حاشية الخضري على ابن عقيل ، حاشية الصبان على الاشموني ، وابن عقيل على الالفية . . .

في الحديث : صحيح البخاري ومسلم ، الجامع الصغير للسيوطي ، موطأ ابن مالك ، الشمائل للترمذي . . .

في التفسير : تفسير البيضاوي ، كشف الزمخشري ، تفسير الطبري . .

في الفقه : شرح التحرير ، شرح المنهج لذكريا ، الدر المختار للحصكفي ، التحفة لابن حجر . . .

في التصوف : الفتوحات المكية ، فصوص الحكم لمحيي الدين ابن العربي .

في الهيئة والفلك : تشريح الافلاك للبهاء العاملي ، رسائل الربع المجيب والمقنطر ، شرح اللمعة في الكواكب السبعة .

في الفرائض للشنشوري\*\* .

في المنطق والكلام : ايساغوجي ، وجوهرة التوحيد لابراهيم اللقاني .

هذا الى كثير من الرسائل والمتون والشروح والحواشي لعلوم الحساب والهندسة والمساحة والميقات والحكمة والاصطراب والمياه والطب وسواها .

ومن المدارس التي يرد ذكرها في ( الحلية ) المدرسة الجقمقية ( وكانت مكتبا مقدما على سائر المكاتب كما أن شيخه مقدم على سائر

---

\* علي بن عثمان بن الحسن العذري الملقب بابن القاصح ، توفي عام ٨٠١ هـ / ١٣٩٨ م

انظر معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ١٤٨/٧

\*\* عبد الله الشنشوري ( المتوفى ٩٩٩ هـ / ١٥٩١ م ) نسبة الى شنشور من قرى

المنوفية بمصر . انظر معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ١٢٨/٦

مشايخ المكاتب\* ، المدرسة السليمانية ( ورتبة المدرس فيها من رتب كبار المدرسين ) ، والمدرسة العادلية الكبرى ، والباذرائية ، والاخنائية ، والامجدية ، والمرادية ، والسميساطية والشامية البرانية والريحانية والخياطين وسواها . .

ونحن في تتبعنا لموضوعنا ، لن نعرض الا لما أدرجه مؤلف الحلية من تراجم العلماء والنابهين الشوام الذين كان لهم أثر بين على الحياة العلمية والثقافية في بلاد الشام فقط ، ولن نعرض لتراجم العلماء غير الشوام في دنيا العرب والاسلام ، ونقصد بالعلماء الشوام من ولد ونشأ وعاش وتوفي في حاضرة من حواضر بلاد الشام ، أو من وفد اليها فعاش فيها ومات ، أو من عاش فيها وأدركه الموت في بلد آخر . والباحث في حلية البشر لا يدري السبب في عدم ورود التراجم التي تبدأ أسماؤها بحروف الفين والغاء القاف والكاف واللام وهو أمر مستغرب !

\* \* \*

سنتناول معارف القرن وثقافة العصر ، فنتحدث تباعا عن الشعر والنثر ، ثم نعرض الى علوم العربية والشرعية والعقلية . ثم نعرض للتاريخ ولبقية المعارف العامة الاخرى كالحساب والهندسة والفلك وعلم الفرائض والطب والمياه وسواها .

\* \* \*

بما أن الطباعة(٤) لم تكن قد أخذت سبيلها الى الانتشار ، فقد توجب نسخ الكتب والارتقاء بفن الخط وأدوات الكتابة والمحافظة على أصولها وتقاليدها . وقد عمل كثير من العلماء والكتاب على نسخ الكتب بخطوطهم ، ولاعجب اذ أقبل الطلبة المتعلمون على تعلم الخط اذ هو جزء من ثقافة العصر . اشتهر من معلمي الخط الجميل في بلاد الشام عدد من الخطاطين المجيدين ، لعل من أبرزهم الشيخ محمد بن عمر البرجكلي وكان مشهودا له بحسن الكتابة في أنواع الخطوط ، وكان له محل يأخذ الناس عنه الكتابة فيه(٥) .

أما الشعر ، فيلاحظ ان له مكانة هامة في هذا القرن ، وفي القرون السابقة له ، ولو عرضنا لقصائد الشعر وأبياته التي تضمنتها ( الحلية ) في مختلف الاغراض ، لتجمع منها عشرات الدواوين . وقد احتفظ هذا اللون من النشاط الفكري بأبوابه التقليدية من مديح وثناء وغزل ووصف . وظل علماء العصر وأدباؤه ينظمون في مقاصد شتى لن يتسع مجال هذا

---

أطلق الاتراك اسم ( المدرسة ) على المدارس الدينية الشرعية . أما المدارس الاخرى

فسموها ( مكاتب ) بوجه عام .

البحث لاستعراض موضوعاتها وأبوابها المختلفة . وحسبنا أن نؤكد في ضوءمطالعة ( الحلية ) أن أبواب الشعر التي عرفت قبل القرن الثالث عشر ، وتناولت المواضيع التقليدية ، استمرت في هذا القرن دون تغيير في بحورها وأغراضها ، تماما كالموضوعات المستجدة مثل الموشح والمواليا والزجل والادوار والتشطير والتخميس، إضافة الى المعارضات والمساجلات والتضمين\* وخلافه . ويبدو أن المديح ظل مع الرثاء والغزل يجسد أهم الموضوعات التقليدية . وللشاعر الاديب أمين بن محمد الجندي قصيدة يمدح فيها النبي (ص) ويتوسل به في خلاصه من محنة أصابته على يد عامل السلطان محمود الثاني ، مطلعها :

**توسلت بالمختار أرجى الوسائل نبيّ لثلي خير كاف وكافل (٦)**  
ولابي الهدى الصيادي قصيدة في مدح النبي ( ص ) يقول فيها :  
**هل منقذ لاخي النوى مما به قطعته ايدي الحظعن أحبابه (٧)**  
ولفتي دمشق الشام أمين افندي بن محمد بن عبد الوهاب الجندي المعري قصيدة يوضح فيها أصله ونسبه للدوحة النبوية مطلعها :

**الحمد لله القديم الاحد من غير والد له أو ولد (٨)**  
ولمحمد أمين عابدين الدمشقي قصيدة أرسلها ضمن مكتوب صحبة ركب الحاج الشامي سنة ١٢٢٠ هـ لكي تقرأ أمام قبر النبي (ص) مطلعها :  
**ليك يا قمريّة الاغصان فلقد صدعت القلب بالالجان (٩)**  
وامتدح الشيخ ابراهيم الاحدب الطرابلسي الامير العلامة عبد القادر الجزائري بقصيدة مطلعها :

**عقود ودادي نظمها ليس يفسخ وشرح غرامي محكم ليس ينسخ (١٠)**  
ونظم الشيخ عبد الله الحلبي الشافعي الكتبي قصيدة بمدح العالم المؤرخ محمد خليل المرادي وتهنئته بعيد الفطر (١١) كما نظم الشيخ أحمد ابن علي اليافي مقامة وقصيدة لتهنئة المؤرخ المذكور حين ولي افتاء دمشق الشام (١٢) وامتدح محمد شهاب الدين القائد ابراهيم باشا المصري مهنتا اياه بوصول مصر إثر خروجه من بلاد الشام ( ١٨٤٠ ) (١٣) ، وللشيخ عبد الستار الأتاسي مفتي حمص موشح في مدح دمشق الشام (١٤) .

---

\* الادوار جمع دور وهو جزء من الموشح يأتي بقافية مختلفة بعد المطلع . يذكر عبد الله العلالي في كتابه ( المراجع ) بيروت ١٩٥٤ أن التشطير : العمد الى بيت ما بالزيادة عَجْزاً لصدر ، وصدرا لعجز ، ويسمى أيضا التسميط ٥٦٣/١ . والتخميس توطئة الشاعر وتمهيده الى البيت من شعر غيره بثلاثة أشطر تلتحم به معنى ، نفس المرجع والصفحة . والتضمين في علم البديع استعارة الشاعر شطرا من غيره في شعره . نفس المصدر

وفي هذه القصائد لم يجدد الشعراء في الشكل ولا في المضمون ولم يستطيعوا عموماً أن يخرجوا قصائدهم اخراجاً فنياً جزلاً العبارة بارعة الصورة .

أما الرثاء فقد تناوله شعراء القرن الثالث عشر وحافظوا فيه على معاني الرثاء القديمة وقوالبه المعروفة التي رأيناها في المدح .  
نظم العلامة محمد اسحاق الادهمي الطرابلسي قصيدة في رثاء الامير عبد القادر الجزائري بعد موته ، مطلعها :

**قامت عليك قيامة العلماء يا سيد العلماء والامراء (١٥)**

وممن رثاه أيضاً حسن بيهم البيروتي ومحمد افندي الهلالي الحموي وعمر افندي البربير و خليل افندي البربير البيروتي (١٦) .  
ولم يخل شعر الغزل والوصف من جهد مبتكر وشعور صادق في بعض قصائده وأبياته ، ومعظم علماء العصر لهم قصائد في الغزل والوصف تتراوح بين الصورة الغزلية الرائعة ، والصورة المتكلفة الجامدة ، وهي مبدولة في تضاعيف ( الحلية ) ، ولا حاجة لاستعراضها وتحليلها .  
ولاحمد البربير ديوان شعر فائق النظم اضافة الى باع طويل في المقامة والنثر كما سنرى ، فمن قوله متغزلاً :

**سليت فؤادي بالبها حبشية  
ان غبت من وجددي أقول لصاحبي**  
وقوله :

**زرقة النيل في يدي من سباني  
مثل فيروزج السماء تبسدي**  
وقوله :

**ملاح ريحان العذا  
بل ذاك مخضر السما**

**ر وآسه من فوق ورده**

**ء يلوح في مرآة خده (١٧)**

أما أبواب الشعر الاخرى التي سادت في هذا العصر فأهمها التأريخ وهو أن يأتي الشاعر بكلمة أو كلمات اذا حسبت حروفها بحساب الجمل بلغت عدد السنة التي يريدنا الشاعر من التاريخ الهجري ، وقد شاع هذا الباب وقيل في المناسبات الاجتماعية من زواج ، ووفاة ، وولادة ، وبناء وتشيد مسجد ومدرسة ، ونوال منصب ، وما الى ذلك . .

وللشيخ عبد المجيد الخاني قصيدة رائية مؤرخة في شطر بارك فيها لخديوي مصر توفيق بمسند الخديوية ومطلعها :

**اللف في أرجاء مصر يشير  
أني بتوفيق العزيز بشير (١٨)**

سنة ١٢٩٦

سنة ١٢٩٦

ومن ذلك ما أنشده عند دخوله الى بيروت مقرظا جرائدها السبع  
عام ١٣٠٠ هـ فقال :

**ثمرات مقتطف الجنان بشيرها بلسان مصباح التقدم قائل**

**نزل المعارف وارف في روض بيب . . . روت وحزب الفضل فيه قائل (١٩)**

ولسليم أفندي بن أنيس أفندي قصاب حسن شعر جميل في  
الغزل والتأريخ والالغاز ، في ديوانه المسمى ( نشأة الصبا ونسمة  
الصبا ) (٢٠) .

وللسيد سعيد القاسمي قصيدتان نظمهما في عام تأخر برد شتائه  
عن وقته المعتاد ، صاغ الاولى في قالب السؤال من فصل الشتاء والثانية  
في جوابه واعتذاره المتضمن وعظ الموسرين ليتفقدوا المعوزين وأولي الفاقة ،  
ومطلع الاولى :

**مال برديك يا شتاء تأخرنا وبريق برقك خلب لن يمطرا**

ومطلع الثانية :

**يامن تكلم في الشتاء بما درى ورأى بأن البرد فيه تأخر (٢١)**

وقد رأى بعض الشعراء ضرورة النأي بشعرهم عن أبواب الشعر  
التقليدية ووجوب البعد عن التكلف والقيود القديمة ، فمالوا الى التعمية  
والتلفيز\* والتأريخ والتسميط والمحسنات البديعية وما اليها ، ووجدوا  
فيها ضربا من التجديد النسبي . ولكن سكون الاجواء الاجتماعية وانعدام  
الحوافز للتطور والتقدم في معظم فترات هذا القرن ونزعة المحافظة المتأصلة  
لدى العلماء والادباء ، جعلهم لا يعيشون جوا اجتماعيا متطورا ، وبالتالي  
لا يأتون بجديد مبدع .

ونطالع في ( الحلية ) كثيرا من قصائد الشعر التي تدور حول  
المراسلات والمساجلات والمعارضات ، أو تدور حول معاتبة بالشعر ،  
وصوغ وصية ، وكتابة حجة اجازة ، أو مداعبة ومحاوراة بحيث غدا  
الشعر عند بعضهم نوعا من الرياضة الذهنية والترويح عن النفس .

وقد شهد عصرنا عددا من الذين أحسنوا الشعر والنثر باللغتين  
العربية والتركية مع اتقان للغة الفارسية ، ويبرز في هذا الباب السيد عبد  
القادر القدسي الحلبي الكاتب الثاني في المابين ( الديوان السلطاني ) والمتوفى  
سنة ١٣١٠ هـ (٢٢) .

أما **النثر** في هذا العصر فلا يقاس عدد كتابه بعدد الشعراء ؛ والحق  
ان سوق الشعر ظلت رائجة أكثر من سوق النثر ، بحيث لانجد الا نائرا  
واحدا بين عشرة من العلماء ، بينما نجد بينهم ستة أو سبعة شعراء ويندرج  
ما تضمنته ( الحلية ) من فنون النثر في أدب التراسل أو الاخوانيات  
والمقامات والنثر الديواني وخلافه . ويعتبر نثر الاخوانيات أبرز فنون

\* التلفيز أو الالغاز هو التعمية بأحجية أو بما يستعصي على الحل .



النثر في هذا القرن ، لانه يعبر عن المجاملة الاجتماعية من خلال مناسباتها بالتهنئة والمواساة والتشجيع برسائل تغلب عليها الصنعة اللفظية ، ويشيع فيها الاطناب والملاطفة والاغراق في المجاملة واصطناع السجع الذي يورث معظم نثر الاخوانيات الركافة وسقم التعبير من مثل : « العالم الشهير ، والشهم اللوذعي الخطير ، المولى المفضل ، المتسريل برداء السيادة والكمال ، صاحب الفضائل والادب ، والسامي بمعارفه ذروة الرتب فله دره من امام ، حاز كل مرتبة ومقام ، تليت آيات أحاديثه في طروس ذوي الفضائل والامداد ، فسما في سماء السيادة والارشاد . . » (٢٣) وقد تتضمن جملها آيات من القرآن الكريم أو مقتبسات من الحديث الشريف أو شذرات من المنظوم والمنثور . . فتعكس رسوخ قدم قائلها في آداب التراث . وقد يستغرق الناثرون في أسباب الصنعة من تشابه واستعارات وكنايات واشارات واستطرادات لغوية وأدبية وعلمية يشحذون بها صفاء الذهن وحدة الذكاء ويدلون بمواهبهم الادبية واللغوية ، وبالجملية يظهرون براعتهم في تمثيل آداب المجتمع الشامي التي تعكس أوضاعه الثقافية والاجتماعية .

ولعل مقامة أحمد البربر هي واحدة من المقامات القليلة التي تجسد النثر الفني الجميل نظمها في مدح العلامة الشيخ عبد الرحمن العمادي ، وموضوعها المفاخرة بين الماء والهواء ، وتجري المحاورة بينهما على نحو طريف مسبوك تتوازن فيه السجعة ، وقد بدأها « بالبسمة والحمد لمن خلق العناصر ، وجعل لكل منها فضلا تعقد عليه الخناصر ، وصلاة وسلاما على الجوهر الفرد الذي منه عرض العالم ، ومن هو في الدارين سيد بني آدم . . » (٢٤) .

ومما ورد في المقامة : « . . وبعد فان الفكر والخيال . دخلا بي الى رياض ضاع زهرها فتمّ عليه النسيم ودار عليه الماء الزلال . أكلها دائم وظلها . . . وطاف النسيم بكعبة صفانا طواف القدوم فما كان أطف ذلك الطائف . غير أننا كنا نسمع محاورة . ضمنها منافرة ومحاضرة . فسألنا الرياض عن جلية الاثر . فقالت سلوا النسيم فقد أصبح عند النسيم الخبر فوجهنا وجه السؤال الوسيم . الى قبلة النسيم . فتدلى وتدلل وما أطف النسيم اذا تعلق . ثم مرّ بنا مقبلا ومقبلا ، وكلما مر حلا . وقال يا أهل الفراسة والسياسة ، والفتوة والمروءة والحماسة ، انها منافسة بين الماء والهواء أوجبها حب انفراد كل منهما عن صاحبه بالرياسة ، فهل تنعمون بحضورهما لديكم ومثولهما بين يديكم . ليعرض كل ماله من حسن الاوصاف ، وتحكموا بينهما بالعدل والانصاف . . » .

وتتوالى حجج الماء والهواء بليغة مؤثرة تشيع فيها الآيات والاحاديث والامثال والاشعار والحكم ، ليثبت كل منهما تفوقه على الآخر (٢٥) ، الامر الذي يدل على طول باع صاحب المقامة وتمكنه من علوم عصره النقلية والعقلية ورسوخ قدمه في معاني التراث نثرا ونظما .

وللشيخ بهاء الدين البيطار مقامة أنشأها في المفاخرة بين الشمس والقمر ، يستهلها بقوله : « حدثنا يسار بن حازم ، عن فتح الله أبي المكارم ، قال : رويت عن الورقاء بسندها عن العنقاء ، قالت نشرت جناح الهمة ، وطرت في فضاء الحكمة ، . . . فرأيت في مرايا العجائب ، ومرايا الغرائب ، مجلسا من مجالس السمر ، جمع الشمس والقمر ، وهما متقابلان في النظر ، في ليلة أربعة عشر ، فألفت منهما الحديث والنظرة ، ودلفت لتلك الحضرة ، ثم بادرت بالتسليم ، وحييت بالتعظيم ، فقالا مرحبا وأهلا فلقد صادف الغريب أهلا ، ثم أجلساني على موائد الفوائد وأنساني لفرائد العوائد ، ثم شرعا يتناجيان وقد برعا بسحر البيان (٢٦) .

وتتعاقب حجج الشمس والقمر بلغة سهلة مشرقة تنتشر فيها الآيات والاحاديث مع الشعر والامثال .

وللشيخ محمد المبارك المغربي الجزائري الدمشقي مقامة بديعة مدح فيها الامير عبد القادر الجزائري وسماها ( غناء الهزار في محاوراة الليل والنهار ) ، والسجعة الاولى من التسمية يؤخذ من حساب حروفها تاريخ انشائها وترصيفها (٢٧) ومما جاء في مطالعها : « وبعد فاني تفكرت ذات يوم في اختلاف الليل والنهار ، وما أودع الله فيهما من لطائف الحكم والاسرار ، مصفيا لما يترجمه لسان الحال ، لاسند ذلك اليه دون انتحال ، فرويت عنه من أبنائهما بدائع وغرائب ، وقد قيل ان في الليل والنهار عجائب .

### من لم يؤدبه والده أدبه الليل والنهار

فصفت تلك المعاني في مقامة رقيقة المباني ، مشحونة بفرر من نتائج الافكار ، ودرر تزهو على البنات الابكار ، يزداد بها الاديب علما وتبيانا ، ويرتاد منها الاريب أدبا وعرفانا وأبرزتها في معرض المحاوراة ، لتجنح اليها أرباب المحاضرة ، فهي فكاهة أحلى من عيش الصبا ، ونفثة أرق من نفحة نسيم الصبا ، وشحنتها بمدح أمير تتحلى بوصفه البراعة « الخ . . . ويختم المقامة بقصيدة نهايتها :

## مقال ممتدحا مؤرخ شكره هام الوجود بسر عبد القادر

٤٦ ٥٠ ٢٦٢ ٧٦ ٣٣٦

وجملة ذلك خمس وتسعون ومائتان والـف .  
وممن اشتهر في فنون النثر والشعر معا الشيخ ابراهيم الاحدب  
الطرابلسي ثم البيروتي . ولد في طرابلس الشام سنة ١٢٤٠ هـ وزار الاستانة  
ايام السلطان عبد المجيد واتصل بعلمائها ، ثم عين رئيس كتاب المحكمة  
الشرعية في بيروت ، وتولى رئاسة جريدة ثمرات الفنون ونشر فيها مقالاته  
الادبية المتنوعة ، وانتخب عضواً في مجلس معارف ولاية بيروت ، وله  
من الرسائل في سنة ١٢٩٥ وحدها ما يزيد عن خمسين كراسة ، وله  
« شرح فرائد اللال في مجمع الامثال » مطبوع بمجلدين ، وكتاب « نشوة  
الصهباء في صناعة الانشاء » ، وكتاب « تفصيل اللؤلؤ والمرجان في فصول  
الحكم والبيان » ، وكتاب « فرائد الاطواق في اجياد محاسن الاخلاق »  
مطبوع ، وهو مائة مقالة نثرا ونظما . وكتاب « عقود المناظرة في بدائع  
المغايرة » بجزئين يحتويان على خمس وعشرين مغايرة ادبية في المناظرة  
بين السيف والقلم . و « الوسائل الادبية في الرسائل الاحدية » . وله  
مقامات تبلغ التسعين وروايات تبلغ العشرين ، وآخر ما ألف كتاب  
« كشف المعاني والبيان عن رسائل بديع الزمان » مطبوع ويقدر ما نظمه  
بثمانين ألف بيت . توفي في بيروت عام ١٣٠٨ هـ (٢٨) .

ومهما يكن الامر ، فلا يمكن مقارنة نتاج فن النثر في هذا القرن  
بنتاجه في العصور العربية الزاهرة ، لا من حيث الشكل ولا من حيث  
المضمون . وباستثناء مقامات البرير والاحدب والبيطار والمبارك ،  
لاتنطوي الاثار النثرية عهدئذ على الاصاله والابتكار ، برغم أن القرن الثالث  
عشر شهد في ربه الاخير بوادر النهضة العربية الحديثة . ذلك أن قيود  
الصنعة والسجع والمحسنات البديعية ظلت تجمد موضوعاته وتمسك  
بخطامه .

ولانتهي الحديث عن الشعر والنثر دون أن ننوه ببعض من أجاد  
الترجمة من العربية الى التركية ، اضافة الى اتقانه الفارسية أيضا .  
فقد اشتهر في هذا الباب عبد القادر القدسي الحلبي ، الكاتب الثاني في  
المابين ( وقد تقدم ذكره ) . والرجل تلقى علوم العربية والفقه عن  
علماء حلب ثم أتقن بعدها التركية والفارسية وأحسن المنشور  
والمنظوم في اللغتين العربية والتركية ، وله فيها الاثار الحسنة . ومن أبرزها أنه

ترجم كتاب ( البرهان المؤيد ) للمتصوف أحمد الرفاعي من العربية الى التركية ، ورسالة رحيق الكوثر للمتصوف نفسه وترجم (المجالس الاحمدية) .  
وممن أجاد اللغات الثلاث العربية والتركية والفارسية الشيخ عبد الله ابن مصطفى الجابري وكان علماء الروم يحرون ما يكتبه من الترسل التركي ويقيدونه عندهم ويشهدون بتفوقه (٢٩) .

### علوم العربية :

أسهم علماء القرن الثالث عشر الهجري في علوم العربية ، وعرضوا لفنون البلاغة من معان وبيان وبديع ، اضافة الى الصرف والنحو والعروض ، في اطار ما عرضوا له من نتاج ثقافة الاوائل ومعارفهم ، وذلك في مسعى للاحاطة بها وتلخيصها والتعليق عليها . بجهود شخصية تهدف الى الارتقاء بهذا النتاج ، وتيسيره ورفده والتنبيه الى الاخطاء الشائعة حوله لدى عامة الناس ، مدفوعين بالرغبة في مراعاة مقتضيات المرحلة التاريخية التي يعيشونها ، وباحتياجات النشر اليها ، فعمدوا الى الشرح والتعليق ووضع الهوامش على المؤلفات والتصانيف المشهورة على نحو يرمي الى تحقيق شيء من الاصاله .

ولو استعرضنا تراجم علماء العصر في ( الحلية ) لطلعتنا بأوصاف ونعوت تعكس مدى الاهتمام بعلوم العربية ، مثل : « وكان المعيا لغويا نحويا » (٢٠) « حضر عليه جملة من الصرف والبيان » (٢١) « ذو اليد الطولى في العلوم من صرف ونحو وفقه ومنطق وعروض ومناظرة وبلاغة وبديع » (٢٢) . « هو الشيخ الامام العالم . . . الفقيه النحوي اللغوي البياني العروضي » (٢٣) . الخ . . . وتبرز ( الحلية ) أسماء عدد من كبار العلماء في علوم العربية انتفع بهم الناس وأخذ عنهم جم غفير ، منهم الشيخ حسن بن عمر الشطي الدمشقي الذي وضع تأليف مفيدة في البيان ، وشرح « الاظهار في النحو » (٢٤) ومنهم الشيخ خالد النقشبندي الذي وصف بأنه « صاحب اليد الطولى في الصرف والنحو والفقه والعروض والبلاغة والبديع . . . » (٢٥) ومنهم الشيخ عبد الغني الغنيمي الميداني وله « شرح المراح في علم الصرف » (٢٦) . ومنهم الشيخ عمر الغزي مفتي الشافعية بدمشق ، وقد شرح منظومة جده البدر الغزي في النحو وسماها « الكواكب الدرية شرح الدرّة المضية » ، وله شرح على الاجرومية (٢٧) . كذلك أنشأ شهيد العروبة عبد الحميد الزهراوي رسالة في النحو (٢٨) . وللشيخ ابراهيم الاحدب مشاركة في التأليف بعلوم البلاغة اذ وضع « ذيل ثمرات الاوراق » مذيلا على كتاب « ثمرات الاوراق » لابن حجة الحموي المتوفى سنة ٨٣٧هـ / ١٣٣٤ م .

## العلوم الشرعية :

لامراء في أن هذه العلوم في القرن الثالث عشر الهجري ظلت تحتل مقام الصدارة بين العلوم الذي شهدته في القرون السالفة . فالدولة العثمانية كانت دولة دينية عسكرية اقطاعية من نوع خاص ، والاتراك ظلوا يتخذون من الاسلام نظاما اجتماعيا وتشريعيا ، وهذا مهم من حيث أن الشريعة الاسلامية بحكم كونها سماوية فهي بنظر المسلمين غير قابلة للتغيير ، وغاية مايمكن أن يجري عليها هو اجتهاد المجتهدين وتفسير العلماء وقياس المرعين والفقهاء ، وفتاوى المفتين وكفى . ولذلك كان رجال ( الرياسة الشرعية ) من علماء الدين أكثر تعلقا بالدولة ، وزاد نفوذهم بصبغتها الدينية وبتوفر الحكام على بناء المساجد والمدارس والتكيا مع حبس الاوقاف الشاسعة عليها ، وكان يسمع صوتهم في قضايا الادارة ومشاكل المجتمع ، وقد ميزتهم الدولة باعفائهم من الضريبة والمصادرة . لقد بقي المجتمع متحفظا بوجه العموم حيال من يريد بتقاليده سوءا ، وكانت روح المحافظة هذه مما يعجب السلطات العثمانية لانها تتفق وسياسة الابقاء على جمود الوضع الراهن ، ولاتوقظ لدى الجماهير العربية نوازع التحرر والتطور . ولاحاجة الى التأكيد على أهمية العلوم الشرعية في حياة المجتمع آنذاك كالفقه والحديث والتفسير والتصوف والفتيا والقضاء ، مادامت تتصل بحياة الناس اتصالا وثيقا .

وعلى الرغم من رفعة مكانة هذه العلوم الشرعية في ثقافة ذلك العصر ، إلا أن تناولها من جانب العلماء ونتاجهم فيها ظل تقليديا اتباعيا لاتجديد فيه باستثناء قلة منهم . فقد اقتصرت جهود الغالبية الساحقة على الحواشي والتعليقات والشروح والتلخيصات . وهذا لايقبل بحال من قيمة بعضها وأثره . وقبل أن نعرض لهذه العلوم نشير الى انه استمرت العناية في هذا العصر أيضا **بعلم القراءات والتجويد** ، وتزودنا ( الحلبة ) بتراجم لعدد من مشاهير المقرئين والقراء . فالشيخ محمد الاسطواني درّس الحديث تحت قبة النسر بالجامع الاموي بدمشق ونشر علم القراءات والمواعظ (٢٩) . والشيخ أحمد العطار قرأ القرآن والتجويد على مقرئ الديار الشامية السيد ديب بن خليل تلميذ أبي المواهب الحنبلي ، وقرأه أيضا وتلقاه بالوجه السبعة (٤٠) . والشيخ أحمد الحلواني هو شيخ القراء بدمشق ، حفظ القرآن عن ظهر قلب من طريق حفص على الشيخ راضي ثم أقبل على طلب العلم . . وذهب الى مكة سنة ١٢٥٣هـ وأخذ عن شيخ القراء فيها الشيخ أحمد المصري المرزوقي فقرأ عليه

مجودة من طريق حفص ، ثم حفظ عليه الشاطبية ، وقرأ القراءات السبع من طريقها ، ثم حفظ الدرّة وأتم القراءات العشر من طريق الشاطبية والدرّة ، ثم حفظ الطيبة لشيخ هذا الفن الشيخ محمد بن الجزري وقرأ عليه ختمة من طريقها للقراء العشرة ، ثم أجازته الشيخ بالقراءات العشر ، ومات جوز له روايته ، ثم رجع الى وطنه سنة ١٢٧٧ هـ وله رسالة في التجويد سماها ( المنحة السنية ) ، ثم شرحها شرحاً لطيفاً جمع فيه غالب أحكام التجويد سماه ( اللطائف البهية ) ، وانجب تلامذة عديدين لهم اليد البيضاء في فن التجويد والقراءات (٤١) مكرر . توفي عام ١٣٠٧ هـ .

ومن مشاهير القراء الشيخ طاهر بن ابراهيم الحموي ، شيخ القراء بحماه ، قرأ القرآن وحفظه من طريق حفص ، وحفظ الشاطبية والرائية وطيبة النشر وشروحها والجزرية وقرأ التمهيد في التجويد ، وابن القاصح شرح الشاطبية والهمداني والنكت والدرّة لابن الجزري وابن المصنف شرح الطيبة وغيرها من الشروح والمتون . . وألف بالقراءات كتاباً سماه ( الفوائد ) ، توفي بعد عام ١٢٠٥ هـ (٤١) وبذلك كثر القارئون في هذا العصر بعد أن كاد هذا الفن ينعدم من الشام .

ويلاحظ أن العلوم الشرعية التي كان يتولى علماء العصر تدريسها، كانت مترابطة متلازمة . فلم يكن بد من الإحاطة بالفقه والتوحيد والتفسير والحديث والفرائض والتصوف مع المام بالقراءات والتجويد ، لتستقيم دراسة هذه العلوم الشرعية مع حواشيتها . ولو أخذنا عينة من العلوم الشرعية التي كان يدرسها عدد من هؤلاء العلماء في ضوء ماورد في تراجمهم ، لاتضح لنا أن نهجهم واحد ، لا يكاد أحدهم يختلف عن زميله بشيء ، حتى ولو أتيح له القيام برحلة في طلب العلم الى الحواضر العربية والاسلامية . وقد ترتب على ترابط هذه العلوم الشرعية أن درجات التدريس والقضاء كانت متصلة ، وان سلك القضاء العثماني كان يرتبط ارتباطاً وثيقاً بسلك التدريس ، ولذا أمكن للقاضي أن يكون مدرسا والعكس مادامت ثقافتها واحدة ، اما التصوف فقد رعته الدولة واعترفت بطرقه التي نالت من اهتمام الدولة ماالحقها بالحياة الدينية الرسمية . ونقرأ في تراجم ( الحلية ) أن العلماء كانوا غالبا ينتسبون الى طريقة صوفية . والحق أن أجمل ما في التصوف الاسلامي هو أن اتباع الطريقة لايلزم أن ينقطعوا لها ، اذ كان يمكن لجميع مريديها أن يلتحقوا بها ارضاء لنوازعهم الروحية الدينية دون أن يخلوا بواجباتهم تجاه

حرفهم وأعمالهم اليومية ، ودون أن يكونوا عالة على أحد ، ماداموا يكدون ويعملون ، وبذلك كانوا يجمعون بين الشريعة والحياة .

ونحن لو قرأنا ماورد في ترجمة السيد محمد نسيب حمزة لرأينا فيها مصداق ما ذكرنا . ولد نقيب الأشراف المذكور بدمشق سنة ١٢٠١هـ ، . . . تعلم القرآن وهو ابن خمس ، وتعلم الخط بنوعيه وهو ابن سبع ، ثم اشتغل بطلب العلم . فأخذ التجويد وشيئا من الفقه عن الشريف حسن المكي ودرس الفقه والنحو والعروض عن العلامة السيد شاكر العقاد الشهير بمقدم سعد ، وكان أغلب قراءته عليه ، وسمع الحديث عن العلامة محمد الكزبري ثم قرأ الأربعين النووية ( حديث ) والتوحيد والنحو والصرف والمعاني والبيان على العلامة محمد عيد العاني ، وأخذ الفقه أيضا والتفسير والنحو كالدر والبيضاوي والفاكهي عن العلامة سعيد الحلبي وطرفا من الفرائض والحساب عن الشيخ محمد المخللاتي ، وأخذ الطريقة الخلوتية عن الاستاذ الشيخ عبد اللطيف العمري (٤٢) ونقرأ عن الشيخ أحمد الخاني الدمشقي « . . . فحضر الصحيحين وبعض كتب التصوف وأخذ عن والده الطريق النقشي ( النقشبندية ) واشتغل به كثيرا . . . وبقي مدة في النيابة ، تارة في بعض المحاكم الشرعية الدمشقية ، وتارة في بعض البلاد خارج الشام » (٤٣) .

ونقرأ عن الشيخ محمد بن عبد الله الخاني أنه « ولد بدمشق سنة ١٢٤٧ هـ وقرأ القرآن وأتمه ، وأجاز له المحدث الحجة الثبت الشيخ عبد الرحمن الكزبري ، وحضر دروس والده كلها من نحو وفقه وحديث وتفسير وكلام وتصوف وحساب وفرائض . وتخرج على يد الشيخ محمد الضندتائي فقرأ عليه حاشية الخضري على ابن عقيل وحاشية الصبان على الأشموني في النحو ، والتحفة في فقه الامام الشافعي بحواشي ابن قاسم العبادي ، وجمع الجوامع بحواشي البناني ، والايات البيئات لابن قاسم المشار إليه ، مع مراجعة الاطول في الاصول ، وأشكال التأسيس في الهندسة وتشريح الافلاك للبهاء العاملي في الهيئة ، والشنشوري في الفرائض ، وشرح المختصر بحواشيه ، وطرفا من المنهج بحواشي البجيرمي ، وشرح الملّوي على السلّم بحواشي الصبان ، وبعض ابن قاسم الفزي بحواشي الباجوري في الفقه ، وشرح الجوهرة بحواشي الامير الكبير ، وشرح العقائد النسفية للسعد ( التفتازاني ) بحواشي الكمال بن أبي شريف ، وشرح المسائرة له أيضا ، وشرح الملوي على السمرقندية بحواشي الخضري والامير ، ورسالة الوضع بحاشية العصام وآداب البحث ،

والكافي في العروض بحواشي الدمنهوري ، والرقائق في الدرج والدقائق ،  
ورسالة الربع المجيب ، وشرح اللمعة في الكواكب السبعة . . وحضر دروسا  
من البخاري تحت قبة النسر لدى الشيخ عبد الرحمن الكزبري « . . توفي  
سنة ١٣١٦ هـ (٤٤) . يتضح من الترجمة السابقة أن صاحبها لم يترك  
علما معروفا في عصره الا وطرق بابيه وقرأه على شيوخه وأعلامه ، من علوم  
العربية والعلوم الشرعية ، والحساب والهندسة وعلم الهيئة والفلك  
في أصولها وحواشيتها وتفرعاتها ، ويلاحظ أن هذه كانت الكتب المعتمدة في  
التدريس في بلاد الشام وفي مصر وغيرها ، فهي كتب مدرسية بالدرجة  
الاولى .

ويعتبر الشيخ محمد أمين بن عمر عابدين من أجل علماء الفقه  
الحنفي في ذلك العصر ، فقد وضع التأليف العديدة التي أبرزها حاشيته  
الشهيرة ( رد المختار على الدر المختار ) في خمسة مجلدات كبار ،  
ومنها ثبته المشهور الفائق ، ومنها منحة الخالق على البحر الرائق  
وحواشيه على شرح الملتقى للعلائي ، وحواشيه على النهر الفائق ،  
وحواشي على القاضي البيضاوي التزم أن لا يذكر فيها شيئا ذكره  
المفسرون ، وحواشي على حاشية الحلبي على الدر تتبع فيها المحشي  
المذكور ، سماها رفع الانظار عما أورده الحلبي على الدر المختار .  
والعقود الدرية في تنقيح الفتاوى الحامدية ، وحاشية على المطول ،  
والرحيق المختوم شرح قلائد المنظوم في الفرائض ، وتنبيه الولاة والحكام في  
حكم شاتم خير الانام أو أحد أصحابه الكرام وسواها (٤٥) توفي عام ١٢٥٢ هـ .

ومعلوم أن ( الدر المختار ) مصنف معروف في المذهب الحنفي  
للحصكفي الدمشقي المتوفى عام ١٠٢٥ هـ وكان موضع عناية الفقهاء ،  
وقد عكف العلامة عابدين على تحقيق وتدقيق ماورد فيه ليكون مرجعا  
كاملا ، وجاء ولده محمد علاء الدين عابدين فأكمل ماغفل عنه أبوه في  
( رد المختار ) وجعل تكملته بعنوان ( قرّة عيون الاخبار لتكملة رد المختار  
على الدر المختار شرح تنوير الابصار ) . وقد أثبت العالم وابنه أنهما  
متمثلان تماما للمفردات والقضايا الفقهية مما زاد في قيمة كتاب  
الحصكفي . ومثل ذلك يقال على ( الفتاوى الحامدية ) التي نقحها ابن  
عابدين أيضا . ولولده محمد علاء الدين من التأليف كتاب ( مطرح  
النجاح على متن نور الايضاح ) في مجلد كبير ، ورسالة ( اغاثة العاري  
لزلة القاري ) وكتاب ( الهدية العلائية ) وكتاب ( مثير الهمم الابية الى  
ما أدخلته العوام في اللغة العربية ) (٤٦) . وقد تولى مناصب علمية ذات



شأن ، اذ عين عضوا في الجمعية العلمية بالاستانة ، الشعبة من ديوان الاحكام العدلية سنة ١٢٨٥ هـ ثم حضر الى دمشق بمعاش شهري ونیشان الرتبة الرابعة ثم عين رئيسا للجمعية الخيرية بالشام ثم نائبا لطرابلس الشام ثم رئيسا ثانيا في مجلس معارف ولاية سورية ، وتوفي عام ١٣٠٦ هـ (٤٧) .

ولو نظرنا في التأليف الفقهي نفسه ، لافتقدنا في معظمه الاصاله والذاتية فموضوعاته قضايا فقهية عارضة بسيطة جرى الجدل بصددها غالبا ، كما كان الحال في القرنين السالفين حيث كان النقاش يدور حول اباحة التدخين أو تحريمه وكراهيته الخ . . . . وكذلك القهوة والافيون (٤٨) . ولا بد أن القضايا التي كانت محور خلاف بين العلماء والفقهاء في هذا القرن كانت من قبيل ( حكم الحائض المشترك ) و ( حكم مال اليتيم ) و ( مقدم صداق المرأة بعد زواجها ) و ( صحة وقف المشاع ) و ( كشف الالتباس في قول البخاري قال بعض الناس ) (٤٩) الخ . . . .

وقد استوى في تناول هذه القضايا الفقهاء والعلماء تقريبا على اختلاف مراتبهم ودرجاتهم . وهاهوذا مفتي دمشق السيد محمود حمزة لم يشذ في بعض تواليفه عن هذا النهج حينما ألف : ( رفع المجانة في حكم الغسل من الاجانة ) ، والاجانة وعاء تغسل فيه الثياب ، و ( رفع الستور عن المهياة في المأجور ) و ( رفع الغشاوة عن أخذ الاجرة على التلاوة ) ، وما الى ذلك من قضايا فرعية ، سعى الفقهاء الى القطع في أمرها ، ليكون الناس على بينة بشأنها ، وليتمكن علماء الشرع من الاستعانة بها في اقامة حكم الشرع . وهي كلها توضح ركود الجو الفقهي الذي ألفت فيه ، ومقتضيات الفتاوى التي أوجبها طبيعة الحياة العامة . وقد لمع اسم المفتي محمود حمزة في هذه الفترة ، وهو من أبرز علماء عصره ، وصاحب المناصب والاوزمة الرفيعة ، وتواليفه تشهد بطول باعه في جميع معارف وفنون عصره على اختلافها وتباينها (٥٠) .

كذلك يبدو أن بعض الفقهاء تصدوا للدعوة الوهابية التي اتسع أمرها وتعاضم سلطانها ، وتحدث علماء الدولة العثمانية وقطعت طريق الحاج . . وكان لا بد أن يظهر أثرها وتغدو مشكلة من مشاكل العصر ، ويظهر مؤلف ( بغية الطلاب في الرد على ابن عبد الوهاب ) بين مؤلفات مفتي حمص العام الشيخ عبد الحميد بن عبد الوهاب السباعي ، الى جانب تواليفه القيمة الاخرى مثل حاشية على جمع الجوامع (٥١) في

مجلدين ضخمين ، وفتاوى في المعاملات من مذهب أبي حنيفة في ثلاثة مجلدات سماها ( الاقناعية ) .

ويلوح للباحث أن بعض العلماء قد تأثروا بتفهمهم مقدرات الدولة تجاه دول أوروبا الطامعة في ممالكها والدولة العثمانية آنذاك ممثلة الاسلام الرسمي ورافعة رأيته ، فطفقوا يفتشون عن دواعي تخلفها وانحطاطها ، ومنها رسالة ( أين الاسلام ) وهي نبذة أدبية اجتماعية تمثل حالة المسلمين ، وقد أنشأها الشيخ عمر بن طه الحمصي الاصل الدمشقي المشهور بالعطار ، والرجل تصدى للرد على منتقدي محيي الدين بن العربي ، وتولى شرح فصوص حكمه .

ومن ناحية أخرى لاحت بوارق تحرر واستنارة وسط عصر الجمود والتخلف الذي عاشته الدولة عموما ، تمثلت في مناظرة بعض العلماء المسلمين للنصارى في الكنائس والبيع . فهاهوذا الشيخ صالح المنير الدمشقي المدرس في المدرسة الاخنائية شمال الجامع الاموي ، ومدرس التفسير أيضا في الجامع المذكور ، جمع همته لمطالعة التوراة والانجيل حتى صارت له فيهما ملكة فكان كثيرا ما يذهب الى الكنائس والبيع ويجادلهم . «ولما وقعت المجادلة بين البروتستانت في جريدتهم ( النشرة الاسبوعية ) وبين اليسوعية في جريدتها ( البشير ) صار المترجم ( المنير ) حكما بينهم ، وكتب في ذلك رسالة طبعتها الجريدة المذكورة ، ثم أفرقتها وجعلتها رسالة مستقلة وكان كثيرا ما تنشر له الجرائد مقالات من قلمه ، خصوصا الجوائب في الاستنارة والجنان في بيروت » (٥٢) .

ولعل هذا الضرب من الجدل العقدي الذي استعر بين الكاثوليك والبروتستانت مبعثه الصراع بين الارساليات التبشيرية الذي تفاقم في الربع الاخير من هذا القرن في بلاد الشام ، ولم يكن هذا النوع من المناظرة بدعا آنذاك ، اذ لم يخل الامر من مناظرة وحوار بين علماء المسلمين وعلماء النصارى في القرن الماضي (٥٣) ولكن الجديد هو تحكيم عالم مسلم في مجادلة استعرت بين طرفين نصرانيين واطلع كل منهما على مآثر النهضة الاوربية في الاساليب الجدلية وتثقف في مدارسها وتمثل قدرا من نتاجها الفكري .

ونذكر استطرادا أننا لم نعثر في ( الحلية ) على ذكر للمناظرة أو الحوار بين علماء المسلمين ، مثلا بين علماء السنة والشيعة ، ولم يعرض المؤلف لقضايا الخلاف المذهبي ، ولعل بساطة هذه القضايا ويسرها لم

يدعا مجالاً للاسترسال فيها . ولا حاجة الى القول أنه لابد ان تتوفر فيمن يخوضون غمار هذا الحوار العقدي شروط الثقافة العامة الواسعة والثقة بالذات .

### الحديث :

ذكر الشيخ محمد بهجة البيطار سبط صاحب ( الحلية ) ومحققها والمعلق عليها باستدراكاته ، ذكر بحق أن الشام عرفت من الصدر الاول بانها بلد السنة : « فمسند الشاميين – أي الصحابة الذين نزلوا الشام – هو جزء كبير من مسند الامام أحمد المطبوع بمصر ومعه منتخب كنز العمال سنة ١٣١٣ هـ ويجده المطالع في الجزء الرابع منه ، وبالاسانيد المتصلة بهؤلاء الشاميين وغيرهم من الصحابة الذين تفرقوا في الامصار ، أخرج الأئمة الحفاظ أحاديثهم كالبخاري ( المتوفى سنة ٢٥٦ هـ ) ومسلم ( ٢٦١ ) وأصحاب السنن والمسانيد والمعاجم والجوامع ، وعنهم أخذ أئمة الرواية والدراية مدرسو دار الحديث الاشرفية بدمشق كابن الصلاح ( المتوفى سنة ٦٤٣ ) وابن شامة ( ٦٦٥ ) والنووي ( ٦٧٦ ) وابن الوكيل ( ٧١٦ ) وابن الزمكاني ( ٧٢٧ ) والحافظ المزني ( ٧٤٢ ) وعلم الدين البرزالي ( ٧٣٩ ) والحافظ الذهبي ( ٧٤٨ ) والتقي السبكي ( ٧٥٦ ) والحافظ ابن كثير ( ٧٧٤ ) وابن جماعة ( ٧٣٣ ) « (٥٤) .

وأوردت ( الحلية ) تراجم من جلس لتدريس الحديث تحت قبة النسر في جامع بني أمية ، يروون بالسند عن الأئمة الكبار سالف الذكر ، وكان يشترط أن يقوم على درس الحديث تحت قبة النسر أعلم علماء دمشق (٥٥) وكان الشمس محمد الميداني أول المحدثين ، ومدة تدريسه على ما ذكر اما أربع أو خمس وعشرون سنة (٥٦) . ثم تولى التدريس بعده الشيخ نجم الدين الغزي واستمر حتى وفاته ( ١٠٦١ هـ ) (٥٧) . وجاء بعده ولده الشيخ سعودي العربي وابتدأ من حيث انتهى والده في صحيح البخاري ، وبقي في التدريس حتى وفاته ( ١٠٧١ هـ ) (٥٨) . ثم وجه التدريس الى الشيخ محمد المحاسني خطيب الجامع الاموي ، فدرس شهرا ثم مات ( ١٠٧٢ هـ ) (٥٩) ، وتلاه الاستاذ محمد البطيني وبقي في التدريس حتى وفاته ( ١٠٧٥ هـ ) (٦٠) ثم استلم التدريس الشيخ علاء الدين الحصكفي مفتي الحنفية بدمشق وصاحب التصانيف في الفقه ، فبقي عليه الى أن توفي ( ١٠٨٨ هـ ) (٦١) . فوجه التدريس الى الشيخ يونس المصري واستمر حتى وفاته ( ١١٢٠ هـ ) (٦٢) ثم تولاه الشيخ اسماعيل

العجلوني وظل فيه حتى وفاته ( ١١٤١ هـ ) (٦٣) . وتلاه الشيخ صالح الجيني فدرس الى أن مات ( ١١٧٠ هـ ) (٦٤) ، فوجه التدريس الى العلامة الشيخ أحمد الميني وبقي عليه حتى وفاته ( ١١٧٢ هـ ) (٦٥) ، ثم تولى التحديث تحت قبة النسر العلامة علي الداغستاني واستمر فيه حتى وفاته (١١٩٩ هـ ) (٦٦) .

وفي القرن الثالث عشر الهجري وجه التدريس تحت قبة النسر الى السيد محمد العطار ، فلم يدرس بل أناب عنه الشيخ محمد الكزبري فبقي مدرسا الى أن توفي السيد محمد العطار ( ١٢٠٩ هـ ) (٦٧) ثم تولاه الشيخ محمد الكزبري أصالة ، واستمر يدرس حتى وفاته ( ١٢٢١ هـ ) . فوجه التدريس الى ولده العالم الشيخ عبد الرحمن الكزبري ، محدث الديار الشامية ، فدرس في شهر رجب وشعبان ورمضان بعد عصر كل يوم ، وكان درسه مقصودا تحضره عامة العلماء للاخذ عنه . توفي أثناء الحج عام ١٢٦٢ هـ . ودفن في مقبرة المعلا بمكة . وكانت مدة تدريسه للحديث اثنتين واربعين سنة (٦٨) . ثم تولاه بعده ولده الشيخ عبد الله الكزبري ، ولم يزل كذلك حتى مات ( ١٢٦٥ هـ ) . ثم تولاه بعده أخوه الشيخ أحمد الكزبري الى أن توفي سنة ١٢٩٩ هـ . وممن اشتهر في هذا العصر بتدريس الحديث الشيخ بدر الدين الحسني محدث الشام ، كان له درس تحت قبة النسر كل يوم جمعة ، وله حجرة في دار الحديث الاشرفية بدمشق كنت تجدها مزدحمة بالطلبة دائما ، ويذكر الشيخ محمد بهجة البيطار أنه وزملاءه كانوا يجلسون في دار الحديث يقرأون كتاب منتخب كنز العمال ، وهو من كتب الحديث الجامعة ، ويصف العالم المذكور بقوله : « أما الحديث فلا نعلم له نظيرا في حفظه ولا في ضبط رجاله ومعرفة سنده » ، وقد دأب على دروسه نحو ثلاثة أرباع القرن (٦٩) . وممن درسوا الحديث أيضا الشيخ أحمد العطار ، تلقى العلم على شيوخ دمشق والقدس والمدينة المنورة ومكة المكرمة وزبيد ، وكان « اذا تكلم في التفسير فهو صاحب علمه وذورايته أو حاضر بالملل والنحل لم تر أوسع من نحلته في ذلك ولا أرفع من حاضرته » . درس في الجامع الاموي بدمشق وقرأ كتبا عديدة منها الجامع الصغير للسيوطي ، والجامع الصحيح للبخاري . . ووجهت اليه وظيفة تدريس المدرسة السليمانية وقرأ فيها صحيح البخاري (٧٠) . ومن علماء الحديث الشيخ سليم العطار الذي عمل على تطوير درسه في الجامع الاموي ، وتفنن في القاء المسائل واخبار السلف ، وتكلم على الحديث من سائر العلوم

ممزوجا بشيء من التصوف . . » ويأتي بالأحاديث المناسبة له ، ويستخرج منها الأحكام ويبين حجة كل مذهب . وكان يحضر دروسه العلماء من سائر المذاهب ، « وتنعقد المناظرات بينهم والمعارضات ، وكل يقيم أدلة على ترجيح قول امامه في المسألة ، ويكون الشيخ هو الحكم بينهم » (٧١) .

ومن علماء الشام المحدثين تحت قبة النسر الشيخ عبد الله الحلبي . كان يقرأ صحيح البخاري كل يوم جمعة من شهر رجب وشعبان ورمضان ، ومات سنة ١٢٢٣ هـ (٧٢) .

وممن نبه ذكره في الحديث الشيخ محمد بن محمد درويش الحوت الشامي البيروتي ، ولد سنة ١٢٠٣ هـ وأخذ عن كبار العلماء ، وله من المؤلفات في الحديث : « أسنى المطالب في أحاديث مختلفة المراتب » ، وهو مصنف في الحديث المشهور على السنة عامة الناس ، مما ينعت بالحديث الصحيح أو الضعيف أو الموضوع ، رتبة على حروف المعجم ، وله أيضا : « حسن الاثر فيما فيه ضعف واختلاف من حديث وخبر وأثر » وهو مبني على أبواب الفقه بحيث يرد فيه باب الوضوء قبل باب الصلاة . . كما صنف العبادات ثم المعاملات . وله أيضا « الدررة الوضعية في توحيد رب البرية » ، وهو مطبوع كالكتابين السابقين ولكن لم يقع عليه الباحث . توفي سنة ١٢٧٧ (٧٣) . وللعلامة الشيخ جمال الدين القاسمي الذي تقدم ذكره مؤلف في الحديث بعنوان « المسند الاحمد على مسند الامام أحمد » (٧٤) مكرر .

### التفسير :

من المعلوم أن جميع العلماء الذين درسوا العلوم الشرعية ، أجازهم شيوخهم بما تجوز لهم روايته وتنسب لهم درايته من حديث وتفسير وفقه وتوحيد وأصول . . . أي أنهم تولوا تدريس هذه العلوم للطلبة في المساجد والمدارس وحتى في دورهم ومنازلهم . ولكن تدريس التفسير شيء والتأليف فيه شيء آخر . ويبدو من قلة علماء التفسير أن شروط اتقانه عزيزة ، ومطالب أصالة التأليف فيه عسيرة لان المرشح لدخول ميدانه ، ينبغي أن يتوفر له معرفة عميقة في علوم العربية وعلم المعاني وخلافه ، وأهم من ذلك الإدراك العام الذي استحوز على أذهان العلماء بان تحقيق شيء من مثل تفاسير الاوائل كالطبري والرازي أمر متعذر . ومن هنا كان التفسير بين العلوم الشرعية أقلها تدوينا وتأليفاً .

وقد عكف العلماء على دراسة كتب التفسير المتداولة كتفسير الزمخشري والبيضاوي ، وماتوصلنا اليه من نتاج القرن في التفسير يكشف عن سمة التقليد التي غلبت عليه في القرن السابق ، من شروح وحواش على الحواشي ويوصف العلامة محمد أمين بن عمر عابدين الدمشقي بأنه قطب الديار الدمشقية وعمدة البلاد الشامية والمصرية المفسر المحدث وقد سبقت الاشارة اليه في الفقه ، وله حواش على البيضاوي التزم أن لا يذكر فيها شيئا ذكره المفسرون(٧٤) .

ومن نبغوا في التفسير أيضا الشيخ أحمد العطار سالف الذكر ومن هؤلاء كذلك الشيخ عمر بن عبد الغني العامري الفزي مفتي الشافعية بدمشق والمدرس في المدرسة الشامية مكان أسلافه . له رسالة في التكرار الواقع في القرآن بين مؤلفاته . وصار عضوا مقدا بمجلس شورى الشام نيفا وعشرين سنة . توفي سنة ١٢٧٧ هـ (٧٤) مكرر .

أما الشيخ جمال الدين القاسمي ، علامة الشام ، فله تفسير كبير يسمى ( محاسن التأويل ) طبع في سبعة عشر جزءا(٧٥) .

ومنهم الشيخ صالح بن أحمد المنير ، وكان له درس في التفسير بين العشائين في الجامع الاموي ، وكثير من مدرسي الحديث كانوا يقرئون طلبتهم كتب التفسير(٧٦) .

### العلوم العقلية :

تضمن كتاب ( حلية البشر ) تراجم علماء كثيرين في مختلف العلوم والفنون . ويورد مؤلف الكتاب عادة أسماء العلوم والمعارف التي درسها العالم أو قام بتدريسها ، ويتضح منها ان علماء القرن عموما كانوا موسوعيي المعرفة ، بمعنى انهم كانوا يحيطون احاطة شاملة بعلوم عصرهم اللغوية والشرعية وخلافها . فاذا كان لبعضهم اهتمام خاص بناحية معينة كالحديث والفقه والفرائض وسواها . . ذكر مؤلف الكتاب ان العالم تفرد بهذا العلم أو الفن . وعلى سبيل المثال ، نقرأ عن الشيخ حسن بن عمر الشطي الدمشقي أن له في مذهب الإمام أحمد بن حنبل التآليف المفيدة ، وله أيضا في بقية العلوم من توحيد وبيان وحساب ومساحة . . « كما انفرد بعلم الفرائض دون أن يشتغل بأعمال الفرضيين »(٧٧) . وهذا ينطبق أيضا على العلوم العقلية ، فالباحث لا يعثر بين تراجم ( حلية البشر ) الا على عدد قليل جدا من العلماء الذين

أقبلوا على العلوم العقلية كجزء من اهتمامهم بعلوم العصر وثقافة القرن . ولعل من أسباب احجام العلماء عن ولوج ميدان هذه العلوم انها لا تمت بصلة الى العلوم الشرعية ، وانها ضرب من العلوم المجردة التي قد يستخدمها بعض الزنادقة ضد علماء الدين المسلمين . واذا صد علماء القرن عن تدارس الفلسفة وماوراء الطبيعة من العلوم العقلية ، فانهم بالمقابل ، طرقتوا برفق باب المنطق وعلم الكلام والتصوف ، فالمنطق كان يدرس في المساجد والمدارس نظرا لحاجة الفقهاء والمفسرين والمتكلمين اليه في اصدار أحكامهم وفي الاتيان بالشرح والتفسير ، حتى غدا المنطق جزءا هاما من ثقافة علماء القرن . والمنطق الى هذا أساس لدراسة العلوم العقلية ، وبفضل أدواته يمكن الدفاع عن المذهب السني ، وهو مذهب الدولة الرسمي . وهاهو ذا الشيخ ابراهيم الاحدب الذي تقدم ذكره ، يضع مؤلفا في المنطق بعنوان ( مهذب التهذيب ) في علم المنطق (٧٨) ، ويعلق عليه شرحا . والعلامة الشيخ خالد النقشبندي الذي وصفه مؤلف حلية البشر بأنه ( امام العصر وغرة الشام ومصر ) ، له يد طولى في علوم المنطق والحكمة والكلام والتصوف (٧٩) . وللشيخ عمر بن طه العطار الحمصي الاصل الدمشقي ، الذي أخذ عن علماء دمشقيين ومصريين ومكيين ، رسالة في تحقيق معنى الوجود ، وترتيب العوالم العلوية والسفلية ، وله أيضا شرح الايساغوجي في المنطق (٨٠) .

وللسيد عبد الحميد الزهراوي المصلح الاجتماعي ، رسالة في المنطق لم تقع عليها ، وثلاث رسائل في الفقه والتصوف ، وهي رسائل اصلاحية ، ولكن الجامدين من العلماء أنكروا عليه منها القول بالاجتهاد وبطلان التقليد ، فهيجوا عليه الحكومة فاعتقلته بالشام ، ثم أرسل الى الاستانة حيث ظل في الاعتقال أشهرا ، ثم أرسل الى بلده حمص ليكون تحت المراقبة ، فبقي فيها الى أن فر الى مصر عام ١٣٢٤ هـ (٨١) وعمل في الصحافة هناك حتى اعلان الدستور ( ١٩٠٨ ) فعاد الى الشام لمواصلة النضال ضد تعصب الاتحاديين ، وأصدر جريدة ( الحضارة ) ، ولما ظهرت الحركة الاصلاحية وانعقد المؤتمر العربي الاول في باريس انتخب رئيسا له . واستغل الاتحاديون نشوب الحرب العالمية الاولى لمحاكمته واعدامه مع نفر من الشهداء العرب ( ١٩١٦ ) .

وبرغم أن الباحث لا يدعي الاطلاع على كامل نتاج العلماء في هذا الباب من العلوم العقلية ، الا أنه يمكن القول في ضوء ما توصل اليه معرفته ، بأن هذا النتاج كان ينحو نحو تقليديا ، ويكتفي غالبا بالتحشية والتهذيب والتعليق على توالييف علماء المسلمين في الاعصر الغابرة .

## التصوّف :

ضم كتاب حلية البشر الى جانب علماء اللغة العربية والدين الاسلامي تراجم عديد من العلماء الذين انتموا الى الطرق الصوفية المعروفة آنذاك ، كالنقشبندية والشاذلية والرفاعية والخلوتية والقادرية ( أو الجيلانية ) والمولوية والتجانية وغيرها . كما ضم تراجم عدد من الزهاد والصالحين والمجاذيب الذين لا ينتمون الى طريقة ما ، وانما سلكوا سبل العبادة والتنسك واستغرقوا فيها وجذبوا الى الله ، وكانت لهم أحوالهم وكراماتهم . ويعرض الشيخ عبد الرزاق البيطار مؤلف الكتاب الى بعض أفكار الصوفية ومعتقداتها وتقاليدها من خلال تراجمه ، ويبدو أنه هو نفسه لا ينكرها ، لاسيما وقد « صحب العارف بالله تعالى الامير عبد القادر الجزائري ، فقرأ عليه جملة من كتب الحقائق وأعظمها الفتوحات المكية » (٨٢) . وهو من كتب التصوف الشهيرة ، ولكنسه « كان ممن اشتهر بالانكار على أرباب الخرافات ، وممن يقاوم بلسانه تلك الخزعبلات » (٨٢) .

وتطالعنا تراجم ( الحلية ) بأسماء كثير من علماء القرن الذين أخذوا طريقة من الطرق الصوفية ، وجدوا في مسالكها وتقلبوا في مراتبها ، وقد يسلك أحدهم في طريقة أخرى دون أن يصرفه ذلك عن عمله الاساسي في الدرس والتدريس أو الفتيا أو النيابة وخلافها .

ونقرأ في ( الحلية ) أسماء الكثيرين جدا الذين لا يتسع مجال البحث لذكرهم ، ممن أخذ طريقة أو أخرى ، على شيخه أو والده أو عالم نزل دمشق . . . أو تعمق في كلام المتصوفة ، ومنهم على سبيل المثال : الشيخ أحمد العجلوني ، له «تأليفات كثيرة ، أخذ الطريقة الشاذلية عن والده » (٨٤) ، والشيخ أحمد الخاني . . درس الصحيحين وبعض كتب التصوف « وأخذ عن والده الطريق النقشي\* (النقشبندي) واشتغل به كثيرا حتى حصل له روحانية عظيمة » (٨٥) والشيخ بهاء الدين البيطار الذي « أخذ طريق الشاذلية عن الامام المرشد الشيخ محمد الفاسي ، فاشتغل في الطريق ومطالعة كتب السادة الصوفية كالفتوحات للشيخ الاكبر وغيرها حتى صار له ملكة عظيمة » (٨٦) . والشيخ طه شرف الدين الحلبي . . « قرأ علي محمد بن صالح المواهبي وأخذ عنه الطريقة القادرية » (٨٧) ، والسيد محمود حمزة مفتي دمشق : « وله مطالعة قوية في كلام السادة الصوفية » (٨٨) الخ . . . .

\* يسمى مريدو الطريقة النقشبندية طريقهم ( الطريق النقشي ) لانهم يكترون من

ذكر الله لتنقش أسماءه الحسنی في قلوبهم



ومن أشهر العلماء المتصوفة في هذا القرن الامير السيد عبد القادر ابن محيي الدين الجزائري المغربي ، وصفه مؤلف ( الحلية ) بقوله « هو الهمام الكامل العارف ، والامام المتحلي بأعلى العوارف ، الراسخ القدم في العلم الالهي ، والكاشف عن أسرار الحقائق حتى شهدها كما هي » . . ( ٨٩ )

مكث الامير مدة في دمشق « بذل بها في طريق النقشبندية اجتهاده وجدّه ، ثم سار الى مدينة بغداد لزيارة السيد عبد القادر الجيلاني . . ولبس الخرقة القادرية من يد نقيب الاشراف وخليفة السيد عبد القادر » . ولامراء في أن هذا الامير المتصوف المشهور قد أوجد في دمشق جوه العلمي المتميز ، وكانت داره حافلة بالعلماء والدارسين ، وكان الامير حفيا بهم يجيب على أسئلتهم ويحل مشكلاتهم ، ونقرأ في ( الحلية ) أن البعض اذا أشكل عليه شيء يراجع فيه الامير ( ٩١ ) . ومما يدل على عناية الامير بالمخطوطات وتحقيقها والحفاظ على أصول التراث ، أنه كلف عالين من علماء دمشق وهما الشيخ محمد المبارك الجزائري ، والشيخ محمد الطنطاوي ، بالتوجه الى مدينة قونية لمقابلة ( الفتوحات المكية ) على خط مؤلفها الشيخ محيي الدين بن العربي ، وقام العالمان بالمهمة فقرأ المخطوطة هناك مرتين مقابلة ، وبعد عودتهما الى دمشق قرئت على الامير بحضور طلبة العلم والعلماء لاصلاح نسخهم على النسخة المقابلة على خط المؤلف ( ٩٢ ) .

ومن العلماء المتصوفة في هذا القرن السيد محمد بن حسن وادي الملقب بأبي الهدي الصيادي ، ينقل مؤلف ( الحلية ) ترجمته حرفيا عن كاتبها وهو الشيخ محمد بن عمر الحريري شيخ الطريقة الرفاعية في حماة ، والترجمة تورد سلسلة نسبه ولبسه الخرقة والخلافة الرفاعية من يد والده . وحين صار نقيب الاشراف في حلب ، « دعاه السلطان عبد الحميد الى الآستانة ، وقلده مشيخة المشايخ والحقه الى رتبة قضاء العسكر التي هي منتهى المراتب العلمية ، فاشتغل بالتصنيف والتأليف » ( ٩٢ ) . له في التصوف كتاب ( قلادة الجواهر في ذكر الفوئ الرفاعي وأتباعه الأكابر ) ، و ( الكوكب الزاهر في مناقب الفوئ عبد القادر ) و ( العناية الربانية في ملخص الطريقة الرفاعية ) وسواها . .

ومن العلماء المتصوفة الشيخ بهاء الدين بن عبد الغني البيطار ،

وقد مر ذكره ، ويروي ولده الشيخ محمد بهجة البيطار أسماء مؤلفاته المحفوظة لديه ، يهمننا منها الان المؤلفات الصوفية ، وهي :

١ - كتاب النفحات الاقدسية في شرح الصلوات الاحمدية الادريسية (٩٤) .

٢ - فتح الرحمن الرحيم بالجمع والتوفيق في المسائل الثلاث بين القطبين الشيخ الاكبر والسيد عبد الكريم الجيلبي (٩٥) ، وهي في العلم والعلوم وأيهما تبع الاخر وفي الارادة والاختيار وفي الاسماء الالهية وأحكامها . وهو بخط المؤلف ويبلغ أكثر من خمسمائة صفحة ، وعليه حواش كثيرة بخط المؤلف أيضا .

٣ - كتاب الواردات الالهية ، في ثلاثة مجلدات مجموعها ( ١١٧٠ ) صفحة وهي كلها بخط ولده الشيخ محمد بهجة البيطار الذي يذكر أن هذه المؤلفات الثلاثة « تنحو نحو كتب الشيخين ابن عربي والجيلبي ، لاسيما الفتوحات المكية والانسان الكامل ، ففيها الكثير من الشرح والايضاح لهما » . وللشيخ بهاء أيضا رسالة بعنوان ( فيض الواحد الاحد في معنى خلود الابد ) وسواها (٩٦) .

ومن العلماء المتصوفة الشيخ عمر بن طه العطار الذي شرح ( فصوص الحكيم ) للشيخ محي الدين بن العربي شرحا وافيا ، وله ( رد متين على منتقص العارف محيي الدين ) وله أيضا ( تحقيق معنى الوجود ) و ( ترتيب العوالم العلوية والسفلية ) (٩٧) .

## التاريخ :

يتضح من تراجم ( حلية البشر ) أن غالبية كتاب التاريخ في القرن الثالث عشر الهجري لم يكونوا من الذين تفرغوا للتاريخ وتخصصوا به ، اذ كان مدلول المؤرخ ينطبق على كل من تعاطى كتابة عن وقائع التاريخ وتاريخ المدن وتراجم الطبقات . . كالفقيه والعالم والمحدث والقاضي والشاعر والاديب والمفتي وكاتب الديوان ومن اليهم . ويجد الباحث في هذا القرن من التواليف التاريخية مايمثل القرن السابق من حيث معالجة التراجم والسير ، وأهم مؤرخ عرض لهذا النوع من التاريخ هو محمد خليل بن علي بن محمد بن محمد مراد المعروف بالمرادي الملقب بأبي المودة . وقد ترجم للمرادي المؤرخ المصري عبد الرحمن الجبرتي في الجزء الثاني من عجائب الاثار بحوادث سنة ١٢٠٥ هـ

بقوله : « وكان رحمه الله مفرما بصيد الشعراء وقيد الاوابد واستعلام الاخبار وجمع الاثار وتراجم العصريين على طريقة المؤرخين ، وراسل فضلاء البلدان البعيدة ووصلهم بالهدايا والרגائب العديدة والتمس من كل جمع تراجم أهل بلاده وأخبار أعيان القرن الثاني عشر بحسب وسع همته واجتهاده » (٩٨) .

ويذكر المرادي أنه «حين تم جمع درره وتفويف ( تزيين ) حبره سميته أخبار الاعصار في أخبار الامصار ، ويليق أيضا أن يسمى سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، وقد رتبته على حروف المعجم» (٩٩) . واعتمد المرادي على معلوماته الشخصية وعلى كتابات من وثق بأمانتهم دون أن يتعرض لنقد رواياتهم وأخبارهم ، وقد أكمل مابدأه النجم الغزي والامين المحبي من قبله ، وكتابه يحتوي على تراجم نحو ألف شخص ، ويخص بالذكر العلماء والمتصوفة والنحاة واللفويين والشعراء والمدرسين ومن أجازهم من الأشياخ وماطالعوه من الكتب ، ومن تصدر منهم للتدريس في الجوامع والمدارس ، وشيوخ الاسلام ، وما قيل في مديحهم من منظوم ومنثور ، ويسرد في سياق ترجمة البعض أحيانا بعض الاحداث التي اجتاحت دمشق وغيرها من المدن ، كما يتحدث عن ارتحاله الى القسطنطينية والتنقل في المدارس ، ويترجم للمجاذيب ويذكر كراماتهم ، والخلوئية والوراقين ، ويعدد رسالاتهم ومؤلفاتهم وشروحهم وسنة وفاتهم في نهاية الترجمة . كما يشير الى نزلاء دمشق من شتى ديار الاسلام ، ويتخلل كل ذلك استشهاد بمنظوم الشعر ومنثوره للحكماء والائمة والشعراء والعارفين بالله في تصابيهم وغزلهم ومجالسهم وحجهم . ومعظم تراجمه تقتصر تقريبا على الصلحاء وأولياء الله من الوعاظ والمدرسين والفقهاء ومساجلاتهم وأشعارهم ومهارة كل منهم في الفنون المختلفة . ويلاحظ أنه لايهتم كثيرا بذكر رجال الحكم والسياسة . فهو لا يترجم سوى لسته من الباشوات ، والكتاب يلتزم السجع في أسلوب كتابته ، ويلتزم طريقة القدامى ، وهو مفيد جدا في تأريخ الحياة الدينية والعلمية في القرن الثاني عشر الهجري . وقد اتخذت تراجمه شكل المجال العربي الاسلامي العام . توفي المرادي عام ١٢٠٦هـ / ١٧٩١م وطبع كتابه بمصر سنة ١٣٠١ هـ . وللمرادي أيضا كتاب أرّخ فيه المفتين بدمشق من أيام السلطان سليم ( ٩٢٢ هـ ) وسماه ( عرف البشام فيمن ولّي فتوى دمشق الشام ) (٩٠٠) وختمه بترجمة ذاته ، وقد أثبتها مؤلف الحلية بنصها (١٠١) ويذكر ( المنجد ) للمرادي مؤلفات أخرى (١٠٢) .

ونجد أيضا بين التوايف التاريخية في هذا القرن ، مايمائل القرون السابقة من اختصار تاريخ البلدان والمدن والتنقيح والتهديب لكتاب من كتب التاريخ ، أو الترجمة لعالم متصوف وماشاكل . . ويمثل هذا الضرب من كتب التاريخ كتاب الشيخ عبد القادر الخطيب الذي اختصر بعض أجزاء من تاريخ ابن عساكر من نسخة المكتبة الظاهرية (١٠٢) ، كما يمثله جزئيا الشيخ سعيد بن قاسم بن صالح الحلاق المعروف بالقاسمي ، وهو من علماء دمشق الذي اهتم بتنقيح وتهديب ( حوادث دمشقية اليومية ) للبيديري الحلاق (٩٠٤) وله أيضا ( بدائع الغرّف في الصنائع والحرف ) الذي نشر بعنوان ( قاموس الصناعات الشامية ) في جزئين كتب أولهما الشيخ سعيد القاسمي نفسه ثم مات فأكمل الكتاب ولده جمال الدين وصهرهما خليل العظم (١٠٥) ، ذكر فيه الصناعات والحرف التي كانت بدمشق في عصره وهو قاموس يعتبر الاول من نوعه ومفيد في تاريخ الحياة الاجتماعية والاقتصادية في بلاد الشام آنذاك . ومن ذلك اللون التاريخي أيضا في ترجمة أشهر المؤلفين المتصوفين في عصره ، وهو الشيخ عبد الغني النابلسي ، ماتناوله كتاب الشيخ محمد كمال الدين الغزي ، بعنوان ( الورد الانسي والوارد القدسي في ترجمة العارف عبد الغني النابلسي ) . ذكر المؤلف في مقدمة الكتاب مآثر الصالحين والاولياء ، ثم تناول نسب النابلسي ومولده ومشايخه وعلومه وطريقته الصوفية ورفاقه ومريديه ، ثم عرض لاقوال الاخرين فيه ، ولكراماته ، ثم ترجم أولاده وأحفاده . وللكمال الغزي مؤلف ثان هو ( النعت الاكمل لاصحاب الامام أحمد بن حنبل ) جعله ذبلا على طبقات العليمي مبتدئا من رأس القرن العاشر حتى رأس القرن الثالث عشر الهجري (١٠٦) . وله أيضا ( الدر المكنون والجمال المصون من فرائد العلوم وفوائد الفنون ) ، وتشتمل على فوائد وتراجم وآداب شتى (١٠٧) ، وتقع في عشرين جزءا .

وهناك أيضا الشيخ صالح بن أحمد المغربي الشهير بالسمعوني ، من المهاجرين المغاربة الى دمشق الشام ، وهو والد الشيخ طاهر الجزائري ، ويذكر مؤلف ( الحلية ) : « له تاريخ على طريق الرمز والايماء والاشارة وصل فيه لقدوم محمد رشدي باشا الشرواني واليا على الشام » سنة ١٢٧٩هـ (١٠٨) توفي المترجم سنة ١٢٨٥ هـ .

ومن هؤلاء أيضا جمال الدين بن سعيد القاسمي ، العالم الدمشقي الكبير ، وقد تقدم ذكره ، ولايتحدث مؤلف ( الحلية ) عن تأليفه ، وانما يورد قصائد له واخوانيات شعرية ملفزة ويذكر له « أبيات كثيرة وتعاليق

فوائدها غزيرة ، ورسائل لطيفة ، وتحقيقات شريفة «(١٠٩) . ولكن ( المنجد ) ذكر أن له تاريخا سماه ( تعطير المشام في محاسن دمشق الشام ) (١١٠) ، ومعلوم أن بيته في دمشق كان ملتقى لكثير من العلماء والسياسيين ، وقد زار مصر وحضر دروس الشيخ محمد عبده ، وتصادق مع الشيخ رشيد رضا صاحب المنار ، والامير شكيب أرسلان .

وتناول بعض مؤرخي هذا القرن موضوعات لم يطرقها المؤرخون من قبلهم ، فقد التفتوا لتأريخ الاوضاع الاقتصادية والسياسية والاجتماعية في عصرهم ، ومنهم من تصدى لما يسمى اليوم فلسفة التاريخ ، فعرض لبيان التمدن وأسباب العمران ، مثل رفيق العظم الذي أجمع واصفوه على أنه ( العالم المؤرخ والكاتب الاجتماعي والعامل السياسي والشاعر الناصر ) (١١١) .

ولد بدمشق وشب فيها وأخذ العلم عن بعض شيوخها الاعلام ، ولازم الادباء والعلماء ودأب على المطالعة خصوصا في كتب الفلسفة والتاريخ « اقتداء بشقيقه الاكبر الذي كان شديد الميل الى التاريخ والفلسفة وعنده كتب كثيرة منها » (١١٢) وقدم الى مصر سنة ١٣٠٣هـ / ١٨٩٤م واتخذها دار هجرة فرارا من مضايقة السلطات العثمانية لاجرار الشام ، وأخذ ينشر في صحف مصر ومجلاتها المقالات السياسية والاجتماعية ، وقد تردد على مجالس الامام محمد عبده « فاستفاد من علمه الواسع وآرائه العالية فوائدها عظيمة أزالته عن بصيرته حجبا كثيفة » (١١٣) ، كما تردد على الشيخ علي يوسف صاحب ( المؤيد ) ، وكان على مودة مع الزعيمين مصطفى كامل ومحمد فريد . ألف رسالة في ( كيفية انتشار الاديان ) عرضها على بعض كبار العلماء في مصر فشجعه على نشرها . ثم ألف كتاب ( تنبيه الافهام الى مطالب الحياة الاجتماعية والاسلام ) ، ثم « استفزه الولع بتاريخ الاسلام الى وضع تاريخ جديد لمشاهير الاسلام من أهل الحرب والسياسة على غير النمط المعهود عند المسلمين ، أي على أسلوب جديد يمثل رجال الاسلام في أجلى مثال وأظهره ، بحيث يتناول في ذلك التاريخ كثيرا من أخبار دول الاسلام الاجتماعية والسياسية ، ويفيض في البحث في فلسفة التاريخ الاسلامي على وجه يتضح به حال تاريخ الاسلام . فباشر ذلك التأليف على صعوبته عام ١٣١٩م وأتم منه الجزء الاول في سيرة أبي بكر ومن اشتهر في دولته في تلك السنة تأليفا وطبعها ، ثم في أواخرها أتم الجزء الثاني في سيرة عمر بن الخطاب . . واستراح الى سنة ١٣٢١ هـ ، فكتب الجزء الثالث في سيرة المشهورين في دولة ابن

الخطاب وطبعه «(١١٤) الى أن أكمل أربعة أجزاء وسماه « أشهر مشاهير الاسلام في الحرب والسياسة » . ولامراء في أن كتابة رفيق العظم للتاريخ تأثرت بمناهج الدراسة العلمية الحديثة ، وتمثلت في معالجته بعض الموضوعات التاريخية الاخرى مثل ( تاريخ السياسة الاسلامية ) الذي طبع في مصر عام ١٣٤٤ هـ ، وتصديه للكتابة عما يشغل بال السياسة المحلية والاقليمية في المنطقة العربية العثمانية مثل رسالة ( الجامعة الاسلامية وأوربا وهي من ٥٨ صفحة طبعت في مصر عام ١٩٠٧ م . وبعد يأس مؤرخنا من الاتحاديين الذين تنكروا للرابطة العثمانية وتعصبوا لقوميتهم الطورانية التركية ضد العرب ، ألف رسالة بعنوان ( الجامعة العثمانية والعصبية التركية ) . وهذه المدونات الثلاث لا يذكرها ( البيطار ) في كتابه (١١٥) ، وان كان لمؤرخنا آثار أخرى في المجلات جدير بأن يعاد نشرها . أما كتابه الكبير ( أشهر مشاهير الاسلام في الحرب والسياسة ) ، فيبدو أنه ألفه مدفوعا بالرغبة في نشر الصفحات المجيدة من تاريخ عظماء الاسلام لبث الثقة في بني قومه العرب وحفز هممهم للسير نحو التقدم لبناء مستقبل أفضل يعودون فيه الى سابق مجدهم .

ان مجال هذا البحث ، لايتسع لتقويم وتحليل بله عرض المؤلفات التاريخية في هذا القرن ، ولذلك اقتصرنا في عرضنا وتحليلنا على ما أمكننا التوصل اليه من الاثار التي ورد ذكر أسمائها في ( حلية البشر ) على أمل أن تكون أساسا صالحا لدراسات أوفى في المستقبل .

### المعارف العلمية العامة :

تطالعنا حلية البشر بتراجم طائفة من أعلام النابهين في المعارف العلمية المختلفة التي تتجاوز علوم العربية والعلوم النقلية والعقلية ، مثل علم الهيئة والفلك وعلم الميقات ، والحساب والفرائض والمناسخات والمقاسمات ، وعلم المساحة والطب وعلوم الطبيعة الاخرى والمياه وما إليها، الامر الذي يدل على وجود مشاركة علمية متنوعة ، وان ظل المنهج التقليدي يسيطر على طرائقها ونتائجها . عني العرب المسلمون بالفلك وعلم الهيئة بعد أن استقرت أوضاعهم في البلدان المفتوحة ، لان هذا العلم مما يحتاجونه في اقامة شعائرهم الدينية ، ولذا أقبل عليه العلماء بالدرس والتحصيل تماما كما أقبلوا على العلوم الدينية والشرعية الاخرى سواء بسواء . ويبدو واضحا ترابط العلوم والمعارف العلمية العامة بعضها ببعض . وكما كان ترابط العلوم الشرعية واتصالها يستهدف التفقه في الدين والقيام بشعائره وفروضه ، كذلك تستوجب دراسة علم

الهيئة والفلك دراسة الحساب والجبر والهندسة والاصطربلاب . فضلا عن أن أخذ الفرائض والمناسخات والمقاسمات(١١٦) ، يتطلب اتقان الحساب والجبر والمساحة . ولذلك نقرأ عن الشيخ حسن بن عمر الشطي الدمشقي أن له تأليف في التوحيد والبيان والحساب والمساحة والنحو ، وقد « انفراد بعلم الفرائض دون أن يشتغل بأعمال الفرضيين(١١٧) . ومعلوم أن علم الفرائض تعرف به كيفية تقسيم وتوزيع الميراث على مستحقيه بحسب الشريعة الاسلامية . وللعلامة محمد أمين بن عمر عابدين ، وقد تقدم ذكره ، كتاب في الفرائض اسمه « الرحيق المختوم شرح قلائد المنظوم »(١١٨) ، وهو شرح على منظومة شعرية في علم الفرائض اسمها « قلائد المنظوم في منتقى فرائض العلوم » لمؤلفها الفقيه الشاعر ابن عبد الرزاق الدمشقي المتوفى سنة ١١٣٨ هـ . وللشيخ سليم بن حسن الطيبي(١١٩) أمين فتوى الشافعية بدمشق مؤلفات منها « الفيوضات الرحمانية في أحكام الفرائض القرآنية » . وبرع الطيبي في عمل المناسخات الفرضية والشجرات الوقفية . والشيخ محمد الشطي له رسالة (الفتح المبين في الفرائض) طبعت بدمشق ١٣١٣ هـ و ١٣٥٣ هـ(١٢٠) ومن تأليفه في الهندسة « بسط الراحة لتناول المساحة » مختصرا عن كتاب والده العلامة حسن بن عمر الشطي ، وذيله بخريطة فيها رسم الاشكال الهندسية ، مع بيان مساحتها بالارقام . وكان أرسلها الى الاستانة فأصدرت نظارة المعارف أمرها بطبعها ومكافأته عليها وذلك سنة ١٢٩٢ هـ . وجمع العالم المذكور أيضا دفترا كبيرا في تقسيم مياه دمشق وبيان أسهمها المترية ، توفي عام ١٣٠٧(١٢١) . ونبغ أيضا شقيقه الشيخ أحمد الشطي مفتي الحنابلة بدمشق ، برع في الفرائض والحساب والهندسة ونحوها ، وجهت عليه الدولة رتبة تدريس ادرنة سنة ١٢٧٣ هـ ثم فتوى الحنابلة ، ثم تولى قضاء الحنابلة . وكان وأخوه الشيخ محمد الشطي مرجع أهل دمشق في المناسخات والمساحات وتقسيم المياه والدور . توفي المترجم سنة ١٣١٦ هـ(١٢٢) وقد اشتهر علي بن عبد الرحمن الطيبي الدمشقي في العلوم والمعارف العامة ، وتمكن في « علم الفلك والميقات والمساحة والحساب والمواريث والفقه والتفسير والتوحيد والحديث » . مات سنة ١٢٥٥ هـ(١٢٣) كما عرف الشيخ صالح السمعوني ، وقد تقدم ذكره ، برسالاته في علم الميقات ، « جمع فيها ماشرته يد الشتات »(١٢٤) .

وممن علت مكانته في دمشق حتى غدا مرجع طلبة العلم في هذه

المعارف العامة ، الشيخ محمد الطنطاوي الأزهرى، ولد بطنطا سنة ١٢٤١هـ وأخذ عن أعلام بلده ثم سافر الى بلاد الروم ثم دخل حلب وأخذ عن بعض شيوخها ، ورحل الى دمشق سنة ١٢٥٥ هـ وقرأ على أكابر علمائها، وأخذ الطريقة النقشبندية ثم عاد الى مصر ١٢٠٦ هـ ودخل الأزهر ودرس العلوم العامة كالميقات والفلك والجبر والمقابلة ، حتى صار اماما في العلوم العقلية والنقلية ، ثم رجع الى الشام واستوطن دمشق سنة ١٢٦٥ . واستأجر له الامير عبد القادر الجزائري دارا وعين له معاشا وأرسل أولاده للقراءة عنده . وكان الطنطاوي يعمل في حساب جداول الجيوب المتعلقة بعلم الفلك والميقات والربع المقنطر والمجيب والاسطرلاب\* . وقد حصل خلل في بسطة ( ساعة شمسية ) منارة العروس في الجامع الاموي بدمشق ، فحسب المترجم سائر أعمالها ، ورسم غيرها ، وأزالها، ووضع بسطة مكانها . وفي منتخبات التواريخ تفرد الطنطاوي في علم الهيئة السماوية والفلك بعد ابن الشاطر ( الدمشقي المتوفى سنة ٧٧٧هـ ) الذي أخذ عنه علماء الغرب ودونت مؤلفاته (١٢٥) مات بدمشق سنة ١٣٠٦هـ

**أما الطب :** فقد اهتم الناس بالطب منذ وجدوا على سطح كوكبنا الارضي ، ومن الذين مارسوا الطب وكان له فيه نظر ودراية الشيخ ابراهيم الخلاصي الحلبي الاصل الدمشقي المنشأ والموطن . يقول مؤلف الحلية انه كان طبيبا حاذقا انتهت اليه رياسة الطب في عصره ، وقد اعترف بعلمه وقدره العام والخاص « ينتهي أمر المشكلات في الطب اليه ، ولا يعول في زمنه الا عليه . وقد انفرد بمعرفة الداء من النبض والقارورة . . وكان بمجرد القبض على النبض ورؤية القارورة ( البول ) يعرف حقيقة الداء ويعالجه بأحسن الدواء . . » وكان للطبيب المذكور مشاركة فسي بعض العلوم ، وله شعر لطيف وتوفي سنة ١٢٥٥ بدمشق (١٢٦) .

وممن نبغ في الطب أيضا ولده الشيخ عبد القادر بن ابراهيم الخلاصي الدمشقي الطبيب . ولد بدمشق وأخذ عن والده علم الطب، ثم قرأ بقية العلوم على شيوخ دمشق وأجازوه بما تجوز لهم روايته به « وكان كثير الاستفادة . . ذكيا بارعا بدقائق الطب ، أستاذا انتهت اليه رياسة معرفة الامراض وتشخيصها ، وكان له في رؤية المرض أمور خارقة للعادة تدل على كمال علمه ومعرفته . له عدة تأليف وتصانيف ومات بدمشق بعد سنة ١٢٠٠ و . . . (١٢٧) .

\* أدوات في ما يعرف اليوم بعلم الارصاد لتحديد حركات الاجرام الفلكية عن طريق رسم الاربع والمزاوول والمنحرفات بواسطة آلات وأدوات الرصد المذكورة . فالربع المقنطر هو أداة يقاس بها ربع الدائرة الموازية لدائرة الافق . مركزها سمت الرأس والنظير .



وفي الختام ، لا يدعي الباحث انه استطاع من خلال قراءة كتاب « حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر » ، ان يتقصى جميع نواحي الحياة العلمية في بلاد الشام ويفي بمتطلباتها العسيرة ، فذلك عمل ضخم تكاد كل ناحية فيه تشكل موضوع دراسة كاملة ليس مجالها المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام . ولكن مارصده الباحث من نشاط علمي وتألفي ظهر في فن الشعر والنثر ، وفي شتى فروع علوم العربية والعلوم الشرعية والعقلية ، والمعارف العامة الموروثة عن القرن السابق ، يبيح له ان يدعي بأن رجال ذلك العصر وعلماءه استطاعوا أن يحققوا شيئاً ، وان يعملوا ضمن ظروف سياسية واجتماعية وفكرية صعبة ، لا تساعد على التطوير والتجديد ، أو الخلق والابتكار ، فكانوا جزر المعرفة وسط خضم جاهل . هذا الى معوقات أخرى نشأت عن تدخل الجامدين من رجال الدين في شؤون الدولة ، فعرقلوا التقدم في بعض الميادين ، ولم تعمل الدولة للحيلولة دون تدخلهم على نحو جدي وفعال (١٢٨) وعلى الرغم من جهود المخلصين العاملين من علماء هذا القرن ، للقضاء على الامية واصلاح طرق التعليم ومناهجه ، والحرص على نشر العلم بين اكبر عدد من الناس ، فانهم في الواقع لم يحققوا الا القليل . ولكن جهودهم الرائدة نبهت الاذهان الى اهمية المعرفة العلمية الموضوعية ، وبذرت البذور في تربة هذا القرن ، ووضع الاسس العملية لبناء النهضة العلمية التي شهدتها الحياة الحديثة في بلاد الشام اعتباراً من العقد الاخير من القرن الثالث عشر .

## الحواشي

- (١) انظر في «الحلية» على التوالي: ١٠١/١ ، ٣١١ / ١ ، ٣٦٦/١ ، ٣٦٧ - ٣٦٨/٢ ، ١١٣٤/٢
- (٢) انظر محمد بهجة البيطار « المدرسون تحت مظلة النسر » - مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق مجلد ٢٤ جزء ١٥ سنة ١٩٤٩
- (٣) انظر ص ١٥ من مقدمة الحلية
- (٤) يبدو أن أول مطبعة استعملت الحروف العربية وجدت في حلب سنة ١٧٠٦ ، ولم تعزف بيروت الطباعة الا عام ١٧٥١ وعام ١٨٣٤
- (٥) الحلية ١٣٣١/٣ . ولد الشيخ البرجلكي في برجك سنة ١٢٠٣ هـ ونشأ فيها ثم قدم الى دمشق سنة ١٢٣٠ واستوطنها وكان زاهدا متفقا ، توفي بعد سنة ١٣١٠ هـ
- (٦) الحلية ٣٣١/١ - ٣٣٥
- (٧) الحلية ٨٦/١ - ٨٨
- (٨) الحلية ٣٤٣/١ - ٣٤٩
- (٩) الحلية ١٢٣٠/٣ - ١٢٣٣
- (١٠) الحلية ٥٠/١ - ٥٢
- (١١) الحلية ٩٣٩/٢ - ٩٤٣
- (١٢) الحلية ١٩٤/١ - ١٩٦
- (١٣) الحلية ٢٧/١ - ٢٩
- (١٤) الحلية ٨٤٧/٢
- (١٥) الحلية ٩٠٥/٢ - ٩٠٦
- (١٦) الحلية ٩٠٦/٢ - ٩١٥
- (١٧) الحلية ٢٢٧/١ - ٢٣٨
- (١٨) الحلية ١٠٣٨/٢ - توفي سنة ١٣١٥ هـ
- (١٩) الحلية ١٠٤٠/٢
- (٢٠) الحلية ٦٨٦/٢ - ٦٩١
- (٢١) الحلية ٦٥٧/٢ - ٦٦١
- (٢٢) الحلية ٩٢٣/٢ - ٩٢٤
- (٢٣) الحلية ١٦٧/١
- (٢٤) الحلية ٢١٨/١ - ٢١٩ ولد أحمد البربر في ثغر دمياط عام ١١٦٠ هـ حيث كان والده يعمل بالتجارة وحضر الى بيروت موطنه الاصلي عام ١١٨٣ هـ ثم توجه الى دمشق وتوفي فيها عام ١٢٢٦ هـ

- (٢٥) انظر نص المقامة الكامل في الحلية ٢١٨/١ - ٢٣٧
- (٢٦) انظر نصها الكامل في الحلية ٣٨٢/١ - ٣٩٩
- (٢٧) انظر نصها الكامل في الحلية ١٣٥٥/٣ - ١٣٦٦
- (٢٨) انظر الحلية ٤٩/١ وانظر الاعلام للزركلي ٤٩/١
- (٢٩) الحلية ٢٤٣/١ - ٢٤٤ ، ٥٢١/١ - ٥٢٢ ، ٨٢٢/٢ ، ٨٦٥/٢ ، ٨٦٨/٢ ، ٩٢٣/٢ ،  
١٣٩٤/٣ ، ١٣٣٧/٣
- (٣٠) الحلية ١٦٢/١
- (٣١) الحلية ٢٥٣/١
- (٣٢) الحلية ٥٧٢/١
- (٣٣) الحلية ١٢٣٠/٣
- (٣٤) الحلية ٤٧٨/١ - توفي عام ١٢٧٤ هـ
- (٣٥) الحلية ٥٧٠/١ - ٥٧١ توفي عام ١٢٤٢ هـ
- (٣٦) الحلية ٨٦٧/٢ - ٨٦٨ توفي عام ١٢٩٨ هـ وانظر أيضا كحالة ٢٧٥/٥
- (٣٧) الحلية ١١٣٣/٣ - ١١٣٤ توفي عام ١٢٧٧ . الاجرومية ( المقدمة الاجرومية في مبادئ علم العربية وضعها محمد بن داود الصنهاجي المتوفى عام ٧٢٣هـ/١٣٢٣ م )
- (٣٨) الحلية ٧٩٦/٢
- (٣٩) الحلية ١٥٤/١
- (٤٠) الحلية ٢٣٩/١ توفي سنة ١٢٥٦ هـ . (٤٠) مكرر الحلية ٢٥٣/١ توفي عام ١٣٠٧ هـ
- (٤١) الحلية ٧٥٠/٢
- (٤٢) الحلية ١٣٢٩/٣ ، توفي عام ١٢٦٥ هـ
- (٤٣) الحلية ١٨٤/١ - ١٨٥ توفي عام ١٣١٧ هـ
- (٤٤) الحلية ١٢١٥/٣ - ١٢١٧
- (٤٥) الحلية ١٢٣٠/٣
- (٤٦) الحلية ١٣٣٦/٣
- (٤٧) الحلية ١٣٣٧/٣
- (٤٨) انظر سلك الدرر للمرادي ٣١/٢ ، ١٢/٢
- (٤٩) الحلية ٨٦٤/٢ - ٨٦٥ و ٨٦٨/٢ و ٦٣٦/٢
- (٥٠) من تصانيفه ومؤلفاته تفسير القرآن الكريم بالحروف المهملة بعنوان ( درر الاسرار ) ومنظوم ( غريب الفتاوى ) و ( الفتاوى المحمودية ) نثرا في أربعة مجلدات ونظم الجامع الصغير في ثلاثة آلاف بيت ، ونظم مرقاة الاصول للاخسرو ، والنور اللامع في أصول الجامع ، والقواعد الفقهية ، والطريقة الواضحة الى النية الراجحة .
- انظر الحلية ١٤٧٣/٣

(٥١) جمع الجوامع في أصول الفقه الشافعي لعبد الوهاب بن علي السبكي المتوفى عام ٧٧١هـ/١٢٧٠م وهو مختصر من مائة مؤلف تقريبا . وجدير بالذكر أن الشيخ السبكي المذكور كان شافعي المذهب ولكنه تولى الافتاء العام بجمص على المذهب الحنفي لانه لم يكن أعلم منه في المذهبين آنذاك . انظر الحلية ٢/٨٢٢

(٥٢) الحلية ٢/٧٢٩ - ٧٣٠

(٥٣) انظر سلك الدرر للمرادي - مناظرة بين مفتي القدس محمد المالكي ونصاري مالطة ١٠٢/٤ - ١٠٨

(٥٤) الحلية ١/١٥٠ - ١٥١

(٥٥) الحلية ١/١٥١ . يذكر صاحب الحلية أن أول المحدثين تحت قبة النسر هو الشمس محمد الميداني الذي رغب اليه الطلبة بعقد مجلس في الحديث بعد وفاة الشمس الداودي ( ١٠٠٦ هـ ) بسنتين أو أكثر . واختار الميداني أن يكون جلوسه تحت قبة النسر . ومات الميداني سنة ١٠٣٣ هـ . الحلية ١/١٥٣

(٥٦) الحلية ١/١٥٣

(٥٧) الحلية ١/١٥٣

(٥٨) الحلية ١/١٥٤

(٥٩) الحلية ١/١٥٦

(٦٠) الحلية ١/١٥٧

(٦١) الحلية ١/١٥٨

(٦٢) الحلية ١/١٦٠

(٦٣) الحلية ١/١٦٠

(٦٤) الحلية ١/١٦٢

(٦٥) الحلية ١/١٦٢ - ١٦٣

(٦٦) الحلية ١/١٦٤

(٦٧) الحلية ١/١٦٤

(٦٨) الحلية ١/١٦٥ - ١٦٦

(٦٩) الحلية ١/٣٧٦ - ٣٧٧

(٧٠) الحلية ١/٢٣٩ - ٢٤١ . قرن هذا العالم العلم بالعمل ، ودعا الناس للجهاد حين تقدمت جيوش نابليون بونابرت من مصر الى الشام ووصلت صفد وبلاد نابلس عام ١٧٩٩/١٢١٤ ، وخرج مع عسكر دمشق مجاهدا بنفسه وماله واولاده ، حتى التقى الجمعان ، وكان هو في الصفوف مقابلا العدو ، وهو يحرض الناس على القتال ويبين مالهم من الثواب والاجر . توفي سنة ١٢١٨ هـ

(٧١) الحلية ٢/٦٨٠ - ٦٨١

- (٧٢) الحلية ١٠٠٨/٢
- (٧٣) الحلية ١٣٧٠/٣ - ١٣٧١
- (٧٣) مكرر انظر كتاب « جمال الدين القاسمي » تأليف ابنه الاستاذ ظافر القاسمي دمشق ١٩٦٥ « توفي القاسمي سنة ١٣٣٢ هـ
- (٧٤) الحلية ١٢٣٠/٣ توفي سنة ١٢٥٢ هـ
- (٧٤) مكرر الحلية ١١٣٣/٣ - ١١٣٤ نقلا عن روض البشر للشطي
- (٧٥) الحلية ٤٣٥/١ - ٤٣٩ . وقف على طبعه وتصحيحه ورقمه وخرج آياته وأحاديثه وعلق عليه الاستاذ محمد فؤاد عبد الباقي ، وراجعه الشيخ محمد بهجة البيطار . طبع في دار احياء الكتب العربية بمصر
- (٧٦) مثل المحدث الشيخ محمد بن عبد الرحمن الكزبري ، انظر الحلية ١٢٢٩/٣
- (٧٧) الحلية ٤٧٨/١ . علم الفرائض علم تعرف به كيفية قسمة التركة على مستحقيها وفرائض جمع فرض وهو ما فرض من الصدقة أو الحصة المعلومة . وأصحاب الفرائض هم الورثة الذين لهم سهام مقدرة
- (٧٨) الحلية ٤٩/١ ، ( تهذيب المنطق والكلام ) كتاب لسعد الدين التفتازاني المتوفى عام ٧٩٢ هـ/١٢٨٩ م
- (٧٩) الحلية ٥٧١/١
- (٨٠) الحلية ١١٢٩/٢ - ١١٣٠
- (٨١) الحلية ٧٩٣/٢ - ٧٩٤
- (٨٢) الحلية ١٠/١ وكتاب الفتوحات المكية من كتب التصوف الشهيرة ألفه الصوفي الكبير محمد بن علي بن محمد بن العربي الاندلسي المولد والنشأة ، والمعروف بمحيي الدين ابن العربي المتوفى بدمشق سنة ٦٣٨ هـ/١٢٤٠ م وطبع الكتاب في بولاق بمصر عام ١٨٥٧
- (٨٣) الحلية ١٦/١
- (٨٤) الحلية ١٦٧/١
- (٨٥) الحلية ١٨٤/١
- (٨٦) الحلية ٣٨٠/١
- (٨٧) الحلية ٧٥٦/٢
- (٨٨) الحلية ١٤٦٨/٣
- (٨٩) الحلية ٨٨٣/٢
- (٩٠) الحلية ٨٨٣/٢ الشيخ عبد القادر الجيلاني مؤسس الطريقة القادرية أو الجيلانية ، ومن كبار المتصوفة في العالم الاسلامي ، له زاوية شهيرة وضريح في بغداد ، ومؤلفات عديدة ، توفي عام ٥٦١ هـ/١١٦٦ م والباس الخرقه الصوفية من مراسم أخذ الطريقة كالمبايعة على السلوك في دربها ، والخرقة شعار صوفي

- (٩١) مثل الشيخ بهاء الدين بن عبد الفنى البيطار وسواه . الحلية ١/٣٨٠ - ٣٨١
- (٩٢) الحلية ، ٢/٧٥٧
- (٩٣) الحلية ١/٧٥ - ٧٨
- (٩٤) طبع في مصر سنة ١٣٥٠ وهو مجلد ضخيم في حوالي ٤٢٠ صفحة
- (٩٥) عبد الكريم الجيلي عالم صوفي ولد في بغداد عام ٧٦٧هـ/١٣٦٥ م كان ذا أثر في نشر الثقافة الاسلامية في الهند ، له كتاب الانسان الكامل في معرفة الاواخر والاول
- (٩٦) انظر الحلية ١/٣٨١ الهامش
- (٩٧) الحلية ٢/١١٣٠
- (٩٨) انظر ترجمة المرادي في الجبرتي « عجائب الائنار ... » ٢/٢٤٧ - ٢٤٩
- (٩٩) انظر سلك الدرر ، ١/٣ - ٤
- (١٠٠) الحلية ٣/١٣٩٤
- (١٠١) الحلية ٣/١٣٩٥
- (١٠٢) أنظر «معجم المؤرخين الدمشقيين» بيروت دار الكتاب الجديد ١٩٧٨ ص ٣٧٣ - ٣٧٤ ومنها : ( ذيل سلك الدرر ) ، و ( تحفة الدهر ونفحة الزهر في أعيان أهل المدينة من أهل العصر ) جعله على أربعة أقسام : السادة ، الفقهاء ، الوعاظ ، الكتاب . وكتاب ( اتحاف الاخلاف بأوصاف الاسلاف ) وكتاب ( مطمع الواحد في ترجمة الوالد الماجد )
- (١٠٣) الحلية ١/٩٦ ، توفي عام ١٣١٥ هـ وتولى في حياته محافظة المكتبة بالمدرسة الظاهرية .
- (١٠٤) انظر معجم المؤرخين الدمشقيين - المصدر السابق ، ص ٣٦٣ . مذكرات البديري ، هي ( حوادث دمشق اليومية ) وصلت اليها مهذبة منقحة على يد الشيخ محمد سعيد القاسمي المتوفى سنة ١٣١٧ هـ . وقد نشر المخطوطة الاستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم في القاهرة عام ١٩٥٩
- (١٠٥) نشر قاموس الصناعات والحرف الدمشقية بدمشق عام ١٩٦٠ . توفي الشيخ سعيد القاسمي قبل أن يكمل حرف السين ، فجاء ولده جمال الدين القاسمي وصهرهما خليل العظم وأكمل بقية حروف الكتاب . وقدم المستشرق ماسينيون للكتاب بكلمة وتلاها الاستاذ ظافر القاسمي بن جمال الدين بكلمة عن الصناعات الشامية
- (١٠٦) المؤرخ عبد الرحمن بن محمد العمري العليمي توفي عام ٩٢٨هـ/١٥٢٢ م
- (١٠٧) الحلية ٣/١٣٣١ - ١٣٣٢
- (١٠٨) الحلية ١/٣٨٧ . انظر أيضا المنجد ، المصدر السابق ص ٣٨٧
- (١٠٩) الحلية ١/٤٣٥ - ٤٣٨
- (١١٠) يذكر المنجد أنه رأى مسودة الكتاب عند ابن المترجم الاستاذ ظافر القاسمي ، ونقل منها « وأخبرني أن أباه أوصى أن لا ينشر هذا التاريخ لأنه لم يراجعه » . ص ٣٩٧ .
- (١١١) الحلية ٢/٦٣٣

- (١١٢) الحلية ٦٣١/٢  
(١١٣) الحلية ٦٣٢/٢  
(١١٤) الحلية ٦٣٢/٢  
(١١٥) وردت أسماء هذه التأليف في معجم المؤرخين الدمشقيين للمنجد ص ٤٠٩ - ٤١٠  
(١١٦) (المناسخات أن تموت ورثة بعد ورثة وأصل الميراث قائم لم يقسم . أما المقاسمات  
فهي قسمة الاموال في الميراث  
(١١٧) الحلية ٤٧٨/١  
(١١٨) الحلية ١٢٣٠/٣  
(١١٩) الحلية ٦٨٣/٢ - ٦٨٤  
(١٢٠) الحلية ١٦٢٣/٣ تقلا عن تراجم أعيان دمشق في نصف القرن الرابع عشر الهجري  
لمحمد جميل الشطي . توفي الشيخ محمد الشطي سنة ١٣٠٧ هـ  
(١٢١) نفس المصدر ١٦٢٣/٣ - ١٦٢٤  
(١٢٢) نفس المصدر ١٦٢٥/٣ - ١٦٢٦  
(١٢٣) الحلية ١٠٧٧/٢  
(١٢٤) الحلية ٧٣٣/٢  
(١٢٥) الحلية ١٢٨٤/٣ - ١٢٨٦ وهامش ص ١٢٨٨  
(١٢٦) الحلية ٣٢/١  
(١٢٧) الحلية ٩٢٢/٢  
(١٢٨) انظر ساطع الحصري ، المصدر السابق ، ص ٩٣

## المشاركون في المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام

- ١ - د. رباح أبو حيدر الجامعة اللبنانية الجمهورية اللبنانية
- ٢ - د. شافي أغواني جامعة جواهر لال نهرو الهند  
Shafi Agwani Jawaharlal Nehru Un. India
- ٣ - د. نيكيتا إليسييف جامعة ليون الثانية فرنسا  
Nikita Elisséeff Un. de Lyon France
- ٤ - د. بارتنسكي أكاديمية العلوم في وارسو بولونيا  
أندرزج  
Bartnicki Andrzej Polish Academy of Poland  
Sciences
- ٥ - جان بول باسكوال المعهد الفرنسي للدراسات الفرنسية العربية في دمشق  
Jean. Paul Pascual Institut Français à Damas France
- ٦ - د. محمد عدنان الجامعة الاردنية في عمان المملكة الاردنية الهاشمية  
البخيت
- ٧ - د. عبد العزيز بن مكتب تنسيق التعريب في المملكة المغربية  
عبد الله الوطن العربي بالرباط
- ٨ - د. عبد الجليل الجامعة التونسية الجمهورية التونسية  
التميمي
- ٩ - د. تاج السر أحمد جامعة الخرطوم جمهورية السودان  
حران
- ١٠ - د. سامي الحمارنة معهد سميثونيان بواشنطن الولايات المتحدة الاميركية
- ١١ - د. نشاة الحمارنة جامعة دمشق الجمهورية العربية السورية
- ١٢ - د. عبد الله حنا وزارة الزراعة والاصلاح الزراعي الجمهورية العربية السورية
- ١٣ - أ. فيليب خوري جامعة هارفارد الولايات المتحدة الاميركية



- ١٤ - د. عبدالامير دكسن جامعة بغداد الجمهورية العراقية
- ١٥ - أ. كليمنت هنري دود جامعة هال انكلترا  
Clement Henry Dodd Un. of Hull England
- ١٦ - د. عبد العزيز الجامعة الاردنية في عمان المملكة الاردنية الهاشمية  
الدوري
- ١٧ - د. أمل دوغراماشي جامعة حاجي تبه في انقره الجمهورية التركية
- ١٨ - د. عبدالكريم رافق جامعة دمشق الجمهورية العربية السورية
- ١٩ - د. عبد المنعم رشاد جامعة الموصل الجمهورية العراقية
- ٢٠ - د. مصطفى محمد جامعة الأزهر جمهورية مصر العربية  
رمضان
- ٢١ - د. اندريه زيمون جامعة اكس بروفانس فرنسا  
André Raymond Un. Aix Provence France
- ٢٢ - د. نقولا زيادة الجامعة الاردنية في عمان المملكة الاردنية الهاشمية
- ٢٣ - د. خليل ساحلي جامعة استامبول الجمهورية التركية  
أوغلو
- ٢٤ - د. ناصر الدين جامعة الجزائر الجمهورية الجزائرية  
سعيدوني الديمقراطية الشعبية
- ٢٥ - د. بيدرو شالميتا جامعة مدريد اسبانيا  
Pedro Chalmeta Un. de Madrid Spain
- ٢٦ - د. فريتز شتيبات جامعة برلين المانيا الاتحادية  
Fritz Steppat Un. de Berlin Fedral R. of Germany
- ٢٧ - د. ضحى الشطي جامعة كاليفورنيا الولايات المتحدة الاميركية
- ٢٨ - د. ليندا شلشر جامعة مين المانيا الاتحادية  
L. S. Schilcher Un. of Main Federal R. of Germany
- ٢٩ - د. الكسندر شولش جامعة ايسن المانيا الاتحادية  
Alexander Scholch Un. of Essen Federal R. of Germany
- ٣٠ - بيسترا شفتكوكفا جامعة صوفيا بلغاريا  
Bistra Cvetkova Un. of Sofia Bulgaria

- ٣١ - د. ليلى الصباغ جامعة دمشق الجمهورية العربية السورية
- ٣٢ - د. عصام الصفدي الجامعة الاردنية في عمان المملكة الاردنية الهاشمية
- ٣٣ - د. مسعود ضاهر الجامعة اللبنانية في بيروت الجمهورية اللبنانية
- ٣٤ - د. أحمد طربين جامعة دمشق الجمهورية العربية السورية
- ٣٥ - د. سعيد عبد الفتاح عاشور جامعة الكويت دولة الكويت
- ٣٦ - د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبدالرحيم جامعة قطر دولة قطر
- ٣٧ - أ. كمال جبر عبد الفتاح جامعة بيرزيت فلسطين
- ٣٨ - د. بيتر غران جامعة أوستن U. S. A الولايات المتحدة الاميركية Peter Gran Un. of Austin
- ٣٩ - د. عبد الكريم غرايبة الجامعة الاردنية في عمان المملكة الاردنية الهاشمية
- ٤٠ - د. ماريو غرينيانسكي جامعة فينيسيا Venezia Un. Italy ايطاليا K. Grignaski
- ٤١ - د. نجاته غويونج جامعة استامبول الجمهورية التركية
- ٤٢ - د. قيصر فرح جامعة منسوتا الولايات المتحدة الاميركية
- ٤٣ - الاستاذ ظافر الفاسمي الجامعة اللبنانية في بيروت الجمهورية اللبنانية
- ٤٤ - د. خيرية القاسمية جامعة دمشق الجمهورية العربية السورية
- ٤٥ - د. زاهية قدورة الجامعة اللبنانية في بيروت الجمهورية اللبنانية
- ٤٦ - د. ذوقان قرقوط جامعة دمشق الجمهورية العربية السورية
- ٤٧ - د. مصطفى كريم الجامعة التونسية الجمهورية التونسية
- ٤٨ - د. وجيه كوثراني الجامعة اللبنانية في بيروت الجمهورية اللبنانية
- ٤٩ - د. أرجمند كوران جامعة حاجي تبه في أنقرة الجمهورية التركية

- ٥٠ - د. كارني كيفن جامعة هارفارد الولايات المتحدة الاميركية  
Carney Gavin Harvard Un. U. S. A
- ٥١ - د. مانويلا مارين المعهد الاسباني العربي اسبانيا  
Manuela Marin Instituto Hispano - Arabe Spain  
في مدريد  
Madrid
- ٥٢ - أحمد عوني ماضي الجامعة الاردنية في عمان المملكة الاردنية الهاشمية
- ٥٣ - د. روبر مانتران جامعة اكس بروفانس فرنسا  
Robert Mantran Un.Aix Provence France
- ٥٤ - د. علي محافظة الجامعة الاردنية في عمان المملكة الاردنية الهاشمية
- ٥٥ - د. محمد مخزوم الجامعة اللبنانية في بيروت الجمهورية اللبنانية
- ٥٦ - د. أحمد عبد الرحيم مصطفى جامعة الكويت دولة الكويت
- ٥٧ - أ. سليمان موسى عمان المملكة الاردنية الهاشمية
- ٥٨ - د. محمد موفاقا جامعة بريشنا يوغوسلافيا  
Mohamad Mufaka Pristina Un. Yugoslavia
- ٥٩ - د. ديريك هوبود جامعة اكسفورد انكلترا  
Derek Hopwood St. Antony's College England  
Oxford
- ٦٠ - د. فولف هيتروت جامعة ارلانغن المانيا الاتحادية  
Wolf Hutteroth Un. of Erlangen Federal R. of Germany
- ٦١ - شيري قاتر جامعة كاليفورنيا الولايات المتحدة الاميركية  
Sherry Watter Un. of California U. S. A.
- ٦٢ - د. توماس فيتوخ جامعة وارسو بولونيا  
Tomasz Wituch Un. of Warsaw Poland
- ٦٣ - د. ستيغان فيلد معهد الاستشراق في بون المانيا الاتحادية  
Stephan Wild Oriental Istitute Bonn Federal R. of Germany

# محتويات الكتاب

الصفحة

## الباب الثالث - التاريخ الثقافي والفكري

- ٥ - الدكتور كليمنت هنري دود الاتجاهات الحديثة في دراسة تاريخ الشرق الاوسط الحديث
- ١٠٢ - الدكتور مصطفى رمضان رواق الشام بالازهر ابان العصر العثماني
- ٩٩ - الدكتور ديريك هوبود المجهود التعليمي الروسي في سورية حتى عام ١٩١٤
- ١١٣ - الأستاذ سليمان موسى محب الدين الخطيب
- ١٣٣ - الدكتور أحمد عوني ماضي الملامح الأساسية لفلسفة شبلي شميل المادية
- ١٥٧ - الدكتور سامي خلف حمارنة النباتات الطبية من خلال مخطوطة الغزي
- ١٧١ - الدكتور نقولا زيادة لبنانيون درسوا بالأزهر في القرن التاسع عشر
- ١٨٩ - الدكتور مسعود ضاهر اشكاليات نظرية لدراسة التطور التاريخي للمسألة الطائفية في لبنان

## الباب الرابع - التاريخ السياسي والعلاقات الدولية

- ٢٢٩ - الدكتورة مانويلا مارين العلاقات الثقافية بين اسبانيا وسورية في القرن الثامن عشر
- ٢٤١ - الدكتور أحمد عبدالرحيم لجنة كنف كرين في سورية مصطفى

- ٢٦٥ - الدكتور محمد شافي أفغواني ردود الفعل الهندية تجاه المشكلة الفلسطينية في الثلاثينات من هذا القرن
- ٢٧٥ - الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم علاقات بلاد الشام بمصر في العهد العثماني (١٥١٧ - ١٧٩٨)
- ٢٩٣ - الدكتور علي محافظة التيارات السياسية في فلسطين في عصر النهضة (١٨٥٠ - ١٩٢٥)
- ٣٢١ - الدكتور مصطفى كريم المنافسة الامبريالية الفرنسية الانكليزية ، والاحتلال الفرنسي لسورية ولبنان «مقتبس عن المصادر الفرنسية»
- ٣٦٥ - الدكتور جهاد مجيد محيي الدين المقاومة العربية في بلاد الشام وجمال باشا (١٩١٥ - ١٩١٦)
- ٣٩٩ - الدكتور قيصر فرح أثر التحالف الرباعي في الاصلاحات الادارية المقترحة لسورية
- ٤٢٣ - الدكتور عبد الجليل التميمي الأمير عبد القادر الجزائري في السنوات الاولى من اقامته بدمشق (١٨٥٥ - ١٨٦٠)
- ٤٥٧ - الدكتورة خيرية قاسمية قضية الحدود بين فلسطين ومصر (١٨٤٠ - ١٩١٧) وأثرها في جذور الصراع العربي الصهيوني - دراسة وثائقية
- ٥٠٣ - الدكتور محمد مخزوم الاتجاهات الوحدوية عند العاملين في أوائل القرن العشرين
- الدكتور عبد الله حنا تحركات العامة في دمشق وحلب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر

- ٥٥١ - الدكتور وجيه كوثراني  
مشاريع السيطرة والتجزئة في بلاد الشام من خلال أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية ( ١٩١٥ - ١٩٢٠ )
- ٥٩٥ - الدكتور أحمد كوران  
ساطع الحصري المثقف العثماني
- ٦٠١ - الدكتور فريتز شتبيات  
تفغل المفاهيم السياسية الاجتماعية الزمنية في القرن التاسع عشر اسهام في دراسة الوعي السياسي في بلاد الشام
- ٦١٧ - الدكتور تاج السر أحمد حران  
دور السوريين في ظهور الحركة القومية العربية وتطورها ( ١٩٠٨ - ١٩١٤ )
- ٦٣٩ - الدكتور عبد العزيز بن عبد الله  
العلاقات بين بلاد الشام والمغرب
- ٦٤٥ - الدكتور أحمد طربين  
الحياة العلمية في بلاد الشام في القرن الثالث عشر الهجري من خلال حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر للشيخ عبد الرزاق البيطار
- ٦٨٩ - المشاركون في المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام

١٥٥٦٨

الحرم ١٤٠٠ هـ - كانون الاول ١٩٧٩ م